كولن ولسن

الإنسانُ وقواه الخفية

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول إلى ما وراء الحاضر

ترجمة سامي خشبه



دار الآداب ـ بيروت

الانسان وقواه الخفية

اهداءات ٢٠٠١

أ.صلاح راتب

القاهرة

كولن ولسن

الانسان وقواه الخفية

ترجمـة

سامي خشبة

دار الآداب - بيروت

عنـوان الكتاب الاصلي

THE OCCULT

By

Colin Wilson

الطبعة الثانية
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨

مقدمة

قضية هذا الكتاب قضية ثورية ، ولا بد لي ان اقررها بوضوح في البداية.

لقد آمن الانسان البدائي بأن العالم كان مليئاً بقوى غير منظورة : الاورندا The Orenda (قوة الروح) عند الهنود الامريكيين ، او الهواكا The Huaca عند اهل بيرو القدماء . وقال « عصر العقل » ان تلك القوى لم يكن لها وجود قط الا في خيال الانسان ، وانه ليس سوى العقل وحده ما يستطيع ان يطلع الانسان على حقيقة الكون . وكانت المشكلة هي ان الانسان قد اصبح قزما مفكرا ، وكان عالم العقليين مكانا يشيع فيه ضوء النهار ، حيث كان الضجر والتفاهة و« العادية » هي الحقائق النهائية والمطلقة .

ولكن المشكلة الرئيسية بالنسبة للكائنات الانسانية هي ميلهم الى ان يقعوا في شرك : « تفاهة الاشياء اليومية » ، اذا ما استعرنا عبارة هايدجر (1) في عالم

---

(1) هايدجر ، مارتن (١٨٨٩–١٩٧٧) احدمؤسسي الفلسفة الوجودية الالمانية وتلميذ ومساعدادموند هوسرل ، مؤسس المنهج الفينومينولوجي (الظاهراتي) الحديث . اشتغل استاذا للفلسفة بجامعتي ماربورج وفريبورج (١٩٣٣) حيث اعلن قبوله لافكار الحزب النازي . وقد تاثر به الوجوديون الفرنسيون : سارتر ومارلو بونتي ، اساسا . والمقولة المحورية لفلسفة هايدجر هي مقولة« الزوال» او « التمحور الدائم » التي قال انها مساوية لعواطف البشر الداخلية . واعتبر الحالة النفسية ، او « الهوى » مبدأ اساسيا لتلك العواطف ، ووصفها بانها شكل تلقائي وغير متطور من الوعي . ونظر هايدجر الى القلق والخوف اشكالا اولية للشخصية الانسانية . ويتكون من تلك الاشكال، الوجود الذاتي للانسان ،الذي اسماه هايدجر : « الكينونة في العالم » . وهذا هو السبب الذي يجعل قانون الاشكال الاولية قانونا للوجود او الكينونة ذاتها . ولكي يكتشف الانسان « معنى الكينونة » فان عليه ان يتخلص من الاهداف العملية وان يكون واعيا بقابليته للفناء ، وبضعفه الشديد . ومن خلال احساس الانسان بانه يقف على الدوام « وجها لوجه مع الموت » فانه سيتمكن من ادراك اهمية واكتمال كل لحظة من الحياة ، فيتخلص من « اوثان الوجود الاجتماعي » ، من نوع الاهداف العملية والمثل العليا والتجريدات العلمية . (هـ . م .)

مشاغلهم الشخصية الخانق . وفي كل مرة من مرات وقوعهم في هذا الشرك ، فانهم ينسون العالم الشاسع الهائل ذا المغزى الاكثر اتساعا الذي يترامى من حولهم . ولما كان الانسان بحاجة الى احساس بالمعنى لكي ينفس عن طاقاته المخبوءة ، فان هذا النسيان يجذبه ـ او يدفعه ـ الى اغوار عميقة من الانقباض والضجر ، وهو الاحساس بأن شيئا لا يستحق ان يبذل من اجله اي جهد .

وبمعنى ما ، فان الهنود الامريكيين واهل بيرو كانوا أقرب الى الحقيقة من الانسان الحديث ، ذلك لان حدسهم لـ « القوى غير المنظورة » جعلهم متفتحين لتلقي مظاهر وتجليات المعنى التي تحيط بنا .

من الممكن ان ننظر الى « فاوست » لجوته باعتبارها اعظم دراما رمزية ابدعها الغرب ، طالما انها دراما الانسان العقلي الذي يختنق في غرفة وعيه الشخصي التي تعلوها الاتربة ، واقعا متخبطا في دائرة الضجر والعقم المفرغة التي تؤدي بدورها الى مزيد من الضجر والعقم . ان اشتياق فاوست الى معرفة « الغيب » هو الرغبة الغريزية في الايمان بالقوى غير المنظورة ، وبالمغزى الاكثر اتساعا ، الذي يستطيع ان يكسر تلك الدائرة فيضع نهايتها .

ان ما يثير الاهتمام هو ان الانسان الغربي قد طوّر العلم والفلسفة بسبب هذه الرغبة المتلهفة الحارقة الساعية الى المغزى الاكثر اتساعا . ولم يكن تفكيره العقلي هو ما خانه ، وانما كان عجزه عن التفكير بوضوح هو الخائن ، اي ان يفهم ان العقل الصحيح لا بدّ له ان يستخلص من العالم « زادا » من المعنى اذا كان له ان يستمر في الحصول على « نتيجة » من المجهود الحيوي . وكان الخطا القاتل هو فشل العلماء والعقليين في المحافظة على تفتح عقولهم للاحساس بالـ « هواكا » ، اي بالقوى غير المنظورة . لقد حاولوا ان يقيسوا الحياة بمسطرة طولها ست بوصات ، وان يزنوها بصنجات المطبخ . ولم يكن هذا علما ، وانما كان فجاجة لا تزيد اكثر من درجة واحدة على فجاجة المتوحشين ، وقد سخر سويفت منها في قصته « رحلة الى لابوتا » (1).

يعيش الانسان بأن « ياكل » المغزى مثلما ياكل الطفل الطعام . وكلما ازداد

---

(1) « رحلة الى لابوتا » : الرحلة الثالثة من « رحلات جاليفر » التي ابدعها جوناثان سويفت (١٧٢٦) لكي ينتقد من خلالها اوضاع وشخصيات واسس مجتمع البورجوازيين المتسلقين محدثي النعمة الجدد في عصر سويفت ، الذي كان من اكبر الكتاب المحافظين في انجلترا بالنصف الاول من القرن الثامن عشر . في بلاد « لابوتا » الخرافية ، يكتشف جاليفر امبراطورية غامضة ، تحكمها طبقة من المتحذلقين الجهلة ، مدعي العلم والتفلسف ، يعيشون في اوهام عن مشروعات جبارة ، ولكنها حمقاء مستحيلة التحقيق . (هـ . م .)

عمق احساسه بالدهشة ، كلما ازداد اتساع فضوله وتطلعه الى المعرفة والفهم، وازدادت قوة حيويته ، وازدادت قوة قبضته على وجوده الخاص .

هناك طريقان يستطيع عليهما ان ينطلق ويمتد : الى الداخل ، والى الخارج . انني اذا كنت في بلد اجنبي وانتابتني رغبة قوية في اكتشافه اكتشافا شاملا وعميقا ، وان ازور ابعد اماكنه ، فان هذا هو المثال النموذجي للامتداد نحو الخارج . ولن يكون من غير الصحيح ان نقول ان حب الكتب والموسيقى والفن هو نموذج الرغبة في الامتداد نحو الداخل . ولكنه ليس سوى نصف هذا النوع من الامتداد . لان ما يحدث اذا ما اصبحت فجاة مفتونا ببلد اجنبي هو ان اشعر بنفسي كما لو كنت عنكبوتا كامنا في مركز نسيجه . انني اشعر بكل انواع « المغزى » التي تهتز على طول النسيج ، فاريد ان امد اطرافي فاجتذبها جميعا . ولكن نفس الشيء هو ما يحدث في حالات السكينة الداخلية العميقة . حينذاك اشعر بمساحات داخلية شاسعة ، وبأنواع غريبة من المغزى في«داخلي» . فلا اعود كائنا انسانيا ضئيلا تافها من القرن العشرين ، واقعا في شرك عابس حياته وشخصيته . مرة اخرى اكون في مركز نسيج العنكبوت ، شاعرا باهتزازات المعنى . وفجاة اتبين في اعمق المعاني ان اولئك الهنود الامريكيين واهالي بيرو كانوا على حق . انني اصبح مثل شجرة ادركت فجاة ان جذورها تفور عميقا ، عميقا في باطن الارض . وفي هذه اللحظة الحاضرة من التطور ، تمضي جذوري الى عمق ابعد بكثير مما تمتد فروعي من فوقها ـ انها ابعد واعمق منها بألف ضعف .

وما يسمى بالقوى السحرية ، انما هو جزء من هذا العالم الكامن الخفي . قدرات الحاسة السادسة او البصيرة الثانية ، والرؤية المسبقة ، والتواصل عن بعد ، والتنبؤ . وليست هذه القدرات هامة بالضرورة لتطورنا . ان اكثر الحيوانات تمتلكها ، وما كان لنا ان نسمح لها بان تفرق فتختفي وراء ستار اهمال استخدامها لو انها كانت قدرات اساسية . ولكن معرفة الانسان بجذوره، بعالمه الداخلي ،« هامة » بالنسبة له بالفعل في هذه النقطة من تطوره ، لانه وقع في شرك تخيله عن نفسه باعتباره قزما مفكرا . لا بد له بشكل ما ان يعود الى معرفة انه ،بحق وعن مقدرة ، « ساحر » خارق القدرة ، واحد من تلك الشخصيات السحرية التي تستطيع ان ترسل صواعق البرق او تأمر الارواح فتنقاد لها . وقد كان الفنانون والشعراء العظام مدركين لهذا على الدوام . ان الرسالة التي تحملها سيمفونيات بيتهوفن ، يمكن ان تلخص في عبارتين :« ليس الانسان ضئيلا ، انما هو كسول الى حد لعين » .

*

لا تستطيع الحضارة ان تتقدم الى ابعد مما وصلت اليه حتى يسلم الناس بقوى الغيب غير المنظورة تسليما بديهيا على نفس مستوى تسليمهم بالطاقة الذرية . ولست اعني بهذا انه ينبغي على العلماء ان ينفقوا اماسيهم أمام لوحة تحضير الارواح ، او انه ينبغي على كل جامعة ان تقيم « قسما للعلوم الروحية » على النمط الذي وضعه « معهد الراين » في مدينة ديوك . وانما اعني ان علينا ان نتعلم كيف نمتد نحو الداخل حتى نستطيع بشكل ما ان نعيد اقامة الاحساس بالهواكا ، حتى نصل الى اعادة خلق الاحساس بـ « القوى غير المنظورة » التي كانت معروفة وعادية بالنسبة للانسان البدائي . « لا بدّ » لهذه المهمة من ان تنجز بشكل ما . هناك جوانب مما يدعى بغير الطبيعي ينبغي علينا أن نتعلم كيف نسلم بها دون نقاش ، وكيف نعيش معها بنفس البساطة التي عاش بها اسلافنا معها . يقول بليك : « ان مدركات الانسان ليست مقيدة بأعضاء الادراك » فهو يدرك اكثر مما تستطيع حواسه ان تكتشف (رغم ان ما يدركه يكون بالغ الدقة) » . انه « يعرف » اشياء لم يكن قد تعلمها أو علم عنها شيئا من خلال المدرسة او التجربة اليومية ، وفي بعض الاحيان يكون من المريح اكثر الا يعرف تلك الاشياء . ويحكي اوزبيرت سيتويل (1) حكاية غريبة عن قارئة كف :

« كان كل زملائي الضباط الذين يماثلونني سنا ، قد ذهبوا قبل شهرين او ثلاثة في هذا العام لرؤية قارئة كف شهيرة ، قيل عنها فيما اذكر ان مستر ونستون تشيرشل اعتاد ان يستشيرها في بعض الاحيان . وقد اعتاد اصدقائي على زيارتها بالطبع آملين ان يقال لهم ان قصص حبهم سوف تنجح ، ومتى سوف يتزوجون ، والاتجاه الذي سوف تتطور فيه حياة كل منهم العملية المقبلة . ويحدث في كل مرة ، ان العرافة ما تكاد تبدأ في قراءة حظوظهم ومستقبلهم ، حتى تطوح بالكف الممدودة اليها في انزعاج مفاجيء وهي تصيح : « لا افهمها ! انه نفس الشيء مرة اخرى! فبعد شهرين او ثلاثة ، ينقطع خط الحياة ، ثم لا يمكنني ان اقرأ شيئا .. » . وكانت هذه العبارات تبدو لكل شخص قيلت له مجرد عذر ارتجلته العرافة لكي تبرر فشلها : ولكن حينما حكى لي هذه القصة اربعة او خمسة اشخاص ، تساءلت عما كان يمكن ان تنذر او تنبيء به .. » (*)

وكانت هذه القصة تنبيء باندلاع الحرب العالمية الاولى ، وكانت تنبىء بموت

---

(1) اوزبيرت ، سيتويل : كاتب روائي ودرامي وشاعر تهكمي من النبلاء في انجلترا النصف الاول من هذا القرن . اشتهر بترجمته الذاتية : « اليد اليسرى واليد اليمنى » عام ١٩٤٥ ، والجزء الثاني منها بعنوان : « الشجرة القرمزية » في العام التالي . شقيق الشاعرة المشهورة اديث سيتويل ، والشاعر الفنائي والناقد التشكيلي ساكفريل سيتويل . (هـ.م)

(*) صباح عظيم (لندن ، ماكميلان ، ١٩٤٨) ص ٢٦٥ .

الرفاق الضباط الذين كانت حظوظ الحياة في ايديهم تنقطع بعد ثلاثة شهور من استشارة قارئة الكف .

من المحتمل ان يكون عدد القراء الذين قد يصرفون الانظار عن هذه القصة باعتبارها من وحي الخيال او كذبة صريحة عددا ضئيلا جدا . وقد يشعر عدد اكبر بانها تحتوي على قدر من الحقيقة ، ولكنها تعرضت لشيء من المبالغة . اما غالبية الناس فقد يقبلونها على انها حقيقية بقدر ما ، وان كانت غريبة شاذة .. ولكنها ليست بالغة الاهمية ، وهم على الاقل ، لا يعتزمون التفكير فيها . ونحن ميالون الى الركون الى هذه الاستجابة متى ما واجهنا « الغريب الشاذ » : بأن ندفعه الى قسم مستقل ومغلق من العقل ، يحمل لافتة تقول : « الاستثناءات » ، ثم نتركه للنسيان . وقد سمعت ان ابراهام لينكولن ، كانت تنتابه الاحلام والهواجس التي تنبئه بموته قبل اسبوع من اغتياله ، وهذا شيء « غريب » وعارض ، ولكنه ايضا تاريخ قديم ، وربما كان قد تعرض للمبالغة . انني افتح « ملحقا» ملونا من ملاحق صحف يوم الاحد ، فأقرأ انه قبل اسبوع من الانفجار الذي دمر طائرة شركة الطيران البريطانية الاوروبية من طراز « كوميت » يوم الثاني عشر من اكتوبر عام ١٩٦٧ ، فان الراكب نيكوس باباتترو كانت تطارده الهواجس المشؤومة والاحلام التي تدور حول الموت والحداد ، حتى انه حاول قبل اقلاع الطائرة بساعة ان يحول تذكرته الى طائرة اخرى (**) وليس هذا تاريخا بعيدا ، ولكن ينبغي ان نذكر ان باباتترو « كان » يحمل القنبلة التي انفجرت مصادفة . لقد كان مهربا للمواد المتفجرة ، وكان قد قام بست رحلات مشابهة قبل تلك الرحلة الاخيرة في السنة نفسها . فلماذا اذن لاحقته الهواجس في تلك الرحلة بالذات ؟ اننا نهز اكتافنا ، ونوافق على ان هذه مسألة غريبة وشاذة ، ثم نروح نفكر في موضوع آخر .

اسمحوا لي ان اقول انني لا اقترح ــ بالتأكيد ــ انه ينبغي علينا ان ننفق حياتنا في الاهتمام بالاحلام والهواجس ، او لائذين بقارئي الحظوظ والراجمين بالغيب ، انها لغريزة صحية تلك التي تجعلنا نتجاهل الهواجس المشؤومة والاحلام ، ونستمر في الاهتمام بمشاغل الحياة العملية . ولكن الموقف المتصلب المتعنت ازاء مثل هذه الاشياء هو « خطأ » باكثر معاني هذه الكلمة بساطة ومنطقية . فمنذ قرنين فقط من الزمان، اعلن اكثر العلماء تمتعا بالاحترام ، انه كان من السخف ان يؤكد احد ان عمر الارض يزيد على بضعة آلاف قليلة من السنين او ان يؤكد ان وحوشا غريبة الهيئة قد هامت في غاباتها . وحينما كان بعض العاملين في المحاجر يكتشفون بعض المخلوقات البحرية المتحجرة ، او حتى

(**) ملحق جريدة « اوبزفر » ١٠ مايو ١٩٧٠ .

جمجمة حيوان من فصيلة الدينوصور ، فان الشيء المكتشف كان يفسر بانه تكوين حجري شاذ ، وانه تقليد صخري قامت به الطبيعة لاشكال تشبه اشكال الكائنات الحية على سبيل الدعابة او الاغراب . وطوال الاعوام الخمسين التالية كرس العلماء المتصلبو الرؤوس كل وقتهم وقدرتهم على الابتكار من اجل ان ينكروا بتفسيراتهم الاصول الحقيقية للحفريات والعظام التي كانت تكتشف باعداد متزايدة . وقد استطاع كوفيير ، وهو واحد من اعظم علماء الحيوان في القرن التاسع عشر ان يدمر حياة زميله لامارك (١) العملية حينما وصم نظرية لامارك في النشوء والارتقاء بانها نظرية خيالية وغير علمية ، اما معتقده هو الاكثر علمية، فكان يقول بأن كل مخلوقات ما قبل التاريخ (والتي كان وجودها قد اصبح معترفا به) قد بادت نهائيا ولحقها الدمار الشامل في سلسلة متعاقبة من الكوارث الطبيعية العالمية التي مسحت وجه الارض ونظفت البسيطة واعدتها لخلق الانسان وحيوانات العصر الحالي .

ومثل هذا النوع من التفكير والمواقف ليس هو الاستثناء في تاريخ العلم ، وانما القاعدة . ذلك ان واحدا من المعتقدات الجامدة الرئيسية للعلم ، يقول بان الرجل الذي ينكر نظرية ما ، يحتمل ان يكون اكثر « علمية » من هذا الذي يؤكدها .

وعلى الرغم من كوفيير فان افكار « النشوء والارتقاء » الخيالية قد احرزت الانتصار وسادت على غيرها من الافكار ، رغم ان الشكل الذي استطاعت ان تكون مقبولة به لدى العلماء في الغالب ، جعلها تبدو في صورة قوانين « البقاء للاصلح » الرتيبة الميكانيكية . ان البطء هو قانون التغير . وان آخر التطورات في علم الاحياء ، قد تنتهي بنا الى تغيير تصورنا عن الكون ، بقدر ما غيرت عظام الدينوصورات من تصورنا عن الارض . وتلك هي الفرضية التي يقوم عليها هذا الكتاب . فقد لا يكون بعيدا ذلك الوقت الذي سنستطيع فيه ان نقبل ظاهرة « خفية » باعتبارها ظاهرة طبيعية مثلما نقبل الآن وجود الذات .

---

(١) لامارك – جان باتيست (١٧٧٤ – ١٨٢٩) . ابرز علماء التاريخ الطبيعي قبل داروين ،واكبر دعاة التفسير التطوري لتاريخ الكائنات الحية ، والذي يخطيء الكثيرون في الظن بانه كان التمهيد لفكر داروين التطوري . قال لامارك بان الكائنات العضوية (الحية) قادرة على ان تتكيف(يجابيا) مع التغيرات التي تطرأ على بيئتها ، تكيفا يتم على شكل تحولات تدريجية في الكيان العضوي ككل ، بينما قال داروين بالعكس ، اي بان الكائنات الحية « تنتكس » وتفشل امام تغيرات البيئة، او تتجمد على حالها لتفنى ، ولا يبقى منها الا ما كان صالحا للبقاء بالصدفة . وكان لامارك هو صاحب اول تصنيف علمي كامل للعالم الحيواني . (هـ . م)

ومن اجل ان ازيد هذا التأكيد وضوحا ، ينبغي علي ان اتحدث باختصار عن علم السيبرناطيكا الجديد . فقد « اخترع » علم السيبرناطيكا الجديد في عام ١٩٤٨ ، على يد عالم الطبيعة نوربرت وينار في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا . انه علم « السيطرة » والاتصال ، في الآلات والحيوانات (وكلمة Kybermetes اليونانية تعني رجل الدفة في السفينة ، او الربان ، او الحاكم). ان الكرة الطافية في صهريج المرحاض تطبيق بسيط للسيطرة السيبرناطيكية ، فحينما يمتلىء الصهريج تقطع سدادة الكرة انسياب الماء . وبقدر ضئيل من الذكاء ، يمكنني ان اصطنع جهازا يحقق سيطرة مماثلة لاغلاق صنابير حوض الحمام حينما تصل فيه المياه الى منسوب معين ، لكي اوفر على نفسي مهمة القيام والجلوس في الحوض لاغلاق الصنابير . ولكن في العلم والصناعة ، فان العملية التي اريد السيطرة عليها قد تكون اكثر تعقيدا بدرجة مضاعفة من صنابير حوض الحمام . فقد يكون الهدف من السيطرة ــ مثلا ــ عملية كيميائية لا بد ان تتطور في اتجاهات متعددة . وفي هذه الحالة ، لا بد ان استخدم حاسبة الكترونية تنفذ « برنامجا » معينا وضع لهذا الغرض من اجل اعدادها للتعامل مع عدد كبير من المواقف ستطرا في مسار العملية . ان بطاقة حفر عليها عدد معين من الثقوب تكفي لاعطاء الحاسبة الالكترونية تعليماتها ولجعلها تتصرف مثل المراقب الذي يطمئن على سير العمل سيرا صحيحا .

ومنذ اواخر القرن التاسع عشر كان قد اصبح مفهوما ان الكائنات الحية تستمد خصائصها من خلايا دقيقة يطلق عليها اسم « الجينات genes اي « حاملات الخصائص الوراثية » يحتويها كل من السائل المنوي الذكري والبويضة الانثوية . ان اون شعري وعيني ، وحجم قدمي ، كلها امور تقررها الجينات ، ولكن لم يكن هناك من تبين الى حد اليقين الكيفية التي تقوم بها الجينات بهذا العمل . وفي منتصف الخمسينات من القرن العشرين اصبح من الواضح ان الجينات تشبه بطاقات الحاسبة الالكترونية بثقوبها المحفورة فيها . اما « الثقوب » فانها بالفعل جزيئات من مادة تدعى « د.ن.م » تترابط الواحدة منها بالاخرى على شكل لولب مزدوج ، في هيئة شيء يشبه لولبين التصق الواحد منهما بالآخر في اتجاهين متعارضين .

وكلما زاد ما نعرفه عن هذا النظام الذي يشبه نظام الحاسبة الالكترونية ، وهو النظام الذي يجعلنا على ما نحن عليه ، كلما زادت مراوغته لنا وزادت حيرتنا ازاءه . ان نظرية داروين في النشوء والتطور تفكر في عنق الزرافة وفي بدن الفيل وتفسرهما على اساس المصادفة ، تماما مثلما قد تفسر شكل صخرة اتخذت هيئة الوجه بأن تشير الى فعل الرياح والمطر . ان العلم يكره « الغائية »،

اي انه يكره فكرة « استهداف » غرض معين . ان الصخرة لم « تشأ » ان تنحت حتى تتخذ هيئة الوجه ، كما انه لم يكن من مشيئة الريح والمطر ان ينحتاها على هذه الهيئة ، انما حدث هذا ، هكذا ، وحسب . وبصورة مشابهة ، يكره علماء الاحياء (البيولوجيون) تلك الهرطقة المعروفه باسم « النزعة الحيوية » ،وهي فكرة ان الحياة بشكل ما « تريد » ان تنتج مخلوقات اكثر صحة وذكاء . انما تم انتاج مثل هذه المخلوقات لان الصحة والذكاء يصمدان للبقاء بصورة افضل من المرض والغباوة . ولكن حينما يتبين المرء ان الكائنات البشرية قد تم انتاجها بواسطة بطاقة حاسبة الكترونية شديدة التعقيد ، يصبح من الصعب عليه ان يتجنب الانزلاق الى « الغائية » والتساؤل عمن قد يكون وضع البرنامج لهذه الحاسبة الالكترونية .

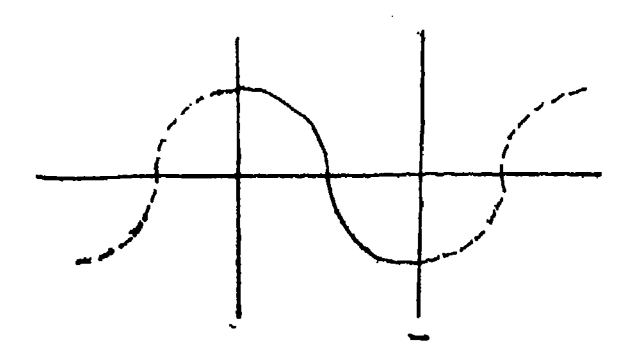
في عام ١٩٦٩ ، القى عالم من علماء السيبرناطيكا ، هو الدكتور دافيد فوستر، محاضرة في المؤتمر الدولي لعلوم السيبرناطيكا بالكلية الملكية في لندن ، ورسم صورة لبعض الدلالات الفلسفية لتلك الكشوف . اشار الى انه من وجهة نظر عالم السيبرناطيكا ، فان من الممكن ان ينظر الى الكون باعتباره مجموعة من « المعطيات » وعملية جمع واحصاء وترتيب متصاعد لهذه المعطيات . ان ثمرة البلوط ، على سبيل المثال ، يمكن اعتبارها « برنامجا » لشجرة بلوط . وحتى الذرة يمكن ان نفكر فيها باعتبارها بطاقة حاسبة الكترونية حفر فيها ثلاثة ثقوب ، على اساس ان الثقوب الثلاثة هي : (أ) عدد الجزيئات في النواة ،(ب) عدد الالكترونات التي تدور حولها ، (ج) طاقة تلك الاكترونات ، كما يعبر عنها على اساس اصغر الجزيئات المعروفة من الطاقة ، وهو الجزيء الثابت عند بلانك(١) ،

---

(١) بلانك ـ ماكس ١٨٥٨ ـ ١٩٤٧ . واحد من ابرز علماء الطبيعة الذرية ،وواضعي اسس « فلسفة العلم »في هذا العصر ، الماني المولد ، وعضو اكاديمية العلوم في برلين منذ عام ١٨٩٤ . في ديسمبر عام ١٩٠٠ ، وبينما كان بلانك يعمل على تطوير صياغة نظرية في الديناميكا الحرارية حول الاشعاع الحراري ، توصل الى ضرورة وضع تصور جديد للحركة « الكمية » في الكون ،باعتبارها حركة ثابتة ومطردة، وهي ما اصبحت تعرف بقانون : « كمية الحركة » في الرياضة الذرية . وبذلك اصبح بلانك هو واضع نظرية الكم ، التي ارست كحقيقة علمية ، لقانون لا استمرارية ولا انتظام عمليات اشعاع الطاقة ، ومدت فكرة التكوين الذري الى جميع ظواهر الطبيعة . وقد كرس بلانك العديد من كتاباته لمشاكل فلسفة العلم ، بما في ذلك المغزى الفلسفي لقانون حفظ الطاقة ، ووحدة الصورة العلمية الطبيعية للعالم ، ومنهجية البحث في الطبيعة ، وقانون السببية ،والتداخل القائم بين العلوم الطبيعية وبين الفلسفة والدين . وقد شارك في الخطوات الاولى لتفكير فنجنشتاين الفيلسوف الالماني ـ، ثم برتراندراسل في وضع ملامح « الوضعية الذرية » ، التي انقلب ضدها فيما بعد ونقدها بقوة وخاصة عندما حصل بلانك على جائزة نوبل في الطبيعة عام ١٩١٨ ، وفي عيدميلاده الثمانين اطلق اسمه على الكوكب « بلانكيانا » (هـ . م) .

يمضي الدكتور فوستر قائلا : « من المؤكـد انه يجب ان يكون واضحا ان الطبيعة الاساسية للمادة هي ان الذرات هي « ابجديـة » الكون ، وان التركيبات الكيميائية هي « الكلمات » ،وان مادة «د.ن.م » هي‌ما يكاد يكون « جملة » طويلة ، او حتى كتابا كامــلا يحاول ان يقول شيئـــا مثــل « فيـــل » او « زرافـــة » او حتـى « انســـان » .

ويمضي لكي يبرز ان وحدة البناء الاساسية في اي نظرية اعلام كهربائية هي الموجــة الكهربائيــة الواحدة ، والموجة الواحدة تتكـون من نصفين ، لانهــا تقاس بدءا من قمة « نتوء » او انحناءة ، الى قاع النتوء او الانحناءة التالية :



وهذا معناه ان الموجــة نظام ثنائي او « مزدوج » ، والحاسبات الالكترونية تعمل على اساس الرياضيات الثنائية او المزدوجة . وهذه خطوة هامة في بنــاء حجته ، لاننــا اذا فكرنــا في الموجات باعتبارهــا المفردات الاساسية للكون ، اذن فسوف يمكنك ان تفكــر في الحياة ــ وفي المادة كلهــا في الحقيقة ــ باعتبارهــا راجعة الى موجات تمت برمجتهــا بطريقــة سيبرناطيكية ما .

ان مــا يقوله يبدو بالتاكيـد شبيهــا بالغائية . انني اذا رايت عملية كيميائية معقدة ، توضع لهــا القواعـد ويتم التحكم فيهــا بواسطــة الحاسب الالكتروني، فانني سأستنتج ان شخصا ما قد وضع البرنامج لهــذا الحاسب . والدكتــور فوستر يقول ان الابنيــة المعقدة للحياة حول عالم السيبرناطيقا ، تتكشف لعينيه في صورة عمليــة جمع واحصاء المعطيات وترتيبهــا بطريقة تصاعدية على نطاق هائل . وهذه مسالة حقيقة علمية . وهــو يجد نفسه بالطبع يتساءل عن الذكــاء الذي يقوم بجمع المعطيات واحصائها وتصنيفهــا تصاعديا ؟

يخطــو الدكتور فوستر بعــد ذلك اكثر خطواته اثارة للنقاش والخلاف . فهــو يفسر موقفه بانه « كخبير في التسيير الذاتي ، حينمــا اسمم نظاما للسيطرة من اجل عمليــة ما ، فانه من البديهي ان تكــون سرعة نظام السيطرة اكبر بكثير

من سرعــة حركات العمليــة المطلوبة». فانت ، على سبيل المثال ، تستطيع انتقود سيارتك لانك تستطيع ان تفكــر بأسرع من عمل الآلة ، ولو لــم تستطع ذلــك لاصطدمت سيارتك بأي شيء فورا . ولكن في هذه الحالة ، لا بــد ان توضــع البرامج للمــادة في صورة ذبذبات ــ او موجات ــ اكثر سرعــة بكثير من ذبذبات المادة نفسها . اي في شكل اشعاعات كونية . والكون مليء بالاشعاعات الكونيــة بالطبــع . وفي راي الدكتور فوستر فانه من المحتمل ان تكــون تلك الاشعاعات هي القوة الكامنة وراء « برمجة » جزيئات مادة الـ « د.ن.م » .

ولكن ،فلنلاحظ النقطة المحورية هنا . ان الموجة التي تحمل معلومة تختلف تمامــا عن الموجــة التي لا تحمل معلومة مثلها . ان المعلومة « مفروضــة » على بنائها عن طريق الذكاء . ان النتيجــة التي يصل اليها الدكتور فوستر ــ رغم انها تقال بالحذر النموذجي للعالم تحيط بهــا هالة من المبررات والمقدمات ــ هي ان مستوى الذكاء المتضمن في بنــاء مثل تلــك الموجــة لا بد ان يكــون ارقى بكثير جدا من ذكائنا الانســاني . وهذا ايضا نــوع من الاستقراء (او الاستدلال) العلمي وليس تخميننا ميتافيزيقيا . انه يذكــر « تأثير كومبتون » في الطبيعيات ، الذي يــزاد عن طريقه طول الاشعة السينية عن طريق تركيز شديد للالكترونات ، والقاعــدة المستخلصة من هذا القانــون هي انك تستطيع ان تصنع ضوءا أحمر من ضــوء ازرق . « فالضوء الازرق الاسرع ذبذبة يضع برنامجــا للضــوء الاحمــر ، وليس العكس » .

ان ما يقوله الدكتور فوستر لا يختلف اختلافا جوهريا عن حجة « الساعة » التي قال بهــا بالي Paley ان « بالي » اللاهوتي قد قال انه حينما ينظر الى كيف تعمل ساعته ، فانه يتبيــن انها تدل على صانع ذكي ، وان الانسان ــ رغــم كل شيء ــ اكثر تعقيدا من اي « ساعة » في الوجود . ومع ذلك فان الدكتــور فوستر ــ اذا كنت قد فهمته فهمــا صائبا ــ لا يحاول ان يُدخل الله من البــاب الخلفي . انه اقل اهتمامــا بالنظريات التي تدور حول من يضع البرامج منــه بالحقيقة التي توضح ان « ثمــة » عمليــة برمجة تتخلل الطبيعة بأسرها ، انه مهتم بالسؤال الذي يبحث عن الكيفية التي تحمل بهــا المعلومات الى مادة الـ «د.ن.م» وان « الاشعة الكونية » تتقدم باعتبارهــا فرضية معقولة للاجابة على هذا السؤال. وهو يقول : « يقيم المرء صورة جديــدة للكــون باعتباره كونــا مرقمــا او كون معلومات ، ولكــن بسبب المؤثرات السيبرناطيكية العاملة فيه ، فانني اظــن انني افضل ان ادعــوه : الكون الذكي » .

انه لما يثير الاهتمام ان الدكتور فوستر لا يصل الى هذا الكون الذكي منخلال البدء بفكرة الغايــة او الله ، مثلمــا يفعل المفكرون الدينيون ، وانما يصل اليــه

ببساطة ، عن طريق الاهتمام بالحقائق التي نعرفها الآن عن طريق البرمجة السيبرناطيكية للمادة الحية . ومن خلال هذا الاهتمام تبرز صورة للكون تتلاءم مع نظريات العلماء وعلماء النفس الآخرين خلال السنوات العشرين الماضية: تيار دي شاردان ، وسير جوليان هكسلي ، س . هـ . وادينجتون ، ابراهام ماسلو ، فيكتور فرانكل ، ميشيل بولاني ، نودام تشومسكي . ان ما يشترك فيه كل هؤلاء الرجال هو مقاومة « النزعة التصفيرية » التي اعني بها محاولة تفسير الانسان والكون عن طريق قوانين الطبيعة او سلوك فئران المعامل . على سبيل المثال ، يكتب عالم النفس ابراهام ماسلو قائلا : « يتمتع الانسان بـ « طبيعة اسمى» مما احتوته غرائزه باعتباره طبيعته الادنى ، الحيوانية .. » . اما نظرية الدكتور فوستر عن « الكون المرقم » فقد تكون اكثر جسارة من النزعة النشوئية عند هكسلي ووادينجتون ، ولكن الروح متشابهة بصورة جوهرية ، ليس من تناقض بينهما .

كل هذا يعني انه لاول مرة في التاريخ الغربي يستطيع كتاب عن « الغيب ومعرفته » ان يكون شيئا اكثر من مجموعة من الخوارق والاقوال السخيفة المجردة من المعنى . ان الدين والنزعة الصوفية والسحر ، تنبع كلها من نفس «الاحساس» الاساسي ازاء الكون : احساس مفاجيء بـ « المعنى » الذي يستطيع الناس احيانا ان « يلتقطوه » مصادفة ، مثلما قد يلتقط مذياعك محطة مجهولة دون قصد . والشعراء يشعرون بانا مفصولون عن المعنى بحائط سميك من الرصاص ، واننا احيانا ، ودون سبب ،نستطيع ان ندرك ان الحائط يبدو وكأنه قد اختفى واننا فجأة مغمورون بالمغزى اللانهائي للاشياء . ان ايفان كارامازوف ، في احدى روايات دستويفسكي ، يحكي قصة عن ملحد لم يكن يؤمن بالحياة بعد الموت ، وبعد ان مات ، حكم الله عليه بأن يسير الف مليون من الاميال على قدميه عقابا له، ويرقد الملحد على الطريق رافضا ان يسير مليونا من السنوات ، ومع ذلك ، فانه بعد قليل قام فجر نفسه ، وتحامل على قدميه وسار المليار من الاميال على مضض . وحينما سمح له اخيرا بان يدخل الفردوس ، اعلن على الفور ان خمس دقائق يقضيها في الفردوس كانت تستحق ان يسير عشرة اضعاف ما ساره بالفعل . يضع دوستويفسكي يديه على هذا الاحساس الصوفي بمعنى يبلغ من الحدة درجة تجعله يفوق او يتجاوز اي شيء نستطيع ان ندركه ويستطيع ان يجعل « اي » مجهود نبذله يستحق العناء ويكتسب القيمة . انه الاحساس بالمعنى الذي يدفع الانسان الى ان يبذل الجهود اللازمة من اجل الارتقاء . انه حينما يؤمن بأن ضجره وتشاؤمه يدلانه على حقيقة الكون فانه يرفض ان يبذل اي مجهود. اما اذا استطاع ــ مثل الخاطيء الذي حكى عنه ايفان ــ ان يلمح « المعنى » لمحة

مفاجئة ، فانه جدير بأن يصبح منيعـا على القتل لا يمكن قهره ، ويمكن ان يكـون سير مليار من الاميـال مجرد نكتة .

اذن فقد اتفق العلم الغربي دائماً على ان هناك الكثير الذي عليه ان يكتشفه في الكون ــ ولكنه بصورة جوهريـة كـون ميت وميكانيكي . ويمكنك ان تقـول ان العالم ليس سوى باحث مجيد عن الحـوادث العارضـة . والباحـث عـن الحوادث العارضة ، هو نفسه نتاج حادثة عارضة ، ولكن الانسان يحركه المعنـى الى درجـة اعمق بكثير مما تحركه الحوادث . لقد وجد عالـم الكهوف القديمة ، الفرنسي نوربرت كاستيريت ان الكهوف السفلية في مونتسبان الجديرة بان تكتشف مثيرة للاهتمـام ، ولكـن هذا الاهتمـام لـم يكـن شيئا يذكـر بالنسبة لما شعر به من الاثارة حينمـا وجد ان جدران الكهوف كانت تغطيها رسوم الاسود والجياد ، فتبين انـه قد عثر بالصدفة على فن انسان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ . ان اكتشاف نتاج الذكاء لاكثر اثارة على الـدوام مـن اكتشاف نتاج الحادثـة العارضـة .

فلو ان دافيد فوستر على صواب ، او حتى لو ان رايه هو نصف الصواب ، فانهـا البدايـة لعصر جديد في المعرفة الانسانية ، ذلك ان العلم سوف يكف عن ان يكـون بحثا عـن حادثة عارضـة لكي يصبح بحثا عن معنى . انه يكتب قائـلا : « ان الكون بصورة كليـة بناء متكامل من الموجات والذبذبات ، مضمونها الداخلي هو « المعنى » .. معترفا في الوقت نفسه بأن ادواتنا ما تزال غليظة الى درجـة تمنعنـا من ان نحل شفرة المعاني التي تحملهـا الذبذبات عالية التردد . ولكن ان نؤمن بأن المعنى موجود هنـاك ، وانه من الممكـن حل شفرته ، فان هـذا يمثـل خطوة هائلـة الى الامام ، تكـاد تساوي اللمحـة الخاطفـة التي القاهـا الملحد علـى الفـردوس .

وبسبب اهدافنا القريبة ، فان هذا الايمان ، يمدنا ايضـا بصورة للكـون تفسح مكانا لـ « الظواهر الخفية » مثلمـا تفسح مكانا للطبيعيات الذرية . فـي الماضي كانت المشكلـة دائمـا هي ايـن نرسم الخط الفاصل بين نوعين من هـذه الظواهر . فاذا كـان بوسعك ان تقبل الاتصال العقلي عـن بعد « telepathy » والاحاسيس او الاحداث المنبئة بالمستقبل ، فلمـاذا لا تقبـل التنجيم وقراءة الحظ او المسوخين الى ذئاب متوحشة ومصاصي الدماء والاشباح والساحرات يطلقن التعزيمـات اللعينـة ؟ لانك اذا كنت تزمع ان تناقض المنطـق العلمـي ، فيمكنك اذن ان تأخذ سعدا بسعيد او ان تلقى جزاء اللص لسرقـة عنزة مثلمـا تلقاه لسرقـة حمل ، فانظر كم من الاشياء المستحيلة يمكنك ان تؤمن بها قبل ان تتناول طعـام الافطـار .

ومن الجانب الآخر ، فان نظريـة الدكتور فوستر تتفق مع انواع الحدس لدى الشعراء والمتصوفة والمؤمنين بالظواهر الخفية : تتفق على ان ثمـة « معاني » تطفو حولنا ، انقطعت الصلة بيننا وبينهـا بصورة طبيعية بسبب العادة ، والجهل وعتامة الحواس او بلادتها . ان مـا يدعى بالموروثات الخفية ، قد لا تكون اكثر من خرافات متوحشين جهلة ، ولكنهـا يمكـن ايضـا ان تكون محاولة لتفسيرواحدة من تلك النظرات الخاطفـة كاللمحة ، تلقى بالصدفة على المعنى الـذي يصل الـى اعماق ابعد من التوافه اليومية ، في اللحظة التي يلتقط فيهـا جهاز المذيـاع الانساني ذبذبات غير معروفة . وعلى اي حال فان كلمة« الغيب » تعني«المجهول»» الخفي . او ربمـا لم تكـن تلـك النظرات الخاطفة عارضة ولم تحدث بالصدفة ، ربمـا كـان « الكـون » الذكي يحاول ان يتصل بنا ، ان يتواصل معنا .

ولكن سواء كنا نريـد ان نمضي الى هذا المدى ام لا نريد ذلـك ، فان هنـاك احساسا بالحرية في كوننا قادريـن على ان نقبل ان الكون مليء بالمعنى الـذي نستطيع ان ندركه لو اننـا تحمسنا لذلك وبذلنا من اجله ما يتطلبه من جهـد . ويعبر برتراند راسل عن الاحساس نفسه في كتابـه « تطـور فلسفتي » حينمـا يروي كيف وصل الى رفض الفكرة الكانطيـة القائلـة بانه ليست هناك « حقيقة » في العالم الخارجي ، خارج ذات الانسان : « باحساس بالهرب من سجن ضيق ، سمحنـا لانفسنـا بان نظـن ان الحشائش خضراء ، وان الشمس والنجوم سـوف تكون موجودة اذا لم يكـن هناك من يشعـر بهـا او يحس بوجودها ، وسمحنـا لانفسنا ايضـا بان نظـن ان ثمـة عالمـا لانهائي الزمـن ، متعددا ، مـن المثـل الافلاطـونيـة .. »

لا بد للانسان ان يؤمن بالحقائق الواقعـة خارج ضآلته هو الخاصة ، خـارج « تفاهتـه اليومية » اذا كان له ان ينجز اي شيء له قيمة او يستحق الانجاز .

ويصل بي هذا الى واحدة من القضايا المحورية لهذا الكتاب . فمنـذ عـام ١٨٨٧ ، اشار ماكس موللر ، محرر كتاب : « كتب الشرق المقدسة » ، اشار الـى انـه (*) بسبب كل الدلائل الممكنة ، فان اسلافنا منذ الفين من الاعوام ، كادوا ان يكونوا مصابين بعمى الالوان ، مثل معظم الحيوانات الآن . « لم يعرف اكسونوفون سوى ثلاثة من الوان قوس قزح ، ولم يعرف ديموقريطوس سوى اربعـة الوان منها ـ الاسود والابيض والاحمر والاصفر . » ومـن الواضح ان هومير قد ظن ان للبحر لون النبيذ . وليس هناك كلمات تدل على الالوان فـي حـديث الشعـوب

(*) علم التفكير (نيويورك ، سكريبنرز) المجلـد الاول ص ٢٩٩ . واقتبسها . م بيـوك في «الوعي الكوني» ، (نيويورك ـ ١٩٠١) ص ٢٨ .

الهندو اوروبية . ويمكننا اذن ان ندرك السبب الذي دفع الاسكندر المقدوني تلميذ ارسطو ، الى ان ينفق حياته في غزو العالم . فلا بد انه كان عالما واحد اللون كئيبا ، لا تمييز فيه بين حمرة النبيذ وزرقة البحر الخضراء ، وخضرة الحشائش الزمردية ، وزرقة السماء العميقة . بل ان السبب في مثل هذا العمل مفهوم من الناحية البيولوجية . كانت الحياة قاسية وحشية عنيفة ، ولم تكن للقدرة على ادراك الفروق الحاسمة بين الافكار والالوان من قيمة تفيد في البقاء على قيد الحياة . وقد كان الاسكندر خلاقا مليئا بالحيوية ، فاي شيء اذن كان امامه ان يفعله سوى ان يغزو العالم، ثم يبكي حينما لا يبقى امامه ما يمكن غزوه ؟

ولكن القدرة على الاستمتاع ب « الذبذبات الحاسمة » تمثل جانبا هاما من متنفساتنا الحيوية . ان رجلا لا يستطيع ان يقرأ ، سوف يقضي وقتا بالغ الكآبة حينما يضطر الى ان يقبع في المستشفى بعد جراحة خطيرة ، بينما قد يجد الرجل الذي يحب القراءة ان الكسل لذيذ وممتع : ان الضجر هو الافتقار الى القدرة على تسجيل الذبذبات الحاسمة . وتعريف الكيان العضوي الحي هو انه كيان عضوي قادر على الاستجابة لذبذبات الطاقة . وهذه الذبذبات تكون « المعاني » . فسواء كنت مسترخيا امام نار المدفأة ، او استمتع بكأس من النبيذ ، او انفعل بسماع سيمفونية ، او اشم رائحة الحشائش المقطوعة وانا اجزّها في الحديقة ، فانني اتلقى في كل حالة « معاني » واسجل ذبذبات . ليس الفارق الهام بين الرجل وكلبه فحسب هو ان الكلب مصاب بعمى الالوان ، وانما الفارق الهام بينهما هو ان للرجل مجالا اوسع بكثير للاستجابة فيما يكاد يكون كل ميدان .

كلما ازداد رقي شكل الحياة ، ازداد عمق قدرتها على تسجيل المعنى ، وازدادت قوة قبضتها على الحياة . كان المعنى بالنسبة للاسكندر مرتبطا بالغزو ، وحينما بلغ الحد الاقصى للغزو ، كان ايضا قد بلغ الحد الاقصى لطاقته . كان قد غزا العالم وهو في الواحدة والثلاثين . ومات في الثالثة والثلاثين .

والارتقاء ببساطة هو القدرة على تلقي وتسجيل المعاني الموجودة بالفعل . ان الازرق والاخضر قد وجدا ،حتى وان لم يكن اكسونوفون قد استطاع ان يميز بينهما . ونحن نرتقي على الدوام في قلب عالم يصبح على الدوام اكثر فتنة وسحرا كلما تعلمنا ان نتلقى وان نسجل ذبذبات جديدة . ولا شك ان البشرية، بعد الف سنة اخرى، سوف ترى كونا تتيه فيه الابصار ، يتلألأ باثني عشر لونا لا وجود لها بالنسبة لنا .

اذن ، فلا بد ان يكون واضحا ان زيادة في « حدة الذهن » انما هي ارتقاء « نحو الداخل » . ان عامل اصلاح الساعات في فترة التمرين ، يبدأ باصلاح

الساعات الدقاقة الكبيرة ، ثم يتدرج ببطء حتى يصل الى ادق الساعات واصفرها . انه يطور نوعا متزايدا من السكينة والتركيز ، وهذه ميزات « داخلية » .

لقد بلغ الانسان نقطة في ارتقائه اصبح عليه فيها ان يرتقى من الساعات الدقاقة الكبيرة الى الساعات الصغيرة ، من الكبير الى الدقيق . لا بد له ان يلتفت الى الداخل بصورة متزايدة . وهذا يعني ان عليه ان يلتفت الى المستويات الخفية من وجوده ، الى « الخفي » ، الى المعاني والذبذبات التي كانت حتى الآن اكثر دقة من ان يقبض عليها بيديه او ان يدركها بعقله .

*

لقد قسمت هذا الكتاب الى ثلاثة اجزاء . ورغم انني كنت انوي اصلا ان اعطيه شكل التاريخ ، فانني شعرت انه يحتاج الى قسم تمهيدي طويل ـ قسم استطيع فيه ان اقرر انشغالاتي السابقة وما اقتنع به . لقد قلت ان ثمة علاقة بين القدرة على الخلق وبين الحساسية النفسية psychic . فالشخص الخلاق يهتم بمعالجة قدرات العقل غير الواعي ، وهو في قيامه بهذا ، قد يصبح مدركا لوجود قوى لا تكون ـ عادة ـ في متناول الوعي . وهذا هو السبب الذي دفعني الى تضمين هذا القسم مناقشات حول « الكتاب الصيني للتغيرات « Ching » وحول اوراق اللعب من نوع « التاروت » .

اما القسم الثاني فهو التاريخ الذي كنت قد بدات اكتبه . كان يمكنني ان اختار اما تاريخا للسحر بوجه عام ، او تاريخا للافراد من اصحاب القدرات الخارقة والقادرين ، مع الخلفية التاريخية اللازمة لربط الواحد منهم بالآخر . وقد اخترت الطريق الاخير .

اما القسم الثالث من الكتاب فقد اهتم بالموضوعات التي لم يكن لدي ما يكفي من الوقت الا لمسها من بعيد في القسم الثاني : السحر ، والمسخ الى صورة الذئب ونزعة مص الدماء ، وتاريخ النزعة الروحانية ومشكلة الاشباح والارواح الشريرة . اما الفصل الاخير من الكتاب « لمحات » فيعود الى موضوعات هذا التمهيد : المسائل الميتافيزيقية التي تثور من خلال النزعة الغيبية ، مشكلة الزمن، وطبيعة « قدرات الانسان الخفية المستترة » .

هذا كتاب كبير ، وهو تاريخ شامل بقدر ما يمكنني ان اجعله شاملا . ولكن سرعان ما اصبح واضحا لي انه كان من الاساسي ان يصبح اعرابا شخصيا عن اقتناع بشيء معين اكثر من ان يكون دائرة معارف . هناك دوائر معارف جيدة

تبرز من بينها بوجه خاص « دائرة معارف العلوم الغيبية » التي الفها لويس سبنس ، وهناك ايضا « دائرة معارف علوم الخوارق غير الطبيعية » ، وهناك الكتاب الطموح الواسع المجال : « الانسان والخرافة والسحر » ؛ الذي لم يكن — في لحظة ذهاب هذا الكتاب الى المطبعة — قد بلغ سوى المجلد الثاني من سبعة مجلدات . ولكن الامر الذي يمكن ان يؤخذ على تلك الكتب هو انها تميل الى ان تكون تكويما للمعلومات التي لا شيء يربط بينها . وقد وقعت كتب المرحوم تشارلز فورت في الخطأ نفسه . لقد انفق حياته في جمع التقارير الصحفية عن احداث غريبة ولا يمكن تفسيرها من اجل ان يزعج العلماء ويبث في عقولهم القلق؛ ثم فشل في ان يصرف انظار احد عما بين يديه لكي يشغله بما جمعه باستثناء المعجبين به ، لانه لم يفعل اكثر من انه القى في وجوه الناس بجبل هائل من المعلومات والحقائق مثل كومة من خشب الوقود آملا ان تقوم هذه الحقائق وحدها باقناع الناس . ولكن الحقائق لا تفعل هذا . وربما كنت — في هذا الكتاب — قد اسرفت في النقاش،ولكن هذا السبيل لاح لي اسلم السبيلين .

في فصل من الفصول الاولى ، اتحدث عن المصادفات ، ومن المؤكد انه كان هناك ما يكفي من المصادفات في تأليف هذا الكتاب . فذات مرة ، بينما كنت ابحث عن معلومة محددة ،سقط كتاب من فوق احد الرفوف وانفتح على الصفحة المطلوبة . وكانت شذرات من بعض المعلومات المطلوبة تصلني او تظهر لي في طواعية كانت تستفز اعصابي احيانا . واعتدت على هذا بعد فترة من الزمن بل بدأت اشعر بنوع من الاستياء الخفيف حينما تروغ مني معلومة لمدة عشر دقائق او نحوها . الامر الذي يبدو انه يوضح ما ارمي اليه من انه اذا ما تدخلت الظواهر والدوافع والقوىغير الطبيعية بشكل اكثر من اللازم في الوجود الانساني، فان ذلك قد ينتهي باعتيادنا الكسل .

وفي اثناء البحث وتأليف هذا الكتاب ، تغير موقفي انا الخاص من الموضوع. ورغم انني كنت اشعر دائما بشيء من الفضول ازاء « الغيب الخفي » وسبل معرفته — حتى اصبح لدي اكثر من خمسمائة مجلد تبحث كلها في السحر وفي الظواهر والقوى والدوافع غير الطبيعية — فان « الغيب ومعرفته » لم يكونا ابدا من بين اهتماماتي الرئيسية ، مثل الفلسفة او العلم او حتى الموسيقى . وبينما لم أكن شكاكا بصورة كاملة ابدا ، فقد شعرت بان اكثر الناس مهتمون بالدوافع والقوى غير الطبيعية لاسباب بعيدة عن الصواب . لقد كانت جدتي مؤمنة بالروحانيات ، ولم يترك لدي الاشخاص القليلون من الروحانيين الذين قابلتهم من خلالها اي انطباع يجعلني اعتبرهم اذكياء او متيقظين بصورة غير عادية . وقدحدث منذ ما يقرب من عشر سنوات ان تحدث الي « ج. ويلسون نايت » — وهو متخصص

في شكسبير ــ حول النزعة الروحانية ، واعارني بعض الكتب في هذا الموضوع، ومرة احرى لـم استطع ان أدفع نفسي الى الاهتمام العميق به . ولم يكن الامــر امر رفض لما قاله عنه ،فقد كنت أكن ما يكفي من الاحترام له ولثقافتــه في ميادين اخرى لدرجة تجعلني اتقبل فكرة انه لم يكــن يعرب عن امانيه واحلامه اكثر ممــا يفكــر تفكيرا جديا . ولكنني كنت اشعــر بأن الاهتمام بعوالم الفلسفة او علــم النفس ، يجعل من « توافه » الامور ، هذا الاهتمام بالحيــاة بعد الموت ، مثلما هو الامر في الاهتمام بالشطرنج او بالرقص . كانت تفوح من هذا الموضوع رائحــة الشيء « الانساني ، لا شيء غير الانساني » . وقــد عبر البير كامي عــن هــذا الاحساس نفسه حينما قال : « لا اريــد ان اؤمن بأن الموت يفتح بابا على حيــاة اخرى . الموت بالنسبةلــي، باب مغلق . . تحاول كل الحلول التي قدمت الي ان تأخذ من الانسان ثقل حياته . انني اذ ارقب تحليق الطيور العظيمة وانطلاقها الى السماء في بلدة « جميلة » ، فانني لا اطلب لحياتي الا مثل هذا الوزن المحدداليقيني دون غيره ».وقد امتلــك هيمنجواي هذا الاحساس نفسه حينمــا كان في افضل حالاته . انه احساس بان حياتنا تستطيع ان تقدم : « حقيقــة وكثافــة » تجعــل اكثر العواطف الدينية عادية تبدو تافهــة مضللة في حد ذاتها . فالروحاني يقول: « من المؤكــد ان هذه الحياة ستكــون بلا معنى لو انهــا وصلت الى نهايتها الختامية بالموت . » اما اجابة كامي فتقول بانه اذا تقبل الحياة بعــد المــــوت باعتبارهــا « اجابة » او « حلا » لمشكلــة هذا الخلو من المعنى ، فانه يفقــد حتــى احتمــال وقوع اللحظات التي تصبح فيهــا الحياة « حقيقية » بشكل غريب .

ولم يحدث الا منذ عامين فحسب، حينمــا شرعت في البحث المنتظم من اجل هذا الكتاب ، ان تبينت التماسك والصلابة الملحوظة للادلة على امور من نوع الحياة بعد الموت ، والتجارب الخارجــة عــن حدود الجسد (مثــــل الرؤية الوهميــة) والتناسخ او اعادة التجسد . لقــد ظل موقفي دون تغيير بمعنى اساسي . فانني ما زلت اعتقــد ان الفلسفة ــ اي البحث عن الحقيقة عن طريــــق الحدس المؤيــد بالذهن ــ هي الوسيلــة الاكثر جدارة بالاهتمــام والاكثـــر اهميــــة من مسائل « الغيب ومعرفته » والاسئلــة التي يطرحها . ولكنني اذ شرعت فــي وزن الادلــة واختبارهــا ، بهــذا الاتجاه العقلي غير المتعاطف فانها قد اقنعتني بان المزاعـــم الاساسية للنزعــة الغيبيــة هي مزاعم صحيحة . ويبدو لــي ان حقيقــة الحيــاة بعد الموت قد اصبحت قائمة بعيدة عن متناول اي شك معقول . انني اتعاطف مــع الفلاسفــة والعلمــاء الذيــن يعتبرون هذه الحقيقــة مجرد هراء عاطفي ، لاننــي ــ بشكل مزاجي ــ اقف في صفهم ، ولكنني اظنهم يغلقون عيونهم امام ادلة جديرة

بان تقنعهم لو انهـا كانت تتعلق بعادات التزاوج بين فئران التجارب البيضـاء او سلوك جزيئات اشعـة الفـا .

في خلال القرون القليلة الماضية ، جعلنا العلم ندرك ان الكـون اكثـر غرابة واكثر اثارة للاهتمـام مما ظنه اسلافنا . وانهـا لفكرة ممتعـة ان نقول ان هـذا الكـون قد يتضح انه اكثر غرابة واكثر اثارة للاهتمـام ممـا يعلـن العلمـاء عـن استعدادهـم للاعتراف بـه .

القسم الاول

استقصاء للموضوع

١
السحـــر ـ علم المستقبـــل

في مقدمة كتاب « نموذج جديد للكون » الذي الفه « ب . د . اوزبنسكي » فقرة لــم يحدث ابدا ان قصرت في تحريك اعصابي واثارتي ، تقول :

« انه عام ١٩٠٦ او ١٩٠٧ . هنا مكتب التحرير الخاص بالصحيفة اليوميــة « الصباح » التي تصدر فــي موسكو . تسلمت لتوي الصحف الاجنبية ، وعلي ان اكتب مقالا عن المؤتمر القادم في مدينــة لاهاي الهولندية . انهــا صحف فرنسية والمانيــة وانجليزيــة وايطاليــة . جمل وراء جمل ، متعاطفة ، نقدية ، ساخرة ، صخابة ، متفاخرة ، كاذبة ، واسوأ مــا فيها تلك العبارات الآلية الكاملة ،العبارات التي استخدمت آلاف المرات، والتي سوف تستخدم ثانية في مناسبات مختلفة وربما في مناسبات متناقضة . علي ان اصنع حصرا شاملا لكــل تلـــك الكلمــات والآراء، متظاهرا بانني آخذها على محمل الجد، ثم ، وبطريقة لا تقل جدية ، على ان اكتب شيئــا من عندي . ولكــن ماذا يمكنني ان اقول ؟ انـــه امر لا يثير ســـوى الملل . سوف يجتمع الدبلومــاسيون وكل انــواع السياسيين ــ ورجال الحكــم وسوف يتحدثون ، وسوف توافق اوراقهم او لا توافق علـــى مـــا يقـــال ، وسوف يتعاطفــون او يتنافرون . ثم سوف يبقى كل شيء علـــى ما كـــان عليـــه ، او ربمـــا اســوأ .

ما زال الوقت مبكرا ، هكذا اقول لنفسي ، فربما طرأ شيء مـــا على راسي فيمـــا بعد .

واذ ازيح الاوراق جانبا ، فانني افتح احد الادراج في مكتبي . المكتب كلـــه مزدحم باكوام مشتبكة من الكتب ذات العناوين الغريبة : «عالم الغامض والغموض»،

« الحياة بعد الموت »، « اتلانتيس ولوميريا » ، « قواعد الساحر الاكبر وطقوسه » ، « معبد الشيطان » ، « الحكايات الصادقة لاحد الحجاج » وغيرها وغيرها . هذه الكتب وانا لم ننفصل لاكثر من شهر ، فاصبح عالم مؤتمر مدينة « لاهاي » والمقالات الافتتاحية اكثر واكثر غموضا ولا واقعية بالنسبة لي.

فتحت احد الكتب بطريقة عشوائية ، شاعرا بان مقالتي لن تكتب في هذا اليوم . حسنا ، يمكنها ان تذهب الى الشيطان . فان الانسانية لن تخسر شيئا اذا نقصت المقالات عن مؤتمر لاهاي مقالة واحدة . . »

*

حينما قرات هذه الفقرة للمرة الاولى ، اضافت اليها ظروفي الخاصة مغزى جديدا . كنت في العشرين من عمري ،وكنت متزوجا منذ عام . كانت زوجتي وولدنا يعيشان في حي « ايرلس كورت » بلندن ، وكان هذا هو بيتنا الرابع في سنة واحدة ،وكانت مالكة منزلنا نصف المجنونة هي رابعة مالكات البيوت اللواتي قابلتهن ، واكثرهن سوءا . كنت متعطلا عن العمل احصل على الاعانة الحكومية للبطالة ، وقد وجدت هذا الوضع مثيرا للاعصاب بنفس الدرجة التي تمتع بها الوظائف التي حصلت عليها في المصانع منذ زواجي . لم تبد لي لندن مجرد مدينة غريبة ، بل بدت لي غير حقيقية بشكل ما . وهكذا فقد ادركت احساس اوزبنسكي بالغثيان ازاء مشروع الكتابة عن مؤتمر لاهاي ، وادركت ايضا ذلك الاشتياق الى « عالم آخر » ذي معنى اكثر عمقا ، مثلته الكتب التي تتحدث عن السحر والغموض . وهناك فقرة في كتاب لويس ــ فرديناند سيلين تصف العالم بانه عالم تعفّن بالاكاذيب ، تعفن حتى وصل الى درجة الانهيار والتحلل . لم يكن علي الا ان انظر الى الاعلانات في انفاق مترو لندن ، او الى العناوين الرئيسية في الصحف اليومية ، لكي اكتشف انه وصف واضح الصدق . اكاذيب وغباوة وضعف وتوسط عادي ــ انها حضارة دون مثل عليا .

كان هذا هو ما جعلني اقرأ اوزبنسكي ، وكل الكتب الاخرى عن السحر والنزعة الصوفية الغيبية التي استطعت ان اعثر عليها في المكتبات المحلية ، ليس فقط لانها كانت منفذا للهرب من عالم المصانع ومالكات المنازل العصابيات ، وانما لانها اكدت حدسي بعالم له حقيقة من طراز ونظام مختلفين ، « له شكل اكثر كثافة واكثر قوة من اشكال الوعي » من نوع مختلف عن النوع الذي بدا لي انني اشارك فيه الملايين الثمانية الآخرين من اهالي لندن .

ولكني لو سئلت في ذلك الوقت عما اذا كنت اؤمن حرفيا بالسحر ، لكنت قد اجبت بالنفي : وان ذلك كان نوعا من الخلق الخيالي الشعري ، رمزا للعالم الذي

كان « ينبغي » ان يوجد ، ولكنه لم يوجد قط . وباختصار ، نوعا من الاماني التي حلت محل التفكير . في الجملة الاولى من كتاب « السحر الشعائري » ، يكتب أ. م. بتلر قائلا : « ان الهدف الرئيسي لكل سحر هو فرض الارادة الانسانية على الطبيعة ، وعلى الانسان ، وعلى العالم الذي لا تدركه الحواس من اجل تحقيق السيادة عليهم » . واذا كان هذا تعريفا صحيحا وعادلا السحر ، اذن لاتفقت مع جون سيموندز ، كاتب ترجمة حياة آليستر كراولي ، الذي قال : « ان المشكلة الوحيدة في السحر هي انه لا يعمل شيئا ولا يؤدي الى شيء » لقد شعرت بأن السحر ليس سوى محاولة خشنة فجة اولية في الطريق الى العلم ، وان العلم قد تجاوزه الآن وخلفه وراءه .

ولو كنت قد ظللت على تقبلي لهذا الراي ، لما كنت اكتب هذا الكتاب . ان الامر يبدو لي الآن ان العكس تماما هو الصحيح . لم يكن السحر هو « علم » الماضي . انما هو علم المستقبل . انني اؤمن بان العقل الانساني قد بلغ نقطة في ارتقائه وتطوره اصبح فيها على وشك تنمية قدرات جديدة ـ قدرات كانت قد اعتبرت ذات مرة قوى سحرية . من المؤكد ان هذا العقل قد امتلك على الدوام قدرات اعظم بكثير مما نعتقد الآن : قدرات مثل التواصل العقلي عن بعد ، والاحساس مقدما بالخطر ، والحاسة السادسة او البصيرة ، وصنع المعجزات الطبية (القدرة على الشفاء) . ولكن تلك القدرات كانت جزءا من ميراثه الحيواني الغريزي . فطوال الالف سنة الاخيرة او نحوها ، كان الجنس البشري مشغولا بتطوير نوع آخر من القدرات المرتبطة بالذهن ، والنتيجة هي الحضارة الغربية . ولكن قدراته غير الواعية لم تضمر ، وانما « اختفت تحت الارض » . وقد اكملت العجلة الآن دورة كاملة ، فبلغ الذهن حدودا معينة ، ولا يمكنه ان يتقدم الى ما وراءها حتى يسترد بعضا من القدرات المفقودة . وسوف يدرك كل من قرأ الفلسفة الحديثة ما اعنيه . لقد اصبحت فلسفة ضيقة الافق ، متزمتة ، منطقية ، وهي تحاول ان تعوض افتقارها الى صور الحدس الاكثر اتساعا ، بتركيزها المجهري على التفاصيل . لقد فصلت نفسها عن مصدرها .

وما هو في الحقيقة مصدر الفلسفة ـ او في هذا الصدد ـ ما هو مصدر اي معرفة ؟ انه بشكل اساسي الاحتياج الى القوة . ليس عليك الا ان تراقب وجه طفل تعلم لتوه ان يفتح بابا بأن يدير « الاكرة » لكي تدرك ما هو « الفرض » من المعرفة . وفي القرن العشرين اصبحت القوة كلمة تثير الشكوك ، لانها اصبحت مرتبطة بفكرة القوة اذ تفرض نفسها على الآخرين . ولكن هذا المعنى ليس سوى اقل تطبيقات كلمة القوة اهمية . ان واحدة من الاساطير الاساسية عن السحر ، هي تلك التي تدور حول الساحر الباحث عن القوة السياسية . انه يتلقى عددا

من التحذيرات ، فاذا اصر على هدفه ، ناله الدمار . القوة السياسية تدعم الانا ، اما القوة السحرية فترفع من مستوى اللاوعي ، وتبعده عن مستوى الدافع غير الشخصي . يصف اوزيبنسكي بداية « بحثه عن الخارق المعجز » بقوله :

« انني تلميذ في الصف الثاني او الثالث . ولكن بدلا من كتاب زيفيرت عن قواعد اللغة اللاتينية .. اضع امامي كتاب مالينين وبورنين عن « الطبيعيات » . لقد استعرت هذا الكتاب من احد الاولاد الاكبر سنا ، وانا اقراه بنهم وفي حماس ، تغلبني النشوة احيانا ويتملكني الرعب في احيان اخرى ، امام الاسرار التي تتكشف وتتفتح امامي . كل ما حولي جدران تتهاوى ، وآفاق لا نهاية لبعدها تنفسح امام عيني في جمال لا يصدق . انها كما لو كانت خيوط كثيرة ؛ لم يشك احد في وجودها ولم يعرف بها احد ، تبدا في الامتداد لكي تربط الاشياء بعضها بالبعض . لاول مرة في حياتي ، يبزغ عالمي من قلب الفوضى . كل شيء يصبح مرتبطا بكل شيء مكونا « كلا » منتظما منسجما متناغما .. »

قد يكون هذا النوع من التعبير اللغوي مسرفا في تضخيم المعاني : (آفاق لا نهاية لبعدها ، وفي جمال لا يصدق) . ولكن قد يكون من المهم ان نتذكر ان اوزبنسكي كان قد دربه وتعلم بوصفه عالما ؛ وانه يحاول ان يكون دقيقا صارما في دقته . انه يعني بالتحديد ذلك : الاحساس المفاجيء بالمعاني ، الاكبر بكثير من ذات الانسان ، والتي تجعل المشاغل الشخصية السابقة كلها ، تبدو في صورة التوافه . وحتى برتراند راسل ، مؤسس « الذرية المنطقية » ، يضع يده على هذا الاحساس : « لا بد لي ، قبل ان اموت ، ان اجد طريقا « ما » لقول الشيء الاساسي الذي هو في داخلي ، والذي لم اقله ابدا بعد ـ انه شيء ليس حبا وليس كراهية ولا شفقة ولا احتقارا ، وانما هو نفس الحياة ، نسمتها ذاتها ، قوي جامح آت من مكان قصي بعيد ، جالبا في داخل الحياة الانسانية قوة الاشياء اللاانسانية الهائلة والخالية من اي عاطفة الى درجة مخيفة » (١)

ان القوة التي يمكن ان تستمد من هذه « القوة الخالية من الانفعال والمخيفة» ليست قوة مسيطرة على الاشياء والناس الا بطريق الصدفة . انها بشكل اساسي قوة سيطرة الانسان على ذاته ، والاتصال بـ « مصدر ما للقوة والمعنى والغاية » في داخل العقل اللاواعي .

ان القدرة على الاحساس بالاستثارة من خلال « الآفاق التي لا نهاية لبعدها » لقدرة خاصة يتميز بها البشر . ولا يوجد حيوان آخر يمتلكها . انها نوع من

---

(١) خطاب الى كونستانس مالسون ، ١٩١٨ ، ورد في كتاب راسل : « تطور فلسفتي » ص ٢٦١ .

بعد النظر الذهني يمكن ان يقارن بمنظار مقرب ذي عدستين . ولقد نمينا هذه القدرة عبر عملية التطور والارتقاء التي استغرقت مليونين من الاعوام . وفي الوقت نفسه استبعدت ملكات اخرى وسقطت فريسة للاهمال وعدم الاستخدام . منها ، على سبيل المثال « غريزة الاهتداء الى البيت » . وفي كتاب « ضرورات موزعة على الاجناس »، يكرس روبرت آردري ، المؤلف ، فصلا ممتعا (الرابع) لدراسة هذه الظاهرة . لقد اكتشف عالم يدعى جوهان شميدت الحقيقة التي تقول بأن كل سمكة من نوع « الجريث « eel » (*) موجودة في العالم الغربي، انما ولدت في بحر سارجاسو (شرقي وسط المحيط الاطلنطي) . ففي الخريف ، تشق اسماك الجريث الموجودة في اوروبا وشرقي امريكا طريقها هابطة كل الانهار حتى تنتهي الى بحر سارجاسو ، فيما بين جزر الهند الغربية وجزر الازور . وفي الربيع التالي ، تشق سمكات الجريث الصغيرة ، التي ولدت في البحر ، طريقها عائدة الى المياه العذبة ، وبعد سنتين ، وحينما يصبح طولها بوصتين ، تعود السكمات التي اكملت دورة نموها الى البيت « وحدها » . اما الاسماك من ذوات السلسلة الفقرية المكونة من ١١٥ فقرة ، فتعود الى اوروبا ، ولكن الاخرى ، من ذات السلسلة الفقرية المكونة من ١٠٧ فقرات فتسبح عائدة غربا الى امريكا . اما الآباء والامهات ، فيبقون في البحر لكي يموتوا .

وتقدم سلحفاة الماء الخضراء التي تقطن البحر الكاريبي عملا استعراضيا مشابها ، بسباحتها ١٤٠٠ ميل من البرازيل الى جزيرة « اسينسيون » في وسط الاطلنطي في اوان التزاوج ووضع البيض . اما فأر الظبى الضئيل في صحراء ويومينغ (بالولايات المتحدة) ، والذي لا يزيد حجمه على حجم طرف اصبع الانسان، فيمكن نقله الى مسافة ميل بعيدا عن بيته ، وهي مسافة تساوي مئة ميل قياسا الى حجم الانسان ، فيستطيع ان يعثر على طريق العودة فورا ودون ادنى احتمال للخطأ الى مساحة الخمسين ياردة المربعة التي تكون « وطنه » ولا يبرحها راضيا طوال حياته. اما الحمام الزاجل فيستطيع ان يعود الى مقره على بعد مئات الاميال . وكان المعتقد قديما ان هذا لا يتحقق الا نتيجة لجهد شاق يبذله انسان في تدريب الطائر ، حتى اكتشف شخص ما ، مصادفة ، ان الحمائم الصغيرة ، التي ما كادت تتعلم الطيران ، يمكنها ايضا ان تعود الى موطنها الاصلي ، وبيتها ، دون احتمال للخطأ تماما مثل الحمائم الكبيرة ودون اي تدريب ، بل انها غالبا ما تصل الى البيت في وقت اسرع من الكبار « المدربين » !

وفي حالات قليلة ، كان العلم قادرا على تفسير غريزة الاهتداء الى البيت . ويذكر فيتوس .ب. دروتشر بعض الامثلة في كتابه « حواس غامضة » . فالطائر

(*) قاموس المورد ــ منير البعلبكي . (هـ . م)

المسمى « ذا القبعة السوداء » يطير مهتديا بالنجوم ـ على حد اكتشاف الدكتور فزانز سوير ، بأن وضع بعضا من هذا الطائر في « قبة سماوية صناعية ـ Planetarium » اما اسماك السالمون ـ وفي هذا ما فيه من غرابة ـ فتهتدي بواسطة حاسة شم بالغة التطور . وربما كانت اسماك الجريث تفعل الشيء نفسه ، رغم ان هذا لا يفسر كيف تعرف سمكات الجريث المولودة في عرض المحيط ان تشق طريق عودتها الى انهار لم ترها من قبل ابدا . اماالنحل والنمل فتهتدي بالشمس . ويظن عالم من علماء جامعة كمبريدج ان الحمام الزاجل يهتدي بالحصول عن طريق الشمس على قراءة لموقعه من خطوط الطول والعرض ثم يقارنها بخطوط طول وعرض موقع بيوتها .

وهكذا . ربما لم تكن هناك حاجة لفرض نوع من « الحاسة السادسة » الغامضة تهتدي بواسطتها الحيوانات الى بيوتها . ولا شك ان هناك على الدوام تفسيرات « طبيعية » . ولكن في بعض الحالات ، سيصبح من الصعب ان نتخيل ما تكون تلك التفسيرات الطبيعية . لقد اخذ علماء من جامعة ويلهلم بشافن بعض القطط ، مخبأة في حقيبة مغلقة ، في جولة طويلة بالسيارة حول المدينة . ثم اطلق سراح القطط فجأة في ساحة ذات اربعة وعشرين مخرجا . واستطاعت معظم القطط ان تتجه مباشرة ودون تردد الى المخرج الذي يقع في اتجاه بيتها . وقد اكتشف عالم حيوان الماني اسمه « هانز فروم » ان غريزة الاهتداء عند طائر « ابي الحناء » Robins (*) تقع فريسة للارتباك والتشوش حينما توضع الطيور داخل حجرة مصنوعة من الحديد ، والتفسير هو ان طيور ابي الحناء تهتدي في طيرانها عن طريق حساسية معينة ازاء ذبذبات كهرومغناطيسية ، والفرضية الشائعة هي ان تلك الذبذبات تنبع من سديم المجرة (الطريق اللبني) ، ولكن ليس هذا اكثر من تخمين غير يقيني .

ولكن ، حتى ولو امكن اثبات ذلك بطريقة قاطعة ، فهل يشكل ذلك حقا تفسيرا لغريزة الاهتداء الى البيت ؟ اننا نتعامل في هذا الصدد مع درجات من الحساسية بعيدة بعدا شاسعا عن تصوراتنا ومدركاتنا الانسانية ، وهي مدركات وتصورات تعتقد ان هذه الانواع من الحساسية ، مهما كانت وظائفها او اغراضها ، انواع جديدة من الحواس . او انها بالاحرى ، « حواس قديمة » .

لا بد انه كان هناك زمن تمتع فيه البشر بغريزة اهتداء الى البيت ذات كفاءة مماثلة ، ذلك ان اسلافنا البدائيين كانوا يبحثون عن طعامهم في غابات هائلة شاسعة او في سهوب لا معالم لها . بل ان هناك سببا اكبر من هذا لافتراض ان الانسان قد امتلك ذات مرة حاسة متطورة تطورا غير عادي ، وظيفتها هي التنبؤ

(*) قاموس المورد . (هـ . م)

بالخطر ، والا لكان اسلافنا الاوائل قد ابيدوا عن بكرة ابيهم في ادغال العصر البليوسيني الهائلة منذ اكثر من خمسة ملايين من الاعوام ، حينما كانوا يكافحون من اجل البقاء ، ضد مخلوقات اكثر منهم « تخصصا » في كل مجال وبكل طريقة . ولم يعد الانسان بحاجة الى الاستخدام الكثير لفريزة الاهتداء الى البيت او لهواجس التحذير من الخطر . لقد سقطت هذه الملكات فريسة لعدم الاستخدام والاهمال . ولكنها لم تختف اختفاء تاما . اذ يتضح الكثير من الادلة على انه في الظروف التي تشتد فيها ضرورة تلك الملكات ، فانها تصبح فعالة قادرة على القيام بوظيفتها كما كانت في البداية . فكل من قرأ الكتب العديدة التي كتبها جيم كوربيت ، مؤلف « أكلة الانسان في كوماون » سوف يتذكرون عدداً من المناسبات انقذتهم فيها « حاستهم السادسة » .

يكفينا هنا مثال واحد . ففي كتاب « معرفة الخبرة بالادغال » ، يصف كوربيت كيف كان يهم بالاستحمام ذات مساء حينما لاحظ ان قدميه يغطيهما تراب احمر اللون . كان هناك مكان في طريق عودته الى البيت ، حيث كان لا بد قد سار عبر التراب الاحمر . ولكنه لم يستطع ان يتذكر اي سبب ربما يكون قد دفعه الى ان يسير عبر هذا المكان . . غير انه عاد فتذكر الظروف في مناسبة اخرى . كان قد سار حتى وصل الى دغلة من الحشائش يبلغ طولها حوالي ثماني عشرة بوصة . وحينما اقترب من هذه الدغلة ، راح فعبر الطريق الى الجانب الآخر ، فسار عبر التراب الاحمر على الجانب الاخر من الطريق . كان قد عبر الطريق الى الجانب الايمن ، ثم عاد فعبره الى الجانب الايسر مرة اخرى وهو مستمر في سيره عائدا الى البيت .

كان كوربيت قد اخذته الحيرة . لم يستطع ان يتخيل السبب الذي جعله يعبر الطريق وهو غائب عن الوعي بهذا الشكل . وفي اليوم التالي عاد فاقتفى آثار خطواته . وعلى ارض الدغلة المتربة ، على الجانب الايسر من الطريق ، اكتشف آثار نمر ــ ببطنه ومخالبه ــ كان راقدا في وسط الحشائش . « لم تكن لدى النمر نية قتلي ، ولكن لو انني في لحظة عبوري به قد توقفت لكي اصغي لاي صوت من اصوات الادغال ، او لو انني سعلت او عطست او نفخت انفي ، او حركت بندقيتي من كتف الى كتف ، لكانت هناك فرصة لاستثارة اعصاب النمر ولكان قد هاجمني . ان اللاوعي عندي ــ اذ لم يكن متهيئا لتقبل تلك المخاطرة ــ بالاضافة الى حساسية الادغال ، قد هبا لمساعدتي ، فأرشداني الى الطريق بعيدا عن الخطر المحتمل » .

كيف نفسر حساسية كوربيت ازاء الادغال ؟ هل باعتبارها « حاسة سادسة » ؟ ام نفسرها ببساطة باعتبارها شكلا ما من اشكال الملاحظة غير الواعية ؟ انني اميل الى القول بانه لا يوجد بينهما فرق حقيقي . وحينما

يستنتج شرلوك هولمز ان واطسون قد ارسل برقية بسبب ملاحظته للطين العالق بحذائه وبقعة الحبر على اصبعه ، فان هذا بوضوح ، هو ما نعنيه بالتفكير العلمي المنطقي . ومن المحتمل ان الاسباب التي دفعت كوربيت الى عبور الطريق كانت منطقية بنفس القدر ، رغم كونها كامنة في اللاوعي . فربما كان ــ قبل ساعة من شروعه في العودة الى البيت ، قد سمع سعلة النمر ، فسجل ذهنه دون وعي اتجاه مسار صوتها . فاذا اضيفت بعض العلامات الصغيرة الاخرى ــ مثل غياب الطيور بالقرب من الدغلة ، وغصن شجرة مكسور ــ يكون عقله اللاواعي قد وصل بالفعل الى استنتاجاته بافضل شكل من اشكال طريقة هولمز . ولكن اذا كان كوربيت قد ظل غير مدرك في وعي لكل هذا ، اذن لكننا نتعامل مع ملكة ربما يكون اسمها هو الحاسة السادسة ، وهي ملكة غير واعية ،ستكون قدراتنا على الملاحظة الواعية بالمقارنة بها قدرات غليظة خالية من الدقة . اننا قد نجد صعوبة في فهم ذلك لاننا نستخدم عقلنا الواعي باعتباره اداة التعلم . ان قيادة سيارتي قد اصبح امرا طبيعيا بالنسبة لي حتى اصبح من الممكن تقريبا ان يدعى عملا غريزيا، ولكن كان علي ان اتعلم القيام به « بشكل واع » اولا . ولكن من الواضح انه سيكون من السخف ان نفترض ان الحمائم قد تعلمت الاهتداء فيطيرانها بالشمس بالطريقة نفسها . لم تكن هناك في هذه الحالة عملية تعلم واعية ، وانما تمت كلها على المستوى الغريزي .

اننا قد نكون قادرين على تفسير غريزة اهتداء الحمائم الى بيوتها بمصطلحات يستطيع شرلوك هولمز ان يفهمها . الا انه من المهم ان نتبين انالعقل اللاواعي يعمل بسرعة ودقة لا يستطيع وعينا ان يدرك منهما شيئا ، وان عقلنا اللاواعي ربما يكون يعمل مستخدما نوعا من المعلومات اكثر دقة ورهافة من ان تدركه حواسنا الغليظة . كيف على سبيل المثال نفسر قدرة الكاشف عن مكامن الماء بالعصا ؟ لقد رايت رجلا يمسك في يده غصنا جافا وهو يسير حول الحقل الذي شيد منزلنا في وسطه ، مقتفيا مسار نبع خفيتحت الارض ، فيميزه بوضوح ، ويميز بينه وبين انبوب ماء ممتد مدفون . (وقد عدنا بعد هذا الى خرائط المنزل ،فوجدنا انه كان دقيقا دقة كاملة فيما يتعلق بانبوب الماء) . وقد انكر الرجل اقتراحا بان ملكته كانت ملكة « فوق طبيعية »، واصر على انه يستطيع ان يعلم اي شخص كيف يكشف عن مكامن الماء بالعصا في اقل من ساعة . وقال:« كل انسان يمتلك هذه الملكة ، وهي ليست الا مسالة تمرين » . وعلى قدر ما اعلم فانه لا يوجد عالم واحد حاول ان يفسر قدرة الكاشف عن مكامن الماء،رغم ان هذه القدرة تعد شيئا عاديا وشائعا في اي اقليم ريفي . وحينما يتم ادراكها « في النهاية » فانها سوف تتكشف لا شك عن شيء بسيط ومذهل مثل حاسة الشم عند اسماك السالمون ، او حساسية

فأر الظبي الصغير ازاء الاشعاعات النجمية . ليست هناك حاجة الى ان نضع خطا مميزا حادا بين « الاحساس العادي » العلمي ، وبين القدرات التي يمكن ان تكون قد صنفت ذات مرة فوضعت بين القدرات « السحرية » . ففي المملكة الحيوانية ليست القدرات « السحرية » سوى قدرات عادية شائعة . اما الانسان المتحضر فقد نسي كل شيء عن هذه القدرات لانها لم تعد ضرورية لبقائه او لمواجهته للحياة .

وفي الحق ، فان بقاءه يعتمد على « نسيانها » . فان التطور الرفيع المستويات الفريزية لا يتفق مع نوع التركيز على التفاصيل الذي احتاجه الانسان المتحضر . وهناك تصوير لذلك في الترجمة الذاتية التي كتبها « العراف » بيتر فان ديرهيرك ، المشهور باسم بيتر هيركوس (*) . ففي عام ١٩٤٣ كان هيركوس يعمل نقاشا في طلاء المنازل ، حينما سقط من فوق السلم المرتفع فانكسرت بعض عظام جمجمته . وحينما استيقظ أو افاق ، في مستشفى زويدوول في مدينة لاهاي ــ اكتشف انه قد اصبح يمتلك نوعا من البصيرة او القدرة على رؤية الاشياء الخفية واستبصارها . لقد « عرف » اشياء عن رفاقه من المرضى دون ان يقول له احد شيئا عنها . وقد كاد هذا ان يكلفه حياته ذات مرة . فاذ كان يصافح مريضا على وشك الخروج من المستشفى « عرف » فجأة ان الرجل عميل بريطاني ، وانه سوف يغتال بايدي الجستابو في خلال يومين . ونتيجة لتنبؤه، كاد رجال المقاومة الهولنديون ان يعدموه بتهمة الخيانة ، ولكنه كان قادرا لحسن الحظ على ان يقنعهم بأن « عرافته » او قدرته على معرفة الاشياء الخفية ، هي مقدرة حقيقية .

ولكن نقطة القصور الاساسية في هذه القدرة غير العادية كانت هي انه لم يعد قادرا على العودة الى عمله القديم كنقاش يطلي المنازل ، كان قد فقد القدرة على التركيز . « لم يكن بوسعي ان اركز على اي شيء في تلك الايام . ففي كل لحظة كنت ابدا فيها اي حديث طويل مع اي شخص ، كانت تلوح لي رؤى مختلفة من جوانب متنوعة من حياته وحياة افراد اسرته واصدقائه » . كان عقله مثل جهاز مذياع يلتقط محطات متنوعة عديدة في لحظة واحدة . ومن وجهة النظر الاجتماعية كان قد اصبح لا نفع فيه حتى ادرك فكرة استخدام قدراته الغريبة على المسرح .

مرة اخرى ، ليس لدى العلم ما يقوله عن قدرات بيتر هيركوس ، ولا عن قدرات مواطنه الهولندي جيرارد كرواسيت ، رغم ان تلك القدرات قد تم اختبارها في المعمل واكتشفت حقيقيتها واصالتها . ان التنبؤ بالمستقبل ، او

(*) انظر كتاب « نفسانيات » ، تاليف بيترهيركوس (لندن ، بارکر ، ١٩٦١) .

حل جريمة قتل بعـد مجرد الامساك بقطعة من ثياب الضحية وفحصها ، هي امور من الواضح انهـا تختلف عن حساسية كوربيت ازاء الادغال وعن غريزة الاهتداء الى البيت . ولكن قد يكون مما يستحق ان نتذكره انه حتى منتصف خمسينات هـذا القرن ــ ظلت ملاحظات شميدت عن اسماك الجريث ــ وكانت قد نشرت منذ عام ١٩٢٢ ــ ظلت موضع التجاهل من جانب العلمـاء لانهـا عجزت عن « الدخول في سيـاق اي تفسير » . ويلاحظ آردري ان حكايـة اسماك الجريث قدوضعت في خانـة واحدة مع اكذوبة هتلر الكبرى. وهذا يعني ان احدا لم يكن راغبا في معالجـة المشكلـة حتى بلـغ العلم مرحلـة اصبح عاجزا عن التقدم بعدها دون ان يضع تلـك المشكلـة في اعتباره . ولا شك ان الشـيء نفسه سـوف يحـدث للملاحظات التي سجلت عن هيركـوس عن طريق « معهـد المائدة المستديرة » في مدينـة مين ، وللملاحظات التي سجلت عن كرواسيت عن طريق معهد الدراسـات البسيكولوجيـة التابع لجامعة اوترخت .

من الضروري عند هذه النقطـة ان نقول شيئا عـن مسار عملية التطـور والارتقاء في خلال المليونين الماضيين من السنين . فمنذ احد عشر مليونا من الاعوام حدث فيما يبدو ان قردا من فصيلـة تدعـى « رامابثيكـوس Ramapsethecus » قد استطـاع ان يطور قدرته على المشي منتصب القامة . وبدأ يفضل السير علـى الارض بدلا من القفز عـلى الاشجار . وفي خلال الملايين التسعة التالية من السنين استقر بثبات ميله الى السير منتصب القامة ، وتحولت فصيلة « رامابيثيكوس » الى فصيلـة « اوسترالو بيثيكوس » ، وهو اول اسلافنا « البشريين » . فما هو الفرق الذي صنعه وضع انتصاب القامة ؟ اول كل شيء ، لقد حرر هـذا الوضع يديه ، حتى اصبح بوسعه ان يدافع عن نفسه مستخدما كتلة صخر او فرع شجرة . وثانيا ، وسع هذا الوضع أفق رؤيته .

وعلى قدر ما اعلم ، لم ينظر واحد من علماء الانتروبولوجيا الى هذه النقطـة باعتبارهـا نقطة لها مغزاها ربما لان هناك عددا كبيرا من المخلوقات اكثـر طـولا من الانسـان . ولكن عيـون الفيل والزرافة تقع على جانبي راسيهمـا ، ولذلك فان افق رؤيتهمـا دائري . اما القرد فينظر الى مـا امامه مباشرة ، ان رؤيته اضيـق ولكنها اكثر تركيزا . ايمكن ان يكون هذا هو ما جعـل القردة تتطـور وترتقـي اكثر من اي حيوان اخر ؟ ان الرؤيـة الضيقـة تؤدي الـى الضجـر ، وهـي تؤدي ايضـا الى نشاط عقلي متزايد ، تؤدي الى الفضول . وحينمـا تطـورت القدرة على الابتكار وتطور الفضول الى درجـة معقولة ، تعلمت فصيلة بعينها مـن فصائل القردة ان تسير منتصبة القامة ، وبذلـك امتد افـق رؤيـة افرادهـا بطريقة مختلفة . ان الرؤية الى مسافة بعيدة تعنـي تعلـم التفكير علـى اساس المسافات البعيدة ، تعني تعلم الحساب وتحسب الامور . ان قدرة الانسان علـى

السير منتصب القامة وعلى استخدام يديه ؛ وقدرته الطبيعية على ان ينظر الى البعد بدلا من النظر الى الارض ،هذه القدرات اصبحت اسلحة تساعده على البقاء . لقد طور الانسان ذكاءه لانه كان الوسيلة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. وهكذا ، ففي بداية الارتقاء البشري ، كان الانسان مرغما على الاستفادة من قدرته على تركيز انتباهه على الاشياء والجزئيات الدقيقة . ولا شك انه كان يفضل لو اكل غذاءه ثم نام في الشمس ، مثلما كان يفعل النمر الهائل سيفي" الاسنان، او فرس النهر .ولكنه كان اعزل عاجزا عن الدفاع عن نفسه اكثر منهما ؛ فكان عليه ان يحافظ دائما على يقظته وحذره .

وعلى مسار الزمن ، أصبحت هذه القدرة على « تركيز » انتباهه وعلى الحساب والتحسب قدرة من القدرات الطبيعية حتى ان التفكير اصبح واحدا من نشاطات الانسان العفوية . وقد « اثمرت » هذه القدرة الى درجة لا تصدق . ففي بضعة آلاف قليلة من السنين ، ارتقى الانسان اكثر بكثير مما استطاعت الزواحف الهائلة ان ترتقي في ملايين عديدة من الاعوام . لقد خلق الحضارة ، وبخلقه لها ، دخل مرحلة جديدة من مراحل ادراك الذات ــ وهي المرحلة التي يدخلها الاطفال من البشر الآن في سن السادسة او السابعة .

وتسبب الوعي بالذات في خسائر فادحة وجلب مكاسب كبيرة . وكانت افدح الخسائر هي « الطبيعية » الفريزية التي يمتلكها الاطفال الصغار والحيوانات . ولكن الكسب الحيوي الاساسي هو الاحساس بالقوة والسطوة والقدرة على السيطرة . لقد اصبح الانسان هو الحيوان ذو الارادة ، اكثر الحيوانات خطرا على الارض ، لم يقنع ابدا بأن يعيش في سلام لمدة طويلة ، دؤوبا على غزو البلدان المجاورة ، مشعلا النار في القرى ومغتصبا ما يجده من النساء . وقد تسبب هذا الدافع الاناني اللانهائي ــ خلال العشرة آلاف سنة الماضية ــ في فصله اكثر واكثر عن القردة في غاباتها الكثيفة الرطبة وعن طيور الجنة التي تطير الى الجنوب في الشتاء .

انه ليس سعيدا سعادة كاملة بهذه الحضارة التي خلقتها قدراته المتميزة . والمشكلة الرئيسية بشأنها هي انها تحتاج الى الكثير جدا من الجهد من اجل تحقيقها والعثور عليها . كثير من الناس يمتلكون تفضيل الحيوانات للحياة الغريزية في التوحد مع الطبيعة ، انهم يحلمون بمتعة ان يكون المرء راعيا يغالبه النوم على سفح تل مشمس او صائد سمك بالصنارة يلقي خيوطه في نهير صغير . ومن الغريب تماما ان مثل هؤلاء الرجال لم يدانوا ابدا بوصفهم كسالى او فاقدي الهمة ، انهم ينالون الاحترام بوصفهم شعراء ، ويستمتع الجنود ورجال الاعمال بقراءة احلام يقظتهم حينما ينتهي عملهم اليومي .

ان الشاعر ببساطة هو الرجل الذي ما تزال روابطه بماضينا الحيواني

قوية . انه واع بان كياننا يتضمن مجموعة من القدرات الفريزية منفصلة تماما عن القدرات التي نحتاجها لكي نفوز بمعركة او نوسع مجال عمل ما .

وهو يعنى بصورة غريزية بشيء اكثر اهمية بكثير . لقد طور الانسان قدراته الواعية ببساطة لانه اراد ان يطورها . لقد انتقل من ابتكار العجلة الى ارتياد الفضاء وكشفه في بضع خطوات قليلة سريعة . ولكنه ايضا قد فاق الحيوانات في جانب اخر : في تطور القدرات « الاخرى » . فليس ثمة حيوان قادر على الحصول على نشوة واحدة او حالة من حالات الوجد التي يصل اليها الصوفيون او الشعراء العظام . ان ووردزورث في شعره عن الطبيعة يصبح في « حالة توحد » مع الطبيعة بمعنى مختلف كل الاختلاف عن فرس النهر الذي يغفو نائما في الطين . ان الوعي بالذات يمكن ان يستخدم لتطوير قدرات الانسان الفريزية، مثلما يمكن ان يستخدم لتطوير قدرات الذهن . ان الشاعر والصوفي والساحر يشتركون جميعا في شيء واحد : الرغبة في تطوير قدراتهم في « اتجاه سفلي » بدلا من تطويرها الى اعلى. وفي محاورة « المادية » يعبر سقراط عن هذا الهدف المثالي : القيام بالعملين في وقت واحد ـ استخدام المعرفة المتزايدة من اجل الوصول او الامتداد الى الخارج نحو حالة من الاتحاد الفريزي مع الكون. وفي خلال الفين ونصف الالف من الاعوام منذ ذلك الحين ، اضطرت الحضارة الى ان تكرس انتباهها لمشاكل اكثر عملية ،بينما داب الفنانون والمتصوفة على الاحتجاج بان « العالم اكثر بكثير مما نحتمل » وان الجنس البشري المنتصر ، لا يزيد الا قليلا عن قزم ماهر . فاذا كان للانسان حقا ان يرتقي ، فان عليه ان يتطور « عمقا » وان يطور سيطرته على اعماقه الخاصة .

والآن ، ولاول مرة في التاريخ القصير لجنسنا البشري ، فان نسبة كبيرة من هذا الجنس « تمتلك » رفاهية نسيان المشاكل العملية . وفي امريكا واوروبا، هناك تزايد يسير بخطى متقاربة ، في الاهتمام بـ « العقاقير المحولة للعقل » وفي علوم الغيب .

ان التعلق الشديد بالامور النفسانية يختلف عن انواع التعلق بالعقاقير المختلفة التي كانت ذائعة في اوائل القرن العشرين ، بل يختلف عن ادمان شرب صبغة الافيون التي عرفت عن دي كوينسي (1)

---

(1) دي كوينسي ـ توماس ١٧٨٥ ـ ١٨٩٥ ـ كاتب وناقد انجليزي ،عاش فترة من عمره في منطقة البحيرات ـ بوسط انجلترا ، وكان مساعدا لكل من كوليريدج ووردزورث ،وله العديد من المقالات ـ مجموعة من كتب ـ في فروع كثيرة . ولكنه اشتهر بكتابه : « مذكرات مدمن انجليزي على الافيون » الذي صدر عام ١٨٢١ . كما اشتهر احد مقالاته الغريبة بعنوان : « جريمة القتل بوصفها فنا جميلا » (هـ . م) .

وكولريدج (١) ، باعتباره تعلقا اكثر ايجابية في طبيعته . انه امر تقل فيه الرغبة في الهرب من « حضارة متقيحة » ، عن الرغبة المحددة في « الوصول » الى مكان ما ، او في « الولوج » ، مثلما يلج ماخذ التوصيل الكهربائي في ثقبيه الضيقين ليحمل تيار الطاقة والنور ، الى عالم القوى اللاواعية التي نثق ثقة غريزية في وجودها . ويصدق نفس الحكم على التسيب الجنسي المتزايد ، انه ليس ببساطة مسألة تحلل اخلاقي ، وانما هو التعرف على ان الاستثارة الجنسية انما هي اتصال مباشر بالقوى الخفية للاوعي . يصف د.هـ. لورانس احاسيس الليدي تشاترلي بعد ممارسة الجنس بقوله : « وبينما كانت تجري عائدة الى البيت في ضوء الغسق ، بدا لها العالم حلما ، بدت لها الاشجار تنتفخ وتترنح كشراع قارب مقيد الى صخرة يجتاحها المد ، وكان مرتقى المنحدر الصاعد الى المنزل مفعما بالحياة » .

وتهتم كل اعمال لورانس باحتياج الحضارة الى ان تتخذ اتجاها جديدا ، وان تركز على تطور تلك القدرات « الاخرى » بدلا من الاستمرار في تطوير الذهن . وليس الامر مسألة غرق في نوع من الغيبوبة او حالة سلبية من التوحد مع الطبيعة » ، مثل البقرات التي اعجب بها والت ويتمان (*) اعجابا شديدا .

---

(١) كوليريدج ـ صامويل ١٧٧٢ ـ ١٨٣٤ ـ الشاعر الناقد الادبي والدرامي الانجليزي البارز للحركة الرومانتيكية الانجليزية ، والذي عرف بعقليته الفذة التي لم اتثمر كل عطائها المنتظر بسبب المآسي المتتاليد التي مني بها في حياته الشخصية وبسبب ادمانه المبكر على الافيون . كان من رواد الحركات الادبية والفنية الجديدة في انجلترا الفيكتورية ، ومن خلالها دخل في علاقات حميمة مع افذاذ عصره ، مثل روبرت سوذي ووردزورث ، وكان من ابرز دارسي الفلسفة الالمانية في بلاده ، ومن اكبر « المحاضرين » فيها حول موضوعات متعددة ، تضمنت التاريخ والفلسفة والادب والنظريات النقدية وتاريخ الاديان . (هـ . م .) .

(*) ويتمان ـ والت ١٨١٩ ـ ١٨٩٢ . شاعر امريكي بارز ، يعده النقاد الغربيون اكبر من عبر عن الروح والحياة والشخصية الامريكية في الشعر ، ويعدونه من ابرز معالم الثقافة الغربية في العصر الحديث ، رغم الهجوم الحاد الذي لقيه من نقاد بلاده والمسؤولين والجمهور فيها ، عندما اصدر كتابه الاول ، الذي حباه بهذه الشهرة ، وهو ديوان قصائده الحرة الغريبة : « اوراق الحشائش » عام ١٨٥٥ . عرف بنزعته الفردية المتطرفة ، واستخدامه الشعر الحر ، واحتفائه الصوفي بامريكا ، والديموقراطية ، والرجل العادي . تميز شعره بالفيض الكاسح من الشعور الروحي الذي عبر عنه احيانا بخطابية ، وبالميل نحو كل ما هو حسي حتى فسر النقاد الفرويديون هذا الميل على اساس المثلية الجنسية (او الشذوذ) ورغم عبادته للانسان العادي فقد مجد الفرد المتفوق ، والتميز الروحي للشاعر الذي اعتقد انه يتطابق بشكل كامل مع الطبيعة والكون ، مؤكدا على ما يحتويه كل منهما من تناقض غامض . (هـ . م) .

ان الطبيعة التي تشعر بها اللادي تشاترلي في جريها عائدة الى البيت تبدو اكثر تشابها بتلك اللوحات الاخيرة لفان جوخ (*) حيث يتخذ كل شيء شكلا جديدا تحت تاثير قوة داخلية ما ـ تحت تاثير ما قال عنه راسل انه: « انفاس الحياة ، قوية لافحة قادمة من بعيد ، جالبة ودافعة الى الحياة الانسانية ضخامة الاشياء اللاانسانية وقوتها المخيفة الخالية من كل انفعال».

وبالطريقة نفسها ، فان تفضيل اوربنسكي لان يقرأ كتابا عن السحر بدلا من كتابة مقال عن مؤتمر لاهاي ، يشير الى شيء اكثر ايجابية من امتعاض الشاعر من السياسة . في سن الرابعةعشرة ، غرق اوزبنسكي في حالة من الاستثارة النشوى من خلال كتاب في الطبيعيات ، لانه كان اتصالا مع عالم الاشياء غير الشخصية . ولكن في العلم يمثل طريقا مسدودا بالنسبة لشاب خيالي ، فهو لا يريد ان ينتهي الى حقن الخنازير الفينية بالعقاقير في معامل التجريب البافلوفي . كان يتملكه شعور بان كل « طرق الحياة » التي عرضها عليه العالم الحديث قد وجهته الى الاتجاه المعاكس للطريق الذي اراد ان يسير فيه . في لحظات الكآبة والانقباض ، كان ميالا الى ان يتساءل ان لم يكن هذا الاشتياق والحقيقة الى الآفاق البعيدة نوعا من الاوهام الغريبة ، شيئا يشبه « رغبة فراشة النار في الوصول الى النجوم ». ولكن غريزة ما تدفعه الى البحث باصرار في كتب تتحدث في السحر وفي علوم الغيب ، وفيما بعد ، تدفعه الرغبة نفسها الى التجول في الشرق ،باحثا في الاديرة عن « المعرفة السرية » . ومن المصادفات الساخرة ، انه لم يقدر له ان يكتشف ما كان يبحث عنه ، الا بعد ان عاد الى موسكو وقابل جورديف (**) .

ان هذا الاحساس بالمعاني ، والذي لا يبدو واضحا بالنسبة للنوع العادي من الوعي ، انما يمارسه كل انسان في وقت أو آخر . وقد يتجاهل المرء مثل هذه

(*) فان جوخ ـ فنسنت ١٨٥٣ ـ ١٨٩٠ . الرسام والمصور الهولندي العظيم ، واحد الوجوه البارزة في الفن الحديث كله ، واحد مؤسسي الحركة التاثيرية وما بعدها من فن التصوير الغربي . عاش حياة ممزقة بين الفقر والافتقار الى الحب والفهم ، وبين الاحساس الفادح ببشاعة الحياة العمالية ، ووضاعة الحياة البورجوازية ، وعدم تبين اي امل في المستقبل ، خاصة في ضوء فرديته ونزوعه الى الوحدة . كان صديقا لتولوز لوتريك وبيسارو وديجا وسورات وجوجان ، واختلف معهم جميعا ، وخاصة مع جوجان . انفعل بالحركة التاثرية في باريس بعد مرحلته ((القاتمة)) في هولندا ، وتاثر في باريس ايضا بالفن الياباني ، وكان من رواد المدارس الاحدث ، وخاصة ((التنقيطية)) اصيب بجنون دوري بعد خلافه مع جوجان عام ١٨٨٨ ، وبعد عامين اطلق على نفسه الرصاص . (هـ . م . ع)

(**) انظر القسم الثاني ـ الفصل الثامن .

الاشارات البارقة العارضة طوال سنوات ،حتى يدفعها حادث ما الى بؤرة الانتباه ومركزه ، او ربما يحدث هذا « التبئير » بالتركيز ودون ان يتنبه له الانسان أو يدركه . يقول العلم ان الحياة بدات من خلال فعل ضوء الشمس في الكربون الممتزج بالماء ، وان الانسان قد بلغ وضعه الحالي من خلال سلسلة طويلة من عمليات الانتخاب الطبيعي . وفي هذه الحالة ، فان قوانين الوجود الانساني هي قوانين مادية ، ويمكن العثور عليها في اي مرجع من مراجع العلم . ولكن ثمة لحظات من اليقين العبثي السخيف ، يبدو كما لو كان مستمدا من قانون الاحتمالات العادي . ان مارك بريدين ، وهو عازف موسيقى اعرفه ، قد وصف لي كيف خرج من احدى تجارب العزف متأخرا جدا ذات ليلة فاستقل سيارة اجرة الى البيت . كان الاجهاد قد بلغ منه مبلغه ، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من السيارات العابرة على طريق « بايزووتر رود » . وفجأة ، وفي يقين كامل ، بينما كانت السيارة تعبر شارع« كوينز واي » ، عرف ان سيارة اجرة اخرى سوف تمرق بسرعة عبر الطريق وسوف تصطدم بسيارته . كان واثقا لدرجة انه شعر بما يغريه بأن يحذر السائق ، ثم قرر ان نصيحته هذه ستبدو نوعا من البلاهة . وبعد ثوان قليلة ،انطلقت سيارة الاجرة الاخرى التي كان يتوقعها خارجة من شارع « كوينز واي » وصدمت سيارته ، تماما مثلما كان قد عرف انه سوف يحدث ، وارجع هو تلك الومضة من « الحاسة السادسة » الى الاجهاد البالغ ، حينما كان عقله الواعي قد استرخى تماما واصبح بوسع اللاوعي ان يسمعه صوته .

اننا قد نرفض القصة كنوع من المبالغة ، او نفسرها باعتبارها صورة من صور المصادفة . ولكن كلمة « المصادفة » لا تحل شيئا من هذه المشكلة .ذلك ان كل انسان ــ واكرر هذا مرة ثانية ــ قد لاحظ كيف يتكرر وقوع المصادفات الخالية من المعنى . وقد حدث منذ بضعة سنوات ان حاولت المداومة على تسجيل مذكراتي عن المصادفات غير المتوقعة ،وانني لاجد الآن مثالا نموذجيا متطابقا مع المثال السابق في مذكرتي في شهر يناير ١٩٦٨ . كتبت حينذاك قائلا : « كنت اقرا كتاب هوكينز : « حل شفرة النصب الحجرية »» وكان الفصل الاخير يتحدث عن الاحجار الضخمة المنتصبة في كاللانيش ، التي يصفها هوكينز بأنها نوع من الآلة الحاسبة في العصر الحجري . انهيت الكتاب ، والتقطت على الفور كتاب بيل : « الرياضيات ، ملكة العلوم » ، وانفتح الكتاب بين يدي عند الفصل السادس، فوجدت نفسي انظر الى هامش في اسفل الصفحة يتحدث عن رياضيات العصر الحجري . كانت فرصة مصادفة هذا الهامش ، بعد فراغي على الفور من قراءة الفصل المكتوب عن كاللانيش ، لا تعدو نسبتها واحدا في المليون . وحدث الشيء نفسه مرة اخرى في الليلة الماضية حينما كنت اقرا تقريرا عن جريمة قتل

دومينيك في بلدة موهير بمقاطعة جالاواي . ولاحظت ان الضحيــة كانــت تدرس في كليــة ماري واشنطون بمدينة فريدريكسبرج بولايــة فرجينيا ، حيث كنت قد القيت محاضرة منذ مــدة وجيزة . وبعد عشر دقائق فتحت كتاب الملخصات التي وضعهــا واندا اورينسكي لاعمال هيجل ، فرايت ان المقدمة كانت بقلم كيرتليديكر من كليــة ماري واشنطــون .. »

ليس هنــاك مــا يسبب الازعاج الشديد في هذه المصادفات باستثناء كثــرة احتمالات عدم حدوثها او حدوث ما يناقضها . ويمكنني ان اضيف مثالا آخر من الاسبوع الماضي . فقد اشارت مقالــة منشورة في مجلــة « عالــبـم الاجــرام The Criminologist الى قضية جريمة القتل في نبراسكا دون ذكــر لاســم القاتل ، وانفقت عشر دقائق في البحث في كومة من اعداد قديمــة من مجلــــة « الشرطي السري الحقيقي » لانني كنت قادرا على ان اتذكــر ان الرجل الذي كنت احاول ان اذكر اسمه (تشارلز ستاركويذر) كانت قد نشرت صورته علــى غلاف احدها . اخذت المجلة وغدت لكي اجلس على مقعدي وانتهيت من المقالة في « عالم الاجرام » . وانتهت المقالة باشارة الى قاتلة تدعــى ناني دوس ، لم اكن قد سمعت عنها ابدا . وبعد نصف ساعة فتحت مجلة « الشرطي السري الحقيقي » فاكتشفت ان المقالــة الاولى فيهــا كانت عن ناني دوس . ومن الغريب تمامــا ، انني اذ كنت انظر الى صورتهــا ، واقرا مــا تحتهــا من تعليق ضم كلمة « ناني » ، شعــرت باحساس مفاجيء من اليقين الكامل بان هذه كانت هي المراة التي كنت اتساءل عنها ، رغم انني احتجت الى بضع ثوان اخرى لكي اعثر على اسمها الثاني في النص .

وقد وصفت مصادفات مشابهة في كتاب بارز هو « المتطهرون والتناسخ » من تاليف آرثر جويردهام (الذي سوف اناقشه بالتفصيل فيما بعد) (*) انه يصف كيف شرع ذات يوم من عام ١٩٦٣ في مناقشة امر قريــة تدعى « ليتل جادسدن » فحاول ان يتذكــر اسم حانة هناك . وفي وقت تال من اليوم نفســه ، تناول كتابا عن جبال البيرنيز في المكتبة العامة واخذه معه ، وحينمــا بدأ يقراه في البيت ، حدث على الفور تقريبا ان التقى باسم قرية « ليتل جاد سدن » واسم الحانة التي اراد ان يتذكــر اسمها من قبل . وقد وقعت هذه المصادفــة ــ وهي واحــدة من مصادفات كثيرة ــ في بدايــة انشغاله الغريب بمريض كانت ذكرياته عن وجــود سابق واحدة من افضل حالات التناسخ التــي قابلتني توثيقا واثباتا (انظر القسم الثالث ، الفصل الثاني) .

ان القول بأن مثل تلــك الامور ليست مصادفات بصورة كاملة ليس هوالقول

(*) لندن ، نيفيل سبيرمــان ، ١٩٧٠ .

بأن « القوى الخفية »كانت تحاول ان تجتذب انتباهـي الـــــى رياضيات العصر الحجري او كانت تحاول ان تجتذب انتباه جـويردهام الى اسم الحانة . ربما كان كل ذلك في التطبيق نوعا من « الحاسة الحيوية » تنتمي الى النوع نفسه الـــذي تنتمي اليه غريزة الاهتداء الى البيت عنـد اسماك الجريث . وكلمـا زاد انغماس العقل واهتمامه بموضوع ما ، كلمـا زاد فيمـا يبدو حـــدوث تلك المصادفـــات النافعـــة ، كمـا لو كان للعقل الصحيح نوع من اجهزة الرادار . ان التشويش او الانقباض سيمنعـــان جهاز الرادار من العمل ، او قد يمنعان المرء من تركيزانتباهه الا بعد فوات الوقت . وفيمـا يلي سطور مأخوذة من تقرير كتب حديثا عن جريمة قتل، كتبه والد الضحيـــة :

« كان يومـا عاصفا هبت فيه ريح باردة وتغير الطقس فيه اكثر من مرة بين سطوع الشمس وبين زخات المطر المفاجئة او هبات الرياح الممطرة . كنت انا وزوجتي عند باب المنزل الامامي ، في لحظة بين هبتين مطيرتين من الرياح ، وكنا نقف مع عاملين من عمال الطلاء كانا يحـاولان انجـــاز عملهما في هذا الجو بطلاء حواف الجدران واطر النوافذ . وكان مـــن الضروري ان نقلم اغصان شجرة باسقـــة امام احدى الغرف .. وفـــي الساعة الرابعة بعد الظهر ، قالت زوجتي : « اين فيونا ؟ » ودون سبب معقول واضح ، ودون حسبان ، شعرنا كـلانا باحساس غامـر من القلـــق الحـاد والخـوف ... »

حتى جاءت اللحظـة التي ذكرت فيها الطفلة ، كان الوالدان مشغوليـــــن باشياء اخرى ، ولم يلاحظ اي منهما اشارات اللاوعي المنذرة بالخطـــر . وحينما سالت الام « اين فيونا ؟ » سمعت هذه الاشارات بوضوح ، مثـل صوت التليفون الذي لا يمكـن ان يسمع الا اذا اطفىء التليفزيون . وقـــد كانت الطفلة ضحيـــة لقاتـل جنســـي .(*)

ان تجربتي الخاصة في مجال « النذر » المنبئة بالخطر لم تكـن شديـــدة الاتساع ، والحق انـــه لا يمكنني ان اتذكر سوى تجربة واحدة . ففـــي يوم ١٦ يوليو من عام ١٩٦٤ ، نظرت في كفي قارئة كف عاديـــة في احدى الاسواق بمدينة بلاك بول ، وحذرتني من انه ستقع لي حادثة في غضون الشهر التالي ، وانني لن اصاب اصابة سيئة . وفي منتصف اغسطس من نفس العام قـــررت ان اصطحب ضيفـا في رحلـة بقارب بخاري سريع ، رغم احساسي الشديد المنبيء باحتمـــال تعرضي للخطر . وثبت لـــي ان البحر كـان اكثر خشونة مما كنت اتوقع ، وحينما

(*) « جريمة قتل : قصة والد » . تاليف ميشيل هويتيكر .صنداي تايمز ،٢٩مارس ١٩٧٠.

حاولت ان ارسو بالقارب على شاطىء صـخري ، اغرقت القارب تماما ، ولم يصب احد منا ، رغم اننا انفقنـا نصف ساعـة سيئة في محاولة جر القارب المثقوب من ميـاه البحـر الهائج .

وقـد مررت بتجربتين من الاستجابة التليباثية الواضحة مع شخص آخر . فقد كنت انفصلت عن زوجتـي الاولى لبضعـة شهور من صيف عام ١٩٥٣ ، رغم انه كانت مـا تزال بيننا وشائج عاطفية قوية . وذات مساء ، في مقهى في وسط لندن ، شعرت فجأة بالغثيان ، وكان علي ان اهرع الى الخـارج . واستمرت حالة القيء لعدة ساعات . وقد استمرته في الحقيقة حتى الساعات الاولى من الصباح التالي . وقال طبيب في المستشفى الذي كنت اعمل فيه في ذلك الوقت ، مشخصا الحالة ، بانهـا كانت حالة تسمم غذائي ، رغم انني كنت قد تناولت الطعـام نفسه الذي تناوله العمال الآخرون في المستشفى ، وكانوا جميعا في حالة جيدة تماما. ومع ذلك ، فقد عرفت بعد ذلك بعدة ايام ان زوجتي كانت تعاني من حالـة تسمم غذائي ، بعد انتناولت علبة فاسدة من لحم البقر المحفوظ . في الوقت نفسهالذي كنت انا اتقيـأ فيه ، وكانت هي قد بدات تتقيأ ثم خفت حالتها في الوقت نفسه الذي انتابتني فيه انا هذه الحالة .

وفي عام ١٩٥٦ كنت قد القيت محاضرة في جامعـــة سانت آندروز فـي اسكتلندا ، وكنت اقود سيارتي الى بلدة سكاي . كنت اشعـر بابتهاج غامر واضح حينمـا بدات الرحلة لان الطقس كان جميلاً ، وكنت انتظـر اللحظة التي سأتوقف فيها عند محل لبيع الكتب القديمة في بيرث . ولكن بعد نصف ساعة من مغادرتي سانت آندروز بدأت اشعـر بانقباض غير متوقع ولم اعرف لـه سببا واضحا . وبعد نصف ساعـة ، سألت زوجتي لماذا كانت تبدو مجهدة محزونـة ، فأجابتني بأنهـا كانت تعاني من الم في اسنانهـا منذ غادرنـا سانت اندروز .

ولسوء الحظ كان اليوم يوم سبت ، وقد تأخر الوقت جدا حتى كان مـن الصعب ان نعثر على طبيب اسنانفي اسكتلندا كلها . وفي صباح يوم الاحد ،كانت اللثة قد اصبحت متورمة بشكل سيىء . واستمر انقباضي طوال اليـوم . وفـي بلدة كيل بمقاطعـة لوشالش ، قيل لنـا صبيحـة يوم الاثنين ان طبيـب اسنـان متجولا سوف يصل ضمن قافلة طبية في وقت ما من النهار . تركـت زوجتـي تنتظـر بينمـا اخذت ابنتي لنتجول في البلدة . وفجأة ارتفع عني احساس الكآبة المقبضة . قلت للفتاة : « لقد خلعت امك ضرسهـا المؤلم لتوها » وعدنا فيالوقت المناسب لكي نجد زوجتي وهي تخرج من سيارة القافلة ، بعد ان فقـدت ضرس العقـل التالف .

وحينما كان ابنائي رضعا ، سرعان مـا ادركت وجود الروابط والاتصـالات

التليباثية . فاذا اردت لابنتي أن تنام طول الليل ، كان علي ان احذر ان ارقد مستيقظا افكر فيها . فاذا فعلت ذلك استيقظت هي على الفور . اما ولدي فقد كان علي ان اتجنب حتى مجرد النظر اليه اذا كان نائما في مهده . فاذا سألتني زوجتي أن القي عليه نظرة لكي ارى ان كان لا يزال نائما ، في الحديقة او في الشرفة ، كان علي ان اتسلل على اطراف اصابعي ، فأرمقه بنظرة سريعة ثم استدير في لمحة خاطفة . فلو اطلت نظري متلكئا وانا احدق فيه ، لفتح عينيه مستيقظا على الفور . وقد حدث هذا في ظروف مختلفة كثيرة في العام الاول من عمره حتى اصبح علي ان اقبل المسألة باعتبارها شيئا طبيعيا . وبعد العام الاول، بدت هذه الروابط التليباثية كما لو كانت تختفي ، او على الاقل تضعف . ولكن حينما بدأ الطفلان يتعلمان الكلام، لاحظت ان هذه المسألة كانت عملية دقيقة تعتمد على الحدس الى حد كبير ـ وليست على الاطلاق مسألة محاولة وخطأ ، او مسألة تعلم « الكلمات الاشياء» وتركيب الجمل منها بربطها فيما بينها، ولكنها مسألة من نوع يبلغ في تعقيده ما تبلغه القدرة التي تبني بها الطيور اعشاشها .(✱) ومرة اخرى انتابني احساس ـ ربما كان وهما ـ بان في وسع الطفل ان يلتقط افكاري وان يرددها ، او على الاقل ان يستجيب لها حينما يحاول ان يعبر عن شيء ما .

ولكن لا بد ـ بين البالغين على الاقل ـ ان يكون انتقال الافكار اقل عادية من انتقال الاحاسيس . ويبدو ان كليهما يعتمدان على توافر الظروف الصحيحة من قدر معين من السكينة والحساسية . ففي يوم ساكن تستطيع احيانا ان تسمع اصوات الناس على بعد اميال .

في الامثلة التي ذكرتها آنفا عن التليباثي ـ اذا كانت هذه من حالات التليباثي ، اي انتقال الافكار والمشاعر دون اتصال مباشر ـ فان عملية«الانتقال» كانت غير واعية وآلية ، مثل تحويل خطوط التليفون . ويبعث هذا على التأمل في احتمال ان تكون الكراهية قابلة للانتقال بنفس الطريقة غيرالواعية. لقد كانت تجربتي الخاصة في هذا الشأن تجربة مشكوكا في امرها ، وانا لا اذكرها الا بهدف استكمال تلك التجارب الشخصية . وقد اجد نفسي وانا افكر فيها بشكل جدي حينما اقرأ الفقرة التالية من الكتاب الذي وضعه ولسون نايتءعن جون كاوبر بويز : « ان اولئك الذين تعرضوا لغضبه او استفزوه قد عانوا صورا مختلفة لسوء الحظ ، حتى ليبدو الامر كما لو كان قد اجبر على ان يعيش حياة

(✱) يؤمن نوؤام تشومسكي ، الفيلسوف اللغوي براي شديد القرب والتشابه مع هذا الراي فيما يتعلق بتعليم الطفل .

تقوم على نزوع عصابي الى فعل الخير خوفا من ان ينزل الاذى بأحـــد لمجرد ان يغضب منه ... ان طموح بويز المبكر الى ان يصبح ساحرا لم يكن حلمــا عاطــلا مــن المبررات .. » ــ(ص ٦٢)

قبل ان انتقل الى كينسنجتون في خريف عام ١٩٥٢ ، كنت أنا وزوجتي قد عشنا في ويمبلدون ، في منزل رجل عجوز كان يعاني من الربو ، وكانت زوجتي هي ممرضته . وفي خلال الشهورالستة التي عشناها في المنزل ، كان قد اصبح اكثر ميــلا للشجار وتزايدت صعوبة التعامل معه ، حتى اصبح يظلنا جو دائم من التوتر مثل النذر المتجمعة لعاصفــة رعديــة عاتية . ولست ممن تحتبس الضغائن فــي صدورهم طويــلا ، ولكن احساسي بالفرق في الحقارة والتفاهة ، وبانني ممنــوع غصبا من التركيز على الاهتمـــام بأشياء اكثر اهمية ، هذا الاحساس انتج لحظات حادة من البغض والكراهيــة للرجل جعلتني اتمنى له الموت . وفي شهر اغسطس ، عدنــا الى المنزل من عطلة نهايــة احد الاسابيع ، لكي نجده قد مــات اثر نوبــة قلبيـــة .

ولكن ، حينمــا تكرر الموقف بعد ثلاثة شهور ، وجدت نفسي اتأمل في وجوم فيمــا اذا كان يمكــن للافكار ان تقتل . كانت مالكــة المنزل كثيرة الشكوك الــى درجــة الجنون ، وسرعان مــا اصبحت المواقف العنيفــة من الوقائع اليوميـــــة الحدوث . وبعد شهريــن ، ذهبت الى طبيب فقال لها انها مصابة بسرطان فــي الرحم . وماتت المرأة بعد مدةقصيرة من مغادرتنا المنزل . وانني لاتـــذكر الآن الطبيعة الفريدة لتلــك النوبات المفاجئة من البغض والمقت الشديدين . وفي بعض المناسبات ، تزايــد الغضب حتى وصل الى الدرجــة التي قــد يــدفع عندهـــا شخصا مصابا بمرض عصابي الى انفجار من العنف قاتل ومدمر . ولكن الانفجـــار لدي كان عقليــا خالصا : انفجار من السخط والكراهية ، يتلوه احساس بالارتياح الناتــج عن التنفيس ، كما لو كنت قد قذفت قالب طوب علــى زجاج نافـــذة فحطمتهــا .

وتتميز تلــك الانفجارات العقلية دائما باحساس غريب فريــد بالصحــــة والاصالة ، وبالحقيقة . واعني بهذا انهــا تبدو بشكل ما مختلفة عن نوبــــات الاحساس الذي يولده الخيال . ولا يمكنني ان احدد هذه الفكرة اكثر من هــذا ، ولكنني اظــن أن اكثر الناس قد خبروا هذا الاحساس .

يكتب بويز فيترجمته الذاتيــة قائلا : « ان البراهين على هذا ــ اعني علــى انني قادر ، وغير واع على الاطلاق ايضــا على ان امتلــك نوعا من « اللامة » (١)

(١) قاموس المورد ــ ترجمة لكلمة evil eye وهي غير الحسد . وفي القاموس الوسيط : كل ما يخاف من فزع او شر او مس ــ والعين المصيبة بسوء ــ الجزء الثاني ص٨٤٦ . هـ.م.

اي أن تكـون لي عين شريرة تنزل الاذى بمن آذوني ، هذه البراهين قـد تراكمت وتخالت حياتي كلهـا حتى لقد اصبح من عادتي ان اصلي لآلهتي بلهفـة وعجلة من اجل كل عدو جديـد . » ـ (ص ٤٨٠)

ان حالة بويز تثير الاهتمام بسبب الطبيعة المتميزة الغريبة لعبقريته . فحتى منتصف الخمسينـات من عمره ، انفق بويز جانبا كبيرا من حياته فـي القـاء المحاضرات في امريكـا ، وكـان قد كتب ثلاث روايـات في اوائل عقده الرابع ، وكانت روايـات ممتعـة ولكنهـا غير بارزة ، ولكنه في عقده السادس اصـدر سلسلة من الروايات الهائلـة ـ في حجمها وفي التصور الـذي تطرحه ـ بدءا بروايتي « وولف سولنت » و « حكايـة حب جلاستونبري » . ان اكثـر ما يلفت النظـر في تلـك الروايات هو ما تحتويه من « نزعـة تصوفيـة في الطبيعـة » وحيويتهـا التي لا تصدق .من الواضح انه استطاع ان يغوص حتى وصل الـى ينبوع ما من ينابيع اللاوعي ،وكانت النتيجـة سيلا متدفقـا فيه من جلال شلالات نياجارا وعظمتهـا شـيء كبير . وربمـا كانت روايـة « حكاية حب جلاستونبري» روايـة فريدة في بابهـا من حيث انهـا الروايـة الوحيدة التي كتبت« من وجهة نظر عين الله » ، وابسط وسيلة نصور بهـا هـذا الراي هـي ان نقتطف فقرتهـا الاولـى :

« في عز الظهيرة من ذات يوم خامس من احد شهور مارس حـدث ان تحركت على بعد نصف ذراع من محطـة سكـة حديد براندون رغم ان ذلك حدث وراء ابعد بحيرات الفراغ وسط اقصى المجموعات النجمية ، تحركت واحدة من تلك المويجات الدقيقـة اللانهائيـة وسط الصمت الخلاق للعلـة الاولـى التي تتحرك دائمـا حينمـا تثيـر وخـزة استثنائية من الوعي المرهف الحاد اي كيان عضوي حـي فـي الكـون الفلكي . عبر شـيء ما في تلـك اللحظة ، موجة ، حركـة ، اهتزازة ، اكثر دقـة ونحولا مـن ان توصف بالمغناطيسيـة ، واكثر ضـآلة وضعفا من أن توصف بالروحانية ، عبرت بين روح كائن انساني بعينه كان يخرج من احدى عربات الدرجة الثالثة من قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة التاسعـة عشرة القادم من لندن وبين الروح الالهيـة الشيطانية للعلـة الاولـى الحيـاة كلهـا » .

تمنح تجريدية اللغـة هنـا انطباعا زائفا عن كتاب يمكن ان يكون اي شيء، الا ان يكون تجريديا . ولكن هذه التجريدية فـي اللغـة تكشف ايضا عن رغبـة بويز في النظـر الى شخصياته واحداثه من وجهة نظر « كونية » ما ، تبدو فيهـا الطحالب الناميـة في بركـة آسنـة واليرقات الدودية في شجرة عفنة ، في مثل اهميـة الشخصيـات الانسانيـة .

وعلى المرء ان يلاحظ الفرضية المسبقة في تلك الفقرة الاولى ، وهي الفرضية الماثلة في كتاب بويز كله : وهي القائلة بأن ثمة نوعا من « الاثير النفسي » يحمل الاهتزازات العقلية ، مثلما يفترض ان « الاثير الضوئي » يحمل مويجات الضوء .

وهذا هو ما اعرفه بانه الاقتراح الجوهري للسحر او لمجموع علوم الغيب ؛ وربما كان هو الاقتراح الاساسي الوحيد . وهو ما سوف يقبل على علاته على طول هذا الكتاب .

ولكن الامر الذي يبدوبالغ الاهمية في بويز هو انه يتعمد ان يأخذ على عاتقه مسؤولية غرس « التعدد العقلي » ، اي القدرة على الخروج من هويته الخاصة لكي يدخل في هوية غيره منالناس بل من الاشياء : « يمكنني ان اشعر بنفسي داخلا في الهوية المتوحدة لعامود يدعم جسرا صغيرا ، او لجذع شجرة ، او لعامود حجري في دائرة صخرية من العصور القديمة ، وحينما افعل هذا ، يصبح شكلي وقد اصبح مثل شكل هذا العامود ، او الجذع او هذه الكتلة من الصخر ». (ترجمة ذاتية ص ٥٢٨) .

وكانت هذه محاولة لدفع عقله بنعومة الى حالة من السكون المتطابق مع « الاثير النفسي » ،اي مع العالم الموضوعي الشاسع الذي يحيط بنا . لقد مر كل الناس بتجربة الاحساس بالغثيان، ثم التفكير في شيء آخر ، ثم الاحساس باختفاء الغثيان . ان « الموضوعية » تتسبب في ان تطفو القوة سابحة الى داخل الروح ، في شكل دفقة كاسحة من القوة والاتصال بالقوى الغريبة الهائلة التي تحيط بنا . وفي مقطع مشهور من قصيدة ووردزورث « استهلال » ، يصف الشاعر رحلة في قارب الى البحر في منتصف الليل ، فتركت قمة منتصبة هائلة في عقله انطباعا عميقا ، ويصف ما حدث بعد ايام من هذه التجربة :

عقلي . . .
راح يعمل باحساس معتم خال من التصميم ،
احساس بالاشكال المجهولة للوجود ،وفوق افكاري
انبسطت ظلمة ، ادعوها الوحدة
او الهجران الصريح . الاشكال المألوفة كلها
لم تبق ، ولا صور الاشجار البهيجة ،
ولا صور البحر ولا السماء ، ولا الوان الحقول الخضراء .
ليس الا الاشكال الهائلة الضخمة ،تلك التي لا تحيا
مثل البشر الاحياء ، تحركت ببطء عبر العقل
في وضح النهار ، فكانت هما لاحلامي . (الكتاب الاول)

كان ووردزورث ، مثله مثل بويز ، قد حقق العبور الى ما وراء شخصيته الخاصة ، وحقق اتصالا مباشرا مع « الاثير النفسي » . ولكنه مع تقدمه في السن فقد هذه المقدرة على التسامي بشخصيته ، وفقد الشعر عظمته . اما بويز فانه لم يفقد ابدا قدرته على استحضار نوع غريب من النشوة . وفي « الترجمة الذاتية » يصف ما حدث اذ كان يلقي محاضرة عن ستريندبرج (١) في مسرح يكاد يكون خاليا في سان فرانسيسكو ، وهناك نبع في داخله ..

« ... ذلك الروح الحارس الغلاب ، الذي يمكن ، مثلما اشرت لكم من قبل ، ان يلمس في مكان ما من طبيعتي ، وهو الروح الذي يملك حينما يلمس قوة الشيطان نفسه ... ادركت لحظتها ، وبحيوية تزيد عن اي ادراك سابق ، ان سر الحياة يتكون من المشاركة في جنون الرب . وانا اعني بعبارة المشاركة في جنون الرب القدرة على استثارة نوع غريب فريد من الابتهاج والجذل في داخل نفسك اذ تواجه الجماد الخالي من الحياة والوعي والحركة ، انه ابتهاج يساوي في ذاته نشوة جنسية كونية حقيقية ... » (ص ٥٣١) .

ويحدث الشيء نفسه مرة اخرى في المسرح الروماني الدائري المكشوف في فيرونا :

« وحيدا كنت في تلك الدائرة الرومانية ، تحت تلك السحب التي لا تسقط منها قطرة مطر واحدة ، برز ذلك العنصر الخارق المعجز في طبيعتي واتضح الى الدرجة التي شعرت عندها — بما لم اشعر به سوى مرة او مرتين منذ ذلك الحين — بانني قد وهبت حقا نوعا ما من القدرة غير الطبيعية .. ولم اشعر بهذا الا مرة واحدة بعدها ، منذ خمس سنوات فحسب ، حينما زرت « ستونهينج » ... ان الاحساس الذي يتملكني في مثل تلك الحالات هو الاحساس باكبر قدر من القوة الغلابة يمكن تصوره .. » (ص ٤٠٣) .

هناك اسباب تبرر الاعتقاد بان بويز لم يفهم دوافع تلك القوة وطريقة عملها . وهناك قصة غريبة نسبت الى بويز وصديقه تيودور درايزر :

---

(١) ستريندبرج — اوجست ١٨٤٩ — ١٩١٢ . اشهر الكتاب الدراميين ، السويديين ، ومن ابرز الاسماء في الدراما الحديثة على الاطلاق . عرف باعماله المفعمة بالتشاؤم والواقعية ، وتاثره بالمارسة الطبيعية ممتزجة بافكار نيتشه . يعد ، مع ابسن وتشيكوف ، احد رواد الدراما السوسيوسيكولوجية . اصيب في منتصف حياته بنوع من الجنون ، وانغمس في اهتمامات علمية غريبة ، ولكنه عالجها بمنهج التجريبي غير علمي ، ودخل المصحات العقلية اكثر من مرة (هـ . م .)

« قال درايزر انه حينما كان يعيش في نيويــورك ، فـي الشــارع السابع والخمسين من الحي الغربي ، كان جــون كاوبر بويز يأتي لتناول الغداء من حين الى حين . وفي هذا الوقت كان بويز يعيش في هذه البلاد في بلدة صغيرة علـى بعد نحــو ثلاثين ميــلا من نيويورك على ضفــة نهر الهدسون ، وكان من عادته ان يغادر منزل درايزر في وقت مبكـر جدا لكي يلحق بالقطار الــذي يستقله الـى بيته . وذات يوم ، وبعــد محادثة طويلة دارت عقب تناول الغداء ، نظر بويز الى ساعته وقال في عجلة انه لم تكـن لديه فكرة عن تأخر الوقت الى هذا الحد ، وان عليه أن يرحل معه فورا والا فاته القطار . وعاونه درايزر على ارتداء معطفه ، وقال بويز وهو في طريقه الى الباب :

« سوف اظهر امامك ، ها هنا ، فيما بعد في هذا المساء . وسوف تراني » .

وقال درايزر :« هل تنوي ان تحول نفسك الى شبح ، ام انك تملك مفتاحـا لباب منزلي ؟ » وضحك درايزر وهو يطرح هذا السؤال ، لانــه لم يكـن يصدق للحظة واحدة ان بويز كــان يعني ما يقول بجدية .

وقال بويز : «لا اعرف انني قد اعود في شكل روح او في شكــل شبحـــي نورانــي مــا » .

وقال درايزر انه لم تكن هنـــاك اية مناقشة من اي نوع في ذلك المساء عــن الاشباح او الارواح او الروى ، وانما دار الحديث اساسا عن الناشرين الامريكيين وعن اساليبهم في العمل ،وقال انهلم يفكر بعد ذلك ابدا في وعــد بويز بالعــودة الى الظهور ، وانما راح فجلس يقرأ لمدة حوالي ساعتين وحيدا . ثــم رفع عينيه عن كتابه فراى بويز واقفا في فتحة الباب القائم بين بهو المدخل وحجرة الجلوس . كان للشبح ملامح بويز ،وقامته الطويلة ، وملابسه الفضفاضة المصنوعة من صوف التويد ومظهره العام ، ولكن وميضا ابيض شاحبا كان يشع من الشخص المائــل امامـــه . نهض درايزر على الفور وخطا خطوات واسعــة نحو الشبح وهو يقول: « حسنا ، لقد بررت بوعدك ياجون. انك هنا . فتعال واحك لي كيف فعلتهــا . » ولم يجبه الشبح ،وانمــا اختفى حينمــا كان درايزر على بعد ثلاثة اقدام منه .

وحالما افاق درايزر الى حد مــا من دهشته ، التقط سماعة تليفونه فطلبرقم منزل جون كاوبر بويز في الريف ، واجابه كاوبر على التليفون وتعرف درايزر على صوته . وبعد ان استمع بويز الــى قصــة الشبح من درايزر قال :«لقد قلت لك انني ساكــون هناك، وان عليك الا تدهش » . وقال لي درايزر انه لم يستطع ابدا ان يحصل على اي تفسير من بويز الذي رفض ان يناقش الموضوع مــع درايــزر

من أي وجهـة للنظر » (*) .

لماذا كان ينبغي على بويز ان يرفض مناقشة المسألة من اي وجهة للنظر ؟ لانه لم تكن لديه فكرة عن كيفيـة قيامه بهذا العمل . لقد اعتمدت المسألة على طبيعـة العلاقـة النفسيـة بينه وبين درايزر : « كان من عادتي ان اشعـر بوعي بانطلاق دفقات من الجاذبيـة المغناطيسية بيني وبين درايزر .. الامر الذي يبـدو لـي بعيدا عـن مجال الكيمياء العضوية ، وراجعـا الى تدخـل قوة غيبيـة غامضة من نوع مـا » . ومن المحتمل ان يكـون ظهور الشبح مقصورا على عقل درايزر وحده: فلو كـان هنـاك شخص آخـر في الحجرة لما كان بوسعه ان يراه .

انني قد ابدو متناقضا مع نفسي بالقول بان بويز لم تكـن لديه فكرة عـن كيفيـة اظهاره لـ « شبحه » . ولكننـي في الحق لا أناقض نفسي . ذلك اننـا الآن مهتمون بالمسألة الاساسية ،وهي مسألة السيطرة « الواعية » على العقل اللاواعي. ان كل وظائفي العضوية ، من الهضم الى الاخراج ، تخضـع لسيطرة اعماقـي اللاواعيـة . فلو كنت في حالـة عصبيـة ، لوجدت انه من المستحيل ان اتبـول في مرحاض عام مع وجود اشخاص آخرين يقفون بالقرب مني ، ولا سبيـل لاي قدر من الجهد الواعي لان يدمر هذا الكبت ، وانما احتاج الى ان استرخي لكي اترك للاوعي مهمة انجاز هذا العمل . كان ستندال (١) يعاني من اضطراب جنسي محرج كان يدعوه « الاخفاق le fiasco » فحينمـا كانت استثارته الجنسية تبلـغ النقطـة التي يصبح فيها متهيئا لممارسة الجنس ، فانه كان يعاني من نوع محرج من انهيار القدرة على هذه الممارسة . ولم يكن بوسع اي قدر من الرغبة الواعية ، تبديهـا شريكته التي خاب املها ، ان تؤدي الى اي فرق . اننـي اذ احـاول ان اتذكـر اسما نسيته فانني اعتمد ثانيـة على « لا وعيي » من اجل « دفعه الـى

(*) و . ا . وودوارد ، « منحـة الحياة » ـ (نيويورك ، داتـون ١٩٤٧،) . اقتطفهـا البروفيسور ويلسون نايت في كتاب « البحث عن العصر الذهبي » ص ١٢٨ .

(١) ستندال ـ الاسم الادبي لـ « بيير بايل » ١٧٨٣ ـ ١٨٤٢ ،رائد الروايـة الواقعيـة والطبيعية فـي فرنسا ، واحد الوجوه البارزة في الفكر الاوروبي مع بدايـة « ازمة الضمير » فـي الحضارة الغربيـة التي بلغت ذروتهـا بيـن سقوط نابوليون حتى الحرب العالميـة الاولى ، بكـل المدارس الفلسفية والفنية التي ظهرت اثناءها وبعدها . يعتبره النقـاد ، الخطوة التي مهدت للظهـور بلزاك فيمـا بعـد في مجال الادب الروائي الواقعي ، وفي اكتشاف شخصيات العالم البورجوازي في عصر مـا بعـد الثورة .اثر ستندال ايضا في بورجيه وتيـن وزولا ، وآخرين كثيرين من كتـاب فرنسا واوروبا : دي جونكور وموبا سان ، وديكنز وثاكري وتورجنيف . اشترك ستنـدال فـي بعض الحروب النابوليونية ، ولكنه كره نابوليون ، وان كان قد احتقر وطنه لانه خذل نابوليون . واحب بايرون لاعجابه ببونابرت، وعاش مثل بايرون ،في المنفى باختياره ، وفي ايطاليا مثل بايرون .(هـ.م.)

اعلى » ، رغم انني في هذه الحالة قد اكـون قادرا على ان اتصرف دون لجوء الـى معونته ، انني قد ابحث عن الاسم في كراسة العناوين عندي ، او ان احصل عليه باللجوء الى حيلـة تداعي وترابط الافكار .

ليس هنـاك سبب يمنع العناوين من تعلم « الحيل » الاساسية للتليباثي ، او حتى « الظهور الشبحي » مثلمـا قد يدرب ذاكرته للوصول الى مستوى اكبـر من الكفاءة او للتخلص من « كبت التبول » عن طريق الايحاء الذاتي . ورغم هـذا فانه يظل عاجزا عـن تفسيـر كل ذلك ، حتى لاقرب اصدقائه .

ويمكن للانتكاس العاطفي الحاد ايضا ان يستثير « الملكات النفسية » . وتقدم لنا حالـة ستريندبرج الكاتب المسرحي مثالا مثيرا للاهتمام . فقد تسبب تحطـم زواجه الثاني في تفجيـر ازمة عاطفيـة اقترب في اثنائها من الجنون . لقد عانى من اوهام وتصورات الاضطهاد ، وصفت كلهـا باسهاب في الكتاب الذي يضـم سيرته الذاتيـة بعنـوان « الجحيـم Inferno » . وكانت النتيجة تطورا لم يكن هو يسعى اليه ولم يحسب حسابه للقدرات النفسية التي تتطابق مـع حالـة بيتر هيركوز . انـه يصف واقعة عارضة من وقائع الظهور الشبحي ، فيقول :

« في خريف عام ١٨٩٥ كنت امر بفترة مرض خطير في العاصمة الفرنسية حينما تغلب على الاشتياق الى ان اكـون في وسط عائلتـي الـى الدرجـة التـي رايت فيها منزلي من الداخل ، وللحظـة نسيت ما كان يحيط بي بالفعل ، لانـني كنت قد فقدت الوعي بالمكـان الذي كنت فيه . كنت حقـا هناك وراء البيانـو مثلمـا ظهرت ولم يكـن لخيال السيدة العجوز دخل في المسالة على الاطلاق . ولكن لانهـا كانت تدرك هذا النوع من حالات الظهور الشبحي ، وكانت تعرف مغزاهـا ، فانهـا رأت في ظهوري هناك انذارا بالمـوت ، فكتبت خـطابا لتسأل ان كنـت مريضـا » . (طبعـة ١٩١٢ ، ص ٨٦) .

ان مـا يثير الاهتمام في هذا التقرير القصير هو ان قدرة ستريندبرج على الظهور الشبحي كانت مرتبطـة بالخيال . لقد تخيل بوضوح الحجرة التي كانت ام زوجته تجلس فيهـا وهي تعزف على البيانو ، وتمكنت كثافـة رؤياه الخياليـة بشكل ما من « عرضه » في داخل تلـك الحجرة الحقيقية . كان قد استخـدم « الاثير النفسي » كمـا لو كـان قـد استخدم التليفون او دائرة تليفزيونية مغلقة .

وفي نفس الكتاب يصف ستريندبرج حادثة ربمـا كانت ذات مغزى اكثـر عمقا . ففي الساعات الباكرة من الصباح ، في اثناء فترة من التوتر العاطفي ، كان جالسا في مشرب للنبيذ ، محاولا اقناع صديق شاب بالا يهجر حياته العسكرية من اجل السعـي الى ان يكـون فنانـا .

« بعد ان سقت ما استطعته من حجج وطرحت عليه مناشدات لا نهاية لها، اردت ان استدعي الى ذاكرته حادثة قديمة على امل ان تؤثر على قراره . كان قد نسي الحادثة التي اردتها ، ومن اجل ان استثير ذاكرته شرعت في وصفها له . قلت : « الا تذكر ذلك المساء في حانة اوجستينر . » ومضيت في وصف المائدة التي تناولنا عليها وجبتنا ووضع الـ « بار » والباب الذي كان الناس يدخلون منه ، وقطع الاثاث والصور . . وفجأة تماما، توقفت . كنت قد فقدت وعيي تقريبا ، ولكن دون ان يغشى علي ، وبقيت جالسا في مقعدي . كنت في حانة اوجستيز ، وكنت قد نسيت مع من اتكلم ، حينما رحت اغمغم بكلمات هي : « انتظر دقيقة ، انا الآن في حانة اوجستيز ، ولكنني اعرف جيدا تماما انني في مكان آخر . لا تقل اي شيء . انني لم اعد اعرفك ، ومع هذا فانني اعرف انني اعرفك . اين انا ؟ لا تقل شيئا . ان هذا لممتع ومثير للاهتمام » ثم بذلت مجهودا لكي ارفع عيني ـ لا اعرف ان كانتا مغلقتين ام لا ـ فرأيت سحابة ، وخلفية ذات لون غير متميز ، ومن السقف هبط شيء مثل ستارة المسرح . كانت هذه هي الجدار الذي يقسم الحجرة الى قسمين ، علقت عليه الرفوف والزجاجات .

قلت : « اوه ، اجل » بعد ان شعرت بغصة من الالم تتخللني وتغمرني .
وقلت : « انني في مشرب « ف » للنبيذ » .
كان وجه الضابط قد اصبح متشنجا بسبب الانزعاج والقلق وبكى .
قلت له : « ما الامر ؟ »
اجابني : « كان هذا شيئا مرعبا » (ص ٩٢ ـ ٩٣) .

يمكننا بالطبع ان نتجاهل الامر كله باعتباره من نبت خيال سترينبرج ،الذي كان مستثارا تحت وطأة الضغط العاطفي . ومن جانب آخر فان هذا الحدث متطابق مع نظرية « الملكات النفسية » التي حاولت ان الخصها ،والتي تحمل طابع الحقيقة . (ان سترندبرغ رجل امين الى درجة ملحوظة ، على الرغم من امراضه العصابية ،مثلما يكتشف القارىء حينما يكون من الممكن له ان يقارن روايته للاحداث برواية شخص اخر) . مرة ثانية علينا ان نقول انه كان مجهدا ـ جسديا وعاطفيا . كان يدفع نفسه فيصل الى اقصى حدود طاقته حينما كان يستخدم قدراته على الاقناع . وان الامر ، ليبدو على النحو الذي يقرره هو نفسه في الكتاب ذاته بقوله : « في الازمات العظمى للحياة ، حينما يصبح الوجود ذاته مهددا ، تكتسب الروح قدرات علوية منزلة » .

ويمكننا ان نعثر على واحدة من اكثر المعالجات لتلك القدرات تماسكا واثارة للاهتمام في الكتاب المسمى « الدفاع النفسي عن الذات Psychic Self Defence » (١٩٣٠) الذي الفته ديون فورشن Dion Fortune ، وهي عالمة نفس فرويدية النزعة ، كان اسمها الحقيقي هو فيوليت فيرث Violet Firth ففي سن العشرين

(عـام ١٩١١) كانت تعمل في مدرسـة ، تحت رئاسة مدير شديد الوطاة قـوي السيطرة ،اخذ موقف النفـور منها ، فوجـه (او هكذا اعتقـدت فيوليت فيرث) تيارا من الشر والخبث النفسي ضدها ، مستخدما اساليب اليوجا والتنويـم المغناطيسي الفنية . وكانت النتيجة ازمة مزمنة ، في صورة احساس دائم بالروع والبؤس اكثر بكثير مما يمكـن ان يسببه هجوم نفسي فعلي . وقادها احتياجهـا لتحليل ذاتهـا الى دراسـة علم النفس (الذي كتبت حولـه عددا مـن الكتب) ، ووصلت فيما بعـد الى الاحساس بأنه حتى نظريات فرويد ويونج تفشل في تقديم تفسير او تصوير عادل حقيقيلقدار ما يتمتع به العقلالانساني من تعقد ، فتحولت الى دراسـة علوم الغيب (كانت تتمتع دائما بدرجة ما من القدرة علـى ان تصبح وسيطا) . وانضمت الى جمعية الفجر الذهبي (وهي جمعيـة للسحر والسحرة سنناقشهـا في القسم الثاني من هذا الكتاب) فاشتبكت في مصادمات نفسيـة ابعد مدى مع مسز ماترز ، زوجة مؤسس الجمعية . ونتيجـة لتلـك التجـارب المزعجـة (*) وصلت الى الاعتقاد بأن في وسع العقـل البشري ان يصد وان يقاوم القوى النفسية المعاديـة التي تبرز (بصورة غير واعية غالبا) وتنبع مـن اشرار الناس وذوي النوايـا السيئة . بل ان الاكثر اثارة للاهتمـام هو الاشارةالى ان العقول المتفائلـة الصحيحـة تصد وتقاوم سوء الحظ العادي ، وان « الميـل للتعرض للحوادث » او سوء الحظ العام هـما نتيجـة لنفسية اصبحت قابلـة للاختـراق والانكسار امام الهزيمـة او التجمد المميت .

وينبغي علي عند هذه النقطة ، ان الخص نظريتي الخاصة الاساسية عن تلك القوى التي يتمتع بهـا العقل .

في روايـة جونسون: « راسيلاس ، امير الحبشة » مشهد ينظر فيه الامير الى منظر المراعي الذي تجلله سكينة السلام في « الوادي السعيـد » حيـث يعيش ، فيتساءل متعجبا لماذا لا يستطيع ان يكون سعيدا مثل الاغنام والابقار . يفكر متاملا بكآبة بينه وبيـن نفسه : « لا استطيع ان اكتشف في داخلي قدرة على الادراك لا تفيض بمتعتهـا التي تتطابق معها كل التطابق ، ومع ذلك فلست اراني مبتهجا . من المؤكـد ان للانسان حاسة كامنـة مستترة لا يوفر لها هذا المكـان ، اشباعا ولا رضا او مسرة ، او أن للانسان نوعا منالرغبات متميزا عن الحواس لا بد من اشباعها قبل ان يستطيع ان يكونسعيدا » . (الفصل الثاني)

الخط تحت العبارة السابقة من عندي . ان « الحاسة الخفية المستترة »هي شهيـة الانسان المفتوحة الى الارتقاء والتطور ، والرغبة في الاحتكاك بالحقيقـة والتواصل معها . ولكن ليس هذا هو كل شيء . من ذا الذي لم يخبر ذلـك

(*) انظر القسم الثالث ، الفصل الثالث .

الاحباط الغريب الذي يأتي في لحظات المتعة والتحقق ؟ حينما كنت طفلا ،كان هذا هو ما اشعر به ازاء الماء . فاذا خرجت مع ابوي في رحلة بسيارة عامة ،كان من عادتي ان اطل برأسي من النافذة في كل مرة نعبر فيها فوق احد الجسور ، شيء ما في مسطحات الماء الواسعة كان يثير في داخلي رغبة مؤلمة وجدتها غير قابلة للفهم . ذلك لانه لو انني اقتربت بالفعل من الماء، فما الذي كان يمكنني ان «افعل» لكي اشبع هذا الاحساس ؟ اشربه؟ اسبح فيه؟ وهكذا، فانني حينما قرات لاول مرة تلك الفقرة من رواية « راسيلاس » ادركت على الفور ما عناه جونسون بقوله :«حاسة كامنة مستترة ما . . او رغبات متميزة عن الحواس لا بد من اشباعها قبل ان يستطيع ان يكون سعيدا »،

واطلقت على هذه « الحاسة الخفية » اسم « الملكة س » ووصلت الى ادراك ان لهذه « الملكة س » علاقة ما بالحقيقة . في « طريق سوان » (١) يصف بروست كيف تذوق قطعة من الكعك مغموسة في الشاي ، فتذكر فجأة طفولته في كومبراي ـ تذكرها بقدر من الكثافة والحدة حتى انه للحظة كان بالفعل هناك . . . « متعة غريبة فائقة الجمال غزت حواسي . . وعلى الفور اصبحت تقلبات الحياة ووجوهها المتبدلة غير ذات قيمة بالنسبة لي ، كوارثها لا ضرر منها ، وقصرها وهم . . الآن لم اعد اشعر بانني متوسط عادي ، ولا عارض عابر ، ولا قابل للفناء . . »

قبل ذلك بخمس دقائق ، كان بوسعه ان يقول : « اجل ، لقد كنت طفلا في كومبراي » ،ولا شك انه وصف طفولته تلك بالتفصيل ، ولكن الكعكة المغموسة في الشاي اصبحت تعني ان يقولها وان « يعنيها » . يقول تشسترتون (٢) :

---

(١) طريق سوان Swans Way عنوان المجلد الاول (في الترجمة الانجليزية) من رواية مارسيل بروست الشهيرة : « البحث عن الزمن الضائع » الذي نشر عام ١٩٢٣ ، وصدرت الترجمة الانجليزية للرواية بعنوان « تذكر الاشياء الماضية » . ويقدم هذا المجلد ـ الذي اصبح أشهر الاجزاء السبعة للرواية ـ نظريات بروست وتاملاته الذهنية حول الانسان والزمن ، التي سيقيم على اساسها بناء ونسيج روايته ـ او جوانب ذكرياته المتعددة ، ذات التركيب الهارموني هي بناء سيفموني متداخل النسيج متقابل التكوين . ويحكي بروست في « طريق سوان » ذكرياته عن « اسرة سوان » التي كان يمر بمنزلها وممتلكاتها على جانبي هذا الطريق مع امه اثناء جولاتهما في طفولته في ريف مقاطعة كومبراي ، وهو احد طريقين كانا يتخذانهما في هذه الجولات . والطريق الاخر هو « طريق اسرة جورمانت » الذي سيحكى ذكرياته عنه ، عن الاسرة والشخصيات والاجواء الاجتماعية المرتبطة به في الجزء الثالث من الرواية ، بنفس العنوان . (هـ . م .)

(٢) تشسترتون (جيلبرت كينيث) ١٨٧٤ ـ ١٩٣٦ . كاتب وشاعر وصحفي انجليزي متعدد الاهتمامات . شملت كتاباته التاريخ والدين والتراجم ، والروايات والمسرحيات والقصص البوليسية. اعتنق الكاثوليكية واصبح مولعا بالاعلان عن ارائه الدينية في كل مناسبة . (هـ . م .)

« اننا نقول اشكرك حينما يناولنا شخصما الملح، ولكننا لا نعني هذه الكلمة . ونحن نقول ان الارض كروية، ولكننا نعني هذه الكلمة ، رغم انها صادقة » . اننا لا نقول الشيء فنعنيه حقا اذا كانت « الملكة س » متيقظة ، ذلك الوصول المؤلم الى ما وراء الحواس . ان « الملكة س » هي مفتاح كل التجارب الشعرية والصوفية ، حينما تستيقظ ، تكتسب الحياة فجأة خاصية حادة نافذة جديدة . كان فاوست على وشك الانتحار في اجهاده ويأسه حينما يسمع اجراس عيد الفصح ، تعيد اليه الاجراس طفولته، وفجأة تستيقظ « الملكة س » ، فيعرف ان الانتحار هو اكثر انواع السخف الخالي من المعنى جدارة بالضحك على الاطلاق » .

« الملكة س » ببساطة ، هي تلك القوة الخفية التي تمتلكها الكائنات الانسانية فتتصل بها الى ما وراء الحاضر . فنحن نعرف ، بعد كل شيء ، معرفة كاملة تماما ان الماضي لا يقل حقيقية عن الحاضر ، وان نيويورك ولاهاسا وسنغافورة وستبنى جرين كلها لا تقل حقيقية عن هذا المكان الذي تصادف انني فيه الآن . « ومع هذا فان حواسي لا توافق على هذا » . انها تؤكد لي ان هذا المكان، هنا والآن ، لاكثر حقيقية بكثير من اي مكان آخر او اي زمان اخر . فلا يحدث الا في لحظات معينة من التبصر الداخلي الحاد الكثيف ان اعرف ان هذا ليس سوى اكذوبة . « الملكة س » احساس بالحقيقة ، حقيقة الاماكن الاخرى والازمنة الاخرى . وان امتلاكها — رغم ما عليه من تشتت مبعثر وعدم يقين او تأكيد — هو ما يميز الانسان من كل الحيوانات الاخرى .

ولكن اذا كانت الحقيقة الثقيلة الوطأة لهذا المكان وهذا الزمن مجرد وهم ، فكذلك هو احساسي بانني هنا والآن . يقول كريشنا في « البهاجادفادجيتا »(٣) :

(٣) بهاجافادجينا : اشهر اجزاء الملحمة السنسكريتية الكبرى : المهابهاراتا (جرب ابنساء بهاراتا العظام — من اجل وراثتهم وعودتهم الى عرش ابيهم) وهي الملحمة التي نشات في وادي الكنج وارض الهند وترجع الى الالف الثاني قبل الميلاد . وتتكون البهاجافادجينا من ١٨ فصلا ، يتوزع عليها الحوار الاخلاقي والديني والفلسفي ، بين بطل الملحمة ، واعظم اخوته « ادجونا » وبين سائق عربته الحربية البطل « كريشنا » الذي هو تجسيد الاله العظيم فشنو . ويعتبر هذا الجزء ، الذي كثيرا ما يقرا مستقلا عن الملحمة ، اعظم تعبير كلاسيكي عن الديانة الهندوسية (وبهاجافادجينا تعني : اغنية الرب المبارك) مثلما تعتبر موعظة الجبل تعبيرا عن جوهر المسيحية ، او خطبة الوداع تعبيرا عن جوهر الاسلام . ورغم خلو البهاجافادجينا من اية ذروة درامية ، فانها في الحقيقة خلاصة لحظة درامية ، باعتبارها الاجابة المطولة التي يقدمها الاله البطل : كريشنا — فيشنو على سؤال ارجونا حينما وقفت جيوشه قبل المعركة الحاسمة تنتظر امره بالهجوم : كيف يمكنه « وهو الذي يبحث عن الحق والخير ، ان يامر بارتكاب خطيئة القتل وسفك الدم ؟ ويتدخل كريشنا ، لكي يوفق فلسفيا بين البحث عن الحق والخير ، وبين فعالية الانسان =

« انني لست هنا ، ولا انا في اي مكان آخر » . وهكذا ، فاذا كان بوسع «الملكةسر» ان تجعل ستريندبرج يدرك بوضوح حقيقة مكان يقع على بعد عدة مئات من الاميال عنه ، افليس من المعقول انها قد « تنقله » الى هناك بمعنى آخر ؟ .

سيكون من الخطأ ان نفكر في « الملكة سر » باعتبارها ملكة « غيبية » . انها ليست كذلك ، انما هي القدرة على الامساك بالحقيقة والقبض عليها ، وهي توحد نصفي عقل الانسان ، الوعي واللاوعي .

فكر في الآتي : ماذا يحدث اذا ذكرتني فجأة مقطوعة موسيقية او رائحة خشب يحترق بشيء وقع منذ عشر سنوات ؟ انه امر يشبه لمس ساق ضفدعة ميتة بسلك يحمل شحنة كهربائية . يتقلص عقلي ويتقبض ، اذ يقبض فجأة على « حقيقية » ذلك الزمن الماضي كما لو كان هو الحاضر . الشيء نفسه هو ما يحدث لمارسيل بروست في « طريق ابجع » حينما يتذوق الكعكة المغموسة في الشاي — فهذا الماضي يفيض عائدا متراجعا كالحقيقة . ان ما يحدث هو ان وعينا المشتت الكسول بشكل عادي « يركز » ، مثلما قد اقبض قبضتي في تشنج . ان النغمة او الرائحة لا توفر اكثر من المثير او المهيج ، وتقوم قوتي الداخلية بالباقي — وهي قوة داخلية لا ادرك وجودها بشكل طبيعي — .

منذ بضع سنوات ، اجرى علماء النفس تجربة كلاسيكية على قطة . ربط سلك بالعصب الممتد بين اذن القطة ودماغها ، وربط الطرف الآخر للسلك بمولد كهربائي صغير ينتج نبضات كهربائية منتظمة . وحينما كان ينطلق صوت مرتفع بالقرب من اذن القطة ، كانت ابرة المسجل تقفز بعنف . ثم وضع قفص مليء بالفئران امام القطة . وراحت هي ترقب الفئران بتمعن . ثم اطلق نفس الصوت المرتفع بالقرب من اذنها . ولكن الابرة لم تتحرك . كانت القطة شديدة الاهتمام والتركيز بالفئران حتى انها تجاهلت الصوت . وبشكل ما « اطفأت » او اوقفت تشغيل الرابطة الجسدية المادية بين الاذن والدماغ . لقد اختارت ان تركز على شيء آخر .

= بوصفه كائنا اجتماعيا ، مبينا للبطل انه لن يفقد فضيلته اذا اجترح الشر دون غرض او رغبة انانية في الحصول على ثماره لنفسه ، ودون ان يفقد رؤيته الحقيقة النهائية والمطلقة. وهكذا تتم المصالحة بين الفعالية وبين النزعة الروحية النهائية والمطلقة من خلال تفسير الموقف الاصلي للانسان ونواياه (انما الاعمال بالنيات) . وتبين نهاية الملحمة كلها هذا المعنى ، اذ يفضل ارجونا واخوته بعد انتصارهم وفوزهم بالجميلة دروباوي وبالعرش ايضا ، يفضلون ان يهجروا كل شيء ، ويذهبوا الحياة كنساك زاهدين في جبال الهيمالايا المقدسة (بعكس النهاية المعتادة للملحمة الغربية : الفوز بالغنائم والتمتع بها) (هـ . م)

تمتلك كل المخلوقات الحية تلك القدرة على « التركيز » على شيء يثير اهتمامها، ثم « تطفىء » كل شيء آخر . ان الشخص الذي اعتاد على مدينة حديثة ، من المحتمل ان يطفىء ، او ان يقطع تأثير اكثر من ٩٩ بالمائة من المثيرات التي تقع على الحواس. ونحن كلنا نعرف هذا . ولكن الشيء الذي لم ندركه بعد هو القدرة غير العادية التي نمتلكها في صورة مقدرتنا على التركيز على جوانب بعينها من الحقيقة . وهذه القدرة هي « الملكة س » ، ولكننا في هذه اللحظة ، لا نكاد نستفيد منها بشيء، غير واعين بامكانياتها الكبيرة .

ان الامر ليستحق طرح هذا السؤال : ما هي « وظيفة » الوعي ؟ حينما تكون غارقا في سبات النوم ، لا تكون مالكا لاي وعي . وحينما تكون متعبا جدا ، فان وعيك يكون مثل ضوء خاب لا يكاد يضيء شيئا . وحينما تكون كامل اليقظة والاستثارة ، فان الوعي يبدو كما لو كانت قوة اضاءته (مقيسة بعدد شمعاتها) تزداد . هدفه ووظيفته هو ان يضيء الحقيقة ، ان يمتد الى داخل طواياها ، وهكذا يعيننا على ان نتصرف فيها وان نغيرها او ان نبدلها . ومن الواضح ان هدفنا الرئيسي ينبغي ان يكون زيادة قوة اضاءة هذا الوعي . فحينما تكون اضاءته منخفضة تصبح الحقيقة « غير حقيقية » وحينما يزداد قوة ، تصبح الحقيقة اكثر حقيقية : وهذه هي « الملكة س » .

ان واحدا من اوضح امثلة اعمال « الملكة س » ليمكن ان يعثر عليه في المجلد العاشر من كتاب آرنولد توينبي (١) : « دراسة للتاريخ » حيث يصف كيف قرر ان يكتب هذا العمل . انه يتحدث عن الاحساس بـ « الحقيقة » الذي ينتاب المؤرخين فجأة : « ان كاتب هذه الدراسة قد عاش تجربة صغيرة حقيقية من هذا النوع ، في اليوم الثالث والعشرين من مايو عام ١٩١٢ ، بينما كان جالسا يروح عن نفسه على قمة قلعة ميسترا ، بينما الجدار الاصم لجبل تايجيتوس يؤطر الافق امامه في الجانب الغربي من المنطقة ، الى حيث كان يحدق ببصره ، وكان

---

(١) توينبي ـ ارنولد جوزيف ـ ١٨٨٩ ـ ١٩٧٥ . المؤرخ البريطاني المعاصر الشهير ، والكتاب الذي يذكره ويلسون هنا هو اشهر اعماله ، ويضم دراسة شاملة للحضارات الست التي اعتبرها توينبي اهم الحضارات الانسانية في التاريخ (المصرية واليونانية والهندية والرومانية والاسلامية والمسيحية الغربية) وهي دراسة تهدف الى اثبات فلسفته التاريخية القائمة على مزيج من التفسير الميتافيزيقي (التاريخ باعتباره انعكاسا لتجلي الروح الانسانية) والتفسير الفردي (التاريخ باعتباره انعكاسا لرؤى الافذاذ المتوحدين) الذين يجسدون مدارج تطور روح الانسان) . وقد رأى توينبي ان التاريخ يسير في دوائر مقفلة (كل دائرة حضارة مستقلة) تولد وتنمو وتتحلل وتنهار حتى دمارها النهائي . ورأى توينبي ـ على عكس شبنجلر ـ انه من الممكن انقاذ الحضارة الغربية على ايدي الاكليروس والنزعة الكهنوتية (هـ . م) .

سهل اسبرطة المفتوح يمتد متراميا في الجانب الشرقي المقابل ، من حيث كان هو قد جاء في ذلك الصباح ... »

« لم تكن التجربة الحسية التي اثارت خياله التاريخي صوت ترانيم لاغنيات شعائر دينية ، انما كانت منظر الاطلال التي شق وسطها طريقه صعدا الى القمة ، وقد كان هذا المشهد مرعبا مروعا ، ذلك انه في مدينة الجنيات المدمرة تلك ، كان الزمن قد وقف ساكنا منذ ذلك الربيع من عام ١٨٢١ بعد ميلاد المسيح الذي اقفرت فيه مدينة ميسترا من ابنائها .. ففي صباح يوم من ايام شهر ابريل ، ومن قلب زرقة السماء ، انهمر سيل ابناء الجبال المتوحشين من فوق جبل ماني فامتلكوها ، واجبر اهلها على الفرار طلبا للنجاة بحياتهم ، وسلبوا وذبحوا في فرارهم ، ودمرت منازلها المهجورة ، وتركت منازلها مقفرة منذ ذلك اليوم الى هذا اليوم ... »

لم يكن ما طرا لتوينبي في هذه المناسبة هو ببساطة مسألة « اللغز القاسي لجرائم البشرية وبلاهاتها » . وانما الحقيقة « الكلية » للمشهد الذي استحضره بخياله . وهو يذكر ست تجارب اخرى ظهر فيها نفس تأثير الحقيقة من ابتعاث الرؤى الوهمية واستحضارها . فاذ كان يقرأ كيف واجه زعيم منفي هارب من زعماء حركة الوحدة الايطالية زوجته حينما رفضت ان تساعده ، فانتحر امام عينيها ، كان يقرا هذه الواقعة : « فنقل في ومضة واحدة عبر هوة الزمان والمكان ، من اوكسفورد في عام ١٩١١ بعد ميلاد المسيح الى مدينة تيانوم عام ٨٠ قبل الميلاد ، لكي اجد نفسي واقفا في فناء خلفي في ليلة مظلمة ، اشاهد ماساه شخصية ... » وهو يسجل تجارب مشابهة ـ وكلها في اختصار شديد ـ حينما كان يقرأ ما كتبه برنال دياز وهو يصف كيف وقع بصر الاسبانيين لاول مرة على مدينة « تينو شتيتلان » ، ثم وهو يقرأ ما كتبه فييهاردوين في وصفه لرؤيته الاولى لمدينة القسطنطينية خلال الحروب الصليبية ، ثم وهو يقرأ ما كتبه جندي يوناني في وصف كيف حاول ان ينقذ فتاة من الاغتصاب . واخيرا تاتي تجربة يغيم فيها ويختفي الخط الفاصل بين « الملكة س » وبين التجربة الصوفية :

« في كل واحدة من التجارب الست التي سجلتها لتوي ، كان الكاتب قد اصبح غارقا في تواصل مؤقت مع الممثلين الحقيقيين لكل حدث تاريخي بعينه من خلال ما وقع على خياله من تاثير نظرة آسرة مفاجئة الى المشهد .. ولكن ثمة مناسبة اخرى وهب فيها تجربة اكبر واكثر غرابة . في لندن ، في القسم الجنوبي من طريق باكينجهام بالاس ، كان الكاتب يسير متجها الى الجنوب على طول الطوار المحاذي للجدار الغربي لمحطة فيكتوريا ، وكان الوقت بعد ظهر يوم لا يبعد كثيرا عن تاريخ بداية الحرب العالمية الاولى .. ووجد الكاتب نفسه

منغمسا في تواصل ، ليس فقط مع هذه الحادثة او تلك من احداث التاريخ ، وانما مع كل ما قد كان في الماضي البعيد او القريب ، ومع كل ما سوف يجيء . في تلك البرهة ، كان مدركا بشكل مباشر لمسيرة التاريخ منسابة عبره برقة في تيار عتي ، ومدركا لحياته الخاصة تتهادى كالموجة في انسيابة هذا المد الشاسع العريض . واستغرقت التجربة وقتا كفاه طوله لان يرى بعينيه السطح الاحمر المصنوع من الطوب في عصر الملك ادوارد ، والواجهات الحجرية البيضاء لجدار المحطة تمر على شماله ، ولان يتعجب — نصف مدهوش ونصف مسرور — متسائلا عما يجعل هذا المشهد العادي المتنافر هو الاطار والموقع المادي لنوع من الاستنارة العقلية . بعد لحظة او لحظتين ، كان التواصل قد توقف ، وكان الحالم قد عاد ثانية الى عالمه اللندني اليومي الذي كان هو وسطه وبيئته الاجتماعية حيث يعيش ويقطن .. » (*)

هذه الصفحات التي كتبها توينبي تقف بين اوضح ما كتب من وصف لعمل « الملكة س » ، وهي تبرز النقطة التي كنت احاول صياغتها . فحينما اكون نصف نائم ، فان احساسي بالواقع يكون مقصورا على نفسي مقيدا بها وبما يحيط بي بشكل مباشر . وكلما ازددت يقظة ، كلما طال امتداده . ولكن ما ندعوه « الوعي المستيقظ » لا يكون في العادة افضل بكثير جدا من النوم . اننا نظل مجلببين في حلم يقظة بليد وسلبي . ولكن هذا لا يرجع الى ان ثمة حدودا طبيعية للوعي ، وانما هو يرجع فقط الى اننا نظل غير مدركين لان هذا الوعي يمكن ان يمتد . اننا مثل الكلاب التي تظن انها مربوطة بالقيد او السلسلة ، بينما هي حرة في الحقيقة .

ان « الملكة س » ليست « حاسة سادسة » وانما هي قدرة عادية من قدرات الوعي . ولا بد ان يكون واضحا مما كتبته فيما سبق انها هي المفتاح ، ليس فقط لما يدعى بالتجربة الغيبية ، وانما لمجموع مستقبل ارتقاء الجنس البشري .

(*) دراسة في التاريخ (اوكسفورد ، ١٩٥٤) المجلد العاشر ص ١٣٠ — ١٤٠ .

٢
الجانب المظلم من القمــر

في خريف عام ١٩٦٦ ناقشت مسائل علوم الغيب مع الشاعر روبرت جريفز في بيته في ماجوركا . وعلى الفور ، اطلق جريفز ملاحظة جعلتني اجفـل . « ان القدرات الغيبية ليست بالندرة التي تتخيلها. فهناك واحد من بين كل عشرين يمتلكها بشكل مــن الاشكــال » .

كان ما اثار اهتمامي الى درجة كبيرة هو الرقم الدقيق : ٥ بالمائة . فهذا ايضا هو رقم « الاقليــة المهيمنة » بين الكائنات البشرية . في السنوات الاولى من هــذا القرن ، سأل برناردشو ، المستكشف هنري ستانلي عن عدد الاشخاص بين رجاله الذيــن استطاعــوا ان يتولوا قيادة جماعــة الاستكشاف حينمــا كان ستانلـــي نفسه مريضا . قال ستانلي : « كانت نسبتهم واحدا بين كل عشرين » وقال شو: « هل هــذا الرقم تقريبي ام بالتحديد ». واجاب ستانلي : « بل بالتحديد » .

وقد اعاد الصينيون اكتشاف مسألة الـ ٥ بالمائة المهيمنة في خــلال الحرب الكورية . فرغبة منهم في الاقتصاد في القوة البشرية ، قرروا ان يقسموا اسراهم الامريكيين الى مجموعتين : القادريــن على التفكير في مشروعات مــا وتنفيذها ، والسلبيين . وسرعان مــا اكتشفوا ان الجنود القادريــن على التفكير والتنفيــذ كانوا بالتحديد واحدا من بين كل عشرين : ٥ بالمائة . وحينما ابعدت هــذه الـ ٥ بالمائة عن بقيــة المجموعة ، كان من الممكــن ترك الآخريـــن دون حراسة علـى الاطــلاق تقريبــا .

والادلة المستقاة من علم الحيوانات تشير الى انه من الممكــن لظاهــرة الـ ٥ بالمائــة المهيمنة ان تنطبق على « جميــع » الحيوانات .

ويبرز هنــا السؤال الهام : الى اي مدى يمكن ان يكون افراد الـ ٥ بالمائــة

المهيمنين من الناحيـة البيولوجية هم الشيء نفسه الذي تعنيه « الـ ٥ بالمائة من اصحاب القدرات الغيبية » الذيـن اشار اليهم جريفز ؟ من المؤكـد ان هنــاك اسبابا عديدة تدفع الى الزعم بتطابق المجموعتين . ففي المجتمعات البدائية يكـون الزعمـاء القادة هم ايضا الكهنـة والسحرة . والرجال الذيـن قادوا جماعـات الصيد لا بد انهم كانوا ـ مرة اخرى ـ هم الذيـن امتلكـوا درجـة عاليـة مـن « حساسية الادغال » . ما هي القدرة التي تميز القائد الزعيم ؟ انها القدرة علـى التركيز ، تركيز الارادة في لحظات الطوارىء والخطر . وهذا معناه القول بانهـا شكل من اشكـال « الملكـة س » .

باختصار ، يبدو من المحتمل ان كل الناس يملكون اثرا باقيـا من « القـوى الغيبية » ، القوى التي تنبع من المستويات الاكثر عمقا لحيويتهم ، تلـك التـي اطلق عليهـا جرانفيل باركـر الكاتب المسرحي اسم « الحياة السرية » . ان افراد نسبة الخمسـة بالمائـة المهيمنين ماهرون في توجيه تلـك القوى وترويضها اكثر من معظم الناس . ان السحرة ، والاطباء الذيـن يستخدمون السحـر والعرافين والوسطاء كانوا من اعضاء نسبة الخمسة بالمائة المهيمنين الـذين طـوروا قدراتهـم الطبيعيـــة .

ويتدفق ضوء جانبي آخر هام على هذا الموضوع عن طريق البحث الحديث حول التنويم المغناطيسي الذي يبعث على النعاس العميق ، وقد وصف جانب منه في كتاب « العقل والجسد » الذي وضعه الدكتور ستيفن بلاك (*)

ويشير الدكتور بلاك الى ان معظم الناس يمكـن تنويمهم مغناطيسيا اذا هـم تعاونوا في هذا الاتجاه ـ ان الشخص الذي لا يقبل التنويم المغناطيسي قد يكون مريضا عقليا ـ ولكن عددا ضئيلا فقط من الناس هم « القابلون للنعاس العميق » . ومن الغريب تمامـا ان عددهم الدقيق تبلـغ نسبته خمسة بالمائة مـن البشر . ويمكن معالجة من يقبلون النعاس العميق من عدد مدهش من الاوجاع الجسدية عن طريق الايحاء في حالة التنويم ـ اوجاع تبدا من الربو الى الدمامل الصغيرة . وحتى من يقبلون درجـة متوسطـة من النعاس عن طريق التنويم ، يمكن الايحـاء اليهم في حالة النوم المغناطيسي فـلا تتاثر جلودهم بعد التلقيح بالطعـم المضاد للتدرن الرئوي الذي يتسبب بشكل طبيعي في ورم خفيف فـي موضع التلقيح . وقد تمت معالجة مرضى كانوا يعانـون من عدد كبير من الدمامل الصغيرة علـى مرحلتين ، بمعالجـة جانب واحد في كل مرحلـة ، من قبيـل التأكـد مـن ان الدمامل لم تختف من تلقاء نفسها . والمعتقـد أن هذه الدمامل تظهـر بسبـب

(*) لندن ، ويليـام كيمبر ، ١٩٦٩ .

العدوى من « فيروس » معين ، ومع هـذا فقد اختفت دون ان تترك آثار ندوب في فترات تتراوح بين خمسة اسابيع وشهرين .(*)

ولكن تجارب الدكتور بلاك كانت اقل اهتماما بمعالجة اوجاع بعينها منها باهتمامها باثبات ان الجسد يمكن ان يتأثر بالعقل الى درجة غير عادية ، وفي هذا المجال كانت تجاربه ناجحة الى درجة بارزة . والقضية هنا ، مرة ثانية ، هي القدرة الخفية للعقل اللاواعي ، والتي يمكن الوصول اليها واستخدامها عن طريق « التنويم المغناطيسي العميق » في نسبة من البشر تبلغ خمسة بالمائة . ان خمسة بالمائة من البشر قادرون ــ احتمالا على الاقل ــ على الوصول الى عتبات القوى الخفية لـ « الحياة السرية » .

اما جريفز فأقل اهتماما بالسحرة واصحاب الاسرار الباطنة (**) منه بالشعراء ، ويحتوي كتابه الهام : « الربة البيضاء » نظرية عن طبيعة الشعر لا تربط بين الشعر وبين قدرات اللاوعي فقط ، وانما تربط بينه ايضا وبين العبادات السحرية التقليدية .

هناك ، طبقا لما يقوله جريفز ، شكلان من الشعر : « شعر عرائس الفنون « Muse Poetry » و « الشعر الابوللوني « Apollonian Poetry » . الاول يخلقه « الالهام ، ويحكمه الذوق » ، اما النوع الثاني فيخلقه الذهن ، وهو يربط بين « شعر عرائس الفنون » وبين الربة البيضاء في الديانات القمرية البدائية . اما العلم ، مثله مثل الشعر الابوللوني المنسوب الى اله الشمس ، فهو محاولة للقضاء على كل الخرافات القمرية والتنعم والاستدفاء في نور العقل الشمسي النقي » .

ان تعليق جريفز عن اصل « الربة البيضاء » لمثال بارز على ما يعنيه بالحدس الشعري :

« بدات الاستنارة ذات صباح حينما كنت اعيد قراءة ترجمة اللاديتشارلوت

(*) انظر مقالة كتبها سنكلير وجيبين في مجلة « ذي لانسيت « The Lancet » في عدد اكتوبر ١٩٥٩ ص ٤٨١ .

(**) يقول : « لست الان من اصحاب الاسرار الباطنة ، انني اتجنب باصرار عمليات السحر ، والروحانية واليوجا ، وقراءة المستقبل والكتابة الآلية ، وما الى ذلك» . (خمسة اقلام في اليف نيويورك ، دوبلداي ١٩٥٨ ، ص ٥٨) .

جست للحمــة « المابينوجيون « The Mabinogion » (١) وهو كتاب يضم اساطير ويلز القديمة ،فوجدت قصيدة غنائية مزدراة تدعى «اغنية تاليزين» (٢). وفجأة عرفت (ولا تسالني كيف كان ذلك) ان سطور القصيدة التي كان الناس يهملونها دائمـا باعتبارهـا هراء فارغـا لا شك فيه ، قد كونت سلسلة مـن الالغاز المنسوبة الى بواكير العصور الوسطى ، وعرفت انني قد اكتشفت حلول كـل هذه الالغــاز المحيرة . رغم انني لم اكن دارسـا متخصصا في التراث الولزي ، ولا دارسـا متخصصا في تراث العصور الوسطى ، ورغم ان العديد من سطور القصيدة كانت قد تغيرت مواضعهـا عمدا ، ربمـا بيد مؤلفهـا (او بايدي خلفائه) لاسبـاب تتعلـق بالامـــن .

« وعرفت ايضا (ولا تسالني كيف كان ذلك) ان الاجابة لا بد ان تكون بشكل ما مرتبطـة بحكايـة شعرية ويلزيـة قديمة تدور حول « معركة بين الاشجار » ورد ذكرهـا في ملاحظات وهوامش اللادي تشارلوت جست على ترجمتها للمحمـة « المابينوجيون » ، وتتخلل القصيدة اسماء طائر من الطيور المائيـة (ابو طيط) وكلب وظبي من العالم الآخر ، وينتصر في المعركة اله معين استطاع ان يخمن ان اسم غريمه المقدس هو « فرون » او « آلدز Alder » . لم يحاول احد من قبل ابدا ان يفسر هذا الهراء . والاكثر من هذا ، هو ان كلا النصين ، لا يمكـن ان يكـون لهمـا معنى الا في ضوء التقاليـد الايرلندية الدينية والشعرية القديمة . ولست دارسـا التراث الايرلندي ايضا .

---

(١) المابينيوجيون The Mabiniogion ـ مجموعـة متصلة الحلقات من الحكايات الشعبية والاسطورية في ويلز القديمة ، تتصل اساسا بحياة الملك آرثر وفرسان المائـدة المستديرة . وتعـد افضل صياغة اوروبية محليـة للاساطير المسيحية الاولى ، مثل اسطورة الكاس المقدسـة واسطورة الرداء وبارباس اللص . وكانت هذه الحكايات مكتوبة في الاصل باللغـة الوثنيـة القديمـة ، التي هي فرع من اللغات الكلتية والغالية الاقدم عهدا ، ولذلك ظلت مختفية عن الاداب الرسمية ،وعصية على افهام الدارسين الى ان تمت ترجمتهـا في القرن الثامن عشر . وتتضمن المابينيوجيون تنويعات هامة وممتعـة عديدة حول مغامرات الملك آرثر وفرسانه ، وعنهـا نقل شعراء وكتاب كثيرون ، مـثـل مالوري في « موت آرثر » وآخرين من اوائل الرومانتيكيين . (هـ . م) .

(٢) تاليزيين Taliesin ـ اقدم واعظم الشعراء الشعبيين في ويلز القديمة ، الذي جمع الاغاني والاساطير الويلزية في ملحمـة واحدة نسبت اليه . ولكن كثيرين من الباحثيـن فـي الادب الكلتي القديم يعتبرونه ، هو ذاته ، اسطورة ، مثلما ينظـر بعض الجريجولوجيين الى هوميروس . وقد نسبت اليه كميات من الشعـر في مختلف الانواع ، اكثر تنوعـا وحجما مما يمكن لشاعر واحد ان يؤلف في خلال عمر واحد بالغ الطول الى درجـة غير عادية . ولكـن شعراء الرومانتيكيـة الانجليزيـة اولعوا به ، ومنهم تنيسون وتوماس بيكوك وغيرهما (هـ . م) .

« ولما لم تكن هناك اية علامة على وجود الجنون في عائلتي ، فانني لم اكن استطيع ان اصدق انني على وشك الجنون . كان الاكثر احتمالا هو ان الهاما ما قد هبط علي . وهكذا فقد قررت ان اتأكد من الموضوع بمساعدة رف ممتلىء من الكتب الموثوق بها حول الادب الكلتي وجدتها في مكتبة والدي (وغالبيتها كانت موروثة عن جدي ، وكان مولعا بجمع الآثار الايرلندية الصغيرة النادرة) ولكنني لم اكن قد قرأت واحدا منها .

« ولكي اختصر قصة طويلة ، اقول ان اجابتي على اللغز ، وهو بالتحديد الاسماء المكونة من حروف تنتمي الى ابجدية درويدية Druidic (1) قديمة ، تطابقت بدرجة مخيفة من الدقة مع « اغنية تاليزين » التي لم تكن هراء فارغا الى الحد الذي كان ذائعا عنها . وثبت ان قصيدة « معركة الاشجار » كانت طريقة لا هراء فيها كما كانوا يزعمون لوصف الصراع بين الكهنة المتنافسين في بريطانيا الكلتية من اجل السيطرة على المعرفة والتعليم القوميين . ترون الآن انني اكتشفت ان كلمة « اشجار » تعني « التعليم » في كل اللغات الكلتية ، ولما كانت الابجدية هي اساس كل تعليم ، ولما كانت الابجدية الدرويدية (مثلما تذكرت عن كتاب يوليوس قيصر « الحروب الفالية ») سرا يوضع تحت الحراسة الغيور في بريطانيا وغالة — حقا ، فان طلاسم حروفها الثمانية عشر لم تحل لما يقرب من الف سنة — فلا بد ان امتلاك السر كان شيئا يستحق الصراع من اجله . واكتشفت أيضا ان الابجدية في عصر قيصر كانت تدعى « بيوبل لوث Biobel - Loth لانها كانت تبدأ بالحرفين ب ، ل ، وانه نتيجة لـ « معركة الاشجار » حلت الـ « بيوبل لوث » محل ابجدية كلتية اخرى اقدم عهدا شديدة الشبه بها ولم تقل عنها سرية وغموضا ، كانت تدعى : بيث ليوس نيون Beth - Luis - Nion » كانت حروفها الثمانية عشر تفسر باعتبارها اشارات الى مجموعة من الاشجار البرية ،بما فيها شجر الآلدر Alder . واكتشفت ان

---

(1) درويدية — نسبة الى درويد Druid الكاهن الواحد من جماعة مغلقة من الكهنة القدماء في بلاد الغال وبريطانيا قبل الفتح الروماني . انهم حفظة الديانة التي نسبت اليهم ، وهم السحرة الذين كانوا يقيمون طقوسهم في غابات البلوط الكثيفة في غرب اوروبا ، وكانوا يعبدون شجرة بلوط ضخمة او يعتبرونها رمزا للاله ، كما كانت ابجديتهم مستمدة من الاشجار . تعود اقدم المعلومات المنظمة المتوافرة عنهم الى كتابات بلليني الاكبر ومذكرات يوليوس قيصر اثناء غزوه لبريطانيا ، ومنهما نعلم انهم جماعة مغلقة سرية ، تعبد الشجر ، وتدرس النجوم والطبيعة ، وتؤمن بتناسخ الارواح وانتقالها ، وتعالج السحر ، ولا علاقة بينها وبين جماعات الكهنة السرية الاخرى المنتشرة على شواطيء بحر الشمال او البلطيق . وكان رمزهم المميز هو « بيضة الثعبان » ساكن الشجرة ،التي نسبوا اليها قدرات خرافية هائلة ، وقال بلليني انه راى احداها في حجم التفاحة الكبيرة . (هـ . م .) .

هذه السلسلة من الاشجار كانت تخـدم غرضا مزدوجـا : باعتبارهـا ابجدية ، وباعتبارهـا تقويمـا مقدسـا ــ فالحروف الساكنة في كلمة الشجـرة Tree تشير الى الشهور التي تزدهـر فيهـا تلك الاشجار وتشتهر بها ، امـا الحروف المتحركـة في الكلمـة فتشير الى منازل الشمس او ابراجها ، والى الاعتداليـن والانقلابين . انه تقويم يمكـن اثبات وجوده عن طريق استخدامات الاشجار في الاعياد في اوروبا كلها ، ومن الممكـن ملاحظته في العصر البرونزي (وربمـا قبل هذا) منتشرا من فلسطين حتى ايرلندا ، وكان مرتبطـا في كل مكـان بعبارة ربة القمر الثلاثيـة التكويـن قبل ظهور الشعوب الآرية ، والتـي كانت فـي بعض الاحيـان تدعى « ليوكوشيا » اي « الربة البيضاء » .(*)

ان مـا توصل جريفز الى اكتشافه من خلال البحث وسلسلة من المصادفات ، هـو ان ربة القمر الثلاثية التكويـن كانت رمزا عالميـا في الشعـر والديانـات الاسطوريـة في العصر قبل المسيحي : الاغريقي ، والكلتي والفينيقي والرومانـي والاسكندنافـي والهندي ، بـل والافريقـي .

« ان اكثر الحقائق المنفردة اهمية في التاريخ المبكر للديـن والاجتمـاع الغربيين ، كانت دون شك ، عمليـة الكبت التدريجيـة لعبادة الربة القمريـة الام الملهمـة ، بالاضافـة الى كبتها .. على يدي ، او من خـلال عبادة الرب الشمسي ابوللو العقليـة المزدحمة بالعمل ، هذه العبادة التي رفضت الابجديـة الموسيقية للاشجار وفضلت عليهـا الابجديـة الفينيقية التجارية ــ الـ « أ ب ت » المألوفـة ــ ففرست بذلك بدايـة الادب والعلم الاوروبيين » .

كانت ربة القمر هي ربة السحر ، ربة اللاوعي ، ربة الالهام الشعري . وقـد تم صبغ الديانة الاسطورية للانسانية بالصبغـة « الشمسية » ، ثـم حدث فـي الغرب ان تم تنصيرها ، او صبغها بالصبغـة المسيحية ، واغتصب رب العقـل المذكـر لنفسه مكانـا متزايـد الاهمية ، مزودا على الدوام بتلـك الحجة التي لا تقاوم ، والتـي تقول بأنه يمكنك ان ترى الشيء في ضوء الشمس بشكل اكثـر وضوحـا ممـا تراه في ضوء القمر . ولكن هذا ليس صحيحا . على العكس ، ان اشيـاء بعينهـا تصبح غير مرئيـة في الضوء القوي . ان الوعي الزائد عن الحد ، وحالات التفكيـر العقليـة تشبه شبكـة الصيـد الواسعـة الثقوب التي تهرب من خلالهـا كل الاسمـاك الصغيـرة .

ويصف جريفز كيف تملكته الافكار والهواجس المتعلقـة بالربة البيضاء وشجرتهـا المقدسة ، شجرة الآلدر ، في عام ١٩٤٤ ، حينمـا كان يكتب روايـة

(*) محاضرة حول « الربة البيضاء ، خمسة اقلام في اليد » ص ٥٤ .

عن « جاسون وركاب سفينة الآرجو » (١) . كان على مكتبه في ذلك الوقت ، صندوق نحاسي صغير نقش على غطائه رسم غريب . وفوق هذا الصندوق كان يضع تمثالا نحاسيا صغيرا لرجل احدب يعزف على آلة الفاوت . وبعد عشر سنوات اكتشف ان الرسم الموجود على غطاء الصندوق كان يمثل ربة القمر الثلاثية التكوين الافريقية « نجام » ، وان الرجل الاحدب كان الرسول الخاص للملكة ام في دونة افريقية كانت تزعم انها من نسل « نجام » مباشرة . واذ عاد الى ماجوركا في عام ١٩٤٦. استمرت المصادفات في التراكم . فقد مات جار له كان من هواة جمع التحف فأوصى بمجموعة من الاشياء الصغيرة لجريفز ، كان من ضمنها تمثال يشبه الدمية له عين واحدة . واكتشف فيما بعد ان هذه الدمية كانت تمثالا لكاهن من كهنة « اوكرافو Okrafo »، وهو بديل للقربان البشري الذي كان يقدم للربة البيضاء . واهداه احد الاصدقاء خاتما له فص من العقيق الاحمر ، ولم يكن الصديق يعرف شيئا عن الكتاب . وكان على الفص نقش لختم تبدو فيه الرموز الثلاثة الاساسية لهذه العبارة : ظبي وقمر وايكة مورقة .

وحتى بعد ان انتهى الكتاب ، استمرت الاشياء الغريبة في الحدوث . فقد مات اول من رفضه من الناشرين بسبب هبوط مفاجيء في القلب اصابه بعد الرفض بقليل . ورفضه ناشر ثان بخطاب وقح يقول فيه انه لا يستطيع ان يعرف له راسا من ذنب ،وتشكك في قدرة اي شخص على ان يستخلص منه شيئامعقولا، ولكن هذا الناشر ارتدى بعد قليل ملابس نسائية داخلية وشنق نفسه على شجرة في حديقته (*) . ومن الجانب الآخر ، كما يقول جريفز ، فان الناشر الذي قبله ـ وهو الشاعر ت . س . اليوت ـ لم يسترد نقوده فحسب، وانما منح ايضا في ذلك العام وسام الاستحقاق . (على ضوء التعليقات التي اوردناها عن بويز في الفصل السابق ، قد يجد المرء لنفسه عذرا اذا هو تساءل عن مدى

---

(١) جاسون وركاب سفينة الارجو ـ جاسون من ابطال الميثولوجيا والاساطير والحكايات الشعبية اليونانية المتداخلة . صاحب وزعيم مغامرة السفينة « آرجو » التي ينسب اليها وهو وزملاؤه « ارجو نوتس » حينما خرج مع زملائه ـ ومنهم هرقل الكبير ويوليسيز في صباه. تحت رعاية « هيرا » كبيرة ارباب الاوليمب ، بحثا عن « جزة ذهبية » يحق لمن يمتلكها ان يعتلي عرش تساليا. ويخوض جاسون معارك كثيرة مع وحوش وكائنات خرافية ، تنتهي بفوزه بالجزة الثمينة وبقلب « ميديا » الساحرة التي ستكون سببا في دماره بعد ذلك . (هـ . م).

(*) ان مثل هذه الميتة لاكثر شيوعا مما يظن الناس . وانا امتلك كتابا المانيا عن الطب الشرعي يضم عددا كبيرا من مثل تلك الصور . ومن المعتاد ان يكون الموت الفعلي خنقا او شنقا ذا طبيعة اشبه بالحوادث العارضة ، والهدف هو الاستثارة الجنسية الماسوشية . وفي بعض الاحيان تستخدم ملابس الاطفال كبيرة الحجم بدلا من ملابس النساء الداخلية .

ما كانت تلك الاحداثمن عمل الربة ، والى اي مدى كانت نابعة من رغبة غير واعية عند جريفز نفسه).

يقول جريفز : « ان سلاسل من الاحداث التي تزيد طبيعتها عن طبيعة المصادفات تحدث كثيرا في حياتي حتى انني احرم على نفسي ان ادعوها ظواهر شبحية خارقة للطبيعة ، لا بد لي ان اصفها بانها نوع من العادة » . « حسنا جدا : أرجعها الى المصادفة . انكر انه كانت هناك اية صلة بين تمثال الرسول الاحدب القائم على الصندوق .. وبين نفسي ، التي اصبحت فجأة خاضعة لفكرة ربة أوروبا البيضاء ، واكتب عن توائمها القبائلية في سياق روايتك عن ركاب الارجو ، وهي التي تلقي علي الان اسرارا قديمة تنتمي الى عبادتها في ويلز ، ايرلندا وأماكن اخرى . ارجوكم ان تصدقوني : لم أكن اعرف مطلقا ان الصندوق كان لتكريم الربة « نجام » ، او ان الاغريق الهيلانيين ، بما في ذلك الاثينيون الاوائل ، كانوا عنصريا مرتبطين بشعب نجام ـ البربر الليبيين ، المعروفين باسم الجارمانتيين ، الذين ارتحلوا جنوبا عبر الصحراء الكبرى الى النيجر في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتزاوجوا هناك مع الزنوج . ولم أكن اعرف ان نجام نفسها كانت ربة القمر ، واشتركت في كل صفاتها مع الربة البيضاء عند الاغريق وفي أوروبا الغربية . لم أكن أعرف الا ما قاله هيردوتس ، من ان الربة الاغريقية « اثينا » كانت هي نفس الربة الليبية « نايث » ـ (والتي كان احد اسمائها الاخرى هو « لاميا ») .

كتاب « الربة البيضاء » كتاب بالغ الصعوبة ، معقد ومرهق . ولكن القارىء الذي تسحره خيوطه الغريبة المشتبكة ، سرعان ما يكتشف أن جريفز لا يبالغ حينما يقول ان أسرارا قديمة أصبحت « تلقى عليه » . كان قد وقع على « نسق معرفي » كامل ، يماثل في تعقيده تعقيد علم الطبيعة الحديث الذي تنتمي افتراضاته الاساسية الى القوى « القمرية » اكثر من انتمائها الى القوى الشمسية. وقد انجز هذا عن طريق استخدام حدسه الشعري لاقتفاء اثر مفاتيح عبر ديانات أسطورية لا صلة واضحة تربط بينها . لقد اكد الشاعر راندال ياريل أن هذه الديانة الاسطورية في مجموعها ليست سوى التجسيد العقلي لعبادة جريفز لـ « ايويج ويبليش Ewig - Weibliche ولميله الى « الاسراف في تقدير النساء على حساب الرجال » ، (وهو الامر الذي يعترف به في احدى قصائده) . وانه

لمن الصعب أن نرى كيف يبدي المرء مثل هذا الراي اذا كان يعرف الكتاب معرفة جيدة ، فان تماسكه الداخلي يشي بأصالته وصدقه .

من الحق انه لا ينبغي أن يكون هناك صراع بين نسقي المعرفة « القمري » و « الشمسي » ، لان كل معرفة لا ينبغي أن تكون الا صادقة إو زائفة . وقد يقول المرء ان الصراع ينشأ من النزعة القطعية الجامدة الضيقة لطرق التفكير «العلمي». ويعبر أوزبنسكي عن هذه الفكرة بوضوح في الفقرة التي تلي ذلك النص الطويل الذي سبق أن اقتطفته :

« ولكن توجد هنا فـي تلك الكتب نكهة غريبة من الحقيقة . وانني لاشعر بها الان بوجه خاص بقوة ، لانني حبست نفسي لمدة طويلة بداخل ذاتي ، وسجنت نفسي داخل قيود « مادية » مصطنعة ، وانكرت على نفسي كل الاحلام عن الاشياء التي لا يمكن أن تقوم داخل تلك القيود . لقد كنت اعيش داخل عالم مجفف ترابي متحجر ، مع عدد لا نهائي من المحرمات مفروضة على تفكيري . وفجاة حطمت تلك الكتب الغريبة كـل الجدران من حولي ، وجعلتني افكر واحلم باشياء ظللت لمدة طويلة اخشى ان افكر او ان احلم بها . فجاة بدات أجد غريب المعاني من حكايات الجنيات القديمة ، اصبحت الغابات والجبال والانهار كائنات حية ، وامتلأ الليـل بالحياة الغامضة ، وباهتمام جديد وتوقعات جديدة بدات احلم ثانيـة بالاسفـار البعيدة ، وتذكرت الكثير من الاشياء الغريبة كنت قد سمعت بها عـن الاديـرة القديمة . والافكار والاحاسيس التي كان قد مر وقت طويل منذ كفت عن اثـارة اهتمامي ، فجاة بدأت تكتسب عندي المغزى وتثير الاهتمام . وظهر من عميـق المعاني ودقيق المجازات الماهرة ما كان يبدو لي بالامس فقط خيالا شعبيا ساذجا أو خرافة فجة خالية من العبرة او من المهارة . (*)

من الواضح اننا قد بلغنا بهذا نقطة حاسمة في هذه المناقشة . سيكون أكثر القراء راغبين في القبول بفكرة ان الانسان يمتلك قدرات غير واعية مختفية عـن الذهن الواعي فلا يدركها . ولكننا نفترض الان وجود قوى « خارجيـة » ربات بيضاوات ، وابجديات سحرية وما الى ذلك . ومن المؤكد ان هذه هي النقطة التـي ينبغي فيها ان نقرر بحسم انه اذ لم يكن موت ناشري جريفز مجرد حادث عـارض ببساطة ، الا يمكن ان يكون قد جاء بسبب التاثير غير الواعي لـ « العين الشريرة »

(*) نموذج جديد للكون » . ص ٤ .

أو « اللامة » التي كان جريفز نفسه يمتلكها ؟ أولا يحتمل الا تكون هـذه المسألـة الغريبة عن الاشياء النحاسية التي كانت على مكتب الشاعر نوعا من « التواصل عن بعد » أو « التليباثي » من جانب جريفز ، وانما كانت محاولة من جانب تلـك الاشياء لاجتذاب انتباهه اليها ؟ أليست تلك اذن هي الخطوط الفاصلة بين العلـم والخرافة ؟ لقد ظن الانسان القديم أن البرق هو الرب ، وكشف بنيامين فرانكلين ان البرق كان شحنة كهربائية ، استاتيكية ، وهذه هي حقيقتها بالتحديد .

هذا حق ، ولكن ثمة بالنسبة ما هو أكثر من ذلك . وهذه هي النقطة التي لا بد عندها أن يقرر مبدأ جوهري آخر .

من السهل تماما ان نـرى قدرات الانسان المنطقية قد عزلته عن قوى عقله غير الواعية . انك اذا ما شرعت في حل مسألة رياضية فـي منتصف الليـل ، فستجد أنه من الصعب ان تعود فتغرق في النوم . ذلـك أن عمليـة الحساب الرياضي ، تتضمن نوعا فريدا من التركيز لمستويات عقلك العليا ، وحينما نشرع في الحساب فانك توقظ هذه المستويات العليا مثلما أيقظ علاء الدين الجني المأسور في المصباح واطلقه من اساره . ولكن النوم يعتمد على عودة الجني الى سجنه في المصباح والسماح لمستويات العقل السفلي بأن تنطلق سابحة في حرية . او اذا فكرت في نفسك — أعني في شخصيتك الكلية — باعتبارها شيئا شبيها بالسيارة ، فانك بالنوم « تغير السائق » .

وقد كان الارتقاء الانساني طوال المليونين الماضيين من السنين هو ارتقـاء السائق الواعي ، الجني المأسور في المصباح . والحضارة كيان بالغ التعقيد ويحتاج الانسان الى تنظيم عقلي بالغ التعقيد ايضا لكي يتعامل معها . فاذا ما قورن الانسـان الحديث بسلفه القديم منذ مليونين من الاعوام ، فانه سيبدو شبيها بشركة عملاقة تقارن بـ « دكان » صغير تديره أسرة صغيرة .

ومشكلة الشركة العملاقة هي ان اجهزتها العلوية المتحكمة فيها تبلغ حـدا هلائلا من الضخامة . ان فاتورة الكهرباء التي ينبغي دفعها مقابل استهلاك مبنى ضخم من مباني الشركات الكبرى كافية لتشغيل مائة من المشروعـات الصغيرة . وتبلغ كل الاجهزة والمشاكل العلوية الاخرى لهذا المبنى نفس النسبة من الضخامة المروعة .

والنتيجـة هي ان الانسان المتحضر يميل الى أن يعاني من التوتـر الفائـق غير الواعي .

فكر فيما يحدث حينما يتزوج شاب ويشرع في تكوين اسرة . ان عليه ان يفكر في مستقبله وفي عشرات الاشياء الاخرى الى جانب المستقبل ، حتى يصبح

مثل لاعب السيرك الذي يلعب بعدة كرات فيحتفظ بها جميعا في الهواء في وقت واحد . فاذا ما طرات له هذه الفكرة حينما يكون في شهر العسل ، فانه لن يسمح لها بأن تزعجه . على العكس : انه اذ يتغذى بتيارات قوية من الطاقة التي أثارها الجنس ، فهو يشعر بأنه يمتلك من القوة ما يكفي لمواجهة تلك المشاكل وزيادة .

وبعد سنوات قليلة ، تأتي أوقات يستبد به فيها التعب من لعبة الكرات الطائرة ، فيتمنى لو استطاع ببساطة ان يترك الكرات جميعا لكي تسقط على الارض . ولكن بما انه ـ بالطبع ـ يحب زوجته واطفاله ، فان اسقاط الكرات جميعا مسألة غير واردة على الاطلاق . ولكن هناك أوقاتا يكف فيها عن تكريس قلبه لمسألة المحافظة على الكرات الكثيرة الطائرة في الهواء ، فيترك العملية لكي تصبح عملية ميكانيكية خالصة لا روح فيها .

ان ما يحدث في تلك اللحظة لمثير للاهتمام . تصل فواتير كثيرة في نهاية الشهر . فاذا كان في حالة صحية ومتفائلة ، فانه سوف يدفع قيمة الفواتير ، ويحسب ما بقي له في البنك ، ثم يشرع في التفكير في أخذ أسرته في نزهة خلوية يوم الاحد . اما اذا كانت معنوياته منخفضة ويشعر بالانقباض ، فانه يتجنب دفع قيمة الفواتير لاطول مدة ممكنة ،بسبب ما يروق له من شعور بالامن تتولد من معرفته لان قيمة حوالة الدفع ما تزال مستقرة في البنك . وتبقى الهموم في صورة المشاكل التي لا حل لها في مؤخرة عقله ، تأكل طاقته الحيوية مثلما يأكل المصباح الذي تركته مضاء طاقة الكهرباء . فاذا شعر بنفسه وهو يتزايد انقباضا، فان كل مشكلة جديدة تبدو له و قد اصبحت أكبر حجما ، وتزداد طاقته هبوطا . انه ينزلق الان نحو ما اسماه علماء النفس قبل خمسين عاما : « حالة الحساسية المفرطة » حيث تبدو الحياة في صورة سلسلة من العقبات التي لا يمكن اجتيازها، ويصير كل كثيب صغير جبلا شاهقا . هنا يصبح كل كيانه النفسي سلسلة من الحجرات التي ترك النور فيها جميعا مضاء ، وتصبح الحياة حملا ثقيلا . ويعتاد بعض الناس مثل هذه الحالة من التوتر الدائم المفرط فيقبلونها باعتبارها حالتهم العادية ، فيسلمون بأنه من الطبيعي ان يفقدوا شعرهم في الخامسة والثلاثين من اعمارهم ثم يصابوا بالقرح المعوية في الاربعين .

لاحظ ان السمة المميزة الاساسية لهذه الحالة هي انك « توقفت عن ملاحظة الاشياء » . انك مثل رجل يجري لكي يلحق قطارا ، فلا يعود لك من الوقت ما يكفي للالتفات براسك الى اليمين أو الى اليسار . وحتى اذا ما استطعت أن تلحق بالقطار ، فانك لا تسترخي فتنظر من النافذة ، مثلما لا بد ان يفعل اي طفل عادي. انما يستمر التوتر الداخلي ، انك تحاول ان تقرأ جريدة ، أو ربما ببساطة تأخذ في

التحديق أمامك بنظرة خالية من اي معنى ، وعقلك يضرس بأسنانه ويجرش بها على همومه .

فكر الان فيما يحدث اذا ما خرج مثل هذا الشخص في اجازة ، فيبدو له كل شيء فجأة « على ما يرام » . ها هو الصباح مشرق مشمس ، وهو يستطيع ان ينسى المكتب لمدة اسبوع أو نحوه وان يستمتع في بساطة بالمنظر الجميل . يبدو الامر حينذاك كما لو أن شخصا ما قد ضغط على زر ايقاف محرك هادر ، يخبو هدير الالة ويموت ، ويبدو الصمت شيئا كالمعجزة . يبدو الامر كما لو ان نبعا من الحيوية قد تدفق فجأة في الوعي . لقد كف عن ان يكون سلبيا ومنقبضا. انه ينظر الى المشهد الجميل امامه باهتمام عظيم، أو يصغى باستمتاع الى الثرثرات المحلية من مشرب الحانة . لقد استرخى التوتر الداخلي وانبسط . انه لا يضيع طاقته الحيوية هباء بعد . ولانه يلاحظ الاشياء الان مرة اخرى ، فان آلية تراجعه الى الوراء تبدأ في العمل . ان المتعة التي يحصل عليها من منظر شجرة تجري خارج القطار انما تعني ان حواسه قد بدأت في الامتداد الى الخارج ، وفي توقع ان تكون الاشياء مبهجة ومثيرة للاهتمام ، وهو الامر الذي يعني بدوره ان ينابيع طاقته الحيوية تصبح اكثر غزارة وتدفقا . ان النظر الى الاشياء « باهتمام » انما يعني انعاش العقل . في رواية « رحلة الى الشرق » يكتب هيرمان هيسه (١) جملة هامة تقول : « ... كنت مسؤولا عن قسم الموسيقى لمجموعتنا، وقد اكتشفت حينذاك كيف يتسبب الوقت الطويل الذي نكرسه للتفاصيل الصغيرة في اشعارنا بالهيبة وفي زيادة قوتنا » ـ (الفصل الاول) . تماما . ذلك لانك حينما تركز اهتمامك بجدية على التفاصيل الصغيرة فانك تخفف من التوتر المفرط العام في بقية عقلك ، وحينذاك تكون ينابيعك الحيوية قد تجددت .

ويلاحظ ويليام جيمس ايضا ان « التعامل بتنمر واستئساد » غالبا ما يكون افضل علاج لحالة « الحساسية المفرطة » حينما تصبح كل التلال الصغيرة جبالا شاهقة . فالطبيب يرغم المريض على ان يبذل جهودا هائلة ، وتكون النتيجة الاولى شعورا حادا بالتعاسة والحزن ، يتبعه ـ على الفور تقريبا ـ احساس بالارتياح والخلاص . ولان الافراط في الحساسية غير ضروري (فهو ليس اكثر من عادة رديئة) ، مثل خوف الطفل من الاشباح ، فانه اهدار للطاقة الحيوية لا هدف له .

---

(١) هيسه هيرمان (١٨٧٧) شاعر وكاتب الماني حديث ، عاش في سويسرا منذ شبابه الاول، كان من الكتاب الالمان الشرفاء الذين عارضوا النازية بقوة رغم ايمانهم العميق بوطنهم ونزعتهم التصوفية في تصورهم لمكانة الامة الالمانية . حصل على جائزة نوبل للادب عام ١٩٤٦ ، فكان اول الماني يحصل عليها بعد الحرب العالمية الثانية ، وشارك بجهد كبير في اعادة صياغة الثقافة الليبرالية الالمانية بعد اندحار النازية . (هـ. م)

وحالما ينتزع العقل دفعة واحدة عن طريق صدمة قاسية من حالة سلبيته البائسة، فان القوى الحيوية تبدأ في العمل من جديد .

وحينما يكون الكائن الانسان في حالة صحية ، فانه يركز على مشكلة واحدة في المرة الواحدة ، مكرسا لها وفيها كل احساسه بالاستهداف والقصد ،ويحافظ على مستوى مرتفع من القدرة على التراجع أو الانسحاب النشط من بيئته . انه يفعل كل شيء ببطء ، باهتمام عميق ، وحينما يشرع في الاحساس بالتعب ، يقلل من سرعته ويخفض من نشاطه ، ويتيح لقوى لاوعية الفرصة للقيام بعملية التجديد. انه يعرف أن تجاوز الحد في الاجهاد وما يصحبه من انقباض واحساس بالهزيمة تشكل كلها دائرة مفرغة لا بد من تجنبها اذا كان يريد أن يكون فعالا وصحيا .

ورغم أن الافراط في الحساسية حالة تؤكدها وتبرزها الحضارة الحديثة ، فانها ليست مرضا خاصا من أمراض الحضارة . انها مرض من امراض الوعي ـ أي انها مرض يتبع ان يكون الكائن انسانا . ان عامل المزرعة اذ يذهب الى عمله لجدير بأن يتجاهل الاشياء المحيطة به مثلما يتجاهلها ولا يشعر بها البائع المتجول المتعجل في سيارته . واذا كان سكان قرية من قرى الامازون «اقرب الى الطبيعة» من سكان نيويورك ، فعادة ما يكون ثمن هذا هو القذارة والجهل وعدم اشباع الاحتياجات الضرورية . ان الإفراط في الحساسية هو الثمن الذي ندفعه مقابل سيمفونيات بيتهوفن وروايات بلزاك ، وما تحقق من تقدم في المعرفة الطبية التي تقي الاطفال من الموت بالجدري .

ومع هذا فانه ليس ثمنا ضروريا او لا مهرب منه . انه نتيجة للجهل بمصادر اقتصادنا الحيوي وسوء أدارتها .

والنقطة التي تجدر ملاحظتها هنا هي انه على الرغم من ان الافراط في الحساسية قد لا يكون ضروريا ، فانه منتشر كما تنتشر الاصابة بنزلة البرد العادية . ولن يكون من قبيل تجاوز الدقة ان نقول ان كل الناس يعيشون في حالة ما من حالات « التوتر » والقلق أكثر جدا من المستوى الذي يحتاجونه بالعقل من اجل الوصول الى الكفاءة الحيوية الفعالة . فان من الميول العامة السائدة للوعي ان « يفرد الانتباه حتى يجعل سمكه بالغ الرقة » ، ومثلما يحدث لطفل تجاوزت استثارته حدها لكثرة ما يجده امامه من الدمى في عيد الميلاد ، لا بد أن تكون النتيجة هي الاجهاد العصبي .

والامر المثير للاهتمام حقا في هذا السياق هو اللحظات التي يسترخي فيها التوتر ،بسبب نوع من الايحاء الذاتي او الانغماس الكامل في بعض المهام الصغيرة. ويصف بيتس مثل هذه اللحظات ، اذ يجلس في مشرب مزدحم للشاي في لندن :

بينما رحت احدق في المشرب والشارع
فجأة التهب جسدي وتوهج والتمع ،
ولمدة عشرين دقيقة أو أكثر أو أقل ،
بدت سعادتي هائلة عظيمة ،
حتى اصبحت مباركا ، قادرا ان امنح البركات .

ربما كانت هذه حالة من حالات الايحاء الذاتي ، يستطيع المرء ان يتخيل الشاعر اذ يزداد توتره واجهاده بينما يشق طريقه وسط الزحام في وسط لندن ، ثم يجلس ليحتسي قدحا من الشاي الساخن بينما ينظر من نافذة محل « سولن وادجار » الى الشارع. فجأة تتوقف كل محركاته وتصمت في سكون ، ويمضي في التحديق الى الحشود المتزاحمة العابرة باهتمام عميق .

هذا هو في الحقيقة ما يكوّن شاعرا من الشعراء. انه شخص يتمتع ـ بشكل طبيعي ـ بصحة جيدة ومرونة فائقة ، وكثيرا ما تمر به لحظات تختفي فيها حالة الحساسية المفرطة المعتادة ، وفجأة تفرقه الدهشة والبهجة اذ يتبين مقدار ما يثيره كل شيء من اهتمام ومتعة . ان ما يحدث في مثل تلك اللحظات هو انه يبدا في سماع « اصوات الصمت » . انه يدرك ان العالم ثري بالمعاني التي كان جديرا بالا يلتفت اليها لو كان في حالته العادية . وانا اركز على كلمة « المعاني » لانها لب الموضوع وجوهره . ان المعاني التي ندركها حينما تختفي حالتنا المعتادة من الافراط في الحساسية ، موجودة بالفعل . انها ليست وهما ، انها ليست شيئا نابعا من ذواتنا بصورة مطلقة .

من الحق أن لكلمة « مثير للاهتمام » دائرة ذاتية ، انني « انا » الذي اقرر ما هو مثير للاهتمام وما ليس كذلك . ومع ذلك فان له معنى موضوعيا خاصا به . فحينما يدرس شرلوك هولمز وثائق قضية من القضايا ثم يغمغم بقوله :«انها تثير الاهتمام للغاية ، يا واطسون » فان من الممكن ان يعبر عن المعنى الذي يقصده بقوله : « انها اكثر تعقيدا مما يظهر على السطح . » ان الاحساس بالمعنى الذي يبزغ في داخلنا حينما تختفي حالة الافراط في الحساسية هو نوع من التعرف على التعقيد ، نوع من « الاهمية الكامنة » في الاشياء .

اننا اذا ما فكرنا في الارتقاء الانساني باعتباره عملية من « التعقد » المتزايد (اذا استخدمنا تعبير تيار دي شاردان) أصبح من الواضح ان هذا الارتقاء يعني ايضا « افراطا في الحساسية » متزايدا ، وان هذا بدوره يعني ميلا متزايدا لعدم ابصار « المعنى » .

من المهم أن نفهم أن « المعاني » التي بدا اوزبينسكي يراها في الغابات والانهار

والجبال لم تكن مسألة خيال أو استسلاما لنزعة عاطفية . وكان ما وصل اليه جريفز من « معرقة قمرية » حقيقة فعلية ، حقيقة يدركها الشعراء في لحظات الصمت والسكون . وفي الاسطورة الكاتية التي تحكي قصة « جويون Guion والتي رواها واقتطفها جريفز ، يستخدم الصبي جويون في تحريض مرجل يحتوي على « تميمة معرفة » سحرية ، وتتطاير من المرجل ثلاث شرارات فتحرق اصبعه، وحينما يدس اصبعه في فمه ، يرى فجاة معنى كل شيء ، في الماضي والحاضر والمستقبل . وفي أسطورة سيجفريد ، مثلما رواها فاجنر بالموسيقى ، تسقط قطرات من دم التنين على يد البطل فتلسعها ، ويدس سيجفريد يده في فمه فيصبح قادرا من فوزه على فهم أغاني الطيور و « غمغمات الغابة » . وفي الحالتين تتمتع التميمة السحرية بنفس التأثير : غرس نوع من الصمت الداخلي العميق الذي يسمح بخلق نوع جديد من ادراك المعنى .

فاذا اتفقنا على أن « عروس الشعر » أو « الساحر » هو شخص يستطيع عقله أن يسترخي فيدرك تلك المستويات الاكثر عمقا من المعاني ، فلا بد لنا من الاعتراف بأن هذا يتضمن مسألة ذات طريقين . ان المعنى موجود هناك حقا ، خارجي بالنسبة لعقله ، وقدرته على «اتتسلل كالنفم» نحوه ليست سوى البداية.

بل ان نقطة اكثر اهمية واثارة للاهتمام تبرز هنا. لقد قارنت الانسان بسيارة لها سائقان : الشخصية الواعية ، والدوافع الخفية غير الواعية . عند الانسان المتحضر ، يكون دور السائق غير الواعي آليا الى حد ما وميالا وقائما على التكرار بالمقارنة مع دور «السائق » الواعي ، انه يزيد قليلا عن مهندس مراقبة وصيانة يسيطر على النوم والذاكرة ووظائف المعدة والامعاء . أما العقل الواعي فانه هو الذي يكتب السيمفونيات ، ويخطط لغزو الفضاء ويبني الحضارة . ولكن في المجتمعات « السحرية » في الماضي السحيق ، كان السائق « غير الواعي » يتمتع بنفس هذه الدرجة من الاهمية . حينما كان يتولى القيادة ، لم يكن ذلك لمجرد دفع المرء الى النوم ، وانما كان هدفه هو توسيع ذلك النوع الاخر من المعرفة ، المعرفة الحدسية لـ « المعاني » التي تحيط به مثل غمغمات الغابة . لقد استهدف الساحر والصوفي أن يغوصا بشكل ما الى ابعاد أكثر عمقا « في داخل » الطبيعة ، وأن يهدا قبضة العقل غير الواعي وأن يزيدا من قوته . لم يكن النوم حالة سلبية يفيق فيها الجسد من اجهاد اليوم السابق ، وانما أداة من أدوات البحث والاستقصاء ، بل كان أحيانا مقدمة تمهيدية أساسية للسحر . ففي ايرلندا القديمة ، كانت عملية اختيار ملك جديد تتضمن« التضحية بشخص مقدس ، يقف على رأسه كاهن من « الدرويديين » يتمتم حتى يغرقه النوم . وفي اثناء النوم ، تنشد فوقه الاناشيد،

حتى يهبط عليه « الوحي » لينبئه بأحق المطالبين بالعرش بان يكون ملكا . (*) بالنسبة للعقل الحديث ، يوحي مثل هذا الاحتفال على الفور بان هناك خدعة تهدف الى الاحتيال على المتوحشين السذج . ولكن هناك حالات تم تسجيلها عن « سحر النوم » تقل عن الحالة المذكورة سهولة في التفسير . في كتاب« انواع من الجزر » يتحدث آرثر جريمبل ، الذي كان مشرفا على مشاكل الارض في جزر جيلبرت جنوبي المحيط الهادىء ، فيصف الاحتفال السحري المخصص للنداء على الدلافين من البحر لتسهيل اصطيادها . وكان جريمبل قد قيل له ان يأكل لحم الدلافين لكي يزيد جرمه . وقاده هذا الى التساؤل : « عن الكيفية التي يستطيع بها ان يخرج بحصيلة منتظمة من هذا اللحم النادر » . وجاءه الجواب المفيد من احد ابناء الجزيرة يقول ان اقارب هذا الرجل نفسه في قرية كوما ، على بعد سبعة عشر ميلا من الاهوار المتصلة بالبحر ، هم الذين توارثوا مهنة النداء على الدلافين عن الرؤساء الكبار لقبيلتي بوتارياتري وماكين مينج. وكان ابن عمه المباشر من الخبراء البارزين في هذه العملية ، وانه يستطيع ان يدفع نفسه الي ان يحلم الحلم الصحيح المطلوب حسبما يريد . وقد خرجت روحه من جسمه في احد هذه الاحلام ، وذهبت الروح فبحثت عن قطيع الدلافين في مأواها تحت سطح البحر عند الافق الغربي فوجهت اليها الدعوة الى الرقص ، في العيد ، في قرية كوما . فاذا هو نطق كلمات الدعوة بطريقة صحيحة (وقليلون هم من يعرفون سر هذه الكلمات) فان الدلافين تتبعه وهي تطلق صيحات الفرح الى سطح البحر » .

وفي الموعد المحدد ، اخذ جريمبل الى قرية كوما ، حيث كانت كل الاطباق اللازمة للعيد قد اعدت ونظمت . اما منادي الدلافين الودود السمين ، فقد اعتزل في كوخه ، وطوال عدة ساعات اطبق الصمت على الجميع . ثم اندفع منادي الدلافين خارجا من كوخه وسقط منبطحا على وجهه ، ثم نهض واقفا : « ملوحا بيديه في الهواء وهو يثب في مكانه ، وحنجرته تفح بصوت مرتفع غريب كصوت الجرو الصغير . ثم خرجت الكلمات متحشرجة من فمه قائلا : تيبريك تيبريك! (اي : (انهضوا ! انهضوا !) . . لقد جاؤوا ، لقد جاؤوا . . . » واندفع القرويون جميعا الى مياه البحر ووقفوا وقد وصلت المياه الى الصدور . ثم جاءت الدلافين : « كانت الدلافين تتحرك نحونا على شكل طابور منتظم طويل، تفصل بين كل واحد منها والذي يليه مسافة ياردتين او ثلاث ، على امتداد ما كان بوسع عيني ان تبصر . جاءت في بطء شديد ، وقد بدا عليها انها غارقة في تهويمة من النعاس . وكان قائدها يطفو بصعوبة كمن يسير في حلمه اثناء

(*) انظر : هـ . ر . هايز : « في البدء : الانسان الاول واربابه » ـ نيويورك ، بوتنهام ، ١٩٦٣ ، ص ١٥٣ .

النوم . واقترب الحالم من القائد دون كلمة لكي يسير بجانبه نحو المياه الضحلة.. وكان القرويون يرحبون بضيوفهم ويقودونهم الى الشاطىء بكلمات مدندنة .. وبينما كنا نقترب من الشاطىء الضحل الزمردي اللون ،بدات زعانف الحيوانات تلمس الرمال ، فضربت بذيولها برقة كما لو كانت تسأل العون . وانحنىالرجال ليطوقوا اجسادها الشبيهة بالبراميل الضخمة بأذرعتهم ولكي يضعوها برفق على حافة الشاطىء . كان يبدو عليها وكأن رغبتها الوحيدة هي ان تبلغ الشاطىء . وبعد ذلك ، ذبحت الدلافين « المنومة مغناطيسيا » وتم أكلها .

وقد يكون من الواجب ان نذكر ــ بشكل عابر ــ ان الحيوانات يسهلتنويمها مغناطيسيا . ويقدم « بلاك » وصفا لهذا في كتابه « العقل والجسد » ويضيف ان هذه الظاهرة قد وصفت في بعض الكتابات القديمة التي يرجع عهدها الى عام ١٦١٦ ، حينما لاحظ « تشيوينترا » انه اذا ما ضغط راس دجاجة على الارض، ثم رسم خط بالطباشير يمتد من امام منقارها ، فان الطائر سيظل « مثبتا » في مكانه حتى يفزعه صوت مرتفع .

ان اولئك الذين توارثوا النداء عن الدلافين عن اجدادهم في جزر جيلبرت نموذج على تطور «المعرفة القمرية» ، والقصة في مجموعها تؤكد نقطة حيوية . اقد اعتدنا على التفكير فيالنوم باعتباره حالة لا سيطرة لنا ، ولا يمكن ان نسيطر عليها ، نفقد فيها كل «قوى» الفعل والتفكير التي نمتلكها بشكل طبيعي . ومعظم احلامنا تنسى عند اليقظة . ولكن« ج.و. دان » ابرز في كتابه الشهير « تجربة مع الزمن » عام ١٩٢٧ ، اننا نستطيع بقدر معين من الجهد ان نتعلم تذكر الاحلام . وقد درب نفسه على أن يفعل هذا عن طريق الاحتفاظ بقلم وورقة الى جانب الفراش لكي يسجل الاحلام في كل مرة يستيقظ فيها من النوم اثناء الليل . وكانت النتيجة هي اكتشافه ان الاحلام كثيرا ما تحتوي على لمحات من المعرفة المسبقة لاحداث سوف تقع فيما بعد . (وسوف نناقش هذا في الفصل الثالث من القسم الثالث من هذا الكتاب) . ان « سحر » المنادين على الدلافين هوخطوة ابعد في هذا الاتجاه ــ مثلما كان الامر معالكهنة الدرويديين . وهذا ايضا هو ما يفسر الاهمية التي كانت القبائل البدائية تعزوها الى الاحلام ، وهو ما يفسر السبب الذي جعل ربات القمر حاميات للديانات السحرية .

وقد يكون هذا ايضا هو السبب الذي جعل عباد الربة البيضاء ينظرون اليها باعتبارها ربة مدمرة بالاضافة الى انها ربة ملهمة . ان العقاقير ذات التأثير النفسي ، التي تؤدي الى اخماد نشاط « العقل المنطقي » ووضع القدرات غير الواعية السفلية في مقعد قيادة الشخصية ، هذه العقاقير تستطيع ان

تولد انواعـا من الرؤى للجمال او للرعب . ان العقل الذي يفتح نفسـه للمعانـي السفلية غير الواعية يكون قد هدم تحصيناته ، وطوح بعيـدا بعزلته ، ونـزع كل ما يشبه اجهزة « امتصاص الصدمات » التي تحميه . ان الوعي اليقظ بالنهار يستطيع اللجوء الى الآراء والاحكام الشائعة السائدة والمتعارف عليها ، يستطيـع اللجوء الى « الحقيقة الموضوعية » . ولكن في حالات انطلاق القوى السفلية غير الواعية ، يغيم الخط الفاصل بين الحقيقة وبين خيالات المرء الشخصية ، ودون قدر معيـن من المعرفة ومن الانضباط او النظام ، يصبح العقل تحت رحمة ميلـه الخاص الى الهلاك . ويعلق جريفز على هذا تعليقا صائبا بقوله ان الكابوس او الحلم المرعب هـو واحد من اكثر جوانب الربة البيضاء قوة . ولا بد لنـا ان نحدد هذا الجانب ـ رغم ان جريفز قد لا يتفق معنا ـ بالقول بان الخطر هنـا انما ينبع من جهل « عبادها » المخلصين وليس من اي ميل الى التدمير عند الربة نفسها .

وهنـاك سؤال هام آخـر ينبع من قصة جريمبل عن النداء على الدلافين : ان التعليق الذي يقول فيه : « فاذا هو نطق كلمات الدعوة بطريقة صحيحة (وقليلون هم من يعرفون سر هذه الكلمات) ، فان الدلافين تتبعه . . » فاذا كانت قـدرة الذات السفليـة للحالم هي التي تستطيع بشكل ما ان تنوم الدلافين مغناطيسيا ، فلماذا ينبغي وجود شكل محدد للكلمات ؟ ومن الواضح ان هـذا السؤال انما يحتوي على كل مجال الطقوس والاناشيد السحرية .

ويكاد الجواب ان يكون يقينيا : ان هذه المسألة لا تهم الا الساحر ، الـذي ينبغي ان يؤمن بالصحـة الموضوعية لما يفعله . ومشكلتنا هي اننا نحتوي علـى عقلين ، وقد بلـغ من اعتياد العقل الواعي على دوره الذكري القائم على السيطرة انه كثيرا ما يتدخل في عمليات اللاوعي الانثوي الرقيقة . يقول « أ . هـ . فيزيال » وهـو شاعـر اخر يتمتع بعقل لاواع نشط الى درجـة غير عادية ، اذ يصف في ترجمته لنفسه كيف اشتغل في مكتب لارسال البرقيات فتعلم كيف يرسـل اشارات « مورس » باستخدام مفتاح :

« كنت شديد القلق ، فأخذت ارسل البرقيات بطريقة مهوشة خاطئة لا يمكن قراءتها . اما الارسال بطريقة صحيحة فكان شيئا مبهجا . فبدلا مـن ايلام العضلات ، كان هناك احساس باللعب الحر في ادارة المفتاح ، تعاون مرن خال من المجهـود مع الجهاز الآلي الدائم الارتداد . وذات يوم ، وبينما كنت امارس عملي، بدأ معصمي في التحرك بهذه الحرية المبهجة . كان رئيس الوردية ينظـر الي بدهشة ورضا من مكتبه . وكان ان القيت نظرة سريعـة الى نظارتيه اللامعتين اللليئتيـن بتعبيـر عن الرضا ، وعلى الفور اختفت هذه القدرة ، او الموهبة ـ ايا ما كانت ـ

ثم لم تعد ابدا .. » (*)

ان الطريقة المهوشة التي اتبعها فيزياك في البداية هي الافراط في الحساسية الذي كنا نناقشه منذ قليل ، انه العقل الواعي الدائب على التدخل ومقاطعة نشاط « الانسان الآلي » غير الواعي الذي يتعامل مع تلك المسائل والاشياء الآلية .

اذن ، فان من الممكن ان يدرب العقل غير الواعي على الاستجابة لتركيبة معينة او لمجموع من الرموز . ليس على عاشق لموسيقى فاجنر الا ان يسمع « قدرا » (**) واحدا من « Liebestold » لكي يحس بشعره يخز كالشوك ويقف . اما القديس الهندي « راما كريشنا » فيمكن ان يغيب في حالة من النشوة (السامادهي) بسماع اسم الام المقدسة (١) . وفي قصيدة « الارض الخراب » يستخدم ت . س . اليوت عن عمد مقتطفات اصبحت ذات شحنة عالية من المعنى في سياق آخر مختلف ، بما في ذلك مقتطفات من النصوص الشعرية لاوبرات فاجنر . ويقول جريفز انه ليس سوى الشعر الذي تلهمه عرائس الفنون حقا هو ما يستطيع ان يولد هذا الاحساس بوقوف الشعر الذي يعلن أ . ي . هوسمان انه محك الشعر الجيد، ومن الواضح انه على صواب بمعنى عام . ولكن البوابات السحرية يمكن ان تدفع الى ان تستجيب لاي « افتح يا سمسم » ،اذا تكلف المرء مشقة نطقها . لقد شعر المراهقون في الخمسينات بشعرهم يقف ، هذا الشعور المشهود له بالصدق ، حينما كانوا يرون صور المرحوم جيمس دين .وان نغمة معينة لتبلغ مستوى « القمة بين اغاني البوب » بان يتم عزفها المرة بعد المرة حتى تستثير استجابة شعائرية . وقد استطاع هتلر بعد تجربة طويلة ان يدرب مستمعيه ونظارته الى الدرجة التي اصبح من الممكن فيها لارتفاع بسيط معين في نغمة صوته ان يبدأ لديهم النشوة العاطفية الانفعالية .

(*) « ساعة صباح من الحياة » ، لندن ، جون بيكر ــ ١٩٦٨ .

(**) « قدر » ترجمة لمصطلح Bar ، وهي وحدة للقياس في الموسيقى ــ وضعها مجمع اللغة العربية في القاهرة ، نقلا عن قاموس النهضة ــ اسماعيل مظهر ــ الطبعة الاولى، القاهرة ، مطبعة النهضة. (هـ . م)

(١) كالي (الام المقدسة) الربة الهندوسية العظمى ، الخالقة والمدمرة . زوجة الرب الاعظم « شيفا » الذي خلق الكون معها ، ويخلقه باستمرار كلما قامت هي بتدميره لكي تمكنه من اعادة خلقه من جديد . تمثالها الهائل في معبدها في كلكتا (التي اخذت اسمها من كالي : كالي-جات، اي : عتبات كالي ، التي يهبط منها الحجاج الى مياه نهر الكنج) يمثلها ذات عينين حمراوين واسنان كالخناجر، تتحلى بعقد من الجماجم وحلقين من الجثث واربع اذرع ذات اظافر دامية ، وزنار من الافاعي . اسمها ايضا : دورجا (الام) و« بارفاتي » : الحافظة . (هـ.م).

ان انرمز ــ او شكل الكلمــات ــ الذي يؤدي الى الاستجابة ، شيء تحكمي الى درجــة معينة . وقد قرات ناقدا اكد ان سطورا من شعر كيتس تقول : « المياه المتحركــة في مهمتهــاالشبيهــة بمهمــة القسيس ، مهمة الوضوء النقي حــول شواطىء ارض الانسان » تفقد « سحرها حينمــا توضع كلمة « البارد » مــحل كلمــة « النقي » في الشطر الثاني . اما انا شخصيا فلا اجد اختلافا في تأثيــر البيت بين الحالتين، واستنتج ان استجابة الناقد ــ او افتقاره الى الاستجابة ــ انمــا كانت مسألة استجابة تقوم على التعود .

ويؤدي الاستدلال هنا الى القول بان النطق الصحيح الدقيق للدعوة كان اكثر اهميــة بالنسبة للمنادي على الدلافيــن ممــا كان بالنسبة للدلافين نفسها . لقد سيطــر هذا النطق الصحيح على آليــة انطلاق القوة التي استدعت الاسماك الى « الحفلــة » ، وربمــا ادى الخطأ في النطق الى تحذير الدلافين باطلاق احساسه بالذنب بسبب خداعــه لها ، او بالاحرى بسبب ايقاظ « رقيبه » الواعي .

وقد يحق للمرء ان يلخص هذا بأن يقول ان للعقل الواعي جلدا سميكا مثل جلد الخرتيت ، انه قوي ولكنه غير حساس . اما العقل اللاواعي فليس لديه سوى « طبقــة واحدة رقيقة من الجلد» ، انه حساس الى درجة خطيرة . وهو يحتاج الى العقل الواعي ذي الطبيعــة الذكرية مثلمــا تحتاج المرأة الى زوج : لما يتمتع به من قوة واحساس بوجود هدف محدد . كذلك فان العقل الواعي لا يستطيع ان يستمر صامدا دون العنصر الانثوي ،انه « الحياة السرية » . غيــر ان العلاقــة المثاليــة بيــن الاثنيــن لا تتحقق الا حينمــا يتركز العقل الواعي على هــدف واحد في التزام كلي . ومن هنا ينبع تفضيل الذكور للانواع الخطرة من الرياضة ــ تسلق الجبال ، قيادة سيارات السباق ــ طالمــا ان التركيز الكامل المطلوب يحقق وحدة العقليــن الواعي واللاواعي ، فيحقق بالتالي قدرا اضافيا جديدا من القوة. كذلك فان عمليــة الاغواء تتحرك بنفس الدوافع . ففي « الغزو الجنسي » يصبح وعي الذكــر ذا « هدف واحد » ، بينمــا يستثير الاتحاد مع الانثى اعمــاقا مــن الاستهداف الغريزي . غيــر ان تطوير قوة الارادة وحدها انما هي عملية عقيمــة بصورة اساسية ، فقوة الارادة ليست سوى راس حربة الهدف . فالاتجاه الحقيقي للوعي يكمــن في توسيع المعرفة ، الادراك الاكثر والاكثر اتساعا لعلاقات العــالم الفعلي ، بمعنى اضاءة وغرس استبصارات اللاوعي « القمرية » . وهذا هو السبب الذي جعل تطور المعرفة « الشمسية » على يدي الانسان الغربي شيئا لا بد مــن قبوله باعتباره ارتقاء حقيقيا ، على الرغم من انه ارتقاء احادي الجانب ، وهــو ارتقاء لا ينبغي ان يظل احادي الجانب .

ان المعنى الاساسي لكل هذا هو القول بأن « الانسقة السحرية » ــ الكابالا

العبرية ، وكتاب التغيرات الصيني، ومجموعة اوراق لعب التاروت ، ومفتاح سليمان ، وكتابي الموتى المصري والتبتي ـ لا ينبغي انظر اليها باعتبارها محاولات بدائية فاشلة في سبيل تكوين « العلم » ، وانما ينبغي النظر اليها باعتبارها محاولات للتعبير عن تلك الاعماق من المعرفة « القمرية » بمصطلحاتها الخاصة. ان كتابي الموتى المصري والتبتي ـ واولهما يدعى في لغته الاصلية : « بيرت ايم هرو » اي : « الظهور بالنهار » ، ويدعى الثاني في لغته الاصلية : «باردوثودول» قد كتبا لكي يقرأا بصوت مرتفع للشخص المحتضر في محاولة لاعطاء « الذات اللاواعية » قدرا معينا من السيطرة على تجاربها الغريبة . وقد يبدو هذا للاذان الغربية شيئا سخيفا خاليا من المعنى ، حتى نعترف بمعقولية فكرة السيطرة على « الذات النائمة » ودوافعها . حينذاك ندرك ان ما كان يحاول ان يفعله المصريون والتبتيون القدماء لم يكن شيئا صبيانيا او خارجا على المنطق العقلي ، وانما كان خطوة متقدمة على اي معرفة نمتلكها في الغرب. (ان التجارب على التنويم المغناطيسي المؤدي الى النوم العميق ربما كانت اقرب شيء عندنا لتلك المحاولات القديمة) وكل من يرغب في اختبار هذه الحقيقة يستطيع القيام بذلك عن طريق بذل مجهود من اجل الوصول الى قدر معين من السيطرة على احلامه : مثلا ،ان يحاول النوم على ظهره للتوصل الى كابوس ، ثم التصدي للسيطرة على الكابوس ومنعه من الوصول الى ذروته العادية .

اما كتاب التغيرات الصيني أو « اي تشينج » فواحد من أكثر انسقة المعرفة « القمرية » اثارة للاهتمام ، ومن المؤكد انه واحد من اكثرها سهولة . وهو ايضا ينفرد بكونه متخلصا من الجوانب الضارة ، فالدراسة المتعمقة فيه لن تؤدي الا الى الخير . يبدأ كتاب « اي تشينج » في صورة سلسلة من النبوءات الالهية ، يبلغ عددها أربعا وستين نبوءة ، كتبها (طبقا لما تقوله القصة القديمة) الملك ون ، مؤسس أسرة تشاو الملكية الحاكمة ، قبل ما يزيد على الف عام من ميلاد المسيح . وقد توسعت هذه النبوءات الاربع والستون فيما بعد عن طريق « الصور » والتعليقات التي كتبت في سطور منفردة مستقلة . (وسوف يبرز معنى هذا بعد لحظة واحدة) . ثم جاء كونفوشيوس ودارسون آخرون فكتبوا تعليقاتهم على هذا كله ، وكانت النتيجة هي النص الضخم الذي نشر في ترجمة حديثة مليئة بالشروح والتعريفات في مجلدين عام ١٩٥١ . (*)

اذن ، فاذا نظرنا الى كتاب « اي تشينج » في اكثر مستوياته بساطة ، لامكننا أن نعتبره كتابا في قراءة الطوالع مثل « تقويم مور القديم » ، ولا شك أن

(*) ترجمه الى الالمانية ريتشارد ويلهلم ، ثم ترجمه الى الانجليزية كاري. ا. باينز ، مع مقدمة كتبها يونج . لندن ، روتلدج ، ١٩٥١ ، نيويورك ، بانثيون ، ١٩٥١ .

هذا الجانب هو ما يفسر الشعبية الملحوظة التي حققهـا الكتاب فـي السنـوات الاخيرة . ولكن جانب قراءة الطوالع هذا انما يقوم على نسق معين ، وان دراسة هذا النسـق لاكثر فائدة وتكشف عن اشياء اكثر بكثير من تلك التي يزيح عنهـا انوحي استار الغيب .

ويقوم هذا النسق على التعارض البسيط بين النور والظلمة ، او بيـن الايجابي والسلبي ، ويدعوان هنا : « يانج » ، « يين » . ونستطيع ان نحدس على الفور ، بناء على ما سبق قوله في هذا الفصل ، انه لا يفترض أن يتطابق كل من « النور » و « الظلمة » مع الخير والشر ابتدائيين ، وانما مع المبداين الاساسيين القمري والشمسي . وبتعبير اخر نقول ، ان « يين » ليس اسما جديدا للخصائص والمبادىء السلبية ، وانما هو اسم للجانب المعتم ، « الجانب الاخر » من العقل .

يمثل يانج بخط غير منقطع ، هكذا : ——————— ، اما يين ، فيمثله خط ينقطع في منتصفه هكذا : ——— ——— . وكل نبوءة مـن النبـوءات الاربـع والستين ، تصنعها ستة من تلك الخطوط ، الواحد منها فوق الاخر مثل الشطيرة ، هكذا :

ويتصادف ان يمثل هذا الشكل النجمة السداسية رقم ٥٦ ، المسماة « لؤ » الجوابة . ولكل واحدة من النجمات السداسية الاربع والستين اسم مميز . وكل من له ميل حسابي سوف يتمكن من رؤية الكيفية التي نبعث بها أربع وستون نجمة سداسية من اسمي يين ويانج . فاذا انت بدات برسم خطين جنبا الى جنـب ، احدهما يمثل يين ، ويمثل الاخر يانج ، ثم ترى كم من التركيبات يمكنك ان تحصل عليها بتكويم الخطوط الجديدة فوقهما ، على شكل الشطيرة ، فسوف ترى أن من الممكن أن ترتب ستة خطوط في اربعة وستين شكلا مختلفا بالتحديد . انني ابدا بخطين :

فاذا أضفت خطا ثانيا لكل منهما ، اصبح من الممكن أن توجد تركيبتان :

وحينما اضيف خطا ثالثا ، توجد ثماني تركيبات . وباختصار ، يتضاعف العدد معي في كل اضافة جديدة لخط جديد واحد للشطيرة .

ولكن لماذا اربع وستون نجمة سداسية في المحل الاول ؟

يبدو ان الجواب لا بد ان يكون هو ان الملك وين قرر ان هناك ثمانية رموز اساسية ، كالتالي :

تشى يين ، الخالق، السماء
كوون ، المتلقى ، الارض
كين ، حافظ السكون ، الجبل
كان ، السحيق ، الماء
تشين ، المثير ، الرعد
صان ، الرفيق ، الرياح
توي ، الفرحان ، البحيرة
لي ، المتشبث ، النار

لدى الوهلة الاولى ، سيميل الطالب الى التساؤل عن السبب الذي يجعل من المفروض ان تحتوي القائمة على كل من « الماء » و « البحيرة » ، اللذين يبدوان كما لو كان احدهما يكرر الاخر ، حتى يلاحظ ان الرموز تأتي في شكل أزواج السماء والارض ، الماء والنار ، الجبل والبحيرة ، الرعد والريح .وفي كل زوج منها يحمل الزوجان خصائص متعارضة : الخالق والمتلقى ، العنيف (الرعد) والرقيق (الريح) ، الهامد (الجبل) والفرحان (البحيرة) ، المتشبث أو المعتصر (النار) وعكسه ، الهاوية ، الفراغ (الماء) . وكل من تلك الخصائص يمثله شكل ثلاثي ، ثلاثة خطوط ، وعلى ذلك فان كلا من النبوءات الاربع والستين يصنعها اثنان من الرموز .

ومن الواضح ان الملك وين قد فكر وتامل في هذه التركيبات الاربع والستين من الرموز ، ففسر كلا منها باعتبارها موقفا او ظرفا نمطيا من مواقف او ظروف الحياة الانسانية . فمثلا ، اذا مثل الشكل السداسي الارض[1] في وضع علوي (اي على قمة الشكل السداسي) والسماء اسفلها ،فمن الممكن ان ينظر الى الاثنين كما لو كان احدهما يضغط على الاخر بقوة تناظر قوة الاخر ، فتحاول السماء أن تتحرك الى الاعلى ، وتحاول الارض ان تتحرك الى الاسفل ، فتتوازن احداهما الاخرى توازنا تاما كاملا ، ولذلك اطلق الملك وين على هذا الشكل السداسي اسم السلام (أو الانسجام) . ومن الجانب الاخر ، اذا كانت السماء هي العليا والارض السفلى ، فسوف يتحرك الاثنان متباعدين في اتجاهين متضادين ، دون اتصال خلاق بينهما ، وينظر الى هذا الموقف باعتباره

جمودا أو سكونا . ويكشف هذا التفسير عن اننا نتعامل هنا مع الدافع الخلاق العقل الواعي ومع خاصية التلقي للاوعي ، ذلك انه حينما يتحرك هذان الاثنان متباعدين ، فالظرف القائم ، في الحقيقة ، هو ظرف الجمود الكامل لكل حيوية .

قد يبدو هذا شيئا خياليا ، أو ببساطة شيئا مرتجلا وسطحيا . ولا أستطيع أن أقول الا أن التعرف عن قرب بكتاب « اي تشينج » ورموزه ، سرعان ما يبدأ في التكشف عن تماسك داخلي ملحوظ ، وأن مثل تلك المعاني لا تصبح واضحة الا في ذلك الحين . في البداية تبدو مساحة المنظر الشاسعة غريبة متنافرة الاجزاء ، وسرعان ما تصبح مألوفة ، فيبدو كل شيء فيها منطقيا ومعقولا . ومن أوائل العقول العظيمة في الغرب التي اعترفت بهذا ، كان ليبنتز (1) ، الذي سعى هو نفسه الى تحقيق حلم غريب بأن يخلق « حسابا كونيا » يمكن التعبير من خلاله عن كل حقائق الفلسفة والرياضيات . وقد لاحظ ليبنتز أن الطريقة التي شيدت بها الاشكال السداسية تشكل في النهاية نسقا رياضيا ثنائيا او مزدوجا :اي انه نسق لا يستخدم الا الرقمين « واحد » و « اثنين » بدلا من أن يستخدم الارقام من واحد الى عشرة ثم يكررها . والنسق الثنائي هو أساس الالات الحاسبة الحديثة والعقول الالكترونية . ولا شك أن ليبنتز كان مخطئا حينما افترض ــ أو زعم ، أن الملك وين ، أو آخر المعلقين على كتابه وهو « شاو يونج » ــ كان يعرف شيئا عن النسق الرياضي الثنائي ، ولكن غريزته كانت على صواب دقيق حينما راى ان كتاب « اي تشينج » هو ابن عم بعيد لنظامه الحسابي الكوني الشامل . ان ليبنتز هو من كان متعارضا مع النزعة العلمية ، ففكرته عن رمزية رياضية تستطيع ان تعبر عن كل « حقيقة » ليست سوى نوع من السخف ، فحتى اللغة العادية ــ وهي الاكثر مرونة بكثير ــ تتحطم على صخور التصورات البسيطة التي تتضمن المشاعر . اما كتاب « اي تشينج » فهو شبكة نسجت من خيوط أكثر رقة ورهافة .

---

(١) لايبنتز / جوتفريد فيلهلم فون (١٦٤٦ ــ ١٧١٦) الفيلسوف والعالم الرياضي والطبيعي الالماني ، واحد مخترعي حساب التفاضل والتكامل ، وقد نشر رسالته حوله عام ١٦٨٤ ، اي قبل رسالة نيوتن بعام واحد ، واثار بها نقاشا طويلا ، ووضع الاساس لقانون « حفظ الطاقة » ، واهتم ايضا بعلوم الجيولوجيا والاحياء والتاريخ . كانت محاولة لايبنتز في الفلسفة ، الجمع بين افكار النزعة المادية الميكانيكية (عند ديكارت وهوبز) وبين القوانين الارسطية عن الاشكال الجوهرية التبادلية الفعل . قال بوجود « جواهر روحية متفردة » يتكون منها العالم ، واطلق على كل منها اسم « المونادة » ، وهي لا نهائية العدد ، متمايزة ، تتحرك ذاتيا ، ووسطها يقف « المونادة » الاسمى ، الله . وبذلك تنشأ العلاقة بين المادة والحركة ، والمادة هي الاصل . وبذلك تقوم العلاقة السببية ، الابدية بين الجميع ، ويكون للكون « تناغمه القديم » . وكان لايبنتز اول رئيس للاكاديمية العلمية في برلين ، وقال عنه راسل انه مؤسس المنطق الرياضي . (هـ.م.)

ومن الممكن استشارة النبوءة (او الوحي) اما باستخدام سيقان نوع من النبات ذات الاوراق الكثيرة ، أو بالقاء ثلاث قطع من العملة المعدنية واستطلاع الوجوه التي تقع عليها . اما طريقة استخدام سيقان النبات فتستغرق وقتا طويلا ، فهي تتضمن تقسيم خمسين من هذه السيقان بخمسين طريقة مختلفة ، بدءا من تقسيم الساق اعتباطا الى قسمين ، ثم انقاص كل كومة من السيقان بانتزاع مجموعات تتكون كل مجموعة من اربع سيقان . والعملية اطول بكثير من أن نصفها هنا ، بالاضافة الى أنها لا تؤدي الى اي نفع . اما طريقة استشارة النبوءة عن طريق القاء قطع العملة فأكثر بساطة . فعلى من يريد الاستشارة أن يلقي الى الارض بثلاث قطع من العملة المعدنية . فاذا شكلت الوجوه التي نقشت عليها الرؤوس الاغلبية (بأن تكون اثنتين أو ثلاثة) فان خط « يانج » هو الذي يتشكل . اما اذا كانت الاغلبية للوجوه التي نقشت عليها الكتابة (أو الذيول) فان خط « يين » هو الذي يتشكل . ولا بد من القيام بهذه العملية ست مرات ، يتكون منها « سداسي » يراجع بعد ذلك ويكشف عن معناه في كتاب « اي تشينج » . ويطلب من السائل أن يظل مركزا ذهنه على السؤال الذي يطلب اجابته طوال الوقت الذي تستغرقه العملية .

ويبرر عالم النفس ك.ج يونج (١) كل هذا بالمبدأ الذي يدعوه النزعة التزامنية Synchronicity اي افتراض أن « الحوادث » و « المصادفات » ترتبط كلها بشكل ما بالعقل اللاواعي — وهو افتراض وضعناه نحن في اعتبارنا وبحثناه بالفعل في هذا الكتاب . فالعقل الباطن « يعرف » الاجابة على السؤال — هذا هو الافتراض الذي يستخدم لتفسير كل اعمال التنبؤ والعرافة — وتستطيع « المصادفة » — التي تحكم سقوط قطع العملة او تقسيم سيقان النبات — أن تسجل هذه المعرفة وأن تبرزها واضحة للعقل الواعي .

وانه لمن الامور ذات المغزى الهام أن واحدا من مؤسسي حركة علم النفس التحليلي ، والذي كانت حياته المهنية انشغالا دائما بالعقل الباطن ورموزه ، يصل الى القبول بمثل تلك الفكرة في السبعينات من حياته ، ثم يعرب عن أسفه ذات

---

(١) يونج — كارل جوستاف (١٨٧٥ —) من العلماء والاطباء النفسيين البارزين الذين انتجتهم مدرسة التحليل النفسي . سويسري الاصل ، تتلمذ على فرويد وزامله في البداية ، ثم اصبح استاذا لمدرسة في علم النفس والفكر الغربي الحديث نسبت اليه . قام خلافه مع فرويد حول قوله بان محور الليبيدو (الطاقة او القوة الكامنة الدافعة) هي ارادة الحياة ، لا الرغبة الجنسية وعلى هذا الاساس اكتشف قانون تصنيف الشخصية : المنبسطة ، والمنطوية . واخضع علم النفس للثقافة القومية بما تتضمنه من اساطير واديان وتراث اخلاقي ، فاكتشف قانون « الذاكرة الجماعية » للامة ، او للجنس (هـ. م.) .

مرة لانه لا يملك خمسين عاما اخرى من الحياة لكي يكرسها لدراستها . ذلك أن السؤال الحقيقي الذي ينبغي ان يطرح حول كتاب « اي تشينج » ليس هو التساؤل عما اذا كان الكتاب ناجحا باعتباره مساعدا بسيطا على التنبؤ أو قراءة الطالع ، وانما هو التساؤل عما اذا كان هذا الكتاب يجسد نوعا من المعرفة القمرية الحقيقية مثل أساطير الربة البيضاء .

ولكن قبل مناقشة هذا الجانب من كتاب« اي تشينج » باعتباره كتابا في الحكمة ــ ينبغي علي أن أقرر أن نبوءاته كثيرا ما تتمتع بنوع غريب من الدقة التي تسبب قلقا عميقا . هناك تلك القصة التي تروى عن الحاكم « لي » في القرن السابع قبل الميلاد ، الذي كان قد اغتصب السلطة ، ثم استشار الوحي لكي يعرف ان كان ابنه ، تشينج تشانج ، سيخلفه على العرش ام لا . وكانت النتيجة هي ظهور السداسي العشرين ، الذي يعني التأمل ، أو التطاع بالنظر الى الافق البعيد . ويبدو الحكم في البداية محيرا بقوله :

التأمل . لقد تم الوضوء والغسل ،
ولكن التقدمة لم تقدم بعد .
انهم يرفعون اليه الابصار ممتلئين بالثقة .

ولكن هذا ، الىجانب « الصورة » التي تتبعه ، يؤكدان « طريق القانون والشعيرة » . فالحكم يتحدث عن تلك اللحظة في الاحتفال الديني حينما تكون خمر القربان قد أريقت ، ولكن قبل أن تكون التضحية بالقربان نفسه قد تمت بعد ، هذه اللحظة التي يكون كل شخص فيها غارقا في التأمل ممتلئا بالوقار والهيبة . تتحدث « الصورة » عن ملك قديم عجوز زار الشعب وعلمهم ــ مرة اخرى ، تظهر هذه الفكرة الصينية العريقة عن « العلاقة الصحيحة » بين الحاكم والمحكوم . ولا بد ان المغتصب « لي » كان قد بدأ بالفعل يشعر بوخزات الضمير بينما هو يقرأ تلك السطور .

وهناك المزيد من التفاصيل . فانه اذا تم الحصول على احد الخطين « ين » او « يانج » عن طريق ثلاثة نقوش لرؤوس او لذيول (بدلا من الحصول على أحد الخطين بواسطة اثنين فقط) فان الخط يدعى في هذه الحالة « خطا مفيرا » ، فهو يميل الى ان يتغير الى ضده . في هذه الحالة ، فان خط ين ، في المحل الرابع ، يكون هو الخط المغير ، وهذا هو ما حول السداسي الى حالة الجمود ، او السكون ، التي يقول حكمها :

الاشرار لا يقدرون على زيادة
المحافظة على حياة الانسان السامي .
يبتعد العظيم ، ويقترب الضئيل .

ومن الواضح أن المعنى الكلي للحكم هنا لا يكون في صالح صاحب السؤال .

وقد اثبت الكاهن الذي فسر هذه النبوءة للملك لي أن عنوان السداسي يعني ايضا « النظر الى الافق البعيد » ـ فالسداسي مرتبط ببرج للمراقبة اقيم فوق التلال ـ وأن المعنى الاخير كان يعني انه اذا استمر الامير في الحكم ، فلن يكون ذلك في هذا البلد : « تشيين » وانما في مكان آخر ـ وتقول القصة ان الكاهن اشار الى دولة « تشي » ، لان حكامها كانوا من سلالة كهنة الجبل المقدس ، الذي يتضمنه ايضا سداسي « النظر الى الافق البعيد » .

وتختتم السجلات القصة بالقول ان « لي » نفسه قد عزل في الواقع عن العرش بأيدي جيرانه في الدولة المجاورة ، ولكن احفاد ولده اصبحوا فيما بعد حكاما لدولة « تشي » مثلما قالت النبوءة . (*)

ويستحق الامر ان ندرس الشكلين السداسيين ـ حاملي رقم اثني عشر وعشرين ـ على ضوء هذه القصة. انهما اطول بكثير من ان نناقشهما هنا بالتفصيل، ولكن من الممكن أن نقرأ فيهما اشارات كثيرة اخرى عن مصير لي وتشينج تشانج . وسواء استطاع المرء ان يقبل القصة ام لا ، فانها تقدم نظرة نافذة الى الطريقة التي استخدمت بها النبوءة .

في كتاب « الانسان ورموزه » الذي أشرف يونج على تحريره ، هناك تقرير مطول كتبه يولاند جاكوبي عن تحليل شخص انطوائي كئيب رفيع الثقافة يدعى هنري . فقد حدث ان أقنع هنري ـ ضد ارادته الى درجة كبيرة ـ بأن يحاول القاء قطع العملة واستشارة النبوءة . « كان لما وجده في الكتاب تأثير هائل عليه » اما ما حدث باختصار فهو أن النبوءة التي توصل اليها ، كانت تحمل عددا من الاشارات المزعجة الى حلمه ، والى حالته النفسية بشكل عام » . كان السداسي هو السداسي الرابع ، المسمى « بلاهة الشباب » ، وكان يحتوي على تحذير من ان يوقع المرء نفسه في حبائل الخيالات غير الحقيقية والاوهام الفارغة . واضاف الحكم الحتامي تحريما بالعودة الى استشارة النبوءة مرة اخرى . ولكن حدث بعد ليلتين ، وبعد ان رأى حلما يتكون من صورة لسيف وخوذة يسبحان في الهواء ، ان قام ففتح الكتاب بطريقة اعتباطية، فوقع بصره على السداسي الثلاثين ، المسمى « لي » ، الذي يتكون رمزه من مجموعة من الاسلحة ، السيوف والمغافر .

هذا هو نوع المصادفات التي سيبحث عنها دارسو كتاب « اي تشينج » وسوف يشهدون بصحتها ، وعادة ما يكون التأثير محيرا مذهلا من الناحية

(*) انظر هيلموث ويلهلم : التغير : ثماني محاضرات في كتاب « اي تشينج » . (نيويورك ، هاربر ، ١٩٦٠) ص ٩٥ ، ٩٧ .

النفسية . وكانت الحالة بالنسبة لهنري، هي التوافق التدريجي مع قواه غير الواعية التي أصبح كتاب « اي تشينج » هو رمزها وهو الامر الذي اكمل العلاج . وليس هذا بالامر الصعب على الفهم في ضوء ما قيل بالفعل في هذا الفصل. كانت مشكلته السيكولوجية الاساسية نوعاً من رفض الايمان بكل وجود سوى وجود الذات Solipsism ، احساس بانه قد وقع في شرك « الوعي » ، مع احساس تابع له بالانفصال الكامل عن بقية العالم ، احساس دائم بأن لا حقيقة هناك . ذلك ان العقل اللاواعي هو النقطة التي يرتبط عندها الانسان حقا بالطبيعة. وقد وصف مؤرخ علوم الغيب « و.ا. وايت » كيف قادته سنوات الدراسة اخيرا الى ادراك انه ليس هناك انفصال حقيقي بين الانسان وبين بقية الكون ، ووصف ايضا كيف تحول هذا الفهم العقلي الى استبصار يحسه بعمق بالغ من خلال مرض خطير اصابه فجعله يظل في حالة تشبه الوعي طوال شهر كامل . هذا هو ما انتجه كتاب « اي تشينج » على هنري وان كان بدرجة اقل . وهو ايضا ما يحدد الهدف الحقيقي من كل الدراسات عن السحر وعلوم الغيب . اننا نعرف ــ بشكل نظري ــ اننا نمتلك عقلا « لا واعيا » . ومع هذا فانني اذ اجلس هنا ، في هذه الحجرة ذات صباح مشمس ، فانني لا اشعر به بأي شكل من الاشكال ، لا يمكنني ان اراه ولا ان احس به . انه يشبه ذراعا رقدت فوقها لمدة طويلة في نومي ، فاصبحت كالميتة تماما خالية من كل احساس . والهدف الحقيقي الذي تسعى اليه اعمال من نوع « اي تشينج » او « كابالا » او « مفتاح سليمان » هو استعادة الدورة الدموية الى تلك المناطق من العقل .

أما عن تجربتي انا الشخصية مع كتاب « اي تشينج » ، فانها بالتأكيد قد دفعتني الى التعامل معه ــ ربما ــ باعتباره اكثر كل تلك الاعمال عمقا وابلغها اثرا. لقد صادفت هذا الكتاب لاول مرة ، في تلك الفترة التي تحدثت عنها من قبل بالفعل ، حينما كنت اسكن في ويمبلدون . ومن الواضح ان اول ما قد يطمح كاتب مبتدىء الى ان يستشير « الوحي » بشأنه ، هو مستقبله بوصفه كاتبا . انه يطلب « نبوءة بعيدة المدى » . اخذت ثلاثة بنسات ، والقيتها الى الارض ست مرات ، وفي كل مرة كانت هناك غالبية من الرؤوس ، مكونة شكلا سداسيا صنع من ستة من خطوط يانج : وهو السداسي الاول في الكتاب ، الذي يصحبه حكم يقول :

يصنع المبدع النجاح السامي

فيمعن عبر البقاء والحفظ مصونا .

وفي مئات المرات التي استشرت الوحي فيها منذ ذلك الحين ، لم تخرج لي قطع العملة الثلاث ابدا بستة سطور مكتملة . ومن الواضح انني كنت مدفوعا الى

الاقتناع . والمرة الوحيدة الاخرى ، التي رأيت فيها قطع العملة الثلاث وهي تسقط بهذه الطريقة كانت حينما قام الكاتب بيل هوبكينز لاول مرة باستشارة الوحي . قال بو قاحة ونزق : « اذا خرج بحكم جيد ، سوف اؤمن به . فاذا لم يفعل ، فلن اؤمن . » وانجز الوحي ما كان يتوقع منه فخرج بالسداسي الاول مرة اخرى .

انني لا اتذكر بوضوح سوى مثال واحد آخر فحسب لدقة الكتاب منذ ذلك التاريخ . فقد حدث في ويمبلدون ان استشرته بشأن الرجل العجوز الذي كنا نعيش معه ، الذي كان رجلا يتقلب بين الجاذبية الساحرة اللطيفة والخشونة البالغة . وكان السداسي الذي حصلنا عليه هو « صانج » ، اي الصراع ، مع حكم يقول :

الصراع . انك مخلص .
تعترض طريقك العقبات .
وقفة حذرة في منتصف الطريق تجلب الحظ الحسن
انها لا تدفع المرء الى عبور المياه العظيمة .

وقد دلني هذا على ما كنت ابغي معرفته بالتحديد : وهو ان كان ينبغي علي ان ابرح ذلك المكان باسرع ما يمكن أم ان ابقى فيه . « وقفة حذرة في منتصف الطريق تجلب الحظ الحسن . الانطلاق الى النهاية القصوى يجلب سوء الحظ » . لم يمكنني ان احدس ما كان القصد بالاشارة الى « الرجل العظيم » ، ولكن النص يوضح أن الرجل العظيم لا يشير الا الى « رجل نزيه مجرد من الهوى ، تبلغ سلطته حدا كافيا من الضخامة لانهاء الصراع . » وكان الرجل الوحيد الذي نعرفه من هذا النوع هو شقيق المريض الذي تشرف زوجتي على تمريضه ، وبناء على ذلك فقد قمنا باستشارته وشرحنا له المشكلة . ولقد نجح حقا في تلطيف الامور لمدة قصيرة . اما بالنسبة لعبور المياه العظيمة ، فاننا كنا نفكر في الانتقال عبر نهر التيمز ، عائدين الى شمالي لندن ، حيث كنت أعمل . واثبت الوحي انه على صواب في هذا الصدد ايضا . فقد ساء الموقف بسبب انتقالنا الى « ايرلس كورت » بعد موت الرجل العجوز .

ولكن السطر الاخير كان هو اكثر ما اثر في في هذه المناسبة بالذات . كنت قد حصلت على ثلاثةرؤوس من قطع العملة الثلاث ، وعلى ذلك فقد كان معنى التعليق المطبق على هذه الحالة ، تسع مرات عند القمة هو :

حتى اذا ماوهب المرء ـ بالصدفة ـ حزاما من الجلد ،
فانه عندما يقترب الصباح من نهايته
سوف يكون قد انتزع منه ثلاث مرات .

وكانت واحدة من اكثر عادات الرجل العجوز اثارة لحنقـي هي أن يمنـح زوجتي بعض الهدايا حينما يكون رائق المزاج ، ثم يستعيدها مرة أخرى ، بل وقد يمنحها لشخص آخر . ومن الواضح ان السطور المذكورة من كتاب « اي تشينج » انما تشير الى عملية منح المرء وساما من جانب الملك ـ فقد كان الحزام الجلـدي مقابلا للوسام أو للنوط ـ ولكنه تطابق مع موقفنا بالتأكيد .

ويصف يونج ، في مقدمته لكتاب « اي تشينج » كيـف استشاره بشأن مسألة الطبعة الجديدة من الكتاب التي كان قد اقترح أن يقدمها للعقل الغربي . وكانت الاجابة هي « تينج » اي « المرجل » ، وهو الذي يصفه التعليق بأنه قارب للطقوس الشعائرية يحتوي على نوع روحي من الغذاء ، أي أن كتاب « اي تشينج » يصف نفسه بأنه شبيه بهـذا القارب . بـل ان « السطـر » الاخير ، وهو سطر بالغ القوة ، قد تنبأ بالنجاح الذي لا يصدق والذي لقيه الكتاب في اميركا في العقد الماضي (حيث يستمر في الانتشار في سوق الكتب بنفس القدر الذي يباع به الكتاب المقدس) . يقول :

الـ « تينج » له حلقات من الزمرد
حظ حسن عظيم .
لا شيء يستطيع الوصول الى هذا المدى .

(يعني حمل بعض قبضات من الزمرد ان « القارب » يصبـح شيئـا جديـرا بالتوقير والاجلال العظيم) .

ولكن اكثر السطور التي ابرزها يونج اهمية ـ بالنسبة لهدفنا الان ـ كـان القائـل :

« تينج » بسيقان مقلوبة .
يؤكد ازاحة الاشياء التي تسبب الجمود والتوقف .
يضم الرجل محظيته الى اسرته من أجل ولدها .
فلا لوم عليه .

ويفسر يونج هذه السطور بأنها تعني ان كتاب « اي تشينج » يشير الـى نفسه باعتباره مرجلا (اي قاربا مقدسا) لم يستخدم منذ مدة طويلة (اي انه ترك مقلوبا) . ولكن السطور الهامة هنا هي تلك التي تشير الى المحظية . « فالرجل يتسرى بمحظية حينما لا يكون لزوجته ابن » كذلك يقول يونج فيتعايقه ثم يستطرد مكملا : « كذلك فان الناس يستفيثون بكتاب « اي تشينج » حينما لا يرون مخرجا آخر . وعلى الرغم من الوضع شبه الشرعي للمحظية في الصين ، فانهـا فـي الحقيقة لا تتمتع الا بوضع انتقالي حرج بشكل ما ، وهكذا هو الاجراء السحري الذي يقوم به الوحي اذ يبدو كمبعوث لا يستخدم الا لخدمة غرض اسمى وارفع .

وليس في هذا ما يدعو الى اللوم ، رغم أنه اجراء استثنائي . »

ورغم أن يونج « يوضح شيئا ثم يتجاهل شيئا آخر ، فمن الواضح انتفسيره هذا يمثل انتقاصا لدور كتاب « اي تشينج » باعتباره وسيلة لقراءة المستقبل . اذ لا بد لـه ان يكون اجراء استثنائيـا ، لا لعبة من العاب الحفلات المسلية .ذلك ان المغزى الحقيقي والدائم للكتاب لا يتمثل في استخدامه كوحي متنبىء بالغيب ، وانما في النظر اليه باعتباره كتابا في الحكمة .

ان اول ما يلاحظه كل من يستشير كتاب « اي تشينج » هو اشارته الكثيرة الى « الرجل السامي ». ودائمـا ما تتضمـن اقواله ونصائحه ، سواء كانت في صف المستشير او ضده ، وانمـا ما تتضمن نصيحة للرجل السامي حول كيفيـة معالجته للموقف المعين . وكل من استشار كتاب « اي تشينج » في لحظة الازمة او الشدة سوف يذكره بالثناء من اجل تأثير هذا الجانب المنعش للعقل والمنشط للذهن . يقول اليوت : « الحياة ايام عديدة » . ولكن البشر عادة ما يقعون فيشرك الحاضر ، فيستجيبونالمشاكل بتوتر وقلق يعالجان كل مشكلـة كمـا لو كانت مسألـة حياة او موت ، وقد قال جونسون ذات مرة لبوزويل ، الذي كان يشكو اليه من مشكلـة صغيرة :« ايه يا سيدي ، فكر في ضآلة ما سوف تبدو عليهتلك المشكلـة في نظرك بعد عشر سنوات » .

ويشير هذا الىمغزى عنوان كتاب التغيرات . فبينمـا اعيش خلال الحاضر، تبدو كل ظواهر الحياة « حقيقية » صلبة وذات اهمية دائمة . اما الحقيقة ، فانها تجري مثل سطح نهـر منساب . ان « الانا » التي تنظـر من خلال عيني لن يطرأ عليهـا تغيير فيعشر سنوات من الزمن ، ولكن كثيرا من تلك الاشياء « الدائمة » من حولي ستكـون قد اختفت .

لقد كان لكتاب التغيرات تأثير عظيم علىكل من الديانة الطاوية (١) والنزعـة الكونفوشيوسية . ويستطيع المرء ان يقول ان حجر الاساس في كتـاب « اي تشينج » انما يتكون من مفهومين اساسيين ، اولهمـا طـاوي والاخـر

---

(١) الطاوية Toism واحدة من الديانات الصينية الكبرى الثلاث القديمـة (مـع الكونفيوشيوسية والبوذية) ، اسسها الفيلسوف لاوتسي (حوالـي القرن السادس ق.م) واقامها على الكتاب المنسوب اليه : « كتاب العقل والفضيلة » . قال لاوتسي ان « طاو » ـ اي الطريـق ـ هو كلية الوجود والاشياء ، وهو عالم الظواهر ونظامه ، وهو المبدأ الاخلاقي الذي يحكم سلوكالانسان الطيب ، « اليه يرجع اصل كل شيء ويتطابق مع مشيئته ، ثم يعـود اليه » . ومع ذلكفهـو ليس الها بالمعنى المعروف في اللاهوت المتوسطي ، بمعنى انه لا يخلق العالم ، وانمـا يوجد فيـه ، ويحكمـه . (هـ . م .)

كونفوشيوسي . ومن الممكن ان نعثر على المفهوم الكونفوشيوسي في كلمة لمينسيوس Mencius يقول فيها : « اولئك الذين يتبعون الجانب العظيم من انفسهم سيكونون عظماء ، انما اولئك الذين يتبعون الجانب الضئيل من نفوسهم فسيكونون رجالا ضئالا . » اما المفهوم الطاوي فقد لمسناه بالفعل في حديثنا عن الافراط في الحساسية . يلاحظ تشونج تزو ان الطفل الرضيع يستطيع ان يحتفظ بقبضتيه مضمومتين طوال يوم كامل دون أن يتعب ، بينما لا يستطيع الشخص البالغ ان يحتفظ بهما مضمومتين لاكثر من دقائق قليلة . ويستطيع رجل سكران ان يسقط من عربة سائرة دون ان يجرح نفسه . وقال نجار انجز عملا كان من الكمال بحيث بدا في صورة غير طبيعية ، قال في تفسير ذلك انه حينما يكون على وشك الشروع في انجاز مهمة صعبة فانه اعتاد ان يهبط بعقله الى اقصى حالات السكينة ،محاذرا من اي عملية انتقاص من طاقته الحيوية. وبعد ايام قليلة من مثل هذه السكينة ، فانه لا يعود يهتم باهمية مهمته (حتى ولو كان يصنع اداة موسيقية للملك) . انه يذهب الى الغابة ، فتهديه غريزته الى الشجرة الصحيحة التي ينبغي ان يقتطع منها الاداة المطلوبة . وفي اثناء صنع الاداة ، فانه لا يبذل اي مجهود واع ، وانما يكتفي بأن « يدفع قدراته الطبيعية الى الدخول في علاقته مع القدرة الطبيعية للخشب » .. تحمل كل الامثال الطاوية نفس هذا المضمون . ان الجزار الذي يقطع كتل اللحم بدقة ورشاقة متناهيتين يفسر ذلك بانه يقوم به بنفس الطريقة ــ في سكون كامل وتركيز كامل ــ مما يؤدي بعد تسعة عشر عاما الى ان تظل مهارته بنفس الكفاءة والحدة.

هذا هو المبدأ الاساسي في اليابان لطقوس « زن » (*) مثلما سيعرف قراء كتاب « زن في فن الرماية بالقوس » الذي كتبه ايوجين هيريجيل .

وهذا يعني القول بأن من يتقن طقوس « طاو » او « زن » انما يضع نفسه في الحالة التي ناقشناها بالفعل فيما يتعلق ببويز . يهدهد العقل الواعي بانواع توتره فيهدأ ويتطامن ، وينتقل مركز جاذبية الانسان الى « الحياة السرية » . وهناك فصل مشهور من كتابات « تشونج تزو » يصف فيه عملية الغرق في السكينة بانها : « تشبه الانصات لموسيقى السموات والارض » الانصات لصوت الرياح او لاصوات الطبيعة الاخرى ، كما لو كانت هذه الاصوات تخلق موسيقى

(*) زن zen احدى الفرق التي خرجت من الديانة البوذية في الصين بعد القرن السادس ق.م ، واخذت طقوس اليوجا والتحكم الارادي في الجسد والطاقة الفكرية في العقل من الديانة الطاوية ، ورأت في « البوذا الاعظم » رمز الاستنارة الابدية ، التجسيد الشامل لكل الكائنات مثل « طاو » عند لاوتسي (الهامش السابق) . ولكنها على عكس بقية الفرق البوذية ، اعتقدت في اليقظة المفاجئة للعقل والروح (ساتوري) ــ هـ . م . ــ

هائلة ، فتستغرق تلك الاصوات كلية في التفكير في مغزاها العميق . ويشرع العقل في الاستجابة لصوت الرياح كما لو كانت موسيقى هائلة .

وقد اكتشف علم النفس الحديث هذا المبدأ من مبادىء « طاو » . ان فيكتور فرانكل ، مؤسس علم « العلاج النفسي عن طريق اللغة Logs therapsy على سبيل المثال ، يحكي قصة عن اخراج مسرحية في احدى المدارس حيث احتاج الامر الى من يمثل دور شخص « يفأفىء » ويتأتىء في نطقه . وتم اختيار صبي من التلاميذ راح يمثل الفأفأة بطريقة رديئة ، ولكنه حينما صعد الى منصة المسرح ، وجد نفسه عاجزا عن الفأفأة . ويصف فرانكل هذه الحالة بانها « قانون المجهود المعكوس » . ان الفأفأة نتيجة للافراط في الحساسية ، نوع من « هيبة المنصة » ـ اي انه نوع من ارجاع قدر كبير من الاهمية لفعل يتقدم عقلك الواعي الى اتيانه ، كما لو كان « جاويشا » غبيا ، فيفسد كل شيء . اما المبدأ الذي يقول به فرانكل فيقوم ببساطة على اقناع « جاويشك » الخاص بانجاز التأثير « المعاكس » عن طريق عملية خداع او تحايل . مثل ذلك مثل « الارنب برير » اذ يقنع « الثعلب برير » (١) بان يلقيه فوق الرقعة ذات الورود الشائكة ، او « توم صوير » (٢) وهو يقنع اصدقاءه بأن يغسلوا الجدار لكي ينظفوه بان يتظاهر بانه سيتمتع بهذا المنظر استمتاعا لا حد له . ان التلميذ الذي يفأفىء « يريد » ان يفأفىء فوق منصة المسرح ، فالجاويش يشرع في التدخل فيتحقق التأثير المعاكس ويكتمل . كان نجار تشونج تزو جديرا بان يعمل بطريقة بالغة الرداءة لو انه سمح لنفسه بان يفكر في البلاط حاملا همه ، انه ينفق عدة ايام في تهدئة « الجاويش » حتى ينام قبل ان يشرع هو في التفكير في الخشب. ان فرانكل يعالج حالات القلق المفرط بأن يقول للمريض ان « يحاول » أن يفعل عامدا الشيء الذي يتلهف من اجل الا يفعله ، فينفس بذلك عن المشاعر المتوترة والانفعالات المتقدة فيسمح لـ « الروبوط ، الانسان الآلي » الكامن في اللاوعي بأن يمضي في العمل بطريقته الخاصة في هدوء .

يكمن تحت كل هذا ويؤكده ، الاعتراف بان الانسان يمتلك قوى داخلية هائلة « سمح » هو لها بأن تكون عصية عليه غير طيعة وبعيدة عن متناوله من خلال الافراط العام في الحساسية واساءة استخدامه لعقله .

---

(١) الارنب برير ، والثعلب برير ـ من الحيوانات التي تدور حولها « حكايات العم ريموس » للاطفال ، التي كتبتها جويل تشاندلرهاريس . (هـ . م .)

(٢) توم صوير ـ الصبي المغامر ، بطل رواية مارك توين الشهيرة بنفس الاسم ، الذي اصبح رمزا للبراءة المفقودة تدريجيا ، لكي يحل محلها الذكاء الاخلاقي والبطولة العملية والجسارة المهذبة من خلال تجربة الاحتكاك بالحياة في عالم الكبار الفاسد . (هـ . م .)

اما نجار تشونج تزو فقد اختار ببساطـة ان يتواصل مع « الجزء العظيم من نفسه » من اجل ان يصنع الاداة الموسيقية ،كان بوسعه ان يختار « ان يقتفي خطوات الجزء الاصغر من نفسه » خاصة اذا ما كان حرفيا ماهرا ، وكان مـن المحتمل الا يتمكـن انسان من معرفة الفارق بين النتيجتين . وهذا ايضا ما يعنيه جريفز بالفرق بيـن شعـر عرائس الفن وبين الشعر « الكلاسيكي » . ليس هـذا الشعـر الاخير سوى صنعة حرفيـة بصورة اساسية ، خلقته او صنعتـه المستويات العليـا من الشخصية ، جيد الصنعة ولكنه دون الهام .

والبشر هم الكائنات الحية الوحيدة الذين يملكـون هذا الاختيـار . بيـن اقتفاء آثار الجزء الاعظم ، او الجزء الاكثر تفاهة . ويتوقف الفارق ويعتمد علـى قدرة الانسان التي لا يتميز بهـا غيره على التخيل . فحينمـا يواجه اي حيوان موقفـا معتمـا غامضا ، فانه يصبح غبيـا بليد الاحساس . ان الصقر ، وهو اكثر الطيور قسوة وحدة ، يصبح ساكنا متلبدا اذا ما وضعت على راسه غمامة سوداء تغطي عينيه . اما الوعي السامي الذي يتميز به الانسان فيعني انه يستطيـع ان يرى الى بعـد اكبر ، ان احساسه باهدف يمتد ليخترق المسافاتالبعيدة. ولكننا ما نزال حيوانات بنسبة ٩٩ في المائة . وقليلون منا هم من يهتمون بتطوير هـذه القدرة الفريدة المتميزة . اننـا ننساق مع التيار يومـا في اثر يوم ، يملأناالضجر حينمـا تصبح اشياء معتمة غير واضحـة ، ويتملكنـا الانقبـاض حينما تبـدو الاحتمالات القريبة محدودة والافاق الميسورة مظلمة لا نور فيها ، فلا نستخـدم قدراتنا على التبصر والتخيل الا حينمـا يواجهنـا نوع يثير الاهتمام منالتحدي، ثم نترك هذه القدرات لكي تنطرح في اهمال واهن بين كل لحظتين من لحظـات هذا التحدي . ولا بد لنـا من الاعتراف بان هذا الموقف ينطبق علينا جميعا اغلب الاحوال ، بمـا في ذلك من كانوا اشباها لبيتهوفن او اينشتين . «الانغماس »في الاشياء والهموم هو نصيبنا المشترك وقدرنا . اما مـا يجعلنـا بشرا بصورة فريدة فهـو لحظـات عدم الانغماس الغريبة ،عند ذاك يختفي الضغط . واذا بنا فجـأة نرى الحياة من بعد ، كمـا لو كنـا آلهـة اذ نراهـا من عل ؛ من وجهة نظر طائر محلق بدلا من نظرة عين الدودة المعتادة . في تلك اللحظـات من التفاؤل والتثبت، يبدو من السخف ان ينبغي لنـا ابدا ان نفرق، او نستسلم لحالـة الانقباض او الاحساس بالهزيمة ، اذ يكون من الواضح فجأة اننا غيـر قابلين للهزيمة وغيـر قابليـن للتدمير . فكل حل وسط او تراجع انمـا يبدو نتيجة لنـوع سخيف وعبثي من سوء التقدير . انني افتح بطريقة عابرة كتابا عن الموسيقى فاقرا قصة عن كيف وجد المؤلف الموسيقى جيز والدو زوجته في الفراش مع عشيقها ،فقتلها بسيفه بينمـا قتل خدمه العاشق ،ثم يذهب الى واحدة من قلاعه فيقتـل طفله الثاني خوفا من ان لا يكون هـو اباه . ولا شك ان دفاعه ــ امام محكمـة حديثة ــ

سيبدو نوعا من الجنون ، ولكـن هل كان ذلك جنونا ؟ انني اذا حاولت ان اضع نفسي في مكانه ،فانني ارى على الفور انه لم يكـن جنـونا . لم يكن تصرفه الا « انغماسا » اعمى في الموقف ، مثل انغماس رجل يتصارع مع ثعبان عاصر مـن نوع البوا . كان عليه ـ اذ سقط في دوامة من الانفعالات ـ ان يصدر حكما مـن نوع ما وان يتصرف بناء عليه ، ولكن من المحقق ان اكثر الناس سيعجزون عـن اصدار الحكم الصحيح في مثل هذا الموقف . انه موقف شبيه بموقف خادم قمرة القيادة اذ يطلب منه ان يتولى قيادة السفينة وسط العاصفة ثم نتوقع ان يتخـذ القرار الصحيح . ان مـا فعله جيزوالدو ليس شرا بالضرورة . من المحقق انـه كان سيصبح شرا لـو انه قرر في هدوء ورويـة ان يقتل زوجته وطفله . ولكن كان واقعـا في قلب العاصفة،وكانت احكامه بالفـة السرعة ، بالفـة الانغماس ، ولذلك فانهـا كانت بالفـةالعنف . من وجهة النظر الاجتماعية والاخلاقية ، ربما كـان الافضل لو انه انفجر باكيـا وتساءل عمـا فعله لكي يستحق مثل هـذه الخيانة . ولكن من وجهة نظر جيزوالدو فان مثل هذا التصرف كان جـديرا بان يكـون مساويـا للهزيمـة .

ان المرء اذ يفكر في موقف من هذا النوع ، فانه يدرك افتقار الانسان الـى القدرة على النظـر من بعيد، ويدرك ا فتقارنـا الى التجربة وعدم نضجنا فـي المشاكل المعقدة للظروف الانسانية . ولكـن لا ينبغي ان يكـون امر على هـذا النحو . اننا نستطيع ان نمتلك « مسـافات التقاط انفاس » حينمـا نتمكـن مـن اتخاذ وجهة نظـر بعيدة منفصلة عن الاشياء . لقد كان البشر جديرين بان يصبحوا كائنـات اكثر قربا من الآلهـة لو اننـا نظرنـا الى ما تعلمنـاه من لحظات البصيرة النافذة تلك باعتباره شيئـا تتعلق بـه الحياة والموت . ولكن اكثرنـا يستطيعون الانسياق مع تيار الحياة دون اتخاذ ايـة قرارات اخلاقية عظيمة . وهكـذا فان الجنس البشري لـم يظهـر اي تقدم في مجال الحكمـة عبر ثلاثة آلاف عام .

هذه هي النظرة المتبصرة العميقة التي تكمن في قلب كتاب « اي تشينج » : انه بوسع الانسان ان « يختار » الا يتبع الجزء « الصفير » من نفسه . ان طريقة طاو ومنهجه ـ منهج التواصل مع قدراته اللاواعيـة عن طريق التركيز الدقيـق على اشياء متميزة بعينها ـ يفتح الطريق الى مستويات تطورية اكثر سموا .

وكل من يقوم ببسـاطـة بقراءة ودراسـة كتاب « اي تشينج » بينمـا هـو يفكـر في رموزه وافكاره ، متجاهـلا في الوقت نفسه قدراته باعتباره وسيلـة للتنبؤ والعرافة :فانه سيدرك ان « هذا » هو اكثر مستوياتمعانيه عمقا واكثرهـا كثافـة . انه مثل الموسيقى التي تولد حالة من البهجة الكثيفـة الغامرة المفاجئة، من الابتعاد والانفصال الداخلي ، مـن الحصول على « مسافـة التقاط الانفاس ».

ان القاريء الذي ينغمس في كتاب « اي تشينج » يشرع في رؤيته باعتباره كلا متكاملا ، وربما اصبح اكثر مهارة في استخدامه كوسيلة للعرافة ، فان هذه القدرة على التنبؤ ، مثلها مثل الغطس في الماء ، من الامور التي يمكن ان تتطور ببساطة عن طريق بذل المجهود من اجلها . وسوف يدرك هذا القاريء ايضا ان قدرة الكتاب على التنبؤ بالاحداث ليست سوى نتيجة ثانوية جانبية لا اهمية لها ، لغرضه الاساسي الحقيقي .

هناك نقطة اخيرة يجب الا نغفل عنها . ان ريتشارد ويلهلم يشير الى ان المعنى الاولى لـ « ين » هو « الغائم ، المحجب » بينما المعنى الاولى لـ « يانج » هو « رايات تخفق في الشمس » . فهل يستطيع المرء ان يبتكر رمزين اكثر نفاذا الى المشكلة المركزية الرئيسية للوجود الانساني من هذين الرمزين ؟ البلادة والضجر في مواجهة « لحظات الرؤيا » .

٣
الشاعر عارفا بالغيب

الشاعر انسان تطورت لديه الملكة « س » بصورة طبيعية الى درجة تزيد عن تطورها لدى اكثر الناس . فبينما يجتث اكثرنا دون رحمة مناطق برمتها من الادراك ، فنتسبب بهذا في افقار حياتنا العقلية ، فان الشاعر يستبقي القدرة على ان يبتهج فجأة لمجرد « حقيقة » ان العالم « يوجد هناك » .

فهل يمتلك الشعراء في الحقيقة درجة اعلى من القدرات على معرفة الغيب مما يمتلكه اكثر الناس ؟

في الوقت الذي كنت اناقش فيه مسألة « ملكات معرفة الغيب » معروبرت جريفز في ماجوركا ، قابلت ايضا الشاعر لويس سينجر ، وهو معاصر لجريفز . كان موقف سينجر من مثل هذه الامور مليئا بالشك الى حد كبير ، رغم انه اخبرني بانه قام ذات مرة باستقصاءات مختلفة في موضوع النزعة والاعمال الروحانية . سألته ان يسرد علي بعضا من تجاربه . وكانت النتيجة وثيقة هامة تقع في خمس عشرة صفحة ستتاح لي الفرصة لكي اقتبس منها اكثر من مرة في هذا الفصل . كان سينجر، مثل جريفز ، محظوظا بامتلاكه قدرةالشاعر على الوصول الى الاسترخاء الكامل . انه يتحدث عن : « التركيز على لا شيء ، والسماح للعقل بأن يغرق في حالة من السلبية المطلقة » .

لم تستطع جلسات تحضير الارواح ان تقنع سينجر بان الظاهرة الروحانية حقيقة واقعية . ولكنه احتفظ بعقله مفتوحا ،وبذل الجهد لكي يجعل نفسه في حالة مزاجية متفتحة تسمح له بالتلقي الايجابي حينما يكون وحيدا . واخبرته امرأة وسيطة بان له ان يتوقع زيارة من « سيدها » ، وهو روحطفل، في غرفته :

« .. ورحت في هدوء غرفتي انتظر زيارتها بعقـــل مسترخ مستريح .. وبالطبع لم يحدث شيء . وفي الليلة التاليـــة قررت ان اجرب استخدام شمعة. اشعلت الشمعة ووضعتهـــا تحت نظري مباشرة . وتوهج اللهب دون ان يزعجه شيء . بعقل مسترخ رحت اراقبه ، آملا في يأس بأن يلفحني واحد مـــن تلـك « الانفاس » الروحيـــة الغامضة . ولكـــن لـــم يأتني واحد منها . ومع ذلك ، فقـد شممت فجأة رائحـــة عطرجميل لم أكـــن قد لاحظته من قبل . شممته في حالـة السلبيـــة الكاملة التي كنت فيها دون بادرة من شك ايا كانت . نهضت وحاولت ان اقتفي اثرها . لم يكـن هنــاك شيء في غرفتي يمكـــن ان يكون مصدرا لها . واخيرا تركت انفي يقودني . قادني من اعلى نقطـــة في المنزل الى الطابق السفلى حيث كان الحمام . وهناك وجدت المصدر ــ قطعة من الصابون المعطر . كان هنـــا اذن أول درس محدد تلقيته. ففي حالة السلبية ، وحينما تكـــــون قوى الادراك الذهني مهجورة تماما،تصبح الحواس مفرطة في حساسيتها . ففي حالتي الطبيعية ما كـــان بوسعي ان اشم رائحـــة الصابون ، ولكـــن ذلك كـــان بامكاني وانا فـــي حالـــة غيـــر طبيعيـــة .

ها هـــو اذن مثال آخـــر على زيادة حدة ملكة معينة لكي تتجاوز قدراتهـــا الطبيعيـــة عن طريق نوع من الجهـــد الذي يبذل في هدوء. انه المقابل الحضري لحساسية الادغال التي تمتع بهـــا كوربيت . لقد بدا الامر كما لـــو ان ملكاته ادركت ان المطلوب منهـــا ان تبذل قدرا اكبر من الجهد ، ولكنها لـــم تكن واثقة من نـــوع هذا الجهد . لقد اكتشفت حاسة الشم رائحـــة ما كان بوسعها ان تهتم بتسجيلها في الحالة الطبيعية العادية . فـــان جهازنـــا العصبي يحتوي على بعض الثغرات الصغيرة ، تسمى « النقاط المفصلية » ــ وظيفتها هي حجز واستبعاد المثيـــرات الحسية غير الضرورية ، والا لكنـــا نشعـــر بكل تغير بسيط في درجـــة الحرارة، وبكل نفحـــة هواء ضئيلة تهب على وجوهنا ، ولتضاءلت قدراتنا علـــى التركيـــز الـــى حـــد عظيـــم .

ويبرز هذا نقطـــة حيوية هامة . لقد كان « من خلال » التركيز ان استطاع سينجر أن يستعيد حـــاسة للشم فائقـــة الحساسية بصورة غير طبيعيـــة . ان هذه الملكات ــ التي لا بد ان تحبس وان تحرم من العمل لاسباب عملية ــ لم يكـــن القصد من وجودهـــا ان تكبت وتكبل بالقيود على الدوام . ينبغي لنـــا أن نكـــون قادريـــن على ان نستدعيهـــا لكـــي نعتمـــد عليهـــا متى شئنـــا ذلك . اذن ، فلماذا لا نستطيـــع ذلك ؟ لاننـــا نفشل في تطويـــر القدرة على التركيز ووضع العقل فـــي حالة سكون شامل ــ الامر الذي سيؤدي الى استعادة تلك الملكات .

ولكن ربما كان اكثر ما يبرز من نقاط اثارة للاهتمـــام فـــي تقريـــر لـــويس

سينجر عن « استقصاءاته » في عالم التجارب الروحانية : هي الطريقة التي تؤدي بها هذه التجارب الى نتائج محددة يقينية ، رغم انه ظل على اتجاهه النقدي وتصلبه العقلي . ففي اول جلسة يحضرها لتحضير الارواح اقنع نفسه بأن « النتائج » تحققت من خلال رغبة كل واحد من الحاضرين في ان ينخدع .

اعلنت واحدة من الجالسات انها استطاعت ان ترى بعض الاضواء . وقد اعلنت انا موافقتي لانني كنت اكثر ادبا من ان اعترض . وقالت اخرى انها تستطيع ان تشعر بلفحة هواء . ومرة اخرى ابديت موافقتي التي اشتركت فيها مع الجميع . ثم لم يحدث شيء لبرهة تالية . واخيرا شعرت بان دوري قد جاء لكي اقول شيئا ،فاعلنت ان النور يزداد توهجا . وقوبلت هذه الملاحظة بالموافقة الاجماعية . ومن المؤكد انني غاليت في القول حينما ابديت ملاحظة قلت فيها ان اضواء جميلة تتراقص من حولي . ثم قلت انني اشعر بلفخة هواء . وهكذا قال كل الحاضرين .وحدث فيما بعد ان سبحت الطبلة كالمعجزة في الهواء ، في الهواء الرقيق الشفاف ،ثم سمع صوت تعرفت عليه شقيقتي بانه صوت شقيقتها تتحدث . وكان الجميع واثقين من انه ليس صوت الوسيط ـ فيما عداي أنا. بالنسبة لي لم يكن ثمة ادنى شك في انه صوت الوسيط ، بل ان الصوت لم يكن متنكرا ولا مقلدا بمهارة . وكان كل ما كسبته من جلسات تحضير الارواح هذه هو اكتشاف مقدار ما يصبح الناس قابلين للخضوع للايحاء في ظل الظروف، ومقدار ما يصبحون سذجا يسهل خداعهم . ولكنني اكتشفت ايضا مقدار اجهاد (الاجهاد الممتع) الذي يمكن ان يولده التركيز على حالة السلبية الكاملة .

اقتطفت هذه الفقرة لكي اظهر ان سينجر كان ـ وما يزال ـ غير مهيأ لان يكون بحكم مزاجه « مؤمنا حقيقيا » . فحينما استطاعت وسيطة ما في النهاية ان تقدم نتائج اقنعته بالفعل ، فانها كانت تؤفق وتأفك ، بل انه لم يتردد في ان يعزو اقتناعه الى التواصل عن بعد أو التليباثي :

« لم يكن احد من الحاضرين قد زار حجرتي ، او بالنسبة لذلك الموضوع ، لم يكن فيهم من يعرف اين كنت اسكن . ومع هذا فقد وصفت المراة الوسيط حجرتي بالتفصيل ، ثم شرعت في نصحي . قالت انني اعتدت ان اكتب وانا في الفراش ، وان يدي تقف بين النور وبين الورقة فتلقى ظلا يسبب الاجهاد لعيني . وقالت انني في خطر من ان انزلق فاسقط وانا اهبط الدرج بسبب حالة خفي المنزلي البائسة . اما بالنسبة للمنزل نفسه ، فقد كانت المراة قادرة على ان تخبرني بعدد الدرجات المؤدية الى الباب الامامي ، وان المنزل كان المنزل قبل الاخير عند نهاية الشارع . وقالت ان منزلا في مقابل منزلي تقريبا كان قد اعيدت زخرفته منذ مدة وجيزة . وباستثناء هذه الملاحظة الاخيرة ، فانني لم اكن

اعرف ان كانت ملاحظاتها الاخرى عن المنزل صائبة ام مخطئة . كنت اسكن في شارع دانفرس ، بحي تشيلسيا ، وهو شارع يعبر ميدان بولتون . وكانت المنازل كالشرفات دون انقطاع فيما بينها . وحينما عدت الى البيت وجدت ان المرأة كانت على صواب في كل ما قالته .. كانت النتائج التي استخلصتها من جلسة تحضير الارواح هذه الى شقين :(١) ان الاشياء التي كنت انوي ان اعالجها ، مثل وضع النور حينما اكتب وانا في الفراش وحالة خفي المنزلي ، قد نقلت نفسها الى الوسيط دون صعوبة ، مثلما هي الحالة مع العلامات التي اسجلها في ذهني دون وعي لكي احدد مكان المنزل واتعرف عليه .(٢) لم يكن من الممكن الاجابة على اي سؤال برز من التأمل الذهني او من المعلومات المدروسة . وهكذا فانه لم يكن في وسع الوسيط ان تجيبني على سؤال عما اذا كان يسوع المسيح ينتمي الى الاسباط .. »

لقد اكتشف انه كان يستطيع ان يؤثر على جلسة تحضير الارواح ، ليس فقط عن طريق الايحاء اللفظي وانما عن طريق التواصل الروحي عن بعد . لقد اوحت اليه سلة دائرية لنقل الكلاب بشكل زورق صغير مصنوع من الجلد :

« ... ان لي ، بالاشتراك مع معظم الشعراء ، ذكرى مرئية نبصرها ، ليست حقيقية فقط وانما هي ايضا خيالية .. انني اتخيل انني ابصر زورقا صغيرا من تلك الزوارق التي تشد على هيكلها صفائح الجلد . كانت المقاعد قد رتبت في شكل الدائرة المعتادة ، وبالمصادفة وضع احد المقاعد بحيث كان داخلا اكثر من اللازم في قلب الدائرة . وامرتنا المرأة الوسيط بأن نتركه في حاله . فان احد الارواح قد يرغب في الانضمام الى الدائرة . وترك المقعد على حاله ، ومن المؤكد بما فيه الكفاية ان روحا غير مرئية لنا قد شغلته . وقالت المرأة الوسيط ، انها كانت روح بحار غريق .

بعد ذلك حاولت في اكثر من مناسبة ان اقول مقدما هوية الروح التي سوف تأتي ، مستخدما طريقة العرض البصري المرئي .. ونجحت في ذلك الى حد كبير .

وكان عند هذه النقطة ان بدأت في اللهو بفكرة العقل الجمعي . ولنأخذ مثال الزورق المشدود من الجلد ومن يفترض انه البحار الغريق . فلنفترض انني — دون ان اتحدث — نقلت فكرة القارب ، قارب غير محدد مطلقا ، الى الجالسين في الدائرة . كانت المرأة الوسيط والجالسون الاخرون في الدائرة يتلقون هذه الفكرة ويتمسكون بها ، طالما انها مستمدة من تجاربي الخاصة ، متبلورة في شكل البحار الغريق » .

*

انه يحكي حوادث اخرى ذات طبيعة مشابهة ، وهو من حين الى حين يحاول عامدا ان « يوجهها وجهة معينة » حتى يكتشف الى اي حد يمكن « ابتلاعها » وقبولها . اما الاستنتاج الذي توصل اليه فهو : « ان الروحانيين هم الى اكبر حد ، اكثر من قابلتهم في حياتي سذاجة وسرعة تصديق . انهم يصدقون ما يصل الى كل ما يتعلق بما يدعى الظواهر غير الطبيعية . وبالمقارنة مع سذاجتهم واسراعهم الى التصديق ، فان الايمان الذي حرك الجبال يبدو شبيها بالشك وعدم الايمان » . ورغم هذا ، فقد وضع بعض الملاحظات عن التأثيرات النفسية المحددة التي لا يمكن تفسيرها الا من خلال التواصل الروحي عن بعد . يقول: « ان احد الاهداف هو منح الوسيط شيئا من القوة . . فاذا حدث هذا في اثناء « الصلاة » ، فان جماعة المصلين يطلب منها ان تصدر : الذبذبات الصحيحة ... اما في جلسات تحضير الارواح فان هذا التأثير يتحقق عن طريق السماح للعقل «بان يوجه الوسيط » او بالاحرى بان يدعمه ويسنده . وهذا شيء يصعب وصفه . فالمرء يشعر بأنه شيء يصدر عنه بصورة تلقائية . وقد قمت انا بتطوير هذا الاسلوب الى حد معين ، فاكتشفت انني لم يكن بوسعي فقط ان استخدمه للايحاء بحالة النعاس للوسيط وانما ايضا لانهاء هذه الحالة » .

وقد اشترك لويس سينجر فيما بعد في « حلقة تطوير » حيث كان الفرض بالنسبة للاعضاء ، كل على حدة، هو تنمية قدراتهم كوسطاء . ولكن سينجر لم ينجح . فهو يقول : « لقد اغمضت عيني ، وافرغت عقلي من كل شيء ، بل ان راسي هدم فيه النعاس في بعض المرات . اما السبات الحقيقي ، فلم يأت ابدا ! » وعلى الرغم من هذا ، فان الوسيط اخبره بانه قد توصل الى الحصول على مرشدين من الارواح ، وكان احدها روحا هندوكية . وحدث ذات مرة ، حينما كان منفردا بصديقه من اعضاء الحلقة ، انه قرر ان يحاول الغرق في النعاس : « قلت لها : هل تسمحين بأن تراقبيني ، وسوف اطلب من الروح الهندوكي ان يأتي . اومأت براسها موافقة ، فاغمضت عيني وغرقت في حالة اشبه بحالة النعاس . وفجأة شعرت بامعائي تغوص حتى بدا لي انها اطبقت على جلدي . وبعد لحظة قصيرة فتحت عيني لكي اجد مود وهي تحدق بعينيها بعيدا عني نحو الجانب الاخر من الحجرة . شعرت بالضيق وقلت لها: ماذا تفعلين ؟ الم توافقي على مراقبتي ؟ اجابتني بقولها : كنت اراقبك بالفعل . ولكنك خرجت من جسدك وكنت تجلس هناك على ذلك المقعد البعيد » .

وقد استطاع فيما بعد ان يطور قدرات متواضعة على قياس الذكاء وقدرات العقل Psychometry واقصد بها القدرة على التقاط « الذبذبات » من الاشياء التي تسلم اليه . يقول : « وجدت ايضا انه كان بوسعي ان ارى «المرشدين»

او الشخصيات الثانية ، الخفية للناس ، وان ارى صورا رمزية للاحداث المقبلة في المستقبل القريب لا البعيد . ولست املك اقل فكرة عن كيفية حصولي على هذه القدرة . لم أكن مدركاً لاي تغير طرأ على عقلي ولا على شخصيتي . الفارق الوحيد بين ما أنا عليه الآن وما كنت عليه من قبل هو انني استطيع الان ان امد يدي (مجازا وليس حرفيا) فاقبض على ما كان يفر مني من قبل ».

اما الحادثة الوحيدة التي لم يكن بوسعه ان يفسرها عن طريق فكرة التليباثي او التواصل الروحي عن بعد ، فكانت محاولة لتكرار وتقليد تجربة وصفها « ج . و . ديون » في كتابه « تجربة مع الزمن » حيث استطاع ديون ان يستحضر صورةمرئية لساعته بينما كان راقدافي الفراش ، فاصبح قادرا على ان يتنبأ بالوقت على وجه الدقة (*) ويمضي سينجر قائلا :

« على رف صغير في حجرة نومي كانت هناك ساعة تنبيه ذات محيط معدني ابيض . وكان لدي موعد ذات صباح ، فاستيقظت. كانت الظلمة المطبقة تسود الحجرة . . حاولت ان اكرر تجربة ديون. رايت ساعة التنبيه امام عيني ، فقررت بناء على ما رايته ان بوسعي ان استمر في النوم لمدة ساعة اخرى على الاقل ، فنمت الساعة بالفعل . وحينما استيقظت للمرة الثانية ، « نظرت الى »الساعة التي اراها ببصيرتي ، ثم نهضت ، فأزحت الستائر الثقيلة عن النافذة ، فتأكدت من دقة الرؤية التي ابصرتها . ولكن الامر الغريب هو ان محيط وجه الساعة في « الرؤية » كان ذهبي اللون . . ثم رحت احلل رؤياي مثلما يحلل المرء حلما من الاحلام . انالطيوروالحيوانات نظاما آليا داخليا تعرف به الوقت. انها تتحرك في نفس الدقيقة التي يكون طعامها بانتظارها . . من المؤكد انني نفسي استطيع ان اذهب سعيدا الى النوم ، بعد ان اسر لنفسي رغبتي في ان استيقظ في ساعة معينة بالتحديد ، فاستيقظ في تلك الساعة على وجه الدقة . وعلى ذلك فلم يدهشني انني رأيتالوجه الصحيح عن طريق البصيرة . كان كل ما حدث هو انمعرفتي اللاواعية بالوقت قد كشفت عن نفسها عن طريق صورة الساعة التي استعرضتها لنفسي . اما بالنسبة للون الذهبي الذي بدا عليه محيط وجه الساعة ، فانه من الممكن ان يكون رمزا متفائلا لنتيجة التجربة . ولكن لا بد لي من الاعتراف بانني رأيت هذا التفسير بعيدا عن الدقة حينما اكتشفت ان الساعة كانت متقدمة عن الوقت الصحيح لمدة عشر دقائق .»

كان قد راى الوقت بالفعل « مثلما حددته الساعة » ، ولم يكن هو التحديد الصحيح . والتفسير بالتاكيد هو انه ايا كانت « القدرات » التياستطاع

(*) انظر القسم الثالث ، الفصل الثالث .

ان يطورها ، فانهـا لـم تكـن معتمدة بشكل كلي على التواصل التليباثي معالعقول الاخرى ، ولكـن يمكـن القول بأنهـا كانت قادرة على ان تتعامل مباشرةمع المادة.

لقد اقتبست فقرات من هذه الوثيقـة بمثل هذا الطول لانهـا تبـدو لـي تلخيصـا كامل التوان لكل ما يعتبر « مع » او « ضد » كل التجارب المماثلة فـي علوم الغيب . لقد كـان سينجر شاعرا ، رغم ان موقفه كان يميل نحو الشك ،وان محاولاته لتطويـر قدراته كانت في مجموعها ناجحة . ان مـا يمكـن ملاحظته هنا على الفور ، هـو ان الانغماس الوثيق فـي محاولة « معرفة الغيب » يبدو كما لو كـان يؤدي الى « جعل » الاشياء تحدث ، مغيرة بذلك من مجموع اطار حياة القائم بالتجربة الذي قد يكـونحتى ذلك الوقت غير روحاني بصورة كاملة . ويسجـل سينجر ملاحظـة تقول : « ان المرء حالما ينغمس في الامور الروحانية ، فانهسيجد نقصا معينا فـي التواصل مع اولئك الذيـن لـم تكـن لهم تجربة مشابهة » .

ثم يستمر بعد هـذا لكي يضع الملاحظـة الهامة التي تقول : « لا يصلالانسان الى الصوفيـة والروحانيـة عن طريق الرغبة الارادية ، وانمـا عن طريق عـدم الرغبة الارادية في هذه او تلك . لا بد من التخلي عن الارادة قبل ان يصبحالوصول ممكنا . ان الوصول ـ بكلمـات اخرى ـ تلقائي غير ارادي . والافعال التيتسبق الوصول افعال مؤثرة في عمليـة الغاء او افناء الارادة بشكل كامل » . ومع ذلـك فلا ينبغي ان نفهم هذا فهما حرفيا ، لانه من الواضح ان من « الممكـن » لامكانيات المرء ان تتطور ،ممـا يوحي بأن الجهـد يسدي خدمة معينة وينفع الى حد ما . ومن ناحية اخرى، فان موقفا سلبيا ، وسالبا ، يتخـذه المرء مـن حياتـه يبـدو مؤديـا على الدوام الى غرس ميل للتسليم بسيطرة الحدوث العارض ونزوع الى المصادفات المزعجة . ويتضح هذا وضوحا شديدا بقراءة كتـابات ستريندبـرج المتاخرة عن سيرته الذاتية ، وعلى سبيل المثال : « جهـنم » ، « اساطـير » ، « يوميـات الباحث عن الغيب » ، فالقاريء العقلاني العادي قد يـروق لـه ان يصدق انه من الممكـن ان تكون لكل الحوادث الغريبة والمصادفات الطارئة تفسيرات طبيعية ، وان اللوم يجب ان يقع على الاختلال العقلي والذهان الذي اصيب بـه ستريندبرج .

انـه يكتب قائلا على سبيـل المثـال :

« منذ بضعة ايام ، وبينما كنت اسير على الطـوار ، رأيت صاحب فندق صغير وهو يسيء معاملـة شحاذ السكاكين الذي كـان يقف في الشارع . لم اشأ ان اسيـر بيـن الرجليـن فأقطع التواصل بينهمـا ، ولكـن لم يكـن بوسعي ان اتجنب ذلك ، فشعرت باحساس حاد من عدم الارتياح وانا امر بين الرجليـن

المتشاجرين . كنت كمن قطع حبلا ممتدا بين الاثنين ، او كما لو كنت قد عبرت شارعا اغرقه الماء . (اساطير . ص ٩٤) .

سيكون اول رد فعل للقاريء هو ان يصرف نظره عن هذا الكلام باعتباره تخيلا لا اساس له ، وشيئا ذاتيا بشكل مطلق . ولكن جورديف ، وهو مصدر اكثر توازنا واتزانا واكثر جدارة بالتصديق ، قال لاوزبنسكي : « الم تلاحظ كيف تصبح شديد التوتر اذا ما عبر بك رجل عن قرب شديد وانت تسير على طوار ضيق ؟ ان التوتر نفسه يحدث بين الكواكب .. » (*)

لقد اعتقد ستريندبرج ان عذاباته وانواع سوء الحظ التي تعرض لها كانت راجعة لمحاولة قام بها لممارسة السحر الاسود . وهو يزعم انه قد لاحظ قدرته على ممارسة نوع من التأثير انتليباثي على الغائبين من الاصدقاء . كان منفصلا عن زوجته ، فأراد ان يبتكر طريقة لتحقيق نوع من المصالحة . واوحت اليه قوة ما اشبه « بالفريزة الكاملة » بفكرة استخدام قدراته التليباثية لكي يجعل ابنته تمرض ـ ولكن دون ان يكون مرضها خطيرا ـ وانما بما يكفي لاتخاذ هذا المرض عذرا وذريعة للقيام بزيارتها . وشرع في العمل مستخدما صورة لها . وبدأ يجتاحه احساس بقرب وقوع شر وبيل ، وحينما كان يفحص بذرة بندقة تحت مجهر بعد بضعة ايام ، رأى ان لها شكل يدي طفل ممدودتين في توسل ، واكد له احد الاصدقاء هذا التشابه الملحوظ . لقد اخطأت محاولته المرمى . لقد سقط طفلا زواجه الاول مريضين ـ وهناك خطاب منه يصف مرضهما ويحمل نفس تاريخ محاولاته لممارسة تأثير « العين الشريرة » . ومنذ ذلك التاريخ طارده سوء الحظ ، واقتنع هو بانه قد جلبه على نفسه . ان القائمة التي تضم تجاربه في « البحث عن الغيب » غريبة الى الحد الذي تغري عنده بصرف النظر عن الامر كله بالنسبة له باعتباره نوعا من مخادعة الذات او الايهام الذاتي . فالمصادفات المعارضة التي لا يمكن تصديقها تصبح عادية معتادة ، وقد اقتنع هو بانها جميعا أحداث متعمدة باعتبارها علامات ونذرا . فممطفه عندما يوضع على كتفي صديق ، يجعل هذا الصديق يتقلص ويتلوى ، ويعتقد ستريندبرج ان هذا راجع الى « سياله الكهربائي » . وهو يحلم بساعة دقاقة ذات مظهر غيرعادي ، فيراها في اليوم التالي في نافذة العرض لاحد الدكاكين . وهو يرى منظرا خلاويا جبليا وسط الاشكال التي صنعها الطلاء والصدأ على صفحة حوض الاستحمام مصنوع من الزنك ، ثم يتعرف على المنظر بعينه حينما يزور موطن زوجته في النمسا . وهو يشك في امتلاكه القوة التلقائية التي تجعله قادرا على تحليل المادة ، او ان يصبح غير مرئي ، ولكن الاصدقاء الذين ينظرون اليه

(*) « البحث عن المعجز » ص ٢٤ .

يفشلون في رؤيته حتى يلمسهم ويتحدث اليهم . وبعد انفصاله عن زوجته الثالثة، هاريت بوس ، يقتنع بأن « جسدها الاثيري » يزوره في الليل ويمارس له العادة السرية . وهو ايضا يملك القدرة التلقائية على ان يترك جسده او على « الانتقال ببصيرته » (مثلما اصبحت هذه القدرة تدعى فيما بعد) . وقد اشرت من قبل بالفعل الى مثلين من امثلة اعمال هذه القدرة . وفي مناسبة اخرى ، ينقل نفسه في خياله الى مشهد من مشاهد ماضيه بحيوية تصل الى ان يجد نفسه بالفعل واقفا في الحديقة التي كان يلعب فيها في طفولته ، يتشمم الزهور المختلفة قادرا على ان يلمس الاشياء . وحينما توقظه زوجته من هذه «الغفوة» مثل تلك الامور ، تمتزج الحقيقة بالوهم امتزاجا كاملا حتى يستحيل ان نرسم خطا فاصلا بينهما . ان استعداد المرء لتوقع الاحداث الغريبة يبدو انه « يجعلها » تحدث ، ولا يستطيع المرء ان يقبل الا انها ـ في عدد كبير من الحالات، تحدث بالفعل .

والحقيقة هي اننا بحاجة الى مراجعة المعالجة العقلانية البسيطة لمثل تلك المشاكل . لقد التقى كل منا بأناس تقع لهم على الدوام انواع خاصة من الحوادث او اشكال سوء الحظ . ويكاد الامر يبدو في صورة انهم يجتذبون لانفسهم نوعا معينا من المواقف او الاحداث . وفي حالات عديدة ، يستطيع المرء ان يرى انهم لا يفعلون شيئا ـ بشكل واع ـ لجلب هذه المواقف او الاحداث لانفسهم . ولا بد للمرء ان يقبل ببساطة ان هناك انماطا معينة من الناس يبدو ان انواعا معينة من الاحداث تقع لهم بشكل خاص . وليس هناك تفسير عقلاني يستطيع ان «يغطي» هذه الظاهرة بشكل كامل .

هناك نقطة هامة تبرز فيما يتعلق بستريندبرج . لقد كان شخصا « متوحدا » ، محبا للوحدة . انه يقول في الجملة الاولى من كتابه « جهنم » : « باحساس من الفرح الوحشي عدت من محطة سكة حديد الشمال حيث ودعت زوجي » . اعطتني حريتي التي اكتسبتها حديثا احساسا بالاتساع والتسامي على اهتمامات الحياة الضئيلة » . ان الحياة والسكن على انفراد ، في حجرة واحدة ، في مدينة غريبة ، يولد احساسا غريبا يكاد يكون احساسا بنوع مهلك قاتل من الكثافة ، كأنما المرء يعيش في فقاعة من الزجاج ـ مثلما سيشعر كل من مارس هذه التجربة . وتتمتع كل الاعمال الكلاسيكية العظيمة التي دارت حول موضوع « الوحدة » بهذه الميزة المسيطرة ، ميزة الكثافة الغليظة القوام ، مثل : « مذكرات مالت لوريدز بريج » لريلكه ، « جوع » لنوت هامسون ، « الغثيان » لسارتر ، « دكتور جلاس » لزودربرج و « مذكرات » لاميل ، « مذكرات رجل مخفق » لباربيون . ان الرجل الاجتماعي مشتت منقسم الذات . اما الانسان

الذي يعيش لحسابه الخاص وفي وحدة معتزلة فتتولد فيه عقلية متوحدة مفردة التركيب والاتجاه ، سواء راق له هذا الوضع او نفر منه . والتوحد العقلي المفرد التركيب والاتجاه هو المطلب الاول الذي تحتاج اليه تجربة البحث عن الغيب ، حينما تشرع قوى اللاوعي في فرض الاحساس بها على الوعي .

ولكننا اذ نقيم تجارب ستريندبرج الغريبة تلك ، فاننا لا يجب ان نرسم الخط الفاصل بين الاشياء التي « وقعت حقا » ، وبين اوهام الخيال ، وانما يجب ان نرسمه بين الاحداث التي « ارادها هو بصورة تلقائية » بشكل ما ، وبين الاحداث التي لم يلعب فيها عقله اللاواعي دورا نشيطا من اي نوع . انه — على سبيل المثال — يصر على ان المنظر الجبلي الذي رآه مرسوما في صدأ حوض الاستحمام المصنوع من الزنك قد تماثل بشكل دقيق مع الجبال القريبة من موطن زوجته في دورناخ، وهي الجبال التي لم يكن قد رآها من قبل ابدا . ولا بد ان يقول التفسير العقلاني انه تعرف على المنظر القريب من دورناخ باعتباره مشابها بشكل غامض للاشكال التي صنعها الصدأ في الحوض المصنوع من الزنك . اما تفسير ستريندبرج الخاص فلا بد انه يقول ان « قوى غير منظورة » قد تعمدت ان تقود مصيره ، ورتبت الامر كله لكي تجعله واعيا بوجودها . ومن الممكن ان تكمن الحقيقة بين التفسيرين : ان التواصل التليباثي مع زوجته — التي كانت في دورناخ اذ كان هو يستحم في ذلك الحوض — هو الذي غرس المنظر الجبلي في عقله ، فرآه هو في خطوط صدأ الزنك المتعرجة ؛ مثلما يرى المرء وجوها تتبدى له وسط لهب نار مشتعلة .

*

يبدو الشعراء قادرين على تقديم ميدان خصب بصورة خاصة للبحث في موضوع « البحث عن الغيب » ، وقد حاولت انا ان اقيم الحجة للتدليل على ذلك بالقول بأن السبب في هذا يرجع الى ان « الملكة س » هي ملكة الخلق والابداع وهي ملكة البحث عن الغيب في وقت واحد . بل ان روبرت جريفز يمضي الى ابعد من هذا حينما يومىء الى ان كل القصائد الحقيقية انما كتبت في « البعد الخامس » (١) . ولكن المرء لا يحتاج الى الغلو في القول الى هذا الحد ، لكي يصبح قادرا على رؤية ان الشعر انما ينبع من قلب نوع خاص من الوحدة والسكون الداخليين . لقد زودني المؤرخ والشاعر « م.ل . راوز » وهو كلتي

(١) البعد الخامس — بما يعني انه كتبها خارج اطار الابعاد الثلاثة للمكان والبعد الرابع (الزمن)، اي انه كتبها في بعد ذاتي كامل ، قد يكون الحلم ، او الخيال .

ايضا مثل جريفز ، زودني هو الاخر ببعض المذكرات الخاصة التي كتبهـا حـول تجاربه في ميدان ما فوق الطبيعة ، حيث يتبدى ذلك الارتباط في وضوح كامل . لقد كـان راوز ، مثل ستريندبرج ، على الدوام معتزلا محبا للوحدة ، مثلمـا يبدو واضحـا من كتابه عن سيرته الذاتية : « طفولة على الرصيف » . ان شعره مفعـم بخاصية الوحدة والسكـون :

الخليج كله طافح بالبحر الصامت ،
بصيحة كروان ، او صرير محراث ...

او :

امسية ، وصمت ، وتساؤل طيور .
بوق ينفخ نغمته المثيرة فوق المدينة ..

او :

القمر ، والصقيع ، وضوء اصائل ايام الشتاء
كما لو كان المرء يرى الحياة تعبر
من تحت البحر ..

انه يكتب ،في مذكرات بعنوان « تواصل روحي وما اليه » قائلا :

« تأتي تجربة غريبة لي تحت نفس العنوان ـ التشاؤم او توقع الشر وليس التليباثي او التواصل الروحـي .

كان لحجرة جلوسي ـ قبل تخرجي ـ في كنيسة المسيح نوافذ من الطراز الفيكتوري ذات مصاريع خشبيـة ثقيلـة يزن كل منهـا ما لا يقل عن ٢٥ او ٣٠ رطـلا . وفي مساء من امسيات الصيف ، كنت اطل من النافذة منحنيا براسـي خارجها ، وقد رفعت المصراع الخشبي الثقيل الذي كان مرتفعا فوق عنقـي الممدودة تمامـا ـ مثل المقصلة ـ حينمـا طرأت على راسي الفكرة : افرض ان هذا الشـيء سقط على عنقـي ؟

لم اكن في حالة طيبة ، وكنت واقعا تحت تأثير مزاج قاتم . قلـت :

« فليسقط هذا الشيء الملعـون ! »

وبعد ثانية واحدة نسيت الامر كله ، ثم تراجعت من وقفتي وسحبت راسي الى الداخل بشكل عرضي تماما . ومثل ومضة البرق في نفس اللحظـة ، سقط المصراع .

لم يكن ما اخافني كثيرا هو انه سقط ، وانما اخافني انني تحديته ان يسقط ، جربت العناية الالهية واختبرتها ..»

ثم يستمر قائلا :

« وفي نفس هذه الفترة تقريبا ، وكانت فترة مرضت فيها امعائي واشتد توتري ، في ختام اصيل احد الايام ، طرأ على راسي فجأة انني اذا هبطت من مسكني فذهبت الى المكتبة ، فلا بد انني سأرى شابين متعانقين . هبطت بالفعل، ونزلت طابقين من عدة درجات ،ودخلت المكتبة ـ فرأيتهما هناك كماتخيلتهما!

لم اعرف من كانا ، كما انني لم اتعرض لمثل هذا الموقف منذ ذلك الحين . وارجو ان اكون قد تصرفت مثلما يليق بالرجل المهذب فانسحبت بهدوء . ربما لم يكن من التهذيب الشديد انني رحلت ، ولكنني تصرفت تصرفا من وحي اللحظة ودون تدبر ، كما لوكنت اسير في نومي ـ وهكذا كان الموقف بحذافيره !

... انني لاجرؤ على القول بأن (مثل تلك التجارب) انما تعود الى ظروفنا الحيوانية الاولى ، حينما كان العنصر الحدسي فينا وفي تركيبنا اكثر قوةبكثير، وانه الآن قد تقلص وتضاءل الى حد كبير ، فاصبح اكثر ضعفا مع تطور انتصاب قامتنا ونمو القشرة الخارجية لادمغتنا ، بما يعني نمو ملكات التفكير عند الجنس البشري الذي لم يزل غير شديد الانسانية » .

ان الافتراض الذي قال به راوز ، من ان ملكات الحيوان لا تتضمن فقط حواس متطورة تطورا غير طبيعي ، وانما تتضمن ايضا نوعا من« البصيرة الثانية» او « الحاسة السادسة » هو من الافتراضات التي لقيت قبولا واسعا . وقد قال لي الشاعر الاسكتلندي هاف ماكديارميد ان زوجته كانت تعرف دائما موعد عودته من رحلاته الطويلة ـ وقد ابتعدت به احدى هذه الرحلات حتى وصل الى الصين ـ لان كلبه كان يذهب فيجلس عند طرف الشارع الضيق الذي يقع فيه منزله قبل حوالي ثمان واربعين ساعة من عودته في كل مرة الى البيت . ويبدو ان التواصل الروحي هو الفرضية الواضحة هنا . باستثناء ما حدث في مناسبة واحدة ، حينما ذهب الكلب فجلس عند طرف الشارع قبل ان يعرف انه كان يوشك ان يعود الى منزله .

وقد رأيت بنفسي كلب ايف فارسون ، زوجة الكاتب نيجلي فارسون ، وهو يزمجر عند ركن في حجرة نومها كانت توضع فيه ذات يوم السلة التي كان ينام فيها الكلب السابق الذي كان قد مات . واخبرتني ايف فارسون انها احتفظت في البداية بسلة البرت في ذلك الركن ، ولكن سلفه الميت قام بـ « طرده منها » اكثر من مرة حتى انها قررت ان تنقل السلة . ومرة اخرى يستطيع المرء ان

يفسر هذا بالاشارة الى شكل ما من اشكال « الحدس » الحيواني التليبائي ـ بل انه قد يصل الى درجة ان ايف فارسون نفسها ربما كانت قد نقلت دون وعي منها الى البرت المعرفة بوجود الكلب السابق . ولكن لا يهم عدد المرات التي يعتمد المرء فيها على فرضية التليبائي ، فبصرف النظر عن كثرة مثل هذا الاعتماد، تظل هناك الاحداث التي لا يمكن ان تتلاءم مع هذه الفرضية . ان راوز يكتب قائلا :

« في كتابي « طفولة على الرصيف » اروي قصة شقيق ابي الاصغر ، تشارلي ، الذي قتل في حادثة منجم في جنوب افريقيا . فقد كان الصبي قبل مغادرته المنزل ، يعبث على الدوام قليلا بالساعة الدقاقة في المطبخ ، محاولا ان يجعلها تدق ، وكانت قد توقفت عن الدق منذ زمن ، ولكنه لم يستطع ابدا ان يصلحها . وذات يوم، وفي موعد تناول الطعام ، دقت الساعة بصوت مرتفع ، الامر الذي ادهش ابي وامي وهما يجلسان امام المائدة ـ فقد كان هذا هو الوقت الذي قتل فيه تشارلي طبقا لما اكتشفا فيما بعد . وقد وصفا على الدوام هذه الحادثة وصفا غير دقيق (لانهما قليلا ما كانا يعرفان معاني الكلمات) بقولهما انها نوع من توقع المستقبل توقعا شعوريا ، او بكلمة اكثر دقة : « علامة » او « امارة » .

وهذا هو ما يؤكد ويبرز المشكلة التي يواجهها المرء كثيرا في الكتابة عن البحث عن الغيب ومعرفته . ان افتراض التليبائي والتواصل الروحي او « الملكة س » قد يفسر الكثير . يقول راوز : « لقد اكتشفت أن هذه الظواهر تحدث بكثرة اعظم في فترات المرض ـ ربما حينما تكون حساسية الانسان او قدرته على التلقي اكثر قوة ، وحينما تكون كوابحه العقلية في حالة هبوط » . ولكن التليبائي وحده لا يستطيع ان يفسر دق ساعة على الحائط .

ان الافتراض التالي في درجة صحته هو ان تلك الملكات الغريبة ، تستطيع في ظل ظروف معينة ان تؤثر بصورة مباشرة على المادة ، باستثناء اننا ما نزال نتعامل فقط مع البشر ـ او الحيوانات ومع قدراتهم غير الواعية . « ليس » مع اية « قوة غير مرئية » خارج الانسان . ويبدو ان « فرضية تأثير الحد الادنى » هذه قد ولدت من خلال قصة رواها آرثر جريمبل في كتابه « نماذج من الجزر » .

لقد آمن اهالي جزر جيلبرت بأنه حينما يموت شخص ما ، فان على روحه ان تمضي لكي تقف عند بقعة رملية عند الطرف الشمالي من جزيرة « ميكين مينج » ، وهي بقعة عرفت باسم « موقع الخوف » . وبعد زيارة هذا المنزل الواقع في منتصف الطريق الى الآخرة ، فان الشبح يستطيع بعد هذا ان ينطلق الى الفردوس ، هذا اذا استطاعت بعض الطقوس التي لا بد ان تقام على

جسده الميت ان تؤدي الى عكس تاثير نوايا « ناكعا » وهو الحارس القائم على البوابة ، الذي يحاول ان يخنق الروح في شبكته .

وقد استطاع جريمبل ان يقنع الحاكم المحلي بان يأخذه لرؤية « موقع الخوف » . ونستطيع ان نتنبأ بأن الرجل كان متوتر الاعصاب الى حد بعيد ، ولم تكن الزيارة رحلة ممتعة ابدا . وفي طريق العودة ، راى جريمبل رجلا يقترب منهما : « لقد رايته عند نقطة ما وهو يظهر عبر القوس الذي صنعه الشاطيء عند منحنى طويل . كان بوسعي ان اتابع كل خطوة من خطواته اثناء تقدمه واقترابه منا . لم تغفل عنه عيناي ، لانني كنت قد ركزت همي كله على ان يعطيني ذلك المشروب . كان يسير وهو يعرج بقوة . . كان رجلا لحيما قويا في الخمسين من عمره تقريبا، وقد بدت ملابسه وكأنها ملابس العيد وقد لف وسطه بحزام من الجلد . . . ولاحظت ان صدغه الايسر كان يحمل آثار ندبة لجرح طويل يمتد من عظمة الفك حتى قمة الراس ، كما لاحظت ان عرجه كان بسبب التواء قدمه وكاحله الايسر . ما زال بوسعي ان ارى الرجل في ذاكرتي . . لقد تجاهل التحية التي وجهتها اليه تماما . بل انه لم يلتفت الي براسه ولم يحول عينيه نحوي . لقد عبرني كما لو لم اكن موجودا » .

ونادى جريمبل الحاكم، الذي كان يسبقه بمسافة على الطريق ، فسأله عن الرجل . وكانت النتيجة ان اصيب الحاكم بالهستيريا ،وانطلق يجري الى بيته . وتبعه جريمبل الى القرية ، وذهب فاشتكى الى القاضي المحلي عن الاحداث الغريبة التي تجري من حوله . وكان بوسع الاهالي ان يتعرفوا على الرجل من عرجه . كان اسمه « نا بيريا » ، وكان قد مات في الوقت الذي رآه فيه جريمبل . وكان جسده مسجى في نفس ذلك الوقت داخل كوخ قريب . وكان رد الفعل الداخلي الاول لدى جريمبل هو الاصرار على رؤية الجسد ، لكي يتثبت من انه كان نفس الرجل يقينا . ولكنه اذ تذكر ان اي تطفل على الطقوس او قطع لمسارها قد يؤدي بالروح الى الوقوع في ايدي « حارس البوابة » الرهيب ، فانه قرر ان يتنازل عن رغبته .

اما الحاكم الذي كان قد مر بالرجل الاعرج ، فانه لم يكن قد راى احدا .

يشك جريمبل ــ وهو على حق في شكه تماما ــ في وجود حارس البوابة ــ او في اهمية « موقع الخوف » باعتباره محطة في منتصف الطريق الى الفردوس. ولكن الرجل الميت كان قد آمن بهما ، وهو الايمان الذي كان كافيا لاظهار خياله او شبحه الوهمي على طول الطريق المؤدي الى الشمال . وقد يبدو محتملا ان الرجل كان ما يزال حيا حينما رآه جريمبل يطلع عابرا به ، وان افكاره هي التي عرضت صورته . وكان كل اهالي الجزيرة يؤمنون بان على الارواح ان تدخل

الفردوس بعد مرورها ب « موقع الخوف » ، وكان هذا كافيا لانتاج الشبح او الخيال .

انه افتراض يغري بالاقتناع به ، طالما انه من الممكن ان يطبق على اكثر الظواهر الخارقة للطبيعة بدءا من الارواح الشريرة الصخابة حتى السحر الاسود : وهذه هي فكرة ان « السحر » شكل من اشكال التليباثي او التواصل الروحي الذي يمارسه « العقل الجمعي » بدلا من ان تقوم به العقول الفردية .

ولكن هل هو افتراض يؤدي حقا الى تبسيط اي شيء ؟ كيف يستطيع التليباثي الجمعي ان يفسر القدرات « التنبؤية » التي يتمتع بها كتاب « اي تشينج » ؟ او تنبؤ مارك بريدين ان سيارة الاجرة التي كان يستقلها ستصدمها سيارة اخرى ؟ او اي حالة من عشرات الحالات التي يحتويها كتاب « المستقبل قائم الآن » الذي الفه « و . أوزبورن » ، واليكم مثالا نموذجيا منها :

« هذا التقرير قدمته الآنسة دولاي من مسرح الكوميدي فرانسيز . وهو يتعلق بالنهاية المأساوية التي انتهت اليها الممثلة الشابة الآنسة ايرين موزا . كانت الانسة موزا في حالة تنويم مغناطيسي حينما سئلت ان كانت تستطيع ان ترى ما ينتظرها شخصيا في المستقبل . فكتبت ما يلي :

« ستكون حياتي العملية قصيرة: انني لا اجرؤ على قول ما ستكون عليه نهايتي . سوف تكون نهاية مرعبة » .

ومن الطبيعي ان القائمين بأمر التجربة ، الذين اثرت عليهم هذه النبوءة تأثيرا عظيما ، قد محوا كل اثر لما كتبته الانسة موزا قبل ان يوقظوها من نومها المغناطيسي . ولذلك فانها لم تكن تعرف معرفة واعية ما كانت قد تنبأت به لنفسها . ولكن حتى لو انها كانت قد عرفت ، لما تسبب ذلك في تحديد نوع الميتة التي لقيتها .

لقد تحققت نبوءة « ان حياتي العملية ستكون قصيرة » بعد بضعة اشهر . ومن المؤكد ان نهايتها كانت « مرعبة » . فقد انسكبت من ممشطة شعرها قطرات من محلول مطهر صنع من بعض المواد المعدنية فوق موقد مشتعل . وعلى الفور لفت النيران الآنسة موزا ، فقد امسكت النار بشعرها وملابسها فأصيبت بحروق قاسية حتى انها ماتت في المستشفى بعد بضع ساعات (*) .

(*) آرثر . د . أوزبورن . المستقبل قائم الآن . (مع مقدمة بقلم ايلين ج . جاريت رئيسة مؤسسة دراسات الباراسيكولوجي) نيويورك ، كتب الجامعة ، ١٩٦١ .

فاذا كان من الممكن ان تفسر مثل تلك الحالات عن طريق التليباثي والعقل الجمعي ، فعلى المرء ان يضمنها فكرة ان الماضي والمستقبل يقعان ايضا في متناول العقل الجمعي — وهذا هو افتراض يونج فيما يتعلق بكتاب « اي تشينج » .

ان الفكرة التي توحي بها حالة الآنسة موزا هي الفكرة التي لا بد قد طرات لعدد كبير جدا من الناس — ربما حينما يستيقظون في منتصف الليل : فكرة ان حياتنا نوع من الاسطوانة الموسيقية او الفيلم ، نهايتها او نهايته — الى حد ما — مقررة سلفا. وانا اقول « الى حد ما » لانيا نمتلك جميعا احساسا لا يمكن انكاره بحرية الارادة في لحظات الازمة او الاستثارة الشديدة . انها فكرة من الافكار التي طرات للعديد من الباحثين عن الغيب : ان الحياة اساسا لعبة من نوع ما ، شرطها المسبق هو ان على لاعبيها ان يعانوا من فقدان الذاكرة ، ثم يكون عليهم ان يتكيفوا بافضل صورة تمكنهم مع سلسلة الاختيارات التي تعرض لهم على مدى ثلاثة ارباع قرن . وفي هذه الحالة يمكن ان نعتبر المجرمين هم الخاسرين، فهم الذين اختاروا اسوا البدائل الممكنة ، اما الرابحون فلا بد ان يكونوا اولئك الذين اقتربوا من الانتصار على عادة « النسيان » التي نبدأ بها اللعبة . وفي رواية « الغريب الغامض » طرح مارك توين تأكيدا مقلقا يقول ان الله ارهقه ان يكون وحيدا في كون خال فخلق استعراض « خيال الظل » الذي ندعوه الحياة، حيث لا يوجد من هوحقيقي سواه هو ، اما الآخرون فكائنات آلية ، صنعتبحيث تبدو كالحية . ان مؤسس علم العلم scientology ل . رون هابارد ، يقول ان الناس آلهة اخترعوا العالم ليكون لعبة لهم ، « هبطوا » اليها ، ثم اصبحوا ضحايا فقدانهم ذاكرتهم ، وهكذا وقعوا في فخ لعبتهم . ولسنا هنا بحاجة الى الاشارة الى ان كل الاديان العظيمة تؤمن بالرأي القائل بان جوهر الانسان وجوهر الله واحد . ولقد صاح نيجنسكي (١) في لحظة جنونه « انا اله ، انا اله » .

وبمناسبة تلك اللمحات عن المستقبل ، من المهم ان نضع في اعتبارنا آراء

---

(١) نيجنسكي — فاسلاف (١٨٩٠ — ١٩٥٠) راقص باليه روسي بولندي المولد — كان الراقص الاول في فرقة الباليه الامبراطورية في بتروجراد (قبل الثورة) عام ١٩٠٧ ، وتالق في باريس ، في الرقصات التي صممها دياجيليف العظيم ، وفي باليهات اخرى كثيرة لكبار الموسيقيين الروس والفرنسيين . اصيب في نهاية حياته بالجنون ، ودخل مصحا عقليا حيث مات . يعتبر رمزا في علم النفس الحديث للنرجسية الجسدية ، وكتب عنه ويلسون دراسة جيدة في كتابه الاول « اللامنتمي » . (هـ . م .)

شاعر آخر ، وهو « و . ب. ييتس » (٢) الذي بدأ ايضا بقبول التليباثي باعتبارها « فرضية الحد الادنى لعمله » . لقد استثير اهتمام ييتس بالبحث عن الغيب على يدي « ماري باتل » خادمة خاله جورج بوليكسفين التي كانت تمتلك حاسة سادسة . كان باستطاعة بوليكسفين ان تقول لكم : « كم من المرات الكثيرة وصل الى البيت مصطحبا ضيفا على غير انتظار ، فوجد المائدة معدة لثلاثة اشخاص » .

« ذات صباح ، كانت على وشك ان تأتيه بقميص نظيف ، ولكنها توقفت ، قائلة ان هناك آثار دم على صدر القميص وانها يجب ان تأتيه بقميص اخر . وفي الطريق الى مكتبه سقط اذ كان يعبر فوق جدار واطيء ، وجرح نفسه فسال دمه حتى وصل الى قماش القميص في البقعة التي قالت انها رات فيها الدماء . وفي المساء قالت له ان القميص الذي ظنته ملوثا بالدم كان نظيفا تماما » . ـ (في كتاب ـ احلام يقظة ، الفصل السابع عشر) .

وفي لندن ، فيما بعد ، حضر ييتس جلسات تحضير الارواح ، والاحتفالات السحرية ، وانضم الى « جماعة الفجر الذهبي » التي كان يتزعمها شخص اسكتلندي غريب يدعى « ماكجريجور ماذرز » ، كان ييتس قد قابله في المتحف البريطاني . وقد قال ييتس ان ماذرز هذا كان هو : « الذي اقنعني بان الصور تتصاعد فتبرز امام عين العقل من مصدر اكثر عمقا من الذاكرة الواعية او غير الواعية » . وقد روت صديقة ييتس ، الممثلة فلورنس فار ، كيف خرجت لكي تتمشى مع ماذرز فلما وصل الى مرعى للاغنام قال : « انظري الى الاغنام . ها انا اتخيل نفسي كبشا » وكانت النتيجة غير العادية هي ان الاغنام راحت تجري خلفه . ويكتب ييتس قائلا :

« كان قد اعطاها قطعة من الورق المقوى رسم عليها رمز هندسي ملون فقال لها أن ترفعها امام جبهتها فوجدت نفسها تسير على حافة هضبة مرتفعة

---

(٢) ييتس ـ ويليام بطلر (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) الشاعر والكاتب الدرامي الايرلندي العظيم ، وقائد حركة البعث الايرلندي . تأثر بحركة « ما قبل رافائيل » الانجليزية في الثلث الاخير من القرن الماضي التي شملت فنون التصوير والشعر ، وكان من كبار شعرائها الاخوان روزيتي ويانمور وسوينبورن وفي فرنسا مالارميه ، وتأثر ايضا بويليام بليك وشيللي والرمزية الفرنسية وميترلينك ، وبالديانة والسحر الهندوسيين . تضمنت اعماله مادة اسطورية خصبة من الميثولوجيا الكلتية ، وتميز شعره بكثافة رمزية اصبحت بالغة الغموض في اواخر ايامه . حصل على جائزة نوبل للادب عام ١٩٢٥ ، رغم ما عرف عنه من شذوذ الاطوار وغياب الذهن ، وكانت تنتابه حالات غيبوبة عقلية منذ صباه الباكر . اصبح متحمسا للنزعة الروحية ، وكانت زوجته ، جورجي ليس ، تعقد جلسات يومية لتحضير الارواح . (هـ . م) .

تطل على البحر ، والنوارس وطيور الماء تتصايح فوق رأسها ..

وقد اعطاني رمزا مصنوعا من الورق المقوى وامرني بان اغمض عيني . وجاءت الرؤية ببطء ، لم تكن ثمة تلك المعجزة السريعة المفاجئة كما لو كانت ومضة سكين لامعة قد اخترقت حجاب الظلام ، ذلك ان مثل تلك المعجزة غالبا ما تكون امتيازا للمراة ، وانما راحت تبرز امامي صور عقلية لم يكن بوسعي ان اسيطر عليها : صحراء وعملاق هائل اسود يرتفع بجسده فينهض معتمدا على كلتا يديه من وسط كومة من الخرائب القديمة . وقد شرح لي ماذرز ما رايته فقال انني ابصرت واحدا من جماعة السمندل (✱) لانه كان قد اطلعني على رمز هذه الجماعة ،ولكن لم يكن من الضروري حتى ان اطلع على هذا الرمز ، فقد كان يكفيني تماما لو انه اكتفى بان خيله لي » .

كانت تلك الرموز التي خطها ماذرز على قطع من الورق المقوى مستمدة من « الكابالا » التي كان ماذرز نفسه قد ترجم منها عدة كتب (أو انه نشر لها اعدادا من عنده) تحت عنوان « كشف القناع عن الكابالا » . والكابالا (التي سيقال عنها ما هو اكثر من هذا فيما بعد) كمية ضخمة من التعاليم اليهودية الصوفية الغامضة القديمة بالاضافة الى عدد كبير من التعليقات على المخطوطات الموروثة ، وقد دونت لاول مرة في القرن الثالث عشر ، وهي تتساءل عن كيف امكن ان الله ، الذي يفترض انه كامل وابدي لا يتغير ، قد خلق العالم على هذه الصور المختلفة المتعددة الممتزجة ؟ وتجيب الكابالا بانه قد خلق في البداية عشر « فيوضات » او ينابيع ــ تدعى سفيروث وهذه الفيوضات هي التي قامت بالفعل بعملية الخلق . وكان من المحتم أن تتجسد الـ « سفيروث» ومخلوقاتها جميعا عن طريق الرموز ، وتلك « الرموز الكابالية » كما تدعى ، هي التي كان ماذرز يستخدمها .

ولم يكن ييتس مقتنعا اقتناعا كاملا بأي شكل بماذرز الذي كان شخصا ذا تكوين غريب شاذ الاطوار . وهو يقول انه حينما كان ماذرز يأتي بزعم مسرف في مبالغته ، فان أصدقاءه كانوا يتسامحون معه ويتظاهرون بتصديقه : « كما لو كان شخصا في مسرحية من تأليفنا » (✱) وهذه طريقة مهذبة للقول بانهم كانوا يتسامحون مع كل شيء من جانبه بالنظر اليه باعتباره « شخصية » ذات تكوين خاص ، ولكن ييتس وقع فريسة لخدعة تأثير الرموز على العقل . « لقد مضى

(✱) السمندل Salamandor نوع خرافي من السحالي ، جاء ذكره اول مرة عند بلليني في حديثه عن حياة برابرة شمال الدانوب ، وعنه نقل البيزنطيون الذين نقل عنهم العرب والفرس . قال بلليني انه نوع هائل الحجم من العظايا ، بارد كالثلج يصمد للنار . وقال انه قام بتجربة ،ولكن « المخلوق تحول في التو الى رماد » . (هـ . م .)

(✱) « الرجمة ذاتية » ، نيويورك ، ماكميلان ، ١٩٥٦ ، ص ١٨٧ .

وقت طويل قبل ان اعترف شخصيا بان للرموز قدرات موروثة ، ذلك انه بدا لي لوقت طويل ان بوسع المرء ان يستوعب كل شيء عن طريق القدرة على تركيب الخيال فوق الخيال ، او عن طريق التليباثي .. » (**)

لقد كان على استعداد تماما لان يقبل فكرة التليباثي ، بل وان يقتنع بقدرة المرء على ان يعرض صورة جسمه في مكان آخر . انه يحكي ما حدث حينما كان في باريس ، فخرج ذات صباح لكي يشتري الصحيفة ، وفي طريق خروجه مر بالخادمة التي كانت قد وصلت حديثا من الريف . كان يفكر - في لحظة مروره بها ، في انه لو ان كذا وكذا قد حدث ، لكان قد جرح ذراعه ، وفي ومضة بارقة راى نفسه وقد ضمد ذراعه ووضعها في « علاقة » تربطها الى عنقه . وفي عودته ، فوجيء بمضيفه ومضيفته يقولان له : « لماذا اذن قالت لنا الخادمة منذ قليل ان ذراعك موضوعة في علاقة الى عنقك ؟ »

وهو يكتب ايضا قائلا : « ذات اصيل ، في نفس الوقت تقريبا ، كنت افكر باهتمام شديد في احد الطلاب ، كنت لا اريد ان ابعث اليه برسالة ، ولكنني كنت مترددا بشأن كتابتها . وبعد يومين وصلني خطاب من مكان يبعد عني مئات الاميال حيث كان يعيش هذا الطالب . وقال في رسالته انه حدث في ذلك الاصيل (حينما كنت افكر فيه بهذا الاهتمام) ان ظهرت امامه فجاة وسط حشد من الناس في احد الفنادق ، وانني بدوت له صلبا متماسكا كما لو كنت قد ظهرت له بجسدي . ورآني الطالب زميلي ، ولكن لم يرني احد غيره ، فطلب مني ان آتي ثانية حينما يكون الآخرون قد انصرفوا . فاختفيت ، ولكنني عدت ثانية في منتصف الليل فأعطيته الرسالة . اما انا ، فلم اكن اعرف شيئا عن هذا الظهور مرتين » (1) .

وهذه قصة تشبه الحالات التي اشرنا اليها فيما سبق ، وهي تفسر الدهشة الواضحة التي اصابت بويز حينما اتصل به درايزر بالتليفون لكي ينبئه بانه (اي بويز) قد ظهر له . ويتماشى تفسير ييتس لمثل تلك الظاهرة مع ما قد قيل هنا بالفعل . انه يقول : « ان طاقات العقل الاكبر والاعظم نادرا ما تنطلق لتقوم بدورها الا حينما تتحرر الاعماق من قيودها » - وهذا يعني انه يرجعها الى « تحرير » من نوع غريب للاوعي . وهو يوافق على ان « رؤيا » فلورنس فار لحانة الهضبة المرتفعة يمكن بسهولة ان تكون نوعا من التليباثي ، ان لم تكن خيالا خالصا . ومع ذلك فانه يبدو هنا ان ثمة قدرا معقولا من الادلة التي تثبت ان

(**) مقالة عن السحر في كتاب « مقالات ومقامات » ، لندن ، ١٩٦١ ص ٤٨ . وقد نشرت لاول مرة في كتاب « افكار عن الشر والخير » .

(1) « مقالات ومقدمات » ص ٣٧ .

الرموز قد انتجت صورا عقلية محددة في استقلال كامل عن العقل نفسه . :« لقد كان الرمز نفسه هو الذي انتج ذلك التأثير ، او على الاقل لم يكن التأثير ناتجا عن نيتي الواعية ـ ذلك لانني لو اخطأت فامرت شخصا ما بأن يحدق في رمز مختلف عن الرمز المطلوب ـ وقد كانت الرموز مرسومة على بعض البطاقات ـ لكان الايحاء بالرؤيا قد تم عن طريق الرمز الذي اشرت اليه ، وليس عن طريق افكاري التي لم احسن الربط بينها وبين الرمز الصحيح . . »

هكذا بدت الرموز غالبا مستقلة بشكل غريب عن العقول التي تستخدمها : انه يتحدث عن امرأة ايرلندية شابة، « ظننت ان تفاحة حواء ، كانت من النوع الذي يمكن ان تشتريه من بائع الفاكهة ، ولكنها اغفت فنامت ، فرأت في نومها شجرة الحياة ، وارواحا تتنهد طول الوقت وهي تتحرك بين اغصانها بدلا من النسغ ، وتتقافز بين اغصانها كل انواع طيور الهواء ، وعلى اعلى اغصانها ، طائر ابيض يضع تاجا على رأسه » . وحينما عاد ييتس الى البيت ، فتح كتاب ماذرز « كشف القناع عن الكابالا » فقرأ : « الشجرة ، هي شجرة معرفة الخير والشر . . وفي اغصانها تستقر الطيور وتسكن فتبني اعشاشها ، وللارواح وللملائكة امكنتها » . وهو يقرر انه وصل الى تلك الفقرة حينما فتح الكتاب عفوا في اول لحظة ، ولذلك فانها لا يمكن ان تكون تدخلا تليباثيا من الصورة التي كانت في ذهنه هو . ومرة اخرى ، حدث ان كاتبا في احد مصارف غربي ايرلندا كان ييتس قد اوحى له بأن يغفو قليلا ، فرأى الشجرة في حديقة تحيطها الجدران فوق قمة جبل ، فرأى الارواح تتنهد عبر اغصانها ورأى للتفاح وجوها انسانية كانت تصدر عنها اصوات قتال . ان الصورة المأخوذة من كتاب « زوهار » وهو احد كتب الكابالا ، تستبدل هنا بصورة مأخوذة من جبل« المطهر» عند دانتي بفردوسه المسور عند قمته . اما اصوات المعركة (وقد سمعت فتاة اخرى صوت تصادم السيوف يصدر من قلب جذع الشجرة) فمن الواضح انه يمثل ما سوف يحدث اذا ما اكل التفاح . ويتصدى ييتس لتفسير كل ذلك بالحديث عن « روح العالم anima Mundi التي وصفها الفلاسفة الافلاطونيون.» كنوع من الذاكرة الجنسية : « مستقلة عن ذاكرة كل فرد متجسد على حدة ، رغم ان هؤلاء الافراد يثرونها ويخصبونها باستمرار بتصوراتهم وافكارهم » . اذ يكاد كل من شغل نفسه بمثل تلك الامور ان يكون قد وصل من خلال اغفاءة او حلم ، على رمز او حدث غريب وجديد ثم عاد فعثر عليه بعد ذلك في عمل من الاعمال لم يكن قد قرأه او سمع عنه من قبل . ولم يتم حتى الآن تصنيف او ترتيب الامثلة التي تنتمي الى هذا النوع ، ولم تحصل الا على القليل جدا من التحليل الذي يمكن ان يقنع شخصا لا علاقة له بالموضوع ، ولكن بعض هذه الامثلة تحمل ما يكفي من البرهان لاقناع اولئك الذين تصادف ان عبرت بهم امثال

تلك المواقف ،وهو برهان يثبت أن ثمة ذاكرة للطبيعة تكشف عن احداث ورموز القرون البعيدة . وقد تحدث الصوفيون من بلدان وازمنة متعددة كثيرة عن هذه الذاكرة .. » وهو يحدد الخطر الحقيقي الكامن في تلك « المعرفة القمرية »: « ربما يكون من الافضل انه لا يؤمن بها سوى عدد قليل ، لانـه اذا آمن بها الكثيرون ، لهجر كثيرون البرلمانات والجامعات والمكتبات وهرعوا الى البراري الموحشة لكي يهدروا الجسد بهذا الشكل،ويضيعوه سدى ، ولكي يسكتوا همسات وصرخات العقل القلق الذي اذا ما ظلوا يحملونه وهم احياء لعبروا الابواب التي يعبرها الموتى كل يوم ، لانه مَن مِن العقلاء يمكن ان يتحمل مشقة او يزعج نفسه بوضع القوانين او كتابة التاريخ او تحديد وزن الارض اذا ما بدت اشياء الابدية قريبة وفي متناول الايدي الى هذا الحد ؟ » ويبرز الدوس هكسلي نفس النقطة بالحديث عن تاثيرات مادة المسكالين في كتابه : « ابواب الادراك » : قائلا انه في عالم يتعاطى فيه الجميع الاهتمام بالامور الروحانية فلن تكون هناك حروب ، ولكنه سيكون عالما بلا حضارة ايضا .

يخطو ييتس ـ اذن ـ الخطوة المنطقية التالية في هذه المناقشة ـ وهي الخطوة التي اتخذها يونج نفسه بعد ذلك بعدة سنوات : القول بان هناك ذاكرة للجنس ، تعمل عن طريق الرموز . ان من الممكن الوصول الى ذاكرة الجنس هذه عن طريق « اسكات همسات العقل القلق وصرخاته » ، اي عن طريق الوصول الى عمق مغين للسكون الداخلي ، حيث تكون في متناول ذاكرة الفرد المحدودة .

بل ان ييتس يمضي الى ما هو ابعد من هذا فيقول ان « انواع العلاج السحري » التي تستخدمها الشعوب البدائية قد تنتج تأثيرها عن طريق الوصول بشكل ما الى تلك الاعماق البعيدة عن الوعي : « انني اظن ان ادوات او رموزا سحرية من مثل قشرة بذر الكتان ، او الماء المنبثق من شوكة منزوعة من شجرة دردار ، انما تقوم بعملها بأن توقظ في اعماق العقل حيث تتمتزج بالعقل الاعظم ، ثم تزداد ضخامة عن طريق الذاكرة العظمى ، نوعا من الطاقة الشافية او نوعا من القوة المغناطيسية الغلابة . وليست هذه هي ما ندعوها بانواع العلاج عن طريق الايمان ، ذلك انها قد استخدمت وبنجاح ، مثلما يؤكد تراث كل البلاد ، للتأثير على الاطفال وعلى الحيوانات ، وهي تبدو لي في صورة الدواء الوحيد الذي امكن ان تستخدمه ايدي القدماء بأمان كامل .. » ثم يختتم كلامه قائلا : « انني لا استطيع ان افكر الآن في رموز اقل مما ابدعته القوة التي هي اعظم من كل قوة اخرى، سواء استخدمها بوعي اساتذة السحر ، او استخدمها بطريقة نصف لا واعية عن طريق خلفائهم ، الشاعر والموسيقار والفنان » .

ها هي اذن نظرية عن السحر تستطيع ان تغطي (تستوعب) كل الظواهر

التي تم وصفها حتى الآن في هذا الكتاب ، من التواصل الروحي البسيط ، الى التعقيدات الغريبة لابجدية الشجرة الدوريدية واشكال تجسد الربة البيضاء التي وصفها جريفز .

ومن المهم ان ندرك ان قدرا هائلا من تجربتنا الانسانية انما هو في حقيقته استجابة لنوع ما من الرموز .. وهذا هو ما يتميز به الكائن الانساني : ان الرمز يستطيع ان يسيطر على الخيال وان يسبب استجابة اكثر قوة من الواقعة الحقيقية التي يمثلها . ان السيطرة على قوانا الاكثر عمقا انما تتحقق من خلال رموز اكثر مما تتحقق من خلال افعال الارادة المباشرة ... فالرموز تستطيع ان تستثير استجابة حتى حينما يتملكني الضجر او يستبد بي الاجهاد وحينما تكون حواسي قد فقدت اهتمامها بـ « الحقيقة » ، فاذا كان ذلك هو ما ظل يحدث طوال اكثر من مليونين من السنين من النشوء والتطور ، اليس من المقبول اذن ان نفترض ان رموزا معينة قد وجدت لنفسها مكانا دائما في اعماق النفس الانسانية ؟ فلماذا ينبغي ان يكون من العقيدة العلمية الثابتة ان نقبل التأثير « الغريزي » لرمز جنسي على الخيال الانساني ثم ننكر تأثير الرمز الديني الذي قد يكون نفوذه على الخيال الانساني بنفس القدر من العمق والتأصل ؟

ومن المهم ان نلاحظ انه حينما وصل ييتس الى مرحلة محاولة انتاج « نسقه الرمزي » الخاص فأن القمر هو الذي اصبح صورته المركزية . فبعد ستة عشر عاما من كتابته لمقاله عن السحر (وهو المقال المنشور في كتاب : افكار عن الخير والشر) تزوج ييتس من آنسة تدعى « هايدليز » ، وبعد زفافهما بأربعة ايام بدات العروس في انتاج كتابات اوتوماتيكية . وفي مقال منشور في كتابه « عبر الحب الى القمر الصامت » ، طرح ييتس سؤالا عما اذا لم يكن من الممكن ان نضع على التقويم علامة تحدد موعد ميلاد شخص من نوع نابوليون او المسيح . وقد حاول « المرسل » المجهول الذي استخدم يد زوجته ان يجيب على هذا السؤال عن طريق انتاج نسق من الرموز قائم على وجوه القمر الثمانية والعشرين وعلى نوعين من الناس : اولئك الذين يحصلون على السلطة من خلال كفاحهم ضد الظروف ، واولئك الذين يحصلون على القوة من خلال كفاحهم ضد انفسهم .

ويقترب هذا « النسق » في تعقيده من تعقيد ذلك النسق الذي اوضحه جريفز في كتاب « الربة البيضاء » ولكنه اكثر تحكمية الى حد كبير ، او انه يبدو بهذا الشكل على الاقل . فالناس الذين ينتمون الى كل وجه من وجوه القمر الثمانية والعشرين يتمتع كل منهم باربع مجموعات من الخصائص : (١) الارادة بما يعني توضيح اي نوع هم من الاشخاص اساسا : البطل ، ام الانسان الحسي ، ام الانسان الممسوس ، الخ (٢) القناع ــ اي الوجه الذي يبتدعه لكي يظهره للعالم (وهو الوجه الذي غالبا ما يكون عكس شخصيته الحقيقية) . (٣) العقل الخلاق ــ

وهذا يعني توضيح ميله الابداعي الطبيعي : الميل الذهني ، ام الميل العاطفي ، ام الميل الى التعقيد الذاتي أم البساطة .. الخ . (٤) ما يسميه ييتس : « جسم المصير » وهو الذي يعني ببساطة مصير الانسان وقدره ، او بما يعني ما يحدده قانون النجوم .

ان لكل من « القناع » والعقل الخلاق احتمالين ، فبوسع كل منهما ان يعبر عن نفسه بصدق او بطريقة زائفة ، ان ييتس ـ على سبيل المثال ـ يمنح اسم « المتقدم » أو « الرائد » لانسانه النموذجي الذي نعرفه في مرحلة نيتشه الثانية عشرة . والقناع الذي يخلقه يكون نوعا من « الافراط الذاتي » حينما يكون صادقا ، ونوعا من « التفريط الذاتي » حينمايكون زائفا ، ذلك انه يخلقه لكي يواجه به العالم . والتعبيرالحقيقي الصادق عن قدرته على الابداع والخلق هو الفلسفة الذاتية ، والتعبير الزائف هو الصراع بين شكلين من التعبير الذاتي . ويظل هذا التصور غامضا حتى يحاول المرء ان يستبدل جيمس جويس بنيتشه(١)، حينئذ تصبح رؤية المعنى في حيز الامكان : ان الرائد المتقدم الذي يكون قناعه هو الافراط الذاتي (ستيفن ديدالوس (*) ، « شيم » صاحب

---

(١) يقصد ويلسون بمقابلته بين جويس ونيتشة ، المقابلة بين ميزات جويس العقلية والادبية من دأب ومثابرة وصبر طويل وتخطيط هندسي صارم ومسبق يعتمد على الجهد الذهني التركيبي لا على الحدس ، من اجل تحقيق بناء فني سيمفوني يعتمد على الكشف عن داخل الذهن وتفاصيل الواقع والعلاقة بينهما بالاعتماد على الاسطورة والتحليل اللغوي والمونولوج الداخلي، وبين مميزات نيتشه العقلية والادبية ، مميزات الرؤية اللماحة الصاعقة الشاملة التي تخلق بناء كاملا في ومضة بارقة من ذهن محلق وجبار ، يرى فيه الاسطورة محورا لقدر هائل من المعاني ، او لكل المعاني . (هـ . م .)

(*) ستيفن ديدالوس ـ بطل رواية جيمس جويس الاولى « صورة الفنان في شبابه » ، ثم احدى الشخصيات الرئيسية في الرواية التالية « يوليسيز » . في « الصورة » عاش ستيفن مراحل الطفولة والصبا في المدرسة والمنزل ، ثم مراحل المراهقة والشباب الباكر ، وكان يعاني من الكبت الفكري والشعوري في مدرسة الجزويت (اليسوعيين)،ثم من تمزقه بسبب الخلاف بين والده وعمته حول قضايا ايرلندا السياسية ، ثم نشهد بداية اهتمام ستيفن بالفن والميتافيزيقا وعلم الجمال ، وقصص حبه الاولى ، وتمرده الاول ضد فقر اسرته وتعصبها ، وضد الكاثوليكية ، وضد ايرلندا نفسها . كان يشك في كل شيء ، لكنه يشتاق الى الايمان بكبرياء وحساسية فهجر وطنه الى القارة . وفي يوليسيز ، يكون قد عاد الى ايرلندا ، ياكله الاحساس بالاثم لانه رفض أن يصلي الى جوار والدته المحتضرة ، ويعود الى الكاثوليكية ، ولكن شعوره بالغربة ازاء والده الطبيعي ، يجعله اشبه بتليماكوس الاوديسة ،في بحثه عن « ابيه » .وفي ذروة الرواية، يعثر ستيفن على ابيه الروحي ، في شخص ليوبولدبلوم ، اليهودي ، المغترب الى الابد . (هـ . م .)

القلم (١) وهو الذي تعبر قدرته على الخلق والابداع عن نفسها بصورة مثالية باعتبارها نوعا كثيفا من الذاتية . وفي رواية «يقظة فينيجيان (٢) » تصبح هذه الذاتية غموضا متعمدا في التعبير : انه الغموض الناشيء من الصراع بين الرغبة في الوصول الى جمهور القراء وبين الرغبة في السرية والشذوذ الغريب .

---

(١) شيم ، حامل القلم : هو « جيري ايرويكر » ، من شخصيات رواية جويس الثالثة الكبيرة : « يقظة فينيجان » ، وهو احد التوامين ، ولدى شخصية الرواية الرئيسية ، الاب « همفري تشيمبدين ايرويكر » . وهو التوام الذي سيكون المشكلة الرئيسية للاسرة ، لانه ميال الى العزلة ، مولع بالقراءة ، لا يكف عن الكتابة ، الامر الذي سيجعله متهما بالانانية ، وبقلة الوطنية ، وهي نفس التهمة التي وجهت الى جويس ذاته طيلة حياته . ولذلك يعتقد النقاد انه صورة جويس لنفسه في الرواية ، مثلما كان سيفن ديدالوس في « الصورة » ثم في «يوليسيز» ومثل « ريتشارد » في مسرحيته الوحيدة « المنفيون » ــ ومن هنا ياتي مغزى ربط ويلسون بينهما ، وقد اطلق على « جيري » في الرواية لقب او اسم : « شيم حامل القلم » تحويرا من « جيمس الكاتب » احد قديسي ايرلندا الاوائل ، او من « شوماس » احد شهدائها القدماء ، ويعتقد النقاد ايضا انه ارتبط عند جويس بتصوره عن « سويفت » الكاتب الانجليزي المحافظ الكبير ، الذي استخدم جويس ملامح كثيرة من حياته في اعماله ، وخاصة في هذه الرواية . (هـ . م) .

(٢) يقظة فينيجيان : آخر روايات جيمس جويس واكثرها اهمية ، نشرت عام ١٩٣٩ ، بعد سبعة عشر عاما من العمل المتواصل ، وكانت اثناء كتابتها تعرف باسم « العمل الذي يتقدم » . من الناحية الحرفية ، يمكن اعتبارها تسجيلا لاحلام وكوابيس وهواجس وذكريات واحداث اليوم السابق مباشرة من حياة السيد « هـ . ش . ايرويكر » مدير احد الفنادق في دبلن ، هو واسرته اثناء نومهم : والاب نفسه يعتبر تجسيدا لمعنى الذكورة في الكون ، نراه باسماء مختلفة ، منها آدم ، ولوسيفر وبعض الاسماء الاخرى المستمدة من التاريخ القومي الايرلندي ، وبعضها يشير الى انه بروتستانتي من اصل اسكندنافي ــ اي انه « غريب » آخر في ايرلندا مثل بعض ابطال جويس ، ثم الأم ، ماجي ، تجسيد معنى الانوثة في الكون ، ولها اسم آخر يربطها بالنهر والبحر ، ثم التوامان جيري وكيفين ، والاخير يطلق عليه « شون الرسول » والذي سيكون رمزا لرجل العمل والفعل في الرواية ، مقابل اخيه الشاعر الحالم (حامل القلم ــ الهامش السابق) ، ثم الابنة ايزوبيل ، البطلة الثانية للرواية ، والجانب الثاني لعنصر الانوثة في الكون والتي ربط جويس بينها وبين ايزولدة (في اسطورة الفارس تريسترام) وهي موضوع الحلم العاطفي لابيها ، والتي تبدو مع امها صورتين من المراتين اللتين احبهما سويفت طوال حياته . ومن الناحية الفنية ، تكاد الرواية ان تكون تعبيرا فنيا عن تاريخ البشرية كله ، منظورا اليه من النواحي الفكرية والبنائية والاسلوبية ، على اساس فلسفات الغرب الكبرى في عصر جويس ، ومن بين من تجسدت افكارهم في خطة الرواية وبنائها : فرويد وفريزر وليفي بروهل ونيكو وبرونو ــ وكلها افكار تدور حول اللاوعي والحلم والدافع الجنسي ، والدين والاسطورة والفولكلور والادب الشعبي ، ودورية مراحل التاريخ الحضاري والنزعة الثنائية وصراع المتناقضات . (هـ . م) .

يبدو كل هذا اكثر تعقيدا مما هو في الحقيقة . ان الفكرة المحورية في الكتاب لبسيطة جدا : ان تلك المميزات او الخصائص الاربع (او « الملكات » كما يسميها ييتس) تمر عبر مراحل مختلفة من الاكتمال ، مثل اوجه ومراحل نمو القمر . وهكذا، فعلى سبيل المثال ، حينما يتحول المرء الى المرحلة العشرين، مرحلة الانسان المحدد ، فيكتشف شيكسبير وبلزاك ونابوليون ، كأمثلة لما ينبغي ان يكتشفه ، فان المراحل جميعا ، تشرع ـ ببطء ـ في اكتساب معنى محدد . ان الشكل الحقيقي « للقناع » هو النزعة القدرية ـ البالغة الوضوح تحت كل من الاقنعة الثلاثة ـ وشكلها الزائف هو الخرافة . وان الشكل الحقيقي لـ « العقل الخلاق » هو اعطاء القناع تركيبة درامية ـ ومرة اخرى اقول ان هذا امر يسهل ادراكه في مسرحيات شيكسبير وفي روايات بلزاك ـ اي اعطاء النزعة القدرية تركيبة درامية (واحيانا اعطاء الخرافة مثل هذه التركيبة) . اما الشكل الزائف للعقل الخلاق فهو تدنيس الذات وانتهاكها . ان مصير الرجل المحدد هو النجاح المفروض بالفعل ، واعني بهذا نوعا من النجاح يجر الرجل المحدد وراءه مثلما يسحل عبد وراء عربة حربية ، وقد يسيطر عليه ويبتلعه .

ان ابسط الطرق لادراك « رؤيا » وفهمها هو البدء بهذا الشكل ـ عن طريق دراسة تلك الرؤيا . انه لمن الاكثر سهولة بكثير ان تدرك مغزى « مرحلة » ما من خلال بارنل (١) او اوسكار وايلد او شيللي مما يمكنك ذلك عن طريق دراسة مكانها في الدائرة القمرية .

وترتبط هذه المراحل المختلفة ايضا بمراحل معينة من التاريخ ، « تبر ز » كل منها نموذجا معينا من الشخصيات المسيطرة : المسيح او نابوليون او باسكال او بايرون .

اما ان كان القارىء سيختار ان يقبل كل هذا حرفيا ، فانه امر يرجع الى المزاج الشخصي . وييتس نفسه ، ينهي المقدمة بان يشرح ، دون تركيز ولا اهتمام ، انه لا ينظر الى كل هذا كما ينظر الى الشيء الحقيقي الصادق ، وانما مثلما ينظر الى الترتيب « الاسلوبي » او النمطي للتجربة ، يمكن ان يقارن بالمكعبات في رسم من ابداع ويندهام لويس . ولكن الرسام « يفرض » رؤياه الوجدانية الخاصة على الحقيقة الواقعية ، ذلك لان « الحقيقة الواقعية » هي كل الاشياء بالنسبة لكل البشر ، وهو يشعر بدافع داخلي ملح ، يفرض عليه الرغبة

---

(١) بارنل ـ تشارلز ستيوارت (١٨٤٦ ـ ١٨٩١) احد القادة الوطنيين في ايرلندا ، ومن السياسيين البارزين في حركة استقلالها ، تحطمت حياته السياسية بسبب قضية شخصية تعمد اعداؤه ان يجروا اسمه فيها . تردد اسمه كثيرا في اعمال جويس ، باعتباره احد ابطاله في صباه الباكر . (هـ . م) .

في اطلاعهم على ما هي عليه بالنسبة له هو . وبنفس الشكل يجيب روبرت جريفز على التساؤل عما اذا كان يعتقد ان الشعراء ملهمون « بالمعنى الحرفي » بواسطة الربة البيضاء ، بأن يقول انك تستطيع ان تقبل هذا المعنى مجازيا او ان تقبله باعتباره حقيقة واقعة ، مثلما تنظر الى مسالة الوحي الذي كان يهبط من الله على انبياء العبرانيين . وان تأكيد جريفز لان « مهمته » التي كان يرغب في انجازها بكتابة كتاب « الربة البيضاء » كانت هي تزويد الشعراء بنوع من علم النحو او الاسطورة الشعرية الخاصة بهم ، انما يماثل اقوال ييتس الشبيهة باقوال العرافين او الكهنة الاشباح : ولقد جئنا لكي نعطيك صورا استعارية للشعر » .

ولكن الشيء الهام هو ان نعرف ان « الربة البيضاء » و« الرؤيا » مرتبطتان ارتباطا وثيقا بكتاب « اي تشينج » وبالكابالا : فكل هذه محاولات لتنظيم « المعرفة القمرية »،احساسنا الحدسي بالمعاني وراء الحقائق الواقعية متحولة بذلك الى نظام من نوع ما . ان اهمال تلك المحاولات وصرف النظر عنها باعتبارها خرافات او محض خيال ليس سوى ضلال كامل عن الهدف والمعنى . ان نوع المعرفة الذي نستخدمه لكي نجتاز يوما من ايام العمل في احد المكاتب لهو نوع من المعرفة واع ومنطقي . واكننا نعيش ايضا على مستوى اكثر حدسية من هذا ؛ ومن الممكن ان تقارن هذه المعرفة الحدسية باطراف الاعصاب على جانبي السمكة التي تستطيع بها ان تحس بالتغيرات في درجة حرارة الماء ودرجة ضغطه . وحينما اكون متعبا ويتملكني الانقباض ، تتوقف هذه القدرات الحدسية عن العمل واصبح عرضة للتأثر بالاحداث العابرة . وحينما اكون في صحة جيدة شاعرا بالتفاؤل، فانني اشعر بنبض الحياة وجيشانها من حولي مثل السمكة . ان شاعرا في حالة من القدرة على « التلقي » الكثيف قد يشعر بانه يشبه العنكبوت كامنا وسط نسيجه ، يتلقى الذبذبات من كل ارجاء الكون . هناك احساس بوجود قوانين خفية ، بوجود « احكام او قواعد للعبة » ليست هي قوانين المصادفة ولا قوانين الطبيعة . فهل يأتي « النظام » او « النسق » الذي تخضع له الرؤية من خلال ارواح لا اجساد لها، تحدثت من خلال زوجة ييتس ، ام انها كانت نتاجا لعقل ييتس اللاواعي بعد نصف قرن من الدراسات في علوم الغيب ؟ ليس هذا بالسؤال الهام . فلنفكر في الكتاب باعتباره شبكة تحاول ان تصطاد انواع المعرفة الحدسية القمرية التي تروغ من شباك العقل والمنطق ، وتحاول ان « تفرس » الاحساس بانك عنكبوت كامن في مركز نسيجك او سمكة تعوم وسط مياه تيارها . انني على استعداد لان اصدق ان ييتس كان امينا كل الامانة في وصفه لكيفية قدوم « الرؤية » اليه . ولكن حتى اذا كان من الممكن ان نثبت انه كان يمط الحقيقة ويزيد من ابعادها، فان هذا لا يغير من قيمة الكتاب . فما الذي يهم في معرفة من الذي نسج الشبكة ان كانت قد اصطادت السمكة ؟ .

يشترك جميع بني الانسان في اشتياق واحد شائع : ان يهربوا من ضيق

حياتهم ، وما تسببه الاشياء المحيطة بهم بشكل مباشر من اختناق . ومثلما يقول اينشتين ،فان هذا هو ما يدفعهم الى الرغبة في الهرب من المدن ، والى ان يدخلوا سلام الجبال في عطلات نهاية الاسبوع . ان ضيق حياتنا يجعل الحواس تنغلق ، حتى نشعر بالاختناق . وهذا ايضا ما يفسر السبب الذي جعل اوزبنسكي يجد « نكهة من حقيقة من نوع غريب » في الكتب التي تدورحول قارة الاطلانتيس والسحر . انه لمن المهم لنا ان نحس بأن ثمة نوعا اخر من المعرفة ، مختلفة كل الاختلافعن القوانين المنطقية التي تحكم الوجود اليومي ، وان هناك حقائق غريبة خلف الجدران التي تحيط بنا ، ان الفن والموسيقى والفلسفة كلها طرق للهرب من ضيق الواقع اليومي ، ولكنها تتطلب جميعها قدرا كبيرا من المجهود الواعي النابع من الداخل . فان عليك ان تبذر قبل ان تتمكن من الحصاد .

وبالمقارنة ، فان « السحر » او علوم الغيب ، ليس سوى طريقة بسيطة مباشرة للهروب من ضيق الحياة اليومية. ان دارس علوم الغيب ، بدلا من ان يتحول الى العالم الخارجي ،الى عالم المؤلفين الموسيقيين او الفلاسفة العظام ،فانه يتحول الى الداخل مباشرة ،فيحاول ان يغوص لكي يبلغ اعماقه السفلية المظلمة.

وهذا هو ما يوضح السبب الذي جعل اقدم اشكال السحر واكثرها بساطة اشكالا رمزية . فلم تكن الرموز تتمتع فقط بالقدرة الغريبة على التقارب مع العقل اللاواعي ، وانما هي ايضا سهلة الادراك ويسهل ان تكون موضوعا للتأمل . وهذا هو ما يفسر التأثير الهائل الذي مارسه كتاب « اي تشينج » عبر كل هذه القرون الكثيرة . وهو ايضا ما يفسر الشيوع والشعبية التي حظي بها اكثر انظمة المعرفة الرمزية الغربية اهمية ، وهو « التاروت » الذي يجب الآن ان نبدأ فحصه .

من اكثر الاشياء غرابة فيما يتعلق بمجموعة اوراق « التاروت » هو ما يبدو من عدم وجود اية اساطير تتعلق بالاصل الذي جاءت منه ، رغم ان عالم لغويات من القرن الثامن عشر ،هوالكونت دي جيبلين ، اعلن انها في اساسها عمل مصري قديم كان يدعى باسم « كتاب توت » (١) ولكن هذا كان قبل ان يساعد « حجر

---

(١) كتاب توت ـ اول واقدم كتب السحر المصرية القديمة . اكتشف على مراحل متتاليةضمن برديات الفيوم ، ثم في برديات الاهرام (الجيزة ـ البدرشين) وقام بترجمته عدد كبير من المصرولوجيين الانجليز والالمان والفرنسيين . يرجع تاريخه الى عصر الدولة القديمة في الاسرات الاولى ، او الى ما قبل ذلك بقليل ، وينسب الى ايمحوتب المهندس والفلكي والطبيب الاعظم في الاسرة الثالثة (نحو ٢٥٠٠ ق . م). يستمد الكتاب اسمه من الاله « توت » مكتشف الكتابة والسحر والارقام، الذي علمها لايزيس اثناء صراعها مع ست ، واصبح عضوا في التاسوع الالهي المصري القديم . (هـ . م .)

رشيد » الدارسين على قراءة الهيروغليفيات المصرية . ولا بد من الاعتراف بـان البحوث التاليـة لذلك لم تكشف عن وجود ما يدل على وجود مجموعة «التاروت» في مصر القديمة . وربمـا تكـون فكرة مصرية « التاروت » قد نشأت من الحقيقة المعروفة القائلـة بأن قارئي الطالع من الفجر كانوا يستخدمون « التاروت » فـي القرن الخامس عشر . ولكن فكرة ان الفجر هم الذين ابتكروا « التاروت » انمـا ينقضهـا الدليل القاطع الذي يثبت ان هذه المجموعة كانت معروفة في اسبانيا وفرنسا والمانيا قبل ذلك بقرن واحد كامل على الاقل . وقد صنع رسام يدعـى جرينجونير مجموعـة من اوراق « التاروت » لملـك فرنسا المجنـون تشارلس السادس عام ١٩٣٢ ـ ما زالت سبع عشرة من اوراقها محفوظة في المكتبة القومية National Bibliotheque في باريس . ولكن طبقا لما يقوله دي جيفري ، في كتابـه « مختارات من علوم الغيب » الصادر عام ١٩٣١ ، فانه كانت هناك آثار من اوراق « التاروت » في المانيا في عام ١٣٢٩ ، اي قبل قرن كامل من ظهـور الفجر فـي اوروبـا .

ان مسألة الا يكون لعمل من نوع مجموعة اوراق « التاروت » اي اصـل معروف ـ حتى ولو كان اصـلا اسطوريا ـ قد لا تسبب الكثير من الدهشة ، حتى يبدأ المرء في دراسـة المجموعة . فالمجموعة تتكون من سبع وثمانيـن ورقـة ، ومن الممكـن بالفعل ان تقسم الى مجموعتين : المجموعة الاولى تتكـون من اوراق لعب تشبه اوراقنا العادية التي نلعب بها ، باستثناء انها تحتـوي علـى صور بالاضافة الى الارقام . ثم هناك اثنتان وعشرون ورقة تتضمـن رموزا نمـوذجيـة مختلفـة من القرون الوسطى مثل « المهرج » ، « الكاهنة الكبرى » ، « الخنثى »، « البابا » ، « عجلة الحظ » ومـا الى ذلك . وتظل اوراق الرموز هذه دون تغيير عبر القرون كمـا يظل النظام الذي تقوم عليه كمـا هو دون تبديـــل . فلو ان المجموعـة كانت ابتكارا تحكميا من صنع قارئي الطوالع من الغجر ، لكان من حـق المرء ان يتوقع وجودهـا في اشكـال ونسخ عديدة . وقد اعلـن الكـونت دي جيبلين ، الذي كان يكتب قبل الثورة الفرنسية ، على سبيل المثال ، ان صـورة تمثل « الرجل المشنوق »، وهي رسم لرجل مشنوق معلق من قدم واحد ورأسه الى أسفل ، انما هي نتيجـة لخطأ واضح وقع فيه صناع اوراق اللعب الاوائـل : وقال ان التصميم الاصلي للصورة كان يمثل الحذر والبراعة ، في شكل رجل يقف على قدم واحدة ، ويمد قدمه الاخرى بحذر بحثا عـن الموضع الذي سيضعها فيه. انه رجل ذو « قدم معلقة » بتعبير آخر . ولكن مجموعة اوراق « التاروت » التي صنعت في عام ١٣٩٢ للملك شارلز الخامس ، تتضمن رجلا معلقا من قدمه وقـد تدلى رأسه الى اسفل ، مثلمـا نرى في كل التصميمات الاخرى ، وكان هذا قبل وقت طويل من ظهور الاشياء التـي من قبيل طابعي اوراق اللعب .

اذن ، فما الذي تعنيه ورقة الرجل المشنوق ؟ ان لدي عددا كبيرا من النسخ لها في طبعات مختلفة ،وكلهـا تشترك في اشياء معينة . ان الرجل معلق فـي عارضة خشبيـة على شكل صليب في مشنقة ، وقد ربط اليهـا بقدم واحدة . اما الساق الاخرى فمنثنية ، وقسمها السفلي يتقاطع مع الساق الاخرى عنـد الزوايـا الصحيحة ، صانعـا بذلك صليبـا على شكـل حرف ت بالفرنسي. ومن الغريب تمامـا ان الوجه لا يعلوه اي تعبير ينم عـن المعاناة او الاحساس بالالم ، وهناك هالة ذهبيـة اللون حول راسه ،هي في مجموعة اوراق الملك تشارلـز السادس ، ما تصنع شعره ببسـاطة . وقـد اقام اليفاز ليفي ، وهو دارس لعلوم الغيب ذو خيال خصب في القرن التاسع عشر (*) اقام كتابه : « قوانين وطقوس السحر الاسود » ذي الاثنين والعشرين فصلا على الاوراق القوية الاثنتين والعشرين في مجموعة التاروت ، وهناك قسم صغير في الفصل الثاني عشر (وورقة الرجل المشنوق هي الورقـة الثانية عشرة) وقد خصص هذا القسم لتفسير ان الرجل المشنوق رمز لبروميثيوس ، انغرست قدماه في السماء ، ويكاد راسـه ان يلمس الارض ، « انه القديـر الحر الذي اضحى قربانا ، وهـو كاشـف حجب الغيـب الذي حاصره الموت » . وهذا كله كلام جميل جدا ، ولكن قدمي الرجل المشنوق لم تنغرسا في السماء ،كمـا ان راسه لم يلمس الارض . ان م.ي. وايت ، زميـل ييتس ودارس موضوعات السحـر ، يزداد اهتمامه بالموضوع في كتابه الخاص عن « التاروت » ، فيقدم تفسيرا غامضا قائلا : « اننـا قد نفحص كل حرف ممـا نشر من التفسيرات ،ثم لا نجـد في النهايـة الا قبض الريح » ثم يمضي في تفسيره قائلا : « ان ذلك الذي يستطيع ان يدرك ان قصة طبيعته الاسمى قـد اختزلت وتضمنت في داخل هذا الرمز سوف يتلقى من التلميحات ما يوحي بانه من الممكن ان تحدث يقظـة عظمى .. » ثم يزيـد في كلامه ما يوضح انه رغم صرفه النظـر عـن كلام ليفي باعتباره نوعـا من الجهل ، فانه لا يعرف المزيد هو نفسه .

اما اوزبنسكي فقد كتب فصلا شاملا مفعما بالخيال عن « التاروت » فـي كتابه « نموذج جديد للكـون » الذي كتب فيه قصائد نثرية حول كل ورقة مـن الاوراق القويـة الاثنتيـن والعشريـن في المجموعة . انه يترك صورة الرجـل المشنوق لكي تحتل المكان الاخير ، ثم يكتسب عندها لغـة النبي من انبياء الكتـاب المقدس ، ويقـول :

وسمعت صوتا تحدث الي يقول :
« امسك لسانك ، فهذا هـو الرجل الذي راى الحقيقة
وعرف من العذاب ما لا تستطيع تعاسة على الارض
ان تسببه ابـدا ... »

(*) انظر القسم الثالث ـ الفصل السادس .

وهكذا يستمر طوال نصف صفحة كاملة . ورغم ما يذكره عن جنة عدن ، وابي الهول ، وجهنم المظلمة ، يظل اللغز قائما . فما الذي يفترض ان تمثله هذه الورقة ؟ لماذا يتدلى رأسه الى اسفل وقد علق من قدم واحدة ؟ان ت . س. اليوت يشير مرةواحدة في قصيدة « الارض الخراب » (١) الى الرجل المشنوق، ويقدم تفسيرا في احدى ملاحظاته يقول انه يربطه بشكل تحكمي ودون تبرير الى « الاله المشنوق » الذي ذكره فريزر في كتاب « الغصن الذهبي » (*) . ومع

---

(١) الارض الخراب ـ اشهر اعمال الشاعر الانجليزي الحديث ت.س. اليوت ، واعتبرها النقاد الغربيون اهم الاعمال الشعرية في هذا القرن . اقامها اليوت على اساس العزف على اوتار التناقض بين الحياة الخالية من المعنى ، فتصبح نوعا من الموت ، وبين الموت في ظل عقيدة ومعنى فيفضي الى حياة ابدية . والارض الخراب عصر عقيم ، مجدب وميكانيكي وكاذب ، يعيش في مدينته كالجحيم ، وبحثه عن القوة من خلال المجردات الجوفاء بحث عبثي وفارغ ـ رمز به اليوت الى القرن العشرين ، الذي يهجر التراث القديم ويصبح معادلا للموت والجمود . واقام اليوت قصيدته على اساس ثروة هائلة من الاساطير والحكايات الشعبية والرموز الدينية ، المسيحية والوثنية في حضارات مختلفة . والحقيقة ان اليوت في القسم الاول من القصيدة (دفن الموتى) اشار الى اوراق التاروت ،حينما تقوم العرافة « مدام سوزو ستريس » بقراءة الطالع للبطل (الشاعر القارىء) باستخدام الاوراق ، والشخوص التي يذكرها اليوت على الاوراق ، هي : البحار الفينيقي الغريق ، ممثلا لارباب الخصب في الاساطير الفينيقية القديمة ، والذين كانوا يقدمون قرابين لاخصاب الارض ، وسيعود هذا الرمز الى الظهور في القسم الرابع من القصيدة ، ويحتل محور التركيز فيه واكثر مساحته ، ثم « الرجل ذو الهراوات الثلاث » ، ممثلا لملك السمك او ملك الصيادين (ولاحظ ان العرافة ستحذر البطل من الموت بالماء) ،ثم بيللا دونا ، سيدة الصخور » ممثلة للانوثة العقيم في الارض الخراب ، واخيرا صورة عجلة الى جوارها تاجر اعور ، وسوف يعود الى الظهور في القسم الثالث من القصيدة باسم « مستر ايوجينايدز » التاجر من مدينة سميرنا ، الذي ياتي رمزا لهزيمة النبي وصعود التاجر ، في العالم الدنيوي المبتذل ، فيدعو البطل الى « عطلة نهاية الاسبوع في المدينة الكبيرة » اي الى حفلة فسق شاذ . وربما كان الرجل ذو الهراوات الثلاث هو الذي يقصده ويلسون ب « الرجل المشنوق » لان « البحار الفينيقي الغريق» غريق وليس مشنوقا، ثم انه سيعود الى الظهور بقوة في القسم الثالث ، بينما يقول المؤلف انه لم يذكر سوى مرة واحدة ـ. (هـ . م .)

(*) الغصن الذهبي ـ اشهر اعمال سيرجيمس فريزر ، ويعتبر ثروة ضخمة في الادب الشعبي المقارن والعادات والطقوس الدينية والسحرية والاساطير والديانات القديمة وتحويراتها المختلفة . وضعه فريزر في ١٢ مجلدا ، صدر اولها عام ١٨٩٠ واخرها عام ١٩١٥ ، اصبح الان بعد تقدم الدراسات الانثروبولوجية عملا تراكميا ومكتبيا ضعيف المنهج رغم بقاء مكانته كعمل هائل المادة ،وساهم في تاسيس علم الانثروبولوجيا ذاته.استمد عنوانه من حكاية وردت في «الانيادة» =

ذلك فان العودة الى الفصل المطلوب في « الفصن الذهبي » بعنوان : « آتيس، ادونيس ، اوزيريس » يكشف ان الارباب المختلفين الذين شنقوا في الديانات الخرافية ، كانوا قد شنقوا بالطريقة العادية ، ولم تتدل رؤوسهم الى اسفل او يعلقوا من اقدامهم ، ثم نجد تفسيرات اخرى كثيرة لصورة الرجل المشنوق . بازيل راكوزي يقول انه « راهب » ضل الطريق فشنق نفسه . ويقول« جريفز » في كتاب الربة البيضاء ان اوراق التاروت القوية الاثنتين والعشرين ترمز الى ابجدية الاشجار الكاملة ذات الاثنين والعشرين حرفا ، وان صورة الرجل المشنوق ترمز الى حرفها السابع ، حرف « د » الذي يرمز اليه بشجرة سنديان ضخمة . والحرف في هذه اللغة ينطق « ديوري » وهي الكلمة التي تعني « شجرة سنديان » وتعني « باب » ايضا . ولا شك ان الدعامة الخشبية التي يعلق فيها الرجل المشنوق بمشنقته تشبه الباب الى حد كبير ، ولكن لماذا يشنق بالمقلوب ، ومن قدمه ، ولماذا هو مبتهج الى هذا الحد ، ولماذا هالة الذهب حول راسه .. الخ . ليس هناك في هذه التفسيرات جميعا ما يوضح او يجيب على اي من هذه الاسئلة .

انني اؤكد كثيرا على هذه المشكلة لان مثل هذا البحث يمكن ان يكون افضل تقديم ممكن لمشكلة مجموعة اوراق « التاروت » . فمن الواضح تماما انها « تعني » شيئا . فايا كان الشخص الذي ابتكرها او صممها فلا بد انه قد عنى شيئا محددا تماما برموزه . وربما اكتشف احد المؤرخين ذات يوم ان قبيلة ما من قبائل الفجر القدماء ، جاءت من بلد كان حاكمها يشنق المجرمين من اقدامهم وقد تدلت رؤوسهم الى اسفل . ولكن اللغز يظل غامضا وصامدا امام كل التفسيرات حتى هذه اللحظة ، ولا يستطيع المرء الا ان يحدق في الاوراق متسائلا دون أن يحير جوابا ، محاولا ان يترك للحدس فرصة استكناه معناها .

واليكم في الحقيقة افضل طريقة يمكن بها التوصل الى معرفة مجموعة « التاروت » : ان نحدق فيها ببساطة مثلما يحدق الطفل في صور كتابه الملونة . ومجموعات اوراق التاروت التي صنعت في القرون الاولى لوجودها ، صنعت في العادة بالوان اولية براقة واضحة ، حتى انه ليمكن دراستها مثلما تدرس الرسوم في كتاب مصور للاطفال . ومما يفيد فائدة عظمى ان يكون للدارس احساس قوي بالعصور الوسطى ، فنصف ساعة يقضيها المرء في تصفح كتاب « ازدهار العصور الوسطى » لجون ايفانز تعد اعدادا ممتازا لدراسة مجموعة التاروت . فلا بد للعقل أن يكون ممتلئا بصور

= للرجيل ،عن الغصن الذي كسره البطل اينياس من شجرة مقدسة قبلهبوطه الى العالم الآخر . وقد اصبح الكتاب مرجعا اساسيا لاعمال جيمس جويس واليوت وازراباوند وغيرهم . صدرت في مصر ترجمة للجزء الاول من نسخة مختصرة له ، عام ١٩٧٠ . (هـ.م.)

الكاتدرائيات القوطية ، وزجاج العصور الوسطى المرسوم الملون ، الذي ربما كان هو مصدر الالهام بالالوان البراقة في مجموعات التاروت ، والمدن الصغيرة التي تحيطها الحقول من كل جانب ، والحرفيين في اعمالهم الدقيقة اليومية . ودون هذا النوع من الاستعداد ، فان العقل الحديث جدير بأن ينسب الى مجموعة اوراق التاروت تداعياته وافكاره الباطنة الخاصة ، وان ينسبها بالذات الى اوراق من نوع ورقة « البابا » او « الكاهنة العظمى » او « الشيطان » . ويساعد هذا الاعداد ايضا على الاحساس بالصور التي قد ترجع زمنيا الى عصور ابعد من عصر النهضة ، بل وابعد من العصور الوسطى . ان ورقة « القمر » مثلا ، تمثل صورة لكلب وذئب ينبحان ازاء قمر له وجه امراة ، بينما يبرز سرطان ضخم من بحر او نهر في الخلفية ، وتنهمر من وجه القمر قطرات الندى . وعلى جانبي خلفية الصورة يقوم برجان هائلان . وبشكل ما ، تتطابق الصورة مع صور عصر « تشوسر » (١) حيث ينتصب لصوص وفرسان امام مقابر معتمة وقد مدوا ايديهم في صلوات حارة . وصورة القمر بالذات من الصور التي توحي بالتغير الكبير . فهذه الصورة في مجموعة الملك تشارلز الخامس تتضمن اثنين من الفلكيين من عصر تشوسر ينظران الى قمر لا وجه له .. من الواضح تماما ان هذه الورقة تنتمي الى اصول اقدم جدا من العصر المسيحي ، وانها من المحتمل ان تكون مرتبطة بعبادة الربة البيضاء بشكل ما .

ولكن مجموعة اوراق التاروت ، في معظمها ، تنتمي بعمق الى المفاهيم التي سادت في العصور الوسطى ، والى العصور الوسطى الغربية بشكل خاص . انها تبدأ بمشعوذ — وهناك مجموعة ترجع الى القرن السابع عشر ترسمه في صورة شخص شرير تماما — وتنتهي بأبله او مهرج (او شحاذ — انه رجل يرتدي ملابس ممزقة) . وفيما بينهما يقوم عالم من الاباطرة والبابوات والمخنثين ، وهناك اوراق ترمز صورها الى القوة ، وضبط النفس ، والعدالة ، والموت .

وتسمى مجموعة الاثنتين والعشرين ورقة القوية بـ « الاركانا الكبرى » ، ولكن الستة والخمسين ورقة الباقية تسمى « الاركانا الصغرى » ... ورغم ان بعض المصادر تشعر بأن « الاركانا الصغرى » تكون مجموعة من الاوراق مختلفة كل الاختلاف ، لا تشترك في شيء مع مجموعة الاوراق القوية ، فمن

---

(١) تشوسر — جيوفي (١٣٤٣ — ١٤٠٠) اشهر الشعراء الانجليز في العصور الوسطى ، واكثرهم اهمية بالنسبة للغة الانجليزية الى الآن مع شيكسبير . نقل في شعره الغزير والخصب صورا بالغة التنوع والثراء للشخصيات والافكار والهموم الكبرى والمثل العليا والموضوعات الادبية للعصور الوسطى (حكايات كانتربري ، ترولوس وكرسيدا ، برلمان البلهاء ، اسطورة النساء الطيبات .. الخ) تعتبر لغته واسلوبه في التعبير المقياس الاساسي للغة الانجليزية الحديثة . (هـ . م .)

المؤكـد انهـا تشترك معها في نوع من الرمزيـة المحيرة . فكل ورقة منها تحمل صورة معينة . وقد تكـون الصورة سلسلة من الكؤوس تشكل شيئا كقوس قزح، او جسدا ممزقـا بعشرة سيوف ، او رجـلا يرزح تحت ثقل عشر كتل من الاحجار الثقيلة . وفي مجموعـة تاروت وايت ، تتضمـن ورقة الخمسة ذات الصولجانات او عصى السحرة على سبيل المثال مجموعة من الشبان في احد الحقـول ، يبدو انهم يتقاتلون او يلعبون لعبة عن الحرب او القتال . وفي قصيدة الرجال الجوف ، يقول ت . س . اليوت في بعض السطور :

هراوات متقاطعة في احد الحقول
تسلك مثلمـا تسلـك الريـح
لا اقـرب ...

ومن الواضح ان هذه اشارة الى تفسيـر وايت لورقـة الخمسة ذات الصولجانات او عصى السحرة . حيث ، بعد ان يتحدث عن الشبان الذين يتصادمون بالهراوات ، يضيف ان هـذا « قتال تمثيلي ... قتال زائف صوري .. وبهـذا المعنى فانه يرتبط بمعركة الحياة » . ان تفسير وايت لورقة الصولجانات الخمسة، يصبح رمزا لاحساس اليوت بعقم الحركة المستمرة التي تشكل الوجود الانساني. ومن ناحية اخرى ، فان جيرارد انكاوس الذي كتب ونشر تعليقا على « التاروت » تحت اسم « بابوس » المستعار ، يفسر ورقـة الصولجانـات الخمسة بانهـا : عقبـة يتـم تخطيهـا بالاجتهاد والداب ، ثم انتصار » . وينظر بابوس الى ملـك السيوف باعتباره رجـلا شريرا ، اما وايت فيعتبره رمزا للعدالة الصارمة .

ان « الاركانا الصغرى » هي كمـا ذكرنا من قبل المصدر الذي جاءت منـه اوراق اللعب الحديثة . وهذه الاوراق ، يمكـن ايضا ان تستخـدم لاغراض « تنبؤيـة » من العرافة والكهانة وكشف الطالع ، ومن الممتع ان نرى كيف تتقارب معاني المجموعتين ، القديمة والحديثة ، وهذا دليل على ان التقاليد المتبعة فـي كشف الطالع عن طريق الاوراق لم تتغير تقريبا منذ القرن الرابع عشر ، وهـي تقاليـد بالغـة التعقيد وذات قواعد يتمسك بها اصحاب الحرفة والمفسرون ،وان اتجه المفسرون غالبا الى فرض افكارهم الخاصة وانواع ثقافاتهم على تفسيراتهـم المتنـوعـة .

انها لتبدو خطوة طويلة جدا ، تلـك التي تفصل بين ايمـان يتمسك بالطاقة اللاواعيـة الكامنـة في الرموز وبين هذا الاستخدام المعقد لاوراق اللعب . وفي الحقيقة ، فان القاريء صاحب الميل العقلي المنطقي لا يمكن بسهولة ان يلام اذا ما نظـر الى المسالـة كلهـا باعتبارها تسليـة من كهان فارغ العقل سقيم الوجدان. ولكـن صرف النظر عـن المسالة كلهـا على هذا الاساس سيكـون اشبه بمن يرمي الطفل مع ماء استحمامه سويا . ويتماثل الوضع هنـا مع الوضـع ازاء كتـاب

« اي تشينج » ؛اذ ان استشارة اوراق « التاروت » تعتمد على افتراض ان العقل اللاواعي قد تكون له علاقة بـ « المصادفة » والاحداث العارضة اكثر مما يبدو على السطح . انه يبدو كما لو كان يعرف اشياء لا تظهر للوعي . وفي لحظات معينة من الهدوء ــ او من الاجهاد ــ تستطيع تلك الافكار او المعلومات الحدسية ان تربط نفسها بالوعي ، وقد تفعل ذلك بشكل عابر تماما ودون اي اساس منطقي ، او سبب ظاهر محدد .. فلو كان بوسعنا ان نقبل ان الاحداث الغريبة التي لاحقت ستريندبرج خلال النصف الاخير من حياته لم تكن كلها من بنات خياله ، وانما كانت بشكل ما مدفوعة الى الحركة بقوة الهواجس المسيطرة عليه ، اذن فلن نكون مطالبين بأن نتقدم كثيرا لكي نقبل ان سقوط الاوراق قد يكون متأثرا بنفس الهواجس . وينتج من هذا ايضا ان اية مجموعة من الاشياء يمكن ان تستخدم لقراءة الطالع ــ ساعة ، زجاجة من زيت الشعر ، قطعة من الشوكولاتة او مرآة مكسورة ــ بشرط ان يكون لكل شيء من هذه الاشياء معنى محدد لدى قارئي الطالع . وقراءة الطالع باستخدام قطع لعبة « الضومنو » و« الزهر » شائعة مثل شيوع قراءة الطالع باوراق اللعب ، وهناك قبائل بدائية عديدة تستخدم حزما من العصي او براعم الزهور اوالاسنان . والافتراض الذي يحكم العملية على الدوام هو ان المواد المستخدمة لا تزيد عن ان تكون « الطينة » التي تعجنها وتصوغها يدا « النحات » اللاواعي . يكتب آودين (١) في قصيدة تدعى « التيه » قائلا :

المركز الذي لا استطيع العثور عليه
معروف لعقلي اللاواعي ،
وليس من سبب يدفعني الى اليأس
لانني بالفعل هناك .

والمشكلة الاساسية هي اقامة علاقة بين العقل الواعي والعقل اللاواعي . وقد نهض مبتكر « التاروت » بالتحديد لاداء هذه المهمة . إن رموز التاروت تؤدي خدمة مزدوجة : ان تعمل بوصفها نوعا من الابجدية ، يستطيع العقل غير الواعي بواسطتها ان يبوح بالمعاني التي يحتويها . ثم ان تستثير العقل غير

---

(١) آودين ــ ويستان هاف (١٩٠٧ ــ ١٩٦٧) شاعر من ابرز وجوه حركة الشعر اليساري في انجلترا في الثلاثينات ــ مع داي لويس وستيفن سبنسر ولويس ماكنيس وكريستوفر ايشروود. كان شعره تطويرا لاساليب عدد من الشعراء الانجليز التقليديين ، يمزج بين التقرير والصورة في التعبير وبين التصور الشمولي للبناء والرؤية ، متاثرا بالرمزية الفرنسية في اوائل القرن . تحول بعد الحرب العالمية الثانية الى الهموم الفلسفية والدينية ، وكان له تاثير قوي على عدد من الشعراء الامريكيين الشبان . (هـ . م .)

الواعي بواسطة ما تتضمنه هذه الابجدية في داخلها من حيوية ، بطريقة تشبه قدرة البطاقة المثقبة على « استثارة » آلة حاسبة الكترونية . انه طريق تسير عليه حركة النقل في الاتجاهين .

ولا شك ان اكثر جوانب « قراءة الطالع » عن طريق الاوراق مدعاة للاحساس بالخداع ، هو عنصر المصادفة . فالعقل المنطقي يجد انه من الصعب ان يبتلع ان الاوراق التي تسحب عشوائيا من وسط كومة من الاوراق يمكن ان يكون لها اي مغزى حقيقي . وقد اعتقد سترايندبرج ان وسطاء من عالم علوي كانوا يحاولون ان « يطلعوه » على اشياء بعينها كلما واجهته حادثة غريبة او شيء يتطير او يتفاءل به . وهذا هو الافتراض الحقيقي الذي يكمن وراء كل عملية استكناه للمستقبل او كشف للغيب . وفيما يتعلق باشياء من نوع اوراق التاروت ورموزها ، فان الشيء الذي يحتاج الى بحث اكثر عمقا في اللحظة الراهنة هو العلاقة بين الرموز وبين العقل غير الواعي ، واللحظة التي تبدأ عندها عملية « التغذية السيبرناطيقية التبادلية » بين الاثنين ، على غرار ما يحدث بين البطاقة المثقبة والحاسبة الالكترونية .

وهناك جانب واحد قد تبدو فيه اوراق التاروت في مستوى ادنى من مستوى كتاب « اي تشينج » . فقد اوضحت من قبل انه رغم ان كتاب « اي تشينج » هو كتاب للكشف عن الغيب وقراءة الطالع في المستقبل ، فانه يحاول ايضا ان « يرفع العقل » الى مستوى اعلى من مستوى طرح الاسئلة عما هو مقدر له — اي انه يحاول ان يجعل العقل نشيطا مسيطرا على ذاته بدلا من ان يظل مهموما في سلبية بما يخبئه له المستقبل .

وهذا هو ما يبرز الخلاف الاساسي بين طريقة كل من التاروت وكتاب « اي تشينج » . ان الشرق — بشكل طبيعي — اكثر تجردا واكثر فلسفية من الغرب . والعقل الشرقي يفكر — بشكل طبيعي — على اساس التعرض للروح والطبيعة ، والسماء والارض ، والنار والماء . انه عقل يحدق في المسافات البعيدة . اما العقل الغربي فيعيش في عالم اكثر تجسيدا وتشخصنا ، مع وجود « مخلص » يعمل كوسيط قائم بين نفسه وبين السماء . ان رموز التاروت اكثر تعقيدا ، واكثر شخصية واكثر عنفا من رموز « اي تشينج » . وعند الوهلة الاولى تبدو « التاروت » اكثر انشغالا بالتنبؤ بالكارثة اكثر مما يفعل كتاب « اي تشينج » الذي يبدي اهتماما اكبر بتعليم « الانسان الاسمى » كيف يكون سيدا لمصيره .

ولكن الدراسة الاكثر عمقا تثبت لنا ان هذا الاختلاف اقل اهمية مما يبدو على السطح . ان رموز التاروت المشؤومة — الرجل المشنوق ، والبرج الذي

تضربه الصاعقة ، والموت ، والشيطان ، لم يقصـــد بها ان تكون نذرا بالكارثة بقدر مـــا قصد بهـــا ان تكون صدمـــات تطرد العقل من « جرة » تفاهة الحياة اليومية ، ولكي تفرس فيه عادة التركيز على الأساسيات . اما رموز البابا ، ويوم الدينونة ، والخنثى ، فكلهـــا تركز الانتباه على « السماء » ، مثلمـــا تفعل بطريـــقة مختلفة اوراق اخرى تمثل النجم ، والقمر والشمس . وفي الوقت الذي كانت هذه الاوراق فيه جديدة بالنسبة لاوروبا ، فان هذه الرموز كانت تتمتع بتأثير وجداني عميق ، ولكنهـــا فقدت هذا التاثير منذ عصر الاصلاح . ولكن ، ومثلمـــا اشارت . س . اليوت في حديثه عن شعـــر دانتي ، ليس هنـــاك ما يمنع العقل الحـــديث مـــن الدخول في دائرة الاصول المرجعيـــة للعصور الوسطى فيتأثر بهـــا ويتحرك بنفس العمق الذي كـــان معاصرو دانتي يتأثرون بها ويتحركون . وحينمـــا يتم ادراك « التاروت » وفهمها على هـــذا النحو ــ مع بذل مجهود لفهم الحقيقة الداخليـــة لرموزها ــ فانهـــا يمكـــن ان تعتبر المقابل الغربي المساوي لكتـــاب « اي تشينج »: نسق « قمري » للمعرفة ، يتم نقله والافصاح عنه بواسطـــة الرموز المتداخلة .

القسم الثاني

تأريخ للسحر

- ١ -
تقــدم الانسان

اذا كان من الضروري ان نفهم تاريخ السحر ، فلا بد ان نبدا بمناقشة عملية التقدم والارتقاء . ذلك انه اذا كـان دافيد فوستر على صواب ، فان تقدم الحياة وارتقاءها لم يكـن حدثا عارضا وقع بالصدفة . وانما شكلتـه ووجهتـه قـوى تمتلك الذكاء والهدف . والسحر ايضا يفترض وجود مثل هذه القوى . ومـن الجانب الاخر ، يصر العلم على انه من الممكـن تفسير الكون تفسيرا شامـلا علـى اساس ميكانيكي . فاذا كـان بوسعنـا ان نثبت تناقض هذا مع الحقيقة ، لامكننا ان نقيم قضية السحر على اصلب اساس ممكن .

في عام ١٧٩٤ ، حضر جوته اجتماعا لجمعية العلم الطبيعي ، وهناك قابـل رجـلا كان جوته يكره اعماله كراهية عميقة ، وكـان هذا الرجل هو الشاعـر شيللر . ولكن ، بينما كانا يغادران المبنى معا ، قال شيللر ملاحظـة جعلت جوتـه ينظـر اليه بتعاطف اكثر : قال انه كـان يتمنى لـو ان العلمـاء كفوا عن تمزيـق كل شيء وتقطيع الروابط بين اجزاء اي شيء وتحويله الى شـذرات ومـزق متفرقة ، لان هذا ــ يجعل متابعتهم عمليـة صعبة . ووافـق جوته علـى هـذا القول بحماس ، وقال : « هنـاك طريقة اخرى لفهم الطبيعـة وادراكهـا ، الطبيعة النشيطـة الحية ، وهي تصارع من المجموع الكلي حتى الاجزاء الصغيرة » ثم مضى لكـي يسهب في توضيح نظرته الى الطبيعـة باعتبارهـا : « الجلباب الحي لله » . وانتهى بشرح نظريته القائلـة بان كل النباتات قد تطورت عن نبات واحد اصلي . وهز شيللر راسه : وقال « ليست هذه تجربة معملية او خبرة نشات عن التجربة ، انمـا هي مجرد فكـرة » .

وبمعنى من المعاني كان شيللر على صواب . فان « نظرية » .. جوته كانت

مجرد فكرة . ولكن ما كان جوته يحتج عليه لم يكن هو منهج العلم ، وانما تصوراته المسبقة ، التي يبدو فيها العالم كما لو كان « باحثا في الحوادث العارضة » يكلله المجد . وربما ساعدت مقارنة محددة على توضيح هذه النقطة. لقد اعتقد عالم النفس ج.ب واطسون ، انه من الممكن تفسير جميع النشاطات الانسانية ، من الجماع الجنسي الى كتابة السيفمونيات ،على اساس ميكانيكي . فلنتخيل باحثا في علم الاجرام ، وهو يحقق او يبحث في جريمة قتل على اساس فكرة واطسون ووجهة نظره . ولتكن الجريمة هي ان رجلا دس السم لامرأته بعد ان امن عليها بمبلغ كبير من النقود . ان عالم النفس لن يكون مهتما بأي شكل من الاشكال بجوانب الخطأ والصواب في القضية ، ولن يهتم حتى بمقدار ما يتمتع به الرجل من عقل ــ لان الحديث عن العقل والجنون يتضمن الحديث عن حرية الاختيار . اما عالم الاجرام فسوف يبحث الجريمة كما يبحث اية حادثة عارضة اخرى : ولنقل مثلا ، انه سيبحثها مثلما يبحث حادثة سقوط جسر في يوم عاصف . فهي مسألة ضغوط مختلفة الانواع فحسب .

من الممكن ان نرى حياة الرجل باعتبارها سلسلة من الاختيارات ــ الاختيارات الرديئة التي لم يفكر الرجل خلالها في اي شيء الا في مكسبه او متعته المباشرة . وقد يبدو لصاحب هذا الراي انه لو كان قد وقع على سلسلة اخرى من الاختيارات ، مع قدر معين من العون ، لكان الرجل قد اصبح مواطنا صالحا . وبكلمات اخرى ، فان صاحب هذا الراي ينظر الى حياة الرجل باعتبارها سلسلة من « الاحتمالات » كان من الممكن لاي احتمال منها ان يتحقق. اما عالم النفس صاحب النظرة « الواطسونية » فان فكرة الاحتمالات لن تطرا على ذهنه باكثر مما يمكن ان يتساءل عن السبب الذي يجعل الجبل جبلا وليس واديا . بالنسبة اليه ، تكون الوقائع هي « حقيقة » الجريمة ، « حقيقة » المجرم ، وهو يدرسهما جميعا مثلما يدرس عالم الجيولوجيا جبلا من الجبال.

وقد يسمى مثل هذا الاتجاه نفسه باسم « المنهج العلمي » ، ولكن من الواضح ان هذا ليس هو الشيء الحقيقي ، فهو متزمت جامد اكثر من اللازم . وقد اعترض شعراء من نوع بليك وجوته على مثل هذه النظرة الضيقة للعلم ، واشاروا الى ان العقل الانساني لا يعمل بهذا الشكل . انه يعمل عن طريق سلسلة من القفزات الحدسية ، وليس عن طريق هذا الخطو الثقيل البطيء المقيد الحذر . ومن الممكن التمسك الشديد ب « الحقائق » . فلو انني فحصت لوحة مرسومة بواسطة مجهر قوي لامكنني ان اعرف شيئا عن نسيج اللوحة وعن تكوين الالوان ، ولكنني لن اعرف شيئا عن هدف الرسام ومقصده من رسم اللوحة . و « لن يمكنني » أن اعرف شيئا عن هذا الهدف وذلك القصد اذا ما

ظللت متمسكا بالمجهر. انما لا بد لي من التراجع الى الخلف والنظر الى اللوحة في مجموعها قبل ان افهمها .

وفي عام ١٩٣١ اصدر هـ.ج. ويلز (بالتعاون معجوليانهكسلي) كتابا بعنوان « علم الحياة » يمكن ان نأخذه باعتباره نموذجا نمطيا لمثل هذا النوع من«العلم» . ولما كان كتاب ويلز وهكسلي يقدم صورة لنشوء الحياة وتطورها على الارض ، فانه يقدم تناقضا كاملا بالغ الوضوح للنظرة التي يقوم عليها كتابنا هذا .

يتخذ ويلز موقفا ايجابيا للغاية في تأكيده انه ليس هناك « دافع الحياة » من نوع غيبي او غير حسي،وفي نفيه لوجود غرض وراء النشوء والارتقاء . فالحياة عملية كيميائية نشات بشكل ما في البحار الدافئة في فترة من الزمن قبل العصر الكامبري . وهي تختلف عن العمليات الكيمائية الاخرى من حيث انهاعملية تبدأ وتتقدم من تلقاء نفسها . ومن الصعب ان تتخيل عملية كيمائية تتمكن من المحافظة على تقدمها واستمرارها دون نهاية ، رغم استطاعتنا ان نتخيل ــ مثلا ــ كرة من الثلج تتضخم باستمرار كلما تدحرجت على سفح التل . ولكنها حينما تبلغ قاع السفح،تتوقف . وينتشر حريق الغابة ويمتد حتى يصل الى نهاية الاشجار ، ثم يتوقف . اما ويلز فيسالنا ان نقبل فكرة ان الحياة هي نوع من حريق الغابات يستمر الى ما لا نهاية ، او انها كرة من الثلج تستطيع ان تتدحرج صاعدة سفح التل مثلما تتدحرج وهي تسقط هابطة عليه .

ومن خلال هذه البداية العارضة، استمرت عملية النشوء عن طريق الاحداث العارضة ، ويقول ويلز ان سرعة الحصان ، هي رد الفعل للسرعة المتزايدة للحيوانات التي تفترسه (ولا شك ان العكس صحيح كذلك ، فقد كان على الحيوانات المفترسة ان تزيد من سرعتها لكي تلحق بالحصان) . ونجت الجياد السريعة وانسلت الكثير من نوعها ، اما الجياد البطيئة فقد ماتت . وهذه هي الطريقة التي تقدم بها التطور طوال نصف بليون من السنين . انه منهج مليء بالفجوات والنقاط الضائعة ، ولكنه لا يمكن ان يخطيء اولا تمكن تخطئته . انه لا يعتمد الا على القوانين الطبيعية (الفيزيقية) وليس على ارادة الفرد . من الطبيعي ان الجواد قد يتعلم ان يجري بسرعة اكبر لانه يريد ان يهرب من الضياع ، ولكنه لا يستطيع ان ينقل سرعته لابنائه ، على الاقل ، ليس بطريقة الوراثة .

ولكن عملية الاحداث العارضة هذه قد تبدو للقاريء غير العلمي بوصفها عملية لا ضرورة لها . ان تجربتي الخاصة تعلمني ان الحياة عملية ذات هدف . ان اهم ما يحدث حينما اقدمعلى عمل ما هو ان « اركز » . انني ازيد من ضغطي العقلي ، تماما مثلما احكم من قبضتي على مسدس اوشك ان اطلق منه

النار . ثم اصبح ببطء مسيطرا باحكام على العملية الصعبة . فاذا امتنعت عن بذل اي مجهود ، ورحت انفخ دون هدف في البوق الذي اريد ان اتعلم العزف عليه ، فلن اعزف عليه ابدا ولن اتعلم شيئا على الاطلاق ، او انني قد استغرق سنوات للتعلم بدلا من اسابيع .

وحالما لاحظت الفارق الهائل بين التركيز الهادف وبين الانجراف الخالي من الهدف ، وجدت انه من الصعب ان اصدق ان الحياة قد بلغت مرحلتها الحالية عن طريق انجرافها السائب . وقد قال ادينجتون انه لو حدث ان قامت قبيلة من القردة بالضرب دون هدف على عدة مئات من الآلات الكاتبة طوال عدة آلاف من السنين ، لحدث في لحظة معينة ان يتمكنوا من كتابة كل كتاب موجود في المتحف البريطاني ، ولكننا نجد في هذا القول نفس القدر من الصعوبة على التصديق . وقد يبدو من الواضح ان قردا لن يستطيع ان ينتج جملة ذات معنى - بالصدفة المحض - في خلال سنة من الضرب العشوائي على آلة كاتبة ، ولذلك فليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد بانه سيكون قادرا على انتاج نصف مليون من الجمل ذات المعنى في نصف بليون من الاعوام . وقد نجد من الصعب كذلك ان نصدق ان الحياة قد تطورت من الاميبا الى بيتهوفن في خلال نصف بليون من السنين المليئة بالحوادث والمصادفات العارضة .

يعتمد النوع الذي يقدمه ويلز من الحجج على نوع متزمت وجامد من الشك، يؤدي الى وضع يقوم على رفض تصديق كل ما لا يمكن اختباره والبرهنة على صحته . ولكن الشيء الذي يختار ان يؤمن به وان يصدقه يبدو شيئا تحكميا ومتعسفا الى درجة غريبة . انه يقول بعبارة مباشرة : « بعد ان قذفت الارض المنصهرة الفائرة كتلة القمر ، اخذت تبرد بالتدريج .. » ولكن الفحص الحديث لصخور القمر يبدو انه يشير الى ان القمر قد جاء من مكان آخر . وليس هناك ما يدعو الى لوم ويلز لانه لم يكن يعرف هذا ، وانما هو ينبغي ان يلام بسبب هذه اللهجة المتزمتة القاطعة التي يقرر بها ان القمر قد اقتطع من الارض وانفصل عنها . لماذا هو متزمت قاطع بهذا الشكل ؟ انه قد يبدو من « الخيال الوهمي » ان نقول ان القمر قد جاء من الفضاء الخارجي ، ان « الاقرب الى الاحتمال » انه قد انفصل عن الارض فطار في الفضاء ، وهذا ما يجعل الامر حقيقة. وهنا نصبح جميعا علماء ذوي رؤوس صلبة ، وليس هناك هراء غيبي في عقولنا ..

ولكن قوة الاحتمال ليست هي الحقيقة ولا هي شيء مثل الحقيقة ، والحجة التي تنتج من خلال سلسلة من الاحتمالات التي لا تناقش قد تبلغ من الخطأ ما يبلغه اكثر التخمينات ايغالا في الخيال والوهم . والاكثر من هذا ان مثل

هذه الحجة قد لا تنجح في الاقتراب من حقيقة الشيء الذي تتعرض له ، مثلما يفشل المجهر في الكشف عن حقيقة اللوحة المرسومة . ويعترف ويلز بانه ليس لديه اية فكرة عن مصدر الحياة ، ولكن « الاقرب الى الاحتمال » انها عملية كيمائية بدأت في البحر . ولما كان لا يعرف شيئا عن اصول الحياة اكثر مما يعرفه اي شخص اخر ، فمن المنطقي الا يكون يعرف شيئا عما اذا كان هناك « دافع غيبي للحياة » او عما اذا كانت عملية النشوء والتطور عملية هادفة . ولكن على نفس الاساس من الشكوك التي لا تناقش ، تصبح هذه الاشياء « حقائق » هي الاخرى . انه يعرف ان الافراد والاجناس يمكن ان يكونوا هادفين الى اقصى حد ، ولكنه ليس على استعداد لان يسمح للهدف بأن يلعب اي دور في عملية النشوء والتطور لان خصائصنا الحيوية تتحدد على اساس الجينات (حاملات الخصائص الوراثية) والجينات تتحدد على اساس من التذبذب العشوائي ، مثل عملية « تمشيط مجموعة من اوراق اللعب . ولكنه يبدو لي غريبا انه اذا كانت يدي وعقلي مصنوعين بحيث يطيعان احساسي بالهدف ، فان جزءا آخر من جسمي ، وهو الجينات ، لا بد ان تكون بعيدة بعدا كاملا عن مجال السيطرة . ففي الحقيقة ، كيف يمكنني ان اكون واثقا من ان الجينات لا يمكن ان تتأثر بالقوى الحيوية لارادتي ؟

وسوف يجيب ويلز على ذلك بقوله : ليس لدينا دليل على ان ذلك ممكن ، بينما من الممكن ان نفسر عملية النشوء والارتقاء تفسيرا كاملا على اساس الانتخاب الطبيعي . وهذا ـ مرة اخرى ـ هو ما يجعل هذا الانتخاب الطبيعي « حقيقة » لا نزاع فيها .

وبذلك ، فاننا اذ نبدأ بصورة كيمائية للحياة باعتبارها نوعا من العمليات المتجددة ذاتيا ، نشيد نظرة الى التاريخ منطقية وعلمية تفسر الدين والسحر على اساس من الخرافة . والنتيجة النهائية هي الانسان كما نعرفه اليوم ، مكبلا في فخ حضارته التكنولوجية ، وضحية لقوى اعظم واضخم منه ، باذلا اقصى ما في وسعه لكي يتجنب حربا ذرية . من الحق ان ويلز قد اتخذ وجهة نظر متفائلة ازاء تطور الانسان وارتقائه ، ولكنه اطلق على المخطوطة النهائية لكتابه « التاريخ المختصر للعالم » اسم : « العقل في اقصى حدود احتماله » .

ولكن الصورة لن تظل مقبضة الا طالما قبلنا فكرة ان « المنهج العلمي » الذي اعجب به ويلز الى هذا الحد هو في الحقيقة معقول وصادق بقدر ما يبدو عليه . انه منهج وضع بحيث يعمل دون اية « نزعة غائية » ، متجردا من كل فكرة عن هدف محدد .

فلماذا يتخذ العلم موقفا معارضا الى هذا الحد من استهداف غرض معين ؟

لانه كـان قد عانى من عملية الاستهداف هذه معاناة قاسية في الماضي . فالمتوحش الـذي يعتقـد ان خسوف القمر هو علامة على غضب الله يسد بفاعلية طريـق التقدم امام العلم ، ذلك انه باعتقاده قد انهى التساؤل واغلـق طريـق السؤال . ورجال الكنيسـة الذيـن احرقوا جيوردانوبرونو واجبروا جاليليو على التراجع عن موقفه كانوا يسدون طريق التقدم امام العلم . فللعلم اذن سببه القوي للانزعـاج من النزعة الغائية . ولكننا اذ نعترف بأن العلم المتجرد من النزعة الغائية قـد يكتشف الكثير من الحقائق الثمينة ، فاننـا نظل نؤكـد انه ليس هناك سبب علمي معقول للاعلان الفعلي بعدم قانونية فكرة استهداف غرض محدد او غاية معينة . فاسمحوا لنـا ان نفكر في روايـة اخرى غير روايـة ويلز عن ارتقـاء الانسان وتطوره . اننـا قـد نوافق على انه من المقنع او المتصور ان الحياة هي عمليـة كيمائية من نوع ما ،بدات في البحار اندافئة . ولكنني حينمـا افكر في عمليـة كيمائية (على سبيل المثال ، اذا اسقطت قطعة من الحديد فـي كمية مـن حمض الهيدروكلوريك ثم رحت اراقبهـا وهي تئز وتنحل) فان مثل هذه العملية تبـدو بشكل ما مختلفة كل الاختلاف عن اية عملية حيوية (مثلا ، الطريقة التـي يـغزو الدود بها قطعـة من الجبن) . اننـي لا استطيع ان امنع نفسي من التفكير فـي الحياة باعتبارهـا مبدأ « التنظيم » داخل العملية الكيمائية الخالصة ، يدخـل عليهـا حينمـا تتحول قطعـة الجبن الى يرقات . وانا اعرف في الحقيقـة ان اليرقات تتطور من البكتريـا الموجودة في الهواء ، فلـو ان قطعة الجبن قـد حفظت في مكـان من الفراغ المعقم ، لظلت معقمة ونظيفة . فمن الصعب بالنسبة لي ان افكـر في الحياة باعتبارهـا عمليـة تأتي من خارج المواد الكيمائية المتضمنة في العمليـة ذاتهـا وباعتبارهـا عملية تفرض تنظيمها الخاص على هذه المواد .

ومثلمـا قلت من قبل ، فان ثمـة فارقا هائلا بين عمليـة تحدث بشكـل عارض ، وبين عمليـة اركز عليهـا احساسي بوجود هدف محدد منها . بل ان هناك فارقـا هائـلا بيـن ان افعل شيئـا وانا شارد الذهن وبين فعله مع تركيز حقيقي عليه . ان الحيـاة لا تنفصل عـن فكرة الهدف . من الحق انني استطيع ان افكر في مخلوق حي ليس له هدف محدد ـ مثل بقرة تمضغ علفها ، او فـلاح فقير يتثاءب فوق الفرن في منزله ـ ولكن ليس هذا الا لانهمـا يستمتعان بوجود مسافة يتنفس فيها الهدف ، فان المجهـود السابق قد « دفـع » ثمن استرخائهما مقدما . فـان ابسط الكائنـات العضويـة الحيـة لا بد ان تقاتـل باستمرار مـن اجل الوجـود .

لقد تزادت الحياة في البحار الدافئة، وهناك اكتسبت وطورت هدفها الخاص ـ او احساسها الغريزي بالهدف ـ وحواسها الخاصة . وبينمـا كانت الكائنات

العضويـة الدقيقة تتطور الى اسماك وطيور ولبونات وحشرات ، فان هذه الكائنات الجديدة قد طورت ايضا اكثر غرائزهـا اهمية : الاحساس بالجماعة . ومن الممكن ان نناقش في ان هذه الغريزة التجمعية ، مثل غريـزة الاهتـداء الـى البيت والاحساس المسبق بالخطر ، كانت غريزة تليباثية ، يمكـن ان تنتقـل بالتـواصل الروحـي .

وفي كتاب « انواع افريقية » يذكـر روبرت آردري مثالا ، يبدو لـي انـه حجة نهائية وكليـة ضد النزعة الداروينية المتشددة الشاملـة : الحشرة المفرودة (المنبسطة) . كان آردري يقف مع عالم التاريخ الانساني ل . ب ليكي ، ينظران الى برعم زهرة متعددة الالوان مثل زهرة الليلـك . ولمس ليكـي تويج الزهرة ، فتحللت الزهرة بين اصابعه وتحولت الى كمية كبيرة من الحشرات الدقيقة . وبعد بضع دقائق كانت الحشرات قد عادت فاستقرت على التويج ، متزاحمة لتقف كـل منهـا على ظهـر الاخريات ، لتصبح مرة اخرى ذلك البرعم المتعدد الالوان ، زهرة « لا توجد في الطبيعة » . كانت بعض الحشرات خضراء ، وبعضها تجمع بيـن اللونين الاخضر والقرمزي ، والبعض كان شديد الصفرة ، وقد رتبت نفسها بحيث تبدو مثل زهـرة ذات اطراف خضراء .

وتستطيع نظريـة الانتخـاب الداروينيـة ان تفسر اكثـر مـا نراه من امثلة « المحاكاة » في الطبيعـة ، مثل « حشرة العصا » التي تحمل اشواكا على ظهرها. وتستطيع عمليـة التحول العشوائي ان تنتج مخلوقا يشبه تويج الزهرة فيتمكن من البقاء على قيـد الحياة بشكل افضل من اخوته الذين يبدون في صورة فاتحـة لشهية الكائنات الاخرى . وبينما تستمر الطيـور فـي التهـام الحشرات « غير المحاكيـة » ، تستمر الطبيعـة في « صقل » التشابه في الجانب الآخر . ولكن كيف يمكـن ان يطبق هذا المبدأ على جماعـة بأكملها ؟ ان « الانتخاب الطبيعي » يؤثر على الافراد وحدهم ، فنحـن لا نستطيع أن نتخيل ان جماعة باكملها قـد خلقت عن طريق تكتل هائل للجينات ثم بطريقـة عارضة ، ثم تتعلم بطريقة عارضة ايضـا ان تحاكي زهرة من الزهور . ولكننا اذا افترضنا ان جماعـة « الحشرة المفرودة » هي بمعنى من المعاني « فرد واحد » وعقل واحد ،اذن لاصبحت المشكلة اقل تعقيـدا .

فاذا افترضنا هذا الفرض ، فسيكون علينا ايضا ان نسقط فكرة انالجينات لا يمكـن ان تتأثر بشكل تليباثي . فالبديل لهذا هو ان نتخيل الآلاف من جماعات الحشرة المفرودة وهي تعلم نفسهـا ان تحاكي الزهور ، ولكـن هذه المعرفة تمحى تماما في الجيل التالي حينمـا يفشل « الاطفال » في وراثة الوان ابائهم ، حتـى

يأتي اليوم الذي تمد فيه الطبيعة يدها برفق وتسمح للحيلة بأن تصبح وراثية .

لم يكن داروين نفسه مقتنعا كل الاقتناع بان الخصائص المكتسبة لا يمكن ان تورث . وقد طلب منه عالم الحشرات « فابر » ان يفسر حالة النحلة الفرنسية المعروفة باسم « امونوفيلاس » التي توفر الطعام ليرقاتها بأن تلدغ دودة في مركزها العصبي فتشلها . وتقوم حجة فابر على انه لا بد ان تكون النحلة دقيقة كل الدقة في عملية اللدغ ، لانها لو مدت « حمتها » الى عمق اكبر من اللازم لقتلت الدودة ، اما اذا فشلت في الوصول باللدغة الى العمق الكافي لاخذت الدودة تتلوى وسحقت اليرقات . ويقول فابر انه لا بد ان النحلة قد تعلمت هذه الحيلة في « المرة الاولى » أو « دفعة واحدة » ثم نقلتها بشكل ما الى اطفالها ـ والا لما كان هناك اطفال لها . وفي كتاب « علم الحياة » يوجه ويلز الى فابر الاتهام بالمبالغة ،ويصف دقة النحلة بانها « انعكاس خشن وجاهز خال من التعقيد الشديد » ، وقد شيد نقده هذا على دراسة للانواع الكثيرة من نحلة الامونافيلاس الامريكية . ولكن هذا لا يؤدي الى اختلاف جوهري مع حجة فابر القائلة بان النوع ما كان يمكن ان يبقى وان يستمر دون نقل هذه الحيلة بشكل ما منذ الجيل الاول .

ومرة اخرى قد يحق لنا ان نسال : كيف استطاع الانسان ان يطور البشرة الجلدية السميكة في اخمص قدميه واسفل الكعبين ؟ من الواضح ان السبب هو المشي فوقهما . ولكن لماذا يتميز « كل » البشر بهذه الخاصية ؟.

وفي مجموعة المحاضرات التي القاها السير الستر هاردي (الذي كان استاذا لعلم الحيوان في جامعة اوكسفورد وكان داروينيابارزا) تحت عنوان « التيار الحي » في جامعة جيفورد ، يطرح هاردي ظاهرة اكثر غرابة . هناك دودة شريطية تدعى « مايكروستوهام » استطاعته ان تكتسب وان تطور نظاما دفاعيا فريدا . انها تلتهم الكائن المرجاني البحري المسمى « هيدرا » لكي تحصل على كبسولاته اللادغة (التي تدعى نيماتوكيستس) . وحينما يتم هضم الهيدرا في امعاء الدودة ، تعلق كبسولات اللدغ الباقية منها في جدران معدة الدودة ، فتصبح كالفوهات المفتوحة مثل فوهات البنادق ، مستعدة لاطلاق ما تحتويه من مادة سمية عند لمسها . ومن الغريب إن هذه الكبسولات لا تنفجر عندما تلتهم الدودة الكائن « هيدرا » . والاغرب من هذا ان الدودة لا تلتهم الهيدرا باعتباره طعاما ، وانما لكي تسرق ما يملكه من « قنابل » فقط . وحينما يكون على جلدها الخارجي ما يكفي من هذه القنابل الجاهزة ، فانها لن تقترب من الهيدرا ولن تلمسها حتى لو كانت تموت جوعا .

... وبعد مناقشة بعض المشاكل المشابهة ، يخطو السير الستر هاردي خطوة

هائلة باقتراح ان التليباثي يستطيع في الحقيقــة ان يؤثر في الجينات ، رغم ان هاردي يهتم بان يؤكــد ان هذا ليس سوى نوع من التخمين . والتشبيه الــذي يستخدمه ــ ملاحظا انه : « ليس سوى تشبيه وليس جزءا من الفرضية التـــي يطرحها » ــ يقيم التناظر بين هذه الظاهرة وبين رسام يختار الالوان الصالحة للوحة سوف يتم انتاج آلاف النسخ منها . انه قد يقرر الاستمرار في المحافظة على التنويع بين الالوان ، لكي يحاول الحصول على اقصى تأثير ممكن . ويفترض السير الستير وجود « عقل جمعي » لحيوانات النوع الواحد ، ويلعب هذا العقــل الجمعي دور الرسام . ولكن الرسام يختار الوانه واضعــا في اعتباره التأثير الكلي النهائـي للوحته . ها نحــن نعود ــ باختصار ــ الى فكرة الهدف . والاكثر اهمية ، نعود بفكرة ان « العقل الجمعي » يستطيع ان يؤثر مباشرة على نظام الجينات ، التــي تعادل في اللوحة نظام علاقات الالوان .

ان كل ما نصل اليه بناء على كل هذا هو الانتخاب القائم على المصادفة الذي يصر عليــه ويلز ، انمــا يترك الكثير من الظواهر دون تفسير . لا يشك احد في ان الانتخاب القائم على المصادفــة هو بالفعل قوة كبرى من قوى التطور . ولكـــن لا يشك احد بعد هذا في ان انواعا مختلفــة من المصادفة تلعب دورا هاما في حياة سكــان المدن : انني قد التقي برجل ينقل الي عدوى نزلة برد حادة ، او يغيــر مسار حياتي كلها . ولا يعني هذا ان كل ما افعله ، من الاستيقاظ في الصباح حتى الذهاب الى الفراش والنوم في الليل يخلو من الهدف . على العكس ، ان المصادفات العارضــة لا تحدث الا على اساس خلفيــة عامة من الاستهداف نحو غرض معين . وينطبق نفس الشيء على التطور .

ان مثالا واحدا من الامثلة التي نوقشت في الفقرات السابقة ، لا يمثل ادنى مشكلة لنظرية التليباثي في التطور . اننــا نفترض ان الحيــاة هادفــــة فـــي اساسها . انهــا تنظم المادة من اجل اهدافها الخاصة ، وهدفهــا هو ان تصبــح اكثر تعقيدا ، اي اكثر حرية . فعلى سبيل البداية ، انهــا تركز على تطوير القوى التليباثية ــ نفس القوى التي تساعد الحشرة المفرودة على ادراك مكانها من « البرعم » . وقد ساعدته هذه القوى أيضــا على تمرير العديد من الاكتشافات الهامة الـــى الجينات . ولهذا العقل الفريزي ، عقل الجماعة ، مستويات عدة . ففــي المستوى الاول ، يقوم هذا العقل بتنظيم جماعــة الحشرات المفرودة في شكل زهرة ، ويتأكد من ان بعضهــا اخضر اللون ، والبعض الاخر نصف اخضر ونصف مرجاني ، وبعضها مرجاني او قرنفلي تمامــا . وعلى مستوى آخر يقوم بتنظيم خلايا معــدة الدودة الشريطية لكي تحمل الحويصلات اللادغة الى الجلد الخارجي . ذلك ان كل ما نعرفه يدلنا على ان الدودة الشريطية قد تكون قادرة على ان « تأمر » الخلايا بان تحمــل الحويصلات اللادغة ، تماما مثلما آمر انا الان اصابعي بان تضغط على هذه الصحيفة .

وفي التكوينات العضوية البسيطة مثل الدودة الشريطية ، فان الارتباطات والتوصيلات الغريزية قد تكون اكثر مباشرة . وتؤكد هذه الفكرة بدورها ان كل انواع العمليات انما تحدث الآن في جسدي ، رغم انه من الواضح انني لست واعيا بها . ان الفرضية التي وضعها كيبنر عن وجود عقل جمعي بين خلايا الجسم ، لتنطبق على كل مستويات الحياة .

ان المهارات التي استطاعت الطيور والحيوانات ان تكتسبها وان تطورها تشير الى ان الحياة قد قطعت شوطا طويلا نحو هدفها : السيطرة على شكلها المادي . ولكن بينما تبدو غريزة الاهتداء الى البيت عند الطيور ، او غريزة الانتظام على شكل زهرة عند الحشرة المفرودة و« الحاسة السادسة عند الكلاب » ؛ بينما تبدو هذه الغرائز باعتبارها منجزات بارزة ، فانها بشكل ما ، طرق مسدودة لا تفضي الى شيء . ذلك ان هدفها ليس سوى مجرد البقاء على قيد الحياة . فبعد ما يقرب من نصف بليون سنة من التطور ، فان الخاصية او الميزة الاساسية للحياة هي القسوة : اطفال النحل تأكل دودة شجر حية ، وثعبان يبتلع ضفدعة حية . وقوة التواصل التليباثي بين افراد النوع المتباعدين لم تتضمن اي تعاطف مع الانواع الاخرى . فرغم كل ما تتمتع به الحياة من « ملكات نفسية » فقد ظلت ضيقة وشريرة .

كان ما يزال عليها ان تخطو الخطوة العظيمة التالية ــ واخطر الخطوات على الاطلاق حتى ذلك الحين . كان عليها ان تكتشف طرقا واساليب جديدة لقهر عالم المادة ، ذلك الذي يعمل وفقا لقوانينه المعقدة الخاصة . كان عليها ان تفهم تلك القوانين ، وان تضع عليها يدها وان تدركها باعتبارها « تعميمات » شاملة . وقد عنى التعقيد المتزايد للاشكال التي كانت تتعلم ان تتعامل معها ، عنى انها كانت بحاجة الى بناء « تصاعدي » متراكب . ان رئيس عمل صغير ، يستطيع ان يظل على اتصال مع كل شيء بنفسه ، ولكن اذا اصبح العمل كبيرا جدا ، فانه سيكون بحاجة الى بناء متكامل من المديرين ، ونواب المديرين ورؤساء المجموعات ، واسطوات الورش وما الى ذلك . وستكون وظيفة الرئيس هي ان يلقي نظرة شاملة تاركا كل الوظائف المنتظمة العادية لنوابه . والحقيقة هي ان كل كائن انساني هو في النهاية رئيس مؤسسة متعددة الفروع عملاقة .

انه « الرئيس » . . ويستطيع اذا شاء ان يفعل اي شيء بنفسه . . ولكنه لم يعد يملك السيطرة المباشرة التي تملكها الدودة الشريطية على خلايا معدتها . ولكنه اذا احتاج هذه السيطرة حقا ، فانه يستطيع الحصول عليها . انه اذا احتاج ان يستعيد قدرة التليباثي او التنبؤ اللاواعي بالخطر ــ « مثل حساسية الادغال » فانه يستطيع ان يعيد تنشيط هذه القدرة عن طريق مجهود مكثف .

ولكن هنا تكمن النقطة المحورية . ان الخطر الرئيسي الذي يهدده هو نوع من « فقدان الذاكرة » .ان تعقد العمل ، قد يدفعه الى التوتر لدرجة ان يقضي كل وقته منزعجا مهموما دون عمل مؤثر في مكتبه ، محدقا بعينين دائختين في صفحات الميزانيات وارقام الاحصائيات ، متمنيا لو انه كان ما يزال صاحب عمل عائلي صغير . « انه ينسى ضخامة ما يملكه من قوة حقيقية » . وحينما يبلغ هذه المرحلة ـ بان يصبح مجهدا موهونا باليا ـ فمن المهم له ان يهبط الى الورشة في الطابق السفلي ، وان يشمر اكمامه ، لكي يعيد الاتصال مع ذاته الاكثر بساطة والاكثر غريزية .

وهذه نقطة تتجاوز اهميتها مدى هذه المناقشة عن علوم الغيب . اننا نفكر الآن في اكثر قوانين الطبيعة الانسانية اهمية . فالانسان يكون في افضل حالاته حينما يكون لديه احساس قوي بالهدف . فحينما يكون وعيي قائما بعمله المناسب ـ اي ان يقوم بادراك شيء من التعقد الهائل في الكون ، والبحث عن كيفية زيادة سيطرته وقوته ـ فان طاقته تفيض الى اللاوعي ، وتثير كل قوى العقل اللاواعي . وحينما يحدث العجز عن الوصول الى الهدف الواعي ، او عن تبين هذا الهدف ، فان كل شيء اخر ينهار ببطء .

لماذا طور الانسان الوعي؟ لقد اقترحت الاجابة على هذا السؤال في مقدمتي للكتاب . ربما كان قد فقد قدراته الحيوانية على التليباثي ، ولكنه ايضا كان قد فقد عمى الالوان الذي كان يعاني منه . فحينما يبتهج الانسان بالتناقض بين لون السماء الازرق ولون الحقول الخضراء ، او بالوان السحب عند الغروب ، فانه يكون في هذه اللحظة قائما يعمل على مستوى رفيع من الحيوية لا يستطيع اي حيوان ان يقوم به .

وان احساس الانسان بالجمال لهو النتاج المباشر للدافع التطوري لديه .انه احساس مرتبط بالقدرة على ادراك ما هو معقد والسيطرة عليه . فلو انني نظرت الى منزل من عصر التيودور قائم وسط المروج الخضراء واحواض الزهور ، ونهير صغير يجري عند طرف الحديقة ، فان احساسي بالجمال هو بالفعل احساس « بالتعقد » و « النظام » . وكلما ازداد احساسي بعمق اليقظة واتساعها ، كلما « استوعبت » تلك المداخن والجمالونات ، وتقاطعات الدعامات الخشبية ، والنوافذ ذات الاطارات الرصاصية ، واحواض الزهور البزاقة بالالوان . انها تولد المتعة لانها تولد احساسا بقدرة العقل على السيطرة على بيئته . وقد ابصر منظرا لا يقل عن هذا تعقدا من نافذة قطار ـ اكوام الاوساخ ، ومداخن المصانع ، واحياء المنازل القذرة ـ ورغم انه لا يقل تعقدا عن المنظر السابق ، فانه لا يولد اي متعة لانه يبدو كالبرهان على الفشل الانساني في السيطرة على البيئة ،

ودلالة على اناس تركوا الحياة « تهبط بهم الى القاع » . ومن الجانب الاخر : قد انظر الى جانب من منظر طبيعي لا يقل فوضى ــ ممتلىء بالصخور المسننة ؛ في تلال جرداء تحت سماء عاصفة ــ ولكن لانني لا اشعر بالاحتياج الى السيطرة عليه ، فانه يبدو لي منظرا جميلا، لانني استطيع ان استوعب تعقده وتركيبه

الاحساس بالجمال اذن هو احساس بالتعقد او التركيب وبالسيطرة عليه . ولا يكفي احساس منهما دون الاخر . ان المصاب بالعصاب يرى التعقد ، ولكنه يحس به يطغى عليه ويغلبه . انه يفتقد الاحساس بالهدف . وحينما صاح الاسكندر الاكبر مطالبا بعوالم اخرى جديدة لكي يغزوها ، كان يمتلك الاحساس بالهدف ولكنه لم يكن يمتلك الاحساس بالتعقد . لقد شعر بانه وصل الى « نهاية العالم » .

فاذا فكرنا الان في الوضع الامثل لقلنا انه لا بد ان يكون هناك نوع من « الحركة الارتجاعية » المستمرة. فالتعقد المتزايد ينبغي ان يولد احساسا متزايدا بالهدف ، وشهية متزايدة التفتح للحياة . وينبغي للشهية المتزايدة التفتح للحياة ان تستثير العقل لكي يوسع من آفاقه ، ولكي يدرك انواعا جديدة من التعقد. ان ما يحدث في التطبيق العملي هو ان البشر حتى اكثرهم عظمة يبلغون نقطة معينة يفقدون عندها الشجاعة ، فلا يريدون اي مزيد من التعقد،وتضمحل ايضا شهيتهم للحياة . ولكن من الممكن انتخيل انسانا استطاع ان يعبر هذه النقطة الخطيرة، يشرئب عقله ويتطاول دون نهاية لكي يصل الى تعقدات جديدة ، ويستثار احساسه بالبهجة لكي يصل الى مستويات جديدة من الهدف من خلال التعقدات الجديدة . فاذا استطاع عقل الانسان ان يبلغ هذه النقطة ــ التي تشبه « الكتلة الحرجة » في الانفجار النووي ــ لامكن ان يصبح شبيها بالاله . . هناك نوع معين من القلق واليقين انساني الى درجة فريدة ، الحواس تشرئب وتتطاول بلهفة الى العالم ، كما لو كانت تريد ان تعانقه . وكثيرا ما يشعر الانسان بهذه النشوة من اليقين حينما يواجه الكون: البهجة الخالصة في تعقده ، والرغبة في الغوص فيه بقفزة تثير الرذاذ الكثير . ولكنه . . يشعر بالتعب ، ويخبو القلق وتتلاشى اللهفة . وليس هذا الاخفاق الا نوعا خالصا من الافتقار الى تنظيم الذات . ان الشخص البالغ يستطيع ان يزيد من قدرته على التحمل العقلي عن طريق التدريب المنتظم الواعي ، حتى يستطيع ــ على سبيل المثال ــ ان يستمع الى احدى اوبرات فاجنر كاملة دون ان يشعر بالاجهاد .

ولا بد ان يؤدي هذا الى توضيح السبب الذي يجعلنا مختلفين الى هذا الحد عن الحيوانات الدنيا . فليس هناك حيوان يمتلك تلك القدرة على التطاول بنشوة من اجل ادراك العالم . ان غرائز الحيوانات اكثر حدة من غرائزنا ، وهي اكثر قربا من الطبيعة . ولكنها لا يمكن ان تعرف تلك البهجة السامية للخيال

اذ يلتهب بالنار ويسكر منتشيا برؤاه الخاصة، وهذا هو ما يهدف اليه التطور الانساني .

ولكن الانسان اختار طريقا شاقا صاعدا وعرا . من الحق ان تلك القدرة على ادراك العالم قد حققت نتائج هائلة . فقد اصبحت الحياة اكثر سهولة الى درجة لا يمكن قياسها ـ على سبيل المثال ـ حينما تعلم الانسان ان العشب البري يمكن ان يبذر وان يزرع وان يحصد ، وان الحيوانات الوحشية يمكن ان تروض وان تربى للحصول على لحومها وعلى جلودها . وقد وضع البروفيسور ل.م. ويتفوجل في كتابه عن تاريخ الاقتصاد الصيني ، وضع تقريرا قال فيه ان الزراعة يمكن ان تغذي ما بين عشرين الى خمسين ضعف ما يمكن ان تغذيهم عمليات الصيد من البشر . وهذا يعني ان الانسان قد حصل على وقت فراغ يزيد ما بين عشرين الى خمسين ضعفا . ولكن ، من الجانب الآخر ، فان هذه الحياة المرتفعة الوعي كانت ضيقة وشاقة، بل وكئيبة اذا ما قورنت بالصيد والغزو وشن الحروب . ان الكتاب الرومانتيكيين المحدثين يحبون ان يعلنوا ان الفلاحين اكثر قربا الى الطبيعة من سكان المدن . ولكن هذا ليس صحيحا بشكل كامل . فان رجلا مثل جون كاوبر بويز يتمتع برباط صوفي غامض مع الطبيعة لانه يمتلك « الفراغ » الكافي لكي يفكر ولكي يستخدم خياله . اما فلاح العصر البرونزي فقد كان عليه ان يبذل جهدا هائلا في العمل لدرجة تمنعه من ان يعتني بخياله . وبذلك ، فرغم ان المحراث قد حرره ، بمعنى ما ، من الاعتماد على الصيد اليومي، فانه قد وضعه في سجن جديد : بيته ، وحقوله ، وحظيرة ابقاره .

وقد كان ما حدث حتميا لا مهرب منه . وكان الناس الذين حافظوا على الدرجة العالية من « مواهبهم النفسية » القديمة نادرين . ان القدرة النفسانية تنبع من نوع معين من السكينة الداخلية ، يصبح العقل في اثنائها صافيا ، مثل بحيرة صغيرة من الماء ،يسمح سكونها للطين بالاستقرار في قلعها . اما الرجال الذين امتلكوا تلك القدرة فقد اصبحوا اطباء وكهنة وعرافين . وما زال هذا الى اليوم صحيحا مثلما كان صحيحا منذ خمسة الاف سنة . وهناك تقرير حديث عن هنود قبائل « هيوتشول » في جبال سييرامادري في المكسيك ، وهم يدينون بدين يعتبر من الاديان الباقية من عصر ما قبل كولومبس . ويصف التقرير « الشامان » المدعو « رامون مدينا » ، وهو ايضا الفنان الاول للقبيلة ، وهذا امر له مغزاه . وقد حدث ان زار الشامان قريته « سان اندريز » فاحس بوجود الموت ، وسار نحو منزل مغلق حيث اكتشفت جثة رجل مقتول في سطح المنزل . ويعلق نورمان لويس على هذا بقوله ان الجثة قد تم اكتشافها : « من خلال ظاهرة تلقى قبولا كاملا في هذا الجزء من العالم ـ ويتقبلها حتى آباء

الارساليـة الفرانسيسكانيـة ـ باعتبارهـا نوعـا مـن الادراك يتجـاوز الحواس » (*)

ان هذه القدرة التي كشف عنها « انشامان » من الممكن اكتشافها وتطويرها ، مثل عمليـة البحث عن الماء تحت الارض ، عند اي انسان . انهـا جزء طبيعي تماما من التكويـن العام للمخلوقات الحية. ولكننا غير مدركيـن لامكانياتنا الخبيئة رغم الاهتمام المتزايد بالبارا سيكولوجي Para - Psychology . وقد تم الكشف عـن احدى هذه الامكانيات عن طريق البحوث التي قام بها الدكتور ج. ب . راين فـي جامعة ديوك . اقترح احد المقامرين ان يبحث فريق الباحثين في الباراسيكولوجي اعتقـادا خرافيا لدى المقامـر نفسـه يقـول بانه مـن الممكـن للعقـل ان يسيطر على رمية « الزهر ». وتمت ثماني عشرة مجموعة من الاختبارات علـى مدى لا يقل عن ثماني سنوات . وحينمـا فحصت هذه الكميـة الهائلة مـن الاحصائيـات بعناية ، اكتشفت نتيجـة عجيبة . فحينمـا تعرض الناس للاختبار في البدايـة ، كانت الارقام التي يسجلونهـا دائمـا مرتفعة بالنسبة لـ« الفرصة » المتاحة ارتفاعا كبيرا . وفي الجولة الثانية كانت ارقامهم تنخفض بشكل جذري، ثم انخفضت بشكل اكبـر في الجولة الثالثة . وبكلمات اخرى ، فان العقل كـان يستطيع بشكل اكبر ان يؤثر على رمية الزهر حينمـا يكـون منتعشا قبـل ان يتملكـه الضجر ..

قد يبدو في البداية ان نتائج راين تناقض ما قلته : انه يمكن ان تنمي تلك القوى وان تطور بشكل عمدي مقصود . ولكن الشيء الذي تثبتـه الاختبارات بالفعل هو انه حينمـا يكون العقل منتعشا ـ اي كامل اليقظة متنبه الاهتمام ـ فان قواه تكـون كبيرة . ولكن التكرار يفل من هذه القوى ويوهنهـا . ولكن ، ما هـو الضجر ؟ انـه نوع من تثبيط الهمة او انتزاع الشجاعة ، اضمحلال فـي الارادة راجـع الى احساس بأن .. « المسألة لا تستحق كل هذا .. » . ومـا تظهره نتائج رايـن بوضوح هو ان قدرات الانسان النفسية تكـون عنـد اقصى امكانياتهـا حينمـا تستثار ارادتـه ، ثم تخبـو بشكـل جذري حينمـا تضمحـل ..

... وفي الحضارة الحديثة، ينغمس اكثر الناس في أعمال روتينية مضجرة، نادرا ما تستفز الارادة ، وهي بالتأكيـد لا تستثير الخيال . والنتيجة حتميـة لا يمكـن تجنبها . اننا شبه طائرة ذات اربعـة محركات ، ولكنهـا تطير بمحرك واحد . وقوانا النفسيـة الطبيعية تنضب تقريبا حتى النهاية .

ولكن هذه الملاحظـة اقل كآبة في الحقيقة مما تبدو . ذلك اننا لا بـد ان

(*) الناجون ، صنداي تايمز ، ٢٦ ابريل ، ١٩٧٠ .

نسأل عما يؤدي بالفعل الى ذلك الاضمحلال الهائل في قوانا ؟ الضجر ، والميل الى الهزيمة . ولكن ما هو الميل الى الهزيمة ؟ انه اساسا حالة عقلية يفرضها الجهل: وهنا يتذكر المرء قصة الرجل الذي ظل طيلة الليل متشبثا باطراف اصابعه على حافة هوة صخرية ، ولما اشرق النهار تبين ان الارض كانت تبعد عن قدميه ثلاثة اقدام فحسب . لقد اختفى الخوف تماما حالما تمكن من الرؤية بوضوح . وفي حالة الكائنات البشرية ، فان الميل الى الهزيمة راجع الى ذلك الانفصال عن اصولنا اللاواعية . اننا « مفروزون » في الوحي ، كالسفن اذ تجنح فتنغرز الرمال . ضع رجلا في حجرة مطبقة الظلام والصمت ، وسوف يجن في خلال ايام قليلة ، او انه على الاقل سيعاني من توتر عقلي بالغ . لماذا ؟ .. لان الارادة تنهار حينما يصيبها العمى ، والانهيار اكبر الى درجة لا يمكن قياسها بالنسبة للسبب الذي ادى اليه . فيان قليلا من الضجر يؤدي الى تفكك معنوي كامل .

ولكن كلما زادت معرفة الانسان بكيفية تسليط ضوء كشاف باهر على اعماقه البعيدة ، كلما زادت قدرته على فهم قوته الفعلية ، وكلما قل استعداده لذلك الانهيار المؤلم . ومرة اخرى ، لا بد لنا ان نعترف بان اكثر احتياجاته الحاحا في هذه المرحلة من مراحل التطور ، هي بعث قدراته النفسية النائمة واعادتها الى الحياة .

وفي هذا الصدد ، كان الانسان البدائي يتمتع بميزة عظيمة واحدة تميزه عن الانسان الحديث : كان يعرف انه يمتلك تلك القوى . ولذلك ، فانه حينما كان يريد ان يطورها ، فقدكانت المشكلة ببساطة هي مسالة افضل الطرق الممكنة لتطويرها . فلا بد للبصيرة ان تأتي اولا ، ثم يأتي اسلوب تطويرها .

واريد فيما تبقى من هذا الفصل ان ادرس كلا من هذين الجانبين ــ البصيرة والاسلوب ــ عن قرب اكثر .

لا بد ان يكون مفهوما ــ قبل كل شيء ــ انه ليس هناك فرق اساسي بين التجارب « الصوفية » وبين التجارب التي تنتمي الى عالم السحر او علوم الغيب. ولان وعي الانسان قد تنامى وتطور بسرعة بالغة ، فانه قد فقد الاتصال مع هويته الحقيقية . وحينما يكون ضغطه الداخلي منخفضا ــ حينما يكون في حالة من الضجر او انعدام الهدف ــ فانه لا يكون مدركا الا لاكثر مستويات هويته سطحية وقربا . وكلما ازداد عمق احساسه كلما ازداد ما يدركه من نفسه . وهذا هو السبب الذي جعل ييتس يقول :

حينما .. يقاتل انسان بجنون ،
يسقط شيء من عيون طال بها العمى ،

انه يستكمل عقله الناقص ،
يقف لبرهة مستريحا ،
يجلجل بالضحك ، وفي قلبه السلام ..

ان السطر الهام هنا هو : « انه يستكمل عقله الناقص » .

ولقد حددت المشكلة الجوهرية للبشر بوضوح جميل في كلمات « ل . هـ . مايرز » في بداية روايته « القريب والبعيد » . يقف الامير الشاب جالي عند مشارف قصر كان قد سافر طيلة النهار لكي يبلغه ، فينظر الى مشهد الغروب على الصحراء . وبينما يتأمل المشهد ، يفكر بينه وبين نفسه قائلا : « لقد كانت هناك صحراوان : تلك التي كانت متعة وانبهارا للعين ، والاخرى التي كان من المجهد ان نجتازها على الاقدام . ويبحث في اعماق قلبه عن الايمان بانه قد يحدث في يوم ما ان يلتقي القريب والبعيد . اجل ، لا بد ذات يوم ان يمتلك ما يكفي من طول النفس واتساع الخطو والقوة لكي يحقق وعد الافق بالوصول . وعد الافق – تلك هي المشكلة ، ليس فقط بالنسبة للشعراء والمتصوفين ، بل بالنسبة لكل انسان . ومشكلتنا هي ان علينا ان نعيش مع « الواقع » القائم على الدوام تحت انوفنا ، مثل ثور يحرك المصارع على الدوام قطيفته الحمراء تحت عينيه ، فلا يسمح له بأن يرى شيئا ابعد من بضع اقدام . وليس من الحق تماما ان نقول اننا واقعون على الدوام في فخ الحاضر القائم ، لاننا نحصل دائما على « مسافات التنفس » ، تلك اللحظات التي يبدو فيها القلب كما لو كان يتمدد بالراحة والبهجة .

ولكن المناقض الشاذ هو العجز الغريب للوعي عن المحافظة على هذه البصيرة او هذا الاستبصار . ان الامر ليبدو كما لو كان هناك عنصر بسيط مفقود وأنه هو الذي يترك الوعي لكي يصبح باليا مهترئا مرتبكا ومتخبطا .. حينما يتعطل الوعي الانساني بوقوعه في حالة الحياد ، يضيق ويفقد كل احساس بالقيم . وحينما يحدث هذا ، يكف الانسان عن التطاول الى الخارج ، وعن ممارسة الرغبة في الامتداد ، ويخبو الاحساس بالجدوى . وحينما يحدث هذا يصبح اي نوع من الانكار والغباء ممكنا . وقد يمكن القول بان الفارق الاساسي بين الانسان العبقري وبين الانسان العادي ، هو ان العبقري يمتلك قدرة اعظم على التركيز بثبات على قيمه الحقيقية ، بينما يفقد الانسان العادي دائما رؤيته لاهدافه ولما يرمي اليه ، متغيرا متحولا من ساعة الى ساعة ، بل يكاد يتغير من دقيقة الى دقيقة ، والمجرم هو الانسان الذي امتدت عملية استلاب القيم هذه عنده الى مدى اكثر بعدا .

لماذا انفق كل هذا الوقت الكثير في التاكيد على « عدم كفاية » الوعي الانساني ؟ لانه اذا ما تم فهم هذا ، لامكن لنا ان نلمح المكانيات وجود نوع كفؤ

وصالح من الوعي. ولقد كـان المتصوفة العظام والقديسون واصحاب الحـدس والبصيرة في الماضي ، كانوا ببسـاطـة رجالا تحققوا مـن وجـــود بعض تلك الامكانيات . ولكنهم كانوا يجاهدون نحوها اعتمادا على الفريزة وحـدها ، وسط نوع مما يشبه الظلمة المحيطة بالحدس ، مثل رجال يحاولون ان يكتشفوا طريقهم وسط الضباب . اما الانسان الحديث فيمتلـك امكانية فهم الكيفية التي يعمل بها الوعي ، فيسير مباشرة نحو هدفه ، وقد توترت الارادة الى اقصى حدودكفاءتها.

ليست مشكلـة الانسان هي عجزه عن تحقيق ذلك النوع من الوعي الضروري لتحقيق اقصى استخدام ممكـن لقدراته ، وانمـا هي عدم ادراكـــه لما يمكن أن يتحقق عن طريق مثل ذلك التركيز. ويؤدي هذا الاكتشاف الـى صياغة فكـرة ذات اهمية محورية : ان النزوع الى معرفة الغيب ليس محاولة لازاحـة الستار عن المجهول ، وانمـا هو محاولة لازاحة ستار العاديـة والابتذال اللذين نسميهما: الحاضر القائم .

ان الطريقة الاساسية للقيام بهذا العمل بسيطـة للغاية . انني بشكل طبيعي « مغلول الى نفسي » . فاذا لـم يكـن ما افعله بشكل خاص ، فانني ببساطة قد اترك عقلي لكي يضل دون هدى : فيفكر في اشاعة مـا ، او يحاول ان يتذكـــر كلمـات اغنيـــة شائعـة ما ، وقد استغرق في مشكلـة مـا او في بعض الاحزان، او في برنامج ما رايته في التليفزيون في الليلة السابقة . انني « اختار » مـــا استخدم وعيي فيه . ويمكنك القول بان الوعي يشبه الصندوق ، وانني الذي يقرر مـا يضعـه فـي الصنـدوق .

فلنفترض انني اقوم بجولة في منطقة البحيرات . وتقع عيناي على منظـر مؤثر ، ولكنني سأراه من خلال غلالة من نوع معين ــ غلالة تصنعها ذاتي ومشاغلي الصغيرة السابقـة . انـني اسمح للمنظر بأن يرتبط بـ « ذبـذبـات » عاديـــة لا شـأن لهـــا .

ولكن فكروا فيمـا يحدث لو ان المنظر الذي انظر اليه قد تصادف وارتبط بنوع من الذبذبات اكثر عمقا . مثلا ، لو انني كنت انظر الى المروج الخضراء حول « هاووريث بارسوناج » فجعلتني افكر في روايـة « مرتفعات وذرنج » ومأسـاة فتيـات « برونتي » الثلاث (١) . ما الذي يحدث وانا اشعـر بالذبذبة المفاجئـــة

---

(١) فتيات برونتي الثلاث : يقصد آن وشارلوت واميلي برونتي ، الشقيقات الاديبـات الثلاث اللواتي اشتهرن باعمالهن الروائية المنفردة او المشتركة في الحركة الرومانتيكيـة الواقعيـة الانجليزية فـي القرن الماضي ، واتخذن اسم « بل » فصدرت اعمالهن باسماء : آكتون وكيور واليس بل ،علـى التوالي . اشتهرت من اعمالهن « مرتفعات وذرنج » لاميلي ، بتعبيرها الملتهب وعواطفهــا الجامحة واخلاقياتهـا المتحـررة سلوكيـا الملتزمة فكريـا ، واشتهـرت ايضا روايـة شارلوت « جيـن اير » برومانتيكيتها الميلودرامية الرقيقـــة . (هـ . م .) .

للجدية ؟ ان مـا يحدث ببساطـة هو انني انقذ من نظرتي الشخصية ، القريبة ،الى الحياة ، النظرة الشبيهـة بنظرة عين الدودة . اتذكـر ان الحياة اضخم ، واكثر اثارة ، واكثر اهميـة ، واكثر مأساوية ، مما كنت اراها . او بالاحرى انني كنت « اعرف » هذا طول الوقت ، ولكنني كنت اسمح لنفسي بأن انساها .

وتقوم كل انواع الفنون بعملهـا بهذه الطريقـة ـ بأن تنقذنا من التفاهـة التـي نختارهـا لانفسنا بأنفسنا ، وهي التفاهة التي نحن على استعداد لها الى حد كبير . انـه مثل نغمة عميقـة يعزفها الارغن فتجعل شعري يقف وتسري الرعدة في كل جسدي . انني « اتراجع » عن الحياة ، مثل آلة التصوير السينمائي اذ تسجل لقطة بعيدة بعدسة ذات زوايـا عريضة . انني ـ ببسـاطة تمامـا ـ اصبح مدركـا بوجود حقيقة اكثر واكبر مما كنت اعرف من قبل .

من الواضح انني استطيع اما ان اقاوم ميلي الخاص للغرق في التفاهة ،او ان اتقبله كشيء بديهـي مسلم به . ان مـا يدعـوه شـو بفتـرة « اليقظـة الاخلاقية » ـ التي تطرا على حياة اكثر الاذكياء المثقفين في بداية مراهقتهم ، بل وقبل هذا احيانا ـ انما هي مجهود عمدي مقصود للتخلص من تفاهـة الطفولـة ولتركيز العقل على مسائل من نوع اعظم : الفن ، او العلـم ، او المـوسيقى ، او الاكتشـاف .

ومع « ذبذبة الجدية » يأتي نوع من « التصلب » الداخلي ، كما لو ان حبلا متدليـا مرتخيـا قـدعلق فيه فجـأة ثقل ضخـم .

وقد يحدث هذا « التصلب » من خلال جهد معين تبذله الارادة او يبذلـه الخيال ، وقد يحدث بشكل تلقائي ـ اي دون اي جهد واع ظاهـر (كالاستثـارة الجنسيـة ، على سبيل المثال)

ولا بد ان نؤكـد ان هذا التصلب الداخلي ، « ذبذبة الجدية » هو هدف كل النظم الغيبيـة والصوفيـة والدينية ، لانه حينمـا يحدث ، فان الانسان يشعر بتزايـد احساسه بالقوة . . على الانسان ان يتخلص من فخ قيمه الضيقةالخاصة، وان يبقى متفتحـا للقيم الاكبر والاعظم من ذاته . ذلك ان الغاية من وجود البشر هو أن « يتصلوا »بقيم خارج ذواتهم ، وان يصبحوا غير مدركيـن لذواتهـم باعتبارهـا « شخصيـات » .

والآن وقد حددنـا هدف البحث وموضوعه ، فان السؤال الثاني سيكـون عن الاسلوب .

فاذا كانت مشكلة الانسان الكبرى هي نوع من التشتت والميل الـى صنـع الجبال من الهباء المتناثر ، فمن الواضح ان الحل لا بد ان يكمن في مجال التركيز.

ولقد كان هذا على الدوام هو النظام الديني الجوهري . ولكن ، هنا تكمن نقطة هامة لا بد من ادراكها . ان التركيز يشبه بالتحديد عملية تعلم الرياضيات والحساب في المدرسة : انها « قد » تكون تمرينا منفرا الى درجة كبيره لا يثير شيئا سوى المشاعر او العواطف السلبية . فاذا كنت اكره الرياضيات ، فيكاد يكون السبب اليقيني لذلك هو ان تعليمي كان بطريقة رديئة ، ولان لدي نوعا من المقاومة الداخلية للموضوع ..

ولا بد ايضا ان يكون التركيز تمرينا ممتعا بشكل كامل ، فلا يطلب الا لمجرد ما يكمن فيه من بهجة خالصة . ذلك لانه حينما يمارس بشكل صحيح ، فانه يحدث حركة ارتجاعية مباشرة وفورية نحو البهجة ، اي نفس ذلك الاحساس بالحيوية المتزايدة التي يشعر بها الانسان في النشوة الجنسية ، او حينما يتم التغلب فجأة على ازمة معينة .

ان ما لا بد من ادراكه هنا هو « هدف » التركيز . لنفكر في المشهد الافتتاحي من « فاوست »، حيث كان فاوست قد دفع نفسه الى حالة من الهزيمة واليأس ، والسبب في هذه الحالة واضح : كان تفكيره قد اصبح قاحلا مجدبا لا هدف منه ولا غاية يسعى اليها ، وكان قد غرق في حالة من هبوط الحيوية حيث لا يؤدي المزيد من الجهد الى فعل ارتجاعي ما . وحينما يكون على وشك الانتحار ، تدق اجراس عيد الفصح فجاة لكي تذكره بطفولته بوضوح و« تدعوه للعودة الى الحياة » . ويتذكر حينما كان : « حب السماء يندفع نحوي مثل القبلة » ويقول :

اشتياق حلو لا يمكن ادراكه
كان يدفعني الى التجول عبر الغابات والحقول ،
وبالف دمعة محترقة ،
شعرت بعالم ينهض داخلي .

لقد عاد الى الاتصال بالحقيقة الخارجية ، كان قد شق طريقه خارجا من الفقاعة الزجاجية التي كانت تحيط به .

من الممكن ان نرى على الفور انه اذا كان فاوست قد قرر ان يتخلص من يأسه الخانق عن طريق مجهود من التركيز ، لكان السؤال الحاسم هو البحث عما ركز « عليه » . لقد وجهت اجراس عيد الفصح جهوده مباشرة الى « الواقع » . ودون هذه الاجراس ، لكان قد بذل مجهودا هائلا لكي يجهد نفسه فحسب . ولو ان مسافرا كان يموت من العطش في احدى الصحاري ، لكان من المهم ان يوجه كل ما تبقى له من الطاقة نحو اقرب واحة من مكانه .

وقد كتب ت .س. اليوت فقرة مشابهة في القسم السادس من قصيدة « اربعاء الرماد » بعد ان يصف الاجهاد والركود ، فيقول :

... ورغم انني لا ارغب في ان ارغب تلك الاشياء
فمن النافذة العريضة صوب الشاطيء الجرانيتي
الاشرعة البيضاء ما تزال تطير صوب البحر ، صوب البحر طائرة
اجنحة غير منكسرة

والقلب الضائع يتصلب ويبتهج
في زهرات الليلك الضائعة واصوات البحر الضائعة
والروح الضعيفة تسرع الى التمرد
بسبب العصا الذهبية المحنية ورائحة البحر الضائعة ..

هنا نجد مرة اخرى تجربة اجراس عيد الفصح ، ولكنها تستثار فيهذه الحالة بواسطة رائحة البحر والعصا الذهبية ، ودفقة البهجة والقوة التي عبر عنها الشاعر في : « الاجنحة غير المتكسرة » .

ان هذه القدرة على ايقاظ تلك النشوة الخالصة موجودة لدينا طول الوقت ، ولكننا نحتاج الى فهمها قبل ان يمكن السيطرة عليها . ان دفقة القوة التي تجعل « القلب الضائع يتصلب » انما هي قوة تقفز الى الخارج لكي «تقابل» الاحساس بالواقع .

ومن الممكن ان تتحقق نفس هذه اللمحة من خلال الازمة . ان قسيس جراهام جرين السكير في رواية « القوة والمجد » لا يجرب اليقين الكامل الا حينما يكون على وشك ان يقف امام فصيلة الاعدام لكي يطلق عليه الرصاص . حينذاك يتبين فجأة :« انه كان من السهل عليه تماما ان يصبح قديسا » و .. « شعر كما يشعر شخص تأخر ثواني معدودة ففاتته السعادة » . تماما . ان الامر يكاد يكون مضحكا . اننا ننفق حياتنا في التحديق في اشياء بالغة القرب حتى اننا نفشل ببساطة في ادراك معانيها الواضحة . يجرنا الى اسفل نوع من الكسل . ليس ما يدعو الى العجلة . ثمة وقت كثير ، انت، يا من تقرأالآن هذه الكلمات : هذا هو شعورك بالتحديد . هناك الغد ، واليوم الذي يليه . ولكن حاول ان تركز على ما حدث للقسيس السكير في مواجهة فصيلة الاعدام ، انه يعرف ، من خلال صدمة مرعبة انه على وشك ان يموت ، الان ، وفيغضون ثوان معدودة . يتمرد كيانه الداخلي . وتتدفقطاقاته مثل موجة مد عاتية . انه يبذل مجهودا جبارا اكثر من كل ما بذله طوال حياته . انه مثل سندباد اذ يرمي عجوز البحر من فوق كتفيه . انه يجرب الحرية ثانية واحدة ، ثم يتبين في يأس انه كان يستطيع ان يبذل هذا المجهود في اي

من الثواني البليون او نحوها التي عاشها .. لقد اضاع حياته في نوع من الحلم ، اننا جميعا في هذاالموقف،جميع البشر . فاذا امكنك ان تركز بوضوح على هذا الموقف ، لامكنك ان تدرك ما تعنيه الكنيسة بالحديث عن « الخطيئة الاصلية ». اننا ـ انت وانا ـ لاكثر قوة الى غير حد مما ظننا ابدا .

« هذا » هو ما ينبغي ان ينصب عليه التركيز . انه لا يمكن ان يكون اكثر من نوع آخر من الحلم . ومن الممكن ايضا ان يكون محاولة لتفجير فقاعة الحلم .

ولكن ثمة خطر معين في اعتبار حكاية القسيس السكير نقطة انطلاق الى التركيز : خطر النظرة السلبية . ليس هناك ضرر من استخدام الخيال لاستثارة احساس بالالم او الغصة ،اذا كان بوسع الغصة ان تنجح في الوصول الىتفجير الفقاعة ، واقامة الاتصال مع الواقع . ولكنها اذا فشلت ، فانها لن تؤدي الا الى زيادة القلق المكبوت .

.. ان اقامة الاتصال مع الواقع بعد تفجير فقاعة الحلم ، هي تجربة من تجارب الذروة ، التي لا يمكن التوصل اليها الا عن احد طريقين : التعلم عن طريق التكرار دون خوف من فشل المحاولات الاولى حتى تكتشف فجأة انك وصلت في قفزة واحدة ، او قطع الطريق في قفزات متتالية كالومضات ـ بطريقة فاوست ـ ثم الارتداد ثانية حتى تكتشف انك قادر على تحقيق هدفك كلما اردت ذلك .

وهذا ما يفسر جاذبية العقاقير ـ وخاصة تلك المؤثرة على الحالة النفسية ـ لدى الاذكياء . انهم يظنون انه اذا كان من الممكن الوصول الى « تجربة الذروة » كلما شاء المرء ذلك بالعقاقير او المحافظة عليها لمدة نصف ساعة ، فانه قد يكون من الممكن ان نتعلم بسرعة كيف نستعيدها دون استعانة بالعقاقير. ولكن هذا القول يتضمن وهما خاطئا . فان معظم العقاقير تعمل عن طريق تخفيض كفاءة الجهاز العصبي ، مؤدية بذلك الى حالات غير عادية من الوعي على حساب قدرة العقل على التركيز والتعلم . وليس عليك الا ان تحاول ان تتذكر قائمة قصيرة من الكلمات الاجنبية وانت في حالة سكر خفيف لكي تتبين حقيقة ذلك. ان العقل قادر على الامتصاص عادة ،مثل ورقة النشاف ، وحينما تكون تحت تأثير الكحول ، فانه يتحول الى ورقة مصقولة لا قدرة لها على الامتصاص . والعقاقير تقوم بعملها عن طريق احداث شلل مؤقت في مستويات معينة من العقل، مثل المخدر الموضعي ، فتؤدي بهذا الشكل الى خفض طاقتها على الامتصاص . والاسوا من هذا هو انها تؤدي الى كبح عمليات الفعل الارتجاعي . فحينما تشعر اللايدي تشاترلي بارض الحديقة وهي تهتز تحت قدميها وتتأرجح كسطح

البحر ، فان هذا فعل ارتجاعي ناشيء من تركيزها الكثيف على نشاطاتها الجنسية. تركيــز نشوان مائة بالمائة ، يدفع الى اعلى كالنافورة طاقات لاواعية هائلة نابعة من اعماقها . وهذه الطاقات هي ما تستمر في التدفق والانتشار حينمــا تعود الــى بيتهــا . ويصف كتاب « الكابالاه » عمليــة خلق العالم باعتبارها « تركيــزا » كليا وشاملا للطاقــة في نقطة واحدة مضيئة . (وقد كانت عبارة « الدرجة السابعــة مــن التركيز » التي استخدمها الكابتن شوتوفر في مسرحية شو : « منزل القلوب المحطمــة » مرتبطة بهذه الفكرة من الكابالاه) . اما جميع العقاقير ، دون استثناء فهــي تؤدي الى عكس التركيز ، اي الى استرخاء العقل . وفي حالة تعاطي العقاقير المؤثرة في الحالة النفسية ، فان الجهاز العصبي يتحول الى « الدورة القصيرة » بحيث تكف النبضات العصبيــة عن اتباع مسارهــا الخاص ، وتتبعثر على جانبي هذا المسار ، خالقة سلسلة من « الاحاسيس » ... ولكن ليست لهذه الاحاسيس علاقــة بالتركيز الواضح الصافي على الواقع الذي حققه القسيس السكير .

العقاقير اذن هي اسوا الطرق الممكنة لمحاولة التوصل الــى « الموضوعيــة التأمليــة » . انهــا تزيــد ميل العقل الى تقبل سلبيته الخاصة بدلا من الكفاح ضدهــا . اما اي تجربة من « تجارب الذروة » الاكثر عادية فيمكــن ان تكــون نقطــة انطلاق مثلى . والكثافة الجنسية واحدة من اكثر هذه النقاط قوة ، طالمــا انهــا تؤدي في النهاية الى انفجار مؤقت للبصيرة التي تشبه مــا انتاب فاوست حينمــا سمع صوت اجراس عيد الفصح : انهــا ومضة من القوة التي هي امكانية انسانية طبيعية . وقد اعترف اتباع مذهب « تانترا » (1) في التيبت والهند بهذا،

---

(1) تانترا Tantra ـ من الديانات الهنديــة القديمة (قبل البوذية) وتعتبر اخر مراحل الديانة البراهمانية ، وقد تجسدت في النصوص السنسكريتية المعروفة باسم « الآجما » . كانــت البراهمانية تقول ان « براهمــان » هو خالق الوجود بالارادة ، وهــو ايضــا الوجود كلــه بعــد ان تجسد فــي مظاهر الكون، حيث ان الكون والوعي به كلاهمــا جزء من براهمان ، وحيــث ان الانســان هــو الجزء من « الوعــي » الذي يحاول ان يتشبه ببراهمان . ولكــن في « الآجما » انفصل الوعــي عن الكون، ليصبــح صانعه وحالاً فيه في وقت واحد ، وليصبح « الوعي » هي الصفة الوحيــدة للاله الواحد ، المتجسد في صور عديدة ، اكثرها رقيا ، هي الانسان ، الذي اصبح دوره ان يعي العالم، وان يكتشف بوعيه له ، وفيه ، سعادته ، وان يتحقق ، كتجسيد لبراهمــان نفسه ، فــي صــورة « ساكني » ابن براهمــان وتجسيده الكلي الوحيد . والوعي هنا ، في تانترا ، يعني القدرة عــلى الخروج من اطار الزمن (سانسارا) دون الوصول الى الابدية ولا الامتــزاج بالكــون (نيرفانا) . وبالخروج من اطار الزمن في «تانترا» يتم التخلص من عذاباته وآثاره المميتــــة ، دون تجاهلها ولا التوقف عن الوعي بها . ومن هنــا ياتي اللقاء بيــن تانترا والبوذية من ناحية ، وتلتي من ناحية اخرى محاولة البراهمانية الناجحــة لطرد البوذيــة ، والتانتريــة ايضا ـ من الهند خوفا مــن تاثيرهمــا الاجتماعــي . (هـ . م .) .

وهم الذيـن استخدموا النشوة الجنسية عن وعي وقصد من اجل خلق اعتيـــاد نمطي جديد على الكشافة الآن . هذا هو ما تؤدي اليه النشوة الجنسية) . وقـد حدث في سنوات احدث عهدا ان انغمس صانع حديد الماني يدعى كارل كياز فـي ممارســة اليوجا على طريقــة تانترا ، ولدى عودته اسس « جماعـة فرسان المعبد الشرقيين » في المانيا عام ١٩٠٢ . وقد تأسست هذه الجماعـة كليـة على اساس « السر » القائل بأن النشوة الجنسية يمكن ان تستخدم كطريق مبـاشر يحقــق البشر من خلاله مستويات جديدة من القــوة ...

اسمحوا لي بعد هــذا ان الخص نتائج هذا الفصل .

رغم ان علم القرن التاسع عشر قد اطلق على نفسه صفة : « الراي الشائع المنظم « Organised Cammon Sense » فانه كان في الحقيفة قائما على منهج ديكارت في الشك في كل شيء يمكــن الشك فيه ، على امل ان يكون ما تبقى بعـد الشـك هو « الحقيقة » . وقرر هذا العلم ان يقوم بواجبه مستغنيا عــن مفاهيم الارادة والهدف . وفي ذلك الوقت ، لم يصنع هذا المنهج فارقا كبيـرا بالنسبة لعلــوم الطبيعيــات والاحياء ولا حتى بالنسبة لعلم النفس . ولكنه بدا في عصرنا يؤدي الى فارق هام . ولقد حاولت ان الخص رايـا علميا في الحياة لا يستبعد الارادة ولا الهــدف .

وقد سبق ان لخص هذا الراي في الانسان في كتابات ف . و . هـ مايرز ، احد مؤسسي « جمعية البحوث النفسانية » قرب نهايــة القرن التاسع عشر . وقد ظــن مايرز انه من الممكــن ان يعتبر الوعي نوعا من الطيف الضوئي . وفي وسط هذا الطيف الضوئي توجد القوى التي نعرفها ــ النظر والسمع واللمس ومـا الــى ذلك . وتحت الطرف الاحمر من الطيف توجد العمليات العضوية التــي « نسيطر عليهــا بشكل ما دون ان نكون واعيــن باننــا نفعل ذلك ــ مثل الديدان المجهرية التي تنقــل « قنابل » الهيدرا الى جلدها الخارجي . ولكن توجــد فيمــا وراء الطرف البنفسجي للطيف قوى من نوع اخر ، نكاد نجهلها تمامــا ونجهل عنهــــا كــل شــيء .

وبنفس الشكل ، اقترح الدوس هكسلي ذات مرة انه اذا كان للعقــــل البشري نوع من «البدروم» او الطابق تحت الارضي حيث ترمى المهملات والقاذورات والنفايات ، وهو العالم الفرويدي المكون من الغريزة والرغبات المكبوتة ــ فلماذا لا ينبغي ان يكون لــه « دور علوي » او « سقيفة » ايضا : « وعــي اسمى » يقــوم بموازنــة « اللاوعــي » ؟.

ان القدرات الكامنة في « اللاوعي » تقع في متناول الارادة الانسانية بالفعل ، بشرط ان تكــون هذه الارادة منقشعة وحية . ولكن حالما تسيطر العادة ــ او مــا

دعوته من قبل باسم « الروبوط » او الانسان الآلي ـ فان هذه القـــوى تخبو وتضمحل . وبنفس الطريقة ،فان السلبيـــة العامة ، او الميل الى الهزيمـــة او الاكتئاب والانقباض سوف تثلم حدة هذه القوى وتفلها ، تماما مثلمـا تثلم القوى الموجودة عند الطرف الاسفل من « الطيف » وتفلها . (وفي احدى الحـــالات المرضيـــة التي قام « مازلو » بعلاجها تملـك الضجر المريضة بسبب عملهاالروتيني المنتظـم حتى انهـا كفت عن الحيض) .

ان كل النظم او الانسقة التي تهدف الى زيادة الانتفاع بتلك القـوى تعتمـد على مستوى مرتفع من التفاؤل وقوة الارادة .

وهذا مـا يعيدني ثانيـة الى الفرض الذي اؤكده منذ البداية ، والقائل بان العلم ـ او النسق المعرفي ـ الذي لا يتضمـن مكانا للارادة او للهدف انما هـو عقبة تعوق التطور الانساني ، وهـو في هذه النقطـة بالذات من التاريخ ، يعـد عنصرا خطيـر الضرر .

- ٢ -

سحــر الانسان البــدائــي

يطرح عالم الاجناس البشرية ايفار ليسنر في كتابه « الانسان والله والسحر » فكرة شاملــة تقول : ان اسلافنــا البدائيين قد اعتقدوا بوجود اله واحــد ، ثــم انحطوا بالتدريج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها وتحولوا الــى عباد لآلهــة متعددة » . وهو يقيم الحجة على ذلك معتمدا على رسوم الكهوف التي تبدو كما لو كانت تصور عملية تقديم قرابين من الدببــة والظباء الجبلية . ومــن المؤكــد ان اهتمام الانسان البدائي بالدببة ما زال واحدا من الاسرار الغامضة في تاريخ العقائد الانسانية . كانت تلــك الدببة ضخمة وبالغة الخطر ، ذات قوة هائلة ومخالب كالشفرات ، ورغم احجامهــا الضخمة فقد كانت ذات سرعــة لا تصدق. وقد اعتقدت شعوب بدائيــة كثيرة ، من هنود امريكا الشمالية الى قبائــل الاينو الحديثة في اليابان الى قبائل الاورشون في سيبريا الشمالية بان الدب يمتلــك قدرات غير طبيعية ، ومن الممكــن عند تقديمه قربانا ان يبعث رسولا الى الآلهة. وكــان الدب واحدا من اخطر المخلوقات في العالم القديم ، ومع ذلك فان انســان النياندرتال (١) خرج وراءه لكي يصطاده حينمــا كانت هنــاك دوافـــع اخــرى كثيرة . ويبدو ان الشكوك في وجود مغزى ديني او سحري في عمليــات صيــد

(١) انسان النياندرتال : فصيلة بشريــة عاشت في العصر البليوستوسيني الاوسط وانقرضت . وجدت بقاياهــا العظميــة (الفخذين والذراعين والجمجمة والاسنان) في وادي نياندرتال قرب بون بالمانيــا ، وعثر على صناعاتهــا الحجريــة (اسلحــة مشطوفــة على وجه واحد من الصوان) فــي وادي دوردوني بالقرب من بلدة مويستير في فرنسا ، واليهــا نسب « العصر الحجري الموستري »او « الصناعــة الموسترية ». ويفترض ان انســان نياندرتال جاء الى اوروبا من اواسط آسيا وانقرض بعد نحو خمسين الف سنة في العصر الجليدي الاخير . (هـ . م) .

الدببة قد تأكدت باكتشاف كهف في « دراخيناوخ » بسويسرا ، امتلأ بجماجم الدببة التي يبدو انها كانت تقدم كقرابين في بعض الطقوس . وقد تمت كشوف مشابهة في كهوف اخرى بعيدة ، فعثر على جماجم الدببة موضوعة على مذابح خاصة ، بل موضوعة احيانا على نحت خشن يمثل جسدا لدب دون راس . وهذا دليل لا شك فيه ،في ان انسان النياندرتال ـ منذ ما يتراوح بين سبعين الف الى ثمانين الف سنة ـ كان لهدين . انها فكرة تبعث على الدهشة . لقد عاشت هذه المخلوقات في كهوف ، وكانوا رحالة غير مستقرين . وكانوا يعرفون النار ، وكان بوسعهم ان يصنعوا حرابا باحراق طرف عصا قوية حتى تصبح ذات سنان حاد ، والا لما كانت لهم فنون ولا ثقافة . وينتمي في الكهوف والنحت البدائي الى عصر الخلف المجدلاني لانسان النياندرتال ، وهو انسان « كرومانيون » (*) . ولقد عاش انسان النياندرتال حياة شاقة عنيفة ، فاذا حكمنا على ما نراه من بقاياه ، لاكتشفنا ان اكثر ابنائه ماتوا صغار السن . ومع ذلك فقد عبدوا آلها وقدموا اليه القرابين .

ويزعم ليسنر ان البشر البدائيين كانوا « موحدين » ويقيم زعمه على اساس من نوع تضحياتهم . ويقول ليسنر ، ان قبائل التونجوس في هذا العصر لا يقدمون قرابينهم بهذه الطريقة لان لكل تل وبحيرة روحا خاصة ، ومن الممكن لجثة الذبيحة ان تغضب اله البحيرة . وربما هجر الانسان هذا الشكل من اشكال التضحية عن طريق نسيانه ،حينما بدا يؤمن بان هناك الها للغابة ، والها للجبال والها للمياه او للبحار . فكيف حدث هذا التغيير ؟ من خلال النفوذ المتزايد للسحر والسحرة .

اننا نعرف ان فن انسان « كرومانيون » ،بصورته التي عثرنا عليه بها في كهوف لاسكو او مونتسبان او التأميرا ، لم يكن « فنا » بمفهومنا الحديث ، وانما كان جزءا من طقس سحري ما زالت الشعوب البدائية تمارسه حتى اليوم . فيقوم ابناء قبائل البيجمي في الكونغو برسم صورة الحيوان الذي يريدون صيده على الرمال ، ثم يطلقون سهما على حلقه ، وينحت ابناء قبائل التونجو

(*) انسان كرومانيون : فصيلة بشرية ، يظن انها من اسلاف فصيلة الانسان الحالي ولم تنقرض وعثر على بقاياها في الطبقة التي تعلو مباشرة طبقة التربة التي عثر فيها على «الصناعة الموستيرية » في دوردوني في كهف كرومانيون بفرنسا عام ١٨٦٨ . ويفترض انها عاشت جنبا الى جنب ، وتصارعت مع انسان النياندرتال ، ولكنها صمدت للعصر الجليدي ولم تنقرض بسببه مثلما حدث لفصيلة النياندرتال . يعتقد بعض الانثروبولوجيين ان سلالاتها موجودة الى الآن ضمن بعض الشعوب الاوروبية المتاخرة . (هـ . م) .

الحيوان الذي يريدون صيده في الخشب ،ويصنع ابناء قبائل الينيسي سمكة خشبية قبل ان يخرجوا لصيد السمك ،وهكذا . ويترك ابناء قبائل البيجمي صورة صيدهم ، والسهم مفروس في حلقها حتى يصطادوا الحيوان ، ثم يحكون الصورة بشيء من دم الحيوان قبل ان يسحبوا السهم المفروس . وهم يؤمنون بان هذا العمل يقيم ارتباطا غامضا من نوع ما بين الصياد وصيده ، فلا يستطيع الحيوان الهرب . ومهما كانت سرعة جري الصيد ، او مكان اختبائه ، فان الصياد سوف يتجه صوبه دون خطأ، يقوده ويرشده نوع من القدر . ان قدر الحيوان هو أن يكون صيدا له وغنيمة .

الموقف العلمي ازاء تلك الاعمال هو اعتبارها خرافات بدائية ، ومجرد علامة على الجهل بالسبب والنتيجة . فاذا تصادف ونجحت ، فليس هذا الا لانها تخلق احساسا بالنجاح لدى الصياد . انها نوع من التنويم المغناطيسي الذاتي . وانا اريد القول بان هذا الراي قد يخطىء الهدف تماما . ان عقل الصياد يصبح « مركزا تركيزا كليا » على صيده من خلال الطقس ، منشطا بذلك نفس القوى التي دفعت الاشخاص الذين اجرى عليهم راين تجاربه التي انتهت الى تسجيل تلك الارقام المرتفعة حينما كانوا يحاولون ــ للمرة الاولى ــ التأثير على رمية الزهر .

ان ما اطرحه هنا ، وما سأطرحه طوال هذا الكتاب كله ، هو انه حينما ينتاب الانسان احساس قوي ب «قيمة» شيء ما ، فانه ينشط « قواه » ويستثيرها، تلك القوى الكامنة فيما وراء الطرف البنفسجي لطيفه الضوئي العقلي . لقد تطور الانسان الى المرحلة الحالية عن طريق تعلم القيام بأشياء كثيرة بطريقة آلية: انه يتعلم مهارة صعبة معينة عن طريق مجهود واع ، ثم يمرر ما تعلمه ويسلمه الى « جهازه الآلي » اللاواعي الذي يتعلم كيف يقوم بهذه المهارة بكفاءة وبطريقة آلية ــ مثل ركوب الدراجة أو التحدث بلغة اجنبية . ولكن القيام باداء شيء بطريقة آلية يعني انك لا تحتاج الى ان « تركز » عليه . وقد عنى تزايد استخدام الانسان لجهازه الآلي اطراد تضاؤل استخدامه لموهبة التركيز الكثيف . وهذا ما يوضح سبب ميل الانسان الحديث الى رفض الايمان بما يملكه من « قوى » كامنة فيما وراء الطرف البنفسجي للطيف الضوئي . فانه نادرا ما يستخدمها

ومع ذلك فان تلك القوى تعمل حينما يمس احساس الانسان الجديث بالقيم مسا عميقا ــ اي حينما يشعر حقا بالقلق على شيء ما والاهتمام الحقيقي به. فان غرض تلك القوى ــ في نهاية الامر ــ هو نفس الغرض الذي ترمي اليه كل القوى الاخرى : وهو دفع الحياة الى التحرك بهدوء ونعومة ، وتجنب الكارثة ..

ولم يكن السحر البدائي شيئا اكثر من استخدام تلك القوى ، لقد كان باكثر المعاني اساسية وثباتا : « سحرا تعاطفيا » . ويؤكد ليسنر ان « شامانات » سيبريا (وهي المنطقةالتي نبعت منها الكلمة اصلا) لم يكونوا « اطباء سحرة » ولا ساحرات ، وانما كانوا شيئا أقرب الى الوسطاء . ان كلمة « سامبرابي » باللغة المنشورية ، تعني « ان يستثير المرء نفسه » ، بينما تعنى كلمة « سام ـ دامبن » ،الرقص . والشامان ، يستثير نفسه حتى يصل الى حالة من التهوس المقدس او النشوة عن طريق دق الطبول والرقص ، حتى يصل الى الاغماء الذي يفترض فيه ان روح الرجل قد فارقت جسده . وفي اغماءته تصدر عنه اصوات مختلف الطيور والحيوانات . ويفترض فيه انه قادر على فهم لغتها . ويصفعالم تاريخ العقائد ، ميركا افياد ، الشامانات ، بأنهم « متخصصون في النشوة » ويورد قائمة مدهشة بالمنجزات التي تقع في متناول قدراتهم ، تتضمن قراءة الافكار ، والعرافة ،والسير على النار،واكتشافاللصوص بالاستعانة بمرآة .ويورد ليسنر وصفا تفصيليا لاحتفال شعائري لاحدى القبائل ، يتضمن الرقص الفردي والجماعي على دقات الطبول ، ومشاركة المتفرجين للراقصين بالتصفيق والانشاد ،ويندمج الجميع في حالة بعيدة تماما عن حياتهم اليومية ، ويختتم ليسنر وصفه قائلا : « تتصاعد الثورة والهياج ، متنقلة بسرعة ، كالشرارة ،من شخص الى من يليه ، حتى يقترب الجميعمن النشوة ،ويصبح كل واحد في نفس الوقت مؤديا ومتفرجا، طبيبا ومريضا ،سنـدانا ومطرقة » (*)

ويضيف ليسنر:« ولا استطيعالا ان اؤكد ماسبق ان اكده شيروكوجوروف، من ان اولئك المجتمعين حول احد الشامانات ، انما يجربون نوعا من الاشباع اكثر عمقا الى غير حد مما نشعر به نحن بعد حضورنا عرضا موسيقيا او مسرحيا » . وهذا تعليق مثيرللاهتمام . لاننا قد نسأل عن هدف الموسيقى ـ بعد كل شيء ، وما هو هدف كل الفنون ؟ انه محاولة لمواجهة تأثير « الروبوط »، الذي يمكن اننسميه« عملية التشتت » طالما انه عكس التركيز ونقيضه . ان للبشر ذلك الميل القوي للانسياق الى حالة من « اللامبالاة » فيهدرون بذلك ،الوعي الذي كان من الممكن ان يستخدم استخداما ثمينا . واللامبالاة تشبه الغرق في النوم ، ففي هذه الحالة ،يكون احساسي بالقيم « قد » غرق في النوم حقا. وتقوم اي ازمة او اي نوع من التحدي بوظيفة الساعة المنبهة ، لكي تهزني فتخرجني من حالة الضجر والتجمد . ولكنني اذا اصغيت بتركيز شامل الىاحدى سوناتات موتزارت للبيانو ، فانني ساحصل على نفس النتيجة . انها تحدد مجرى عواطفي وطاقاتي العقلية وتمنع من حدوث « التشتت » .

(*) الانسان والله والسحر ، ترجمه عن الالمانية ف.ج. ماكسويلبراون جون (لندن ١٩٦١) ص ٢٧٤ .

فاذا كان لعقل الانسان هذا الميل الفطري الى « بخس قيمة » الواقع ، اذن فسيكون بوسعنا على الفور ان ندرك اهمية (أ) مجموعة من المعتقدات التي يؤمن بها الناس بقوة ، اي مجموعة من القيم ، (ب) وذلك النوع من التركيز والاهتمام في الاحتفالات السحرية البدائية . ان القداس في الكنيسة قد يحول مشاعر الشخص الكاثوليكي ، ولكن هذا الشخص سيظل عارفا بان الاحتفال احتفال رمزي فحسب ، وان اي طبيب متخصص في علم الامراض سيشهد ويؤكد ان الخبز والنبيذ لم يتحولا الى لحم ودم . ورغم هذا فان المشاعر والتفكير سوف تتحول لان القداس يركز العقل على « حقيقة » اكثر اهمية مما هو قائم « هنا » و « الآن » ، وهذا الفعل العقلي القائم على وضع « الحاضر » بقوة في مكانه — فعل يساعد على سمو الروح . ويؤمن البدائي ايمانا كاملا بأن نفس الشامان قد غادرت جسده وانها تتجول في تلك اللحظة بين السموات او الجحيم .. والبدائي يؤمن ايمانا كاملا بكل ما يقوله له الشامان في اغماءته . ولا شك ان النتيجة تكون اعمق تأثيرا بكثير جدا واشد انهاكا من الناحية الوجدانية مما تفعله اي واحدة من اوبرات فاجنر .

ان الشامان نفسه قد بلغ درجة الكهنوتية من خلال القيام باكثر انواع الواجبات والطقوس رعبا ، اي انها عملية تلقين ووصول الى المرتبة التي يسعى اليها من خلال الالم . وتتضمن الطقوس عملية حك عنيف اوجهه بمادة خشنة يقصد بها ازالة الجلد القديم ، وحتى الجلد الجديد ، او البشرة الداخلية تحك هي الاخرى حتى تزال ، للرمز الى الميلاد الجديد الكامل . ويطلب من الشامان في قبائل الاسكيمو ان يقضي خمسة ايام كاملة غارقا في المياه المتجمدة . وهم يعتقدون ان روحا لشامان ميت قد تحل احيانا في جسد الشامان الجديد ، وتسكن فيه ، وتغرق الشامان الجديد في آلام هائلة ، ويتملكه الاعتقاد بأن جسده قد تمزق اربا وان الارواح قد التهمته . انه « يرى » كل ذلك وهو في حالة الاغماء ، ويقول ليسنر ان « البقع الحمراء التي احتبست فيها الدماء تظهر على جسده ، وتمتليء ثيابه احيانا ببقع الدم .. » . وقد مارس شامان عجوز عملية « تمزيق اوصاله » هذه ثلاث مرات .

ان الهدف من عملية التعميد هذه هو « هز العقل لكي يستيقظ » ، وهو بلورة الارادة . ذلك ان المشكلة الرئيسية للبشر هي السلبية و « تفاهة الحياة اليومية » .. والمشكلة هي استفزاز العقل او نخسه لكي يخرج من حالة بلادته وكمونه ، ولدفعه الى محاولة الوصول الى ابعد مما وصل اليه . وهذا هو السبب الذي يجعل كل انواع الزهد ونزعات التنسك تبدأ بنوع من السيطرة الصارمة على الذات ، واحيانا بتعذيب الانسان لنفسه . لقد ظل المتصوف الالماني « صوصو » في القرن الثالث عشر يرتدي قميصا من الجلد مزودا بمسامير ثبتت

اسنانها الى الداخل ، وطوال ثمانية اعوام ظل يحمل صليبا ثقيلا من الخشب ثبتت فيه مسامير ذات اسنان حادة .

واود ان اقول هنا — في جملة اعتراضية — ان من المهم ان نلاحظ ان الاسطورة الشائعة لدى اهالي سيبريا الشمالية تقول ان ارواح السحرة المقدسين او الشامانات ، تولد في شجرة من نوع معين ، داخل اعشاش من احجام مختلفة ، ثم يأتي طائر ضخم كالنسر فيضع بيضا من الحديد في الاعشاش ، وهذا البيض هو ما يتحول الى الشامانات . وتتشابه الاسطورة تشابها عجيبا مع « شجرة الحياة » التي يصفها ييتس باعتبارها رمزا كونيا . (انظر الفصل الثالث .)

ويقدم ليسنر حجة مقنعة بقوله ان رسوم الكهوف التي رسمها انسان العصر الباليوليتي — وبعضها يرجع الى نحو عشرين الف سنة — تمثل شامانات يقومون بعمليات سحرية — حيث نشاهد رجالا يرتدون اقنعة لرؤوس طيور او جلودا للظباء او ثعابين البيسون . اما العصي والقضبان القصيرة فتشبه عصي الطبول التي يستخدمها الساحر الحديث . ولم يعثر مع تلك العصي على اي طبول ، ولكن هذه الحقيقة تبدو غير مفهومة .

هذه اذن هي الصورة التي يرسمها ليسنر لحياة انسان النياندرتال وانسان الكرومانيون ، وهي الصورة التي اقامها على اساس سبعة عشر عاما من الدراسة . لقد كانت حياة بدائية ، اكثر من حياة اي قبائل بدائية موجودة الآن في العالم . لقد عاشوا في كهوف او في خيام من الجلد فيما بعد ، وكانوا يرتدون جلود الحيوانات . وقد عبدوا الله وكان كهنتهم هم السحرة . ومثل العبريين الذين صورهم العهد القديم كانوا يقدمون قرابين من الحيوانات لالههم . ومثل اي كاهن حديث ، كانت وظيفة الشامان خيرة مليئة بالبركة بشكل كامل : كان يشخص الامراض ويعالجها ، ويقوم بطقوس ويستحضر ارواحا ويطلق رقى ويتلو تعاويذ لكي يساعد صيادي القبيلة .

ثم بدأت التغيرات تحدث ، قبل ستين الف عام بالتقريب (*) وبينما اصبح

(*) هكذا كتب الرقم في الاصل ، ولا ندري ان كان ويلسون قد نقله عن ليسنر ام لا لكن السير آرثر كيث ، وهو احد علماء الاجناس القديمة وعلماء الدراسات في الحفريات الانسانية ، واستاذ تاريخ التشريح الانساني في كلية الجراحين الملكية يذكر ان انسان النياندرتال قد انقرض في نهاية العصر الموستيري ، اي في حدود ما بين ٣٠ الى ٢٠ الف سنة تقريبا ، وان حياة الكهوف عموما بدأت في بداية العصر الاشيلي الذي انتهى قبل ٤٠ الف سنة تقريبا ، وان حياة الكهوف انتهت مع بداية العصر الحجري الحديث في حدود ٨ آلاف سنة قبل الميلاد . راجع تاريخ العالم ، جون هامرتون ، ص ١٥١ — ١٥٢ — النهضة المصرية . (هـ . م) .

الانسان اكثر تحضرا ، اصبح من المحتم ان يكون السحر اكثر اهمية . ذلك ان الانسان مخلوق يسعى الى المعرفة واليقين ، وقد مثل السحر الشكل الرئيسي عنده للاثنين . وبدات عبادات جديدة في الانتشار . لقد استخرج علماء الآثار والحفريات تماثيل انثوية صغيرة من ارض ويلندورف في النمسا ، وفيستونيس في مورافيا ، وسافينيانو في ايطاليا ، وليسبيوج في فرنسا . واطلق على هذه التماثيل جميعا اسم « فينوس » . ومن المؤكد انها تبدو تمثيلا لعبادة ربة ما ، ربما كانت هي الربة البيضاء نفسها . والكثير من هذه التماثيل يصور امراة سمينة ، ذات ثديين هائلين ، مما ادى الى اعتقاد انها ربما تكون وسائل سحرية تساعد على الحمل . ولكن بعض هذه التماثيل يصور امراةنحيفة. وفي برنو ، في بوهيميا ، عثر على تمثال لرجل . وقد ركز الفنان على الجسم ، اما الوجه فلا تكاد ملامحه تبين .

وحينذاك ، وبطريقة مدهشة تماما ، كف الانسان البدائي عن صنعتماثيل ذات اشكال انسانية . لماذا ؟ لانها كانت اشكالا « سحرية » . فاذا كان بوسعك ان تقتل بيسونا او طبيبا بان تصنع صورة له ثم تقوم ببعض العمليات السحرية عليها ، فان نفسالشيء كان ينطبق على الناس . لقد اصبح من الخطر ان يعاد تمثيل الشكل الانساني . كان عصر السحر قد بدأ . فاذا كان بوسعك ان تقتل الحيوانات بالسحر ،فلماذا لا تفعل نفس الشيء مع اعدائك ؟

ومع تزايد خضوع الانسان للسحر ، تزايد عدد اربابه وشياطينه . وفي فجر التاريخ المسجل المكتوب ـ حوالي ٣٠٠٠ ق.م ـ كانت حضارات وادي النيل ، ووادي الاندوس وما بين النهرين مثقلة بافكار كثيرة عن ارباب وشياطين وسحرة مشعوذين كثيرين . وفي وقت ما في هذا الالف الرابع قبل ميلاد المسيح، قفز الجنس البشري اضخم قفزاته واكبرها حتى ذلك الحين ـ وهي قفزة هائلة حقا ، حتى ان المرء ليشعر باغراء ان يصدق الفكرة الخيالية التي قال بها آرثر . س ، كلارك في كتابه « ٢٠٠١ » المعروف باسم « اوديسا الفضاء » والتي تقول بأن بعض الكائنات الاكثر ذكاء من الفضاء الخارجي ، دابت على زيارة الارض بشكل دوري على مدى تطور الجنس البشري . واستمر العصر الحجري حتىوقت ما فيما بين ٤٠٠٠ ، ٣٠٠٠ سنة ق.م ، واستخدم الانسان فيه السكاكين الحجرية ، ورؤوس الحراب من شظايا الصخور ، ومحاريث من الخشب او الحجارة . ثم اكتشف الانسان استخدام المعادن . ولسنا نعرف كيف حدثذلك. ربما تصادف ان القى رجل ما بقطعة من الصخر تحتوي على ركاز النحاس في نار مشتعلة فاكتشف ان معدنا صلبا ولامعا قد انساب منها منصهرا قبل ان يتجمد . واكتشف ان حواف المعدن يمكن ان تصبح اكثر حدة بكثير من حواف

الصوان ، وافضل بكثير في عملية سلخ جلد الحيوانات . وفي نفس الوقت القريبا، اكتشف عبقري ما ، ربما كان هو « توبال قايين » الاسطوري نفسه (١) ، الاستخدامات العديدة للعجلة ؛ لكل من التنقل وصنع الاواني الفخارية . وابتكرت ايضا قوالب الطوب اللازمة للبناء . وشيدت السفن الشراعية . وروضت الثيران لكي تجر المحاريث والعربات . لقد برزت الى الوجود ، الحضارة بالصورة التي نعرفها بها الآن ، اي الحضارة « التكنيكية » . وتم ابتكار الكتابة بعد ذلك ببضعة مئات من السنين . او ان هذا هو التاريخ الذي ترجع اليه السجلات المكتوبة . ان الانسانية لم تعرف في تاريخها تقدما مثل هذا التقدم ، الا اذا حسبنا حساب التقدم العلمي في عصرنا الحالي . وكان سبب هذه الدفعة الكثيفة المفاجئة من المنجزات هو ظهور التجمعات البشرية الكبيرة . كان الانسان قد اصبح اكثر المخلوقات على الارض نجاحا ، وكانت اعداده قد تزايدت . كان قد عرف الزراعة منذ الالف العاشر قبل الميلاد . ولكن الارض كانت ما تزال مغطاة بالغابات والصحاري . وكانت افضل الاماكن للسكن والعيش هي وديان الانهار او على شواطيء البحار . وتجمع الناس معا على ضفاف النيل والاندوس ودجلة والفرات والنهر الاصفر ، في تجمعات متقاربة من الخيام والاكواخ والاخصاص المصنوعة من الاغصان المجدولة . وجاءت حياة المدن بالمزايا والاضرار التي نعرفها ونالفها للغاية ــ المرض والجريمة ، بالاضافة الى التجارة والفن . وجاءت معها بتقسيم العمل وتوفير الوقت اللازم للتفكير . ودمرت بضربة واحدة والى الابد براءة الصيادين البدائية . واكدت العداء الاساسي بين الانسان والانسان . ففي الطبيعة يوجد قانون : « دع كل واحد وشانه » . وليس هناك سوى حيوانات قليلة تمارس القتل لما يجلبه القتل من لذة . ان امراة تجمع التوت البري قد تسمع دبا يتشمم بالقرب منها ، ولكنها كانت تعرف انه لن يهاجمها الا اذا كان يخاف على صغاره . وعند قدوم الليل كان بوسع الغزال والاسد ان يشربا من الغدير معا ، جنبا الى جنب . وكان الصيادون من القبائل المختلفة يلتقون في الغابة فيتبادلون التحيات ثم تمر كل جماعة فتمضي لهدفها ، الا اذا قامت جماعة بغزو منطقة جماعة اخرى . اما في المدينة ، فقد ساد قانون جديد ، وانه لمن الظلم للغابة ان نستمد منها المعنى المقصود من « قانون الغاب » .

ليس على المرء ان يؤمن بما قاله روسو عن « المتوحش النبيل » لكي نؤمن بان سقوط الانسان من نعيمه القديم جاء مع سكناه في المدن . انما هذا من الافكار العامة او الاراء الشائعة. ربما تكون بعض المدن ثرية وآمنة ، ذات اراض خصبة

---

(١) توبال كايين ــ في العهد القديم (تكوين) هو اول من صنع الادوات القاطعة ، من النحاس والحديد . (هـ . م .)

وحاكم قوي . ولكن مثل هذه المدن لا بد ان تكون هي الاستثناءات . فان غالبية المدن كانت اكثر قليلا من مجرد جماعات كبيرة من البشر يعيشون معا من اجل الحصول على الراحة والامن ، مثل الفئران في مجاري البالوعات .

ان النتيجة واضحة . لقد كف الانسان عن ان يكون مخلوقا بسيطا وغريزيا . سواء زاق له ذلك ام لا ، فقد صار عليه ان يكون اكثر « محاسبة » ويقظة لكي يظل على قيد الحياة . واصبح عليه ايضا ان يصبح ، بمعنى بالغ الخصوصية ، اكثر عدوانية ، ليس ببساطة تجاه الناس الاخرين فقط ، وانما تجاه العالم . وقبل ذلك العصر ، لم تكن هناك سوى جماعات صغيرة من الناس يحيون حياة العصر الحجري الحديث ، كان حجم كل جماعة منها محدودا بقدرتها على انتاج الطعام. فاذا تزايد عدد السكان بسرعة اكثر من اللازم ، فان الافراد الاكثر ضعفا كانوا يموتون من الجوع . وقد شجع هذا الوضع نشوء وثبات موقف سلبي وسلمي تجاه الحياة والطبيعة . اما المدن الكبيرة فكانت اكثر رخاء وثراء لان الناس كانوا قد سيطروا على مصادر طعامهم ، ولان اشخاصا بعينهم امكنهم ان يصبحوا « متخصصين » في اشغال المعادن ، والنسيج ، والكتابة وما الى ذلك . وكانت هناك طرق عديدة امام الانسان المحافظة على حياته : العمل اليدوي ، اوالتجارة ، او الاحتيال على اناس آخرين او اغتصاب ثمرات عملهم . وعلى عكس جماعة العصر الحجري الحديث ، كان هذا عالما كان فيه « العمل » المغامر هو اساس كل شيء . ولن يكون من قبيل المبالغة ان نقول ان « سباق الفئران » بدأ في بداية الالف الرابع قبل المسيح .

وازداد احتياج الانسان للمزيد من الارباب كلما زاد من توسيع نشاطاته . فحينما بدأ في الملاحة عبر البحار ، احتاج لان يقدم التضحيات لاله البحر . وحينما كان يشرع في الخروج الى سفر او رحلة ، احتاج لان يشعر بانه اصبح تحت حماية رب المسافرين ، وما الى ذلك . لقد احتاج كل نوع جديد من انواع العمل الى اله جديد . كان الانسان قد خرج لكي يحقق السيطرة على بيئته . وكانت وسيلته الرئيسية لتحقيق تلك السيطرة ، ما تزال هي السحر .

ووسط كل هذا الغليان والضجيج ، لم تكن هناك سوى فرصة ضئيلة لذلك التركيز الكثيف للعقل الذي كان يميز « الشامانات » القدامى . ومالت كل الاديان والنزعات الغيبية التي نبعت من هذا التركيز الكثيف الى ان تكون بسيطة وصوفية النزعة . انها نوع من محاولة التعرف على جوانب من المعنى الكامن « هناك بالخارج » ، وعلى ملامح من القوى التي قد يستطيع الانسان ان يلتصق بها لكي يستمد منها الطاقة اذا استطاع ان يوجه عقله نحوها باقتناع وايمان قوي . ان كل الاديان الكبرى : اليهودية والبوذية والهندوسية والمسيحية والاسلام — اديان بسيطة بهذا المعنى . ولكن هذه الاديان ، عندما تقع في ايدي العاديين

من الناس – وهم الـ ٩٩ بالمائة اللادينيين – فانها سرعان ما تفقد هذه البساطة، وهذه الرؤية الواضحة ، ثم تشرع فى اصطناع حشود من الملائكة والارباب والشياطين .

ويؤدي هذا الى اثارة نقطة اخرى ذات اهمية محورية بالنسبة للسحر . وبما لها من نقطة رئيسية ظلت بعيدة عن الفهم حتى ظهر فرويد . يتميز البدائيون من الناس بنوع خاص من النزعة التطهرية المتزمتة . يروي ساحر قبيلة « هيوشول » من قبائل الهنود الحمر ، الذي يدعى رامون ميدينا للباحث نورمان لويس ، ان اي فردمن ابناء القبيلة يمارس علاقات جنسية اكثر من عشر الى خمس عشرة مرة في السنة فانه يعتبر ملعونا ونجسا . ويفسر الساحر ذلك بأن موقفهم ازاء الجنس اقيم على العادات الفريزية للجد المقدس للقبيلة ، وهو الظبي ، الذي لا يمارس نشاطه الجنسي الا في موسم قصير من فصول السنة . هذا الى جانب ان الانغماس في الجنس ، يؤدي الى ضياع القوى الحيوية .

وقد يكون هذا القول اكثر دقة مما يبدو في ظاهره . ان الجماع الجنسي في حد ذاته قد لا يؤدي الى اهدار الحيوية . ولكن هناك ارتباط من نوع ما بين تنظيم الذات وبين القدرات التي تكفل البقاء . لقد امتدح الساحر الهندي صبيا كان يستحم في نهر متجمد عند الفجر لان مثل هذه الاعمال تقوي البرود الجنسي الطبيعي الذي يقدره رجال الهيوشول ويمتدحونه في نسائهم . ان نساء القبيلة يعكسن الفضائل المطلوبة من جانب رجالهن ، الصراحة والاخلاص والوفاء ورعاية البيت بطريقة جيدة .

وعلى العكس من ذلك ، يميل ساكن المدينة الى ان يكون اكثر جنسية . ان المتنفسات الطبيعية لسيطرة الذكر ورغبته في اظهار قوته هي الصيد والقتال . فاذا اضمحلت هذه المجالات ، كان من الطبيعي ان يحل محلها اهتمام بالجنس، ذلك ان ولوج الانثى هو عمل من اعمال السيطرة في اعلى اشكالها . وبذلك تكون ممارسة الجنس مع فتاة هادئة مروضة خاضعة لاحكام المنزل اقل اشباعا لهذا الدافع من ممارسة الجنس مع فتاة اكثر توهجا واستقلالا وتحديا . وسرعان ما يظهر النوع من البشر الذي تطلبه الظروف . لقد انتجت ثقافة المدن المحظيات او العاهرات المشهورات المتالقات ، الشبيهات بالسرينات (١) ذلك النوع

---

(١) السيرينات Sirens من مجموعات العرائس الخرافية في الميثولوجيا اليونانية ، نصفها امراة ، ونصفها طائر . ذكر هوميروس في الاوديسة انهن يسحرن البحارة بغناء عذب يذهلهم عن كل شيء ، فيقيمون في جزيرة السيرينات ، يسمعون الغناء حتى يموتوا جوعا (ولم ينج منهن سوى اوديسيوس ، الذي صب في آذان بحارته شمعا سائلا حتى لا يسمعوا غناءهن ، وقيد نفسه الى سارية السفينة حتى لا يهرب اليهن). ولذلك اصبحن رمزا لكل امراة خطيرة مراوغة ، ولم يذكر هوميروس سوى اثنتين ، واضاف فيرجيل في الانيادة ، واحدة . (هـ م .)

من النساء اللواتي يتنافسن على اجتذاب اهتمامهن ذوو السيطرة من الرجال . تصبح فضيلة ان تواجه المراة الرجل بنوع من التحدي . ويسرد علينا ليونازد كوتريل قصة اخذها من احد سجلات التاريخ الصينية عن المحظية الخاصة للامبراطور « وو » التي عرف عنها انها دائمة التجهم يصعب ادخال السرور على قلبها . كانت تحب سماع صوت تمزق الحرير ، فكانت اثواب طويلة من القماش الثمين تمزق امامها . وذات مرة ، وبناء على خاطرة خطرت لها ، امر الامبراطور بايقاد نيران التلال التي لا تشتعل الا اذا كان الامبراطور يأمر امراءه وسادته الاقطاعيين بان يتجمعوا للدفاع عن البلاد ضد البرابرة . ووصلت الجيوش الى قصر الامبراطور ، لكي يقال للامراء ان الامر كله ليس سوى نكتة لا اصل لها . وحينما رات المراة التعبير الذي ارتسم على وجوه الامراء ، ضحكت ، وكانت هذه اول ضحكة في حياتها ، على ماتروي الاسطورة .

وتحمل هذه القصة مغزى معينا مثلها مثل كل القصص القديمة . فحينما هاجم البرابرة البلاد لغزوها بالفعل ، واوقدت نيران التلال ، لم يات احد ، وقتل الامبراطور ودمرت مدينته (*) .

اما الصورة المقابلة للسيرينات فكان هو الدوق جوان . ان ملحمة «جلجامش» البابلية ، وهي اقدم من هومير بألف عام ، تبدأ بوصف كيف ان الشهية الجنسية للمحارب ــ والملك ــ جلجامش : « لم تترك عذراء لحبيبها ، ولم تترك ابنة المحارب ولا زوجة النبيل » . ويعترف مواطنون بنوع من البصيرة الفرويدية ــ انه « يشع » او « يختزن » حافزا هائلا يدفعه الى الغزو ، ويتوسلون الى الآلهة ان تخلق رجلا يملك من القوة ما يكفي لان يكون على يديه سقوطه . وتخلق الآلهة الانسان ــ الاله « انكيدو » ، الذي كان لا بد من استئناسه اولا بواسطة بغي تعتمد على تربيته جنسيا ، اذ انها :« لم تكن تشعر بالخجل من ان تأخذه ، فخلعت ملابسها وتجردت ورحبت بلهفته اليها . . » . وكانت لهفته اليها من القوة بحيث جعلته يمارس الحب معها طوال اسبوع كامل ، اضمحلت قوته خلاله بشدة ، حتى انكرته الوحوش ، رفاقه القدامى ، وفشلت في التعرف عليه . بل ان حجم قامته ايضا يتقلص (فها نحن نواجه مرة اخرى فكرة الشعوب البدائية القائلة بان الجنس يضعف القوة ويمتص الطاقة) . وفيما بعد ، وبعد ان يكون إنكيدو وجلجامش قد واجه احدهما الآخر في ميدان النزال دون ان يتغلب احدهما على الاخر ، ثم تعاهدا على الصداقة ، يشعر انكيدو بأن حياة المدينة المتعفنة موهنة لقوته مؤدية لاضمحلالها ، فيخرج هو وجلجامش بحثا عن المغامرة . وحينما يعودان وتحاول الربة عشتار (وهي فينوس البابلية) ان تغوي جلجامش ، يرفضها . فان

(*) ليوناردكوتل في « نهر تشين » الفصل الرابع .

طاقاته البطوليـــة كانت قـــد اتجهت الى مساراتها وقنواتها المناسبة ، فلا يعـــود يهتم بمشاغل الاغواء غير الرجولية . وتكاد القصيدة كلهـــا ان تكـــون احتجاجا من جانب الاخلاق القبلية القديمة ضد ما في المدينة من اغراء وتشبع جنسي كمـــا ان تحليلاتها لحالات الشبق المفرط والانعاظ الشديد عند جلجامش تقوم على نوع من الادراك يوحي بان المؤلف السومري الاصلي كان « شامانا » او ساحرا . (وقد كان الشامانات شعراء ايضا ورواة للقصص ، وتشير الالياذة الى ان احـــد الشامانات كان يعرف من مفردات اللغة اثني عشر الف كلمـــة ، وهو يماثل ثلاثـــة اضعاف مـــا تعرفه القبيلـــــة) .

لقد اوضحت في هذا الكتاب ان الانسان لم يخلق في الحقيقة مـــن اجـــل الحضارة . انه باعتباره مخلوقا شديد الحيوية موفور الطاقـــة وعدوانيا ، فانه يجد صعوبة في تكييف نفســه مع قيـــود الحضارة . وتبدو استجابته ازاء قلةالتحدي بالضجـــر والميل الى ان يصبح رخوا مهملا هابط المعنويات . اما الغريزة الجنسية فتبقى على اصلهـــا من القوة ، ولا بد لهـــا ان تحمل ثقلا متزايدا من السيطـــــرة المحبطة . والنتيجـــة : التوتر الجنسي والاحباط الجنسي . اما ملحمة جلجامش وهي واحد من اقدم ما كتب من الوثائق والآثار القديمة ، فتكاد تتماثل في تخلفها مع تخلف بترونيـــوس (١) او مارتيـــال (٢) حيثما تعالج الجنس . هـــذا باستثناء جانب واحد ، وهو ان النزوع الى المثلية الجنسيـــــــة homosexuality لم يكـــن قد ظهـــر بعد . ولكن من الجدير بالملاحظة ، ان المثلية الجنسية ــ وهي نادرة او لم توجـــد بين القبائل البدائية ــ تبدو وكأنهـــا كانت علامة من علامـــات تاريخ الحضارة الغربية منذ بدات تلـــك الحضارة تحيا في المدن . (وقد اثبتـــت التجارب التي اجراهـــا عالم النفس جون . ب . كالهون حيث دفعت الفئران الى ان تحيا وتتناسل في ظروف الازدحام الشديد ، اثبتت ان الفئران بدات تنـــزع الى المثليـــة الجنسية حينمـــا ازدحمت في « اكواخ قذرة ».)

---

(١) بترونيوس اتيتوس (او) جايوس ــ مات عام ٦٦ م: كاتب ادبي روماني ساخـــر ، وصفه تاكيتوس بانه : « حكم الذوق الرفيع » . كان مسؤولا عن الترفيه في قصور نيرون . ومـــن هنـــاك استوحى روايته الساخرة « ساتيريكون » ، التي تقدم بالنثر والشعر صورة حية ساخـــرة لانـــواع الترف والرذائل والنساء وقواعـــد السلوك الاجتماعي ، في العصر الامبراطوري . قال تاكيتوس في « الحوليات » انه مات منتحرا بالسم هربا من اعدام مرعب بامر نيرون . (هـ . م).

(٢) مارتيال (ماركوس فاليريوس ماتياليس) : كاتب روماني من القرن الاول الميلادي . ولد في اسبانيـــا وعاش في رومـــا اكثر حياته . عرف بالعبارات المحكمـــة في تعليقاته اللاذعة الساخرة على « الاخلاق » الرومانية والمجتمع في عصره . (هـ . م) .

ومن المهم تماما هنا ان نقول ان من الممكن ان يقال الشيء نفسه عن الفسق بالمحارم incest فلدى البدائيين تحريمات قوية بشأن ممارسة الجنس مع ذوي القربى . ويعتقد هنود الهيوشول ، ان كل من يمارس الجنس مع احد ذوي القربى او مع شخص من خارج القبيلة فانه سيتحول من فوره الى حجر . اما عن تحريم العلاقات خارج القبيلة فهو مفهوم تماما : الرغبة في النقاء العنصري . ولكن لماذا تحريم ممارسة الجنس مع الاقارب ؟ لقد حقق عالم الانثروبولوجي كلود ليفي شتراوس شهرته بكتاب اسمه « الابنية الاولية للقرابة » في عام ١٩٤٩ حيث يقدم النظرية الهامة التي تقول بأن ممارسة الجنس بين ذوي القربى عند البدائيين لم تحرم بسبب التخوف من اضعاف العنصر ، وانما لان المتوحشين كانوا واقعين تحت سيطرة فكرة الهبات او العطايا . يقول ليفي ان الاعطاء او المنح كان عاملا اساسيا من عوامل تخفيف التوتر الاجتماعي ، ووسيلة من وسائل تدعيم روح الجماعة وتجنب الحرب . ولكن الموقف الاناني الطبيعي للذكر كان يدفعه الى المحافظة على البنات والاخوات الجميلات داخل العائلة ، فيصبحن بذلك حريما خاصا : فقد كانت النساء نوعا من الممتلكات ، يحافظ عليها اويتخلص منها بحسب تقدير الذكر وما يظنه الصواب . ولكن هذا الموقف قد يصبح مصدرا للتوتر الاجتماعي ، ويضيف ليفي شتراوس الى ذلك ، ان بقية رجال القبيلة قد يشعرون بانه من الظلم ان تظل اكثر الفتيات جمالا ملكية خاصة لآبائهن واخوتهن . وبذلك اصبحت النساء اثمن الاشياء بين ممتلكات القبيلة وثروتها ، فأصبحن يوهبن كعطايا وهدايا لرجال القبائل الاخرى الذين كانوا بدورهم يقدمون هداياهم الخاصة من نسائهم . وبذلك اكدت النساء الانسجام والتوافق داخل القبيلة الواحدة ، وبالتدريج اصبح غشيان الاقارب حراما (تابو) . ويقوم رأي ليفي شتراوس على أن « تابو » غشيان المحارم يكشف عن نوع من « المسيحية الطبيعية » عند المتوحشين ، يشبه القول المسيحي : « من الافضل ان تعطى على ان تأخذ .. » .

انني اذكر هذا الرأي لانه يلقى الآن قبولا عاما ، ولانه يبدو لي خاطئا بشكل ظاهر . فليس هناك دليل على ان الانسان البدائي كان يميل ميلا طبيعيا الى غشيان اقاربه ثم اصلح من نفسه بدافع من الرغبة في المحافظة على علاقة ودية مع جيرانه . ولكن اذا كان كذلك حقا ، فماذا كان من شأن البنات القبيحات اللواتي لم يكن « عملة » اجتماعية اذا صح القول بذلك ؟ هل كان يحافظ عليهن في الحريم العائلي ؟ ولماذا كان ينبغي لتقديم ابنة جميلة ان يؤدي الى تخفيف من حسد قبيلة باكملها ؟ انها ما كان بوسعها ان تكون زوجة لاكثر من رجل واحد . فلو كان هذا هو الدافع حقا للتخلص منها لكان من الاكثر منطقا ان تجعل ملكية عامة لكل ذكور القبيلة .

ولكن الاعتراض الحقيقي ، اذا كان خط مناقشتنا صحيحا ، هو انه من الاكثر بساطة بكثير ان نزعم ان الانسان البدائي قد عرف بشكل غريزي ان غشيان الاقارب يمكن ان يؤدي الى اضعاف النقاء الوراثي للقبيلة باكثر مما يؤدي الى ذلك الزواج من الغريبات . فكل طفل يحصل على نصف « جيناته » — حاملات الخصائص الوراثية لديه — من ابيه ، ويأخذ نصفها الآخر من امه . وهو قد يحصل على « جينة مرتدة »من احد والديه — مثل قصر النظر او اي نقص آخر — ولكن تظل هناك احتمالات كثيرة قائمة لان تتوازن هذه الجينة الارتدادية بواحدة اخرى صحيحة من الوالد الآخر . فاذا تزاوج « اقارب الدم » فان الفرص تكون اكبر لكي يتلقى الطفل « جينتين » مرتدتين ، بما يؤدي في المدى الطويل بالتزاوج بين الاقارب الى انتاج سلالات اكثر ضعفا من سلالات الزيجات « الممتزجة » الطبيعية. فاذا كنا على صواب في قبول ان الجينات تتأثر بشكل ما بنوع من « العقل الجمعي » ،اذن فان للعقل الجمعي سببا ممتازا يدفعه الى خلق نفور غريزي من الزواج بين الاقارب في القبائل التي يعتمد وجودها على حيويتها العنصرية .

وحينما بدأ الانسان يعيش في المدن ، ضعف شأن تحريم زواج الاقارب والاختلاط الجنسي فيما بينهم . وليس لزيجات الاخوة والاخوات عند المصريين القدامى علاقة بهذه المناقشة ، لان هذه الزيجات كانت نتيجة للاعتقاد بأن الملوك والملكات كانوا من الآلهة ولذلك فانهم لم يكونوا قادرين على التزاوج ببني الفناء العاديين من البشر (*) ولكن طبقا لما يرويه سونونيوس وتاكيتوس فان بعض القياصرة انغمسوا في الفسق بالمحارم بدافع البحث الخالص عن اللذة ، وعلى

(*) لا يورد ويلسون مصدره هنا (ولا ادلة تحليله) كما لم يورد دليلا على فكرة الرغبة في « النقاء العنصري » التي رد بها على ليفي شتراوس ، رغم انه يطالب شتراوس بالدليل على مقولته .وايا كان الامر ، فان زواج الاخوة باخواتهم في مصر القديمة لم يكن مقصورا على الملوك (بل ان الملوك كانوا يملكون حق الزواج من بنات الشعب : مثلا زوجة امنحتب الثالث ، الملكة «تي» أم اخناتون في نهاية الاسرة الثامنة عشرة ، من المعروف الشائع انها كانت من ابناء الشعب) .ولكن سبب هذا التزاوج بين الاخوة في مصر كان راجعا الى دوافع اجتماعية واقتصادية خالصة (هي ان الملكية كانت تنتقل بالوراثة بين اجيال النساء : من الام الى ابنتها ، فكان لزاما ان يتزوج الشقيق اخته ليحافظ على ممتلكات الاسرة في داخلها . ثم تحولت هذه الدوافع او امتزجت بدوافع دينية (قادمة من ديانة اوزيريس الشعبية) فحينما يموت الاب (اوزيريس) الذي كان متزوجا من اخته (ايزيس) يتحول الابن (حورس) الى اوزيريس جديد يتهيأ لموته وينجب من اخته «حورسا» جديدا ويضمن بزواجه منها استمرار حماية الخصب (بموت الاله — اوزيريس — الاب) وحماية الاسرة بانجابه حورس جديد . راجع رانكة (مصر القديمة) ، بيتري (سكان النيل)، برست (فجر الضمير) . هـ . م .

سبيل التنويع الغريب لاستثارة الشهية التي كانت قد اتخمت وتبلدت بسبب الاسراف البالغ في العمليات الجنسية .

ولقد كان السحر البدائي بشكل اساسي ، هو استخدام قوى الانسان الخفية للتاثير على عملية الصيد ، او ربما على المعارك . ويعتبر وصف جريمبل لعملية « نداء الدلافين » مثالا كاملا وصحيحا للنزعة السحرية البدائية . ولكنه في ظل الظروف الحضرية الجديدة ، اصبح بشكل حتمي اكثر قربا وارتباطا بالجنس . واصبح الاحباط الجنسي بشكل متزايد اكثر شيوعا في المدن. كان بوسع السادة الكبار ان يستمتعوا بما يمتلكونه من « الحريم » ، وكان بوسع النبلاء الشبان الصغار ان يطاردوا المحظيات والبغايا الشهيرات ، وظل بوسع الرجل الفقير ان تكون له زوجته التي يثقلها العمل الكثير والاسرة الكبيرة ، ولم يكن امامه سوى ان يتلفت براسه لكي ينظر الى الفتيات عاريات الصدور في مرورهن بالشارع . وكانت نسبة الموت اكثر واسرع بين الرجال عنها بين النساء ، ولذلك كان هناك الكثير من الارامل المحبطات جنسيا . (وقد انعكس هذا في قصة عشتار التي تطارد جلجامش ، مثلما في قصة فينوس وادونيس ، او حتى في قصة يوسف وزوجة بوتيفار) .وقد امضى برونيسلاف مالينوفسكي سنوات عدة في ملاحظة حياة اهل جزر « تروبرياند » ،وسجل الطقوس السحرية المرتبطة بعملية تدشين قارب جديد . وكان هدف هذه الطقوس هو حماية بحارة القارب من الساحرات الطائرات اللواتي كن يسعين الى اغراق القارب والتهام اجساد البحارة . ويستطيع المرء هنا ان يرى بوضوح الاصل الجنسي للخوف من الساحرات . وكان من المعتقد انه اذا ارادت فتاة ان تمنع حبيبها من خيانتها . فكان عليها ان تخبز فطيرة تحتوي دماء طمثها ، فاذا اكلها الحبيب اصبح عاجزا جنسيا مع النسوة الاخريات . وكان على الشاب الذي يريد ان « يسحر » فتاة ان يغريها بشرب مشروب يكون قد مزج به كمية من سائله المنوي .(وتبقى هذه المعتقدات السحرية اليوم وتتغلغل وتنتشر من صقلية الى ابعد اطراف الجنوب الامريكي) .

ان ما حدث للسحر بعد ان تم « تمدينه » هو انه اصبح عرضة لان تمتزج به كمية كبيرة من عناصر الهراء . فيقول كورنيليوس اجريبا ـ وهو ساحر من القرن السادس عشر .. انه يجب على النسوة الساعيات الى منع الحمل ان يشربن بول البغال ، لان البغال عقيمة لا تتناسل . ومن الواضح ان هذه الوصفة لن تزيد فائدتها على فائدة اكثر ما نعرفه من « ادوية الحب » . ولكن سيكون من غير الصحيح، من جانب آخر ، ان نزعم ان السحر الجنسي لم يكن بشكل اساسي اكثر من خرافات فجة . ان الجنس يمثل واحدة من الوظائف الانسانية القليلة التي لم ينجح

« الروبوط » في اخضاعهـا لـ : « اوتوماتيكيته » المعتادة . انني اذا كنت متعبا، فقـد يفشل منظر جميل او سيمفونية لموزارت في اثارة اهتمامي . ولكن نظـرة سريعـة لفتاة غريبة وهي تخلع ملابسهـا سوف تثيره . وهذا يعني القول بـان الجنس يملك نوعا من الدفاع التلقائي الداخلي ضد خسارة « ادراك القيمة » الذي يسببه الاجهاد او اعتياد الاقتراب من الشيء . وهذا يعنـي ان للجنس « خطـا ساخنـا » يربطه بعقلي اللاواعي . ولقد سلبت الحضارة من الانسان الكثير مـن طاقاته وقدراته الاكثر عمقا . ولكن الجنس ظل دون ان يتأثر . وما زال من الممكن للجنس ان يفجر القوى اللاواعية. ويبدو الآن انه من المؤكـد الى حـد كاف ان مشاهدة « الاشباح المتحركة » انمـا تنتج بسبب الاضطرابـات الجنسية غير الواعية لدى الفتيات والاولاد البالغين ، وبوجه خاص ، الفتيات . ويكتب رايـز س . جونسـون قائـلا :

« ان من اكثر ملامح ظاهرة « الاشباح المتحركة » اثارة للدهشة ، هي ما يبدو في الغالبيـة الساحقـة من الحالات من ان شخصا شابا هو الذي يكون العميـل او الوسيط غير الواعي للتاثيرات الناتجة . وفي ٩٥ بالمئة من هذه الحالات يكون هذا الشخص فتاة صغيرة ، في قول برايس ، الذي يضيف ان الـ ٥ بالمائة الباقية يكونون من الاولاد اوالفتيان . والاكثر من هذا انه يبدو ان التغيـر الجنسي او الصدمة الجنسيـة كثيرا ما تكون مرتبطـة اما ببداية حدوث الظاهرة او بتوقفهـا . وعلى هـذا فان فترتي البلوغ والمراهقة هما اكثر الفترات مناسبة للتأثر . ويخبرنا برايس بان قدرة اليانورا زاجان اختفت في ليلة واحدة مع اول ظهـور للطمث عندها ، وان الاخويـن شنايدر كانا لامعين في سن البلوغ وقبله وبعده بقليل ، ولكن المؤثرات كانت تتلاشى كلمـا تقدمـا في سن المراهقة ، وعلى النقيض من ذلك ، فان قدرة ستيلاسي اصبحت بارزة وملحوظة مع نضجهـا الجنسي ، وانه في حالة استركوكس فان الظاهرة التي استمرت معها سنة كاملة قد ابتغتها صدمة جنسية جاءت بسبب ما تعرضت له من محاولة اعتداء جنسـي ، وان الاشياء التي كـانت تراها كانت تبلـغ ذروة قوتها كل ثمانية وعشرين يومـا .. ويحكي برايس ايضـا عـن لقاء بينه وبين زوج فريدا و . وهي وسيطة نمساوية شابة الذي قال له انه كان يحدث عندمـا تبلـغ زوجته ذروة استثارتها الجنسية في باكورة حياتهمـا الزوجيـة ان الزخارف والتعليقات في منزلها كانت تسقط احيانا من فوق جدار المدفاة في حجرة نومهمـا ، وقال له ايضا ان قدرتها على الوساطة كانت تختفـي تماما في خلال ايام الطمث .. »

ويقتطف جونسون ايضا حالة ذات طبيعة مشابهة ، كان قد قام بتحليلهـا الدكتور س . أ . ماير ، مساعد يونج . ففي ذروة عملية التحليل ، تخيلت المريضة

نفسها ـ وهي في حالة نعاس ـ وهي تتوغل اعمق واعمق في مدينة ما ، وهو الامر الذي كان رمزا لمشكلتها (والمفترض انها مشكلة جنسية ، رغم ان جونسون لايقول ذلك) . وفي اللحظة التي وصلت فيها الى مركز المدينة ، سمعت صوتا عاليا ، وتحطم امامها عامود قوطي خشبي فانقسم نصفين .

.. وهذا ايضا يتماشى مع النظرة التي اقدمها : وهي انه منذ ان اصبح الانسان « ساكن مدينة » قام ارتباط قوي بين قدراته النفسانية القديمة وبين طاقاته ورغباته الجنسية . فبوسع الجنس ان يثير درجة من قوة الارادة والكثافة التي نادرا ما يمكن ان توجد في المجالات الاخرى من الحياة المتحضرة . . وقد استطاع بارتول(١) ان يقبض على شيء من هذه الفكرة في باليه « ساحر المعجزات » حيث تجتذب بغي ساحرا الى حجرتها ، وهناك يهاجمه اثنان من البلطجية . انهما يضربانه ، ويطعنانه ، واخيرا يشنقانه ، ولكنه يرفض ان يموت حتى ترتوي رغبته الجنسية وتشبع . وقد تم رسم الساحر في صورة الرجل الصامت ، الجامد الشعور الذي لا تعبر عن رغبته الا عينان مشتعلتان : رجل يسير وفقا لمشيئة ارادة هائلة ، وهي الصورة النمطية الشائعة للساحر .

ان هذا الربط بين السحر والجنس ، لهو حقا ما خلق فكرة « السحر الاسود » . وكانت هذه هي المرحلة الثانية من مراحل انحطاط فن السحر .

اسمحوا لي ان الخص تاريخ السحر بالصورة التي يبرز بها من خلال كل ما تقدم .

... منذ حوالي ستين الف سنة ، ظهر انسان « كرومانيون » ، وكان ارقى نموذج من النوع الانساني ظهر حتى ذلك الحين . وقد لعب السحر دورا كبيرا في حياته اكثر مما لعبه في حياة النماذج السابقة . كان السحر هو علم العصر الحجري . وكان انسان « كرومانيون » هو اكثر المخلوقات التي ظهرت حتى ذلك الحين على الارض ذكاء .

وحدث ما لم يكن بد من حدوثه : فقد تحول سحر الشامانات التعاطفي الابيض الى شيء اكثر شخصية . وظهرت الكهانة . ولا بد ان نميز بوضوح بين الكهنة وبين السحر والشعوذة العاديين وهما ببساطة محاولة استخدام قوى

---

(١) بارتول ـ بيلا (١٨٨١ ـ ١٩٤٥) موسيقي مجري ، يعتبر ابا الموسيقى المجرية الحديثة . اشتهر بحملته التي استغرقت معظم حياته لجمع الموسيقى الشعبية من المجر ورومانيا وترانسلفانيا وسلوفينيا فجمع نحو تسعة آلاف لحن اصلي ، بالاضافة الى ٢٠٠ لحن عربي وتركي ، واستخدم الكثير منها في اعماله للاوركسترا وللعروض المسرحية الراقصة . هـ . م .

غير عادية مثل التواصل عن بعد او الكشف عن الماء اللذين يمثلان شكلين بسيطين من اشكال السحر . اما الكهانة فهي محاولة الاستخدام « المنتظم » لمثل تلك القوى عن طريق الرقي والتعاويذ والاحتفالات الخاصة والطقوس وما الى ذلك . وبذلك يمكننا ان نضع خطا مميزا بسيطا بين الاثنين بالقول بان السحر سلبي في جوهره ، بينما الكهانة كانت ايجابية .

ولكن ربما كان اكثر الفروق اهمية بين الاثنين هو ما يلي : ان السحر يعتمد على مستوى من الوعي اكثر سموا ، وعلى ادراك للحقيقة اكثر اتساعا مما يمتلكه الناس في العادة . وفي هذاالصدد يرتبط السحر ارتباطا وثيقا بالنزعة الصوفية. وقد تعتمد الكهانة على قوى اكبر او اسمى من القوى العادية ، ولكنها تنطلق من الوعي اليومي العادي ، ومن الشخصية العادية اليومية . والميزة الاساسية المميزة للشخصية اليومية العادية هي رغبتها الملحة في السلطة والقوة : الرغبة في المال ، والممتلكات ، والفزوات الجنسية ، والمكانة الاجتماعية . اما الدافع الصوفي فهو من الجانب الاخر ، يتنازل عن كل تلك الاشياء . ان شاعرا مسحورا بطزاجة دفقة مطر في شهر ابريل ليشعر باشواق غريبة ، بشيء ينفجر ويتصارع في داخله ، يجتاحه احساس بالثراء والغموض الذي يكتنف الكون والذي يجعل مطامح العاديين من الناس تبدو غبية مخطئة . ولقد يقال ان « كل » الناس انما يخضعون لضغوط تلك الدوافع الى التسامي الذاتي : حتى السياسي الذي يمضي في الكذب لكي يكسب اصوات الناخبين ، وحتى الدون جوان الذي يكذب لكي يقنع فتاة بان تذهب معه الى الفراش . هذا حق . ولكن الفرق الاساسي هو ان الشاعر « يرفض نفسه » بشكل ما . انه ليس مهتما بنفسه ولا هو شغوف بشخصيته ولا بالوسائل التي تؤدي الى زيادة عظمتها وقوتها . انه جدير بان يفضل لو يصبح نقيا وواضحا مثل الماء العذب القراح . ان الفرق بين الكاهن والساحر هو ان الساحر « ليس مهتما ولا مشغوفا » مثل الشاعر او العالم ، اما الكاهن فيريد السلطة الشخصية ويسعى اليها .

لقد ظهرت الكهانة الى الوجود منذ ستين الف عام ، ولكن حينما كان الناس يعيشون حياة بسيطة في القرى الصغيرة ، فانها ظلت رمية لا اهمية لها من سهم سحرة القبائل ، او الشامانات. ولكنها بمجيء حياة المدن ، فانها خلعت السحرة القدامى ــ او خلعت رداءهم ــ واتخذت لنفسها وجودا مستقلا . ومنذ ذلك الحين ، ظل السحر والجنس على علاقة وثيقة. وهذا ما يفسر عنف العقاب الذي كان يوقع على الساحرات في العصر المسيحي .

ولكن ثمة سبب يبرر الظن بان حدثا اخر بارزا قد لعب دورا في تغيير تاريخ الانسانية في الالف الرابع قبل الميلاد : الطوفان .

ففي اوائل العشرينات من هذا القرن، ذهبت بعثة بريطانية امريكية مشتركة، تحت قيادة ليونارد وولي ، لاستكشاف هضبة اورابية « تل الابيض » الذي يقع في منتصف الطريق بين بغداد والخليج العربي . كانت هذه الهضبة هي موقع مدينة « اور » القديمة الكلدانية . وكان المعروف منذ ازمنة قديمة انالكلدانيين هم مؤسسو علم الفلك وفن التنجيم .

وكان عقد العشرينات غنيا بكشوفه الاثرية التي اماطت النقاب عن فترات تعود الى مرحلة ابتكار الكتابة ـ حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . ولم تقل الكنوز المكتشفة جمالا وغرابة عن تلك التي اكتشفت في مقبرة نوت عنخآمون عام ١٩٢٢ . ولكن في صيف عام ١٩٢٩ ، وبينما كانت عمليات الحفر توشك ان تنتهي، قرر وولي ان ينزل بالحفر الى اسفل تل كان يحتوي قبورا لنبلاء سومريين (كان وولي يدعوها بقبور ملوك اور) . وهناك اكتشفوا الواحا طينية اقدم من تلك التي وجدت في القبور: الواحترجع الىعصر ابتكار الكتابة . وحينما استمروا في الحفر ، عثروا على المزيد من الفخار السومري ، يشبه ذلك الذي كان قد عثر عليه من قبل واصبح من الواضح ان الحضارة السومرية كانت قد ظلت مستقرة دون أن ينتابها تغير ظاهر عبر مرحلة زمنية طويلة .

وحينذاك ، وازاء دهشة الجميع ، بلغوا في الحفر طبقة من الطين الابيض الناصع ، وكان سمكها يزيد على ثمانية اقدام . وتحتها ، او اسفل جانبها السفلي ، عثروا على المزيد من القدور الفخارية وبقايا وآثار المباني . في هذه المرة كانت القدور الفخارية مصنوعة بالايدي ، وليست مشكلة على عجلة الفخاري . كانوا قد وصلوا الى ثقافة العصر الحجري .

كان العصر الحجري مفصولا عن عصري البرونز والحديد بعلامات تدل على حدوث الطوفان . ودلت الحسابات على ان الطوفان قد وقع في حدود عام ٤٠٠٠ ق.م . وهو تاريخ تحول الانسانية العظيم نحو سكنى المدن .

وفي سبعينات القرن الماضي، كان باحث يدعى جورج سميث يعمل ـ في المتحف البريطاني ـ في فحص بعض الالواح الطينية ذات النقوش من الكتابة المسمارية كانت قد وجدت في نينوى ضمن الحفريات التي قام بها راسام ، مساعد اوستين لايارد . وكانت تلك الالواح جزءا من مكتبة الملك الدموي سنحريب المشهور في التوراة . وقد كان سميث هو الذي تبين ان تلك الالواح كانت جزءا من قصيدة قديمة تدور حولبطل يدعى جلجاميش . ولقد ذكرت من قبل الجزء الاول من هذه الملحمة : كيف اقتنعت الآلهة بضرورة خلق انكيدو لكي يكونكفوءا لجلجاميش ، وكيف قامت الصداقة بين الاثنين . ثم رحيل جلجاميش وانكيدوالى جبل الارز (الذي يعرف بموقعه الآن بين سوريا واسيا الصغرى) وقتالهما مع

حارسه ، العملاق همبابا الذي يتمكنان من قتله . ولدى عودتهما ، تقع قصة محاولة الربة « عشتار » اغواء جلجاميش ، وحينما يرفضها فانها تقنع الارباب بارسال ثور هائل متوحش لتدمير مدينة اوروك . ويتمكن جلجاميش وانكيدو معا من ذبح الثور . حينذاك ترسل عشتار مرضا غامضا يقتال انكيدو . ويشعر جلجاميش بالوحدة ـ ويدرك فجأة انه من ابناء افناء . فيقرر ان يذهب لكي يستشير رجلا وهبته الارباب الخلود ـ هو « آوتا ـ نابيشتيم » . ويرحل جلجاميش الى جبل غريب يحرسه « الرجال العقارب » وينفذ الى قلبه ، حيث يكتشف نوعا من الحدائق التي تذكرها « الف ليلة وليلة » . وتخبره الربة « سيدوري » ان كل الناس يولدون لكي يموتوا ، ولكنها ترضى في النهاية بمعاونته على مقابلة « اوتا ـ نابيشتيم » وهو الذي يحكي لجلجاميش قصة الطوفان : وكيف حذرته الربة « ايا » من ان العالم سوف يدمره الماء ، وكيف افلت من الدمار الشامل بأن بنى لنفسه السفينة . ونتيجة لذلك قررت الارباب ان تجعله خالدا وان تفلته من الموت .

وليست هناك بقية طويلة لملحمة جلجاميش بعد ذلك ـ فان ما بقي منها بعد ذلك لم يكتشف بعد . فبناء على نصيحة « اوتا ـ نابيشتيم » يأتي جلجاميش بنبتة الحياة الابدية التي يعثر عليها في قاع البحر ، ولكن ثعبانا يأتي فيسرق النبتة اثناء نوم جلجاميش ، فيعود البطل الى اوروك حزينا فارغ اليدين .

ولقد دهشت انجلترا الفيكتورية حينما نشر سميث ترجمته لقصة الطوفان المأخوذة من « جلجاميش » . وكانت هناك بعض الالواح الطينية ما تزال مفقودة ، فتبرعت جريدة « الديلي تلجراف » سميث بالف من الجنيهات لكي يذهب بحثا عن الالواح المفقودة . لم تكن فرصته للعثور عليها تزيد نسبتها على واحد الى مليون . ولكن من المدهش تماما انه عثر عليها ، بعد خمسة ايام فحسب من العمل في الحفر . (ان بعض « المصادفات » الصعبة التصديق التي وقعت في عالم الحفريات الاثرية لتكفي لدفع اكثر الناس شكا الى الايمان بربات القدر) . لقد استخرج سميث الجانب الاعظم من قصيدة جلجاميش بالصورة التي نعرفها بها الآن (*) . ولسوء الحظ ، لم يعثر على الكثير من الاضافات اليها ،

(*) لا يوضح ويلسون هنا ما يقصده ب « الصورة التي نعرفها الان » لملحمة جلجاميش . فنحن في الواقع نملك منها عدة صور . فبالاضافة الى القصائد السومرية الخمس عن جلجاميش ، القصيرة والمستقلة بعضها عن البعض ، توجد ثلاثة مصادر للملحمة الكاملة ، اولها هو ما يسمى « النسخة البابلية » ويبدو ان هذه هي ما يتحدث عنها ويلسون ، ثم المصدر الاكادي المختصر ، وقد عثر عليه في عاصمة الحيثيين القدامى في اسيا الصغرى ، ثم هناك « نسخة نينوى » التي تعتبر اكمل نص للملحمة والاهاتلفا ، وقد عثر على مقاطع منسوخة من هذه النسخة في مدينة « سلطان تپه » =

رغم انه كانت هناك شذرات متفرقة في اللغة السومرية الاقدم عهدا ، تشير الى ان القصيدة تسجل تراثا ينتمي الى الالف السابق من السنين .

والاساطير التي تتحدث عن «طوفان» ما منتشرة في كل تراث اسطوري في العالم ، وهو طوفان صحبته ثورات بركانية ، واعاصير وانفجار ينابيع غزيرة . وفي الاسطورة اليونانية كان دوكاليون ، ابن بروميثيوس هو الناجي الوحيد (مع زوجته بيرها) من الطوفان الذي دمر به زيوس العالم . (والسبب الذي تقوله الاسطورة هو نفس السبب الذي تقول به التوراة : ان الجنس البشري كان قد أصبح فاسدا فسادا مطلقا) ويحكي اوفيد هذه الاسطورة (١) . كذلك تحكي الاسطورة الهندية « ريج فيدا » حيث يقوم بطلها « مانو » ببناء فلكه ثم يلجأ الى قمة جبل حينما يتوقف تدفق الماء ، تماما مثل دوكاليون واوتانابيشتيم . وتوجد اساطير الطوفان في كتاب « بوبول فوه » ، وهو الكتاب المقدس لدى هنود الكويشي في امريكا اللاتينية ، كما توجد لدى هنود امريكا الشمالية . وكل قارىء يشك في عالمية اساطير الطوفان ، عليه ان ينظر تحت كلمة « طوفان » في فهرست كتاب « توراة العالم » من تأليف باللو ، حيث يمكنه ان يختار الاسطورة التي تروق له من بين ست صياغات لحكاية الطوفان ، من بينها صياغات فارسية وصينية وهندوسية .

ومن الممكن بالطبع ان تكون كل واحدة من هذه الاساطير ، انما تشير الى طوفان مختلف . فليس مما يعقل ان تكون الصين وشمالي امريكا قد تعرضتا لطوفان واحد في وقت واحد . ولكنه من المهم ان نفكر في التالي : « الا يمكن » ان يكون ثمة حادث معين في تاريخ الارض انطوى على كارثة بلغت من الضخامة حدا يكفي لان يغرق الطوفان مساحات واسعة من الكرة الارضية بأسرها ؟

= التركية شمالي بلاد ما بين النهرين . (راجع : « جماليات ملحمة جلجاميش » الصفحات من ١٧ الى ٢٢ ـ دياجونوف وترافيموف ، ترجمة عزيز حداد ـ منشورات مكتبة الصياد ـ بغداد ١٩٧٣) ، وعلى اية حال فان قصة جورج سميث واسمه وترجمته لا ترد نهائيا في قائمة المراجع ، واصول الملحمة ، واوائل مرات نشرها مع ترجماتها الحديثة ، التي تتضمنها هوامش كتاب دياجونوف الذي ترجمه عزيز حداد . وان كنت لم اطلع على ترجمة الاستاذ طه باقر المشهورة للملحمة . (هـ.م.)

(١) اوفيد ـ بابليوس اوفيديوس ناسو (٤٣ ق.م ـ ١٧ (؟) م) شاعر روماني من العصر الاغسطي ، عرف بكتابه العظيم « ميتامورفوز » الذي جمع فيه واعاد صياغة اساطير « التحول » العظمى في الميثولوجيا اليونانية ، وحيث سرد اسطورة دوكاليون والطوفان ، واصبح نموذجا من نماذج الشعر الاوروبي الكلاسيكية (ترجمه ثروت عكاشة في مصر الى العربية باسم « مسخ الكائنات » . ولاوفيد اعمال شعرية عظيمة اخرى ، « قصص حب » ، « هيروديات » ، « فن الحب » اعتبرت في عصر النهضة وما تلاه ، اصول الشعر العاطفي الاولى . (هـ . م) .

كان هناك مهندس الماني غريب ، يدعى هانس هوربيجر (*) ، اقتنع بانه يملك الجواب على ذلك السؤال ، وقد وضع اسم هتلر في قائمة اتباعه ، وحتى اليوم، فان لنظرية هوربيجر عن « الجليد العالمي » مؤيدين يعدون بالآلاف . (ففي كتاب : « صباح السحرة » يعلن لويس باولز ان له بعد ، مليونا من الاتباع) . يقول هوربيجر ، ان الكارثة حدثت بسبب القمر ، بسبب عملية « أسر » القمر الحالي للارض . فطبقا لما يقوله هوربيجر ، فان قمرنا الحالي هو القمر الرابع الذي تأسره الارض . وكان ذات مرة مجرد كوكب صغير اقترب اكثر من اللازم من الارض ـ في دورانه الحلزوني الحتمي حول الشمس ـ فأصبح تابعا للارض ، مما ادى الى احداث موجة تدمير انزلت بسطح الارض تخريبا شديدا .

اما نظرية « الجليد العالمي » Welsteislehre فنأخذ اسمها من يقين هوربيجر من ان الكون بدأ حينما اعترضت كتلة هائلة من الجليد مسار شمس ضخمة ، فحدث انفجار مروع، ما زال مستمرا الى الآن . ويقول هوربيجر أن هذا هو السبب فيما يلاحظه علماء الفلك من ان الكون يتمدد . ومن المؤكد انه لا يوجد هذا الشيء الذي يدعونه « الفضاء الخالي » ، لان الانفجار لا بد ان يكون قد بعثر مادته في كل ارجاء الكون . ان ما ندعوه « فضاء » ممتلىء في الحقيقة بكميات من الهيدروجين الخفيف وبللورات الجليد الرقيقة . (وترجع فكرته العظيمة الى الفترة التي كان يعمل فيها مهندسا ، فرأى الحديد المصهور ، وهو يسقط بالصدفة على ركام الصقيع ، مما ادى الى الانفجار ، وفجأة امتلكه اقتناع قوي ، بان هكذا كانت بداية الكون) .

وسوف يكون من الممتع ان نرى كيف تصمد فكرة هوربيجر بعد النزول على سطح القمر ، ذلك انه كان قد اعلن ان سطح القمر تغطيه طبقة كثيفة من الجليد، يبلغ سمكها عدة اميال (1) . وطبقا لما يقوله هوربيجر ، فان اقمار الارض الثلاثة السابقة ، كانت نيازك هائلة يغطيها الجليد اقتربت من الارض اقترابا شديدا . ثم جاء اليوم الذي سقطت فيه هذه الاقمار على الارض ـ ذلك انها كانت تدور في مسار حلزوني حول الارض، فكان لا بد ان تقترب منها مثلما تقترب ابرة الجراموفون من مركز الاسطوانة . وتفسر هذه الكوارث الهائلة عصور التطور في الارض ، مثل العصر الجليدي العظيم ، وما الى ذلك .

وقبل ان نصرف النظر تماما عن هوربيجر كرجل مجنون ، علينا ان نتذكر

(*) هانس هوربيجر (١٨٦٠ ـ ١٩٣١)

(1) لقد تم النزول على سطح القمر ، ولم يكن هناك « جليد » ، رغم ان النزول تم على الجانب المقابل للارض من القمر . (هـ . م).

ان العلمـــاء ما يزالون عاجزين عن تقديم اي تفسير لبعض تلك التغيـــرات التـــي طرأت على مناخ الارض . ففي خلال الملايين العشرين السابقة من السنين ، جاء عصر من الامطار الغزيرة (الموسيني) ثم تلاه عصر امتد طوال اثني عشر مليونا من السنين سادهـــا الجفاف المروع وانتشرت الصحاري (البليوسيني) ، ثـــم جـــــاء عصر « البيلستوسين » فكـــان عصرا غريبا متفجرا تخللته تحولات هائلـــة في الطقس ، كانت من ضمنهـــا اربعـــة عصور جليدية طويلة ، استمرت مليونا من السنيـــن . وفي كتاب « اطوار افريقية » كتب آردري فصلا ممتعـــا يصف فيه النظريـــات المختلفـــة التي حاولت ان تفسر وان تصف العصور الجليدية الاربعة التـــي طرأت على الارض في غضون الحقب البيلوستيسينية ، التي امتد آخرها ، المسماة حقبة « فـــورم » طوال المدة من زمن انسان النياندرتال الى منذ ما يقرب من احد عشر الف عـــام فحسب . وتتضمن هذه التفسيرات كلامـــا عن النيازك ، والتحـــولات المفاجئة ، في قطبي الارض ، والانفجارات المفاجئـــة فـــي الاشعاعـــات الشمسية ، بالاضافة الى نظريـــة اردري الخاصة التي تقول ان المجموعة الشمسية برمتهـــا تخترق في دورانهـــا سحابة هائلـــة من الغاز كل مائتي مليون سنة . ومن الممكن بالطبـــع تقديم ما يدحض كلا من هذه النظريات . وبذلك فاننا ما نزال نفتقـــد اي فكرة محددة عن السبب الذي ادى الى حدوث العصور الجليدية العظمى فـــي العصر ما قبل الكامبري ، والعصر البرمي ، وعصر البليوستيسين . وبالتالي فان فرضية هوربيجر ليست اكثر من فرضية تشبه غيرها مـــن الفروض ، وخاصـــة طالما انه يبدو الان ان قمرنا « هو » بالفعل جـــرم غـــــريب ، اصطادتـــه الارض بجاذبيتهـــا من الفضاء الخارجـــي .

حقا ان هوربيجر يرجع تاريخ اسر قمرنا الحالي (الذي يدعوه :الكوكب لونا) الى حوالي ١٢ الف سنـــة قبل الميـــلاد . ولكنه ايضـــا ، متيقـــن تمامـــا مـــن ان اسر « لونـــا » هو الذي سبب الطوفـــان . وقد نوقشت هذه النظرية في واحد مـــن اكثر الكتب الشاذة امتاعا ، هو كتاب « قارة الاطلنطيس والعمالقـــة » الـــذي كتبه المرحوم البروفيسور دنيس سورات عام ١٩٥٧ . ان سورات ، وهو احد اتبـــاع هوربيجر ، يسقط على جملة غريبة من قصة نوح . تقول هذه الجملة : « كان هناك عمالقـــة على الارض في تلك الايام » . وهنـــاك الكثير من البراهين الجيولوجيـــة التي تثبت ان العمالقـــة قد وجدوا « بالفعل » ذات يوم . ففي منتصف الثلاثينات ، اطلع عالم الانسانيات . ج.ر.هـ. كوينجزفولـــد علـــــى « سن » وجـــد بيـــن مخلفات كهف كوانجس في الصين (من العصر التيرتياري المتاخر) بدا انه كـــان لقـــرد عملاق ، يبلـــغ حجمه ضعف حجم الغوريلا الحالية . ثم اكتشفت فيمـــا بعد كميات من هذه الاسنان التي تثبت ان السن الاولى لم تكن اعجوبة شاذة ، وبعـــد ذلك ، في اواخر الثلاثينات ، وبالقرب من قرية سانجيران فـــي جاوة ، اكتشفت

بقايا جمجمة وفك لعملاق بشري ـ لانسان يبلغ حجمه ضعف حجم الانسان الحالي . وقد وصف فون كوينجزفولد كل هذا في كتابه البارز « القرود ، والعمالقة ، والانسان » . وجاءت الحرب التي قطعت مسار كل شيء ، فأبعد اليابانيون كوينجزفولد ، ومنعوا اكتشافاته من ان تتحول الى انباء عالمية هامة . ان « العمالقة البشرية » التى كشف عنها كوينجزفولد ، ترجع الى اكثر من نصف مليون من السنين ..

انني اود ان اقترح اذن ، كافتراض مثمر قد يكون صحيحا بقدر صحة الفرضيات الاخرى ، انه في حدود عام ٤٠٠٠ ق.م ، اسرت الارض قمرهاالحالي. وربما كان للارض اقمار سابقة او لم يكن لها اقمار ـ فليس لدينا طريقة نعرف بها طالما ان الكتابة لم تكن قد عرفت بعد (١) . وتسبب اسر التابع الفضائي في ثورا ن عنيف ، من ثورات بركانية او موجات مدّ عاتية . وهلك جانب كبير من الجنس البشري ، كماكان للكارثة الهائلة آثار بعيدة المدى على الناجين . كان الانسان طوال آلاف من السنين فلاحا مزارعا بدلا من ان يكون صيادا . كان يعيش في جماعات قروية صغيرة آمنة حيث كانت التغيرات ضئيلة من قرن الى قرن . ذلك انه مثلما يلاحظ جيرالد هوكينز في كتابه : « فك رموز صخور ستون هينج»: « ليس من الضروري أن ترحب القبائل البدائية بالتغيرات الجذرية ، انها قادرة تماما على ان تقاوم ابتكارا جديدا حتى لو كان مفيدا بشكل ظاهر ، وان تقضي على حياة المبتكر باعتباره خائنا أو مخربا . واحيانا ما يعتمد التغير الكبير المغزى على القوة » ـ ص ٣٥) . وقد كان الطوفان صدمة كبيرة ، مستثيرة اعمق ينابيع ارادة البقاء . لقد بلغ الامن الذي استمر قرونا نهايته . وانتقل الناجون معا الى وديان الانهار . ومثلما يحدث في كل ازمنة الكوارث ، اخذت الضباع البشرية في اجتناب البلاد ، مما جعل السفر عملا غير مأمون ، واخذت هذه الضباع تغير على الجماعات الصغيرة التي نجت من الكارثة . وكانت « المدينة » هي رد الفعل الغريزي من جانب البشرية ازاء الكارثة : التجمع معا بهدف الراحة والحماية . فاذا كنا على صواب في اعتبار

---

(١) كانت الكتابة معروفة في مصر منذ بداية عصر الاسرات على الاقل (٧٧٧٤) ق.م في قول فلاندرز بيتري ، او ٢٤٠٠ في قول جيمس برستد) وكان هنالك ايضا اله للقمر يدعى «خونسو» وكان الها محليا في اقصى الجنوب قبل ان يصبح احد الارباب العظمى طوال عصر الاسرات . ولم يسجل المصريون ولا جيرانهم من اصحاب الكتابات المعاصرة (بابل مثلا) حادثة « اسر القمر » .راجع:
M . A . Murry : The Splendour That Was Egypt , F.S. book , Lodon 1966 .

وراجع ايضا « مصر » ،« تاليف دريوتون وفانديه ص ٧٢ ـ تعريب عباس بيومي ـ مكتبة النهضة المصرية . هـ . م .

القمر سببا في الكارثة ، فان الناجين بداوا يحدقون في الكوكب الجديد في السماء ـ الذي كان يرسل ضوءا احمر اللون من خلال الجو المغبر ـ فراوا فيه شيئا مرعب المعنى : راوه الها . ان الانسان مخلوق له نظرة اشبه بالرؤية تجللها مشاعر الروعة والغموض ، فيستجيب افضل استجابة للتحدي العنيف. كان الانسان قد اعتاد على العالم الاخضر المسالم الذي تلا العصر الجليدي الاخير (الذي كان قد بدأ قبل ٥٥ الف عام) ، وهو عالم كان الانسان قد اصبح فيه المخلوق صاحب السيادة الاعظم بعد ان كانت حيوانات الماموث والببر المسيف الاسنان قد بادت وانقرضت . ولولا الكارثة لكان قد استمر في حياته الرعوية او الزراعية لمدة خمسة آلاف سنة اخرى مثل اسلافه ، الذين يشبهون قبائل الابوريجين الاستراليين وغينيا الجديدة . ولكن الطوفان جاء فهزه من اعماقه واقتلعه من عالمه الساكن الرتيب .

ويعتقد هوربينجر ان الطوفان هو الذي دمر قارة الاطلنطيس ، ولذلك فقد يكون هو الوقت الملائم للحديث عن تلك الاساطير . تعود اسطورة قارة الاطلنطيس الى افلاطون وحده ؛ الذي يحكي القصة في اثنتين من محاوراته : تيماوس ، كريتياس . ان كريتياس الذي ذكره افلاطون ، وهو شخص حقيقي وليس من بنات خيال الفيلسوف ، يقول ان اسرته تمتلك بعض الوثائق التي كتبها صولون حاكم اثينا ، الذي جاء بمعلوماته من كهنة مصر . ومن المؤكد ان الامر يبدو كما لو كان افلاطون قد ادخل مادة تلك الوثائق في المحاورتين من اجل المحافظة عليها ، وهذا هو التفسير الوحيد الذي بغيره لا يبدو لذكر هذه الوثائق اي مغزى في المحاورتين ، فانها لم تذكر بهدف استخدامها كمثال يضرب مستمدا من خرافة ذات مغزى . يقول كاهن مصر لصولون ان اليونانيين ليسوا اكثر من اطفال فيما يتعلق بالمعرفة التاريخية . انهم لا يتذكرون سوى طوفان واحد ، بينما كان هناك اكثر من طوفان ، بل واكثر . وكان واحد من اعظمها هو ذلك الطوفان الذي دمر قارة الاطلنطيس الشاسعة ، التي تقع فيما وراء اعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وكانت اكبر من ليبيا واسيا معا . وكان الدمار قد جاء في وقته ، ذلك ان اطلنطيس كانت قد قررت ان تهاجم مصر واثينا . وقد حدث كل هذا قبل افلاطون بنحو تسعة آلاف عام . ويضيف افلاطون ان اطلنطيس كانت تفرض سيطرتها على الكثير من الجزر الامر الذي يجعلها تبدو كمجموعة من الجزر بدلا من ان تكون ـ او بالاضافة الى كونها قارة .

وقد بدأ الاهتمام الحديث بقارة اطلنطيس في عام ١٨٨٢ ، حينما اصدر كاتب امريكي يدعى اجناتيوس دونيللي كتاب : « اطلنطيس ، العالم الغارق تحت

البحر » . وهو كتاب جدير بالاهتمـام ومـا يزال قادرا على الهاب الخيال طوال ساعات . ويؤكـد دونيللي ان قارة اطلنطيس كانت قارة ضخمة تقع في المحيـط الاطلسي ، وان ملوكهـا وملكاتهـا اصبحوا الارباب والربات في كل الديانـات الاسطوريـة التالية ، وان هذه القارة كانت اصل اسطورة « جنة عدن » ، وانهـا قد دمرت منذ نحـو ١٣ الف عام تقريبا . وهو تاريخ يتفق الى حد مـا مع ما قاله كل من افلاطـون وهوربينجر . ويدرس كتاب دونيللي كل اساطير الطوفـان فـي العالم ، والمصادفات التي تلتقي حتـى تتكـون منها : « ثقافـة عالميـة » ، وهي الثقافـة التي فكر فيهـا سورات فيمـا بعد .

وجاء بعد دونللي باحث جاد وعالم في الانثروبولوجي ، هو لويس سبنس ، الذي كتب ستة كتب عن الاطلنطيس . ودخل سبنس اكثر من ميدان غريب لكـي يثبت وجود القارة الغارقة : فهـو يقول على سبيل المثال ان حيوان « الليمنج » القارض الصغير الذي يقطـن النرويج ، يهاجر احيانا هجرة « جماعية » فيسبح متوغلا فـي الاطلنطي ،وتبلـغ الجماعـة نقطـة معينة ،وتروح تسبح في دوائـر صغيرة ، ثم تغرق . ويقول سينس ان الشيء نفسه يحدث مع بعض اسراب الطيور .

... لقد نشر حتى الان اكثر من الفين من الكتب والمقالات حول موضـوع اطلنطيس . ومن الموضوعات المشتركـة بينهـا ، فكرة ان سكان الاطلنطيس قـد دمروا انفسهم باستخدامهم للسحر الاسود . ولكـن هذه الفكرة لا تتماشى مـع راي افلاطون ، غير انهـا منتشرة بما فيه الكفايـة لذكرها .

اما احدث محـاولات حل مشكلة الاطلنطيس واكثرهـا عقلا ، فهي محاولـة البروفيسور أ.ج. جالانوبولوس . وتقوم نظريته على حقيقة بسيطة غفل عنهـا الكتاب الاخرون : وهي ان الارقام التـي ذكرت فيمـا يتصل بالاطلنطيس كانـت ارقامـا ضخمة جدا . ويعبر افلاطـون نفسه عن شكوكه فيمـا اذا كـان الاطلنطيون قد تمكنوا من حفر خندق حول مدينتهم الملكية يبلغ طولـه عشرة آلاف طول (١١٣٥ ميلا) . ومن المعترف به ان القدماء كانوا قادرين على القيـام باعمال ضخمـة . فان طول سور الصين العظيم كان يبلـغ ١٥٠٠ ميل ـ ولكن من جانب آخـر ، فان خندقا يبلـغ كل هذا الطول ، يستطيع ان يدور حول لندن الحديثة ـ لندن الكبرى ـ عشرين مرة ! ومعنى هذا ان المدينة الملكية في اطلانطيس كانت اكبر من لندن الكبرى الحديثة ثلاثمائة ضعف . ومن الواضح ان هذا كلام لا يعقل . ولكن اذا خفضت هذه الارقام بنسبة واحد الى عشرة ، فانها تصبح معقولة اكثر .

.. كذلـك يبدو الرقم الذي حدده الكاهن المصري ـ وهو ٩٠٠٠ قبل افلاطون (اي ما يقرب من ١١٥٠٠ قبل زماننا هذا) . انه رقم قد يكون مقبولا لـدى

دونللي وسبنس وهوربيجر،ولكن الادلة الحفرية تثبت ان ثقافة ذلك الزمان كانت ما تزال في العصر الباليوليتي (اي العصر الحجري القديم) . ولم يكن الانسان الحديث قد ظهر بعد ، وكانت حيوانات الماموث ، والخرتيت المشعر ، والببر المسيف الاسنان ما تزال موجودة ، رغم قلتها . وكانت اول حضارةانسانية، وهي الحضارة المصرية ، ما تزال قابعة على بعد ستة آلاف سنة في المستقبل . ولكن اذا حذفنا صفرا واحدا من الرقم، فجعلناه تسعمائة سنة قبل افلاطون، لاصبح التاريخ اكثر معقولية بكثير . لقد وجدت اثينا كبلدة محصنة في العصر البرونزي (حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ، كما كان ثمة مستوى مرتفع من الحضارة في كريت القريبة فيعام ١٦٠٠ ق م ، وهي التي كانت عامرة في ذلك الحين بسكنى المينويين .

والبحر بين بلاد الاغريق وجزيرة كريت مليء بالجزر، كانت في ازمنةسحيقة جزءا من اليونان نفسها . واقصى هذه الجزر الى الجنوب هي جزيرة سانتورين، التي كانت ذات يوم دائرية الشكل ،وكان قطرها يتراوح بين الخمسة اوالستة اميال . وفي حدود ١٥٠٠ ق.م انفجر بركان اقتطع جزءا من الجزيرة ،واحالها الى شيء يزيد قليلا عن صخرة عملاقة . اما سانتورين الحديثة فتتكون من ثلاث جزر : الكبرى ، وهي « ثيرا » فتشبه هلالا كبيرا ، وتغطي سطوح الجزر الثلاث صخور بركانية ورماد بركاني الى عمق كبير نسبيا . ولا بد أن الانفجار الهائل قد ادى الى موجة مدّ عاتية مثل تلك التي اعقبت انفجار بركان كراكاتاو في اغسطس عام ١٨٨٣ ، وربما كانت موجة اكبر ، لان انفجار بركان سانتورين كان اقوى بثلاثة اضعاف . انثورة بركان كراكاتاو تعتبر اقوى انفجار بركانيحدث على الارض . ويقول روبرت فيرنو عن هذا الانفجار ، انه كان يعادل انفجار مليون قنبلة هيدروجينية ... ، فقد انقضت موجاتمن مياه البحر يبلغ ارتفاعها اكثر من مائة قدم على سواحل الجزر ، فقتلت ٣٦ الف انسان ، ومسحت مدنا بكاملها من الوجود . فاذا كانانفجار بركان سانتورين اكبر من هذا بثلاثة اضعاف ، لكان في وسع المرء ان يشرع في فهم اسطورة الاطلنطيس . فلا بد ان جزيرة كريت قد فقدت نصف سكانها كمادمر اسطولها كله . ومن الممكن ان يفسر هذا الانفجار تدمير قصور كروسوس وفياستوس ، هذا الدمار الغامض ، في نفس تلكالفترة تقريبا . ولابد ان موجة المد قد اصابت اليونان نفسها بضربة قاصمة ــ وربما حصلنا هنا على اصول اسطورة ديوكاليون عن الطوفان (رغم انني اكثر ميلا الى ارجاع تاريخها ٢٥٠٠ سنة اكثر من هذا التاريخ ، فتتوافق مع زمن الطوفان الذي اجتاح اور الكلدانية) . ويقول البروفيسور جالانوبولس ان كريت نفسها كانت في الحقيقة هي المدينة الملكية ، بينما كانت سانتورين هي العاصمة التي وصفها

افلاطون . ولا بد ان امبراطورية الاطلنطيس كانت تفرض سيطرتها على الجزر الكثيرة في البحر الايجي . ويصف افلاطون جزيرة العاصمة فيقول ان قنوات دائرية كانت تجري فيها ، وتربطها قناة واحدة عميقة . وتظهر آثار هذه القناة في بقايا سانتورين الحالية .

ولكن لماذا « ضرب » افلاطون كل ارقامه في عشرة ؟ يقدم البروفيسور جالانوبولس افتراضا لا يقل اصالة عن افتراضاته الاولى لتفسير هذا السؤال : ان الكاهن الذي نسخ الوثائق قد اخطأ في فهم الرمز المصري الدال على رقم ١٠٠ — وهو على شكل حبل ملتف — فظنه الرمز الدال على رقم ١٠٠٠ — وهو زهرة لوتس . ويشير جالانوبولوس الى ان الناس الآن يمكن ان يخلطوا بين « البليون » الانجليزي والبليون الامريكي ، فالاول يعني مليون مليون ، بينما يعني الثاني الف مليون فقط .

ولا شك ان دونللي وهوربيجر كانا سيسارعان الى رفض هذا الحل للغز الاطلنطيس باحتقار بالغ (*) فمن الاكثر رومانتيكية ان يؤمن المرء بوجود قارة شاسعة ، كان اهلها اصحاب حضارة رفيعة حينما كانت اوروبا لا يسكنها سوى الصيادين من سلالة الكرومانيون . ولكن الادلة التي جمعها الاستاذان جالانوبولوس ومارينانوس تبدو قاطعة . لقد وصف افلاطون حضارة تنتمي الى العصر البرونزي ، وكانت كريت في هذا المستوى من الحضارة بالتحديد . واذا خفضنا الارقام بنسبة واحد الى عشرة ، فان وصف افلاطون للمدينة الملكية ولسهلها الواسع ينطبق على كريت بدقة . فما لم يتم اكتشاف دليل قاطع على وجود قارة مفقودة كانت في وسط المحيط الاطلنطي ، فان مسألة قارة الاطلنطيس تكون قد انتهت الآن ...

وقبل ان نخرج من عالم ما قبل تاريخ « علم الغيب » المعتم ، لكي ندخل زمن تاريخه المكتوب والمسجل، حيث يوجد قدر كبير يؤسف له من التهريج والهراء الخالص ، علينا ان نتذكر ان السحر ينتمي الى الجزء الخفي من النفس . وقد

(*) وقد رفضه ايضا روبرت جريفز في مقاله : « اطلنطيس المفقودة » — (الواردة في كتابه : حقيبة الروافع — ١٩٦٩) . اما اقتراحه الخاص ، والذي تدعمه اقوال التراث الافريقي التاريخية في زعمه ، فهو ان الاطلنطيس يمكن ان توجد في صحراء ليبيا ، في السهل الساحلي الواطيء الممتد الى داخل القارة خلف خليج سرتة الضحل . ويقول انه : قبل اربعة آلاف عام ، اجتاحت المياه المالحة القادمة من البحر الابيض المتوسط مساحة عظيمة من هذا الاقليم ، ولكن حينما جاء زمن صولون ، كان الدليل الباقي الوحيد على الكارثة ، مجموعة من البحيرات الملحة ، كانت اكبرها تدعى « بحيرة تريتونيس » التي كانت تقع بالقرب من سفوح جبال اطلس . ثم تقلصت هذه البحيرات، وتحولت بعد ذلك الى سهوب ملحية ..»

يمكن ان يدعى السحر علم اكتشاف قوى الانسان الخفية وهو يقوم على الحدس القوي بان هناك الكثير ، الكثير بلا نهاية ، في الحياة ، الذي يزيد عما تقابله العين او الحواس اليومية . وحينمـا يتم ادراك هذه الفكرة بوضوح كنوع من الحدس، فانها تولـد نوعا من القلق او الاثارة الهائلـة الممتعة ، من النوع الذي يشعر بـه الطفل حينما يتساءل عما سيجده في حقيبته ليلة عيد الميلاد ، او حينمـا يكـون بانتظار ان يصطحب الى السـوق العام . ولا ينبغي الخرافة والشعوذة ان يؤثرا على هذه الحالة من التساؤل ، لانهـا تنتمي الى الواقع الحقيقي ، بصرف النظر عن مدى ما قـد تبدو عليه تجلياتهـا من السخف .

ان الاعتراف بهذه الحقيقة الواقعية هو اساس علم النفس عند يونـج . ان يونج ، مثله مثل سير اليستر هاردي ، مقتنع بوجود اللاوعي الجمعي . ويؤدي هذا الى مـا قد يكـون اكثر اضافـة الى علم النفس امتاعا : نظرية الانماط . انه يؤمن بان ثمة رموزا معينة ، لا يمكـن ان يتضاءل معناها ابدا او يستهلك ، لانـه مثل السحابة الكهربائية ، يطوف حول هذه الرموز في سرعـة غريبة . ومثلما يعكس الحلم حياتي الشخصية ، كذلك تعكس الاسطورة حياة الجنس كله . والانماط هي « موتيفات » شكليـة او ادبية ، رمزية ، تتردد بكثرة في الاساطير . ان البطل ذا الالف وجه ، الذي اقتفى جوزيف كامبل تاريخه في كتابه بنفس العنوان ، نمط من هذه الانماط . ويقول يونج في كتابه : « مقـالان فـي علم النفس التحليلي » : « توجد صورة جماعيـة للمرأة في لاوعي الرجل » وتنطبق هذه الصورة « فوق » مختلف النسـاء اللواتي يقابلهن ، وطالمـا انهـا « تتجاوب مع اعمق الحقائق فـي الرجل » فانهـا قد تؤدي الى علاقات غير مناسبة مطلقا ، لانه ربما يكـون يحاول على الدوام ان يضع المرأة الحقيقيـة داخل نوع من قميص المجانين . وتقـول فريدا فوردهام عن النمط الانثوي في دراستها عن يونج : « انها تتمتع بخاصيـة خارجة عن اطار الزمن ـ انهـا تبدو شابة على الدوام ، رغم ان هناك ما يوحي فيها على الدوام بسنوات الخبرة الممتدة وراءها . انها عاقلة حكيمة . ولكنهـا ليست كذلك بشكل صارم نهائي ، انما هناك بالاحرى : « شيء مفعم بالمعنى بطريقة غريبة، يتعلق بهـا فلا يفارقها ، نوع من المعرفة السرية ، او الحكمة الخفية » . انها مرتبطة دائمـا بالارض ، او بالماء ، وربمـا تكـون قد حصلت على قوة عظيمة . انها ايضا ذات جانبين ، او سطحين : سطح مضيء واخـر معتم . . » . اننا نحصل بهـذا الشكل مرة اخرى على « الربة البيضاء » التي تحدث عنها جريفز ، او الربة ذات الوجهين فـي الفلسفـة التانتريـة .

والجانب الثوري من هذه النظرية هو فكرة يونج عن ان الانماط تطفـو باستمرار في اللاوعي الجمعي ، وقد تظهر في الاحلام التي تبدو ذات صلة ضئيلة

بالمشاكل الشخصية لصاحب الحلم . (في كتاب « الانسان ورموزه » يصف يونج احلام فتاة في الثامنة عشرة من عمرها مليئة بمثل هذه الرموز الميثولوجية) . اننا نجد هنا تفسيرا لما تحدث عنه ييتس من « شجرة الحياة » الرمزية وارواحها ، ولـ « شجرة الشامانات » السيبيرية .

يقول فيليب فريويند في وصفه لنظرية يونج عن العقل البدائي : « (انه) اقل تطورا بكثير في امتداده وكثافته من عقلنا . ولم تنفصل بعد او تتمايز فيه الوظائف المختلفة ، مثل الارادة والتفكير. انها في حالة ما قبل الوعي، بمعنى انه لا يفكر بشكل واع ،وانما « تبرز » الافكار منه تلقائيا . لا يستطيع المتوحش ان يزعم انه يفكر ، وانما يمكن القول بان : « شيئا ما يفكر في داخله » .

يتذكر المرء هنا ملاحظة ماهلر من انه ليست الموسيقى هي التي تؤلف، وانما الموسيقار نفسه) . « ان تلقائية فعل التفكير لا تكمن ، بصورة عرضية ، في ادراكه ، وانما ما تزال كامنة في لاوعيه . والاكثر من هذا انه عاجز عن اي عمل واع من جانب الارادة ،عليه ان يضع نفسه اولا في « حالة الارادة » او ان يترك نفسه لكي يوضع في هذه الحالة عن طريق الايحاء التنويمي من جانب الشامان . . » (*)

ورغم ما بين هذا الوصف من تشابه مع ما وصف به بعض الدارسين شعوبا بدائية حقيقية او متخيلة ، فانه وصف يمكن ان ينطبق علينا الى حد كبير . فأي شخص يمكنه ان « يريد » بشكل احسن ، اذا هو وضع نفسه في حالة ارادة . والاكثر من هذا ، فان حادثة معينة او اقتراحا خارجيا يستطيع ان يبلور ارادتي بطريقة تبدو ابعد مما تستطيعه قدرتي الواعية . ويؤكد هذا مرة اخرى ان « انا » الواعي يعاني من نوع من انقطاع الطاقة الدائم ، ويرجع هذا الى ان ما يحرك قوة ارادتي انما هي الحسابات العقلية والاحتياجات، وانني نادرا ما اكرس نفسي لها تكريسا كاملا . وحينما تواجه حقيقتي الاكثر عمقا احتياجا شديد الالحاح ، فان النتيجة ستكون طوفانا من القوة يدهشني انا نفسي . وقد يظهر هذا الطوفان في ذروة النشوة الجنسية . وقد حدث مع نهتشة في شكل عاصفة رعدية ــ الاحساس المفاجيء الغامر بجمال الوجود . يؤكد كل هذا ان الوعي العقلي نوع من « الصمام » الذي يفصلنا عن القوة الكاملة لتيار الحياة الكامن داخلنا. والسحر اعتراف بهذه القوة ، ومحاولة لاختراع الوسائل الكفيلة بالوصول اليها . . . ان حالات الوعي « المنخفض » لا تستطيع ان تفهم الحالات الاسمى و تماما ــ مثلما يقول الدكتور ديفيد فوستر ــ مثل استخدام الضوء الازرق لكي يكون وسيلة تسجيل سيبرناتيكي للضوء الاحمر ،ولكن العكس مستحيل . ان علم نفس يونج يمضي الى مدى ابعد من المدى الذي وصل

(*) فيليب فريويند : « اساطير الخلق » ، ١٩٦٤ ص ٦٩ .

اليه فرويد وتلامذته لانه يؤكد على تفوق الضوء الازرق على الضوء الاحمر للوعي العقلي .

انني اذكر مفاهيم يونج عند هذه النقطة لانها لا بد ان تذكر باستمرار عند النظر في التاريخ اللاحق للسحر . وسيكون من الممتع ان نستطيع القول بان المصريين القدماء ، والكلدانيين والبابليين وغيرهم قد امتلكوا فهما معينا لعلوم الغيب ، وان هذا الفهم قد ضاع تماما منذ ذلك الحين . وليس هذا صحيحا . لقد تمت المحافظة دون شك على التقاليد والمعارف الاساسية للسحر من خلال الشامانات الطبيعيين . ولكن حضارات الآلاف الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح تمثل نوعا من خيبة الامل من زاوية التطور الداخلي للانسان . كان الانسان بين مقعدين ،لم يستقر على اي منهما . كان قد فقد الاتصال بالبساطة القديمة التي جعلت سحر الشامانات القدماء مؤثرا ، ولكن علمه الجديد كان من نوع بالغ الخشونة والغلظة . وكانت تلك الآلاف الثلاثة من السنين اقرب الى برج بابل من ناحية المعرفة المنظمة . فالمصريون ، اصحاب اقدم حضارة انسانية على قدر ما نعرف حتى الآن ، كان لهم اكثر من الفين من الارباب . ويتحدث افلاطون عن تراث حكمة كهنتهم ، ولكن ما نعرفه عن معتقداتهم ــ التي وصفت على سبيل المثال في كتابي سيمر واليس بادج : « الديانة المصرية » ، « السحر المصري » ، لا يكاد يبرز شيئا من تلك الحكمة . كان السحر المصري قائما على « الكلمات ذات القدرة » . لقد آمنوا بان كلمة او جملة ، تنطق بشكل معين بدقة ، يكون لها تاثير سحري ، وان هذه القوة السحرية يمكن ان تحول او ان تنقل الى التمائم والجعلان السحرية . ويروي بادج بعض القصص النموذجية من السحر المصري . فقد استدعى الكاهن تشا ــ تشا ايمانخ الى حضرة الملك سنفرو (الذي حكم فيما بين ٢٦٥٠ ، ٢٥٠٠ ق.م) وطلب منه الملك ان يسري عنه ضجره ومله ، فأوصى الكاهن ان يقوم الملك بنزهة على البحيرة بصحبة فتيات راقصات يرتدين الشباك . وفقدت احدى الفتيات غطاء راسها الفيروزي اللون في مياه البحيرة . فاستدعي الكاهن مرة اخرى ، فاستخدم بعض الكلمات التي استطاع بقوتها (هيكوا) ان يجعل طيات الماء تركب احداها الاخرى . وعثر على غطاء الرأس المفقود في قاع البحيرة ، ثم امر الكاهن المياه بان تعود الى مكانها (*) . اما الساحر تيتا ، الذي عاش في زمن حكم سنفرو وابنه خوفو ، فقد عرف كيف يلصق رأسا في

(*) ينبغي لكل من يرجع الى اعمال سير واليس بادج عن مصر ان يحذر من ان تاريخه لزمن الاحداث لا يعتمد عليه اطلاقا ، اذ انه يزيد نحو ١٢٠٠ سنة عن الزمن المحتمل . انه يرجع زمن حكم خوفو الى ٣٨٠٠ ق.م ، بدلا من ٢٦٠٠ (هـ.م ــ راجع كتاب موري الذي اشرنا اليه من قبل ص.٢٠ ــ حول تحديد التواريخ المصرية ــ واستحالة التحديد ما قبل تحتبس الثالث) (ولاحظ أن فلاندرزبيتري يتفق مع بادج ويختلف منهما جيمس برستد فيما يتعلق بتواريخ الاسرات السبع عشرة الاولى)

جسده بعد ان يكون قد قطع ــ وذلك طبقا لما جاء في مخطوط قديم ، يقول : « ثم جاءه احدهم باوزة ، وبعد ان قطع راسها ، وضع الجسد في الجانب الغربي من البهو ، ووضع الراس في الجانب الشرقي . ثم وقف تينا جانبا وتمتم ببضع كلمات ذات قوة سحرية ، بدأ الراس بعدها والجسد في التحرك في نفس الوقت والاتجاه ، وراحا يقتربان احدهما من الاخر ، حتى التصق الراس بالمكان الصحيح له من قمة جسد الطائر ، الذي بدأ يصيح على الفور » . ثم راح تينا يستعرض نفس المعجزة مستخدما ثورا في المرة الثانية . ويتحدث المؤرخ المسعودي عن مشعوذ يهودي ، كان تلميذا لاحد الكهنة المصريين ، قطع راس رجل ثم اعاد لصقه الى جسمه ، واستطاع ان يحول نفسه الى جمل ثم سار فوق حبل مشدود .

لن تكون ثمة فائدة من التفكير فيما اذا كان كل هذا قد تم من خلال التنويم المغناطيسي . فمن الواضح تماما ان هؤلاء الناس كانوا سذجا يصدقون كل شيء بسهولة الى درجة سخيفة ، وكانت حالتهم العقلية من ذلك النوع الذي ما زال يمكن ان يوجد في قرى عديدة اليوم (ففي برنامج تلفيزيوني بريطاني حديث اسمه « اسرة الانسان » ، وصفت امراة متخصصة في رعاية الامهات قبل الولادة ، بعض المعتقدات غير العادية التي ما زال ابناء الطبقات المتوسطة يؤمنون بها في مدينة اشر بمقاطعة سورى : من ذلك إيمانهم بانه اذا قفزت قطة فوق بطن امراة حامل ، فلا بد ان يولد الطفل مشوها بشكل ما ، واذا وجدت المراة الحامل عنكبوتا على بطنها فلا بد ان يحمل الطفل علامة تشبه العنكبوت على الجزء من جسمه المقابل لمكان وقوف العنكبوت الاصلي) (1) ..

.. اما اكثر الاشياء اهمية فيما يتعلق بالسحر المصري ــ وربما كان هو الشيء الوحيد الهام ــ فهو تأكيده لما ضمنه ليسنر من ان السبب الذي جعل انسان الكرومانيون يتوقف عن صنع صور البشر ، هو ان هذا الانسان قد آمن بأن لهذه الصور قدرات سحرية . اذ تروي واحدة من حكايات بادج ان زوجا مخدوعا تمكن من القضاء على عشيق زوجته بأن صنع تمثالا من الشمع لتمساح ، ثم امر خادمه بان يلقيه في النهر حينما يكون العشيق قد نزل للسباحة او الاستحمام . وتحول تمثال الشمع الى تمساح حقيقي يلتهم العاشق ، اما الزوجة الخائنة فقد تم احراقها . وتدور قصة اخرى حول الملك نيكتانيبوس الذي

---

(1) كانت قصص السحر المصري القديم بالفعل ساذجة الى الحد الذي وصفه ويلسون ، ولكن السبب بسيط ، هو ان السحر كان عملا « مستحيلا » على البشر من الناحية العملية ، لانه كان موقوفا على الآلهة الذين به خلقوا العالم ثم احتكروه لانفسهم . ومحاولات السحر من جانب الكهنة كانت عمليات « شعوذة » يقومون بها لتسلية الملوك . راجع « فجر الضمير » برستد . هـ.م.

استطاع ان يهزم اسطول اعدائه بأن اقام معركة بحرية بين سفن صغيرة كالدمى تسبح فوق بحيرة صناعية . اما « كتاب الموتى » وهو كتاب يحتوي على الطقوس التي يجب ان تتلى على جسد الميت لكي تلقنه سبيل سيره في العالم الآخر ، فيصف كيف يمكن هزيمة الافعى « ابيب » بصنع تمثال من الشمع للافعى ورسم اسمها عليه باللون الاخضر ، ثم جر التمثال فوق سطح تغطيه اوراق البردى ، ثم يجب ان تحرق هذه الاوراق والتمثال معها في نار القش الهادئة اربع مرات في اليوم ثم يمزج الرماد بالبراز ثم تحرق ثانية ، ولا بد من البصق باستمرار على تمثال ابيب الشمعي وهو يحترق . ويؤكد بادج ان ارسطو قدم للاسكندر الاكبر صندوقا مليئا بتماثيل شمعية تمثل اعداءه جميعا ، وتقول الحكايات الخرافية ان ارسطو علم الاسكندر « كلمات القدرة » التي تستطيع ان تهزم اعداءه وتجعلهم اسرى لقوته (ولكن اريان لا يذكر هذه القصة في كتابه عن حياة الاسكندر) . وكان باستطاعة الصور والتماثيل الشمعية ان تقوم باعمال اخرى اقل سلبية من الاعمال السابقة : معالجة الامراض ، وتحقيق حب امراة هاجرة ، اما الصور التي تدعى « شابتي » فكانت توضع في المقبرة مع الشخص الميت ، ويفترض فيها ان تخدمه وان تكون بديلا له في العالم السفلي . وربما كان ما يقدمه « كتاب الموتى » هو اكثر التصورات شمولا عن التعقد العسير على التصديق للمعتقدات الدينية المصرية ، لان فصوله التي يبلغ عددها ١٩٠ فصلا ، تعالج كل انواع الرعب التي لا بد لروح الميت من مواجهتها في رحلتها الليلية الطويلة في العالم السفلي (امينتيت) ، وهي تتضمن تعاويذ تتلى لطرد انواع كثيرة من الافاعي ، ووحوش ذات اشكال بشرية وذيول ، وتماسيح ، وخنافس وضباع عملاقة ــ وكل تلك المخلوقات شياطين حقيقية ذات اشكال حيوانية ــ ورقى تضمن عدم سرقة قلب الميت فتمنع بالتالي حدوث موت آخر . فاذا ما قورن كتاب الموتى المصري بكتاب الموتى التبتي الذي وضع لنفس الغرض ، ولكنه الذي يعترف بان كل انواع الرعب انما هي من انتاج عقل الانسان نفسه ، فان الكتاب المصري يبدو في النهاية في صورة خليط فج بعيد عن النضج .

ويلاحظ بادج ملاحظة دقيقة في قوله : « من مصر ، وعبر اليونان وروما ، انتقل استخدام التماثيل الشمعية الى اوروبا الغربية وانجلترا ، وفي العصور الوسطى وجدت افضل مؤيديها بين اولئك الذين اهتموا باعمال « الفن الاسود » او اولئك الذين ارادوا انزال الاضرار بجيرانهم او اعدائهم . « ولكن المعنى الذي يفشل في ابرازه هو ان هناك فارقا بين الاستخدام السحري للصورة من اجل توجيه العقل بوضوح الى هدفه او موضوعه ، سواء كان ذلك بهدف استخدامها للسحر الابيض او الاسود ، وبين الاعتقاد بأن الصورة نفسها ، تتمتع بقدرات سحرية ، اذا ما زودت بكلمات القدرة .

... لقد تحدثت بشيء من الاستفاضة عن المصريين ، لانني لا اعتزم تخصيص المزيد من المساحة للسحر في العالم القديم . فقد اعتنق السومريون والمصريون والحثيون والفرس والاغريق والرومان خليطا من السخافات لا تبتعد كثيرا عن النظام المصري . ولما كان الاغريق يملكون اكثر الاذهان حيوية في الشرق الادنى ، فانهم ايضا قد تميزوا باقل قدر ممكن من الايمان بالسحر ،رغم انهم قد آمنوا (مثل المصريين بالاحلام والرؤى المقدسة والعرافين . وكان العرافون لديهم ، مثل عرافي « دلف » الذين كانوا من اشهرهم ، كهنة سحرة (شامانات) تقريبا ،ومثل الشامانات كانت عرافة دلفي تفرق في سلسلة من التشنجات لحظة الوحي . اما سحرة فارس (الذين جاءت من اسمهم Mage كلمة Magic) فسوف نبحثهم فيما بعد حينما نتحدث عن زرادشت. وقد كانوا اصحاب نظام كهنوتي يشبه النظام المصري . وكان الرومانيون لا يقلون ايمانا بالخرافات عن المصريين . وتعطي روايتا روبرت جريفز عن كلوديوس صورة صحيحة لانشغالهم الذي لا ينتهي بالنذر والعرافات وانواع الفال ، ومحاولاتهم للتنبؤ بالمستقبل عن طريق زجر الطير ورصد طيرانه او احشاء الحيوانات . وتدور رواية ابوليوس « الجحش الذهبي » حول الجوانب الاكثر خفة من هذه المعتقدات . فهناك على سبيل المثال حكاية الطالب تيليفرون الذي يوافق على ان يمضي ليلة كاملة في مراقبة جثة شخص ميت لحمايته من الساحرات اللواتي يردن تمزيق انفه واذنيه باسنانهن . وتتلو الساحرات تعويذة على تيليفرون فيغرق في النوم وتلتهم الساحرات انفه واذنيه ويضعن مكانها قطعا من الشمع القرمزي . فلا يكتشف تليفرون ما حل به الا بعد وقت طويل حين يلمس وجهه المجدوع المصطلم . وليس هناك فيما تتضمنه حكايات « الجحش الذهبي » او روايتا كلوديوس من سحر يزيد على مستوى السخف والخرافة . وفي هذا المجال ــ الايمان بالنذر وانواع الفال ــ كان الاغارقة احسن قليلا . لقد تعطل ابحار اسطول اثينا بأسره في حروب البليبونيز (القرن الرابع قبل الميلاد) لان جنديا عطس ، ولكن قائد الاثينيين ، تيموثيوس ، جعلهم يسخرون من الموقف ويتخلصون منه بقوله انه لو كانت الآلهة قد ارادت حقا ان تحذرهم من الابحار لكانت قد جعلت كل الاسطول يعطس .

اما الايمان بالتنجيم فياتي تحت عنوان مختلف . لقد لقي التنجيم قبولا عاما ــ ولا شك ان اكثر من مارسوه كانوا مخادعين ومحتالين مثل اكثر سحرة العالم القديم . ولكن لا بد من النظر الى التنجيم باعتباره جزءا من سلالة اعمال الكهنة السحرة (الشامانات)باكثر مما هو ابن غير شرعي للشعوذة . هناك اشخاص معينون يتمتعون بموهبة طبيعية في مسألة « الكشف » عن الغيب ، سواء باستخدام الكتاب الصيني « اي تشينج » او أوراق التاروت ، او قراءة الكف .

فاذا اصبح مثل هؤلاء الاشخاص منجمين فلا شك ان اقوالهم يمكن أن تمتلك دقة مخيفة .

*

... لقد حاولت ان الخص تطور قوى الانسان « الخفية » منذ فجر التاريخ الى مرحلة دخولها فيما يشبه « برج بابل » المشوش الالسنة المختلط الاجناس، وهي مرحلة التدهور والانحلال . فحينما يمتلىء رأس انسان بالخرافات والمعتقدات ، فانما هو ينتزع نفسه باستهانة من المكانة التي تتيحها له قدراته السحرية الطبيعية . وحينما يأخذ في تذويب التمثال الشمعي لعدوه ، فانما هو يشرع في وضع نفسه في حالة انتقامية وتافهة ويضع عقله في نفس الموضع ، الذي هو عكس النزعة الروحية التي مثلها الشامانات (الكهنة السحرة) وعكس اي نوع من انواع النزعات الصوفية . وهناك موقف سلبي وغبي من السحر لا بد من الاعتراف به وادانته . ففي كل مكان من العالم ،وفي ازمنة حديثة للغاية ، وبين شعوب مختلفة من حيث المستوى الحضاري ، كان من يمارسون السحر يعذبون ويحرقون ويطاردون باعتبارهم شياطين بشرية . وقد حكى ليسنر عن حوادث من هذا النوع بين قبائل البدائيين في شمال اليابان ، وحكى بادج عن حوادث مشابهة وقعت في انجلترا قبل عدة عشرات قليلة من السنين .

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، كان جيبون يكتب عن مطاردات السحرة في روما القديمة بأسلوبه الفخم ،وراح يتفاخر بأن العقل المستنير الحديث قد كف عن كل انواع التعصب المدفوعة بدوافع الدين والهوى . ولكن من الواضح ان تفاخره ، وتهانئه لابناء عصره ، جاءت قبل اوانها .

- ٣ -

خبــراء ومبتدئون

لا شك ان عملية اقتفاء آثار تاريخ السحر قرنا بعد قرن وبلــدا بعــد بلــد ستكــون مهمــة طويلــة ومعقدة . وهناك لحسن الحظ منهج اكثر بساطة :النظر في حياة الاشخاص الرئيسيين في تاريخ السحر الغربي . وهذا هو ما اعتــزم القيــام به في الفصليــن التاليـيــن .

ولا بد لــيان ابدأ بتكرار فرضيتي الاساسية العامة . إن القدر البيولوجي للانسان هو ان ينمي وان يطور الملكة « س » . وقد ظلت كل المخلوقات الحية على سطح هذا الكوكبتحاول ان تفعل هذا طوال تاريخها . ووصل الانسان الى منتصف طريق نحو هذا الهدف . والانسان القدير ، الخبير الحقيقي ، هو الانسان الــذي تكــون الملكــة « س » قدتطورتلديه الى مدى ابعــد من المتوسط العام .

وطبقا لهذا التعريف ، لم يكــن هناك خبراء حقيقيون كثيرون . ولا يعنيهذا ان الاسماء العظيمة في السحــر كانت لمدلسين مشعوذين او لاشخاص يخدعــون انفسهم (رغم ان بعضهم كان كذلك) . لقد امتلــك اكثرهم درجــــة عالية مــن القدرات او القوى « الفطرية »، القريبة مــن « حساسية الادغال » التي امتلكها كوربيت . وتكمن هذه القوى عند الطرف الادنى من وعي الانسان ــ الطرفالاحمر للطيف الضوئي . امــا الملكة « س » فتكمــن عند الطرف البنفسجي . .

. . . ان الساحر او الخبير المحنك « نمط » انساني اساسي : انه يرمز الى مصير الانسان التطوري . ويمسكالوصف الذي قدمه بلوير ــ ليتون في روايتــه « المطارَدون والمطارِدون » بجوهره الحقيقي : « لو امكنك ان تتخيل افعى جبارة تحولت الى انسان ،محتفظة في الاهاب الانساني بنموذجالافعى الاصلية ، لامكنك

ان تحصل علـى فكرة افضل (عنه) ، غرض الجبهة وتسطحها ، ورشاقة القوام الدقيق يخفي قوة الفك المميت ــ والعين المرعبة الكبيرة الطويلة ، خضراء لامعـة كالزمردة ــ والى جانب كل هذا هدوء من نوع معين خال من الرحمة ، كمـا لو كان نابعا من الوعي بامتلاك قوة هائلـة لا حدود لها . » وحينما يضيف ليتـون فيمـا بعد نهايـة جديدة للقصة ،فانه يمد هذا الرسم السريع الخطوط فيحولـه الـى صورة كاملـة لرجل يبدو كمـا لو كـان مزيجـا من اليهـــودي التائه وكونـت ســان جيرمـــان .

ولكن لمـاذا هذه الاشارة الى الخطر الوشيك ؟ ان الافاعي ترمز الى الحكمة، وترمز ايضـا الى البرودة والقضاء المميت . وانها لفكرة مثيرة للاهتمـام انتتذكر انه لا توجد صور لـ « ابطال خيّرين » في الادب العالمي . هناك في العادة ابطـال لهم اخطاؤهم المهلكـة وارباهم العصية على التصديق . ولكن اقرب الاشياء الـى الانسـان الاسمى الحقيقي ، بالمعنى الاصلي لهذه العبارة ، هو الشخصية الموجـودة في المسلسلات الهزلية الامريكية . امـا الساحـر المؤذي الذي رسمه ليتون ــ واشباهه في كتابات هوفمـان ،وتييك ، وجـان بول ، وحتى في كتابات تولكيين ــ فهو اقرب الانماط التي يبدو ان الخيال الانساني قد استطاع ان يقترب منخلالها من فكرة الانسانية الاسمى . وعلينا اذن ان نتوقع التالي ، ان افتقارنا الى الاحساس بالمعنـى انمـا يعني اننا نفهم السلبى بشكل افضل من فهمنا للايجابي . هـــل يستطيع احد ــ على سبيل المثال ــ ان يتخيل واحدا مثل « هتلر » مسـاويا له تماما في القوة ولكنه خير كامل الخير يسعى الى السيطرة على العالم من اجل تحريـر الفقراء والقضاء على معاداة السامية ؟ كلا . ان رجل الدولة او الحاكم الخيّر بمبل دائمـا الى ان يكـون مثاليـاعاجزا عن التأثير .

افضلنا لا يستطيع ان يقنع احدا ، بينمـا اسوأنا
مليء بكثافة حادة تلهب الخيـال . .

. . . وباختصاراقول، ان علينا ان نعترف بان تلـك القدرات ليست سـوى امر شائع وعادي . انهـا توجد على نطاق اكثر اتساعا وعمومية مما نقبل عـادة الاعتراف بـه .

فكيف نستطيع ان نستجمع تلك القوى والقدرات ؟ ربما كان مما يتجـاوز هدفنـا ان نسأل : ما الذي يمنعنـا من ان نستجمعها ؟ والجواب هو : الغمامـات التي تغطي عيوننـا ، والآفاق الحبيسة الضيقة التي تحبس نظرنا ، الحقيقةالمقررة من ان وعيي مشغول باشياء تافهة ، من نوع البحث عن السبب الذي يجعـــل سيارتـي تستخدم زيتا اكثر من اللازم ، ومـا اذا كانت فتاة معينة ، لن تكـون مخلصة لزوجها . والطريق الوحيد الذي لا شك في نجاحه من اجل تنمية تلـك

القدرات هـو ان ينظم البشر انصرافهمعن التفاهات ، ورفضهم لما هـو قـريب ، وتركيزهم علـى مـا هـو بعيـد .

لا بد للانسان ان يطور نوعا ايجابيا من الوعي . لقد بلـغ الانسان وضعـه الحالي على سلم التطور والارتقاء منخلال قدرته على تحويل عقله الى ميكروسكوب (مجهر) والتركيز به على الاشياء الضئيلة الصغيرة الحجم . ولكن هذا الموقف حوله الى ضحية لكل ما هو ضئيل وسلبي . ان التاريخ الانساني هـو تاريخ الصبيانية ، والمشاجرات البلهاء حول اسباب تافهة . انه أشبه بما كانت تقولـه ربة البيت في روايـة « تحت غابة اللبن » في جملتها : « قبل ان تسمح للشمس بالدخول ،احرص على ان تمسح حذاءها . » فأصبحنا بذلك عبيدا لقدرتنا المدهشة على الوقوف عند التفصيلات. ومن الواضح ان مثل هذه المرأة لن تكون قادرة حقا على الاستمتاع بان تكون على قيد الحياة . انها اسيرة في شراك سلبيتها الخاصة. وهكذا نحـن جميعـا .

ولست اعرف الا دينا واحدا جعل من الاعتراف بهذه الحقيقة اساسا لـه : الزرادشتية ، دين الفرس القدمـاء . تقول النصوص الفارسية القديمة ، التـي يجمعهـا عنوان « الجاثا » ،تقول ان الكائن الاسمى ، اهورامازدا ، قد خلقتوامين، انتجا فيما بينهما الحقيقة والوهم . وتعتبر الحقيقة والوهـم هنـا العنصريـن الاساسيين اللذين خلق العالم منهما . انهمـا ليسا « الايجابي » و« السلبي » ، لان كلا منهما ايجابي على حد سواء . وقد انحدرا فيمـا بعد الى مستوى الخيـر والشر . (وهناك مرحلة تاليـة ايضا لتدهور الفكرة الاصلية ، حينمـا اصبـح اهورا مازدا ، العلة الاولى ،مطابقا للخير ، بينمـا اصبح عدوه « اهريمان » مطابقا للشر) .ذلك أن الحقيقة هي « المعنى » ــ كامنا هناك بالخارج ــ اما الوهم فهـو « الخضوع » الانساني، او هو ميلنا الى ان نقبع اسرى لقيمنا التـي نختارهـا بانفسنا . اننـا نستمد قدرتنـا على الفعل ، والعمل ، والتركيز ، والتطـور ، من نفس هذا الخضوع ، حتى انه لا يمكـن ان يعتبر شرا او عنصرا سلبيـا . انما يصبح سلبيـامنخلال الغباء الانساني وميل البشر الى الاستسلام للهزيمة .

وكان « الماجي » الذين اشتقت من اسمهم كلمـة « Magic » اي السحر ــ هم كهنـة هذا الدين القديم . وانني لاود ان اقترح اذن ، كافتراض لن يمكـن البرهنـة عليه ابدا او دحضه ــ أن « الماجي » الاصليين قد استمدوا قدراتهـم السحرية من نوع مـا من «الوعي الايجابي» ــ من الاعتراف بان الخضوع لا يكـون خيرا الا بقدر مـا يظل متفتحـا على حقيقـة المعنى القائم خارج نفسه .

الوعي الايجابي حالة متفتحـة سعيدة من حالات العقل ، الانسان العاشـق يمتلـك وعيـا ايجابيا ــ خاصة اذا كـان قد اكتشف لتوه ان الفتاة تبادله نفس مشاعره . انه احساس بما في العالم من قدرة رائعة على اثارة الاهتمام . ومـا

زلنا نستخدم كلمة « السحر » بهذا المعنى ــ اذ نتحدث عن « سحر ليالي الصيف » او « سحر اللحظات ».. ليس هذا سوء استخدام للغة . انما هو ما يقوم عليه ، ويدور حوله السحر الحقيقي .

ان القليل الذي نعرفه عن كهنة « الماجي » مستمد كله من « التاريخ » لهيرودوتس ، بنفس القدر الذي تقوم عليه معرفتنا بقارة الاطلنطيس مما ذكره افلاطون بشكل كامل . ان هيرودوتس ، الذي كان يكتب في القرن الخامس ق.م ، قبل افلاطون بعدة عشرات قليلة من السنين ، كان يتحدث عن مراحل متأخرة من الدين الماجي . ولكنه حتى في هذه الحالة ، قد ادهشه ما في عقيدتهم من نقاء . فكتب يقول: « ليس لديهم صور او تماثيل للارباب ، ولا معابد ولا مذابح، ويعتبرون استخدام مثل هذه الاشياء علامة على البلاهة .. ومع ذلك فان من عادتهم ان يصعدوا الى ذرى اعلى الجبال ، وهناك يقدمون القرابين والاضاحي الى « زيوس » وهو الاسم الذي اعطوه لمجموع دائرة السماء . ويقدمون قرابينهم بنفس الشكل الى الشمس والقمر ، والى الارض والنار والماء ، والى الرياح .. » . وقد تطور الفرس بعد هذا الى عبادة الشمس ، ميثراس ، الذي هو « مخلص » يشترك في الكثير مع يسوع ،(والذي كاد دينه بعد عدة قرون ان يحل محل المسيحية في روما) .

وتأتي كل الاشارات المرجعية عند هيرودوتس بشكل عارض وجزئي ، وبذلك فاننا لا نعرف سوى ان « الماجي » كانوا ماهرين في تفسير الاحلام ، وانهم كانوا فئة بالغة القوة ،استمرت في السيطرة على الحياة الفارسية حتى بعد محاولة بذلت للاستيلاء على السلطة فأدت الى عمليات اعدام جماعية ــ ويفترض ان السبب هو ان احداً لم يكن يستطيع ان يتصور الحياة اليومية بدونهم .

كان كهنة الماجي هم سلالة الكهنة السحرة (الشامانات) في العصر الحجري الحديث . ولكن مع فرق واحد هام .لقد استمد الشامان قوته من « مانا » ، القوة السحرية التي تتخلل الطبيعة . اما الماجي فكانوا ايضا « خبراء » وباحثين متعمقين في الدراسة والمعرفة . لقد عرفوا شيئا من علم الحساب والتنجيم ، وكلاهما كان قد نشأ في بلاد ما بين النهرين القريبة ، كما كانوا ماهرين في عمليات الكشف عن الغيب بالعرافة والتنبؤ . وتدين معتقداتهم الدينية بشيء الهندوس ، ومن المؤكد انهم قد اعتقدوا بتناسخ الارواح وقدرتها على الانتقال. ومن الاشارات القليلة اليهم ، التي توجد متناثرة عند الكتاب الكلاسيكيين ، فانه يبدو بشكل مؤكد الى حد كبير ، ان « الماجي » بدأوا كجماعة ، من المتصوفة ذات نظام اشبه بالنظام الذي تحدث عنه وردزورث . فيتحدث فريدريش فون

شليجل عـن : « تبجيلهم البدائي للطبيعة » ، ويقول انهم لم يكونوا فئة من الكهنة، وانمـا كانوا « جماعـة » او « تنظيما » ينقسم الى مراتب من المبتدئين ، والاساتذة، والاساتذة الكبار او المكتملين (*) ويتحدث ايفاز ليفي ، رغم انه ربمـا لـم يكـن افضل من يمكـن الاعتماد عليهم في هذا الصدد عن : « الاسرار التي منحتهـم السيطرة على قوى الطبيعة الغيبية » ، (وهذا يعني القول بانهم كانوا شامانات)؛ ثم يشير الى اقوال بلليني ولوكيوس باعتبارهما مصدرين لاقواله ، فيقول انهـم كانوا يستطيعـون توليد الكهرباء . وقـد وجدوا قبل مولد « نبيهم » زوروستر (او زرادشت) في القرن السابع ق.م بوقت طويل . ومن الدليل الذي تمدنا به الترانيم الجاثية الاولـى وترانيم « زيندا فيشتا » التي ربمـا يكون زرادشت نفسه هو كاتبها، يتضح ان الديـن قد تحول من عبادة الطبيعة الى شيء اقرب الـى ديانات بلاد ما بيـن النهرين بملائكتهـا وشياطينها . ولكنه تدهور فيمـا بعد الى مستوى عبادة النار . وفي زمـن قورش (الذي مـات عام ٥٢٩ ق.م) انحدر المؤسسـون العظام للامبراطوريـة الفارسية ، كهنـة الماجي ، الى طبقـة دينيـة حاكمـة ، مثلهـم مثل كهنة مصر .

ولكنهم في ايامهم الباكرة الاولى، كانوا جماعة من النساك العابدين والفلاسفة، مثل الاغارقة الذيـن كانوا يحتفلون بالاسرار الاورفية والالويزية ، او مثل جماعة « الاسينس » اليهوديـة . وربمـا كانت اكثر ملامح هذه الجمعية القديمة اثـارة للحيرة ، هي انهم لم يكونوا من اصحاب المعابد . فاذا كان ما قالـه هيرودوتس صحيحـا عن انهم كانـوا يمارسـون عباداتهم على ذرى الجبال ، اذن ، فلا بد لنـا ان نربط بين هاتيـن الحقيقتين ، لكي نستخلص ان الماجي كانوا من متصوفـة الطبيعـة بأكمل معانـي هذه الكلمـة .

... ولا يبدو ان هناك شكا في ان الماجي كانوا جماعة او تنظيما يتمتع بقدر غير عادي من النقاء ، فكانوا الحلقة الطبيعيـة الواصلة بيـن شامانات العصـور الحجرية وبين العبادات السحرية المختلطـة المشوشة في الحضارات المدنيـة . كانوا التعبيـر عن احتياج الانسـان الى الهرب من مصيره الحيواني ، والـى ان « يرى من وراء الغلالة الحاجبة للنظر » .

وهذا هو مـا يثير السؤال : لماذا ؟ ليس الانسان مخلوقا متصوفا بطبعه . انه يزرع ، وينسـل الاطفال ويرعاهم ، ويخوض الحروب ، فاذا كـان يؤلـه الطبيعة ويعبدها ، فليس ذلك الا بسبب الاعتقاد الخرافي القائل بان العنـاصر اربـاب مؤلهـة .

(*) فلسفـة التاريخ ، بون ، ص ٢٢٤ .

وأنا اميل الى الاعتقاد بان الاجابة تكمن في الحرب . فالقصائد الطويلة القديمة كلها تدور حول المعارك والحروب . فقد كان هوميروس يؤلف «الالياذة» في نفس الوقت تقريبا الذي كان فيه كهنة الماجي يؤلفون التراتيم الجاثية باللغة البكتريانية ، لغة شرقي فارس . لقد كان العالم عالما عنيفا وقاسيا . ويحكي هيرودوتس قصة الملك استياجيس ، جد قورش ، الذي يحلم بأن ابن ابنته سوف يخلعه من عرشه . فيرسل الملك احد خدمه ، ويدعى هارباجوس ، لكي يقتل الطفل . وبدلا من ذلك يسلم هارباجوس الطفل لاحد الرعاة . وفيما بعد ، حينما يكتشف استياجيس ان الطفل قورش ما يزال على قيد الحياة ، ينتقم الملك من خادمه انتقاما مروعا . فيدعوه الى مأدبة ، ويطلب منه ان يرسل ولده الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، لكي يساعد في اعداد المأدبة . وفي المأدبة ، يأكل هارباجوس من اللحم حتى يمتلىء ، ويسأله استياجيس ان كان قد استمتع بطعم اللحم ، ويؤكد هارباجوس استمتاعه وتلذذه الشديد . وحينذاك ، يوضع اناء مغطى امام هارباجوس ، وحينما يزيح الغطاء ، يكتشف راس ولده واطرافه . كان يأكل لحم ولده . ويقول هيرودتس : «ان المنظر .. لم يؤثر على سيطرة الرجل على نفسه . ولما سئل ان كان قد عرف الحيوان الذي كان يأكل لحمه ، اجاب بأنه عرفه تماما ، وان كل ما يفعله الملك لا بد من قبوله » . ولكن هارباجوس ، كان فيما بعد هو منظم انتصار قورش على جده ، وذبحه .

يبدو القسم الاول من القصة ملفقا ـ شديد الشبه بقصة اوديب وغيره من الابطال الاسطوريين . ولكن من الثابت كحقيقة تاريخية ان قورش خلع جده من العرش بمساعدة هارباجوس ، الذي كان قد ارسل لكسر جيش قورش ، فانضم اليه بدلا من محاربته ، ولذلك فان قصة هارباجوس تبدو صحيحة . انها تظهر المزاج البربري لهؤلاء الطغاة الشرقيين (*) (وقد امر استياجيس ايضا باعدام جميع كهنة الماجي الذين اقنعوا هارباجوس بالابقاء على حياة قورش) . أن الحياة في عالم بهذا الشكل ، يحيط بهم العنف والطموح ، يراقبون انحدار الانسانية المتجهة الى سكنى المدن ، لن تكون ـ اذن ـ سببا يؤدي الى الدهشة حينما يتحول ورثة الشامانات عن كل هذا العالم ، فيغرقون انفسهم في سكينة الطبيعة الصوفية وهدوئها .

(*) تحكي اسطورة اغريقية عن الملك اتريوس (ملك ارجوس ، وجد مينلاوس واجا ممنون من قادة الاغريق في الالياذة) انه اطعم اخاه لحم ولديه بسبب شكه في خيانة اخيه له . ولبدايهذه القصة لعنة بيت اتريوس التي استخدمها اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديز في مسرحياتهم عن اورست والكترا (ولدي اجا ممنون) وعن افجينيا ابنة اجا ممنون التي قدمها قربانا في اوليس . (هـ . م .)

وعلينا ان نتحدث ايضا ـ في هذا الصدد ـ عن الاسرار الدينية لدى اليونانيين ، وخاصة تلك التي دارت حول اورفيوس واليوزيس ، وعن جماعة « الاسنس » العبرية ، التي ظهرت بعد الاغريق ببضع قرون . ذلك ان كل تلك الجماعات اتسمت بخصائص هامة مشابهة لتلك التي تميز بها كهنة الماجي في بلاد الفرس . ويفترض ان الديانة الاورفية قد وجدت على يدي الشاعر والمغني الاسطوري اورفيوس ـ الذي يكاد يكون معاصرا لزرادشت ـ والذي اشترك ايضا في رحلة سفينة الارجو ، وعمل على تهدئة مشاجرات الابطال الذين اشتركوا فيها باغانيه . وهناك قصائد مختلفة منسوبة اليه ، تصف خلق العالم بخروجه من بيضة كونية ، وتتحدث بالتفصيل عن الحياة بعد الموت . ومثلما اعتقد المسيحيون فيما بعد ، اعتقد اتباع اورفيوس فيما يبدو ان كل من لم يتبع ديانتهم قد حكم عليهم بالهلاك ، ذلك ان افلاطون ، يقتطف واحدة من خرافاتهم التي تعنى ان اولئك الذين لم « يهتدوا » سيقضون حياتهم الاخرى ، الابدية ، وقد حكم عليهم بمحاولة ملء « منخل » بالماء ، مستخدمين في ملئه « منخلا » آخر (وقد كان لدى الاغريق احساس قوي بما يحتويه معنى اللاجدوى من انواع الرعب ، ملثما تدل على ذلك ايضا اسطورة سيزيف ، الذي كان عليه في الابدية ان يدفع صخرةالىقمة تل ما ان تبلغها حتى تتدحرج فيهبط لكي يدفعها من جديد الى الابد) . ولكننا لا نعرف شيئا عن اسرار التعميد او الهداية في الديانة الاورفية ،ولكن قد يمكن تخمين الكثير منها من خلال ما نعرفه عن اسرار طقوس الديانة الاليوزيسية ، طالما ان الديانتين قد امتزجتا غالبا ، كما استخدم اليوزيس في الطقوس الاورفية . كانت اليوزيس ، وهي مدينة على بعد اربعة عشر ميلا الى الغرب من اثينا ، هي المكان الذي عثرت فيه ديميتير ـ ربة القمح والخصوبة ـ بابنتها كوريه (او برسفونيه) التي كان قد اختطفها هاديس (رب العالم السفلى والدار الاخرة) . ومن المدهش تماما ان كلتا الربتين ، كانتا صورا اخرى من ديانا ، ربة القمر ، او الربة البيضاء عند جريفز . وكانت الاسرار الاليوزيسية ، تبدأ بعملية تنظيف واستحمام في البحر ، ثم تبدأ عملية الافصاح عن المعرفة الغيبية ونقلها ، ثم تبدأ عملية التلقين او التعميد التي تتضمن بعض الاختبارات ـ وربما كانت هذه الاختبارات تتضمن التجول عشوائيا في بعض الدهاليز تحت الارض المزودة ببعض « المفاجئات » التي اعدت بعناية ـ واخيرا تأتي عملية تكليل الشخص الذي تمت تهيئته وانتهى تعميده بالازهار . (وكل من يعرف « اوبرا « الناي السحري » (1) لموتسارت يمكن ان يكوّن فكرة

---

(١) الناي السحري ـ اوبرا موتسارت التي الفها حول ليبريتو من شعر ايمانويلشيكاليدير. تتلخص قصتها في ان آلهة الظلام تقدم الناي السحري للامير الراعي تامينو ، ليتمكن من اسر قلب بامينا . ولكن حبه لها كان شهوة جسدية خالصة .ويعرف تامينو انه لا بد من تطهير الناس =

ما عن الجانب « الطقسي » من الاسرار) . وكانت كل هذه الطقوس تضمن لمن يتم تعميده ان يقضي الابدية مستريحا في الحدائق الاليزيه .

اما جماعة الاسنس ، وهم جماعة يهودية من القرنين الثاني والثالث ق.م، فقد كانت لهم ايضا طقوس تعميدية يملأها الوقار ، وعلى المرشح او الطامح في دخول الجماعة ان يبقى تحت الاختبار والملاحظة لمدة عام . ثم تجري له عدة اختبارات لمدة عامين آخرين . وكانت الجماعة اساسا جماعة دينية « تطهرية » ، انتقلت فيما بعد الى البراري بالقرب من البحر الميت ، وهي الجماعة المسؤولة عن كتابة وثائق البحر الميت . وكان اعضاؤها مثل اتباع اورفيوس ، يطالبون بحياة ذات تطهر صارم ، ورفض مطلق لقتل اي كائن حي . ويقول ماكس ديموت بوضوح في كتابه : « اليهود والله والتاريخ » ان يوحنا المعمدان كان من اعضاء جماعة الاسنس ، وان المسيحية كانت نتاجا غير مباشر لعقيدة الاسنس . وقد يكون هذا صحيحا الى حد كبير . ويعتقد الكاتب الصوفي الفرنسي ادوارد تسيوري ان يسوع قد دخل جماعة الاسنس ومر بكل طقوس التعميد اللازمة لدخولها .

ان كل ما تشترك فيه جميع هذه الفرق هو الاحساس بما تبثه اسرارهم من جلال ومهابة ورهبة وروع . لقد نظر الاغارقة والرومان الى دياناتهم نظرة بسيطة فيها قدر من الاستخفاف ، وكان اليهود اقل ورعا والتزاما بالدين مما يحاول العهد الجديد ان يقنعنا به (فالفريسيون كانوا في الحقيقة متساهلين متسامحين ، بينما كان الصدوقيون واقعيين من الناحية السياسية ولم يؤمنوا بالخلود ولا بالبعث بعد الموت) . وكل من قرا ترجمة باتير :« ماريوس الابيقوري » سيتذكر التصوير البهيج لديانة « نوما » في الفصل الاول ، وجوه الرعوي الشديد الاسترخاء .(وكان نوما امبراطورا اسطوريا لروما كان يستطيع ان يسيطر على البرق والصاعقة طبقا لما يقوله اليفاز ليفي) .

ولكن الاسرار كانت مسألة مختلفة . وكان هدفها هو رفع العقل الى ما فوق التفاهة اليومية ، الى مستوى التامل الثابت في خصائص الطبيعة المعجزة . وكانت الطريقة المتبعة في ممارسة الطقوس تجتهد ان تجعل المرشح لدخول الجماعة او اعتناق الدين قادرا على ان يطابق بين نفسه وبين ديميتير وكوري او اورفيوس . وتتخذ قصة ديميتير طابعا دراميا يتلاءم مع هذه المعالجة . فقد تمكن هاريس رب العالم السفلي من اختطاف ابنتها كوريه واغتصابها ،وخرجت

=بلوة آلهة النور . ويجتاز تامينو وبامينا جميع الاخطار الارضية حتى يتطهرا ويطهرا الناي ، ويكتشفان في النهاية « الحقيقة المقدسة » ويتعلمان اسرار ايزيس . انتهى موتسارت من وضعها عام ١٧٩١ وعرضت لاول مرة في ستوكهولم في نفس العام . (هـ . م) .

ديميتير للبحث عنها . ويطول البحث وتمر ديميتير بمغامرات عديدة ، حتى يستبد بهـا القنوط ، فتعلن للارباب انهـا قررت الا تعرف الارض ربيعـا حتى تعـود كوريه . وتمر شهور القحط الباردة ويأتي الربيع فلا يطلع اي شـيء اخضر ، واخيرا يوافق كبير الارباب على عودة كوريه بشرط الا تكون قد اكلت شيئا من طعام العالم السفلي . ولكن كوريه التي كانت قد صامت طويـلا ، كانت قد اضطرت الى اكل ست من حبات الرمان ، فيحكم كبير الارباب بعودتهـا الى امهـا ستـة شهور ، وبقائها في العالم السفلي عند هاديس ستة الشهور الاخرى ، وينقسم العام بهـذا الى ربيع وصيف ،والى شتاء وخريف . فالاسطورة تفسر الفصول ، وتأخذ الطقوس هذا التفسير فتطبقه حرفيا . وتبدأ الطقوس بصيام شعائري ،ثم بقيام للصلاة ليلة بكاملها ، حيث يجلس المرشحون على مقاعد خشبية مغطاة بجلود الماعز وقد غطـوا وجوههم بغلالات سميكـة ، وعليهم ان يتاملوا حول اغتصـاب كوريه واحزان ديميتير وبحثها الطويل . وفي هذا القسم المنطوق من عملـيـة التعميد ، كان كل معنى من هذه المعاني يلقن عن طريق التمثيل الدرامـي المقدس والاحتفالات . ثم تبدأ الاختبارات . ومن المحتمل ان الاختبارات كانت مرعبة وربما كانت خطيرة بالفعل . ثم تأتي الذروة الدراميـة بعد كل هـذا ، فنـرى ديميتير المثقلـة بالاحزان في معبدها باليوزيس ، والحقول الجرداء العارية من كل خضرة ، واستعادة ابنتها ، حيث تأمر الربة الرحيم حقلا من القمح فتطلع سنابله على الفور . وعند هذه النقطـة من الاحتفالات ، يشاهد العباد سنبلة قمح ناضجة .

اما الاسرار الاورفية ، التي ربمـا كان يحتفل بهـا في اليوزيس ايضـا ، فاستخدمت قصة اورفيوس بنفس الطريقة ، مؤكدة احزانه على فقد ايوريديس ، ونزوله الى العالم السفلي ، وفقدانه لها للمرة الثانية حين يتلفت وراءه ليطمئن على وجودها معه في قارب خارون بعد ان نجح في استعادتهـا بأمر من كوريـه التي كانت قد اصبحت زوجة لهاديس وملكـة للعالم السفلي ، بعد ان قبـل شرط هاديس بألا يلتفت وراءه حتى يعبر نهـر ستيكس الذي يفصل عالم الموت عن عالم الاحياء ، واخيرا موت اورفيوس حينما تمزقه اربا وتقطع اوصاله عرائس الغاب ، الميناندات التراقيات ، لانه رفض ان يغنـي لهن ، وفضـل ان يلقـي اشعاره عـن ايورديس .

ولكن ما لم نعرفه حتى الان هو طبيعـة الاسرار التي كانت تلقن للداخليـن الجدد ، وهي اسرار كانت ذات خاصيـة سحرية بالتاكيد . وحتى جماعة الاسنس ، الذين كانوا جمعية زهد او تنسك ديني ، كانت لهم اسرار « سحرية » . يقـول المؤرخ اليهودي جوزيفوس : « لقـد درسوا بداب عظيم كتابات طبيـة معينة تعالج الميزات الغيبية للنباتات والمعادن » . اما بالنسبة للاغريق ولكهنة الماجي فان الطبيعة

كانت شيئـا او كائنا حيا ، غلالة تخفي اسرارا غريبة . فلكل شجرة ولكل زهرة ولكل لون معنى غيبي .(ويكرس جريفز فصلين كاملين من كتاب « الربة البيضاء » لدراســة وكشف المغزى الغيبي للاشجار المختلفة) . ولقد كان هناك مغزى معين لكل نــوع من الزهور التي كانت كوريه تقطفهـا حينمـا اختطفها هاديس .

اما الديانــة الاورفية ، فانها سرعــان ما امتزجت بعبادة الرب ديونيزيوس ، الذي جاء اصلا من تراقيا ، والذي كان يعبد هنــاك في شكــل عجل . وسرعان ما شاعت عبادة ديونيزيوس في كل بلاد الاغريق في القرن السابع ق.م ، لانه كــان بالتحديد الرب الذي احتاج اليه اليونانيون لكي يكتمل به مجمع اربابهم . وتحت اسم « باخوس » اصبح ربا النبيذ ،وكان رمزه احيانا عضوا تناسليا للذكر ضخـم الحجم . ويتحدث فريزر عن طقوس تراقية تتضمن رقصات وحشية ، وموسيقــى مثيرة واسرافا في كل شيء حسي ، ويلاحظ ان مثل تلك الانطلاقات كانت غريبة على طبيعــة اليونانيين العقلية الواضحة . ومع هذا فقد راحت الديانة الجديــدة تنتشر كالسنة اللهب عبر كل بلاد الاغريق ، وخاصــة بيــن النساء ، وربمـا كانت تشير بذلك الى نوع من التمرد ضد الحضارة ، واصبحت ديانة عربدات حسيــة صارخة . كانت النساء يستثرن انفسهن الى حالة جنونية ثم ينطلقن الى التلال ، ممزقات اوصال اي كائن حي يصادفنه في طريقهن . وتحكي مسرحية يوربيديــز « الباخيات » كيف مزقت حشود النساء جسد الملك بنثيوس الذي عارض ديانة باخوس ، وكيف كانت امه واخواته بيــن الجماعة من النسوة التي مزقت اوصاله في حالــة من « الجنون الباخوسي ». ففي اثناء النشوة التي يصل اليها عبـــاد باخوس او عابداته ، كانوا يتحولون الى حيوانات ، ويتصرفــون مثل الحيوانات ، فيقتلـون الكائنــات الحيــة وياكلونهـا نيئة تقطر دمــا .

وقد عرف الفيلسوف نيتشه المغزى العميق لكل هــذا ، فأعلن انه هو نفسه تابع وعبد للرب ديونيزيوس . وتحدث نيتشه عن : « النشوة المباركة التي تبــرز ناهضــة من اعمق اعماق الانسان »، فتحال احساسه بالشخصية المتميزة : وهي باختصار ، النشوة الجنسية او السحرية . لقد راى في ديونيزيوس مبدأ اساسيــا للوجود الانساني ، احتياج الانسان الى ان يتخلص من شخصيته فيقــذف بهــا بعيدا ، وان يفجــر فقاعــة الحلم التي تحيط به فيصل الى درجــة ممارســة اليقين المؤكــد ، الكلي النشوان لكل شيء ومن كل شيء . وبهذا المعنى فــان ديونيزيوس هو بشكل اساسي ، الرب ، او القديس الراعــي للسحر . ان روح ديونيزيوس تتخلل كل سحر ، وبوجه خاص السحر الاسود في عبادات الساحرات المتاخرة ، بعربداتهــا الدوريــة الصاخبة الشديدة الشبه بعربدات النسوة فــي احتفالات عبادة ديونيزيوس ،وحتى في استخدام الماعز ، وهي الحيوان المقــدس عند ديونيزيوس (اليس من الامور الدالة ايضــا ان ديونيزيوس كان الها ذا قرنين،

مثل الشيطان المسيحي ؟) ..

كان كل هذا هو الخلفية اللازمة لمعرفة « المبدع العظيم » الاول في التاريخ المكتوب : فيثاغوراس. من الحق ان المؤسس الاسطوري المصري لفن السحر ، هيرميز تريسميجيستوس (هيرميز المثلث العظمة) يفترض ان يكون قد سبق فيثاغوراس، لكن وجود هيرميز الفعلي موضع شك كبير : (وقد قال المصريون ان هيرميز هو نفسه الرب توت ، الذي منحهم فن الكتابة) بالاضافة الى ان الوثائق المرتبطة به والمتعلقة بتاريخه تعود الى العصر السابق على المسيحية . اما فيثاغوراس فقد ولد حوالي عام ٥٧٠ ق.م ــ وهو عصر بارز وهام ، لان في هذا الزمن بالتقريب، ولد بوذا في الهند، وفي الصين ولد كونفوشيوس ولاوتسين .

ونحن نميل في عصرنا الى ان نربط بين فيثاغوراس وبين بواكير العلم والرياضة . ولكن هذا خطأ . لقد كان اولا متصوفا دينيا يهتم بكل شيء . لقد اراد ان يفهم العالم لانه اعتقد ان مبادئه الاولية كانت في اساسها مبادىء صوفية او غيبية ، وان الرياضيات قد اثبتت له هذا الاعتقاد . فالعدد ، او الرقم ، طبقا للمفهوم العادي الشائع، هو مجرد رقم ــ اي نوع من التجريد . اما فيثاغوراس فقد عرف ان للارقام تفردها المتميز كالجبال والبشر . لقد عرف صديقا له باعتباره « اناي » الاخرى مثل الرقمين ٢٢٠ ، ٢٨٤ . وكان ما يقصده بهذا هو انه من الممكن قسمة الرقم ٢٢٠ على الارقام ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٠، ٢٢، ٤٤، ٥٥ ، ١١٠ ، وان حاصل جمع هذه الارقام هو ٢٨٤ . اما الارقام التي يقبل الرقم ٢٨٤ القسمة عليها ، فهي ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧١ ، ١٤٢ ، وحاصل مجموعها هو ٢٢٠ . اذن فان الرقمين ٢٢٠ ، ٢٨٤ هما « رقمان متحابان » .

هكذا كانت الطريقة التي اشتغل بها عقل فيثاغوراس : عن طريق القياس . (وينطبق هذا على السحرة بشكل عام ، بشعارهم القائل : كما هو فوق ، كذلك تحته) . لم يكن اهتمامه بالعلم والارقام رغبة في بناء سلسلة من المنطق او التفسير المتماسك ، وانما كان احساسا بان كل حقيقة على حدة قد تكون رمزا لشيء اكبر منها بكثير ــ وقد تعكس هذه الحقائق اجزاء من السماء ، مثل شظايا مرآة مكسورة .

وقد ولد فيثاغوراس في جزيرة ساموس لاحد التجار . ويبدو ان بوليكراتيس طاغية الجزيرة ، قد احب فيثاغوراس، فأرسله بتوصية الى صديقه امازيس فرعون مصر ، طالبا منه ان يلقن فيثاغوراس كل الاسرار المصرية .

وهناك قصة عن الفرعون امازيس مع بوليكراتيس تكشف بعمق عن الطابع القدري العجيب لذلك العصر . فقد عرف بوليكراتيس بانه رجل محظوظ الى درجة لا ينافسه فيها احد . واحس امازيس ان هذا الحظ لا يمكن ان يدوم ، طالما ان

الارباب لا يسمحون للبشر بان تطول سعادتهم . فنصح بوليكراتيس بان يفرض على نفسه قدرا ضئيلا من العذاب او المعاناة او الظروف غير المناسبة . فأخذ بوليكراتيس خاتما ثمينا ورماه في البحر . وبعد ايام اتاه صياد بسمكة هدية . ووجد بوليكراتيس خاتمه في بطنها . واصبح امازيس مقتنعا بأن شيئا لن يتمكن بعد ذلك من منع سوء الحظ الذي لا بد سيأتي . وفي الحقيقة ان الطمع هو الذي جاء بسقوط بوليكراتيس. فقد راح حاكم فارسي لجزيرة مجاورة يغريه بالمجيء لزيارته على اساس ان الجزيرة مليئة بذهب كثير ، ولما ذهب بوليكراتيس اعتقله الحاكم الحاقد وراح يعذبه بطريقة قال عنها هيرودتس انها كانت مقززة لدرجة لا يمكنه ان يذكرها . ومما يلفت النظر ان ابنة بوليكراتيس رات الكارثة في حلمها قبل ان تقع واخذت تحاول اقناع والدها بعدم الذهاب ، ولكنه اصر على الذهاب الى حتفه . وهنا نستطيع ان نرى مرة اخرى الخصائص المميزة لتلك الفترة من التطور الانساني : القسوة والحسد والاحلام المنذرة والخرافات والقدرية المتشائمة التي تبرهن الايام على صحة ما كانت تخشاه بدقة مفحمة .

وبعد مجموعة من الطقوس ، تضمنت الختان ، تم تعميد فيثاغوراس في طيبة ، وتعلم اللغة المصرية كما يقول ديوجينيس ليرتيوس ، وارتبط بعلاقات مع الكهنة الكلدان ومع الماجي الفرس . وتعلم منهم الفلك ، ـ وكان الكلدانيون قد ابتكروا رموز دائرة البروج (الزودياك) ورموز الارقام . (وربما كانت نظرية فيثاغوراس المشهورة عن مربع وتر المثلث القائم الزاوية قد جاءت مع ما تعلمه فيثاغوراس من الكهنة المصريين .) ومع ذلك ، فان الملك الفارسي قمبيز تمكن من غزو مصر ، فأرسل فيثاغوراس الى بابل ، فقضى هناك نحو عشر سنوات درس فيها اسرار بلاد ما بين النهرين . وبشكل عام ظل فيثاغوراس بعيدا عن موطنه طوال اربع وثلاثين سنة ، وفي خلال هذه المدة ، لا بد ان يكون قد التقى بحكماء من الهند والصين ، اذ يظهر عنصر قوي من التصوف الشرقي في فلسفته المتأخرة ، بالاضافة الى اعتقاد في البعث بالجسد طوره وعبر عنه في نوع من التناسخ ، وهو الاعتقاد بان الروح قد تنتقل الى جسد مخلوقات اخرى ، بما في ذلك الحيوانات .

ويعود فيثاغوراس الى ساموس ، حيث يكتشف ان راعيه بوليكراتوس قد اشتد سوءا ، وكان النظام قد اكتسب اساليب القهر المنظم ، فانتقل الى كورتونا في جنوب ايطاليا . وكانت جاذبيته الشخصية عظيمة لدرجة انه جمع عددا كبيرا من التلاميذ ، ولكنه اثار من حوله الحسد ايضا والعداوة . وحتى اخوه في الفلسفة ، هيراقليتوس ، كان لديه بعض الملاحظات الساخرة عن فيثاغوراس . واستطاع احد الاعداء ان يثير ضده سكان كورتونا ، وذبح بعض اتباعه . (ويقول ادوارد شوريه ان سيتون ، الذي اثار الناس ضد فيثاغوراس كان احد التلاميذ الذين ابعدهم الفيلسوف) ويقول ديوجينيس ليرتيوس ان فيثاغوراس

قد قتل في كورتونا حينما احترق في منزله الذي اشعلت فيه النار . اما بروفيري فيقول انه استطاع انفرار الى ميتابونتام حيث مات بعد ان بلغ الثمانين.

وفي خلال الاعوام الثلاثين التي عاشها فيثاغوراس في كورتونا ، اصبح واحدا من اهم مصادر التاثير الثقافي في عالم البحر الابيض المتوسط . وقدجلب النزعة التصوفية الشرقية الى الغرب . وكانت مدرسته مدرسة للمتصوفة ، وكانت طقوس التعميد فيها طويلة عسيرة . وقد كان فيثاغوراس فيلسوفا اكثر منه ساحرا : وفي الحقيقة انه هو الذي ابتكر كلمة : فيلسوف . ولكن فلسفه ذات النزعة التصوفية المتطرفة ، كانت ذات تاثير عظيم في تاريخ السحر .

وطالما قد قلنا هذا ،فلا بد من الاعتراف بان فلسفته كانت اصيلة تثير الدهشة اكثر منها فلسفة عميقة او نافذة . ومن الواضح انه امتلأ بالدهشة حينما اكتشف ان ثمة علاقة بين« النوتات » الاربع الرئيسية في سلم الموسيقى اليونانية وبين المسافة التي تفصل بين كل منها اذا ما قيست على وتر القيثار .

.. وقد اقام فيثاغوراس فلسفة كاملة تصوفية النزعة على هذا الاكتشاف. فقد كانت المسافة بين انوتات على اوتار القيثار هي ٣ ، ٤ ، ٦ ، كما كان من الممكن انتاج النوتات نفسها على اساس نسبة ١ الى ٢ (اوكتاف) ، ٣ الى ٢ (النوتة الخامسة)، ٣ الى ٤ (النوتة الرابعة) . وتتضمن الارقام الاربعة ارقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ التي يصل حاصل جمعها الى عشرة ، وهو رقم مقدس . ويبدوهذا الاكتشاف شيئا بسيطا الى درجة السخف بالنسبة لاذاننا المعقدة ، ولكن لا بد من ان نتذكر ان عددا قليلا جدا من الناس في تلك الايام هم من كانوايستطيعون ان يعدوا الى عشرة ، كما كان حساب الضرب ما يزال مجهولا ، حتى عندالمصريين. وطرانفيثاغوراس ـ كنوع من الالهام او الكشف ـ انتلك النوتات الاربع ـ التي اذا ما عزفت معا اصبحت منسجمة متناغمة الى هـذا الحد ـ لا بد ان تكون قابلة للتفسير على اساس كلالارقام . وقفز ذهنه الى الفكرة المذهلة عناحتمال ان يكون كل ما في الوجود والكون من تناغم راجعا الى اسرار عددية كامنة في الارقام من نفس ذلك النوع. فالوجود او الكون يبدأ بالوحدة الخالصة النقية المقدسة ، رقم واحد ، ثم تنمو الى « الاربعة المقدسة » ، وحاصل جمع الارقام الاربعة الاولى هو عشرة،الرقمالمقدس ،الذي منه ينبع كل شيء آخر .

وبنفس الطريقة تستطيع ان تصنع مثلثا من النقاط ٤ بان تضع اربع نقاط للخط السفلي ، وثلاث نقاط للخط التالي ، ونقطتين لما يليه ، ونقطة واحدة للقمة او الراس المثلث (ويبدو ان الاغريق كانوا يسجلون الارقام بطريقة رسم النقاط البدائية) .وقد اثبت هذا لفيثاغوراس ان المثلث ايضا رمز صوفي مقدس .

فاذا صنعت عددا من تلك المثلثات ، وزودت كلا منهـا بخط اضافي من النقاط ، فانك ستلاحظ ان ايا من تلـك المثلثات ، اذا مـا اضيف الى المثلث السـابق عليه، فانهمـا يصنعـان « مربعا » . وهذا يعني القول بان مثلثا مصنوعا من ٣ نقاط اذا ما اضيف الى مثلث مصنوع من ٦ نقاط ، لصنـع ٩ نقـاط ، وهـذا معنـاه ٣ مرات ثلاثـا .

ويبدو كل هذا مثل لعبة حسابية لا ضرر منها . ولكننـا نستخدم الادراك المختزن عبر قرون طويلة من العلم . فمن اجل ان نفهم التأثير الكامل لفيثاغوراس على عالم البحر الابيض المتوسط في زمانه ، فان علينا ان نتخلىعن كل تعقيدنـا ؛ وان نرحل الى الوراء الفين وخمسمائة من السنين . كانت هناك « اسرار » كثيرة ومتنوعة ــ الاورفية والاليوزيسية والمصرية والبابلية ــ كما كانت هناك آراء تثير الاهتمـام حول الحياة والموت والآلهـة . ولكن احدا لم يحاول ان يوحد كل تلك الاسرار فيحولهـا الى بنيـان واحد عجيب من المعرفة . ولقد عرف فيثاغوراس شيئا عن الارقام ، وعرف شيئا عن الموسيقى ، وعرف شيئا عن التنجيم ، وعرف اشياء عن آلهـة مصر وكلدانيا وفارس والهند . وكانت الاسرار الفيثاغورية قائمة على اسرار اورفيوس ، الذي كـان في تلك الفترة ، قد اصبح متطابقا بشكل ما مع ديونيزيوس . وديونيزيوس هو قوة الحياة ذاتها ، لا شكل لها ، وغلابة مسيطرة . وابوللو هو رب الفـن والنظام والتناغم المنسجم . انـــه ليس النقيض حقا لديونيزيوس ــ فليس سوى الموت نقيضا للحياة . ان ابوللو يمثل شكلا مناشكال ديونيزيوس اكثر تعقـدا وانتظامـا ، محاولة تبذلهـا الطاقة التي لا شكل لها لكي تعبر عـن نفسهـا باعتبارهـا جمالا مرئيـا ، في تناقض مع القبـح والفوضى . وابوللو رب كوني وعالمي ، انه حورس المصريـيـن ، وميثراسالفرس ، وماردوك البابليين . فكيف اضبح ديونيزيوس هو ابوللو ؟ من خلال تنظيم المادة تنظيمـا متناغمـا منسجما ، طبقا لقوانيـن التناسب المقدسة ، مثل ذلك القانـون الذي عثر عليه فيثاغوراس دون قصد في الموسيقى .

كان هـذا هو جوهر رؤية فيثاغوراس ، وعلى الرغم من جوانب عدم الدقة فيها ، فانهـا رؤيـة سليمة بشكل اساسي ــ وربمـا كانت اكثر سلامة وصوابا مما سوف تصادفه في اي مكـان آخر مـن مملكـــة السحـر . لقـد ادرك فيثاغوراس بشكل غريزي الحركة التطورية الصاعدة للحياة ، الحركة التي تبتعد بالتدريج من الغريزة الحيوانية و « حساسية الادغال » صوب : « الرؤية البعيدة » او القدرة علىادراك آفاق الحقيقة البعيدة . وعلى العكس مما فعـله معاصروه ، طاليس ، وهيراكليتوس وبارمينيديس ، وعلى العكس مما حدث لارسطو فيما بعد، لم يفقـد فيثاغوراس قدرته على الامساك الواثق بالجانب الغامض الغيبي ، الـ « واحد » ــ الذي قد يدعوه الهندوس : « براهمـان » ــ ولكنه حاول ان يفهـم الى« واحد » باستخدام ذهنـه .

وكانت النتيجة معقولة احيانا ، وفي احيان اخرى لم يكن لها معنى . ويقول ديوجينيس انه اعتقد بان الهواء القريب من الارض ملوث ، ولذلك فان كل مخلوق يعيش على الارض عرضة للمرض والموت . اما الاجواء العليا فهي في حركة دائمة ، ولذلك فانها قادرة على توفير الخلود . وكان موقفه من الجنس مليئا بالاشمئزاز والنفور ، رغم انه كان متزوجا وكانت له ابنة واحدة على الاقل ،وقد نصح بالجماع الجنسي في الصيف لا في الشتاء ، ولكنه يضيف : « ان ممارسة هذا العمل ضارة في كل الفصول ، وليست مفيدة للصحة على الاطلاق » .وقال أن لذة الحب ، تجعل الرجل: « اكثر ضعفا من حقيقته » .

. . وقد صدق معاصروه كل انواع الاساطير المتعة عن قدراته السحرية . وتقول احدى القصص انه تمكن من ترويض دب مفترس بان همس في اذنيه ، ونادى شرا من السماء لكي يستقر على معصمه . وحين كان مع احد تلاميذه يرقبان سفينة اثناء دخولها الميناء ، وتساءل التلميذ عن اي كنز يمكن ان يكون عليها ، تنبأ فيثاغوراس بأن حمولتها كانت جثتين جيء بهما الى الوطن لكي يدفنا في ترابه . هكذا احيطت حياته بالاساطير السحرية حتى لم يعد هناك سبيل الى معرفة ما اذا كان وسيطا ، ام كان ببساطة فيلسوفا ذا نزعة صوفية . ويبدو ان معاصريه اعتادوا ان يسخروا منه في امثالهم ، ويؤكد احد مؤرخيه ان نزوله المزعوم الى العالم السفلي لكي يتحدث مع الموت كان خرافة مصطنعة ، وقد اختبأ فيثاغوراس بالفعل ذات مرة طوال عدة اسابيع في احد الكهوف ، وطلب من امه ان تكتب له اخبار ما يحدث في العالم الخارجي لكي يتظاهر بانه عرف ما يعرفه بطرق خفية غير طبيعية . وربما كانت فيه لمسة الدجال ، ومعظم « المبدعين الكبار » كانت فيهم هذه اللمسة ، مثلما سنرى . وربما كانت نزعة فيثاغوراس الى الدجل — مثل مزاعمه عن تذكره لمرات تجسد روحه السابقة في عملية تناسخها وما الى ذلك — ربما كانت نوعا مما فعله جوردييف ، لكي يخلق الجو المناسب لاستقبال افكاره.وقد عاش فيثاغوراس الى سن متقدمة جدا — ويقول ديوجينيس ليرتيوس انه بلغ التسعين — فيبدو انه كان رجلا قوي الجسم والصحة ،استطاع ان يذهل الجميع ذات مرة بالفوز ببطولة الملاكمة في الالعاب الاوليمبية .

. . . . فاذا لم نكن قادرين ابدا ان نتيقن مما اذا كان فيثاغوراس قد امتلك شيئا من القدرات الغيبية ، فلن يكون هناك شك من اي نوع في حالة اكثر تلاميذه شهرة ، وهو ابوللونيوس من تيانا ، الذي عاش في القرن الاول الميلادي ، والذي كتبت ترجمة حياته بعد ذلك بقرن واحد على يدي يوناني متمرس يدعى فيلوستراتوس . وتمتلىء هذه « الحياة » بالكثير من انواع العبث السخيف والوان العجائب . . لقد امضى ابوللونيوس الكثير من حياته ، مثل فيثاغوراس ، في الترحال ، اما فلسفته ، التي تظهر في شكل سلسلة من الخطب عند

فيلوستراتوس ، فهي تركيبة تجمع بين افكار فيثاغوراس وتراث المصريين والبابليين والهندوس السحري . وقد كتب فيلوستراتوس كتابه عن ابولونيوس لكي يهديه الى الامبراطورة جوليا ، زوجة سيفيروس ، ويبدو انه اقام كتابه على اساس ذكريات داميس النينوي ، وهو تلميذ وصديق لابولونيوس . (لقد كان هذا الاسم : الامبراطورة جوليا ، هو الذي جاء لكي يمهر امرا صدر لديوجينيس ليرتيوس لكي يكتب كتاب : « حياة الفلاسفة » الذي اقتبس منه) . وكانت النتيجة هي المزيج المعتاد من الواقعية والخرافة . وليس من العسير جدا ان نرسم الخط الفاصل بينهما . يقال لنا ان ابولونيوس كان ربا من الارباب ، وابنا لبروتيوس، وان احد المشهرين به ، وهو تيجيللينوس ، قد سحب اتهاماته له (بعدم الايمان بنيرون) حينما اعترف بابولونيوس كاله . ومن الجانب الاخر ، فمن الواضح تماما ان ابولونيوس قد امضى جانبا كبيرا من حياته في الدفاع عن نفسه ضد الاتهام بانه يمارس السحر الاسود ، وانه كان في الحقيقة فيلسوفا متجولا رحالة، ووسيطا ، لم يكن يعتبر الها على نطاق واسع ولا حتى كساحر حقيقي .. وثمة لمسة انسانية واحدة تبدو من الاصالة والصدق بحيث لا يمكن ان تكون من ابتكار الناس . فحينما ذهب ابولونيوس لكي يستشير عرافة دلفي ويسألها ان كان اسمه سوف يذكر في المستقبل ، اجابته بانه « قد » يذكر ، وانه لن يذكر الا لانه سيلعن كثيرا . ومزق ابولونيوس الورقة التي كتبت له فيها النبوءة ـ الامر الذي لا يبدو مناسبا كرد فعل من فيلسوف . ولكن العرافة اثبتت انها كانت دقيقة في نبوءتها . لان الكثيرين من اعداء المسيحية حاولوا فيما بعد ان يقيموا من ابولونيوس منافسا للمسيح يسوع ، وقد اصبح معروفا بشكل اساسي كعدو للمسيح) .

وتبدو القصص التي تحكي عن قدراته السحرية كما لو كانت منتزعة من كتاب « الجحش الذهبي » . ففي روما ، قيل انه احيا من الموت سيدة شابة ذات اصل وقرابات ارستقراطية ، ادى موتها الى ان ترتدي المدينة كلها ثياب الحداد . (ومن الطبيعي ان القدماء لم يكونوا يعرفون ان الدمار الحاد للدماغ يحدث في خلال ساعات من الموت (*) وبذلك فان الشخص الذي يكون قد اعيد بمعجزة الى الحياة لا بد ان يعود ابله او معتوها ، وينطبق نفس الاعتراض بالطبع على احياء العازر على يد المسيح) . وحينما قدمه صديقه وتلميذه مينيبوس الكورنتي الى من

(*) المعروف ان التحلل في خلايا المخ (وهو ما يسمى بالموت البيولوجي) يبدا بعد ٥ الى ٧ دقائق من توقف الدورة الدموية والنبض (وهو ما يسمى بالموت الاكلينيكي) . ولكن ويلسون يقول ان الدمار الحاد للدماغ يحدث في خلال ساعات من الموت . والمعروف انه من الممكن نظريا اعادة تشغيل القلب والدورة الدموية في خلال الدقائق التالية لتوقفهما ما لم يكن التحلل قد بدا في المخ . (هـ . م .)

ستكون عروس مينيبوس في المستقبل ، تعرف ابوللونيوس على الفور على حقيقتها كمصاصة دماء (تدعى لاميا ـ وقد كتب كيتس قصيدة بهذا العنوان عن نفس الحكاية) . ورفض مينيبوس ان يصدق تحذيرات صديقه ، ولكن ابوللونيوس جاء الى الزفاف ، وببعض اللمسات السحرية جعل الضيوف والمأدبة يختفون جميعا ـ فقد كانوا كلهم اوهاما مرئية صنعتها لاميا ـ ثم جعل العروس تعترف بانها كانت تعتزم التهام مينيبوس . (اما كيتس ، العاطفي ، فيجعل لاميا افعى عاشقة ، تتحول الى امرأة لكي تفوز بحبيبها ، اما ابوللونيوس ، الفيلسوف البارد القلب ، فيكشف حقيقتها ، ويدمر سعادة الحبيبين) .

وهناك قصة اقل خيالية من سابقتها تحكي ان ابوللونيوس حذر اهل افسوس من طاعون قادم . ولحسن الحظ اكتشف ابوللونيوس شحاذا يحمل عدوى الطاعون ، فأقنع اهل المدينة بان يرجموه حتى الموت ، فتحول الشحاذ الى كلب اسود . وربما كانت القصة صحيحة دون نهايتها ، وان ابوللونيوس نصح السكان برجم الشحاذ وقتله كأخف الضررين .

اما نوع التشهير الذي كان على ابوللونيوس ان يواجهه طوال حياته ، فتصوره الحكاية التي تروي عن محاكمته امام الامبراطور دوميتيان . فقد ظهر عدو لابوللونيوس اسمه ايوفراتس ، اتهمه بالتآمر ضد دوميتيان وبقتل احد رعاته ، لكي يعرف من باطن اظفاره وامعائه موعد سقوط الامبراطور . (ولا بد ان نتذكر ان الرومان كانوا يؤمنون بالتنبؤ عن طريق النظر في الامعاء ، ولكن امعاءالحيوانات لا البشر) وجاء ابوللونيوس من تلقاء نفسه الى روما وقدم نفسه لكي يجيب على الاتهام ، واثقا فيما يبدو من ان مصيره لا يدل على انه سيموت بيدي الامبراطور. وكان دفاعه هو انه لم يحدث في حياته ان قدم ضحية بشرية في اي وقت ، وانه قد امضى الليل في تساؤل جالسا الى جوار تلميذ له يحتضر ، هو فيليسكوس من ميلوس . ويقول انه فيلسوف ، ويبدو انه ينكر امتلاكه لاي قوى سحرية . ويقول ايضا انه سيكون سعيدا لو تمكن من النزول الى هاديس لكي ينقذ روح فيليسكوس . ولما كانت احدى الاساطير الدائمة عنه تقول انه بالفعل قد نزل الى هاديس (مثل فيثاغوراس) فانه قد يبدو ان هذا الجزء من القصة حقيقي بالفعل ، على اي حال . وهكذا نحصل على لمحة من صورة ابوللونيوس كما كان في الحقيقة : فيلسوف ، طبيعي ، وعراف متنبيء الى حد ما ، على استعداد لان يبذل نفسه من اجل خيرالناس. وهناك القصص الكثيرة عن قدراته الاخرى:القدرة على اخصاب الارض (مثل الشامانات القدامى) وعلى الكشف عن الكنوز المدفونة. وهي قصص مليئة بالهراء الكثير ، وفيها دائما بذرة حقيقة ما . . ولا شك انه من السهل تماما ان نعرف السخافات حين نراها ، ولكن الاقل سهولة ان نصل الى الحقيقة الكامنة وراءها .

- ٤ -

عـالـم القبليــــن

عاش ابوللونيوس من تيانا في واحد من ابرز العصور في التاريخ الانساني. ذلك انه بشكل مفاجيء تماما ، انتشرت في عالم البحر الابيض المتوسط باسره جماعات من الناس الذين ارادوا ان يديروا ظهورهم لحياة المدن ، والذين شعروا باشتياق حاد الى التأمل ومعرفة اللانهائي . ومثلما فعلت جماعة الاسينس ، انتقلت هذه الجماعات الى البراري وكونوا جماعاتهم الخاصة. لم يكونوا مسيحيين، وجاءت الكنيسة لكي تشير اليهم باعتبارهم « الغنوصيين » او « الادريين » ولكي تدمغهم بالهرطقة والتجديف ، وبمثل ما عرفت به الكنيسة من عنف ورغبة في الشمول ، فانها قامت بتدمير اكثر سجلاتهم المكتوبة ، وتركت اقوالا معادية ومشوهة عنهم في الكتابات الدينية .

كان هذا الخروج الجماعي الى البراري ظاهرة غريبة . ومن الممكن اعتباره الخطوة التطورية العظمى الثالثة التي خطاها الجنس البشري . كانت الاولى هي ابتكار حياة المدن حوالي ٤٠٠٠ ق.م . وكانت الخطوة الثانية هي الحركة الدينية التي اجتاحت العالم الغربي في القرن السابع ق.م ــ وهذا هو العصر الذي انتج زرادشت وبوذا ولاوتسي وكونفوشيوس ، واورفيوس وفيثاغوراس وديونيزيوس ، بالاضافة الى ديانات الاسرار التي انتشرت في كل بلاد اليونان وجيرانها ... كانت هذه حركة دينية حقيقية انتشرت في موجات متلاحقة في العالم الغربي ، ووصلت الى بلاد الغال والى بريطانيا في شكل الديانة الدرويدية (وليس تاريخ ظهورها معروفا ، ولكنه في حدود ٤٠٠ ق.م).

واستهلكت الحركة قوتها ، وحل محلها نزوع متحضر الى الشك في بلاد اليونان والرومان . ثم حدث في القرن السابع قبل ميلاد يسوع ان بدأت موجة

جديدة في استجماع قوتها . وكانت هذه الموجة ردة فعل ضد الشك الوثني والامبريالية الرومانية . فبينما كان يهوذا المكابي يقود حملته من حرب العصابات ضد الرومان ، تراجعت جماعة الاسينس الى شواطىء البحر الميت واقاموا هناك نوعا من اليهودية الصوفية . وقبل ميلاد عيسى بنحو مائة عام ، استضافت جماعة الاسينس رجلا يسمى نفسه ببساطة : « المعلم الاعظم » . ولكن اسمه الحقيقي لم يصل الينا .

ثم جاءت المسيحية ، ومعها جاء مولد النزعة « الادرية » . وليس من الضروري ان ننظر اليهما كاتجاهين متعارضين ، وانما كتعبيرين مختلفين عن الاشتياق الانساني الى الهرب من عقم الوجود الانساني ــ ولا جدواه . لقداحرزت المسيحية سطوتها ونفوذها من خلال تبشيرها بنهاية العالم ومجيء ملكوت الرب . واعلنت بصراحة واضحة ان نهاية العالم سوف تحدث في خلال حياة الناس الذين كانوا يعيشون في نفس الزمن الذي وقعت فيه عملية الصلب . وقال تلامذة عيسى ان معركة عظيمة سوف تنشب ــ معركة اطلقوا عليها اسم « ارماجيدو » وهو نفس اسم المعركة الكبيرة التي كسبها تحتمس الثالث المصري قبل خمسة عشر قرنا وكانت ذروة العصر القديم وفاتحة امتزاج الحضارات القديمة ــ ولا بد في هذه المعركة لكل من لم يكن مسيحيا ان يغرق في الموت الابدي ، بينما سيعيش المسيحيون الى الابد على الارض التي ستكون قد عادت الى صورتها الاصلية : جنة عدن . وكانت هذه حجة قوية ، وهي تساعد على تبرير النجاح الهائل الذي احرزته المسيحية . ولكنها ليست السبب الوحيد لهذا النجاح ، والا لكانت قد ماتت وانتهت حينما لا تأتي نهاية العالم مع اكتمال القرن الاول على الاكثر بعد ميلاد المسيح . لقد هناك اشتياق عميق واصيل الى المعنى والامل وراء المعاني المحدودة والامال الصفيقة في الحياة اليومية ، بصراعها المخيف الدائم من اجل ما يقيم اودها . . وفي زمن عيسى كان العالم المتحضر كله يجتاحه احساس بالبغض والرفض لنوع الحياة التي يمكن ان نجدها عند اليوت في « الارض الخراب » وفي « الرجال الجوف » .

وقد عبرت النزعة الادرية عن كل هذا بوضوح اكبر حتى مما نجده في المسيحية . ولقد كانت هناك العشرات من الجماعات والفرق الادرية ، وتنوعت معتقداتهم واختلفت الى درجة كبيرة . ولكن الاعتقاد الاساسي عندهم كان يقول بأن العالم لم يخلقه الله ، وانما خلقه شيطان غبي مغرور (او قوة خلاقة غير عاقلة ــ ديميورج Demiurge كما اسماها افلاطون . هـ.م) . اما الله فهو فوق الخليقة ، وفوق الخلق ، ويشار اليه باعتباره ، العلوي البعيد ، الظلمة العميقة ، اللاموجود . وقد عنى هذا التعبير الاخير ان الله يكمن وراء كل شيء نعنيه نحن

بالوجود . انه يقيم فيعالم الـ « بليروما » او « الكمال » الغيبي المطلق . (ويشكل هذا الرب اساسقوانين الكابالاهلم القبليين اساس مذهب بوهم الصوفي ، حيث اطلق على الله اسم ungrund او « من لا ارض له »). ولكن كان هناكانشقاق اساسي في هذا الرب الصوري العلوي ، ومن ثم جاءت السقطة . وكانت النتيجة النهائية لهذه السقطة (التي يعتقد بعض الادريين انها جاءت بسبب «صوفيا» التجسيد الانثوي للحكمة) هي الـ « ديميورج » او الـ « آركون »الذي خلقالكون. وهذا الاركون (الرئيس او الحاكم باليونانية) هو « رب » العهد القديم — الكائن الذي اطلق عليه بليك اسم : اللااحد القديم — واوضحت كتابات الادريين القديمة هذا التطابق بين الاثنين بأن نسبوا الى ربهم كلمات منتزعة من العهد القديم . ان الزمن بديل شبيه ومزيف للابدية . لقد خلق « ديميورج » ستة اخرينمنالاركونات لمساعدته في عملية الخلق . انه يجهل الاصل المقدس السامي الذي سقط منه جهلا مطبقا ، ويعتقد نفسه الاله الوحيد . وقام الاركونات السبعة بخلق الانسان ، الذي كانت حالته تراجيدية بشكل مزدوج لانه وقع في شرك عالم خلقه اله مخدوع .

ومع ذلك فثمة ومضة من الامل . هناك شيء ما في الانسان يرفض هذا العالم الزائف ، ويشتاق الى موطنه الحقيقي الاول . واعتقدت احدى فرق الادريين — تدعى « الاوفيين » (مشتقة من Ophis اي افعى) اعتقدت ان الثعبان في جنة عدن كان ممثلا لنوع من الخير المقدس فمنح الانسان نوعا من المعرفة المحرمة حتى يستطيع ان يشرع في مسيرته الطويلة نحو انقاذ نفسه. ان الميزة الرئيسية في القانون الغنوصي (الادري) هو ميله الى تحويل اشرار العهد القديم الى ابطال — من نوع قابيل وعيسو ومن اليهما .وقد احتقر الادريون المسيحية وكرهوها بقيمها المزيفة الضيقة المتعصبة ، اكثر حتى مما احتقروا وكرهوا الديانات المتدهورة في بلاد الاغريق وروما .

حينذاك يجد الانسان نفسه في سجن ، ولكن بمعونة الافعى الحكيمة (التي تلعب نفس الدور الذي يلعبه بروميثيوس في الاسطورة الاغريقية) تتاح له فرصة الافلات عن طريق المعرفة (وكلمة غنوصي Gnosis تساوي المعرفة) . ان المواطن الحق للانسان هو « النور المقدس » (ويجب ان نلاحظ ان مفهوم النور يلعب دورا هاما في تعاليم اورفيوس وفيثاغوراس ايضا) . ان الانسانبأستخدام ارادته وذهنه ، سيحقق الحرية في الوقت المناسب .

(ومن افضل واكثر التعبيرات اكتمالا عن النزعة الادرية ما نجده في رواية دافيد لندساي الرائعة :رحلة الى اركتوروس (عام ١٩٢٠) رغم انه مما يشك فيه ان كان لندساي قد عرف الفلسفة الادرية اصلا) .

وظهرت فيما بعد فرقة من الادريين اسمت نفسها « المانويين » نسبة الى الفيلسوف ماني (١) . بل لقد ذهبوا الى ابعد مما ذهب اليه المانويون الاصليون باعتقادهم ان كل ما ينتمي الى العالم شر ، وان كل ما ينتمي الى الروح بنيوما Peneuma خير . واعتقدوا ان الجنس سيىء لانه ببساطة يمد من اجل تجدد الخليقة الشريرة ، وان الانسان الموشك على الموت هو انسان محظوظ لانه يكون على وشك ان يفلت من هذا العالم . (وهم قد يساعدون المحتضر بتجويعه ، بل بخنقه احيانا) .

ومن الممكن ان نرى ان النزعة الادرية في جوانب معينة تتفق بشكل اقرب مع النزعة التطورية الحديثة بأكثر مما تتفق المسيحية معها . لم تكن المعرفة — عند النزعة الادرية — هي سقطة الانسان ، وانما كانت خلاصة ، ورغم ان هذه المعرفة كانت تعني بالدرجة الاولى « المعرفة المقدسة » او الالهية او الغيبية (الثيوصوفية) فمن المؤكد انها لم تنف ولم تستبعد المعرفة العلمية . على العكس ، ان النزعة الادرية ، تتخللها بكثافة تعاليم فيثاغوراس ، من نزعته الصوفية المتعلقة بالارقام الى جانب اعتقاده في التناسخ وفي انتقال النفس من جسد الى جسد .

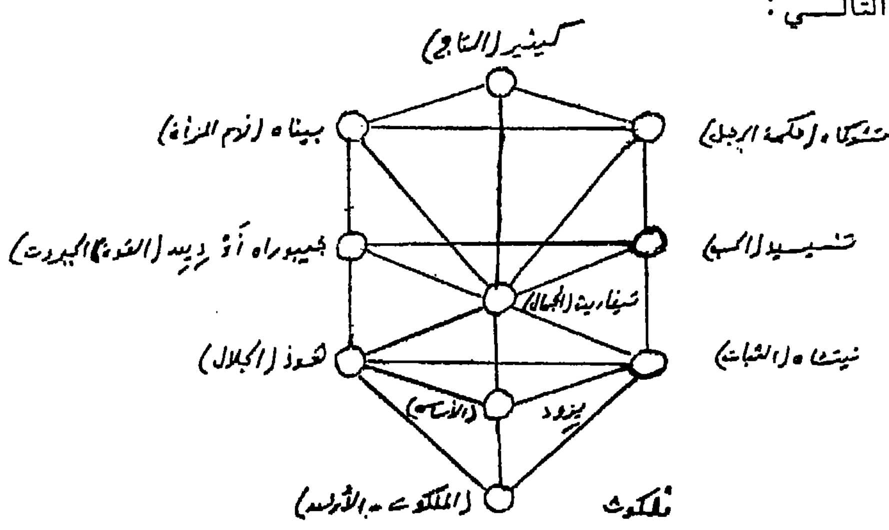
ومن الضروري عند هذه النقطة ان نتحدث باسهاب شديد عن القبليين الكابالاه Kabbalah (التي تنطق ايضا كابالا Cabala ، او قابالاه Qabalah) طالما انه يبدو الى درجة مؤكدة انها تستمد من تعاليم الادريين . هناك كتابان كبيران للقبليين : « سفر يتزيراه » او « كتاب التكوين » و « زوهار » او « كتاب الاشراق » . ويعتقد ويت Waite ان القسم الاول قد كتب في القرن الثاني بعد الميلاد رغم ان ريتشارد كافنديش ، وهو اكثر تحفظا ، يضع زمن تاليفه بين القرنين الثالث والسادس . ولكن ما جاء في حكايات التراث القديم (الشعبي) يعلن ان تعاليمهم الاساسية ترجع الى زمن ابراهيم ، وعلى ذلك فلا يمكن ان يكون

---

(١) ماني (او) مانيشويوس — مؤسس الديانة « المانوية » في فارس القديمة (نحو ٢١٦م). وكان من الشخصيات المسيطرة في بلاط سابور الاول . روى عنه الكتاب العرب والفرس المسلمون قصصا وتواريخ كثيرة متناقضة ، فجاء ذكره في مروج الذهب للمسعودي والشاهنامة للفردوسي ، وارخ له البيروني ايضا . يفترض ان كهنة المجوس قد صلبوه عام ٢٧٧ بعد موت سابور . قال ماني بان العالم يحكمه — ولم يخلقه — الهان متماديان : اهورامازدا للنور والخير واهريمان للظلمة والشر . ويلتي العالم بفنائهما معا . وكان للمانوية تاثير كبير على المسيحية الغربية بعد القرن الرابع ، بتاثير النسطورية في شمال العراق ، رغم ان المانوية في الاصل كانت تحويرا لديانات الطبيعة الفارسية القديمة . وقد اعتبرتها البابوية منذ القرن السادس احد الخصوم الرئيسيين للمسيحية الكاثوليكية . (هـ . م .)

ثمة شك في انهـا تمثل مرحلة باكرة جداً من النزعة الصوفية اليهودية . اماكتاب الاشراق (او الظهور) فقد تمت كتابته باللغـة الآراميـة ، في اسبانيا حوالي عام ١٢٥٧ على يـد قبلاني يهودي يدعى موسى الليوني . وتكمن اهمية القبلانية فـي انهـا واحدة من اقدم مذاهب الفكر الصوفي في العالم . وقد نظر اليها طوال قرون عديدة باعتبارهـا مفتاح كل اسرار الكون ، وكانت ذات تأثير على كل فيلسوف او مفكر دينـي بالفعل منذ مؤسس جماعـة الاسينس حتى روجر بيكون .

... واساس كل نزعة قبلانية عبارة عن رسم توضيحي يعرف باسم «الشجرة المقدسة » ، يتكون من عشر دوائر تتصل باثنين وعشرين خطـا بالشكـل التالـي :



والدوائـر العشر هـي الـ « سفيروث » او تجليات الـرب . وهذا الرسم التوضيحي رسم غنوصي (أدري) بشكل اساسي : وهذا معناه انه يمثل الخلـق باعتباره سقوطا من حالة الالوهيـة المطلقـة الى مملكـة الارض . تبـدا النفس رحلتهـا متجهة الى اسفل ، متقدمة عبر عشرة « اجواء » مثل طبقات ثمرة البصل ، منتهيـة الى حالة من فقدان الذاكرة داخل الجسد الارضي . والصوفية بالطبـع ، هي المحاولة التي تبذلهـا الروح لكـي تصل الى الاتحاد بالرب مرة ثانية . وتؤكـد القبلانية ان هذا لا يمكـن ان يتحقق بالقفز مرة واحدة ، وانمـا لا بد للنفس ان تشق طريقهـا عائدة عبر الاجواء التسعة التي تعلوها بادئة بان تفصل بين نفسهـا وبين الجسد الارضي (وقانـون الجسد الوهمي قانون رئيسي بالنسبة للنزعـة القبلانية : فكرة ان الانسان يمتلـك « جسداً روحيا » او شبحيا له نفس شكـل الجسد الارضي وامتداده ، يستطيع ان يفصل نفسه ويبتعد صاعدا الى اعلى) . ويعتبـر كتاب القبلانية ـ مثل كتابي الموتى المصري والتبتي ، كتابا مرشدا للنفس

في طريقها الصاعد . ولكنه مثل « اي تشينج » كتاب في الحكمة يمكن ان يدرس لما له من قيمة في حد ذاته . وتقول بعض المصادر القوية ان اوراق التاروت الاثنتين والعشرين انما هي تمثيلات مصورة للطرق الاثنتين والعشرين ، وبذلك فان اوراق التاروت هي وثيقة قبلانية بشكل اساسي .

وادراك جوهر الكابالاه عملية سهلة .. ففي القمة يقف « كيثير » ، الرب الخلاق نفسه . وقد يسأل المرء : كيف يمكن ان يعتبر الرب تجليا لنفسه ؟ والجواب هو ان القبلانيين يفكرون في اسمى شكل من اشكال الرب باعتباره غير ظاهر ولا يمكن التفكير فيه ــ لا موجود بمعنى الكينونة فيما وراء الوجود ، انه ال Ungrund او « الذي لا ارض له » . وكيثير ، الرب ، هو في نفس الوقت تجل ل « اين سوف » الذي هو هذا الرب اللانهائي . ورمزه ملك ملتح ، مثل زيوس الاغريقي .

وقد طرات على الرب فكرة ، واصبحت الفكرة اصلا لكل الخلق والخليفة . وانقسمت هذه الفكرة الى اثنين ، واصبح هذان الاثنان « عالم » التشوكمان وعالم البيناه . (ولاحظ ان الجانب الايمن من الشجرة مذكر ، والجانب الايمن مؤنث . ويعكس « ويت » هذا الوضع ، ولكن ليس لهذا اهمية) . والتشوكماه او « هوكماه » هو الروح مانح الحياة ، القوة الخلاقة الاساسية ، حكمة الرب ، وهي تنتج بشكل طبيعي نقيضها ، بيناه المؤنثة ، المبدا السلبي للكون ، الام ، شيء مثل الفكرة الكاثوليكية عن العذراء المباركة .

هذا هو المثلث الاول للشجرة ، الرب يخرج من نفسه المبدا المذكر الخلاق والرحم المؤنث للحياة كلها . ان التصورات الجنسية تتخلل الكابالاه كلها ، ولن يكون من التجديف او عدم الايمان ان نصور التشوكما ، والبيناه في صورة قضيب وفرج . ان كرادلي ، في كتابه « السحر في النظرية والتطبيق » يسوى بين البيناه وبين « العاهرة العظمى » . وقد يبدو هذا مناقضا لفكرة انها ربما تكون قد صورت لكي تكون المقابل المشابه للعذراء مريم . ولكن الكابالاه مليئة بمثل هذه الرموز المتناقضة . وقد يستطيع المرء ان يقول ان كلا من رموزها ، حينما نتأملها من بعد ، فانها تبدو واضحة لا ابهام فيها كالنجم ، ولكنها اذا فحصت عن قرب ، فانها تبدو كما لو كانت مصنوعة من ضباب كالدخان لا يكف عن تغيير شكله باستمرار . وقد انعكس هذا في بعض الاسماء التي اسبغت على البيناه في قائمة المتشابهات التي وضعها ديون فورشن : اما الام القاتمة العقيم ، وآيما الام المشرقة الولود ، وخورسيا ، العرش ، وما راه البحر العظيم . وهي ايضا « يوني » ، (الفرج) وكيتيس (وهي كلمة اصطلاحية اوروبية تعني نفس الشيء) وتشاليس ، بينما تكون « تجربتها الروحية » مجرد « رؤية للحزن » تذكرنا بالعذراء .

والمثلث التالي من الشجرة هو اكثر مثلثاتها اثارة للاهتمـام بشكل ما . هنا يكـون الذكـر : « هيزيد » او « تشيزيد » هو الحب الحامـــــي ، الخاصيـة الاساسية للاب . وهذه الخاصيـة مرتبطة بالذكاء المتلقي ، وبالقوة التي تخلـق الحضارة . كوكبه هو « المشترى » ، جوبيتر ، والرب الاغريقي الذي يرتبط به هو « نبتيون » أو (بوزايدون) رب البحار . ولكن مـن الغريب تماما ان تبدو زوجـة في صورة اي شيء باستثناء الانثى . ان جيبورا (او دين) مرتبطـة بالمريـخ (مارس) ، الحرب،وبزاحفة البازيليسك السامة المميتة الخرافيـة ، وبالقسوة والعنف .وربمـا كان من الافضل ان تفهمها باعتبارها « كالي » ، الام المقـدسـة المدمرة في الميثولوجيا الهندوسية ،التي هي في وقت واحد الام الحية للـكون ، والرمز المجسد للعنف الفوضوي . لوناها هما الاحمر والاسود ، بالاضافـة الـى البرتقالي ، لون النار . انهـا العدالة في اكثر جوانبها خشونة . وتتضمنرموزها الملازمة لهـا السيف ، والرمح ، والسوط والسلسلة . والطاقة والشجاعةوالنشاط هي خصائصهـا الايجابيـة .

اما تيفاريت ، الزاويـة الثالثة من هذا المثلث الثاني ، فيقيم الوئام والصلح بين النقيضين . من المغري ان نفكـر فيه باعتباره يسوع ، لان احد رمـوزه هـي الحرب المصلوبة ، ولكن يكـاد يكون من اليقين ان هـذا الرمز يعـود الـى العصر السابق على المسيحية . وربما يكونمرتبطـا بالاله المشنوق عند فريزر . تيفاريت هو الجمال ، وستطلعنـا لمحـة سريعـة الى الرسم التوضيحي على انه يقف فـي خط مباشر مستقيم ممتد من الرب الخالق ، كيثير . رمزه التنجيمي هو الشمس . ولا بد مـن النظـر اليه باعتباره نافورة مندفعة من الحيوية والدفء .

وفي المثلث التالي (نيتشاه ، هود ، ميزود) نكـون قد هبطنـا الى صفات هذا العالم وهذه البشرية . نيتشاه هو الثبات والنصر ، وقد يمكن اعتباره رمـز الفريزة الحياة في الطبيعـة ، بطاقاتها التـي لا تحد وبقدرتهـا على تجديـد نفسهـا . وتقول ديون فورشن : « عن طريق الرقص والصوت واللون تبعـث وتتحرك ملائكـة النيتشاه » وقد وصف جوليـان جرينفيل النيتشاه بسطريـن مـن شعـره :

والحياة لون ، ودفء ، ونـور
واشتياق ابدى لتلـك الـ ...

اما مقالته الانثوية ، هود (الجلال والمجد) فهي عالم الملكات العقليـة ، ووجه خاص الخيال والذكاء . ويقول كافنديش ان لها ايضا جانبها الشرير ـ العقـل والمنطق ـ وهو الجانب الذي تحتقره الكابالاه . وهكذا يمكـن ان نفكـر في«هود» باعتبارهـا معنى يمزج بيـن بعض الخصائص التي نجدها عند بليك في رؤيتــه

وخيالــه ،مع ما تتميز به الوضعيــة المنطقيــة من ضيق الرؤيــة ومحدوديتها .

اما « ابن » هذين المجالين فهو « يزود » ، مجال القمر (ها نحن نعود الــى ربة جريفز البيضاء) . ومن الغريب تمامــا ان يكــون احد رموز « يزود » اعضاء الرجل التناسلية . (واحيانا تعتبر الشجرة كلها كأنهــا صورة رجل ــ وهي فكرة استعارهــا بليك لكتبه التنبؤية ــ ويعبر هذا المجال ايضا عن اجزاء معينة مــن الجسد . « ويزود » هو مجال السحر . (ولاحظ انه يمزج بين القوى البعيـــدة العمق للطبيعة ــ نيتشاه ــ وبين الذكاء والخيال ، وهي تعبير واضح عن القــوى الكامنة فيما وراء السحر) . واوراق التاروت الممثلة له هي الاربع تسعات ، التي تمثل القوة العظيمة ، والسعادة العظيمة ، والمكاسب المادية ، وتمثل ايضا اليــاس والقسوة ، هي الجوانب السلبية في الربة نفسها .

وآخر المجالات هو « ملكوت » ، الارض . انه مرتبط بقوس قــزح وبالقوى المثمرة في الطبيعــة . ورمزه فتاة صغيرة ، متوجة ، جالسة على عرشها ،ومــن اسمائهــا « مالكاه » اي الملكة ، و « كاللاه » العروس والعذراء . هذا هو عالــم التجدد والتوالد ،عالم طاقات الربيع ، ذلك « الثمل » العاطفي الذي تولــده بعض النساء الصغيرات دون وعي منهن . (ان فرانك فيدكينه يدعو شخصيته « لولو » باســم : « ايروجيست » اي روح الارض) . اما وليام بليك فيضع يده علــى جوهرها ــ البراءة والفرح الخالص ، في كتابه : « كتاب ثيل » . امــا فضيلتهــا السلبيــة ، فهي « الكسل » ، ووضوح هذا المغزى لا يحتاج الى اي شروح .

تلك اذن ،هي المجالات العشرة ،قلب الكابالاه ، الجــوانــب العشرة للرب . وتربط بيــن العشرة اثنتان وعشرون طريقا ، تتماثل مع المجموعة الكبرى القويــة (الاركانا) في اوراق التاروت . والمجالات العشرة نفسهــا تعتبر طرقــا ، فيصبح مجموع الطرق اثنين وثلاثين . ولكل طريق منها رموز عديدة واشباه تماثلها ــ ولم يكــن في وسعي ان اشيــر الا الى عدد قليل من هذه الرموز والاشباه . . ولاشك ان الكابالاه كانت في الاصل مذهبا خالصا من مذاهب العرافة وقــراءة الغيب ، معتمدة على التامل في الجوانب العشرة للرب . وقد امتزجت مع التنجيم واشكال العرافــة الاخرى حتى اصبحت نسيجا عنكبوتيا معقدا ــ رغم جماله ــ من الاشباه المتماثلــة المتطابقة . ويميل الدين اليهودي الى الخشونة ، والجمود المذهبـــي والادعاء المغرور ، بقواعده ونظمه واحكامه ، والكابالاه هي جانبه الصوفي الغيبــي والرهبانـــي . . .

اما عوالم المجالات العشرة ــ التي تنقسم الى اربعة عــوالم تتطابق مع المثلثات المذكورة (اتزيلوث ، وبرياه ، ويتزايره ، واسياه) فمن الممكن اكتشافها وجوبهــا بطريقــة ذهنية ، او من خلال النظم الصوفية ، التي تدعوها ديون فورشن «الارتحال

في الرؤيـة الصوفية » . ويعتقـد المؤمنون بالمعـارف الغيبيـة ان النفس ، او الجسد الوهمي او الشبحي ، يمكـن ان يتم تحريره من الجسد المادي من خـلال الطرق المختلفة للتركيز الشبيبهة باليوجا . فيستطيع الجسد الوهمي بعد تحرره ان ينطلق عبر الاثنين والثلاثين طريقا ، والشجرة القبلانية كتاب مرشد كالخريطة، تكتمل بالتعليمـات والتحذيرات المختلفة . وتفسر ديون فورشن بعض هـــذه التعليمـات بانه اذا راى « الجسد الشبحي » جوادا (رمز المريـخ) او ضبعـا (رمز القمر) فيمجال النيتشاه (الزهرة) فلا بد له ان يعرف ان ثمة اضطرابـا في طريقه الهاديء وانه لا يستطيع ان يعتمد على الرؤيـة المتاحة له . ففي طريق الزهرة ، ينبغي ان يرى الجسد الشبحي حمائم وحيوانا ارقط كالفهد او الوشق (القط البـري) ...

وتتعامل فروع اخرى من الكابالاه مع « الجيماتريا » (*) وهو نظام تقابـل ـ او تقلب ـ فيه الكلمـات العبريـة الى ارقام ، ثم الى كلمات اخرى لهـا نفس الارقام ـ والى « كلمات القوة » ، الاسماء المقدسة الملائكة والشياطين في كلمجال والتي يمكن ان تستخدم في عمليات السحر والاستحضار . واكثر تلك الاسمـاء اهميـة هو الاسم الرباعي الحروف : « يهوه » : YHVH ، الذي يظهر فيكل الكتابات المقدسة والسحرية ، والنصوص grimoires ، او كتبالاستحضار السحري . لقد ساد الاعتقاد بأن الاسماء كالرموز ، تمتلـك خصائص سحريـة ، واكثر اشكـال « الطلاسم » او « الاحجبة » تكون قطعة صغيرة مـن الورق كتب عليهـا اسم احد الملائكـة من القادرين على الحماية ..

... وربما كان ابوللونيوس من تيانا قبلانيا ، وقد كان بالتاكيد قريبالصلة من النزعـة الادرية (الغنوصية) . ويرتبط اسمه دائما باسم مؤسس واحدة من اكبر المدارس الادرية ، وهو سايمون ماجوس (ـ او سايمون الساحر) الذي اعطى اسمه لاتباعه فأصبحوا : السايمونيين . وبسبب ما التزمه المسيحيون من حـرص وقسوة في تدمير كل وثائق هذه الجماعة ، فاننا لا نعرف عن سايمون الا القليل . وترد اشارة اليه في « اعمال الرسل » في الفصل الثامن باعتباره ساحرا مـن السامرة ، كانالناس يعتبرونه مشعوذا يصنع بعض الحيل العجيبـة . وطبقـا لما جاء في « الاعمال » فانه اعتنق المسيحية . والقليل الذي نعرفه عنه مستمد من الكتابات التي تركهـا مختلف اباء الكنيسة الذين كانوا يتخـذون ازاءه موقفـا

(*) gematria : في قاموس القرن العشرين (تشامبرز) ان اصلها اليوناني geômetria وهي اللغة العبرانية الكهنوتية Rabbinical ولم ترد في « المورد » عند البعلبكي ، ولا فـي « النهضـة » عند مظهر . (هـ . م .)

عدائيا . (بل انهم جعلوا اسمه اسما لاحدى الخطايا ، السايمونية ، بسبب الاسطورة التي تقول انه عرض مالا على الرسل لكي يسبغوا عليه مقدرة اتيان المعجزات كالمسيح) .

ومن خلال ضباب الاسطورة والمبالغات ، يمكننا ان نستشف صورة عامة لرجل يتمتع ببعض القوى النفسية الخاصة (كالوسيط) ويكاد يكون فيثاغوريا في حبه للمعرفة . لقد تعلم اسرارا سحرية من كهنة مصر ومن كهنة الماجي الفرس (ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء الاخيرون هم « الملوك الثلاثة » الذين حضروا ميلاد يسوع في الحظيرة) . وكان تلميذا لدوسيثيوس العربي ، الذي قال عنه الاباء الكلمينتيون انه كان مسيحا كذابا . ومع ذلك ، فانه لا يبدو بالفعل انه كان اسوأ من مؤسس فرقة الادريين . اما ان سايمون كان وسيطا ذا قدرات غير طبيعية فواضح من عمليين « سحريين » يعزيان اليه : القدرة على ان يجعل جسمه يطفو في الهواء ، والقدرة على ان يجعل قطع الاثاث الثقيل تتحرك دون ان يلمسها ..

فاذا قبلنا اذن بهذين العمليين كامكانية محتملة ، ورفضنا القصص التي تؤكد انه استطاع ان يجعل نفسه غير منظور او ان يحول نفسه الى حيوان ، فسيكون لدينا شخصية فيثاغورية اخرى ، استطاع ان يوازي نفسه بين النزعة الذهنية وبين السحر (وقد قيل ايضا انه كان قادرا على ان يعبر نارا ملتهبة دون ان يحترق ، وكان بوسع الوسيط دانييل دنجلاس هوم في القرن الماضي ان يمسك قطعة ملتهبة من الفحم بيده وهو في غيبوبة الاتصال ، وكان يستطيع ايضا ان يرفع جسده في الهواء بارادته وان يحرك كتلا ثقيلة دون ان يلمسها ،ويقول من ذكروا هذه الافعال ان هوم قام بها مئات المرات طوال اربعين عاما وانه كان يقوم بها في وضح النهار وفي امكنة خلاوية وبالصدفة يستحيل معها اعداد خدع او حيل مسبقة تساعده في اعماله) وقيل ايضا عن سايمون انه استطاع ان يستحضر هيلين الافريقية ملكة طروادة ثم وقع في غرامها . ويقول اعداؤه المسيحيون ان المراة كانت بغيا تدعى هيبلنا ، جاء بها سايمون من مبغى في صور . ولكن من المهم ايضا ان نذكر ان سايمون اطلق عليها اسم « سيلين » ربة القمر ، وهو ما يكفي لدفع المرء الى الشك في ان ما كان يجري حقا انما كان صراعا بين المسيحية المذهبية الجامدة وبين عبادة ربة القمر ، الربة البيضاء القديمة .

ويقول اليفاز ليفي ، بخيالياته المعتادة البعيدة عن الدقة : « اصبح سايمون عاشقا لخادمته (هيلين) عشقا مليئا بالانفعال ، وهذا الانفعال يضعف ويزيد صاحبه مجدا في نفس الوقت ، فأعادت اليه حالات الصرع التي كانت تنتابه الى جانب الظاهرة المهلكة التي كان يطلق عليها اسم موهبته في اتيان العجائب . وانطلقت من راسه ديانة خرافية كاملة مليئة ببقايا عصور السحر الممتزجة بالاحلام الشبقية

العنيفة ، وراح يطوف البلاد ، حاجا ، مثل الرسل ، حاملا معه هيلين .. »

لقد امكن ان يقال كل ذلك لان هذا هو ما يناسب الاسطورة التي صاغتها الكنيسة عن سايمون ماجوس . وطبقا لهذ الاسطورة ، يبدو سايمون بشكل اساسي كشخصية تراجيدية ، ساحرا اسود كان غالبية سحرة مجرد وهم ـ الهمه اياه ابو الكذب نفسه . انه يريد القوة والزعامة والنبوة ، ولكن يفتقر الى النقاء وسمو العقل الضروريين (ومن هنا يأتي عرضه لشراء السحر من الرسل) . وتمضي به الاسطورة الى حيث يذهب الى روما فيصبح مقربا من نيرون ، مستخدما الخداع والحيل والتنويم المغناطيسي لكي يدعم وضعه . ويستطيع سايمون ان ينوم واحدا من جراس نيرون ويقنعه في النوم انه قد قطع راسه عن جسده ، في الوقت الذي لم يكن قد قطع الا راس ظبي صغير ، وبذلك يقنع نيرون بانه يستطيع ان يحيي الموتى. ويصبح سايمون ساحر البلاط عند نيرون ، ويحتفي اليهود في روما بتعاليمه الغنوصية . ويحاول الرسول بطرس ان يساعد مواطنيه المخدوعين فيذهب الى روما ويتحدى سايمون في مباراة سحرية . ويستحضر سايمون كلابا ضخمة تندفع نحو بطرس الرسول ، ولكن بطرس يجعل الكلاب تختفي بان يبرز في وجهها رغيفا من الخبز المقدس . وحينذاك يرفع سايمون جسده ، ويطير خارجا من النافذة، ولكن سانت بيتر (القديس بطرس) يجثو على ركبتيه ، وينزل سايمون مرغما بصلاته الخاشعة التي ابتهل فيها الى الرب ان يسقط الساحر . ويموت سايمون بسبب تحطم ساقيه ، ويلقى بطرس في السجن بأمر نيرون . (وسوف يهرب بالطبع طالما انه يملك كل الاوراق القوية).

وليس هناك الا القليل الذي يمكن ان نعرفه من هذه الصياغة المسيحية للقصة ، باستثناء اختيار سايمون لظبي يذبحه لكي يمثل به نفسه ، وعلاقته مع العروس هيلين ، وهي ما توحي بان المسيحيين ربطوا بين سايمون وبين بعض الطقوس الجنسية الوثنية . ويقول الاسقف « ايرونيوس الغالي » في رسالة رفضه للنزعة الادرية ، ان السايمونيين اعتقدوا بأن الحكمة (صوفيا) قد سجنت في الارض على ايدي الاركونات السبعة وتعرضت لكل انواع المهانة ، بما في ذلك سجنها في جسد امراة واجبارها على ان تكون بغيا في بيت للدعارة . فهل يمكن ان تكون حكاية هيلين في قصة سايمون مجرد مصادفة ؟ ام هل عبد السايمونيون امراة باعتبارها تجسيدا للانوثة الابدية وربما كانت تشير الى نشوة الجماع الجنسي بالاشارة الى اصلها المقدس الالهي ؟ ان العادة المسيحية التي تقضي بتدمير سجلات التاريخ تعني اننا لن نعرف الحقيقة ابدا . ان معرفتنا بالادريين تبقى معرفة عامة وغامضة : اننا نعرف ان السايمونيين قد مارسوا

السحر ، وان الثيرابيوتيين (*) قد مارسوا نوعا من العلاج الروحي ، وان الكنعانيين نظروا نظرة متعاطفة الى يهوذا ، وان سيرينثوس ، قائد السيرانثيين ، ربما كان هو مؤلف سفر الرؤية الذي ينسب عادة الى القديس يوحنا . ولا يمكن ان يكون هناك سوى شك قليل في ان الادريين قد حافظوا على الكثير من تقاليد الاورفيين وافكارهم ، وانهم لذلك يقفون في نفس الخط المستقيم من السلالة التي جاء منها السحر الغربي وتراثه في العصور الوسطى .

لقد وجد المؤرخ جيبون شيئا من الصعوبة في كبت سخريته حينما كان يكتب عن المراحل الاولى من تاريخ المسيحية فقال : « ان قوانين الطبيعة كانت كثيرا ما تهجر وتطرح جانبا لصالح الكنيسة » . وحينما تدرس الوثائق المرتبطة بتلك المراحل ، سيكون من الصعب الا نشعر بنفس الاحساس . لقد كانت المسيحية وباء اكثر منها دينا . لقد اعتمدت على الخوف والهستيريا والجهل . وقد انتشرت في العالم الغربي ليس لانها حق ، وانما لان البشر سذج يسهل انخداعهم مؤمنون بالخرافات . ان رواية « كوفاديس » التي كتبها شاينكويتز ، تطلعنا على جماعة من النفوس العظيمة تتحدى وتقهر روما الجبارة لانهم كانوا يمتلكون حقيقة اسمى من تلك التي يمتلكها الوثنيون . ولكن قد يكون من الاكثر دقة ان نفكر في المسيحيين الاوائل باعتبارهم حركة جماهيرية قريبة الشبه من حركة بيللي جراهام او شهود يهوه . ثمة شيء منفرد وكريه في الطريقة التي يمتدحون بها انفسهم بنفس الحماس الغبي الذي يميز اعلانات التليفزيون . لقد تم اختراع قطعان بكاملها من الشياطين بهدف اثبات ان القديسين يستطيعون التغلب عليها بقليل من الصلوات . ففي قصة مثل قصة الساحر سيبريان ، الذي اصبح « سانت سيبريان » فيما بعد ، وهي القصة التي وردت في كتاب « الاسطورة الذهبية » يتفاخر الشيطان بكلام كثير : « لقد بذرت الفوضى في السماوات ، وطرحت الملائكة على الارض ، وخدعت حواء .. وصبغت الارض بالدماء .. انا الذي غرس فكرة صلب المسيح » وما الى ذلك . ويعلق الكاتب قائلا : « يقول كل هذا ، دون ان يعرف اللعون المسكين الضعيف ، ان قوة المسيح لا تقهر » (**) وهذه صورة نموذجية لنغمة الكتاب المسيحيين الاوائل . انهم يبدون غير مدركين ان اعطاء مخلصهم صفات السوبرمان الكوميدي ، فانما هم بذلك يقضون على اي نوع من الاهتمام الرياضي في الصراع ، ويجعلون الناس الذين يملكون شرارة الاستقلال يشعرون بان الافضل لهم ان ينحازوا الى الشيطان . ان سيبريان يريد من الشيطان

(*) Therapeutae ثيرابيوتيا : فرقة تقليدية من النساك اليهود ، كانوا مرتبطين بجماعة الاسينس وعاشوا اساسا على شاطىء بحيرة مريوط جنوبي الاسكندرية . (هـ . م .)

(**) اوردها ا.م. بطلر في : خرافة الماجوس » ، اوكسفورد ، ١٩٤٨ ، ص ٨٩ .

ان يساعده على التفرير بفتاة تدعى جوستينا ، التي كانت قد تحولت الى المسيحية واصرت على ان تبقى عذراء ، ورغم ان انطاكية كلها يجتاحها طاعون مهلك (تقهره الفتاة في سنته السادسة عن طريق الصلاة) فانها تظل منيعة على هجمات الشيطان ، واخيرا يعترف الشيطان بأن « المصلوب اعظم من الجميع » ويقرر سيبريان ان يصبح مسيحيا .

ليس الغرض من هذا الكلام ان يكون اتهاما للمسيحية بوصفها هذا ، فالدين يُقيَّم بأسمى تجلياته وما يجسده ، لا بأكثرها هبوطا . اما كل انواع الدعاية فالمقصود منها ان تؤثر في ذوي العقول الضعيفة ، ولا تستثني من ذلك سير القديسين والكتابات الدعائية المسيحية . ولا بد ان تقيم المسيحية بمتصوفيها وبالنزعات التصوفية فيها ، وليس بما تحتويه من « نصب دينية » اذا امكن ان نستخدم هنا عبارة مارلو . وربما كان اكثر الاعتراضات التي وجهت الى المسيحية اساسية هو اعتراض نيتشه : انها تمجد الفضائل السلبية . لقد اجتهد القديس اوغسطين لكي يبتكر المقابلة بين « مدينة هذا العالم » وبين « مدينة الرب » عبر ما يقرب من الف صفحة من كتابه الاكبر . ويحمل هجومه على المدينة الارضية قوة الاقناع ، فهو يرسم كبرياءها ، وغرورها وقصر نظرها ونفعيتها ـ وباختصار ، عبوديتها للشخص وحده . ويتوقع المرء من مدينة الرب ان تكون مدينة يحكمها الاندفاع صوب غير الشخصي بواسطة الرؤية والقدرة على الخلق . وبدلا من هذا يتحدث اوغسطين عن التضحية بالذات ، والطاعة ، والتواضع ، والعفة . وكلها فضائل سلبية . وفي ظل هذه الظروف ، لا يكون من المدهش ان المسيحيين الاوائل قد امضوا معظم وقتهم في الشجار فيما بينهم ، وفي احراق « الهراطقة » ، وفي اختراع قصص يملاها الهراء عن الشياطين . ان قراءة اي كتاب من كتب التاريخ المسيحية المبكرة ـ مثلا كتاب جون كاسيان : « مؤسسات الحياة الرهبانية » الذي كتب حوالي ٤٠٠ ميلادية ، يعني التخبط عبر مناقشات طويلة عن الاخطاء والخطايا ـ الدوافع الشهوانية ، والشبق ، والزهو الزائف ، والكبرياء وما الى ذلك . انه يصف اللامبالاة accidia (١) ـ مرض الملل الذي اصيب به او بلوموف ـ ويصف العمل اليدوي له علاجا . ان الرهبان الذين ينفقون اكثر وقتهم في هذا الوضع السلبي للعقل ، كانوا يحولون عقولهم الى برك آسنة عطنة .

... وقد كان اوغسطين على حق في اعتباره افلاطون اهم رائد وثني للمسيحية ، لان افلاطون ، كان اول من عبر عن الفكرة القائلة بان النفس تعيش كل

---

(١) هكذا كتبها ويلسون ، وفي قاموس القرن العشرين ، الكلمة لاتينية accedia لا مبالاة ، عدم اهتمام . (هـ . م .)

زمانهــا في محاولة تحرير نفسهــا من الجسد ، وان الموت لهذا السبب : « اكتمال لا بد من الاخلاص في الرغبة فيه » (*) اما الاغارقــة الاقدم عهــدا ، فانهم لــم ينظروا الى النفس ابدا باعتبارها عدوا للجسد بشكل ما ،كانت النفس Pneuma هي نفحة الحياة ، ولكن الشبح الذي هبط الى العالم المادي الاسفل كان بشكــل ما نسخــة مطابقــة من الجسد ،والمبدأ الذي بث فيه الحياة ، وليست عدوة له . لقــد حدث بشكل مفاجيء تمامــا ، وبعد اربعة آلاف سنة فقط من الحضارة ،ان اصبح الانسان واعيا بنفسه Soul - Conscious مدركــا بوجود جزء من ماهيته ذهبت الى ما وراء الجسد وشؤونه اليومية . ولقد كانت احتياجاته حتــى ذلــك الحين بسيطة : الطعام والشراب والامن وقدر معين من الاثارة . ولكنه راح يزداد مما يمكــن ان يسمى « الاحتياجات العليا » ، الاحتياج الى توسيع وتعميــــق الوعي . ولكنه لم يفهم هذا ، لم يكــن يملك المفاهيم اللازمة لادراك ما يحــدث . ومثل يسوع نفسه ،لم يكــن قد بشر ابدا بالتأكيــد بحرب تشنها النفس ضــــد الجسد . انما بشر بالحب الكوني ، بمبدأ العون المتبادل . وكان اكتشافه هذا رأيا شائعا او عقيدة سائدة اكثر منه اكتشافا ميتافيزيقيا . كان هو المبدأ الاقتصادي لتقسيم العمل .. كــان يسوع رؤيــا تنبأت بملكوت الرب على الارض ، واراد ان يقنع البشر بأن يتصرفوا كالآلهــة لا كالحيوانات . لم يكــن يحمل مقتــا للجسد بوصفه جسدا ، وكان على استعداد كامل لان ياكل مع العامة ومع الخاطئين .لقد كان القديس بولس هو من اخترع دين النزعة الخلاصية الذي اعتمــد على تعذيب الذات والذي ازدهر اعتمادا على الهستيريا واثارة العــواطف الحادة . ولقــد تصادف ان تناسب مع احتياج الجنس البشري عند تلك النقطة من التطور ان يتم رفض « الذات السفلي » التي تعيش وتموت كالحيوان . وانه لمن الممكن ان نقبــل القول بأن « الولع بالصليب » الذي اخترعه سانت بول كان واحدة من اعظم الكوارث التي نزلت بالبشرية : كظل اسود هائل من التعصب ، والشمولية الكاملــة تجعــل الشيوعيــة تبدو لطيفة لا ضرر منهــا اذا ما قورنت بها . كان ما احتاجه الانسان الغربي في تلك اللحظــة دينــاايجابيا . وقد فشلت ديانات الاغريق ورومــا لانها افتقرت الى الجدية والعمق . وكانت الانسانية تحلم على الدوام برؤيــة الحرية. كان البشر في قبضة الامراض العصابية التي تسببها الحضارة . وكــان مــا يزال في وسع غرائز الانسان ان يتذكــر الايام التي عاش فيهــا على صيد الدب والرعي في المراعي الشاسعة . كان كطفل في السنة الاولى في المدرسة يشتاق الى ايــام اللعب والحرية . واتخذ الاشتياق شكل الحنين المرضي للعودة الى نوع من العصر الذهبي . وقد فازت المسيحية على الاديــان المنافسة لهــا وابعدتها ببساطة عــن

(*) من مونولوج « هاملت » في مسرحية شيكسبير « الحياة ، ام الموت .. تلك هي المشكلة ».

هـ . م .

طريق تقديم حلم تناسب بشكل او بآخـر مع هذا الحنين . وقد كان من الممكـن لديانة ديميتير او ديانة اوفيوس اليونانية ان تكونا منافسا خطيـرا ، ولكنهمـا كانا قد فقدا حيويتهمـا عبر القرون ، كمـا انهمـا اعتقـدا بالتناسخ على اي حال، وكانت فكرة الولادة من جديد ، مرة بعد مرة الى الابد والمجيء بالتالـي مرات لا نهايـة لهـا الى الارض فكرةاقل اشباعا من فكرة الجلوس الى يمين يسوع فـي فردوس ارضي . اما ديـن ميتراس ، الرب الشمس ، فكاد ان يكون متطابقا مـع المسيحية في عناصره الاساسية : المخلص ، وقدر هائل من النعيم (او النقمـة على الكافرين) ـ وكاد هذا الديـن في لحظة معينة ان يحل محل المسيحية فـي الامبراطوريـة الرومانية . ولكنه كان يفتقـر الى حماسة المؤمنين الجدد التي تميز بها المسيحيون الاكثر شمولية ، فقاموا في الوقت المناسب بطرده وتصفيته بالكفاءة النفاذة المعتادة . ولا بد لنـا ان نتذكر ان الديانة ، الديونوزيسية قد احرزت مثل هذه القبضة القوية ، بشكل جزئي ـ لانهـا اعلنت مثل تلك التهديدات المرعبة : فقد هددت من يعارضها بان يفقد عقله وان يجن وان يلتهم اطفالـه وما الى ذلـك . . وقد استخدمت المسيحية ، بمعرضها الشيق المليء بالشياطين والابالسة والاقزام الشريرة ـ وهو المعرض الذي كان عدم الايمـان بوجوده خطيئة ـ استخدمت نفس تلـك الوسائل القاسية ، فلم تتحطم قبضتها القاتلة الا في عصر جاليليو ونيوتن.

لقد كانت المسيحية كارثة . ولقد كان من الممكـن ان تكون افضل لـو ان الديـن العظيم لعصرنـا كان اكثر ايجابية ، شيئا اكثر قربا الـى اورفيوس او ديونيزيوس . ولكنه ـ بالمعنى التاريخي ـ كان ما يزال يمثل خطوة ضخمة الـى الامـام بالنسبة للجنس البشري . فلأول مرة في تاريخه العنيف ، اعتقد قسم كبير من البشر اعتقادا كامـلا بفكرة جامدة لم تكـن مرتبطـة بحياتهم اليومية . ولهذا الامر اهميـة بالغـة التفرد . ذلك ان الحياة اليومية كمـا لاحظنا من قبل ،توقع الانسان في شرك صندوق صغير اسمه : الحاضر الناعم ، وهي تدمـر احساسه بالهدف البعيد المدى بنفس الكفاءة التي يسلب بها « الغماء الاسود » من الصقـر شراسته . . . وهكذا ، فرغم ان الكثير يمكـن ان يقال ضد المسيحية ، فلا بد ان نعترف بانهـا امتلكت فضيلة رجحت كل الاخطاء . لقد حولت القسم الأعـظم من البشرية الى مخلوقات ذات هدف معين . فاذا كانوا قد آمنوا بشكل حرفـي بالابالسة ، فانهم قد آمنوا ايضا بالملائكة والسموات .

كانت القرون العشرة الاولى من تاريخ المسيحية هي الانحدار الى الحضيض بالنسبة للساحر . لقـد آمن الجميع بالسحر ، بالطبع ، ولكنه كان يعتبر المملكة الخاصة بالشيطـان . . . وظهرت اسطورة كان لهـا نفوذ هائل علـى العصـور الوسطى ، كانت تدور حول قسيس يدعى ثيوفليوس . ولما كـان من الواضح انه

مخلوق بالـغ الفقـر من الناحيـة الروحية ، فقد رفض عرضا قدم اليه لكي يكون اسقفـا على اساس خوفه من المسؤوليـة ، ولكن الرجل الذي قبل المنصب راح يعذبه حتى اشرف على الموت . واتصل بثيوفيلوس يهودي عجوز شرير (وكـان اليهود في ذلك العصر هم كبش الفداء) استطاع ان يستحضر الشيطان . ووافـق ثيوفيلوس ان ينكر مريم ويسوع (اللذيـن قال عنهمـا الشيطان انهمـا يعاديانه) وفي مقابل هـذا الانكار انقلبت حظوظ ثيوفيلوس ، فخلع منافسه ، واصبح هو اسقفا في مكانه . ولكنه بدأ يخاف على خلاصه الابدي ، فراح يصلي للعذراء مريم ان تهب لمساعدته . وفي الوقت المناسب استطاعت ان تحصل على عفو من الرب عن ثيوفيلوس ، الذي اعترف بخطيئته علنا ، ثم مات بعد ذلك بوقت قصير في جو من الزهد والثبات الروحي ، بعـد ان احرق شريكه الشيطان .

لسبب ما ، لمست هذه القصة السخيفة عواطف المسيحيين طوال الف عـام (ويحدد . أ . م . بطلـر التاريخ بانه يمتد من ٦٠٠ الى ١٦٠٠ ميلادية) . وكانت هذه هي القصة الاولى من نوعها : خادم من خدم الكنيسة يتواطأ مـع الشيطان ، ويقترب من اللعنة الابدية (وهي فكرة كانت تبث الرعدة من الرعب في قلب كـل انسان) ، ولكنه ينتهي بالابتهال الى العذراء المباركة ، التي كانت قد تحولت بالفعل الى رمز للحنان والرحمـة في الكنيسـة . وكان من الممكـن صياغة تعديلات مـن هذه القصـة لا نهايـة لعددها : فتصور انواع المهانات التي يتعرض لها ثيوفيلوس على ايدي منافسه الناجح ، والحيل السحرية التي يقوم بهـا الشيطان لخلـع الاسقف المنافس ، ومخاوفه وندمه . كانت القصة « تحتوي على كل شيء » كمـا قد يقول منتج من منتجي هوليوود . وكانت هذه القصة هي البداية لتراث القصص المشابهة ، التـي تبلـغ ذروتهـا بقصة فاوست واسطورته . كانت ديانـة الشامانات القديمة قد نسيت تماما . فاذا تصادف واكتشف احدهم رسومـا من العصر الحجري على جدران احد الكهوف تصور السحرة المرتدين الاقنعـة ذات القرون ، لكـان من الطبيعي ان ينظـر اليهـا باعتبارهـا دليلا علـى ان البشر القدمـاء كانـوا خاضعين لسطوة الشيطـان قبل ان يأتي يسوع من السماء لكـي يخلص الجنس البشري .

ولم تعد المسيحية دين المقهورين بعد تحول الامبراطور قسطنطين (عـام ٣١٢ م) ، وفجأة أصبح المسيحيون هم « الكلاب الغالبة » وشرعـوا فـي قهر غيرهم بكفاءة تحسدهم عليهـا نيرون نفسه . وبأمر من اسقف الاسكندريـة (الذي يؤيده الامبراطور ثيودوسيوس) احرقت مكتبة الاسكندرية ـ التي كانت تضم ـ بين اشياء اخرى ـ مجموعة الكتب الخاصة بأرسطو . كانت المعرفة شرا ، الم يطرد آدم من الجنـة لرغبته في ان يعرف ؟ الى جانب ان الباحثين في المكتبة كانـوا

موضع شك في انهم يمارسون السيمياء ، وهي محاولة تحويل العناصر الخسيسة الى ذهب واكتشاف حجر الفلاسفة ،سر الحياة الابدية . ولكن السيمياء اكتسبت قدرا كبيرا من الاحترام في الوقت المناسب بأن اعلن اصحابها ان البحث عن حجر الفلاسفة كان رمزا لبحث المسيحيين عن الاتحاد الصوفي بالله .

امبراطور بارز واحد فقط هو الذي حاول ان يقف وقفة حازمة ضد هذا الدين السلبي السام الذي كان يغزو الغرب ، ذلك هو الامبراطور« جوليان» الذي عرف باسم « المرتد » ابن اخت قنسطنطين. وكان جوليان مثقفا باحثا حسن التربية رقيقا ، بالغ الهدوء وحب العزلة حتى لقد استطاع ان يفلت من الاغتيال بأيدي ابناء قنسطنطين ، فبذل محاولة قوية للتخلص من المسيحية بعد ان ارتقى العرش عام ٣٦١ . كان طموحه ان يستعيد عبادة الارباب الوثنيين ، وان يأتي بديانة ميتراس (عبادة الشمس)محل المسيحية كدين رسمي . وفي رسالته الى صاللوست Sallust : « عن الشمس السيد الاعلى » يتحدث عن : « الاشتياق الغريب الى الاشعة الشمسية » الذي تملكه عن طفولته ، ويضيف انه استطاع بطريقته الخاصة ، ودون مساعدة من المعلمين او الكتب ، ان يتعلم « العرافة باستخدام الاجرام السماوية » اي انه تعلم التنجيم . ولسوء الحظ ، فان جوليان ، رجل السلام ، وقع في خطأ محاولة ان يصبح محاربا ، فمات اثناء حملة في فارس ، بعد عامين فحسب من ارتقائه العرش . وقام صديق مدرسته القديم ، اسقف القسطنطينية (جريجوري نازيانزن) بكتابة « رسالتين في ذم جوليان » . ولكن جوليان كان قد ابدى تجاهه عطفا من نوع خاص عظيم ، ولذلك كان جريجوري مضطرا الى ان يبتكر دوافع شريرة في تبرير هذا العطف . وعلى كل الوجوه ، كان موت جوليان المبكر مأساة بالنسبة للغرب كله . ولو انه كان قد عاش قدر ما عاش اغسطس ، اول الاباطرة ، لكان العالم قد اصبح مكانا افضل واكثر عقلا . ولقد استطاع ابسن في مسرحيته « الامبراطور والجليلي (١) » ان يدرك بعضا من اهمية جوليان ، ويجب ان يقرأ هذه المسرحية

---

(١) الامبراطور والجليلي . آخر مسرحيات ابسن التي استمدها من التاريخ والاساطير ،وآخر مسرحياته الشعرية . انها مسرحية ذات اتساع ملحمي ، تدور حول الصراع بين المسيحية والوثنية ، وهي ايضا تراجيديا البطل الذي يشك في نفسه . يستمع الامبراطور جوليان المرتد الى نبوءة من عراف عن مجيء امبراطورية ثالثة (غير الاسكندر واغسطس) لن تكون وثنية خالصة ، ولا مسيحية خالصة . ولكن جوليان يرتد عن المسيحية ويحاول احياء الوثنية ، ويفشل لانه من المستحيل ان يبعث الى الحياة « مثلا اعلى » كان قد سقط من قبل وتمزق ، ولان عمليات التعذيب الجماعية لا تؤدي الا الى اذكاء شعلة المسيحية ، بالاضافة الى شكوكه هو الذاتية ، ومخاوفه من الفشل. (هـ . م) .

كل من يهتم بالامبراطور الفيلسوف (وكان الامبراطور الفيلسوف الاخر ، ماركوس اوريليوس ، قد اضطهد المسيحيين وعذبهم قبل جوليان بقرنين كاملين ، وقد اخذ اعداؤه هذا عليه دائما ، ولكن يبدو ان الحقيقة تبين ان العقول المتوازنة الرشيدة ، مثل عقل جوليان وماركوس اوريليوس ، لا بد ان يزعجها ما في المسيحية من خرافة وهيستيريا وتطرف عاطفي) . ان فكرة وجود امبراطور مثل جوليان ، تطول به الحياة ، لمن اكثر الاشياء التي « كان لا بد ان توجد » والتى تثير الاسف لانها لم تتحقق في التاريخ الغربي .

كان امتداد الحياة بمثل هذا الامبراطور ، سيؤدي بالتاكيد الى فارق هائل في تاريخ السحر . فالوثنيون لم يكونوا يشعرون بالرعب من السحر ، لانهم لم يكونوا يربطون بينه وبين الشيطان (او شبيهه الوثني : ست ، اهريمان .. الخ .) اما في ظل المسيحية ، فقد اصبح السحر : « السحر الاسود » ، واصبحت قوته مستمدة من الابالسة ، بدلا من ان تكون مستمدة من قوى الانسان الخبيثة . كانت المسيحية تستشيط غضبا وتفقد صوابها في كل ما يتعلق بالسحر . ولكن « السحر » ملكة انسانية ومن الممكن تطويرها كأي ملكة اخرى . ولكن في ظل المسيحية ، اصبحت مظاهر الوساطة ، والحاسة الثانية الى آخر هذه المظاهر ، تعتبر دليلا على الوقوع في قبضة الابالسة او على تدخل الملائكة . اصبح « المنظورون » على هذه القدرات ، والمتهيئون لاكتسابها اما رجالا مقدسين واما شعاوذة ودجالين . واصبح الراهب الذي يتصادف ان يمتلك قدرة على الاحساس بما لا يحس به العاديون من الناس ، عرضة لان يجد نفسه موثقا الى عامود الاحراق او يعلق قديسا بين القديسين .

ومن الامثلة على هذه الحالة الاخيرة ، سانت جوزيف من كوبرتينو ، او « الراهب الطائر » ، الذي اكد الكثيرون من الشهود اعماله الخارقة، والذي كان اشهرها القدرة على الطيران ، والذي شهد الطبيب الذي عالجه على سرير موته في سن الستين ، ان جسده كان يبعد عن الفراش مسافة ست بوصات ، وكان قد اصبح قسيسا فرنسيسكانيا في سن الثانية والعشرين بعد ان عمل بالرعي واشتغل سائسا في احد الاصطبلات ، والذي تكاد معظم القصص عن حوادث « طيرانه » ترتبط بحالة معينة من الفرح . ويبدو ان طيرانه كان مرتبطا بالحالة التي يدعوها الهندوس « سامادهي » اي « النشوة » ، رغم انه كان مولعا بتجويع نفسه وجلد جسده بالسياط ، وان هذه الاعمال ـ لا معجزة الطيران ـ هي التي منحته مرتبة القداسة .

فماذا يمكن ان نفعل ازاء مثل هذه الظاهرة ؟ قد يكون ملائما لو اننا استطعنا ان نصرف النظر عن الامر كله باعتباره حزمة من الاكاذيب او من الهوس

الجماعي او التنويم المغناطيسي الجماعي . ولا شك اننا نستطيع ـ على هـذه الاسس ـ ان نزيح جانبا ٩٥ بالمائة مما ينسب الى القديسين من معجزات دون ان نشعر بوخز الضمير (ومن الامثلة النموذجية في هذا المجال مـا ينسب الـى سانت دانستان من جالستونبري ، الذي قيل انه دفع كنيسة بيده ففير وضعها). ولكننا لا نستطيع ان نخطيء الدليل القاطع ، لانه مقنع واضح . لقـد شاهد اعمال سانت جوزيف ملوك ودوقات وفلاسفة (او فيلسوف واحد على الاقل هو لايبنتز) فحينمـا اقترح الاساقفـة تنصيبه قديسا ، بدأت الكنيسة تحقيقا في مسألـة طيرانه وفي الحوادث المذكورة عنهـا ،وحصلت الكنيسة على المئات من الشهادات عن مئات من الحوادث . وقد اصبح قديسا بعد اربع سنوات من موته .

... لقد استطاع الاب جوزيف ان يطير . ولا يمكـن ان يكون ثمة شك في ذلك . وقـد لا يكـون ثمة معنى للتساؤل : وكيف يمكـن ان نفسر هذا ؟ لاننـا لا نستطيع حتى ان نبدأ في فهم العناصر والادوات والقوى والطاقات المشتركة فـي مثل هذه العملية . . وقد يعزو بعضهم هـذا العمل الى الارواح ، وقد لا نشك نحن في ان اعمال الاب جوزيف ترجع الى قدراته هو الخاصة . ولكن اكثر المواقف قربا من العقل هو افتراض ان كل الناس قادرون ـ احتمالا ـ علـى الطيـران واتيـان الاعمال الاخرى التي قام بهـا سانت جوزيف . هناك خطأ اساسي في الطريقـة التـي يدرك بها البشر العالم . اننـا نفكر في العقل باعتباره شيئا عاجزا مشلول الارادة وسط عالم من المادة الجامدة ، مجرد ملاحظ او متفرج سلبي . اننا نتبنى رايـا سلبيـا في انفسنـا وفي العالم، غير مدركيـن للمدى الذي تصل اليـه سيطرتنـا على الاشياء التـي لا تبدو الا انهـا « تحدث » فحسب . .

ومن الممتع هنـا ان نسجل ان دوق برونزويك ، رفيق لايبنيتز في رحلاتـه وراعيه ، تحول الى الكاثوليكية بسبب طيران الاب جوزيف . واقول ان هذا ممتـع لاننـا نكـاد نكـون واثقيـن من انه لم يكـن هنـاك اي ارتباط بين معتقدات الاب جوزيف ، وبين قدراته الخاصة كانسان . .

في عام ١٩٢٣، كتب توماس مان ، الذي كان في ذلك الحين واحدا من اشهر كتـاب اوروبا ، مقـالا بعنـوان : « تجربـة فـي معرفة الغيب » وصف فيـه حضوره لجلسة استحضار للارواح مع الوسيط ويللي شنايدر ، وهو مساعد طبيب للاسنان كان في التاسعـة عشرة من عمره . وكـان مان قد امسك بمعصمـي شنايدر اثناء الجلسة ، ثم يصف التواءات جسمه الغريبة وتصببه عرقا ، مثل امرأة في لحظـة الولادة . او مثل عرافة دلفي . ثم طارت في جو الحجرة المناديـل والاجراس ، وصدحت الموسيقى من صندوق موسيقى ، وضربت مفاتيـح آلـة

كاتبة تحت « نقر » الاصابع الروحية لمرشد يدعى مينا . ويشهد مان قائلا : « ان اي خداع ميكانيكي او الاعيب« خفــة اليد » كانت مستحيلة على اي انسان » . لقد كتب مان مقاله بوصفه شكــاكا متفتح العقل ، لم يثر اهتمامه بعلوم الغيب من قبل تجربته ، ولم يكن لــه بها اي اهتمام بعدها . لقد اكتفى بان وصف في صراحــة ما كــان قد رآه ، وكانت نظريته هي ان الظاهرة قد حدثت بواسطــة عقـــــل الوسيط ، الذي استطاع بشكل ما ان يحول احلامه (وكان شنايدر غارقا فـــي النوم) الى حقائق موضوعية . وبالنظــر الى طبيعة شهادة مان التـــي لا يمكن ان تكــون موضع شبهـــة او شك ، فقــد يحق للمرء ان يتخيل ان الصحفيين فـــي العالم كله سيبداون البحث عن كيفية حدوث هذا النوع من الظواهر واسبـــاب حدوثها . ولكن لم يفعل منهم ذلك احد ــ على الاقل خارج دوائر « الروحانيين » . ولو ان الشهود كانوا اشخاصا من نــوع البابا واسقف كـــانتربري ، لمـــا كـــان هنـــاك اي فرق . فالحكايـــة لـــم تكـــن تستطيع ان تثير الاهتمام ، وان تتناسب او تتداخل مع مـــا هو قائم قبلها . .

والتحدي المطروح هو ان تصبح تلك الظواهر « متداخلة » مع ما هو قائم ، مثلمـــا جعل انيشتاين حركة براون وانقباض فيتزجيرالد تتداخل مع ما هو قائم ، بصياغـــة نظريـــة النسبية . وقـــد عبرت الكلمـــات التاليـــة عن محاولة مان لتقديم تفسير مـــا : « لقد كان هيجل هو الذي قال ان الفكرة ، الروح ، هي المصدر النهائي لكـــل الظواهر ، وربمـــا كانت فيسيولوجيـــا المافوق طبيعـــــي اكثر ملاءمة مـــن فيسيولوجيا التكوين الطبيعي على اثبات ما قاله . وقد يحق للمرء ان يوسع من نطاق هذا التفسير بالقول بانه ليس للبشر فكرة عن مدى انغماسهـــم غير الواعي في ظاهرة حياة كل منهم . اننـــا قد نقبل الفكرة القائلة بان عقلي اللاواعي يستطيع ان يجعلني انسى مظلة في منزل معين اريـــد ان اعود لزيارته ، ولكننا لـــن نقبل الفكرة التي تقول بان هذا العقل ــ في ظل ظروف معينة ــ قد يستطيع ان يجعل المظلـــة تطير في الهواء .

اما اذا كانت القوى التي جعلت سانت جوزيف يطير في الهواء كالبالـــون والقت خاتما احس به توماس مان يلمس وجهه هي قوى تستطيع ان تنقل الحركة من بعد ، او مـــا اذا كـــان بوسع سانت جوزيف وويلي شنايدر ان يوفرا بشكـــل ما الطاقـــة اللازمة لعوامل فوق المستوى البشري ، فهذا امر لا يجرؤ احد على ان يقطع فيه براي في المرحلـــة الحالية . ولكن ان تكون تلك القوى هي بشكل احتمالي تحت سيطرة كل انسان ، فلا يمكـــن ان يكـــون في ذلك شك . .

. . ولقد كان للكنيسة موقفـــان مختلفـــان في حادثتين تشبهان الى حد كبير حادثة سانت جوزيف . تتعلق الاولى بالراهب يوهان يتزر ، السويسري الذي عاش

في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ومات في الربع الاول من القـــرن التالـي ، والذي زعم انه يرى اشباحا لرهبان موتى ، وان الاشباح تكلمه ، فطلب منه زملاؤه (الدومينيكـــان) ان يسأل الاشباح في موضوع خلافي حاد بينهم وبين الفرانسيسكان : هل تعتبر العذراء ، كابنها المسيح ،متخلصة من الخطيئة الاولى كما يقـول الدومينيكـان ، ويعارضهم الفرانسيسكان . ووصلت المسالة عن طريـق الاشباح الى العذراء شخصيا ، التي جاءت بنفسها بصحبة القديسة باربارا وبعض الملائكـة لكي تعلن ان الفرانسيسكان هم المخطؤون ، وانها متخلصة من الخطيئـة الاولى ، لانهـا تجسيد لقوى الهية وليست من بني البشر . واكتشف يوهـان ان في الامر خدعة ،وان رئيس الدير وكبير الشمامسة واحد الرهبان كانوا يتنكـرون في ازياء مختلفة يساعدهم في ذلك راهب رابع . وحاكمتهم البابوية ،واحرقتهم ، ولكـن يوهان حرم وطرد من خدمة الكنيسة .

وكانت الحالة الثانية متعلقة بالاب فاشير ، الذي عاش في ميرابو بالقرب من بواتييه ، وكان شخصية مرموقة في الكنيسة الكاثوليكية ، وصديقا للبابا نفسه ، وكان في الخمسين من عمره تقريبا حينمـا بدات صورة للمسيح في كنيستــه الصغيرة تدمى من اليدين والقدمين ،وحينمـا نقلت لكي تفحص في رومـا توقف النزيف ، وبدات عيون الصورة تبكي . وحدث اكثر من مرة ان تسبب دخول الاب فاشير مكانا فيه صورة اوتمثال للمسيح في نفس النتيجة . واعلن اسقف بواتييه ان الاب فاشير مخادع، وصدرالامر بحرمانهوطردهمنخدمة الرب،رغم ان الكثيرين من « المفكرين » كانواقـد بداوا ينتبهون الى فكرة التأثير النفسي الخاص للانسان وقدرة العقل البشري على نقل تصوراته وتجسيدها في الجمادات والاشياء ، فقالوا ان الاب فاشير هو الذي يحدث هذه الظاهرة بنفسه في صـور المسيح وتماثيله ، بشكل غير واع بالطبع .. وهذا يعني القول بأن الظواهر قد تكون حقيقية في كل حالات « المعجزات » ولكنهـا لا تبرهن على شيء معين فيمـا يتعلق بالدين ، وانما هي تبرهـن على قوة اعتقاد الناس بما يحدث وبمضمون الظاهرة نفسها . لقـد نصب جوزيفمن كوبرتينو قديسا ، ودمغ جيتزر بالنصب والخداع ثم طـرد مـن الكنيسة ، وحرم الاب فاشير وابعد وطرد . ولقد كان من الممكـن ان يكون منطقيا بنفس الدرجـة لو انهم جميعـاقد اصبحوا قديسين ، اواو انهم ربطوا الى عامود الاحراق واشعلت فيهم النار . ولكن حالة الاب فاشير لا تثبت الا ان الكنيسـة قد اصبحت اكثر حذرا واكثر عصبية مثلها مثل رجال العلم في التعامل مـع مـا لا يمكـن تفسيـره .

يؤكـد كل هذا صعوبة رسم خط فاصل بين الظواهر الطبيعية وتلك التـي تبدو فوق مستوى الطبيعـة . وفي حالات شهيرة ، مثل القصص التي تروى عن

سيطرة الشياطين على راهبات «دير ايكس ان بروفينس »وراهبات دير لودان(وقد وصفهـا الدوس هكسلي بعبقريـة في روايته : شياطين لودان) ، يستطيع المرء ان يكـون واثقـا تمامـا من ان « الشياطين » لم تكن موجودة بالمعنى العادي ، وانمـا كانت الراهبات المسوسات مؤمنات بوجودها الى حد اليقيـن . وفـي الحالتين المذكورتين ، اتهم احد القساوسة بانه هو السبب في اللعنة التي جعلت الراهبات يتقلبن على الارض ، ويصرخـن ويجدفن . وفي الحالتين ، كان القسيس المتهم هو قسيس الاعتراف لفتيات صغيرات ، اغتصبهن ، ثم تحولن بعد ذلك الى راهبات . ولكن الراهبة التي اتهمت احدهما ، وتدعى مادلين دي بالود ، وهـي مراهقة في الثامنة عشرة ، اعترفت في المحكمـة بان كل اتهاماتها للاب جودفري كانت خيـالات واوهـاما ، وانهـا كانت تحب الاب جـودفري حبـا قويـا ، وان اردافهـا وفخذيها كانت تتحرك حين تراه حركة مفضوحة . ولكن المحكمة رات ان الاب جودفري قد تجسده الشيطان ، فاحرقته،كما احرق قبله القسيس جرانديير بسبب تهمة مماثلـة . .

وربما كان الاعتقاد بوجود قطعان كبيرة من الارواح والابالسة هـو ما يمكـن اعتباره المساهمـة الرئيسية التي قدمتهـا المسيحية في دراسة السحر . ويذكر جوزيفوس كتابا يضم الرقى والتعاويذ والترانيم اللازمة لاستحضار الابالسة كان يستخدم منذ القرن الاول الميلادي . وكان يفترض ان مؤلف هذا الكتاب هو الملك سليمـان الذي يبرز اسمه في اساطيـر علوم الغيب بوصفه ساحرا كبيرا .وهناك كتاب في السحر يدعى « مفتاح سليمـان » ويحتل المكانة الثانيـة بعد الكتـاب الاسطوري : « اقراص الزمرد » الذي الفه هيرميز ترميزميجيستاس (هيرميـز المثلث العظمة) باعتبارهمـا اشهـر النصوص المرجعية في السحر ، ويوجد كتاب هيرميز في اشكال عديدة ،والسبب في تعدد اشكاله غريب وهام : فلا بد لكل من يريـد ان يستخدم نصائحه ان ينسخه بيده ، وان النص المطبوع بالمطبعـة ان تكون له ايـة قيمة . (وهذا اعتقاد تؤمن به احدث الساحرات) . ويوضح هذا ـ الى اقصى حد ممكـن من الوضوح ان الضرورة الاساسية في عملية العرض السحري هي عقل الساحـر نفسه . عليه ان يدخل في علاقـة عميقـة وحميمية مع النص الذي يستخدمه ، لان « قواههو » هي التي سوف تستخدم وليس القوى الكامنـة في الكتاب . وبنفس الطريقة ، لا بد للساحر من استخدام ادواته السحريةالخاصة التي يصنعهـا بنفسه : بمـا فيهـا القلم والحبر ورشاقة الماء ودواة الحبر وخلاطة الرمل والبخور والشموع ، كما ان عليه ان يصنع بنفسه سكاكينه وسيفه وفاسـه وما الى ذلك . وعليه ان يزود تلك الاسلحة بمقابض خشبية منحوتـة . وعليـه ايضـا ان يختار وان يلقن جماعته واتباعه ومساعديه .ولا بد من صناعة مقابض الاسلحة من خشب شجرة البقس الصلب ، وان يقطع الفرع الذي ستصنع منـه

المقابض بضربة واحدة . وقد يقوم من يريد ان يكون ساحرا بجولات واسعة في الغابات ، يقطع فيها كميات هائلة من الاغصان ، قبل ان يعثر على الفصن الصالح، لغرضه ، أو يتحطم السيف في يده . وقبل ان يشرع في اعماله السحرية ، عليه ان يصوم تسعة ايام وان يلتزم بقواعد مختلفة كثيرة . وتبدا الطقوس بالدوران حول محيط دائرة سحرية يرسمها بالسكين ،ثم يرسم في الدائرة رموزا معينة من الكابالاه . ويذبح حمل ويسلخ ، ويستخدم الجلد المسلوخ المدمى غطاء لرموز منحوتة تشبه الحروف .

اما عملية الاستحضار الشعائري نفسها فتستغرق حوالي ساعة ، وتتضمن تهديدات توجه الى الارواح اذا هي لم تظهر . ولكنها في خلال ذلك ، وطبقا لما يصفه كتاب « مفتاح سليمان » لا بد ان تكون قد ظهرت . بعضها يرتدي ثياب الجنود ، وبعضها فيثياب النبلاء ، واخيرا يأتي الملك نفسه بصحبة السحرة. وعند هذه اللحظة ، وبعد ان يقدم نفسه وهو يحرق البخور مبينا بعض الرموز للملك (الذي يفترض انه الشيطان نفسه او على الاقل احد ممثلي الجحيم الاصفر شانا) ،بعد كل ذلك يستطيع الساحر ان يطلب ما يريد : سواء كان معلومات عن المستقبل ، او بعض المساعدة من الابالسة لانجاز بعض الخوارق . ويكرر اسم الرب واسم يسوع عدة مرات لابعاد الارواح وترويضها . ويجب الا ينتهك احد الدائرة السحرية ، كما يجب ان تكون الدائرة محكمة الاغلاق ، والا فقد تهاجم الابالسة الساحر وتمزقه اربا ..

ولكن من اجل ان نفهم الروح المسيطرة للسحر الذي ازدهر بشكل غيرمتوقع في القرن السادس عشر ، (ولا شك ان السنوات من ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ كانت هي قرن السحر) فلا بد ان نفهم شيئا عن النزعة الصوفية التي الهمت هذهالروح وحركته . ذلك انه لا يمكن ان يقال كثيرا ان جوهر السحر وجوهر النزعةالصوفية هما جوهر واحد ، فالفرق الحاسم هو ان السحر يقع عند الطرف الادنى من الطيف ، وتقع النزعة الصوفية عند الطرف الاعلى . ولكن السحر والنزعة الصوفية كلاهما محاولة للوصول الى التناغم مع « القوة الداخلية » للانسان . ان افلوطين ، الذي عاش بين ٢٠٥ الى ٢٧٠ ميلادية ، لم يكن مسيحيا ، ولكن تأثيره على المتصوفة المسيحيين كان هائلا . وقد قارن البشر بمجموعة من المنشدين واقفين حول المنشد الاول ولكن انتباههم يتشتت بفعل ما يجري حولهم وما يبدو امامهم من الاشياء ، وهكذا يفشلون في الغناء بنغمة واحدة او بالتوقيت الصحيح . وقد اعتقد افلوطين ان الخليقة كانت سلسلة من الخطوات المؤديةالى البعد بالتدريج عن « الواحد » أو (الرب) ، وقد اطلق على هذه الخطوات اسم الـ « فيوض » . (وقد استعار القبلانيون فيما بعد افكاره ، مثلما استعار

ويليام بليك الكثير بعد ذلك من الكابالاه) . ولا شك ان هذا الراي راي غير مسيحي بشكل قاطع ،ذلك ان الشر عند افلوطين شيء سلبي ، يعتمد على عدد الخطوات التي ستخطوها مبتعدا عن « الواحد » ، انه شيء يشبه من يسير مبتعدا عن منزل اضيئت انواره فيالليل ، متحركا نحو الظلمة المتزايدة في الحديقة . ولكن لماذا ينبغي ان يسير الناس مبتعدين عن « الواحد » ما لم يكن ذلك بسبب الشيطان ؟ يقول افلوطين ان ذلك يرجع الى اننا فارغو العقول ، يسهل تشتيت انتباهنا . والفيلسوف هو الانسان الذي يستطيع بعزم ان يتجاهل ما يشتت الانتباه واشكال التعدد ، ويحاول ان يبحث وان يرى طريقه للعودة الى الواحد . ويختتم افلوطين قائلا : « تلك هي حياة الآلهة واشباه الالهة من البشر ، تحرير من كل الروابط والقيود الارضية ، حياة لا تجد متعة ولا لذة في الاشياء الارضية، وطيران من الوحيد الى الوحيد ».

هذه هي الفكرة المسكرة في قلب النزعة الصوفية ، وعلى الرغم من الاختلاف الظاهري في الهدف ، فانها ليست بعيدة عن النشوة المقدسة عند اصحاب الديانة الديونيزيسية . انها الاحساس بان هذا العالم المبتذل الذي يلوح لنا اننا قد الصقنا به ، هو عالم يمكن الافلات منه . اننا جميعا في وضع شخص « دائخ » يدور حولنفسه بعد حادثة مخيفة ، لا يعرف الى اين يتجه ـ فهو في نصف وعيه فقط. اما المتصوف فهو الانسان الذي « وصل الى .. » جزئيا . لقد ابصر لمحة خاطفة من المعنى الحقيقي للحياة والموت .

وكان ديونيزيوسالاريوباجيتي واحدا من اقدم المتصوفة المسيحيين واوسعهم نفوذا ،وكان يظن انه هوديونيزيوس الذي دخل المسيحية على يد القديس بولس ، ولكنه ليس هو نفس الشخص بالتاكيد . وكتاباته التصوفية تأخذ شكل التاملات حول موضوع « الرب » الذي يعرفه ديونيزيوس ، بطريقة افلوطين والقبلانيين باعتباره نوعا من العتمة المقدسة والفراغ . فكيف يمكن ان يكون هذا الرب هو الرب الشخصي للمسيحيين ؟ يفسر ديونيزيوس ذلك بان الرب هو مصدر الخيروالجمال، بينما يظل هو وراءهما ومن فوقهما . ويثبت ما كان لديونيزيوس من تأثير ونفوذ هائلين ان المخلوق الذي كان الى وقت غير بعيد نوعا من القردة ، قد اكتسب « أشواقا مقدسة » مثل خنفساء تحاول ان تتحول الى فراشة . ويؤكد كل المتصوفة ما في التجربة الصوفية من سلام وصمت عميقين . تتحدثالقديسة كاترين من سيينا عن الامتزاج ب : « محيط من الراحة » . ويبدا ميستر ايكهارت اغنيته الاولى باقتباس من « حكمة سليمان » يقول : « أبرهة يغلف صمت السكون الهادىء كل شيء .. » رغم انه لا علاقة مباشرة بين هذه العبارة وبين بقية الموعظة . ويقول سانتجون الصليبي ان الاستنارة تأتي : « في صمتوراحة،

بعيدة عـن كل ما هو مادي ملموس وطبيعي » . اما جيرترود من هلفتا ، فتصف كيف حدثت استنارتها حينمـا كانت : « تجلس على حافة بركـة الاسماك وتأملت جمال المكان ، وليونة الماء المنساب ، والخضرة العميقـة للاشجار المحيطة ،وطيران الطيور الحر والحمائم بوجهخاص، ولكن قبل شيء ، تأملت الهدوء الساكنللمنظر المنعزل الذي ملأني بالبهجـة » . يختفي « التوتر اللاواعي » الذي ناقشته فـي الفصل الثاني ، ولا يعـود العقل عرضة المعشى ، ولا للغليان المكتوم ، ينبع سـلام هائل في اعماق العقل مثل نبع بارد ، وفيمـا يشبه الصدمة المفاجئة ، يلمـح الانسان امكانياته الخبيئة في نظرة خاطفة .

انها مجرد خطوة واحدة بعيدا عن « المسيحية الخفية » او « مسيحيـة الخاصة » نحو عالم السيميائي والمنجم . يكتب البتروس ماجنوس الذي عـاش بيـن ١٢٠٦ و ١٢٨٠ قائلا : « سيعيش السيميائي في وحدة كاملة ، بعيـدا عـن البشر . وعليه ان يكـون صامتا كتوما . . » . ولا بد له ايضـا ان يختار « الساعة الصحيحـة للعمليات » وهي ساعة ان تكون الاجرام السماوية في اوضاع مناسبة . ويضيف فيلسوف ودارس لعلوم الغيب ـ فيما بعد ـ في خطاب موجه الـى كورنيليوس اجريبا : « مع السوقة ، لا تتحدث الا عن الاشياء السوقية ،واحتفظ لاصدقائك بكل سر من المرتبة السامية ». وكان هذا الفيلسوف ، صاحب هـذا الخطاب ، هو تريثيميوس ، الرجل الذي تروي الحكايـة القديمة انه التجـأ الـى ديـر بندكتي في عاصفـة ثلجيـة ، فأصبح عاشقا للهدوء والعزلة في الدير حتى انضم الى جماعة الرهبان البندكتيين ، ثم اصبح رئيسا للدير فيما بعد .

ويشترك السحر في مبدأ اساسي آخر مع النزعة الصوفية : فكرة : « كمـا هـو فوق ، كذلك تحت »، وهيالعبارة التيتنسب الى هيرميز تريسميجاسناس . في النزعة الصوفية ، تعني هذه العبارة ان النفس والرب شيء واحد . ولكننفس المبدأ يصبح في السحـر اكثر تعقيدا بكثير . فالانسان هو « الكون الاصغر »ورمزه نجمة خماسية (البنتاكل) ،والعالم هو الكون الاكبر ، ورمزه هو النجمة السداسية (او المثلثان المتداخلان ـ رمز سليمان) . وقد راىدارسو علوم الغيب في العصور الوسطى وفي عصر الاصلاح آلاف الروابط غير المرئيـة تربط بين الكون والانسان (وقد اعتقـد باراسيلساس على سبيل المثال ان هناك ارتباطا بين الاعضاء السبعة للجسم وبين الكواكب السبعة). فاذا استخدمنا مصطلحاتعلم التشريحالحديث، لامكننـا ان نقول ان العلاقـة بيـن الفرد وبين الكون تشبه العلاقة بـين كريـات الدم البيضاء وبيـن الجسم كله : انهمـا تكوينان عضويـان منفصلان ، ولكنهمـا بالتأكيد غير مستقلين الواحد منهمـا عن الاخر ، وهدف كل منهمـا متجه نحو خدمة الجسم كله . وقد يشعـر الانسان بالانفصال عن بقية الكون ، ولكنه ليس

كذلك ، طبقا لما تنص عليه تعاليم علوم الغيب ، فثمة آلاف « التشابهات » والارتباطات بين الانسان والكون الاكبر . وما كان باراسيلساس ليتسطيع ان يجد اي غرابة في فكرة دافيدفوستر عن « الكون الذكي » حيث تستطيع الاشعة الكونية ان تحمل معلومات يمكنها ان تؤثر على حاملات الخصائص الوراثية (الجينات) لقد كان ذلك بالتحديد هو ما عناه بعبارة : « كما هو فوق ،كذلك تحت » .

كان ذلك اذن هوالمفهوم الكامن وراء كل السحر الذي ازدهر في « القرن السحري » ، من ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ . « الانسان عضو في جسد الكون » .

وتلاءمت المعتقدات السحرية الشائعة مع هذه الفكرة . ان القديس البرنوس ماجنوس نفسه ، وهو مفكر ديني وقور، اكثر منه دارسا لعلوم الغيب (وقد نصب قديسا عام ١٩٣١) يشرح باسهاب كيف يمكن ان تستخدم مختلف الاحجارالكريمة للاغراض العلاجية والاخلاقية : فالجمشت يزيد القدرة على التركيز ، والزمرد يوحي بالعفة ويغرسها في النفوس، والعقيق يقوي الاسنان ويبعد الاشباح والافاعي . ومن الاعشاب ، يعطى البتل القدرة على التنبؤ ، اما « رعى الحمام »فهو منشط للحب . اماشجرةالحمى فتشفي من المرض والحمى ، ويشفي نبات الكبد كل امراض الكبد . وكان هناك معتقد شائع يقول بانه اذا جرح شخص بضربة من اداة مادية : سكين أوبلطة او صخرة ، فلا بد ان تعالج الاداة نفسها ايضا من الجرح الذي تسببت فيه .

... فماذا اذن عن حجر الاساس الآخر للسحر ، وهو الايمان بالنجوم ؟كيف يمكن أن يتم الوفاق بين هذا الايمان وبين المعتقدات الشائعة الآن ؟ كان جوهان كبلر ، مؤسس علم الفلك الحديث ، يكن بغضا واحتقارا عنيفا التنجيم ، ربما لانه كان ملزما بأن يصنع تقويما سنويا ، مزودا بالتنبؤات اللازمة ، كجزء من واجباته الرسمية في بلاط « جراتز » في العقد الاخير من القرن السادس عشر . وقد تضمن تقويمه الاول تنبؤات بمجيء شتاء قارس البرودة ، وبغزو يقوم به الاتراك . وفي عام ١٥٩٤ كان البرد قارسا لدرجة انه مات بسببه الكثيرون ، واجتاح الاتراك البلاد من فيينا الى نيوشتات . وكتب لبكر يقول : « تتصرف « السنوات » مع الانسان في خلال حياته بنفس طريقة الحبال المعقودة التي يلفها الفلاح بشكل اعتباطي حول ثمرات القرع الصغيرة في حقله ليحميها من السقوط، انها لا تساعد الثمرات على النمو ، ولكنها تحدد شكلها النهائي » .

ربما كان علم رجال من نوع البرتوس ماجنوس وكورنيليوس اجريبا وباراسيلساس ، علما فجا مليئا بالاخطاء والثغرات ، ولكنه كان قائما على اساس من هذا الاعتراف الغريزي بالروابط النفسانية بين الانسان والطبيعة . اما علم

نيوتن ، وهايجنس ، وبريستلي فكــان اكثر دقة الى درجــة لا تقارن ، ولكنه دان قد فقــد الاعتقاد بالروابط غير المرئية . وقد عبر كيركجارد عن هذا الاحساس بعدهم بقرنيــن كامليــن حين كتب يقول : « اين انا ؟ ومن انا ؟ وكيف حدث ان اصبحت هنــا ؟ وما هــو هذا الشيء الذي يسمى بالعالم ؟ واذا كنت مضطرا الى ان اشارك فيه ، فأين المسؤول عن كل شيء ، اذا كان علي ان اقوم بدور ، فأيــن المخرج ؟ اريــد ان ارى المخرج . . » . كان قد نشأ الاحساس بالطرد والنبذ ، عاجزا ، معلقا في الهواء جافا كبقيــة من شيء مهمل .

اما دارسو علوم الغيب في القرن السادس عشر ، على الرغم من كل سخافاتهم ، فكانوا يعرفــون شيئا نسيه كيركجارد .

ولم يكــن عالمــا علوم الغيب الكبيران في القرن السادس عشر ، كورنيليوس اجريبا وبارسليساس « ساحرين » بالمعنى الخفي او الخالص للكلمــة ، انمــا كان الاثنان دارسين وباحثين متجولين اكثر منهمــا فيلسوفين . وكان باراسيليســاس هو صاحب العقل الاعظم بيــن الاثنيــن .

ويبدو ان اسم اجريبا الحقيقي كان هنري كورنيليس ، وقد ولد في كولونيا عام ١٨٤٦ . ويؤكــد صاحب ترجمة قديمة له ، وهو هنري مورلي ، انه سليــل اسرة من النبلاء تدعى « فون نيترشايم » ويتخذ اخرون رايا اكثر ميــلا الى الشك ، بقولهم انه اتخذ اسم اجريبا فون نيترشايم ، متشبها بمؤسس كولونيا (وعلى اسم قريــة بالقرب من كولونيا نفسها) . وعلى اي حال فقد كان ابواه ميسورين بمــا يكفي لتعليمه في جامعة كولونيا التي كانت قد تأسست منذ وقت قريب .

كان متصوفا بطبيعته ، مفضلا افلاطون على ارسطو ، ودارسا لفلاسفة النزعة الافلاطونيــة الجديدة . افلوطين ، وايمبليكوس ، وبروفيري ، وبروكلوس . وكان يشترك مع الاخير في بعض الاشياء ، ذلك ان بروكلوس (الــذي عاش بين ٤١٠ ، ٤٨٥) كان اغريقيــا شابا وسيما وثريا ، اعتزم ان يتخصص في القانون ، ولكنــه اصيب بحمى الفلسفة فكرس نفســه لدراستها ، فكــان آخر الافلاطونيين العظماء . وقد اكــد بروكلوس ان الوعي الانساني يستطيع ، في حالة اشبه بالجنون المقدس ، ان يقفز الى « الواحد » الكامن في قلب كل الاشياء ، فيصبح متوحدا معه . وقد تأثر اجريبا بهذا الراي تأثرا عميقا ، وهو الراي الذي عثر عليه ايضا في الكابالاه ، الذي كــان قسمه الاكبر ، تحت عنوان « الاشراق » او « الظهور » ، وهو كتــــاب الخلق ، قد كتبه يهودي اسباني يدعى موسى الليوني ، حوالــــي عــام ١٢٨٠ . ويتحدث كل من بروكلوس والكابالاه عن عدد مــــن « الفيوض » او « التجليات » تنبثق من الرب اللانهائي المطلق ، ويتحدثان عن طريق مشتبكة معقدة ، يستطيــع الطامح الى المعرفة ان يسلكها من اجل ان يقترب من الرب .

ولقد خدع اجريبا ، فقد كان يفتقر لسوء الحظ الى مزاج الفيلسوف . كان في اكثر جوانبه رجلا من رجال عصر النهضة ، بديناميكيته ، وولعه بالمغامرة ، وتطلعه اللانهائي الى المعرفة . كان يمتلك الاشتياق الحار الى الاستنارة الصوفية، ولكن دون ان يمتلك المزاج اللازم للوصول اليها . وتبدو حياته تراجيدية بشكل اساسي . الى جانب ان العصر الذي عاش فيه كان اكثر انبساطية وولعا بالظواهر واكثر غليانا من ان يسمح بالكثير من الهدوء والسلام لرجل له مثل مزاجه .

في سنوات عقده الثاني ، ترك اجريبا انطباعا قويا في كولونيا ، فكان لغويا جيدا وقارئا لا يشبع نهمه ، (وكانت الطباعة قد اخترعت قبل مولده مباشرة) . وحينما اصبح سكرتيرا خاصا لما كسيمليان الاول ، ملك روما والمانيا ، بدا الامر انه يوشك ان يبدأ حياة عملية لامعة وممتازة . ولكن بلاط الامبراطور الروماني المقدس لم يكن هو المكان الملائم لدارس باحث . واستخدمه ماكسيميليان في اعمال التجسس ، وارسله الى باريس وهو في العشرين من عمره . وفي جامعة باريس اتصل اجريبا بعدد من اصحاب الارواح الطيبة ، من دارسي علوم الغيب والفلاسفة . وهناك التقى بنبيل اسباني يدعى جيرونا ، كان في طريقه الى مقابلة ماكسيميليان . وكان جيرونا يواجه مشكلة خطيرة ، فقد كان يواجه ثورة او تمردا قام به الفلاحون ، وطردوه من مزرعته واملاكه في قطالونيا . وقرر اجريبا ان يساعده .

اما قصة قيامه بهذه المساعدة ، او محاولته لقيامه بها ، فتقدم عددا من اكثر الصفحات اثارة في الترجمة التي كتبها مورلي لحياة اجريبا ، وتستحق ان نلخصها هنا ــ في سطور قليلة . لكي نحصل على فكرة ما عن شخصية اجريبا القوية العزيمة ... فالقصة تحتوي على مغامرات ، وتكتيكات عسكرية ، واعمال حصار واختراق للحصار ، وبحث عن عملاء وهرب وسط الاعداء ، وتعامل مع الخونة واختيار للمخلصين .. ومع هذا فان القصة تنتهي بأسر الفلاحين لجرونا وقتله . وبذلك تضيع كل شجاعة اجريبا ويضيع كل تصميمه وقوة عزيمته هباء . وليس هذا سوى الصورة النموذجية لحياته . فانه لم يكن مخلوقا للنجاح الحقيقي .

ولن تكون ثمة فائدة من محاولة استقصاء رحلات اجريبا حول اوروبا ــ من برشلونة الى ماجوركا ، الى ساردينيا ، الى ايطاليا ، الى افينيون فيلونس فدول ثم الى تشالون سيرسوان ، ثم العودة الى دول حيث القى اجريبا محاضرات حول مذهب الباحث في العبريات ، ريوشلان ، وهو قبلاني آخر .

لقد سحرت « الكابالاه » اجريبا ، ليس فقط بسبب جوانب التصوف الغيبي فيها ، وانما بسبب تعاليمها « السحرية » ايضا ، وبوجه خاص بسبب علم الارقام فيها المعروف باسم « جيماتريا Gematria » . ففي اللغة العبرية ،

تتمتع كل الحروف بقيمة عددية . وكانت الحروف في اي كلمة « تجمع » الاعداد التي تعبر عنها ، وكانت اي كلمة تضاف اعداد حروفها تعتبر ذات علاقة خاصة بالكلمة الاولى . وبذلك ، اذا اراد متخصص او ممارس للجيماتريا ان يعرف ما اذا كانت فتاة معينة تصلح لان تكون زوجة طيبة ، فانه يجمع الاعداد التي تمثلها حروف اسمها ، فاذا كان الناتج مماثلا لنتيجة جمع الاعداد التي تمثلها حروف كلمة « عاهرة » او « مسرفة » ، فان هذا سيؤدي الى حكم سيىء جدا بالنسبة لها . فاذا كانت الفتاة خبيرة بالجيماتريا ايضا ، فانها تستطيع ان ترد عليه بان عدد حروف اسمها يماثل عدد حروف كلمات « الحكمة » او « الفضيلة » ايضا . وقد انفق مارتين لوثر (١) واعداؤه وقتا طويلا في تبادل تحويل اسمائهم الى كلمات مهينة وبذيئة بواسطة الجيماتريا .

وادى قيام اجريبا بالكشف عن هذه الاسرار في جامعة دول الى كسبه للكثيرين من المعجبين ، وحصوله على درجة « دكتور في الالهيات » وبعض النقود في شكل راتب ثابت . ووقع في الحب ، ويبدو انه كان يأمل في الاستقرار تحت حماية ابنة ماكسيمليان « مارجريت اوف غنت » . بل انه كتب مقالا بعنوان: « نبالة النساء » لكي يتملقها. ولكن اهتمامه بالكابالاه اكسبه عداء الكثيرين بين الرهبان ضيقي الافق ، وقام احد الرهبان من الاخوة الفرانسيسكان بشتمه علانية من فوق منبر الكنيسة بينما كانت مارجريت جالسة وسط المصلين في القداس . وكالعادة ،تبخر خط اجريبا وضاع من يديه ، فاضطر الى الانتقال الى انجلترا .

---

(١) مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) مؤسس الكنيسة البروتستانتية الالمانية ، والمؤسس الاول لوحدة الامة الالمانية من خلال توحيده اللغة ومقاييس التعبير والعبادات الدينية ، بترجمته الكتاب المقدس الى الالمانية (العهد الجديد ١٥٢١ ، العهد القديم ١٥٣٢) في بداية تزعمه لحركة الاصلاح ضد البابوية والكنيسة الكاثوليكية في روما . كان راهبا في ويتنبرج ، ومن خلال مناقشاته هناك ، خرج باسئلته الخمسة والتسعين حول « قيمة العبادات » ودقها بالمسامير على ابواب الكنيسة (٣١ اكتوبر ١٥١٧) ثم اعلن بطلان الزعم بسمو البابا على البشر ، فحرمه البابا وامر بحرق كتاباته ، فرد لوثر باحراق قرار الحرمان علنا ، وقرر الدفاع عن آرائه امام « محكمة وورمز » العليا التي اعلنته « عدوا للامبراطورية المقدسة » لكي تستعدي عليه الامبراطور . وهناك ادى لوثر صلاته الشهيرة : هنا اقف وقفتي . ولا املك شيئا آخر . ليكن الله في عوني . « ثم شرع في تنظيم الكنيسة الجديدة وكتب « حول العهود الرهبانية » وقام بترجمة الكتاب المقدس في اثني عشر عاما. كان لوثر اول انعكاس ديني منتصر لانهيار العصور الوسطى الاقطاعية وبداية مجتمع الدولة القومية البورجوازي الحديث . ولكن تركيزه الشديد على المسالة الدينية وحدها ، ورفض البعدالسياسي الموضوعي لحركته ، دفعا الى تمزيق المانيا لا الى وحدتها السياسية . (هـ . م) .

وفي خلال هذا الوقت ، كان قد انجز كتابه الاكبر ، الذي يقع في ثلاثة مجلدات ، تضم بحثا كبيرا حول:« فلسفة الغيب ومعرفته » ، رغم انه كان على هذا البحث ان ينتظر اكثر من عشرين عاما قبل ان يحصل على فرصة النشر . ولا شك انه كتاب جدير بالانتباه بالنسبة لمؤلف لم يعد عامه الرابع والعشرين . وهو يبدأ بتقرير واضح يقول فيه انه ليس للسحر علاقة من اي نوع بالشعوذة او بالشيطان ، وانما تقوم العلاقة بينه وبين مختلف المواهب الغيبية ـ التنبؤ ، والحاسة السادسة ، وما الى ذلك . ومن فصول المجلد الاول النموذجية في دلالتها على الكتاب ، فصل بعنوان : « عن النور والالوان والشموع والمصابيح ، وعما تنسب اليه مختلف الالوان من العناصر والمنازل والنجوم » . اما « المنازل » فانها تعني بالطبع علامات خريطة ابراج السماء ، ولكل كوكب منزلان ، احدها للنهار، والآخر لليل . ولكن الفكرة الرئيسية في عقيدة اجريبا ، هي ما يبينها في بداية الفصل الثالث والستين : « ان للخيال ، او للقدرة على التخيل ، قوة حاكمة في انفعالات الروح ، حينما تكون تلك الانفعالات مرتبطة بالمدركات الحسية . » وهذا يعني القول بانه حينما تكون انفعالاتي مرتبطة باشياء مادية محسوسة ، بدلا من ان ترتبط بافكار ، فان خيالي يبدأ في لعب دور كبير في مشاعري وفيما احس به . ان قدرا قليلا من الانقباض ، يرسل معنويات الى الحضيض ، واصبح ضحية ارجوحة من الانفعال العاطفي . والجملة التالية على شيء من الغموض، ولكنها تزيد من اتساع هذه الفكرة :« ذلك ان (الخيال) بالفعل ، واعتمادا على نفسه ومن تلقاء نفسه، وطبقا لتنوع الانفعالات ، يغير ـ قبل كل شيء ـ الجسم المادي بطريقة التحول والانتقال التجسيدي المعقول ، عن طريق تغيير الحوادث القائمة في الجسم،وبتحريك الروح صعوداوهبوطا ، الى الداخل والى الخارج . . » انها لجملة جديرة بالملاحظة من حيث انها كتبت في عام ١٥١٠ . انها لا تعترف فحسب بالمدى الذي يمكن للبشر ، وخاصة للاغبياء منهم ، ان يكونوا ضحايا للايحاء الذاتي ، وانما تعترف ايضا بان تلك الاهواء تؤثر بشكل مباشر على الجسم . اننا نلتقي دائما في ادبيات الرهبان والنساك هذه الفكرة القائلة بان جسد الانسان اكثر اعتمادا على ارادته مما يظن الانسان نفسه ابدا . ويمضي اجريبا الى محاولة ابراز ان العشاق يمكن ان يعرفوا مثل تلك الرابطة القوية حتى ان احدهم يشعر بمرض الآخر . ويقول ان الناس يمكن ان يموتوا من الحزن ، حينما تكف الارادة عن العمل . ومن الممكن ان تقارن بين تعاليم اجريبا هذه ، وبين ما اكده باراسيلساس ،الذي يصغره بسبع سنوات ، من ان : « الخيال القوي العزيمة هو بداية كل الاعمال السحرية » ومن انه : « من الممكن لروحي . . ومن خلال ارادة مصممة قوية فحسب ، ودون سيف او خنجر ، ان تطعن الاخرين وان تجرحهم . » وقد يكون ما تقول به الجيماتريا وعلم التشابهات هراء خالصا وقد لا يكون كذلك (وقد يكون فيها ما هو اكثر مما تقابله العين الناظرة) . ولكننا نتعامل هنا مع

رجال كانوا سحرة لانهم كانوا « شامانات » ، مالكين لنوع من القدرات النفسية الخاصة . من الحق اننا لا نمتلك دليلا مباشرا على ما يلي : ليس هناك حكايات عن القدرات الكشفية المتعلقة بالتنبؤ او بالحاسة السادسة . ولكن هناك الكثير من الحكايات حول القدرات السحرية التي امتلكها كل من اجريبا وباراسليساس، ولكن ليس فيها ما يمكن النظر اليه بشكل جدي . ولا بد لنا ان نتذكر اننا نعالج عصرا كانت القدرة العامة على التصديق فيه شيئا لا يمكن سبر اغواره ، وكان لا بد لاي قصة ان تكون خيالية لكي تستطيع ان تحرك حاجبا فوق العين . ان ذلك النوع من الاحداث الذي يمكن الان ان يثير اهتمام « جمعية البحوث النفسانية » ــ مثل الرؤية السابقة ، واطياف الاجساد الحية ، واتيان المعجزات، والتواصل عن بعد ــ اقول ان مثل هذا النوع من الاحداث كان يمكن ان يصرف عنه النظر ويلقى جانبا باهمال باعتباره شيئا أشد تفاهة وغباء من ان يعاد سرد حكايته . وتتميز كل القصص التي جاءتنا عن اجريبا بالحسية وبالطابع المادي فيها. فهو يدفع لاصحاب الفنادق نقودا تبدو من الذهب الصحيح غير مزيفة ولا منقوصة ، ولكنها تتحول الى اصداف حقيرة فيما بعد . وهو يصاحب كلبا اسود اللون ولكنه في الحقيقة جني يرافقه كخادم خاص ، وذات يوم يخاف اجريبا ان يكون الكلب قد سقط نهائيا في قبضة الشيطان ، فيأمره بالابتعاد عنه لكي يتركه ، فيجري الكلب ويغرق نفسه في نهر ساون . وهو يستحضر روح الواعظ الشهير « تيللي » لكي يلقي احدى مواعظه امام ناخب ساكسونيا ، فيبكي كل المستمعين للموعظة تاثرا وشفقة . ومن اشهر ما يحكى عنه خوفه ذات مرة من اتهامه بقتل طالب كان الشيطان قد خنقه في حجرته ، فيطلب من الشيطان ان يتلبس الجثة لكي يخرج بها الى السوق ويتجول قليلا قبل ان يترك الشيطان الجثة فتنهار في السوق . ولكن التحقيق يكشف ان الطالب قد مات مخنوقا ، ويضطر اجريبا الى الفرار من المدينة .

ان مثل تلك القصص لا تقول لنا شيئا عن اجريبا ، رغم ان الاخيرة تعكس بدقة سوء الحظ الذي طارده طوال حياته . لقد ماتت له زوجتان ، وكانت الثالثة كارثة بالنسبة له ، بعد ان تركته مشتتا من الناحية العاطفية ، ومفلسا الى درجة الدمار من الناحية المالية . وقد ادت صداماته مع القساوسة رجال الدين ــ فقد كان معاديا للكهنوت بعنف ، بعد ان عانى الكثير من جهل الرهبان وغيرتهم ــ ادت به الى مغادرة الكثير من المدن حيث كان من المتوقع له ان يستقر ليفرغ لحياة البحث والدراسة الهادئة . وفي فترات مختلفة القى محاضرات عن اللاهوت والدين في كولونيا ، وعن علوم الغيب في بافيا ، واصبح مفوضا عاما في ميتز، حيث ادى دفاعه عن امرأة فلاحة اتهمت بالشعوذة الى اصطدامه بعضو محكمة التفتيش مما اجبره على مغادرة المدينة . وخابت آماله في التقدم اعتمادا على

الاميرة مارجريت دوقـة غينت . بل ان تعيينه طبيبا خاصا لملكة فرنسا الام ، لويس دي سافوي ، كانت كارثة اضخم . فقد امضى اكثر وقته في محاولة الحصول على راتبه ، فأمر بالبقاء في مدينة ليونز من ١٥٢٤ الى ١٥٢٦ دون نقود ولا اذن بالرحيل وليس من المدهش حقا انه بدأ في تلك الفترة في الاحساس بانه مطارد مشؤوم . لقد رغب في حياة الباحث الهادئة ، مع حياة منزليـة ممتعة . لقد كان صوفيا اصيلا حقيقيا ، ومع تقدمه في السن ، بدأ يشعـر ان السحر ليس اكثر من مضيعـة للوقت ، وان اللاهوت وحده هـو ما يستحق الدراسة : ورغم انه لم يقرر ان ينشر كتابه عن علوم الغيب الا في عام ١٥٣١ ، فانه كان معروفا بوصفه ساحرا ، وكانت سمعته سيئة بين القساوسة . وفي عام ١٥٣٠ نشر في انتيـورب كتابا بعنوان : « عن لا جدوى العلوم والفنون » . وهو كتاب غريب ، عدمي النزعـة ، فكرتـه الاساسيـة ان المعرفة لا تؤدي بالانسان الا الى العجز عن الفهم وتشوش العقـل وتوهم الاشياء الزائفة والى اكتشاف ضآلة ما يعرفه بالفعل . ويبدو الكتاب كما لو كـان تنبؤا بحديث فاوست في الفصل الاول من مسرحية جوته . ويقول اجريبا ان الدراسـة الوحيدة التي تستحق العناء هي دراسـة اللاهوت والدين والنصوص القديمة . ولا شك أنه كـان مخلصـا في تلك الدعوى . وقد وجهت اليه الحيـاة بعض الضربات القاسية . فقد ماتت زوجته الثانية في الطاعـون الذي اجتـاح انتيورب ، واثار كتابه عن لا جدوى العلم ، غضب حاميه ، تشارلس الخـامس ، الذي كـان قد منح اجريبا منصب مسجل التاريخ ، فالقى بأجريبا في السجـن واعلن انه هرطيق مجدف . وجاء نشر كتابه « الفلسفة الغيبية » لكي يزيد الموقف سوءا ، لانه كان في صورة عودة متراجعة عن كل ما كان قد قاله فـي كتابـه السابق ، وذاع عنه انه شخص لا يثبت على فكرة او مبدأ . وعندمـا عاد الـى كولونيا ، ثارت الخصومة بينه وبيـن هيئة التفتيش ، فعاد الى فرنسا ولكنه ابدى بعض الملاحظات المريرة عن الملكـة الام فالقي في السجن مرة اخرى . ومات اجريبا عام ١٥٣٥ ، قبل ان يبلغ الخمسين من عمره ، ممزقـا ومهزومـا ، يمقته نصف رهبان اوروبا . وكانت هذه نهاية حزينة لتلميذ افلوطين وبروكلوس ، الذي كـانت اشد رغباته عمقا هي ان يحيا حياة التامل والفلسفة ، ولكن الذي دفـعه مزاجـه القلق المغامر الى الترحال كاليهـودي التائه .

وقد يحق لنـا ان نذكر ــ بشكل عابر ــ ان احدى اساطيـر اجريبا تتعلـق بزيارة قام بهـا اليهودي التائه نفسه لمعمل اجريبا السيميائي في فلورنسا (وفي كتاب دافيد هوفمـان عن : « سجلات حياة كارتافيلوس ، اليهودي التائه » قيل ان تاريخ هذه الزيارة كـان عام ١٥٢٥) . ويرجو كارتافيلوس من اجريبا ، ان يجعله يرى طفولـة حبيبته في مرآة سحرية . وطلب مـن اجريبا ان يحصى العقـود (عشرات السنين) التي انقضت منذ موت الفتاة حتى يستطيع ان يصنع حركـة

بعصاه السحرية تشير الى كل عقدمنها، وحينمـا بلـغ اليهودي رقم ١٤٩ ، بـدا اجريبا يشعـر بالنعاس ، ولكـن اليهودي اخذ يحصي العقود ، حتى ظهرت فـي المرآة صورة مشهد انقضت عليه ١٥١٠ من الاعوام في فلسطين . وظهرت الفتاة ، ريبيكـا ، وثارت عواطف اليهودي بقوة حتى انه حاول ان يتحدث اليها . وكـان اجريبا قد شدد عليه بالامتناع عـن ذلك . وعلى الفور ، غشيت السحب سطـح المرآة ، واغمي على اليهودي نفسـه . وحينمـا استيقظ ، قدم نفسه لاجريبا قائلا انه اليهودي الذي دفع المسيح في ظهره وهو يحمل الصليب ، والذي حكم عليـه منذ ذلك الحين ان يطوف الارض دون توقف الى الابد .

وتقول اسطورة اخرى ان اجريبا استطاع ان يطلع ايرل سوري علـى صورة عشيقته ، جيرالدين ، في نفس المرآة .

اما مزاعم اجريبا نفسه عن تمكنه من الاتصال بالموتـى واستحضار الارواح للتكهـن بالمستقبل ، فيبدو انهـا تشير دون شك الى انه كان وسيطـا موهوبـا اكثـر منـه ساحـرا ..

*

وتشبه حياة باراسيلساس العملية حياة اجريبا من وجوه كثيرة ، رغم انه كان اقل ميـلا الى المغامرة ، واكثر من معاصره السابق عليه كتلميذ باحث فـي الطب والعلم . كان لامع الذكاء ، وكان ايضا صخابا شديد الضجيج ومولعا بالاستفـزاز والعدوان (وكلمـة متفاخر ، او تفاخر كاذب Bombast ، مستمدة من اسمه : بومبـاستوس) .

ولد فيليبوس اوريولوس باراسيلساس ، الـذي كان اسمـه الحقيقـي ثيوفراستاس بومباستاس فون هو هنهايم ، ولد في قرية اينزايديلن ، بالقرب من زيوريخ في سويسرا عام ١٤٩٣ . كان ابن احد الاطباء ، ويدعى ويليام بومباستاس فون هوهنهايم . كان الطفل ممروضا بالغ الضعف حتى انه لم يكن يتوقع لـه ان يصل مرحلة البلوغ . وتلقى العلم في بازيل ، ثم ذهب الى فورزبورج لكي يدرس على يدي الراهب الاكبر تريثيموس، الذي كانت كتبه في علوم الغيب قد سحرت لب الطبيب الطموح . ومثل اجريبا ، كان فيليبوس باراسيلساس رومانتيكيا ، اجتذبته بانفعال فكرة اكتشاف حجر الفلاسفة او اكسير الحياة او « الجراند كاثوليكون » وهو دواء كان يفترض انه قادر على شفاء كل الامراض .

وعندما بلغ سن الثانية والعشرين ، راح باراسيلساس ــ وهو الاسم الذي اطلقه على نفسي مقتبسا اسم الطبيب الروماني سيلساس ــ راح لكي يعمل لمدة عام في مناجم الفضـة في التيرول ، ثم قرر انه اراد ان يرى المزيـد من العالم ، فبـدا مرحلـة من التجول استمرت تسع سنوات . واعلـن ان هدفه كان هو الحصول

علي المعرفة الطبيــة عن طريق رؤيــة اكبر عدد ممكــن من المرضى .

ومن المهمّ ان نتبيــن ان باراسيلسـاس لم يفكر في نفسه ابدا باعتباره ساحرا او دارســا لعلوم الغيب . على العكس ، كان مزاجه تجريبيا بشكل كامل ذا عقل صلب المراس . وقد آمن بالسيمياء والتنجيم لانهمــا كانا يبدوان شيئين علميين من المعقول ان يؤمن بهمــا ، ولكنه كــان شديد الشك في انواع الادوية والعـلاج التي كانت تتضمــن اي شكل من اشكال « السحر » ، سواء كان سحرا «عاطفيا» او من اي نوع آخر . وقد تدعم هذا الموقف المعادي للسحر حينما التقى فيباريس برجل بارز جدا ، هو امبرواز باري ، الذي كــان سيصبح واحدا من اكبر العباقرة في الطب . لم يكن باري مهيأ لان يفعل ما كان يفعل من قبل لا لشيء الا لانكـل الناس قــد تقبلوه دون معارضة من قبل . وحينمــا ذهب الى الحرب ، كجـــراح في الجيش عام ١٥٣٧ ، كانت الجراح تطهر وتعالج بصب بعض الزيت المغلي عليها. وقرر باري ان يجرب نوعا من المرهم المصنوع من مح البيض وزلاله وزيــت الورد والترابنتين،فاكتشف ان الجروح التي عولجت بهذا المرهم قد برئتوالتامتبسرعة اكبر. فاستنتج،وكان صائبافي استنتاجه،اناكثر الجنود قدماتوا نتيجة الصدمة والاجهاد لا بسبب جراحهم .وحينما كانت الاطراف تتمزق بسبب قذيفة مدفع ،كان المعتاد ان تترك لكي تتعفــن وتصاب بالغنغرينا ، ثم تبتر بضربة فاس . وحـــاول باري ان يربط الشرايــن والعروق النازفة بخيط متين عادي ، فاكتشف انهحينما كــان النزيف يتوقف ، فان الجندي كان غالبا ما يشفى .

وقد حدث كل هذا قبل سنوات قليلة من لقائه مع باراسيلسـاس ، ولكـــن الاتجاه كان قد تشكل بالفعل . فتبادل هو وباراسيلسـاس تأثيرا مفيدا احدهمــا على الآخر . وتتابعت جولاته ، طبقا لمـا يقوله كاتب ترجمته جــون هارجريف : ايطاليا ، فالمانيا ، فالدنمارك . حيث اكتسب باراسيلسـاس خبرة بالحرب في حملة الملك كريستيــان الثاني ضد السويد ، بل وضد روسيا . كان يتمتع بقدرة طبيعية على العلاج وابراء الجراح : وهذا يعني انه كان يمتلك اكثر من موهبة من مواهب صانع المعجــزات .

كتب يقول : « السحر معلم للطب يفضل كل ما ألف من الكتب » ولكن تعريفه للسحر كــان : « قدرة تأتي مباشرة من الله » لم توهب للطبيب بشكل ما . انهــا نوع من غريزة المعالجة والبرء .ويقول باراسيلسـاس ،ان هــذه الغريزة ، تقــوم على معرفة ان الانسان هو « ميكروكوزم » الطبيعة . وهنــاك مبدأ اساسي للحياة يدعوه السيميائيــون « ازوث » ويرمزون له بأسد احمر . والكلمة ايضا تعنـــي « الجوهر » . ويستطيع « ازوث » ان يحول كل المعادن الى ذهب . وثمة قصــة يحكيهــا سادهوف، تقول ان باراسيلسـاس عالج ابنة صاحب احد الفنادق كــانت مصابة بشلل نصفهــا السفلي منذ مولدهــا بان سقاها بضعة ملاعق من النبيذ اذاب

١

السحر وجنون الذئاب *

ذكرت من قبل ان النساء في تراث السحر وعلوم الغيب يعتبرن نوعا من الشر . وفي علوم الارقام ، فان رقم « ٢ » ، الرقم الانثوي ، الذي يمثل الرقة والامتثال والخضوع والحلاوة ، هو ايضا رقم الشيطان . والربة الهندوسية « كالي » ، الام المقدسة ، هي ايضا ربة العنف والدمار . وتميل النساء الى « التفكير » باحاسيسهن وحدسهن بدلا من الاعتماد على الملكة المنطقية . وتقدير المراة لموقف محدد اولشخص بعينه اقرب الى ان يكون اكثر دقة ورهافة من تقدير الرجل ، ولكنه يفتقر الى الرؤية البعيدة المدى . وقد يحق للمرء ان يطرح هذا الموضوع ببساطة خشنة بالقول بان النساء يعانين من قصر النظر ، وانالرجال يعانون من طول النظر . فالمراة لا تستطيع ان ترى ما هو بعيد عنها ، ولا يستطيع الرجل ان يرى ما هو شديد القرب منه . ويتبع الربط بين المراة والشر من الموقف الذي تحاول المراةفيه ان تغتصب دور الرجل ، حينما يطبق المنطق القصير المدى من اجل الوصول الى هدف بعيد . ويرسم ويليام بليك هذا الموقف في « نبوءته » المسماة : «اوروبا». في هذه القصيدة نرى « لوس » ربا للشعر ، والشمس ، والزمن ، ونرى زوجته او رفيقته « انيثمارمون » ، وهي الالهام ، ربة للقمروالمكان. ولكن ، رغم انهما: « الرجل وزوجته » المثاليان في الابدية ، فانهما يفشلان دائما في ان يفهم احدهما طبيعة الاخر في مجالات الزمن . ويبدو ان بليك قد اعتقد ان « العقل الانثوي » قد بدا السيطرة على اوروبا بعد صلب المسيح بوقتقصير، واستمر في هذه السيطرة طوال ثمانية عشر قرنا ، حتى تمكنت الثورتان الكبيرتان،

(*) Lycanthropsy وتعني حرفيا : الاستذآب ، او الجنون الذي يخيل لصاحبه انه تحول الى ذئب . (هـ . م)

من النقرس ومن اضطرابات الكبد ، نقد دفع الباحث العظيم الى ان يكتب اليه يقول : « ليس بوسعي ان ادفع لك اجرا يوازي فنك ومعرفتك وعلمك » . ولكنه حينما عالج مواطنا بارزا، هو القاضي ليتشنفليز ، كان قد عرض مائةجولدين لمن يشفيه ، رفض القاضي ان يدفع الاجر ، واضطر باراسيلساس ان يقاضيه امام المحكمة . ورغم ان الحق كان الى جانبه بوضوح ، فان اعداءه استطاعوا بشكل ما ان يؤثروا على الحكم الذي صدر ضده . وصدرت منه تصرفات اعتبرت اهانة للمحكمة ، وقرر باراسيلساس ان خير وسيلة يبتعد بها عن متناول اعدائه هي ان يغادر بازل ، الامر الذي ابهج اعداءه لمعرفتهم انه كان جديرا بان يبلغ شأوا بعيدا .

وكان باراسيلساس ، مثل كورنيليوس اجريبا ، ذا شخصية منقسمة . فقد كانت عبقريته العلمية والطبية غير موضع لاي شك . ولكنه ايضا كان محبا للاستعراض . وكانت طريقته في السلوك عدوانية حادة مبتذلة ، وعادة ما كانت ثيابه مهوشة وقذرة . كان رجلا سمينا اصلع الراس كثيرا ما يصطبغ وجهه بالحمرة من الانفعال . لقدولد اجريبا سيء الحظ ، اما باراسيلساس فقد صنع سوء حظه بنفسه بسبب فقدانه سيطرته على نفسه بسهولة بالغة . ففي ستراسبورج طلب منه ان يدخل في نقاش او مناظرة مع فينديلينوس ، وهومدافع عن جالينوس ، وكان فيندبلنوس رجلا مغرورا يستخدم لغة فخيمة طنانة ، ولكن باراسيلساس اصبح العوبة بين يديه حينما بدأ يصخب قائلا :

« انني لن اهبط بنفسي الى الاجابة على مثل تلك القاذورات » ثم انسحب خارجا . ومن الطبيعي ان يزعم مؤيدو فيندبلنوس انه كان عاجزا عن الاجابة . وهناك مثال اخر من قصة محاولته لعلاج حاكم بادن الذي كان مشرفا على الموت بسبب الدوزنطاريا (الاسهال العنيف) التي انهكته تماما . واعطاه باراسلبساس جرعة زعم انها تحتوي على بعض الاحجار شبه الكريمة المسحوقة ، ثم جعله ينام بواسطة لبغة الافيون ، ولما استيقظ الحاكم كان في حالة افضل بكثير . وقدم الحاكم للطبيب جوهرة تعبيرا عن شكره ، ولكن الجوهرة لم تكن ثمينة جدا ، فغضب باراسليساس ، وقال انه اهين ، وانه اعتاد أن يقدم « حسابا » يحسب فيه قيمة خدماته . فرد الامير بانه كان قد شفي قبل ان يأتي باراسيلساس وان اطباءه هم الذين شفوه . . ووضع باراسيلساس جوهرة الامير حول عنقه تذكارا لخيانة الامراء ، ثم رحل عن بادن .

ولم يكن حاميه ، فروبينيوس حيا بعد لكي يدافع عنه . كان قد مات نتيجة اهماله نصيحة باراسيلساس بعدم اجهاد قلبه ، ولكن باراسيلساس حمل مسؤولية موته . فغادر بازل،واصبح جوالا لا يقر له قرار طوال ما بقي من حياته . ولم

تتحسن شخصيته . تمسك باخطائه وانهال بلسانه على معارضيه في كل فرصة تلوح له . واستمر في الاسراف في الشراب ، وفي ارتداء ثياب تشبه ثياب الخلعاء. وجعلته مهانته يسرف في الكتابة ، ولكنه واجه المصاعب في اقناع الناشرين بنشر ما يكتبه . (وقد نشرت اكثرية اعماله بعد موته بوقت طويل) . ولسبب ما رفض طلبه بالاستقرار في بلدة اينزبروك . وبعد ثلاثة عشر عاما من الحياة بهذا الشكل، كان قد اصابه الاجهاد ووهن عزمه ، مثل اجريبا ، الذي كانت سنوات حياته الاخيرة خشنة متعبة بنفس القدر . ولكن الامير بالاتين ، الدوق ارنست ، رئيس دوفات بافاريا ، وجه اليه الدعوة لكي يذهب اليه فيقيم في سالزبورج ، وكان الدوق باحثا في علوم الغيب . ووصل باراسيلساس الى سالزبورج في ابريل عام ١٥٤١ . وبدت له المدينة ملجأ مثاليا ، في صورة المكان الذي كان يبحث عنه طوال حياته . ولكن هذا الاسترخاء الهادىء المفاجىء بعد اربعة عشر عاما من المصاعب والمهانة كان اسوأ شيء يمكن ان يحدث له . فمات في سبتمبر ، في الثامنة والاربعين من العمر . وتزعم احدى القصص انه مات مسموما ، وتزعم قصة اخرى ان قاتلا دفعه من فوق قمة عالية ، وربما كانت الحقيقة هي انه كان مجهدا الى درجة التمزق الكامل .

كان باراسيلساس اعظم من كورنيليوس اجريبا لسبب واحد فقط : استبصاره الاعمق لطبيعة العلاقة الغريبة بين الجسد والعقل . : « ليس الانسان جسدا . القلب ، الروح ، هي الانسان . وليست هذه الروح سوى نجم مضيء . ولذلك ، فاذا كان هذا الانسان كاملا في قلبه ، فلا شيء من كل ما يقع تحت نور الطبيعة يمكن ان يختفي عن عينيه .. والخطوة الاولى في عملية تلك العلوم هي هذه : استخلاص الروح من النيران الداخلية المستعرة بواسطة الخيال . » اننا نواجه في كتاباته المرة بعد المرة هذا الاصرار على قوة الخيال . وهو يميز الخيال بوضوح من « الوهم » او من مجرد حلم اليقظة . والانسان نموذج مصغر للكون ، ولكنه يبدو كما لو كان انعكاسا في مرآة . تمتد المساحات الشاسعة في داخله ــ انها النيران المستعرة الداخلية ــ وهو يطابق بين الخيال وبين هذه النيران الداخلية . وفي حالة الالهام الخيالي ، تبدو هذه المساحات الداخلية . كما لو كانت تتفتح ، باعثة معنى الحرية ، ومعنى حقائق اخرى . وقد جاء الدوس هكسلي بعد ذلك بعدة قرون ، لكي يوصي باستخدام العقاقير المؤثرة على الجهاز العصبي وعلى التكوين النفسي للانسان ، من اجل استكشاف تلك المساحات الداخلية . اما باراسيلساس فلم يكن يعرف شيئا عن تلك الاشياء ، ولكنه آمن بأن للنيران الداخلية قوانينها الثابتة ، تماما مثل نيران السموات : وهي ليست مجرد قوانين ، وانما هي معان (فالقانون شيء جامد وميكانيكي ، اما المعنى فهو شيء « وضع هناك في موضعه » .) ومشكلة الانسان هي ان يدرك تلك المعاني بواسطة الذهن

المسترشد بالخيال . فالخيال هو الشرارة المفجرة التي تدفع الضوء الى زوايا واصقاع المساحات الداخلية ، كاشفة عن المعنى .

وهذا هو جوهر الحقيقة الداخلي عند باراسيلساس . ان الشخصية التي انطوت على هذا الجوهر كانت شخصية خشنة انانية . فاذا كان الخطأ الرئيسي لاجريبا هو الاشفاق على الذات ، فقد كان خطا باراسيلساس الرئيسي هو الاسراف في تأكيد الذات والغضب .

وهذا يعني القول بانهما معا قد امتلكا « المواهب الغيبية » الطبيعية ، ولكن احدهما لم يقترب من الطرف العلوي للطيف ـ التحرر من الشخصية . وكان اجريبا يقترب من هذا الطرف عندما اقتربت حياته من نهايتها ـ باستغراقه المتزايد في الصوفية . ولكن العصر لم يكن ملائما ، ولم يكن الوقت ليسعفه . كان عدد من رجال الفعل والعمل يسيطرون على اوروبا: لوثر ، وتشارلس الخامس ، وماكسيمليان ـ وكان على المفكر ان يختفي وراء قناع المهرج وان يتنكر في ثيابه لكي يترك علامته . وكان رابليه، وليوناردو ومكلانجلو يشعرون بالتوافق وبانهم «في بيوتهم » باقدار متفوتة مع هذا العصر ، اما سانت جون الصليبي وسانت تيريزا فقد وجدا الملجأ في الجماعات والنظم الدينية ، ولكن لم يكن ثمة ملجأ لاجريبا ولا لباراسيلساس .

*

من الضروري عند هذه المرحلة ان نقول المزيد عن السيمياء ، رغم انه من الصعب ان نجادل في الراي القائل بانها الرائد الفج لعلم الكيمياء . ولكن ليس من الممكن ان نصرف النظر عنها بشكل كلي .

في عام ١٨٠٨ قال دالتون ان المادة مبنية من جزئيات صغيرة تدعى الذرات . ولكن لم يحدث الا قرب نهاية القرن التاسع عشر ان اكتشف العلماء طرق استكشاف الذرة . وحينما قاموا بعملية الاستكشاف ، اكتشفوا ان كل المواد في الكون مبنية بنفس « القوالب » : البروتونات والالكترونات ، والبروتون اثقل من الالكترون ١٨٣٦ ضعفا . والذرة تشبه نظاما شمسيا صغيرا . و « الشمس » في وسطها ، مبنية من البروتونات والنيوترونات (والنيوترون جزئي يمتزج فيه البروتون والالكترون) ، بينما « الكواكب » التي تدور في افلاكها حول البروتون ، هي الالكترونات . وتحتوي كل ذرة على عدد متساو من البروتونات والالكترونات ، والبروتونات تحتوي شحنة كهربية موجبة ، بينما شحنة الالكترونات سالبة . وليس للفرق بين الذهب والفضة اية علاقة بكمية ما في هذا او ذاك من هواء او ماء او نار ، او بما يتميز به « الازوت » الخاص بكل عنصر ،

وانما يقوم الفرق ببساطة على ان ذرة الذهب تحتوي في مركزها على تسعة وسبعين من البروتونات ، وتسعة وسبعين من الالكترونات تدور حول هذا المركز ، بينما لا تحتوي ذرة الفضة الا على سبعة واربعين من كل منهما .

ان تحول العناصر ، يحدث بالفعل طول الوقت ، فعنصر الراديوم ، برقمه الذري ٨٨ (والرقم الذري هو عدد البروتونات في نواة الذرة ، اذ انه لا يحسب عدد النيوترونات) يطلق اشعاعا يعرف باسماء اشعة الفا او اشعة بيتا ، ويظل الراديوم يطلق هذه الاشعة حتى يتحول الى رصاص ، بالرقم الذري ٨٢ . وينطبق نفس الشيء على كل العناصر ذات النشاط الاشعاعي . وبواسطة قذف العناصر بسيالات من النيوترونات ، يستطيع علماء الطبيعة احيانا ان يطردوا من ذرةالعنصر عددا من البروتونات او الالكترونات . فيحولوا بذلك عنصرا الى عنصر اخر . ولكن هذا العمل لا يمكن تحقيقه الا بالنسبة للعناصر ذات الارقام الذرية الشديدة التقارب . فمن الناحية النظرية ، يمكن تحويل الذهب الى زئبق باضافةالكترون واحد وبروتون واحد الى الذهب ، او تحويل الذهب الى بلاتينيوم بطرد بروتون واحد والكترون واحد من ذرته . وغني عن القول ان هذا لا يمكن ان يتم الا بكميات محدودة وضئيلة للغاية،وبتكلفة هائلة ،حتى انها لا تكاد تكون حلا مناسبا لمشكلة السيميائيين .

وعلى ذلك قد يبدو اننا سنكون قادرين على ان نصرف النظر عن السيمياء باعتبارها « كيماء » سابقة على العلم ، وان نتركها متجمدة على ذلك الوضع . واذا كنا نصر على التمسك بموقف عقلي ، فليس هناك بديل لذلك . ولكن العدل يقتضينا ان نعترف بأن هذا الموقف لن يكون سوى المخرج السهل . وكما هو المعتاد في تلك المسائل الغيبية ، فاننا نخلص الى النتيجة القائلة بانه قد يكون هناك بعض الاستثناءات من قوانين الطبيعة .

فعلى سبيل المثال ، كتب الطبيب الهولندي هلفيتيوس (الذي كان اسمه الحقيقي يوهان فريدريك شفايتزر) (*) كتب مقالا تفصيليا عن لقاء له مع احد السيميائيين . وكان هلفيتيوس رجلا ذا سمعة طيبة ، اصبح طبيبا لوليام اورانج ،ويتفق مؤرخو الكيمياء بشكل عام على انه كان فوق الشبهات . فاذا كان قد خدع ، فهذه مسالة اخرى .ولكن احدا لم يستطع القول بالكيفية التي كان يمكن لهذه الواقعة ان تحدث. ويفضل هرمان كوب ، مؤرخ الكيمياء في القرن التاسع عشر ان يحتفظ بعقله مفتوحا ازاء هذه الحالة .

(*) وينبغي الا نخلط بينه وبين الموسوعي الفرنسي المشهور ، كلود ادريان هلفيتيوس (١٧١٥ ــ ١٧٧١) المؤلف الشكاك المشهور لكتاب : عن الانسان .

وقد حصلت مقالة هلفيتيوس على ثقل اضافي ، لان موقفه الخاص ازاء السيمياء كان يميل الى الشك ، ولا شك انه كان سيشعر بالمهانة لو انه وصف بباحث في علوم الغيب .

ففي كتابه : « عن تحول العناصر والاشياء » يحكي كيف جاء شخص غريب الى منزله يوم ٢٧ من ديسمبر عام ١٦٦٦ ، راغبا في مناقشة عملية صنع الالعاب النارية . ويصفه الكاتب بانه رجل ضئيل الحجم عامي اللهجة من شمالي هولندا يغطي النمش وجهه . وقال الغريب لهيلفتيوس انه اعجب بمقالـه ضد « مسحوق التعاطف » الذي تحدث عنه السير كيتيلم ديجبي (١) ثم سأل هيلفتيوس ان كان قد رأى في حياته « الجراندكاثوليكون » .وهو العلاج الشامل لكل الامراض ، فقال هليفتيوس انه لم يره . فسأله الغريب ان كان بوسعه ان يتعرف على « حجر الفلاسفة » اذا رآه، ثم ابرز صندوقا من العاج يحتوي على ثلاثة قطع من الحجر في لون السلفات . وطلب هلفتيوس من الرجل ان يعطيه قطعة صغيرة منها على سبيل التذكار ، ولكن الغريب رفض . واستطاع هلفتيوس ان ينتزع بأظفره قطعة صغيرة من الحجر ، ثم حاول فيما بعد ان يضعها في كمية من الرصاص المصهور . وكانت النتيجة هي :« ان غالبية الرصاص تقريبا قد تطايرت ،وتحول الباقي الى مجرد كتلة صغيرة زجاجية القوام » .

وتحدث الغريب في هذه الزيارة الاولى حديثا طويلا عن استخدام الاحجار شبه الكريمة في معالجة الامراض .. وقال ان « استاذه » قد علمه كيفية تحويل الرصاص الى ذهب .

وفي الزيارة الثانية ، اصطحب الغريب هلفيتيوس للسير في الريف ،وتحدث معه عن اكسير الحياة وعن امور اخرى . واخيرا اعطاه قطعة صغيرة من الحجر الذي يشبه لون السلفات .. وهنا يعترف هلفيتيوس بما حدث للقطعة الاولى التي كان قد انتزعها خفية باظافره من الحجر ، وان الغريب قال له انه كان عليه ان يحيطها بكمية من الشمع حتى لا تتبخر بسبب الرصاص المصهور .. وقد اختفى الغريب بعد هذه الزيارة رغم وعده بالعودة . ويحكم هلفيتيوس انه اخذ نصف اوقية من الرصاص ووضعه في بوتقة على النار حتى انصهر ، ثم اضاف قطعة حجر الفلاسفة محاطة بالشمع . وبعد ربع ساعة تحولت كتلة الرصاص كلها الى ذهب من اجمل وافضل الانواع ، بعد ان تحول من اللون البرتقالي ، الى اللون الاحمر كالدم الطازج . واكد له احد الصياغ انه ذهب خالص ، ويمضي

---

(١) كان ديجبي ، وهو « فارس مثالي » قد اعلن ان مسحوقه « المصنوع من سلفات الحديد، استطاع ان يشفي جرحا حينما وضع فوق ضمادة تنضح دما ، دون ان يلمس الجرح لمسا مباشرا .

هلفيتيوس الى القول بان قطعة من هذا الذهب ، مزجت بالفضة وحمض النيتريك، فتحولت السبيكة كلها الى ذهب .

وفي عام ١٧٨٢ ، ظهر شاب ثري يدعى جيمس برايس في بلدة ستوك بالقرب من مدينة جيلو فورد بولاية سوري وزعم انه يستطيع ان يحول المعادن الخسيسة الى ذهب ، وطلب عددا من الرجال المرموقين في البلاد لكي يشهدوا على قدرته . وتوجهت مجموعة من الشخصيات البارزة ، كان بينها لورد اونسلو ،ولورد بالمرستون (وهو والد رئيس الوزراء المشهور) ولورد كينج ، وشاهدوه وهو يحول الزئبق الى ذهب بتسخينه مع مسحوق احمر ، ويحوله الى فضة بتسخينه مع مسحوق ابيض . وقد اطلع الملك جورج الثالث على المعدن الناتج . ولكن برايس قال انه لا يستطيع ان ينتج المزيد من المسحوقين دون ان يضر بصحته . وضغطت عليه الجمعية الملكية العلمية ضغطا شديدا ، ويبدو ان المناقشة التالية قد اذت الى ارهاق عقله ، فانتحر بابتلاع السياتيد امام اعضاء الجمعية الذين ارسلوا للتحقق من مزاعمه .

ولكن حياة الكساندر سيتون ، وهو سيميائي اسكتلندي ، تبدو اكثر انواع الحياة اثارة للدهشة . كان يعيش في قرية ساحلية بالقرب من ادنبرة ، وكان يعمل في انقاذ بحارة السفن الهولندية التي كثيرا ما كانت تغرق امام اسكتلندا . وفي عام ١٦٠٢ ذهب الى امستردام ، وتعرف ببحار وقبطان يدعى جيمس هوسين ، وكشف سيتون لهوسين انه يستطيع ان يصنع الذهب ، واثبت ذلك بتحويل قطعة من الرصاص الى ذهب باضافة مسحوق من نوع ما . وقداعطى جزءا من هذا الذهب السيميائي لطبيب يدعى فان ديرليندين ، الذي يحكي حفيد الحكاية ، وكان مؤرخا للكيمياء . ثم شرع سيتون في الترحال حول اوروبا ،وكان مؤرخ اعماله التالي هو البروفيسور فولفجانج داينهايم من ستراسبورج في المانيا. وكان داينهايم متشككا في مسألة السيمياء ، فدعاه سيتون مع حكيم سويسري يدعى جاكوب سوينجر ، لكي يشهدا عملية صنع الذهب باستخدام مسحوق في لون الليمون . واقتنع داينهايم وسوينجر ، وقد كتب داينهايم القصة بعد ذلك . وراح سيتون يتجول ، وتسبب في صدام مع رودلف الثاني امبراطور المانيا حينما عجز رودلف عن الحصول على السر ،وتكرر نفس الموقف مع امير ساكسونيا الناخب فادخل السجن حتى ساعده تلميذه سينديجوفيوس على الهرب . ولكن سيتون رفض ان يفشي السر حتى لمنقذه . غير انه منحهما تبقى من المسحوق وهو يحتضر في كراكاو في بولندا ،فتزوج سينديجوفيوس ارملة سيتون ، وعاش حياة ناجحة تحت رعاية سيجسمون ملك بولندا ، ومات في بارما عام ١٦٤٦ ،وهو في الرابعة والثمانين بعد ان تحول الى مشعوذ على اثر نفاد كمية المسحوق التي

تركها سيتون . وكان قد نشر جزءا من اعمال سيتون باسمه ، وظلت هذه الاعمال تنشر لمدة قرنين كاملين بعد ذلك .

انه ليصعب الدفاع عن تلك القصص او تفسيرها ، مثلها فيذلك مثل اي شيء آخر فيهذا الكتاب ، وان اغراء صرف النظر عنها قوي جدا . ربما كان لهلفتيوس سمعة الرجل الامينالصادق، ولكن ربما كانت فيه ايضا لمسة المهرج المشعوذ . وانتحار برايس يجعل الامر يبدو كما لو كان قد استخدم الغش لكي يخدع شهوده الاوائل من النبلاء . ولقد التقيت بقصته لاول مرة في كتاب شعبي اسمه : « اسرار لم تحل » من تأليف فالنتاين ديال . وبحثت عن اسم برايس في كتاب ج.م بستليمان بعنوان : « قصة السيمياء والكيمياء الباكرة » فلم اجد له اثرا ، بل انني لم اجدذكرا لبرايس في اي كتاب اخر من الكتب المرجعية في الموضوع . فاستنتجت ان ديال لا بد قد عثر على قصة برايس في بعض الكتب التي يشك في صحتها ودقة معلوماتها . ومع ذلك ، فاذ كنت اقرا كتابا عن السيمياء من تاليف ا.ج. هوليارد ، الذي يعد كتابه ،« الكيمياء الاولية » حتى الان من افضل المراجع المدرسية ، وجدت قصة تحمل اكثر التفاصيل التي ذكرها ديال ، باستثناء تأكيده القائل : « لقد سمح لمجموعة من الكيميائيين المتمرسين بفحص المعمل كله .. الخ .»ويقرر هولمبارد بوضوح ان مجموعة اللوردات النبلاء لم يكونوا من اصحاب المعرفة في العلم . ولكن ليس هناك من سبب يدعو الىالظن بانهم لم يكونوا يرقبون العملية كلها عن كثب . اما بالنسبة لحياة سيتون وسيندجوفيوس فمن الصعب ان توصف مصادرها بانها بنفس الدقة والقوة التي تتمتع بها مصادر حياة هلفيتيوس ، ولن يجد اي متشكك اية صعوبة في تمزيق اوصالها .

فاذا افترضنا اننا لا نتخذ موقف الرغبة في تمزيقها ، فما هو التفسير الذي يمكن تقديمه ؟ يقول لويس سينس مؤلف « قاموس علوم الغيب » انسيتون رفض ان يبوح لسيندجوفيوس بالسر لانه : « كان من المستحيل بالنسبة له بوصفه خبيرا ان يكشف عن عناصر السرالثقيل البغيض » وهذا يعني القول بان المسألة لم تكن مجرد مسالة اعداد كيميائي خالص ، وانما كانت مسالة سحر . والسحر يعتمد اساسا ــ كما قلت من قبل ــ على استحضار « الارواح » عن طريق وساطة طبيعية . فاذا كنا نقبل ان « الارواح » او اي عامل اخر غريب (ربما كان عاملا عقليا) تساعد بعض الناس على الطفو في الهواء او الامساك بجمرات الفحم المشتعل ، او منع الاشياء من السقوط ، فربما لم تكن خطوة كبيرة بالنسبة لوسيط من نوع مختلف ، انتمكنمن تحويل الزئبق الى ذهب .

ومما يستحق ان نتذكره هنا ان عالم النفس يونج قد اعتبر السيمياء

سلفـا لعلم النفس الحديث بدلا من أن تكـون سلفا للكيمياء . وفي كتابه الذي ضم ترجمته الذاتية بعنوان : « ذكريات واحلام وتأملات » يوضح انه يعتبـر اكتشافـه للسيمياء كواحدة من اعظم المغامرات الذهنيـة في حياته ، وهو اكتشاف حفت به سلسلة كاملـة من الاحلام التنبؤيـة والمنذرة . وهو يعترف بانه حينمـا حـاول لاول مرة ان يقرأ مقالا عن القرن السادس عشر عن السيمياء ، فان رد فعلـه الاول كـان : « ياالهي الرحيم ، يا له من هراء ! هذا الحشد مستحيل على الفهم . » ولكنه بدأ يتبيـن بالتدريج انـه : « قد عثر بالصدفة ، على المقابل التاريخي لعلم النفس (علمه) الخاص باللاوعي » . وعبر عشر سنوات من الدراسة عـن قـرب وثيق ، توصـل الى رؤيـة ان السيمياء اكبر بكثير جدا من محاولة صنع الذهب . انما هي محاولة للنفاذ الى مـا وراء « اللغز » نفسـه ـ اللغز الذي توصل يونج الى المطابقة بينه وبيـن اللاوعي ـ ومحاولة لاكتشاف اللغز الكامن وراء جريان الكون وتحركه. كـانت السيمياء هي الشكل المتميز الذي اتخذه السحر في القرن السابع عشر ، ولم يكـن حجر الفلاسفـة الذي بحثت عنه شيئـا اقل من سيطرة الانسان الكاملة على الموت . وبالمصطلح الحديث ، يمكننا القول بانها كانت محاولـة الانسان لان يتعلم كيف يتصل ، كلمـا شاء ، بـ : « منبع القوة والمعنى والهدف » في اعمـاق العقل ، من اجل تخطي الازدواجيـات المربكـة والغوامض القائمـة فـي الوعـي اليومـي العـادي .

وسوف يكون من قبيل تجاوز الهدف المقصود ان نقول ببساطة ان يونج قد نظر الى السيمياء باعتبارهـا شكـلا رمزيـا لعلم النفس ،حيث تصبح عملية صنع الذهب رمزا لـ : « تحول الشخصية من خلال عمليـة مزج وخلط العناصر الرفيعة والخسيسـة معـا ، اي الوعي واللاوعي » ، (رغم أن هذه هي عبارة يونج) . لقـد كان من الصعب ان ينفق يونج عشر سنوات كاملة في دراسة موضوع ما الا اذا كان قـد شعر بأن في هذا الموضوع شيء هام يمكنه ان يتعلمه منه . وقد آمن يونج ان السيمياء كانت اقل اهتماما: « بالعمليات الكيميائية منها بالعمليـات النفسانية ، وبتحويل الشخصية . فلكل البشر لحظاتهم التي يشعرون فيهـا بانهم يشبهـون الالهـة او بانهم بشر من نوع اسمى ـ مثلمـا وصف نيتشه نفسه بانه يشعـر : « بالارتفاع ستة آلاف قدم فوق البشر والزمن . » ثمة سر مقدس يهجع داخـل المادة ، ويقول يونج، ان الانسان في محاولة استخلاص هذا السر ،او «تخليصه »» فانه يتخذ لنفسه دورا شبيهـا بدور « المخلص » . (ان هذا الاحساس ـ بالمغزى المختبيء وراء وجه المادة المتغير ـ لقريب قربا واضحا من فكرة دافيد فوستر عـن « كـون الاعلام » وهو مفهوم كان يونج جديرا بان يشيد به). وطبقـا لمـا يقوله يونج ، فان السر الذي بحث عنه السيميائيون ، كان هو سر تحول وانتقال «الوعي» الى حالة تشبه حالة الاله ،اي « التفرد » المطلق . وقد ربط يونج بين هذا السر

ايضا وبين هدف اصحاب اليوجا ـ ومن المعاني البارزة ان « القدرات » غير الطبيعية التي يمارسها البعض على المادة ، يعتبرها الهندوس نتاجا طبيعيا للتحول الروحي الذي يحدث لممارس اليوجا ـ مثلما يحدث لممارس السيمياء .

ومن المؤكد ان راي يونج في السيمياء هو اعمق واشمل الآراء التي ظهرت في هذا الموضوع في القرن العشرين ، ومقالاته في هذا الموضوع تقع بين اكثر ما كتبه سحرا وقدرة على الاقناع . ولم يعد بوسع اي شخص ذكي الآن ان يصرف النظر عن السيمياء بشكل كلي بوصفها نتاجا للخرافة والجهل .

*

فماذا من امرذلك الموضوعالشديد الخبث ، التنجيم؟ هنا يبدو ان للمعترضين قضية لا يمكن رفضها . لقد شيد القدماء حساباتهم على اساس ان هناك سبعة كواكب : عطارد ، والزهرة، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، والقمر ، والشمس . لقد ضموا الشمس والقمر الى المجموعة ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ان الارض كوكب . ولم يكونوا بالطبع يعرفون شيئا عن وجود اورانوس ونبتيون وبلوتو ، والكويكبات ، تلك الشذرات المتبقية من كوكب انفجر بين المريخ والمشتري (ويستطيع المرء ان يضيف ان بوديس لو ، كان قد تنبأ بوجود هذا الكوكب الضائع ، وتمكن البحث الدقيق من اكتشاف بقاياه بعد ذلك ، وهذا برهان حاسم بالتاكيد على تفوق قوانين العلم بالنسبة لقوانين التنجيم !) فكيف يستطيع المرء ان ينظر بجدية الى « علم » يقول ان كوكب المريخ (مارس) له تأثير يؤدي الى الحرب لانه تصادف ان اطلق على الكوكب اسم الهالحرب الروماني ؟.

ولكن قضية التنجيم اقوى مما تبدوعليه . . يستطيع اي محلل نفسي ان يؤكد ان الكثيرين من الناس يتأثرون بالقمر المكتمل ، وليس هناك في علم النفس الحديث ، ولا في النظرية الطبية ، ما يستطيع ان يقدم تفسيرا لذلك . فاذا كان بوسع القمر ان يؤثرعلينا،فلماذا لا يكون بوسع الكواكب الاخرى ان تفعل نفس الشيء ؟

اما بالنسبة للاعتراض القائل بان الخصائص التنجيمية لكوكب ما مستمدة بشكل تحكمي من الديانات الاسطورية القديمة ، فان المنجمين سوف ينكرون ذلك بوضوح . فقد اطلقت على الكواكب اسماء الربات والارباب ، لانه لوحظ ان تاثيرات هذه الكواكب تتطابق مع المعاني التي جسدتها الآلهة القديمة ، فاطلق على كوكب الزهرة (فينوس) اسم ربة الحب ، لانه لوحظ ان الكوكب يمارس تاثيرا معينا في مسائل الحب ، وبهذه الطريقة اطلق على المريخ (مارس) هذا الاسم لتاثيراته في مسائل الحرب، وسمي عطارد (ميركيوري ، هيرمز) بهذا الاسم لعلاقته بالذكاء

والقدرة (ميركيوري هو رسول الآلهة المجنح) ، واصبح المشتري (جوبيتر – كبير الارباب) مرتبطا بالخصائص الابوية – القدرة على الحماية ، والمرح اللطيف ،وحب النظام واصدار الاوامر ، وارتبط زحل (ساتورن) بالشر والفشل ، والشمس بالابداع والقدرة على الخلق ، والقمر بالخيال والشعر والخصائص الاخرى للربة البيضاء . والقمر يرتبط ايضا بعدم الثبات والتغير وعدم الاتزان – ومن هنا ارتباطه بالمجانين .

التنجيم يقوم اذن على نفس نظام « المعرفة القمرية » الذي يقوم عليه كتاب « اي تشينج » الصيني ،وابجدية الاشجار ، والكابالاه ، ولا يزيد في كونه « علما دقيقا » عن « قراءة الكف » ..

ويستطيع غالبية المنجمين ان يوافقوا على ان جوهر التنجيم هو هذا : انه ليس نظاما او نسقا حسابيا معقدا ، ولا هو مذهب متماسك من المعتقدات ، وانما هو الموهبة ، مثل موهبة تخمين مكان ينابيع الماء تحت الارض ، موهبة رؤية العلاقات بين الشخصية وبين التاثيرات الكوكبية . ومثلما هي الحال مع « الوساطة الروحية » والتنبؤ بالمستقبل ، لا نستطيع القول باكثر من انها «تنتج» نتائج عملية بالفعل ، وليس هناك من يملك ادنى فكرة عن السبب في ذلك . انه نظام قمري ، يرفض ان يتكيف مع مناهج العلم العادي ..

*

لقد انتج « القرن السحري » ثلاثةرجال اصبحت اسماؤهم تكاد تكون متطابقة مع السحر :اجريبا، وباراسيلساس ، ونوسترادادموس . ولم يكن احد منهم ساحرا . ولكن ، كان نوسترادادموس بين ثلاثتهم ، هو صاحب اعظم ارتباط بالقدرات الغيبية .

ولد ميشيل نوسترادادموس في سانت ريمي بفرنسا عام ١٥٠٣ ، لابوين مسيحيين من اصل يهودي . وكان جداه كلاهما – لابيه ولامه ، طبيبين ومنجمين للملك انجو الطيب ، رينيه ، الذي عاش في مدينة ايكس ، في اقليم بروفنس . اما والد ميشيل فكان موثقا عاما . وبعد ان فقد جده لامه وظيفته على اثر موت الملك رينيه ، فانه كرس نفسه لتعليم حفيده الموهوب ، وتعلم ميشيل اليونانية واللاتينية والعبرية والطب والتنجيم . وحينما مات هذا الجد ، تولى جده الاخر استكمال تعليم ميشيل . وتقرر في الاسرة انه يجب ان يصبح طبيبا ، وارسل لكي يدرس في جامعة مونتبلييه ، فاجتاز الامتحانات دون صعوبة . وما ان استكمل الدراسة وحصل على اجازته ، حتى اكتسح الطاعون ولاية بروفانس، فكان قادرا على ان يظهر مهارته الطبية . وقد ثبت انها مهارة ملحوظة مثل

مهارة باراسيلساس . كان « معالجا » وشافيا للجراح بالفطرة . وقد بدأ كما لو كان غير خائف من الطاعون الذي قتل اهالي مدينة مونتبلييه بالمئات . وظل يتنقل في المدة بين ١٥٢٥ و١٥٢٩ ، مساعدا في مكافحة الطاعون ، وعندما عاد الى مونتبليه ، تسلم اخيرا اجازة الطبيب التي كان قد حصل عليها قبل اربع سنوات . وفي خلال السنتين التاليتين ، مارس الطب وقام بتدريسه في مونتبلييه، ثم شرع في التنقل والسفر المستمر مرة اخرى . ولم يكن نوستراداموس مثل اجريبا وباراسيلساس شخصية استعراضية كثيرة الزهو . كان يتمتع بغريزة مستمدة من اجيال اليهود المضطهدين ، للانحناء للعاصفة واستبقاء نفسه في الخلفية البعيدة عن الانظار . ولهذا السبب تمكن من احراز نجاح مادي اكبر من معاصريه البارزين .

استقر في مدينة آجين ، واصبح صديقا لسكاليجر الذي كان واحدا من اشهر الباحثين دارسي الآداب القديمة في اوروبا . وهناك قرر ان يتزوج ، وازدهر عمله . ثم انفجر الطاعون مرة اخرى ، فقتل زوجته وطفليهما . فبادر الى السفر مرة اخرى ، وتبعته الاتهامات بالهرطقة والتجديف ، لانه كان مندفعا متهورا بما يكفي لكي يتلفظ بالوصية التي تمنع صنع التماثيل او الصور النحاسية حين كان يرقب العمال وهم يصبون تمثالا للعذراء .

وجاءت بعد ذلك ثمانية اعوام من التجوال الذي يبدو كما لو كان تقليدا من تقاليد سحرة القرن السادس عشر . وكانت هذه هي الفترة التي بدأت قدراته الغريبة في الظهور والتأثير . بدأ يعيش لحظات خاطفة كالوميض من القدرة على الاستبصار كما لو كان يملك حاسة سادسة . وتحكي احدى القصص انه شاهد في ايطاليا شابا يدعى فيلكس بيريتي ، وهو راع للخنازير اصبح راهبا . وقيل ان نوستراداموس خر على ركبتيه امام بيريتي وخاطبه مناديا : « قداستك » . وقد اصبح بيريتي هذا فيما بعد البابا سيكتس الخامس بعد موت نوستراداموس . وهناك قصص اخرى كثيرة عن قدرته على التنبؤ بوقوع احداث بسيطة ، خارجة عن سياق الامور الطبيعية المباشرة ، قبل وقوعها . .

وفي عام ١٥٤٤ دعي نوستراداموس مرة اخرى لمكافحة الطاعون ، في مارسيليا هذه المرة . وفي نوفمبر ، قطعت الفيضانات الطرق المحيطة بسانت ريمي ، وتولت جثث البشر والحيوانات الطافية مهمة نشر الطاعون الى مناطق بعيدة . وفي عام ١٥٤٦ ذهب الى مدينة ايكس في بروفينس لكي يكافح الطاعون . ويكاد يكون من المستحيل بالنسبة لنا الآن ان نتصور انواع الرعب والفزع التي كانت من الاشياء الشائعة في القرون الوسطى وما بعدها . لقد هجر الناس مدينة

ايكس جميعها تقريبا ، واغلقت الابواب ، وامتلأت الشوارع بالجثث التي لم تجد من يدفنهـا ، وظلت الكنائس خاوية ،ولا تستطيع المحـــاكم ومجالس القضـاء والبرلمانات ان تمارس اي نوع من العمل او السلطة . اما ما استطاع نوستراداموس ان يقوم به في موقف من هذا النوع فليس واضحا بالنسبة لنا ، رغم انه مـن المؤكـد انه ادرك اهمية عدم نقل العدوى وفهم اهمية الهواء النقي . (ويجـب علينـا ان نتذكر ان الاطباء لم يفهموا شيئا عن الجراثيم الا في القرن التاسع عشر ، وقبـل ذلك كان الطبيب الذي فرغ من تضميد جرح متقيح يذهب لتوليد امراة دون ان يكلف نفسه عناء مجرد غسل يديه) . وعلى كل حال ، قام نوسترادامو س بعمله بشكل طيب حتى ان المدينة خصصت له معاشا دائما . ثم ذهب الى مدينـة سالون وقدم هنـاك نفس الخدمات . وفي عام ١٥٤٧ قرر ان يستقر في سالون ، فتزوج ثانية ، واشترى منزلا ، وامضى ما تبقى من حياته ـ وهـو تسعة عشر عاما ـ في ممارسة الطب وكتابة « تنبؤاته » . كان قد تزوج ارملة ، ثم انتقلا الى منزل في شارع ضيق معتم . وكان هناك سلم حلزوني يؤدي الى حجرة في الطابـق العلوي حولها نوسترادامو س الى حجرة لعمله . من هناك كان يستطيع ان ينظـر الى اسطح المنازل الضيقة في البلدة التي كانت تسيطر عليها القلعة القديمة المشيدة فوق الصخور المنحدرة . في هذا المقر راح يعمل بهدوء ، واكتسب لنفسه شهـرة في اوروبا كلهـا بوصفه متكهنـا ومتنبئا . وانتقل الى المنزل تلميذه وتابعه ، جان دي تشافيني ، واصبح كاتب ترجمة نوسترادامو س .

وبعد ثمانية اعوام من الانتقال الى سالون ، نشر نوسترادامو س الطبعة الاولى من تنبؤاته ، التي منحها عنوان : « قرون » لان التنبؤات ،التـي كانت كل منهـا تصاغ في مقطع من اربعـة سطور ، نشرت في مجموعات ، تضم كل مجموعة مائة مقطع . وتتميز المقاطع بغموض بالغ ، بالاضافة الى انهـا لـم تخضع فـي طبعهـا لاي نظام . كان نوسترادامو س خائفا من ان يتهم بممارسة السحر . ذلك انه اذا كان تعليقه الذي لا ضرر فيه عن تمثال العذراء قد فسر بانه نوع من الهرطقة ، فما الذي كان يمكن ان يحدث حينـما يتنبأ بصعود وسقوط الملوك والبابوات ؟ وقـد تراجع نوسترادامو س تراجعا واضحا لكي يؤكـد انه لم يكـن دارسا لعلوم الغيب باي معنى من المعاني ، وهو يقول لابنه ـ الذي كان عمره لا يزيد علـى شهـور معدودة ـ في المقدمة انه قد احرق كل كتبه عن السحر خوفا من ان يسيء طـلاب السلطـة والقوة استخدامها . ولكن جيمس لافر ، مؤلف واحد من احسن الكتب التي تناولت حياة نوسترادامو س ، يعلن اقتناعه بان نوسترادامو س قد استخـدم السحـر والوسائل السحرية للوصول الى كهاناته وتنبؤاته بالمستقبل .

ومن المؤكـد ان الرباعيات (المقاطع الرباعية الابيات) تتميز بقدر كاف مـن

الغرابة . والا فما الذي كان يمكن ان يدفع رجلا لان يجلس لكي يكتب مئات المقاطع من مثل :

.. « الوحوش التي دفعها الجوع الى الجنون ستجعل مسايل المياه ترتجف ، ستقع اكثر الاراضي تحت حكم هيستر ، وفي قفص من الحديد سوف يسحب الرجل العظيم ، حينما لا يرقب ولا يراعي طفل المانيا شيئا » .

وقد اختلف الباحثون في تفسير تنبؤات نوستراداموس ، رغم ان هذه التنبؤات لم تكف عن شغل تفكير اجيال الدارسين . ان غموضها يتيح قدرا كبيرا من الاختلاف بقدر ما يجتذب انواعا عديدة من الاهتمامات والفضول . ولا شك ان بعض المقاطع تثير قدرا كبيرا من الدهشة لاقترابها من بعض المسائل التفصيلية الدقيقة التي يصعب ان تلفت النظر لحظة حدوثها او في مكان وقوعها وزمانه ، فما بالك بشخص يتحدث عنها قبل وقوعها بثلاثة قرون ، او يشير الى ملابسات شديدة الشبه بملابساتها ويذكر الاماكن الضئيلة الشان التي ستقع فيها احداث جسام تجعل المكان التافه مشهورا مرة واحدة في التاريخ . من ذلك ، المقطع الذي يتحدث فيه نوستراداموس عن زوجين ملكيين ، يأتيان من طرق ملتفة وعرة عبر غابة رينز ،ويتوقفان عند صخرة « هيرن » البيضاء ، ثم يدخلان قرية فارين ، قبل ان يسقط الرأس وتثور العواصف وتشب النار وتسيل الدماء وتنقطع الاطراف والرؤوس . انه في الحقيقة يتحدث عن الاماكن التي تأتي في رحلة الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري انتوانيت ، رحلتهما المشؤومة في محاولة الهرب من فرنسا ، قادمين من باريس ،فيعبران بغابة رينز ، ويتوقفان عند تل هيرن الصخري الابيض ،امام الحرس الذي يخدع في هويتهما ويسمح لهما بالمرور ليدخلا قرية فارين حيث سيلقى عليهما القبض بسبب خيانة الكونت دي ناربون . وبعد اعتقالهما ينفجر حكم الارهاب الذي يقتلان فيه بالمقصلة ، ويقتل اثناءه المئات بقطع الرؤوس والاطراف ، بل ان المذهل حقا في رباعية تالية ، ان نوستراداموس يتحدث عن « سوس » اسم البقال الذي سيعتقل لويس السادس عشر في منزله ،وعن الخائن ناربون بالاسم ، مع اختلاف بسيط في حروف الحركة ،وهو الذي كان وزيرا للملك متواطئا مع الثوار .

واذا كان كل هذا شيئا مدهشا فيما يبدو ، فلا بد لنا من تذكر انه لا ينفرد بذلك . ان لأفير يذكر اسم المنجم مايستر تيوربل من اووتون ، الذي كان معاصرا لنوستراداموس ،وقال ان عام ١٧٨٩ سيكون عام تغيرات بارزة واحداث جسيمة، وانقلابات في الطبقات والقوانين ، واضاف ان هذا سيستمر خمسا وعشرين سنة ، الرقم الذي يصل بنا الى عام ١٨١٤ ، عام سقوط نابوليون . وهناك منجم

آخـر ، يدعى ريتشارد روسان ، نشر كتابه : « حول التغيرات في الزمن » عـام ١٥٥٠ ، وقال ان« انقلابا سيحدث في العالم بعد ٢٤٣ سنة من نشر هذا الكتاب»، ممـا يصل الى عام ١٧٩٢ . ورغم ان الثورة قامت عام ١٧٨٩ ، فان تقويمها لـم يصدر الا عام ١٧٩٢ ، وهو العام الذي قال عنه روسان انه عام« اعادة بتكار العالم في المستقبل » . . وهناك منجمـون أخرون تحدثوا عن عام ١٧٨٩ قبل عدة قرون باعتباره حاسمـا فـي التاريخ .

وبشكل عام ، تبدو تنبؤات نوستراداموس عن الثورة ، واعدام الملك والملكة ، وظهـور نابوليون ، هي اكثر ما في تنبؤاته من مقاطع مؤثرة ونماذج تدل على قوة قدرته على التنبؤ والرؤيـة المسبقة . انه يتحدث عن احداث تفصيلية في الثـورة قلمـا تذكرهـا كتب التاريخ العام ، وقلمـا يعرفها الان غير المتخصصين : انـه يتحدث مثلا عن مذبحـة نانتبالاسم ، وعن ان اهل المدينة المنكوبة بيعقوبي سفاح مجنون يحكمها اثناء الارهاب ، حاولوا تخليص انفسهم فيبيـد السفاح « كاريير » نصفهم ويقتل اطفالهم في لذة سادية مرعبة ، حتى يصدر الحكم المفاجيء واللامنطقي ايضـا في باريس باعدامهبالمقصلة . وفي احـد مقاطعه عن الثورة التي قال انهـا ستقع في عام ١٧٨٩ ، يقول انها: « نار وماء وحديد وحبل » ثم يقول في السطـر التالي : « ان كـل من ابتكر تلك الاشياء واستخدمها سيموت بها » . وينتهي نفس المقطع بهذا السطر المذهل : « الا واحدا ، سينشر الخراب في العالـه كلـه . » نابو ليـون .

وبالنظر الى ان كل الاشياء التي تنبأ بهـا كانت في المستقبل ، فانه يبدو من الغريب ان مقاطع نوستراداموس الغامضـة هذه قد اثارت كل هذا الاهتمام الذي اثارته في خلال حياته . والحقيقـة ان هذه المقاطع قد جعلته علـى الفـور ذائـع الشهـرة . وهي على اي حال اشبه بالتنبؤات عن الحرائق والطواعين والدماء وانواع التمزق والعذاب التـي لا شك انهـا اشبعت الرغبة الانسانية العامة في السماع عـن الكـوارث .

كانت ملكة فرنسا عام ١٥١٥ هي كاترين دي مديتشي ،التي كانت دارسـة متحمسـة لعلوم الغيب . وكان لديهـا سبب قوي يدفعها الى ذلك . فقد تنبـأ لها عراف مشهور ، يدعى لوكجوريك او جوريكوس بموت زوجها ، هنري الثاني ،في مبارزة . وكانت شهرةجوريك كمتبنيء وعرافتطاول شهرة نوستراداموس الاصغر منه سنا . كان جوريك يمارس عمله عن طريق قراءة النجوم ، ولكن يبدو انه لا شك في امتلاكه لمواهب غيبيّة من نفس النوع الذي يمتلكه بيتر هوركوز في عصرنا هذا. فقد حدد في خريطةالبروج طالع جيوفانـي دي ميديتشي ابن لورينز الكبيـر ، وتنبأ بانه سيكون « بابا » ، وهو مـا تاكـد بالفعل بعد ذلك (فقد اصبح جيوفاني

هو البابا ليو العاشر ، البابا الذي اصطدم به اوثر) . وفي اسكتلندا قال جوريك لرئيس اساقفة كاتدرائية سانت اندروز انه سيموت على المشنقة ، ضحية لاعداء من البروتستانت . ولكن صراحته جلبت عليه في مناسبة اخرى نتائج سيئة . فقد اخبر جيوفاني بونتيفوجليو ، طاغية بولونيا ، انه سيموت في المنفى . فأمر الطاغية بأن يعلق العراف في آلة التعذيب المعروفة بالاسترابادو ،حيث يعلق الرجل من ذراعيه ملويتين الى الوراء ، ثم يسقط الحبل بسرعة نحو الارض ليرفع ثانية بنفس السرعة قبل ان تلمس قدما الرجل الارض . وامر بونتيفوجليو باسقاط جورك خمس مرات في الاسترابادو ، الامر الذي اقتضاه عدة سنوات قبل ان تشفى كتفاه . ولكن قضى هذه السنوات سعيدا ، وهو يرى الطاغية يُساق سجينا الى المنفى بأمر من البابا يوليوس الثاني،ليموت بعيدا عن بولونيا تصديقا لنبوءته . بل انه تنبأ باليوم الذي مات فيه البابا بول الثالث : ٢٠ نوفمبر سنة ١٥٤٩ .

وقد تقدم جوريك بنبوءة مزدوجة تتعلق بهنري الثاني ملك فرنسا . فقد تنبأ اولا بانه سيكون شاهدا في مبارزة حينما يرتقي العرش . ودارت المبارزة بين جي‌سابوت جارناك ، وبين فرنسوا لاتشاتيانيري في عام ١٥٤٧ ، وكان‌الملك حاضرا لكي يرى تشاتيانيري وهو يذبح بسيف خصمه . وكان الجزء الثاني من النبوءة هو ان الملك نفسه سوف يموت نتيجة لمبارزة . ويبدو ما يتلو من القصة شيئا بعيد الاحتمال ، ولكن ما حدث هو ان كاترين دي ميديتشي قررت ان تتثبت من صحة النبوءة عن طريق استشارة عراف سالون الجديد . وذهب نوستراداموس الى باريس حيث اذهل كاترين ، رغم انه لا يوجد تسجيل لما دار بينهما . وكان نوستراداموس قد تنبأ بالفعل بطريقة موت الملك في مقاطع « قرون » ، بقوله :

الاسد الشاب سيغلب العجوز في
ميدان الحرب في قتال فردي ، وفي قفص
من الذهب سيفقأ عينيه ، فيصبح الجرحان
واحدا ، ثم يموت ميتة قاسية .

وفي عام ١٥٥٩ تزوجت ابنتاهنري الثاني :احداهما تزوجت فيلب عاهل اسبانيا ، وتزوجت الثانية دوق سافوي . واشترك هنري في المبارزات الودية التي اقيمت ضمن الاحتفالات ـ ناسيا فيما يبدو النبوءة التي تحدثت عن‌المبارزة. وحينما كان الملك يتصادم بالرماح مع الشاب جابرييل ، كونت دي مونتجومري، انكسر رمح جابرييل ؛ واخترقت شظية من الرمح غطاء الوجه الذهبي لخوذة الملك ففقأت عينه ونفذت الى‌المخ وراء العين من‌خلف « القفص الذهبي » . وعاش هنري

عشرة ايام قبل ان يموت ، ميتة قاسية دون شك . وكان على جابرييل كورييس ان يفر الى انجلترا هربا من غضبة كاترين ..

وهناك مقطع آخر من « قرون » يبدو انه يشير الى كاترين بقوله :

ستبقى السيدة لكي تحكم بمفردها
بعد موت قرينها الفذ على ساحة
الشرف ، وبعد حدادها سبع سنوات
ستعيش وتحكم عهدا طويلا .

وقد ظلت كاترين في حداد على زوجها لمدة سبع سنوات ، ثم عاشت وحكمت طوال ثلاثين عاما اخرى ، او انها على الاقل ، قد لعبت دورا بالغ النشاط في شؤون فرنسا . فقد اعتلى العرش خلفا لهنري الثاني ، ابنه فرانسيس الثاني الذي كان شابا معلولا وكان نوستراداموس قد قرا طالعه في خريطة النجوم بطلب من الملكة . وكتب نوستراداموس مقطعا يعلن ان الابن الاكبر للارملة سيموت قبل ان يكمل عامه الثامن عشر ، وان شقيقه التالي سيتقدم لخطبة عروس وهو في سن اصغر من هذا بكثير . ومات فرانسيس بتسمم في الدم قبل عيد ميلاده الثامن عشر بستة اسابيع . اما شقيقه العصابي ، تشارلس التاسع (الذي كان في العاشرة فقط حينذاك) فقد خطب الى اليزابيت اميرة النمسا وكانت في الحادية عشرة . وحينما بلغ الملك الرابعة عشرة من عمره ، زار نوستراداموس في سالون ، تصحبه ، بالطبع ، والدته . وطلبت كاترين من نوستراداموس ان يقرأ في خريطة النجوم والابراج طالع ابنها الاصغر ، دون انجو ، فأخبرها نوستراداموس ان ولدها سيعتلي العرش . ولكنه كان اكثر اهتماما بالفتى هنري اميرنافار الذي كان موجوداً ضمن المعية الملكية . فطلب ان يراه عاريا ، ولكن الولد خاف اذ ظن انهم سيضربونه فرفض. فذهب نوستراداموس الى غرفة نوم الصبي في ساعة مبكرة صباح اليوم التالي وفحص جسمه ، واعلن ان هنري سيكون ملكا ذات يوم. ويجعل هذا من الواضح ان نوستراداموس في تنبؤاته ، او في بعضها ، لم يكن يستند الى التنجيم ، وانما الى نوع ما من الحدس او الفراسة او الحاسة السادسة . وربما كان قد اراد ان يفحص علامات معينة على جسد الصبي — فان الحكاية التي سجلت الواقعة لا تحدد شيئا من هذا . وفي الحقيقة فان شارلس التاسع ، وهو الملك المسؤول عن مذبحة سانت بارثولوميو ، مات بالسل في منتصف عشريناته . اما هنري الثالث ، الذي خلفه على العرش ، فقد طعنه الراهب جاك كليمنت ، وهو في المرحاض بسكين. وقتله . فاعتلى هنري امير نافار العرش وهو بروتستانتي . وقد تنبأ نوستراداموس بكل هذا بدقة . بل ان مذبحة الهيجونون ، بروتستانت فرنسا ، في يوم عيد القديسة بارتولوميو ، تأتي بنبوءتها عند نوستراداموس ، حيث تحدث عن « متوحش اسود»

سيذبح الناس بيديه مستخدما النار والحديد والسهام . وكلمــــة اسود Noir هي اللفظة التي يستخدمها نوستراداموس عــادة للتعبيــر عن الملــك Roi ومن المؤكـد ان تشارلس كان ملكا بالغ القسوة . كان يصر دائما علــى استخراج امعاء الفرائس بنفسـه حين يخرج للصيد ، وكان يعتاد عادة غريبة ، هي اصراره على اطلاق النار على دمــاغ اي خنزير او حمار يقابله في طريقه . واثناء المذبحة ، كان الملك يطل من احدى النوافذ في اللوفر ، حاملا قوسا مزودا بزناد كالبندقية وهو يصيح « اقتلوا ! اقتلوا ! » ، ثم هبط الى عرض الطريق واشترك بنفسـه فـي ابادة البروتستانت . « وبعد ان تكل يداه من استخدام النار والحديد وسهام الاقواس ، هو الملك القاسي ، سينزل الخوف بقلوب الناس اذ يرون اعظم الرجال معلقامـــن رقبته وقدميــه » . هكذا قال نوستراداموس عن نهاية المذبحة . وكان الادميرال كولوني ، قائد الهوجونوت ، هو الهدف الرئيسي من المذبحة . وكانت كاترين قد اقنعت ولدهــا بضرورة قتله ، واخيرا صاح تشارلس في جنون : « اذا كان مــن الضروري ان يقتل ، فليقتل جميع الهيجونوت في فرنسا في نفس الوقت » . وفي نهايــة المذبحــة اقتيد كولوني في شوارع باريس ، وشنق ثم علق من قدميه علــى منصــة عاليــة ...

وبدأت صحة نوستراداموس في التدهور . وفي ستيناته تحـــول النقرس الى استسقاء ، وقد تنبأ بموته بدقته المعتادة :

في عودته من سفارته ، وقــد
وضعت هدية الملك في مكانها ، لن
يفعل المزيد ، اذ يكون في طريقه الى الله . سيعثر
عليه اقرباؤه واصدقاؤه واخوته
بالقرب من سريره ودكتــه .

وارسل نوستراداموس الى آرليه ممثلا لاهل سالون . وفي عودته ، وجــد ميتا بالقرب من فراشه ، متكئا على « الدكة » التي كان يصعد الى سريره عليها . ودفن على الفور في جدار كنيسة رهبان الكوردليبرز ، بناء على طلبه .

وقد استمرت دراسة « القرون » منذ ذلك الحين . وتعلن واحدة من اكثر مقاطعهــا اثارة للاهتمام :

مثل ملك الغزاة العظام القدماء الهائل ،
في عام ١٩٩٩ ، في الشهر السابع ،
سيهبط ملك الفزع العظيم من السماء .
في هذا الزمن ، سيحكم مارس لصاحب قضية الحق .

ويفسر البعض هذه النبوءة بانها نهاية العالم ، بينما يظن آخرون انها قد تعني غزوا من الفضاءالخارجي . انعبارة «ملكالفزع العظيم » تبدو بحزن كالقنبلة الهيدروجينية . اما ملك الغزاة العظام فيكاد بالتاكيد ان يكون هو « جنكيزخان » ،فان الكلمة التي استخدمها Angolmois هي احدى الكلمات التي يرمز بها نوستراداموس دائما الى المغول . وربما كان يحذر من « الرعب الاصفر » .ويتبنى لافر الراي القائل بانه ربما كان نوستراداموس يتبع الفكرة التي كانت سائدة في القرون الوسطى من ان العالم سيعيش سبعة الاف سنة . وقد كان يفترض ان العالم قد خلق في عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد . (وقد حدد رئيس الاساقفة اشرعام بدء الخليقة بانه ٤٠٠٤ ق.م بعد حسابات دقيقة لكل العصور المذكورة في التوراة) . فالالف القادمة اذن هي الالف الاخيرة من السنين فيوجود الارض ، وعلى ذلك فربماكان نوستراداموس قد حسب شهر يوليو عام ١٩٩٩ باعتباره بداية النهاية ، لا النهاية . وقد يكون مما يستحق عناية رجال الحكم في العالم ان يبذلوا جهودا خاصة من اجل السلام في منتصف عام ١٩٩٩ .

- ٥ -

خبــراء ودجالــون

يلاحظ المؤرخ سقوطا واضحا في نوعية السحر بعد القــرن السادس عشر العظيم . ويستطيع اي انسان ان يخمن السبب . فكل الاشياء تمضي في دوائر. ثمة عصور عظيمة للشعر ، وللرسم ، وللموسيقى ، وللعلم . وفي العام الذي ولد فيه كورنيليوس اجريبا ، ظهــر كتاب يدعى : « مطرقة الساحرات » ، كتبه اثنــان من الرهبان الدومينيكان ، جاكوب سبرينجر (١٤٣٦ ــ ١٤٩٥) وهينريش كرامر (١٤٣٠ ــ ١٥٠٥)، وهو الكتاب الذي يصفه روسيل هوب روبينز بأنه : « اكثــر الكتب التي وضعت في عبادة الشياطين ودراسة هذه العبادة اهميــة وخبثا » . وكان المؤلفــان على التوالي هما رئيس جامعة كولونيا ورئيس رهبان احد الاديرة. وقد صدر من الكتاب ست عشرة طبعة باللغة الالمانية ، واحدى عشرة بالفرنسية ، واثنتان بالايطالية ، وست على الاقل بالانجليزية . وقد عاش الــدكتور فاوست ، الذي اصبح ذلك البطل الهام في الاساطير ،عاش في بداية ذلــك القرن ، لان تريثيموس يذكره بازدراء في خطاب كتب عام ١٥٠٧ . وكان من حظ فاوست ان يحل محل ثيوفيلوس في خيال الناس ، ولكن بينمــا كان ثيوفيلاوس مخلوقامسكينا ضعيفا باع روحه للشيطان في سورة من الياس ، كــان فاوست هــو البطــل الشيطاني ، « يبرم » شاربيه ويعقصهما ويرتكب الموبقات القدرة الجديرة بوغد . وقد اسر ثيوفيلوس خيال الناس عبر ستة قرون لان فكرة التعاهد مع الشيطان كانت فكرة مفزعة للغاية . اماالقرن السادس عشر فقد وجدها فكرة على قدر من الاثارة القاتنة ، بل المثيرةللشغف. لقد اثار فاوست نوعا منالاعجاب السري .

كان مــا يحدث ــ مثلمــا نستطيع الان ان نرى اذ ننظر الى الوراء ــ هو ان الكنيسة كانت تفقد قبضتها القوية . وكان الخيــال الانساني يــزداد نموا ، وكان

عصر العلم يقترب . وقام سيد ريفي مثقف وذكي ، يدعى ريجنالدسكوت ، بتاليف كتاب : « اكتشاف السحر » في عام ١٥٨٠ ، وقد اتخذ وجهة النظر الجديـــرة بشكاك لا يتراجع عن شكه، فاعلن ان : « كل المظاهر والاعمال الروحـــانية ليست سوى ادعاءات دجل مصطنعة. وان الساحرات كن شيئا من ابتكار محكمة التفتيش وتبدو بعض حكاياته مفحشة ومرحة . مثل قصة الشاب الذي كان من سوء حظه ان يفقد عضوه الجنسي في الجماع ، فيذهب الى الساحرة التي تدله على شجـرة تحتوي « اعشاشها » على اغصان مختلفة الاحجام ، واذ يختار عضوا هائلا تصرخ فيه : لا ، هذا هو عضو الكاردينال الميت ، فخذ اي عضو آخر يعجبك ..» . ويقول سكوت ،معلقا بجدية:ليست هذه فكاهات من وحي الخيال ،لان من كتبوها هم..».
وقدوصف الملك جيمس الاول كتاب سكوت بانه : « جدير باللعنة » ثم الف كتابه « عبادة الشياطين » في الرد عليه . ولكن على الرغم من وجود اسم الملك علـــى الكتـــاب يدعمه ويروج له ، فان الكتاب لم يحقق ابدا ما حققـــه كتـــاب سكـــوت من شعبيـــة .

لقد اخطا سكوت في اعتقاده بان كل المظاهر والاعمال الروحانية كانت راجعة الى عمليات الخداع والغش او الى الاضطراب العقلي من جانب المشاهدين . ولكن هذا الشك كان علامة صحية بعد قرون طويلة من التصديق الكامل . امـــا بالنسبة للملـــك جيمس الاول ، فكـــان قد تحول الى الايمـــان بالساحرات بسحب قضية « نورث بيرويك » ،حيث عذبت فتاة صغيرة كانت تمتلك بعض المواهب الطبيعية القادرة على « العلاج الروحي » وشفاء الجراح ، عذبت على يدي سيدها حتـــى اعترفت بان الشيطان هو الذي كان يساعدها ،وبعد مزيد من التعذيب اعترفت على عدد اخر من الناس . وكان هؤلاء من فئات « محترمة » جدا ــ ناظر المدرسة ،جون فيان ،وسيدة مثقفة مسنة هي آجنيس سامبسون ، وسيدتان اخريان لهمـــا سمعة طيبة ــ الامر الذي يدفع الى الظـــن بان الفتاة اختارتهم لانهـــا كانت تأمل انهـــم سرعان مـــا سيكشفـــون عن سخف الاتهامات الموجهـــة اليهم واليها كذلك . ولكن كانت الطريقة الوحيدة لايقاف عمليات التعذيب غير الانسانية ، كانت تعتمد علـــى ابتكار قصص عن « يوم سبت الساحرات » ، واتهام المزيد من الابرياء . وهكـــذا فعل الجميع ممن اختارتهم الفتاة، حتى شملت المحاكمة سبعين شخصا . وقـــد اشرف الملك جيمس بنفسه على بعض مراحل التعذيب ، وخاصة حينما اخترعت الفتاة قصة عن الابحار في سفينة سريعـــة بهدف محاولة اغراق سفينة الملك. وقد تم احراق غالبية المتهمين السبعين ، واحرق بعضهم دون استخـــدام « الرافة » المعهودة ، بشنقهم قبل احراق جثثهم ، بل احرقوا احياء . وقد الف جيمس كتابه عن « عبادة الشياطين » كنتيجـــة لهذه التجربة . ولقد كان تحولا ساخـــرا ان دفعت شهوة الملك جيمس الى استجواب الساحرات ، صاحب الكتاب والتجربـــة في النهاية الى الاتفاق مع ريجنالد سكوت على ان الجانب الاكبر من المسالـــة كان

تدليسا وغشا سافرا . وقد توقفت محاكمات الساحرات في نهايـة عهده توقفـا كامــلا تقريبـا .

*

كان الدكتور « جون دي » شخصية من اكثر الشخصيات في تاريخ السحر جدارة بالتعاطف ، رغم انه لم يكـن من اكثرها بروزا . وقد امتدت حياته لتغطي عهود خمسة ملوك :هنري الثامن ، وادوارد السادس ، والملكـة ماري ، والملكـة اليزابيت ، وجيمس الاول . ويكاد « دي » ان يتميز بين السحرة بعدم امتلاكه لاية « ملكات غيبية »مطلقا . وقد قال ذلك عن نفسـه مرارا . كان متصوفا من نوع ما، رغم انه لم يكن ينتمي الى مرتبة رفيعة من المتصوفين،ذلك ان رغبته المسيطرة كانت في المعرفة ، والبحث والدراسـة والتعلم . كان رجلا يشبه ان يكون « هـ.ج.ويلز» من نوع باكر او بدائي ،يلهبه عطش لا يرتوي لان يعرف كل شيء . ومثـل كـل الشعراء والسحرة الحقيقيين ، كان مسوقا برؤية عن واقع يختلف كل الاختلاف عن العالم العادي المبتذل الذي نعيش نحـن فيه حياتنا العادية . كان باراسليساس واجريبا طبيبين درسـا السحر لانه كـان جزءا من مهنتهما . وكان في كل منهما جانب يدل على المهرج او المشعوذ .اما « دي » فقد درس السحر لانه كان شاعرا، تراءى له ان السحر هو القادر على ان يقدم له مفتاح شكل آخر للوجود . ولم يكن فيه شيء من المهرج او الدجـال .

كان والد « دي » موظفـا صغيرا في بلاط هنري الثامن . وقد ولد فـي لندن ، في ١٣ يوليو من عام ١٥٢٧ . وكان كورنيليوس اجريبا صعلوكا تملأه المرارة، يتجول في بلدان اوروبا في نفس الوقت الذي ولد فيـه « دي » . وكـان باراسيلساس على وشك ان يطرده اعداؤه من بازل . اما نوسترادموس فكـان طبيبا شابا ، لم يحصل على درجته العلمية بعد ، يواصل اسفاره في بلدان اوروبا لمكافحـة الطاعـون . وحينمـا يحين الوقت ، سيصبح « دي » هـو الاخر جوالا لا يستقر ، رغم انه لن يكون ابدا بدون وطن .

والتحق « دي » بمدرسة تشانترى في تشيلمسفورد . وكانت هذه بلـدة تجارية هادئة صغيرة تحيطهـا المروج الخضراء ، يجري بالـقرب منهـا نهر طيني سريع . واولع دي بتصفح الكتب والمخطوطات القديمة . وسحرته طقوس الكنيسة الكاثوليكية (ذلك ان انجلترا لم تكن كلهـا بروتستانتية بعد) . وتسبب المنهـاج الدراسي الضيق في المحافظـة على قوة شهيته للمعرفة . ففي ذلك الزمن ، وطوال قرن آخر ، كانت حتى الجامعات معدومة الطموح بشكل كامل . فبدلا من القراءة والكتابة وتعليم الرياضيات ، كانت تعلم النحـو والمنطق والبلاغة والخطابة. كانوا يدرسون اللاتينية ، ولكن اليونانية لم تكن تلقى اي عنايـة . وكـان التلاميـذ

يوكلون الى « معلم » يتمتع بالسلطة المطلقة ، ويقوم بتعليم كل شيء ، حتى كان بوسعه ان يضربهم عند الضرورة . وكانت المستويات الاكاديمية منخفضة في انجلترا ، ولم يكن هناك سوى القليل الذي يمكن ان يمنع طالبا من انفاق سنوات دراسته الجامعية السبع في شرب الخمر ومطاردة النساء . وفي النهاية لم يكن بوسع اي سيد انجليزي مهذب ان يجد نفعا واضحا حقيقيا لما يعرفه من لاتينية ومنطق ، أو حتى لما تعلمه من الجغرافيا والرياضيات ، حينما يتسلم مزارع الاسرة وممتلكاتها .

ولذلك ، فحينما ذهب « دي » الى كلية سانت جون في كامبريدج ، في الخامسة عشرة من عمره ، لم يكن لديه سبب للاحساس بانه قد عثر على بيته الروحي — ملثما شعر برتراندراسل في العقد الاخير من القرن الماضي . ولكن الفرص ، كانت متاحة هناك ،اذا هو رغب في اقتناصها . ولقد اقتنصها بالفعل ، وبقوة وكثافة غير عاديتين. لم يسمح لنفسه بأن ينام في الليل لاكثر من اربع ساعات . بل انه درس اليونانية . وسرعان ما ادرك المسؤولون عن الجامعة ان معجزة صغيرة تعيش بينهم ، وحينما بلغ التاسعة عشرة ، اصبح دي زميلا في كلية ترينتي ، وقارئا مبتدئا (استاذا مساعدا) في اليونانية . وكان قد اصبح فلكيا متحمسا بالفعل .

وجعله الجو السائد في كامبريدج يشعر بالاختناق ، وفي اول فرصة ،ذهب الى جامعة لوفين ، التي كانت واحدة من احسن جامعات اوروبا ، وحيث كان اجريبا قد درس من قبل . وهناك قرا دي كتاب اجريبا « الفلسفة الغيبية » فاثرت فيه ، واثارته،فكرة ان السحر والسيمياء لم يكونا مجرد دراسات شيطانية ، وانما عاملين مساعدين بشكل عملي فيالبحث الصوفي عن الله . وكانت سمعة السحر سيئة في انجلترا ،التي كانت مستودعا بعيدا كالمستنقع في كل ما يتعلق بالثقافة . ولكن السحر في القارة كان يثير الاهتمام الذكي . ولا بد ان نتذكر ان السحر والعلم كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا في ذلك الزمن ، بل ان الرياضيات كانت تعتبر دراسة « سحرية » ،نبيها الرائد هو فيثاغوراس . كان للسحر عند دي نفس معنى العلم عند هـ . ج . ويلز بعد ثلاثة قرون . كان هو ما ظل يحلم بهباستمرار مجال رائع شاسع للدراسة ، دون حدود مرئية من اي نوع . وسرعان ما اكتسب شهرة تطاول شهرة كورنيليوس اجريبا .

وسبقته شهرته حينما ذهب الى باريس عام ١٥٥٠ ، وفي ريمز القى سلسلة متكاملة من المحاضرات عن « ايوقليدس » كانت الدعوة لحضورها مفتوحة وموجهة الى الجميع . كانت شهرته قد بلغت درجة جعلتهم يعرضون عليه الاستاذية في الجامعة ، ولكنه شعر بان اشياء اكثر اثارة ما زالت بانتظاره ، فعاد الى انجلترا ، حيث كان ادوارد السادس البالغ من عمره عشر سنوات

فحسب ، قد خلف هنري الثامن على العرش . ومنحه الملك معاشا دائما ، ولكنه باع المعاش على الفور مقابل ابرشيتين .

وفي عام ١٥٥٢ ، التقى بجيروم كاردان ، المتخصص في علوم الغيب ،والذي كان « ساحرا » بالمعنى الدقيق للكلمة : اي انه كان يمتلك حاسة سادسة بالغة التطور ، الى آخر الملكات الغيبية الاخرى . . لقد اكد في مذكراته انه كان يستطيع منذ طفولته ان يرى اشياء« خيالية » باحساس بالغ الواقعية . ويقول انه في طفولته ، لم يكن يستطيع ان يسيطر على هذه القدرة ، ولكنه تعلم فيما بعد كيف يختار الاشياء التي يريد ان « يراها » . ويتطابق كل هذا مع الصورة التي شيدناها للقدرة الطبيعية على الرؤية ، صورة الرجل الذي يعاني من نوع ما من الاضطراب الكيمائي (اضطراب تركيبة كيمائية الحيوية) الذي يؤدي الى نفس ما تولده جرعة من عقار عصبي او نفسي على الجهاز العصبي من آثار . وارتبط ذلك كله بنوع من الافتقار شبه الهستيري الى السيطرة على النفس ، حتى انه كان يندفع الى الجدل بهدف الجدل ذاته ، سواء كان يؤمن بما يقول ام لا ، فيجد نفسه مضطرا الى ان يقول اشياء يعرف انها قد تنفر الناس منه . واعتقد انه يصاحب روحا تلازمه على الدوام ، كما كان منجما ومتنبئا موهوبا الى درجة غير عادية . ولا شك انه يعد واحدا من ابرز الاعاجيب النفسية في كل العصور .

وكان لكاردان تأثير كبير على « دي » الذي بدا يفكر في الارواح التي يمكن ان يتصل بها لكي تساعده في بحوثه . كانت النقود هي مشكلته الان ، وظلت كذلك طوال ما بقي من حياته . وكان مقتنعا بانه اذا ما جرب طريقته الخاصة في السيمياء ــ وهي استخدام القوى الروحية ــ فانه سرعان ما سيحل مشكلة حجر الفلاسفة . ولكن السيمياء نفسها تكلف مالا . وتحطمت اماله في الحصول على منحه ملكية حينمامات ادوارد السادس في السادسة عشرة من عمره ،واندفعت البلاد الى ازمة سياسية عنيفة. كان ادوارد قد اعلن ان السيدة جين جراي هي من يجب ان تخلفه على العرش ،واعلن ايرل نورتمبرلاند (وهو حامي دي وراعيه) السيدة جين ملكة على انجلترا وكانت حفيدة لهنري السابع . ولكن ماري ، ابنة هنري الثامن الكبرى كانت لها افكار اخرى ، ففقدت جين ونورثمبر لاند راسيهما . وفي العام التالي ، قاد السير توماس ويات ، ابن الشاعر المشهور ، ثورة احتجاجا على الزواج المقترح بين ماري والملك فيليب عاهل اسبانيا ، واراد ان يضع اختها الصغرى ، اليزابيت ، على العرش بدلا منها . ولكنه فشل هو الاخر واعدم،والقي القبض على اليزابيت ووضعت رهن الاعتقال .

واكتسبت ماري اسم«ماري الدموية » بعد ان امرت باحراق اعداد كبيرة من البروتستانت اثر زواجها من وارث العرش الاسباني الكاثوليكي . اما فيما يتعلق بالسيد دي ، فان كل ما يمكن ان يقال في الدفاع عن عملية احراق البروتستانت

هي انهـا شغلت الناس عن احراق السحرة . وقد دعي دي لكي يقرا طالع الملكة ماري في خريطة النجوم. وربمـا كانت معرفته المسبقة بموتها المبكر هي التـي اعطته فكرة الاتصال بشقيقتها الصغرى ، التي كانت ستصبح الملكة التالية ، والتي كانت اسيرة في وودستـوك فـي ذلـك الوقـت . وزار اليزابيث وقـرا طالعها في ابراج النجوم هي الاخرى . بل انه اطلعهـا على طالع اختها ، ذلـك انه رغم كل شيء ، الم يكـن مصير ماري مرتبطا بمصير اليزابيث ؟ ولكن جواسيس ماري نظروا الى هذه الزيارة باعتبارهـا تشبه الى حد ما ان تكون مؤامـرة سياسية . فالقي القبض على دي ، ووضع في السجن ، متهما بالخيانة . وهناك مر بتجربـة محزنة ، عندمـا راى زميله في السجن ، بارتليت جرين ، وهو يحـرق متهمـا بالزندقة ، رغم ما كان يبدو عليه من طيبة النفس . وقد كان من حظ دي ان ماري كانت مغرمة باختها الصغرى ، والا لكان عليه ان يدفع ثمن التطفل بالدخول بيـن الملكـة الحالية وملكـة المستقبل . واطلق سراحه عام ١٥٥٥ .

وماتت ماري بعـد ثلاثة اعوام ، واصبحت اليزابيث ملكة على انجلتـرا . وكان اول طلباتها هو ان يختار « دي » اليوم المناسب لتتويجها ، فوقـع اختيـاره على اليوم الرابع عشر من يناير عام ١٥٥٩ . وبدا الامر كمـا لو كان « دي » قـد ثبت اقدامه اخيرا ، فقـد اصبح بشكل مـا ، المنجم الملكي . ولكـن اليزابيث لسوء الحظ كانت مقبوضـة اليد بخيلة ، فلم تتحسن اوضاع دي المالية . واصبح شبيهـا بالرسول الشخصي ، باسفاره الكثيرة الى القارة في بعثات خاصة بشؤون الملكة ، ووزيرها بيرلاي ، وسير والسينجهام ، رئيس جهاز التجسس عند الملكة . ومثلمـا حدث لاجريبا ، وجد « دي » نفسه غارقا في دوامة المؤامرات والاعمـال الخفيـة . ولا بد ان هذا كان يمثل ضغطـا نفسيا كبيرا بالنسبة لعاشـق للكتب والهدوء . وفي عام ١٥٦٣ ، اكتشف في امستردام كتابا بعنوان : « ستينوجرافيا » من تأليف تريتميوس ، وهو كتاب عن السحر والسيمياء ومعاني الارقام .. وقد اثر هذا الكتاب في كتاب دي نفسه عن السحر ، الذي وضعه بعنوان : « الهيروغلفيات الكبرى » الذي الفه كله في اثني عشر يومـا بعد فراغه من قراءة كتاب تريثميوس . وقد تحيـر المعلقون بسبب ملاحظـة الوزير ، اللورد بيرلاي ، على الكتاب ، التي تقول : « انه ذو اهمية عظمى لامن النظام والعهد » . لماذا ؟ انه يعالـج «الشفرات» التي ربمـا كانت ذات اهمية كبرى في عمليات التجسس . وكان دي قد وقـع بالفعل تحت هاجس اكتشاف الكنوز بالاستعانة بالارواح ـــ التي لا شك انها كان يمكـن ان تفيد النظام والعهد. اما الاحتمال الاخر الوحيد لاهتمام الوزير ، فهو ان « دي » ظـن انه امتلـك وسائل مؤكدة يستطيع بهـا ان يعـرف خطط اعداء انجلترا عن طريق التنجيم . فاذا كان الامر كذلك ، فان احدا لم يؤمن به ايمانـا يكفي لدفعه الى تمويله . وظل « دي » رسولا شخصيا ، ومستشارا فـي امـور السحـر احيانـا .

وتقلبت الحياة بعد ذلك . تزوج فماتت زوجته بعد سنة ، فتزوج ثانية واستقر في منزل امه في « مورت ليك » على نهر التيمز قرب لندن . وبدأ يدرس الوسائل الروحيةالتي ظنها كفيلة بتوصيله الى ما كان يبحث عنه : حجر الفلاسفة . ولكنه لم يكن يمتلك اي مواهب روحانية خاصة . وجاءه غريب ايرلندي ، كان متهما من قبل بتزييف النقود وصكوك المصارف ، ولكنه كان يملك المواهب الروحانية الطبيعية المطلوبة . وبدأ يستخدم « الكرة البللورية » كموضوع للتأمل المركز المؤدي الى القدرة على رؤية الاشياء الخفية . ورحل الى اوروبا لمدة اربع سنوات ، بصحبة زوجته ومساعده الايرلندي . وهناك زار رودلف الثاني امبراطور المانيا ، وفرانسوا الثالث ملك فرنسا ، ودون بوهيميا، ولكنه لم ينجز الكثير من العمل. وعاد بعد اسنوات الاربع ، لكي يجد ان منزله قد سرقت منه ادواته ومكتبته ، ولكن الملكة قدمت له تعويضا بسيطا ، ثم ماتت زوجته بالطاعون . واقترب القرن من نهايته ، وكان هو في الثمانين من عمره دون ان يزداد اقترابا من الهدف الذي كان يسعى اليه . ومات في قريته ،مورت ليك عام ١٦٠٨ ،بعد ان كتب مجلدات كثيرة عن ذكرياته وتجاربه واعماله ،وترك كرة بللورية قال ان روحا اهدتها اليه بأمر من الملاك روفائيل ، وهي الآن في المتحف البريطاني ..

*

مع مطلع القرن الجديد ، في عام ١٦٠٠ ، كان عصر السحر قد انتهى ،وكان صوت الشك العقلي قد بدأ يرتفع ويصبح مسموعا : عند رابليه ومونتاني وبعد جونسون . لقد ثارت ثائرة مونتاني بسبب عمليات حرق الساحرات ، وكتب معلقا: « يحتاج الامر الى قدر حاد ولامع من الوضوح لكي يصبح الناس قادرين على قتل غيرهم ، ان حياتنا لحقيقية للغاية ، وخاضعة ايضا لحوادث عارضة خيالية واسمى من الطبيعة » . ولست اظن ان احدا ، ولا حتى المؤمن بعلوم الغيب ، يمكن الا يتفق معه . والمشكلة هنا ببساطة هي : اي نوع من الوعي الانساني يعي بهذه الاحداث العارضة ؟. اما وليام جيمس ، في كتابه : « انواع من التجربة الدينية » فيضع في تعارض مع « النفس المريضة » ، التي تكون على الدوام مدركة ادراكا عميقا بما في العالم من بؤس وعذاب ،ـ يضع المتفائل الذي لا يرى شيئا ، والذي يرفض مزاجه البؤس بشكل غريزي . وينطبق نفس الشيء على ما يتعلق بالغيب ومعرفته . ان شخصا من النوع المشغول المشحون بالطاقة ، لا يكون لديه وقت لما هو فوق الطبيعة، ويجعله رفضه المزاجي له يشعر بان هذا العالم القائم من مجموعة من القضايا المحددة العملية ، هو العالم الحقيقي الوحيد . وهذه غريزة صحية . ولا بد لنا ان نتذكر ان جميع الاطفال تقريبا لا يحبون ما فوق الطبيعة ، الا ما يكون منها في قصص الاشباح . وليس هذا نوعا من الخوف

بالضرورة ، وانما هو احتياج غريزي لمواجهة عالم بسيط وواضح يستطيعون فيه أن يتخذوا قراراتهم وان يشكلوا مصائرهم وحياتهم . ويستطيع ان يفهم هذا كل من حاول ان يحب العلم. ثمة شيء في العلم بارد وصلب ومنعش ، مثل معركة مرحة بكرات الثلج في يوم صقيعي . انه يبدو كما لو كان يفتح مساحات شاسعة من السيطرة والغزو . اما عالم الغيب ، فهو بالمقارنة بالعلم ، عالم رطب يغلله الضباب ، يذكر الانسان بجهله ، ويشجعه على ان يتخذ موقفا سلبيا من وجوده .

وحينما جاء عصر رابليه وشيكسبير ، ثم عصر نيوتن وميلتون ، بلغ الذهن الانساني مرحلة جديدة من تطوره . كان هناك احساس بالامكانيات والاحتمالات القائمة . ووجود آفاق شاسعة مثيرة . وكان اكتشاف امريكا عام ١٤٩٢ ، رمزا لهذا التغير . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تترنح تحت الضربات التي كالها لها لوثر وهنري الثامن . حقا ان جاليليو قد ارغم على ان يسحب الرأي الذي كان قد عبر عنه عام١٦٣٢،من ان الارض تدور حول الشمس ، ولكن في عام موته (عام ١٦٤٢) ولد نيوتن ، ولم يعد يهم كثيرا ما كان يقوله البابا وكرادلته .وعندما نشر كتاب « المبادىء » لنيوتن عام ١٦٨٧ ، خطا العلم خطوة اعظم بكثير من كل ما خطاه السحر منذ مولده في مصر القديمة وكلدانيا . وحينما يحاول المرء أن يفكر في السخافات المتضمنة في اعمال كورنيليوس اجريبا ، وجون دين وتريمثيوس ، ثم يتحول الى هذا البناء المعقد الرائع من الافكار حيث كل شيء صحيح وصائب ،فانه يصبح قادرا على رؤية السبب الذي جعل السحر يفقد اهميته .

ولكن الحقيقة هي انالنهضة العلم لم تكن ضربة موجهة ضد النزعة الغيبية. على العكس : كان معنى تلك النهضة ان النزعة الغيبية تستطيع ان تحرر نفسها من العلم المزعوم عند اجريباوباراسيلساس وان تركز على اهتماماتها الحقيقية .

بعد عام واحد من نشر نيوتن لكتابه : « المبادىء » ولد اعظم دارسي الغيب في القرن الثامن عشر ،رغم انه ينتمي الى تاريخ الدين باكثر من انتمائه لتاريخ السحر . كان ايمانويل سويدنبورج وسيطا طبيعيا ، رغم أن قدراته لم تتطور وتبرز الا في مرحلة متاخرة من حياته . في سنواته الاولى درس العلوم والرياضيات ، وفي سن الثامنة والعشرين اصبح مستشارا فنيا للهيئة السويدية للمناجم ، والف كتابا عن صهر المعادن وتنقيتها . ثم درس الفلك وعلم وظائف الاعضاء . ولكنه كان رجلا محبطا الى حد عظيم . فبعد ان اصبح مستشارا بفترة وجيزة ، وقع في حب الانسة بيلهيم التي قبلته زوجا لها . ولكنها عادت فقررت انها لم تعد تهتم بسويدنبورج رغم كل شيء ، وفسخت الخطبة . وكان سويدنبرج قوي النزوع

الجنسي ، ولا بد ان رفض خطيبته له كان ضربة على كل المستويات : في كبريائه وفي عاطفته ، وفي احساسه الجنسي كرجل (في كتابه عن « الحب الزوجي » يصدم اتباعه بتصريحه ان العشق السري ، والاحتفاظ بالعشيقات امر مسموح به في ظروف معينة ــ وهذا تصريح جدير بالانتباه اذ يصدر عن ابن اسقف). بل ان احباطه الثقافي كان مساويا لاحباطه العاطفي ، ذلك ان الاكاديميات السويدية تجاهلت آراءه العلمية التي كانت متقدمة بكثير عن عصرها . ولكنه هرب من احساسه بالاحباط من خلال العمل الشاق . وفي عام ١٧١٣ ، في ذات الفترة التي عانى فيها تقريبا من احباطه في الحب ،طلب منه الملك تشارلس الثاني عشر ان يحل مشكلة نقل سفن عبر خمسة عشر ميلا من الارض (وكان الملك يحاصر الدنماركيين في قلعة فريدريك شالد) . وانجز سويدنبورج ما طلب منه في سبعة اسابيع . ثم اصبح مشغولا فيما بعد ببناء ارصفة السفن في كارلسكرونا ، وبشق القنال الذي كان سيصل بحر الشمال ببحر البلطيق (وهو المشروع الذي لم يكتمل بعد ان قتل تشارلس الثاني عشر في المعركة) . كانت طاقة سويدنبورج هائلة . وقد وضع كتبا في الجبر والفلك والمعادن والاقتصاد وامواج المد وتعدين الملح وفي التشريح .

وقد ادى كل هذا النشاط العملي الى تجويع الجانب الديني من طبيعته ، وانفجر هذا الجانب في عام ١٧٤٤ كالاعصار . وبدأ الاعصار بحلم سمع فيه ريحا تزار وشعر كما لو كانت الريح تحمله ثم تقذف به على وجهه . وبدأ يصلي ثم رأى المسيح امامه. وبعد حوار غامض المعنى ، استيقظ بعد ان سمع المسيح ، في نهاية الحوار يقول: « حسنا . اذن ، فليكن » . ولم يكن هذا سوى واحد من سلسلة من الاحلام والهلوسات الغريبة (او الرؤى) . وبدأت تنتابه نوبات من السبات النشوان ، وفجأة كفت نوبات الشبق الجنسي الدائمة عن مضايقته. ثم بدأ يرى الرؤى التي زار في اثنائها الفردوس والجحيم . وقد اعلن في كتبه ان العالم الاخر يشبه هذا العالم شبها شديدا في كل خصائصه الاساسية ، وان الناس يظلون الى حد كبير مثلما كانوا في حياتهم . ولكن لما كان عالما اقل مادية من عالمنا هذا، فان الحالات العقلية للناس اكثر اهمية بكثير ، وما الفردوس ولا الجحيم الا تلك الحالات العقلية . وفي كتبه من مثل : « الدين المسيحي الحقيقي» « الفردوس والجحيم »،« الحب المقدس » ، « الحكمة » يصف باسهاب وشمول محادثات اشترك فيها مع الملائكة والشياطين والناس ممن تم « صعودهم » . وهذا هو ما يؤدي بنا الى قلب مشكلة سويدنبرج . لقد اعتبره معظم معاصريه مجنونا او كذابا . ومال نقاده في القرن العشرين . مثل ا . ج دينجوول ــ الى الاخذ بنظرة فرويدية واعتبار « رؤاه » نتاجا مرضيا لطاقته الجنسية ،المكبوتة . وهناك بالفعل حالات قوية تؤيد هذا الرأي .. من بينها حوادث يمكن ان

تشير الى امكانية وجود ايهام ذاتي والوقوع في اسر هاجس جنسي .

ومن الجانب الآخر ، وحينما يتحول المرء الى كتاباته ، يصبح من الصعب ان نعتمد على هذا الراي الجانح الى التقليل من شأن الرجل . ان ولعه المرضي بالتفسيرات التوراتية قد يؤدي الى املال القاريء الحديث ، اما فيما يتعلق بالاسلوب ، فانه بالتأكيد ليس كاتبا من نوع باسكال او نيومان . ولكنه كامل العقل حريف ولاذع بما فيه الكفاية ـ وبذلك فانه قادر على اشاعة الاحساس بالجدة والطزاجة . لا تحتوي اعماله على ومضات من العبقرية ، ولكنا نواجه عقلا متوازنا عميق الجدية . وحينما يواجه تحدي المتشككين في آرائه ، فانه لا يفقد هدوءه ابدا ، بل انه لا يفقد حتى حسه الفكاهي .

ورغم ان تلك الاراء بدت في عيون معاصريه غريبة ووحشية ، فانها تلقت منذ ذلك الحين قدرا كبيرا من التأييد والدعم . لم تكن النزعة الروحانية موجودة في القرن الثامن عشر ، وانما وجدت في العقد السادس من القرن التاسع عشر . وعندما اقترب هذا القرن من نهايته كان ثمة كتلة لا يستهان بها من الادب الذي يظهر منه ـ او زعم ـ ان الارواح هي التي املته (مثل كتاب « تعاليم روح » الذي كتبه ستبانتون موسيس) واستمرت هذه الكتلة في التمدد والانتفاخ منذ ذلك الحين (*) . وتبدو النغمة السائدة العامة في كثير من هذا الادب نغمة ورع وتقوى الى درجة تثير الغثيان ، ولكن لا بد من الاعتراف بانه ادب يتميز بقدر ملحوظ من التماسك الداخلي ، فحينما يتأمل القاريء السهولة التي كانت الفرق الدينية تصوغ بها تعاليمها ومعتقداتها الجامدة ، فان هذا الاتفاق ، او التماسك الداخلي سيبدو امرا يدعو الى الدهشة . وتتماثل الاوصاف التي يقدمها هذا الادب للعالم الاخر مع الاوصاف التي يقولها سويدنبورج . وقد يتبنى المتشككون الراي القائل بأن هذا التشابه راجع الى تأثير سويدنبورج في الروحانيين . ولكنهم ينكرون هذا التأثر على اساس مجرد التنوع الكبير والكم الهائل من كتابات الارواح ـ وعلى اساس انها كتبت في لغات عديدة وعبر عدة

(*) يقول كتاب « تعاليم روح » باختصار ، ان الانسان لا « يخلص » بموت المسيح على الصليب ، وانما ينبغي ان يخلص نفسه باعماله في خلال حياته . وكل الافكار والاعمال تسجل على « جسد الروح » ، بحيث يعرف الانسان بعد موته ، ويعرف كيف كان بالتحديد . ولكل اعمال الانسان اهميتها . ان رجلا غنوصيا (ادريا) طيبا بطبيعته سيحصل على مكانة اسمى من مكانة المدمن على الذهاب الى الكنيسة اذا كان مفرضا خاليا من الالهام . ولا بد للانسان من تقديم « عوض » عن شروره في الحياة الاخرة ، ولكن ليس هناك جحيم ، فالجحيم مجرد حالة عقلية . وليس هناك حد اقصى لما تستطيع نفس الانسان ان تحققه من تقدم يمكن ان يستمر في العالم الاخر . وتشيع هذه الاراء عند سويدنبورج وفي التعاليم الروحية الحديثة .

قرون مما يدحض الزعم بهـذاالتاثير . اما التفسـير المنطقي الوحيد الآخر ، فهـو التفسيـر القائم على افكار يونج والقائم على ان رؤى سويدنبورج كانت عمليـات كشف عن نفس « الجنس » ،وتعبيرات عن رموز نمطية شائعة على مستوىالعالم، وان نفس التفسير هو ما ينطبق على النزعة الروحانية الحديثة . ولا يمكننا هنا ـ دون ان نتحيز لجانبضد آخر ، الا ان نقول بان الادلة التي تقـدم لصالـح سويدنبورج اليوم اقوى مما كانت عليه في عصره .

ومن الجانب الاخر ، ماذا يمكن للمرء ان يقول عن كتابه :« اراض فيالكون» حيث يقول بان لمعظم الكواكب سكانها ، ثم يتطرق الى وصف هؤلاء السكان بطريقة توحي باننـا نشاهد لوحة من رسم هيرونيموس بوش ؟ فيقول ان جو القمر مختلف عن جو الارض بحيث يتحدث رجال القمر من معداتهم بـدلا مـن رئاتهم ، فتبـدو اصواتهم مثل الخوار ، امارجـال المريخ فوجوههم نصفهـا احمر والنصفالاخر بلون الليمون ، وهم يعيشون على الفواكه ويرتدون اليافا مأخوذة من لحاء الاشجار؛ فاذا كـان سويدنبورج « وسيطا » فلا نستطيع الا الزعم بأن الارواح كانت « تجر رجله » الى هذا الهراء. او ربما كـان الاكثر احتمـالا هـو ان خيالـه كان بالـغ التطور حتى انه خلط بيـن احلامه وخيالاته وبيـن استبصاراته الحقيقيـة الصادقـة .

ولا يمكننا ان نصرف النظر كليـا عن التفسير الفرويدي ، او التفسيرالذي يجنح الى التقليل من شأن سويدنبورج . لقد « كان » سويدنبـورج محبطـا مـن الناحية الجنسية . ومن الممكن بالفعل لبعض تجاربه الدينيـة ان تضرب كمثـال في اي كتاب مرجعي للتركيبة النفسية غير الطبيعية . وقد كان في اواخر العقد الخامس من حياته حينمـا وصلتقواه السيكولوجية المتفجرة في النهاية الى نـوع من التوازن . ولكن الاعتراف بهذه الحقيقـة لا ينبغي ان يعمينا عن الهامه الدينـي الاصيل الحقيقي ولا عن اهميـة افكاره الاساسية . لم يكـن فيه اي تشابه مـع المهرج او المشعوذ ،ولا يبدو فيحياته شيء من تبادل فترات التفـوق والسقـوط التي تبدو من الخصائص المميزة لحياة السحرة . ولا يمكن ان يكـون الا القليـل من الشك في قدراته الغيبية . ويروي الكونت هوبكيـن ، وهـو احد معاصريـه ، احسن ما عرف من القصص عنهذه القوى :

« كان سويدنبورج مدعوا لاحدىحفلات الاستقبال في البـلاط . وسألتـه جلالة الملكـة عن بعض الاشياء حول العالم الاخر ، واخيرا سألته ان كان قد رأى او تحدث مع اخيها،ولي عهد بروسيا . فاجاب بالنفي ، وطلبت منه الملكة انيبحث عنه وان يبلغـه تحياتها ، فوعد سويدنبورج بان يفعل . وفي حفل الاستقبال التالي، وبينمـا كانت الملكـة تقف وسط سيدات البلاط ، لم يندفع نحوها سـويدنبورج

بجسارة فحسب ، وانما قال لها ان اخاها يبلغها تحياته ، وانه آسف لانه لم يستطع ان يجيب على اخر خطاباتها ، وانه يريد ان يبلغها هذا الرد من خلال سويدنبورج نفسه ، ثم تلا عليها رد الامير الميت . وامتلكت الدهشة الهائلة الملكة وقالت : « ليس سوى اللهمن كان يعرف هذا السحر .. »

وفي اليوم التاسع عشر من شهر يوليو عام ١٧٩٥ ، شب حريق كبير في ستوكهولم ، وكان سويدنبورج في ذلك الوقت في حفل في مدينة جوتنبرج التي تبعد عن ستوكهولم ثلاثمائة ميل . وفي الساعة السادسة مساء اخبر الضيوف بأن النار قد نشبت لتوها ، وبعد ساعتين قال لهم انه قد تم اطفاؤها وهي على بعد ثلاثة منازل فقط من بيته . وقد تأكد هذا بعد يومين حينما وصل رسول من العاصمة ، مؤكدا كل تفصيلة قال بها سويدنبورج .

وفي عام ١٧٦١ ، طلبت منه ارملة السفير الهولندي ان يتصل بروح زوجها الميت ، لكي يتأكد ان كان قد دفع تكاليف صنع « طاقم للشاي » من الفضة ،اذان الصانع كان ينكر ، وكانت الارملة واثقة من الدفع . وبعد ايام قال لها سويدنبورج ان روح الزوج تقول بانه دفع التكاليف قبل موته بسبعة شهور ، وان الايصال موجود في درج المكتب . وقالت الارملة انها بحثت بدقة ولم تجد شيئا في ادراج المكتب . فوصف سويدنبورج درجا سريا في المكتب يحتوي على بعض المراسلات الخاصة والايصالات ، من بينها الايصال المطلوب ، وقد عثرت السيدة عليه في المكان الذي حدده سويدنبورج .

يشير أ.أ. دينجوول ،في مقال شامل عن سويدنبورج الى ان الادلة المتوافرة عن تلك القصص الثلاث ، ولعدد اخر من الحوادث المماثلة ، ادلة مشوشة ومتضاربة . وقد يكون الامر كذلك الى حد كبير .. انما تكمن الاهمية الاساسية لسودينبورج في التعاليم التي بشر بها ، وهي التعاليم التي تقف على خط مستقيم معاكس مع الفرق الدينية الشاذة وتعاليمها المتجهمة المليئة بنيران الجحيم . انه يرفض فكرة ان يسوع مات على الصليب لكي يفتدي خطيئة آدم ، معلنا ان الله ليس باحثا عن القصاص ، ولا هو صغير العقل ، وانه طالما هو الله ، فانه ليس بحاجة الى فداء . ومما يلفت النظر ان هذا الراي المعقول لم يخطر للاهوتيين السابقين . ان الله خير مقدس ،ويسوع حكمة مقدسة ، ولا بد للاقتراب من الخير من السير في طريق الحكمة . ومهما كان من تفكير الناس وظنونهم في المزاعم الغريبة لمؤسس الديانة السويدنبورجية ، فلا بد من الاعتراف بان في هذه الديانة شيئا بالغ الجمال والصحة . وهذا الاحساس بالصحة العفية هو السبب الاساسي في شعبيتها الدائمة . وربما لم يكن مؤسسها باحثا عظيما في عالم الغيب وعلومه ، ولكنه كان رجلا عظيما .

*

كان معنى روح العلم الجديدة ، ومؤداها ، انه لم يعـد من الممكـن ان يوجد باراسليساس او جون دي من جديد . ولو ان باراسيلساس قد ولد متاخرا قرنين، لكان قد اصبح طبيبا وعالماباررزا، وليس ساحرا . اما بالنسبة للباحثين في علوم الغيب انفسهم ، فلم يعد في وسعهم ان يزعموا بان العلم يقف الى جانبهم ، ولا انهم يمتكلونه، الامر الذي ادى في مغزاه الى انهم كان عليهم ان يكفوا عن الزعـم بامتلاكهم لنوع من المعرفة يفوق المعرفة العلمية . كانوا امام خيارين : اما التهريج والشعوذة ، واما الصوفية . ومنذ عام ١٧٠٠ ،لم يعد هنـاك « ساحر » دون ان يكـون فيه لمسة من المشعوذ الدجال .

ومن المؤكـد ان هذاينطبق على واحد من اكثر الشخصيات اهمية فيمرحلة التحول هذه ،وهو فرانز آنتون ميسمير ، الذي عزي اليه دون حق فضل ابتكـار التنويم المغناطيسي (الذي اصبح لاسمه مرادف هو : المسمريـة Mesmerism) . وتعتبر قصة حياته واحدة من اعجب القصص في تاريخ علوم الغيب .

كان المفروض ان تكون حياة ميسمير حياة مريحـة خالية من الاحـداث الغريبة او غير العادية . وكان والداه ميسورين . ولد في سويسرا في ٢٣ مايـو عام ١٧٣٤ ، وحصل علىدرجـة علميـة من جامعة فيينا حين كان في الثانيـة والثلاثين من عمره . ويبدو موضوع رسالته كمـا لو كـان قفزة الى الوراء نحـو عصر باراسيلساس : تأثير الكواكب على الجسد الانساني ، وقد كتبت ، بالطبع ، باللغـة اللاتينية . كـان رجلا ذا شخصيـة آسرة . وقد وقعـت فـي حبه سيدة مريضة ثرية ، تكبره بعدة اعوام، فتزوجها ، وانتقل الى قصرها الجميل فيضواحي فيينا . وكان يمتلـك ايضا منزلا فاخرا في قلب المدينة .

وتتمتع النظرية التي قدمها ميسمير في هذهالرسالة باهمية ملحوظـة . لقد اعتقد بوجود نوع من « الاثير » النفساني ، يتخلل الفضاء كله ، وان الاجـرام السماوية تؤثر فـي هذا السائل وتنتج فيه حركـة تشبه حركة المـد والجـزر البحريين . وتؤدي عمليات المد المتحركة ابدا ، هذه ، الى الصحة . فاذا اعـاق شيء مـا حركتها وتأثيرهافي الاشخاص ، فالمرض هو النتيجة المؤكدة . وبكلمات اخرى : ان الصحة هي الوضع الطبيعي للانسان . اما المـرض فهـو نـوع مـن « السد » امام الحركة،او القيد عليها . ولا بد للانسان ان يعتمد على الحركـة بدلا من العقل ،اتحاد غريزي مع الطبيعـة . فاذا قام « سد » ما داخل مريض ، فان افضل طريق لمعالجته هي احداث ازمة ما لكي تكتسح السد امامها .

وقد اثارت هذه النظريات اهتمام راهب يسوعي يدعـى البروفيسور ماكسيميليان هيهل ، الذي حدث ان طلبت منه سيدة ثرية في فيينا ان يصنع لها مغناطيسا لكي تضعه علىمعدتهاالتي كانت تعاني من بعض التقلصات ، وقالت انها

عابرة بالصدفة في المدينة ، وقد نسيت المغناطيس الخاص بها في منزلها . وصنع هيهل المغناطيس وشفيت المرأة من التقلصات . وتساءل هيهل : أمن الممكن ان يكون المغناطيس قد حرك « السائل الاثيري » الذي تحدث عنه ميسمير حول الجسم؟ ونقل هيهل هذا السؤال الى ميسمير ، الذي بدأ يجرب تاثير المغناطيس على مرضاه . ولدهشته ، وجد انها تؤتي تأثيرا واضحا . اذن فللجسم بالفعل ، حركات مد وجزر .

ولم يكن قد مضى وقت طويل ، حينما كان ميسمير يفصد دم احد المرضى (وكانت عملية فصدالدم هي العلاج الشائع وقتذاك لقالبية الامراض) . فلاحظ ان نزيف الدم كان يتزايد كلما اقترب هو من المريض ، ويخف الى حد كبير حين يبتعد . وكانت النتيجة التي استخلصها واضحة : لا بد ان يكون جسمه هو مغناطيسيا من نوع ما . وفي عام ١٧٧٥ نشر ميسمير كتيبا صغيرا عن اكتشافاته وقابلته دوائر المهنة الطبية بالشكوك ، ولكن المرضى كانوا متهلفين الى تجربة العلاج الجديد ، وتزايدت اعمال ميسمير . كان يضع المغناطيسات على اجساد المرضى ، او يضع يديه هو ببساطة ، فتختفي الآلام .

ولكن ما حدث يبدو واضحا الى درجة كافية . لقد آمن ميسمير بان المغناطيسات الى جانب يديه ، قد حركت « السائل المغناطيسي » الراكد داخل مرضاه ، وقد آمن مرضاه بذلك ايضا . ولذلك فانهم كانوا يشعرون بالراحة من الالم ، كان لميسمير السبب في ان يعتقد بانه هو الذي جاء بهذه الراحة . ومثلما فعل الكولونيل اولكوت ، بدأ ينمي مواهبه ، العلاجية ، المواهب العلاجية المهملة والخفية التي يمتلكها كل انسان .

وتزايدت شهرة ميسمير فجأة من خلال حادثة عارضة . كان البارون هاريسكي دي هوركا ، مصابا بورم غضروفي ويعاني من نوع من التشنجات التي عجز الاطباء عن علاجها . وفي النهاية ، اقترح عليه طبيب استبد به الارهاق وزادت سخريته ان يعرض نفسه على ميسمير ، مشيرا بذلك دون شك ، الى انه طالما كانت متاعب البارون من نبت خياله ، فلا بد ان مهرجا مثل ميسمير لن يزيدها ضررا .

وذهب ميسمير الى مزرعة البارون في روكوف ، وقد احاط جسمه بعدد من المغناطيسات القوية . وكان يؤمن بانه لا فرق بين مغناطيسية الجسد الحي وبين مغناطيسية المعدن، فكان يقصد من كمية المغناطيسات التي ربطها حول جسمه ان « يزيد شحنة » جسمه هو الذي سيستخدمه في علاج البارون . وبدأت جلسات العلاج المغناطيسي ، ولكن البارون لم يستجب ، وان كانت عزيمة ميسمير جعلته يصر على الاستمرار لمدة ستة ايام . وبعدها بدأ جسم البارون يستجيب لعمليات

التدليك التي كان يقوم بها ميسمير ، وبدأ البارون يشعر بالراحة . واصبح العلاج الحديث الرئيسي لصالونات فيينا ، ولعن الاطباء زميلهم الساخر الذي ساعدت سخريته على بناء شهرة مشعوذ دجال .

وصنع ميسمير من تصميمه جهازا لتوزيع الطاقة المغناطيسية ، مكونا من عدد من القوارير تحتوي على « ماء ممغنط » وحولها اعداد كثيرة من المغناطيسات ، تربط بينها حبال رفيعة من الصلب ، ثم وضع التركيبة كلها في صندوق خشبي كالوعاء الكبير ، ملأه ببرادة الحديد والماء . وكان يستخدم ابرة معدنية لتوزيع الطاقة المغناطيسية في ارجاء الحجرة . وتمت مغنطة الاشجار والنافورات في الحديقة . وراح المرضى يرقدون تحت الاشجار بالعشرات ، وقد تماسكت ايديهم ليكونوا حلقة لتوصيل الطاقة بعد استقبالها . واستمرت النتائج في التحسن .

وجاء سقوط ميسمير في فيينا بسبب عازفة بيانو حسناء عمياء تدعى ماريا تيريزا باراوايز ، وكانت في رعاية الامبراطورة . وزعم ميسمير انه يستطيع ان يردها مبصرة ، دون ان يتبين انها كانت عمياء منذ مولدها بسبب تليّف فطري في قرنية العينين . ورغم ذلك ، فقد زعمت الفتاة بعد عدة اسابيع من انتقالها الى منزل ميسمير وبدء العلاج ، انها بدات ترى بشكل معتم . ولكن اعداء ميسمير من الاطباء ، وحماة الاخلاق ، ومن بينهم الراهب اليسوعي هيهل ، راحوا يتهامسون عن السبب الذي يفرض ان يتضمن العلاج قيام ميسمير بتدليك صدر الفتاة ، وفخذيها ، ولماذا كانت كل مريضاته من الشابات الحسان ، ولماذا هو يهمل زوجته العجوز المريضة ولا يعالجها ؟ وتطوع طبيب يدعى البروفيسور بارث لكي يفحص الفتاة ، فاعلن جازما ان الفتاة لا تزال عمياء ، وبدأ « بوليس الاداب والاخلاق الامبراطوري » يستعد للتدخل في القضية . ولكن ميسمير قرر الهرب من فيينا ، رغم ان بعض اصدقائه اكدوا ان حالة الفتاة كانت في تحسن ، وانها انتكست بعد هربه وتوقف العلاج .

وذهب ميسمير الى باريس ، فتحول الى نوع من الخبل العام ، وقصده الجميع ، ومن لم يقصده كان لا بد ان يشعر بالنقص او الضعف او قلة الحيلة . واكتشف قبل فرويد بقرن كامل ، اهمية العنصر الجنسي في الامراض الهستيرية . كان يدخل حجرة العلاج ، مرتديا « جلبابا » حريريا ليلكي اللون : حاملا مغناطيسا طويلا ، يشير به نحو المرضى وهو يمر وسطهم . ثم يدخل الحجرة التالية ليعزف على بيانو ممغنط ، ثم يشكل المرضى سلسلة متماسكة – مكونة من الرجال والنساء بالتبادل – ويضغطون على افخاذهم ليزيدوا من قوة الطاقة المغناطيسية . وسرعان ما تنتابهم التقلصات ، ثم ينهارون على الارض . ولما كانت الطاقة

المغناطيسية تتناول وتنتقل بالايدي ، والافخاذ منطقة حساسة ، فان الفرص متاحة لهم لتجربة مغناطيسيتهم الحيوانية احدهم على الاخر ، وكل شيء يتم باسم العلم الطبي . ويقوم المساعدون بنقل من يزداد تأثرهم اكثر من اللازم الى « حجرة الازمات » حيث كانوا يتعرضون للمزيد من المغناطيسية الحيوانية لتوصيلهم الى تقلص الذروة النهائية . وآمن الجميع بنظريات ميسمير ايمانا كليا ، اذ ان الايمان الاعمى الحماسي وحده هو الذي كان يستطيع ان يبرر تلك الاعمال الشبقية الجماعية . كانت طريقة مبهجة للتخلص من انواع الكبت المختلفة ، وكان العلاج ناجحا نجاحا لا شك في فهم اسبابه . وانتشرت شهرة ميسمير في كل انحاء فرنسا . وراح يلقن تلاميذه اساليبه الجديدة ، واسس مراكز للعلاج طبقا لها في كثير من المدن الرئيسية . وحينما بدأ الصراع مع السلطات ، كان ميسمير هو من يتمتع بمركز القوة . وعرض عليه الملك لويس السادس عشر مرتبا ثابتا طيلة حياته اذا تعهد بالبقاء في فرنسا ، ولكن الملك اشار الى انه ينبغي ان يسمح لبعثة طبية بان تفحص الادلة التي يقدمها على صحة مزاعمه قبل ان يتم توقيع العقد . ولكن ميسمير رفض ان يقدم الادلة والبراهين المطلوبة ، ورفض ايضا ان يوقع اي عقد . ثم طلب ان يضمنوا له نصف مليون من الفرنكات الذهبية تخصص للبحوث « العلمية » ، وهدد بأن يرحل من فرنسا اذا لم يدفع المبلغ دون اي شروط . وتوسل المرضى من الارستقراطيين الى الملك ان يوافق ، ولكن الملك تمسك بموقفه . وفي اليوم الذي كان ميسمير قد حدده نهاية لانذاره ، غادر فرنسا . وكان ذلك في ١٨ سبتمبر عام ١٧٨٠ . وعلى الفور ، اسس أتباعه صندوقا ، ودفع كل منهم مائة « لويس » ذهبي لكي يصبح مالكا لسهم في شركة جديدة للاعمال المغناطيسية . وحينما جمع الصندوق ٣٥٠ الفا من اللويسات الذهبية ، وهو مبلغ يزيد كثيرا عما كان ميسمير قد طلبه اصلا ، وافق على العودة الى فرنسا ، واستمرت اعماله وواصل نشاطه بنفس النجاح المكتسح القديم .

وانزعج الملك انزعاجا له ما يبرره ، ثم استسلم اخيرا لمطالب « كلية الطب » باقامة بعثة للتحقيق . وفي عام ١٧٨٤ ، راح عدد كبير من الاطباء يلاحظون وقد خلبت ألبابهم ، التقلصات العصبية للمرضى ، ووصلوا الى استنتاج يقول انه رغم وضوح ان ميسمير يمتلك قدرة ايحاء عظيمة القوة ، فان لا شيء يدل على وجود سيال مغناطيسي .

وكانت هذه هي نهاية الطفرة والازدهار بالنسبة لميسمير . وراحت مكانته ، كما راح حظه ، ينهار بالتدريج ، ومضى الناس يتفكهون به ويسخرون منه . وذهب اليه طبيب بقصة مختلقة عن مرضه مرضا غريبا . وطلب منه ان « يعالجه » ، ثم نشر الطبيب القصة كلها ، وزعم ان ميسمير كان عاجزا حتى عن تشخيص

المرض . ولما كانت الموجة الآن تتجه ضده ، فان احدا لم يقل ان غالبية الاطباء كان يمكن ان يقعوا فريسة نفس الخدعة . وجاءت ماريا بارادايز الى باريس ، واقامت حفلا موسيقيا عزفت فيه على البيانو عزفا رائعا ، ولكن هذا العزف لم يغير من الامر شيئا . فقد كانت عمياء كما كانت من قبل . وكان ميسمير من الشجاعة بحيث حضر الحفل ، استمع الى الهمسات والتعليقات الجارحة وتجاهلها وسط جمهور المستمعين الذين كانوا يعرفون القصة كلها .

وبقي ميسمير في باريس اثناء الثورة ، ولكنه هرب بعد ان شعر بان حياته كانت في خطر ، وان كان قد خسر كل امواله . واوقفت الشرطة محاولة جديدة للشروع في العمل في فيينا مرة اخرى ، وطرد ميسمير على الفور خارج البلاد . كان يقترب من الستين ، متعبا ، وتسببت الهجمات المتتالية في ضعف ثقته بنفسه ، وهي الثقة الضرورية في منهجه الخاص للعلاج . ولكنه تمكن من ان يعيش حياة مريحة ـ فان رجلا بمثل هذه الشهرة لن يفتقر ابدا الى المرضى الاغنياء ـ واخيرا تقاعد في كونستانس . ولم يستجب لعرض تقدم به ملك بروسيا لاقامة معهد للعلاج يطلق اسمه في برلين ، فارسل اليه الملك طبيبا يتعلم منه اسراره ، ولما عاد هذا الطبيب ، عين أستاذا لـ « لمسمريه » في اكاديمية برلين ، واصبح مسؤولا عن مستشفى خصص لاستخدام اساليب ميسمير . وانقضت سنواته الاخيرة بسلام ، حتى مات عام ١٨١٥ ، قبل عيد ميلاده التاسع والسبعين بأيام .

ربما شعر القارىء بان ميسمير لم يكن له اهمية في تاريخ علوم الغيب . ولكن هذا ليس صحيحا . ففي جوانب هامة معينة ، يمكن ان يكون نسخة جديدة من باراسليساس . فقد عرف اهمية الروح والخيال ، وشعر بان قوة مؤثرة معينة ، ذات معنى خاص ، تتخلل الكون وتنتشر فيه . حقا انه من الممكن ان يفسر اكثر ما توصل اليه من النتائج على ضوء فهمنا للهستيريا ، والتخفيف من الكبت ، والايحاء الذاتي ، وما الى ذلك . ولكن الشيء الهام ، هو انه ادرك ان المرض ليس شيئا طبيعيا ، وانما نوع من « السد » يقوم في طريق القوى الطبيعية ـ نوع من التجمد والاختناق العقليين . واتجهت رغبته الفريزية الى محاولة دفع القوى الحيوية الى التحرك مرة ثانية من جديد . فلو كان علاجه خيالا خالصا ، لما كان قد وصل الى النتائج التي توصل اليها بالفعل . ولكنه لم يحسن فهم القوى التي كان يستخدمها ، وان كان قد عرف بوجودها الفعلي .

اما الاكتشاف الذي كان من المفروض ان يتوصل اليه ، وهو الاكتشاف الذي يعزى اليه بشكل عام ، الفضل في اكتشافه ، فقد وقع عليه بالصدفة احد تلاميذه ، الماركيز بيوسيجور ، الذي كان يحاول يوما ان « يمغنط » راعيا شابا ، بالتربيت المستمر على رأسه ، فلاحظ ان الشاب قد غرق في النوم . وبقي الشاب

نائمـا رغم هزّه باستمرار ، وظل فاقـدا الوعـــي . وصاح الماركيز : « قف » ، ولدهشته هب الشاب واقفا ، دون ان يفتح عينيه . ثم اجاب على الاسئلة التـــي طرحت عليه ، واطاع حينمـا امر بأن يجلس او يسيـــر . وحينمـا اوقظ فـي النهاية ، لم يتذكـر شيئا مما حدث على الاطلاق . واطلق بيوسيجور على الظاهرة الجديدة اسم : « النوم التشنجي » ، ولكن جيمس برياد ، الانجليزي ، هو الـــذي اطلق عليهـا اسم « التنويم المغناطيسي Aypnotism » في عام ١٨٤٣ . وكـان قد تبيـن أن التنويم المغناطيسي يرجع اساسا الى عملية تضييق الانتباه حتـى يصل العقل الى حالة يمكـن ان تسمى « احادية الفكرة » او التركيز على فكـــرة واحدة ضيقة . وهذا يعني القول بأن النوم المغناطيسي هو العكس الكامل لما دعوته انا « الملكـة س » . وينتج بالتالي ، انه طالمـا اننـا نادرا ما نكون في تلك الحالـة من « اليقظة الكاملة » حينمـا يكون العقل شاعرا بشكل ما ، بوجود وواقعية ازمنة اخرى وامكنـة اخرى ، فاننا نكـون دائمـا في حالة من الوعي تقرب من حالـــة النـوم المغناطيسي .

*

واذا كان القرن الخامس عشر هو قرن السحر ، فان القرن الثامن عشر هـو اقل العصور سحرا . فيه ، بلغ السحر اكثر مستوياته انخفاضا ، وكان ابرز ثلاثة من ممارسيه في ذلك القرن ـ كاجليو سترو ، وســـانت جيرمان ، وكازانوفا ـ مغامرين ، اكثر منهم دارسين لعلوم الغيــب .

ان وضع اسم كازانوفا بين اسماء السحرة قد يؤدي الى دهشة شديدة ، ولكنه كان في الحقيقـة دارسـا جادا للكابالاه وللتنجيم ، ورغم انه كان يظن نفسه دخيلا متطفلا على هذا المجال ، فان قدراته على التنبؤ كثيـرا مـــا ادهشته هو نفســه وازعجته . اما « ذكرياته » فالى جانب انهـا اعظم التراجم الذاتية في العالم ، واكثر الصور اكتمالا لاوروبا في القرن الثامن عشر ، فهي ايضـا افضـل تقديم ممكـن للاشكـال التي اتخذتهـا « علوم الغيب » في « عصر العقل » .

ولد جيوفاني جاكوبو كازانوفا ، الذي اضاف فيمـا بعد الى اسمـه اللقب الفخم : « فارس سينجالت » في البندقية ، في ابريل عام ١٧٢٥ ، ابنا لممثل مـن اصل اسباني ، وزوجته الجميلة ابنة احد صانعي الاحذية . وكان جيوفاني الصغير معلولا مريضا حتى أن احدا لم يكن يتوقع لـــه ان يعيش . واصيب بنزيف فـي الانف ، استمر مدة طويلة حتى ان جدته اخذته الى احدى الساحرات ، وضعته في صندوق مغلق وراحت تنشد فوق راسه التعاويذ والرقي . وتــوقف النزيف . واحرقت الساحرة بعض العقاقير ، وجمعت دخانها في لفافة لفتها حول جسمه . واخيرا اخبرته بأن سيدة جميلة سوف تزوره تلـك الليلة . وفي الليـــل ، راى

كازانوفا حورية جميلة تخرج من المدفاة في حجرته ــ فقد كانت المدافىء ضخمة الحجم في ذلك الزمن ــ وراحت تدالك رأسه بنوع من المرهم ــ وهي تتحدث بلغة اجنبية . واختفت كل الاعراض التي كانت تنتابه في الشهر التالي ، واصبح ولدا صحيح الجسم بالغ النشاط .

وقبل ان نصرف النظر عن هذه القصة باعتبارها دليلا على خيال كازانوفا الخصيب ، فقد يكون مما يجدر ان نتذكره ، انه مثل سيلليني (١) ، كثيرا ما يبدو اقل صدقا مما هو في الحقيقة . وقد ثبت صدقه دائما حيثما كان من الممكن ان تراجع قصصه على مراجع اخرى ، بل انها كانت تبدو اكثر دقة بكثير . ومن المحتمل ان تكون الساحرة امراة حقيقية ، اما الحورية فمن الممكن ان تكون مجرد حلم غلام من ايحاء الساحرة نفسها .

واصبح كازانوفا قسيسا مبتدئا قبل ان يبلغ العشرين ، ولكن حماسه للجنس الاخر كان سقطته . فطرد من منزل راعيه ، وهو احد الشيوخ الاجلاء ، حينما ضبط مع فتاة تحت حراسة الشيخ: « ينظر الى الاختلاف في التكوين بين الفتى والفتاة » . وبعد عدد اخر من هذه الحوادث السيئة الحظ ، ترك الكنيسة لكي ينضم الى الجيش، ثم اصبح عازف كمان في احد المسارح ، وانضم الى جماعة من الصعاليك الاوغاد ينفقون لياليهم في البحث عن المتاعب .

وتعرف ذات مساء بشيخ يدعى براجادين ، تعرض لنوبة قلبية وهو في طريقه الى منزله بالجندول . واقام كازانوفا من نفسه ممرضا لعضو مجلس الشيوخ . وحينما قال اقرب اصدقاء الشيخ لكازانوفا ان بوسعه ان ينصرف اذا شاء ، قال كازانوفا بطريقته المسرحية المعهودة :« اذا انصرفت مات . واذا بقيت سوف يتحسن . » ومن الغريب تماما ان النبوءة تحققت . ففي اثناء الليل ، كاد باراجادين يختنق بتأثير « مرهم » من الزئبق دلكه به طبيبه على صدره . ومسح كازانوفا الزئبق ، وغسله ، وامر الرجل بالراحة ، فراح الشيخ في سبات هادىء عميق . وفي اليوم التالي، اعتزل الطبيب خدمة مريضه وتركه في رعاية كازانوفا، الذي راح يتحدث في علم الطب ، ويشير الى اقوال اطباء لم يسمع بهم من قبل ابدا ، ثم يامر الشيخ المريض بالعلاج الناجع ــ الراحة والطعام الخفيف ــ بوحي من غريزته .

---

(١) سيلليني (١٥٠٠ ــ ١٥٧١) كان مثالا واشتهر باعماله في صياغة الذهب ، تتلمذ على ميكلانجلو وارتبط فترة ببلاط فرانسيس الاول ملك فرنسا . ولكنه اشتهر في عالم الادب اكثر من مكانته في عالم النحت، بترجمته الذاتية التي اكملها عام ١٥٦٢ ، ولكنها لم تنشر الا عام ١٧٣٠ ، فاعتبرها النقاد واحدة من اكثر التراجم الذاتية جدية وصدقا في التاريخ . اعجب بها جوته حتى انه ترجمها بعد قراءته لها على الفور الى الالمانية . (هـ . م) .

ثم جاء اليوم المصيري : « كان مسيو براجادين ضعيفا ضعفا طبيعيا ازاء العلوم الغيبية ، فاخبرني ذات يوم ان معارفي ومعلوماتي تزيد كثيرا عما يمكن لشاب صغير في مثل سني ان يحصل عليه ، وانه يظن انني مالك لنوع من القدرات غير الطبيعية ». ولما لم يكن كازانوفا من نوع الرجال الذين يهربون من العناية الالهية او ينكرون عطاياها ، فقد اعترف للرجل بانه من علماء الكابالاه وانه قد حصل على مفتاح سليمان . ووجد سائليه على درجة كبيرة من الاستعداد للانخداع . سألوه عدة اسئلة لا يمكن فهمها، فاعطاهم عدة اجوبة لا معاني لها، ففهموها هم على النحو الذي يروق لهم ووجدوا فيها النور الذي يطلبون . يقول « ادركت حينئذ كم كان سهلا بالنسبة للكهنة الوثنيين ان يفرضوا انفسهم على الانسانية الجاهلة ، والمستعدة لجهلها ، ان تصدق كل شيء » .

ومنح كازانوفا هبة سخية وعومل كما يعامل ابن من ابناء البيت ، فشرع في المغامرة – التي كانت المصدر الرئيسي لدخله طوال حياته – وسرعان ما انغمس في اولى عمليات الخداع الكبرى التي مارسها بوصفه ساحرا . ويبدو ان الدافع الى ذلك كان مجرد الغرور والنزوع الى الاذى والازعاج . ففي مانتوا ، اقنعه احد الشبان بان يذهب معه لكي يتفرج على مجموعة التحف الاثرية التي يملكها والده، التي كان من بينها سكين قال الشاب انها تلك التي استلها سانت بيتر (بطرس الرسول) فقطع بها اذن خادم كبير الكهنة ، في الحديقة لحظة القبض على يسوع (ولاحظ ان انجيل لوقا يقول انها كانت سيفا) . واراد كازانوفا ان يتسلى بالرجل النبيل العجوز الساذج، فقال له انه يمتلك بهذه السكين ثروة كبيرة ، لانها تحمل قوة سحرية تجعلها قادرة على الكشف عن كل الكنوز المخبوءة في ممتلكات البابا . ولكنها تحتاج الى غمدها الاصلي ، وان كازانوفا – لحسن الحظ – يعرف الرجل الذي يمتلك الغمد . وذهب فصنع غمدا من جلد حذاء قديم ، اقتنع به هاوي التحف الاثرية العجوز، ثم عرض عليه ان يكون هو الساحر الذي يستخرج لهم بنفسه كل الكنوز المخبوءة . وكان لدى الابن خطاب من رجل ظن ان ثمة كنزا مخبوءا في ارضه ، التي كانت جزءا من الممتلكات البابوية . وحينما ابرز الشاب الخطاب ، استطاع كازانوفا ان يلمح اسم القرية : سيسينا . واخرج كازانوفا ادوات العرافة . (مجموعة من اوراق اللعب ذات ارقام على شكل اهرامات) واستخلص منها نبوءة تقول ان الكنز مخبوء في ارض بالقرب من نهر الروبيكيون . ولما نظروا الى الخريطة اكتشفوا ان نهر الروبيكون يمر وسط سيسينا . ولما تعرف العجوز وابنه على مكان القرية ، اعترفوا واقتنعوا بانهم يتعاملون مع ساحر قدير .

وفي سيسينا قدم كازنوفا الى اسرة الفلاح الثري ، جورج فرانزيا . وكانت ابنته الكبرى ، جوفيتا جميلة في الرابعة عشرة من عمرها ، وهو ما كان يأمله

كازانوفا . فان مغامرة خالية من حكاية جنسية ما كانت تروق لذوقه الخاص .

كان استاذا في فن الحصول على ثقة الاخرين بوسائل مختلفة . وقال للرجل العجوز انهم يجب ان يحافظوا على السرية المطلقة ، خوفا من قساوسة قضاة التفتيش . ولما سئل عن سبب تفوق قوة قضاة التفتيش على قوة السحرة ، اجاب بأن السبب هو ان الكهنة والرهبان يأتمر بأمرهم شياطين اكثر مما يملكه اي ساحر .

وقال لهم ان جافوت يجب ان تكون وسيلتهم الخاصة للوصول الى الكنز ، لان وجود عذراء طاهرة كان امرا ضروريا . وفي الايام التالية ، قام بعملية « غسل طقسي » لاعضاء معينة في اجساد افراد الاسرة : كان الاب هو الاول ، ثم الابن ، واخيرا ، الهدف الرئيسي من العملية كلها ، جافوت . ويقول كازانوفا انه لم يحاول ان يجعل الفتاة تحبه : «ولكن الرجل يجد تعويضا كاملا في السيطرة المطلقة التي يحققها على امراة » . وقام هو على تحميمها بنفسه ، واستجابت هي لملاطفاته حتى : « انطفأت نارها اللاهبة في النهاية بالنتيجة الطبيعية لما شعرت به من استثارة » وحينما كان يجفف جسمها ، اقترب منها لكي يقضي على تلك العذرية التي كانت ضرورية لسحره ، ولكن استثارته هو الاخر ـ لحسن الحظ ـ وصلت الى ذروتها دون ضرر قبل ان يسقط . وفي الصباح التالي ، جاء دور الفتاة لكي تحممه بنفسها ، واثبتت انها خبيرة في الملاطفة مثل كازانوفا نفسه . ونامت الفتاة في حجرته ، ومنذ تلك الليلة ناما معا باستمرار ، رغم انه استمر : « في احترام النقطة الجوهرية» . فقد قرر انه من الممكن ان تظل عذريتها سليمة حتى الليلة التالية للطقوس الاخيرة .

وهو يذكر بشكل عابر انه قضى جزءا من الليلة التالية في مراقبة العلامات الغريبة التي جعلت فرانزيا يعتقد ان الكنز مدفون في ارضه بالفعل . كانت هناك ضربات ثقيلة يسمع صوتها من تحت الارض بانتظام ، واخذ باب القبو يفتح ويغلق على فترات منتظمة ، كما لو كانت ايد خفية تدفعه . وهو يعترف بانه كان عاجزا عن تفسير هذه الظواهر ، ولكنه يقول : « لا بد ان شيئا غريبا مجهولا كان يتدخل في الامر » .

وحينما جاءت الساعة الفاصلة ، خرج كازانوفا وسط الليل الى الفناء ، مرتديا تاج الساحر وعباءته ورمز العظمة على كتفيه وبيده السكين وبيده الاخرى صولجان ماكسيموس . ورسم دائرة بالطباشير وارتدى جلبابا من الحرير نسجته يدا عذراء طاهرة على جسده العاري . وحينما بدأ يتمتم بكلماته الغريبة الوحشية انفجرت عاصفة رعدية قوية ، راحت تتزايد باستمرار . وبينما كان البرق يشق السماء بدأ كازانوفا نفسه يظن انه لو خرج من الدائرة السحرية لكان

مصيره الموت المحقق ، وراح يتساءل ان كانت هناك قوى سحرية اطلقت حقا من عقالها رغم كل شيء . ولكن الشيء المدهش هو انه قد اقتنع بانه او كان قد مس عذرية جافوت لكان الله قددمره بغضبه ، وان طهارة هذه الفتاة ونقاء روحها هو الذي انقذهمن الموت . ولذلك فانه لم ينس فيما بعد ان يعود لكي يهديها « مشدا » ثمينامن العاج . ولكنه اضطر ان يقول لابيها ان الحراس السبعة المرصودين للكنز رفضوا ان يفتحوا الابواب ، واقنعوه بأن يؤجل عملية استخراج الكنز ، واعطوه وثيقة طويلة يصفون فيها مكان الكنز بالتحديد وما يحتوي عليه .

لن يكون ثمة مغزى لاعادة سرد مغامراته الاخرى بوصفه ساحرا . لقد آمنت به مدام دورفيه ، العجوز الذكية ايمانا بسيطا ، ويفسر هو ذلك بقوله : « لو انني اعتقدت انني استطيع ان اعيد مدام دورفيه الى طريق الاستفادة من حواسها لبذلت المحاولة ، ولكنني شعرت يقينا بأن مرضها كان مما لا يمكن معالجته ، وبدا لي ان الطريق الوحيد المفتوح امامي كان هو ان احرضها على المزيد منخبلها وانواع هذيانها لكي استفيد انا منها » . وبناء على ذلك راح يشترك في احتفالات مشهورة كان هدفها هو مساعدة نفس مدام دورفيه على ان تلج جسد طفلة رضيعة ،حتى تستطيع ان تعيش عمرا ثانيا من جديد . والفقرة التييصف فيها كازانوفا هذا الاحتفال تعد فقرة فكاهية حقا ، وتقدم بعض النظرات النافذة بشأن ذلك النوع من الشعوذة الذي استخدمه « السحرة » الاخرون الى جانب كازانوفا .

وحينما وقع في حب امراة انجليزية جميلة ، هي جوستينيانا واين (التي يدعوها الآنسة اكس ، س . ق) استخدم اسم باراسليساس لكي يصل الى النتيجة المطلوبة . كانتالفتاة حاملا من عشيق سبق ان هجرها ، وذكرت لكازانوفا انها حصلت على « عقار » قادر على انهاء الحمل . كان العقار : « نوعا من المزيج،مكونا من عقاقير عديدة . . » . ولما كانت الفتاة قد رفضت محاولاتهالسابقة للتودد اليها ، فقد اقترح علىالفور،ان الوصفة التي تحملها الفتاة ، ستكون نافذة المفعول اذا اضيف اليها قدر معينمن السائل المنوي لرجل غريب ، وعرض ان يكون هو نفسه الرجل الغريب الذي سيضيف العقار الجديد الى الوصفة بوضعه في فتحة الرحم . يقول : « كنا نشبه طبيبا يشرع في اجراء اول جراحة له مع مريضته المفزوعة، ولكن مع الفارق الذي اقتضى ان تقوم المريضة بترتيب حجرة العمليات . وحينما اكملت استعدادها ـ اي حينما كانت قد وضعت العقار، عدلت من وضعها لكي يصبح ملائما لاضافة السائل الجديد الى المزيج السحري» . ومن المؤسف بالطبع ان نقول ان العقار فشل في مهمته رغم الاضافة التي وضعها

كازانوفا واسندها الى باراسيلساس . فقد وضعت الآنسة طفلها في موعده بعد ذلك ، ثم تركته في رعاية احد الملاجيء .

كان كازانوفا يتمتع بموهبة غيبية فطرية ، رغم كل شعوذاته المرحة . وحينما كانت احدى تنبؤاته المجنونة تتحقق ، كان يشعر للحظة بذلك الشك الخرافي والفزع الذي انتابه وسط الدائرة الطباشيرية تحت العاصفة الرعدية على شاطيء الروبيكون . وحينما كان يستشير « اوراقه الهرمية الارقام » ويهمس دون قصد بنبوءة ما ، كان يدهش دهشة بالغة حين يراها بعد ذلك تتحقق بدقة .

وتقوم موهبته الغيبية تلك وراء حظه المدهش خلال السنوات الاربعين الاولى من حياته . كانت « حاسة سادسة » من نوع ما ، هي التي تدفعه الى ان يقول او يفعل الشيء الصحيح ، مثلما وجد نفسه يقول انه لو بقي الى جانب باراجدين ، فسوف يعيش . وينطبق نفس الشيء على علاقاته مع النساء . فلو كانت « الذكريات » عملا روائيا ، لقدمت التفسير اللازم للتشابه الغريب بين مغامراته الجنسية ، ولاستطعنا اذن ان نقول ان المؤلف انما يسجل خيالاته الخاصة . وقد فحص بعض المعلقين مسألة صدق كازانوفا بالتحديد على هذه الاسس : ان نفس النوع من الفتيات ، ونفس النوع من المواقف ، هي ما تتردد باستمرار . اما بالنسبة للقراء ذوي البصيرة الاعمق ، والتعاطف الاكبر ، فان نفس هذا التكرار المتشابه هو بالتحديد ما يؤكد صدقه الاساسي . ففي الحياة الحقيقية ، يظل نفس الشيء يتكرر باستمرار بالنسبة للاشخاص ذوي الشخصية المحددة . وكان يحدث بالنسبة لكازانوفا ، بسلوكه اللطيف الخالي من النفعية ، وكرمه الاصيل ورغبته الفطرية في حماية النساء ، كان يحدث ان يلتقي بتلك الفتاة التأثرية ، التي كانت تقول له ، في خلال ايام ، واحيانا في غضون ساعات قليلة من معرفتها به : « افعل ما تشاء بي . انني لك » . ومن المنطقي تماما ان تقع ابنته نفسها في غرامه ، دون ان تعرف شخصيته بالطبع .

ولكن هذا « الرادار » النفساني العجيب بدأ يخونه في اواخر ثلاثيناته ، حينما قاده ولعه الملتهب بسيدة بلاطجميلة ، لاشاربيللون ، الى ارتكاب سلسلة من الحماقات لم تؤد اي منها الى اقترابه من هدفه . كانت واحدة من تلك العمليات القليلة الفاشلة فشلا كليا ، فقد قررت المرأة منذ البداية ان تذله ، ونجحت في ذلك . فتشقق بذلك ، وبدأ ينهار ، ذلك الوثوق الرفيع في نفسه ، الذي حقق له طوال سنوات حظا لامعا كحظ من يمشي في نومه دون ان يسقط . ومنذ ذلك الحين ، ورغم انه كان ما يزال سيحقق المزيد من « الغزوات » ، فانه كان يسير هابطا على المنحدر المستمر نحو الهزيمة . ومن المهم هنا ان نتذكر ان نفس

الشيء هو ما حدث معميسمير خلال سنوات اقامته الاخيرة في باريس ، لقدتلاشت الثقة في النفس : واي شيء يكون « ميسمريا » دون الثقة في النفس؟ لقد عاش كازانوفا حتى بلغ الثالثة والسبعين ، فمات قبل عامين من نهاية القرن الذي جسده بحياته الدرامية هذا التجسيد اللامع البراق ، ولكن ، كان هناك شيء جوهري من كازانوفا الحقيقي ، قد مات في لندن ، تحت ضربات الولع الخائب بالفاتنة شار بيللون .

وفي ايامه الاخيرة ، التي راح يجرجر على طولها وراءه ثقل خيبته واحباطه، حافظ كازانوفا على نفسه حية بكتابة « الذكريات » ، ولكن حينما رفض الكونت ماركوليني — في درسدن — ان ينشر حتى المجلد الاول من هذه المذكرات ، فقد كازنوفا حماسه ،وتوقف عن الكتابة عند النقطة التي كان قد شرع يكتب عندها عن العام الخمسين من عمره . وقد تكون الخسارة التي وقعت بنا نتيجة لهذا التوقف محل خلاف كبير، ذلك انه كان يمكن لما تبقى من سنوات عمره ان يخلف في فم القارىء طعم المرارة . ولكن ثمة سبب واحد يدفع كل دارسي علوم الغيب الى الاسف : وهوان كازانوفا لم يصف لقاءه الثاني مع واحد من اكثر رجال العصر اثارة للحيرة، وهو « كونت كاجليوسترو » . اذ ربما كان قد استطاع ان يجلو غوامض سر لابد الآن ان يبقى دون حل . لقد سمع الناس جميعا اسم كاجليوسترو ،ويثيرهذا الاسم لدى غالبية الناس تداعيات شريرة مشؤومةغامضة، تشبه ما يثيره أسم « راسبوتين » من تداعيات . ولكن قليلين من الناس ، حتى اكثرهم خبرة به ، هم من يعرفون عنه الكثير ، ذلك انه حتى المعلوماتالاساسية عن حياته تقع فيدائرة الشك . الشيء الوحيد الذي نعرفه بأي نوع من اليقين هو انه مات ميتة فاجعةفي سجون التفتيش عام ١٧٩٥ ، وربما كان قدمات خنقا على يدي سجانه . وتتراوح الاراء بشأن ملكاته وقدراته تراوحا يغطي كل الاحتمالات، من وصف كارلايل له بانه : « ملك الكذابين » و « الدجال المشعوذ الاعظم » الى ما وصفهبهلويس سبنسر بانه : « واحد من اعظم الشخصيات في مجال علومالغيب في كل العصور » .

بل انهويته،ومن يكون بالتحديد ، ما تزال موضع جدل واختلاف . تقول فرانسيس موسيكر في كتابها عن قضية « عقد الماس » ان : « اولئك الذين سيرجعون الى دوائر المعارف، سيكتشفون انه من الحقائق المقررة ان الكونت اليساندرو وكاجليوستروهو : « جويسيبي بالاسمو من باليرمو » وقد يكفي ، لكي يهتز ايمان المرء بالمراجع والكتب الكبيرة ، اذا نظر الى الحقيقة القائلة ، بان هذا التعريف لشخصه انما يقوم الى الابد على اساس الدليل الوارد في كتاب

ورد من مجهول الى شرطة باريس .. » ورغم هذا ، فان الآنسة موسيكر تختتم استنتاجاتها ، بأن تعترف بشكل ضعيف بانه ربما كان كاجليوسترو ،وبالسامو شخصا واحدا . وهناك مؤلفون اخرون يمتدحون كاجليوسترو ، ولكنهم يؤكدون ان كازانوفا قابل بالسامو وليس كاجليوسترو ، ولكن اخرين يقبلون انهما شخص واحد ، كان من بينهم جوته ، الذي سحرته الحكايات من كاجليوسترو حتى انه قام بزيارة عائلة بالسامو في باليرمو بصقلية ، ومن الممكن ان نجد وصفا تفصيليا للزيارة في كتاب فانك وبرنتانو : « كاجليوسترو ورفاقه » . ولكن جوته يرسم صورته باعتباره نصابا مخادعا في مسرحيته : « عظيم الاقباط » .

ولكن اهتمام جوته بشخصية كاجليوسترو يعد مفتاحا للحقيقة التي ربما كانت تكمن وراء كل تلك التناقضات . ولست اعتقد انه من نوع اهتمام الفنان بالوغد ــ وهو نوع الاهتمام الذي جعل توماس مان يضع كتابا عن محتال يبتز نقود الناس بعد ان يكسب ثقتهم ،انما كان هذا الاهتمام اعترافا بالتشابه الاساسي بين الرجلين . وقد لاحظ شو ان الانسان لا يشعر بالانتماء الى مجتمع ما ولا بالراحة في داخله الى ان يعثر على مكانه الطبيعي ، سواء فوق المكان الذي ولد فيه او تحته. ولقد ولدكل من كاجليوسترو وجوته في مكان ادنى بكثير من مكانيهما الطبيعي ، وانتهى كلاهما بمصاحبة الامراء والكارديناليات ، واكتساب الاحترام العالمي بقوة العبقرية المكتسبة غير الفطرية . ولقد كانت لديهما عبقرية طبيعية ، قوة طبيعية ، عند كاجليوسترو جعلت الجميع يشعرون بآثارها . وهناك شهود على هذه القوة ،رغم عدائهم الاصيل لكاجليوسترو ، من نوع البارونة دوبركيش التي وصفت ما شعرت به من قوته بطريقتها العدائية ، بانها قوة شيطانية ، وانه كان قادرا على ان يعتمد العقل فيستعبده وان يشل الارادة، ولا يمكن ان يوصف بهذا الوصف مغامر مبتذل ، وانما لا بد ان يكون رجلا ذا قوة حقيقية ،رغم ان كازانوفا وصفه قبل ذلك بعشر سنوات بانه قصير رديء التكوين ، ينم وجهه عن كل ما في العالم من ادعاء وتهكم ووقاحة لامبالية ، وهو الوصف الذي يوحي بالبصيرة التي زادتها الغيرة حدة وقدرة على النفاذ .

وحينما وقع كاجليوسترو في ايدي قضاة التفتيش ، كتبت ترجمته على يدي واحد من كتاب التحقيق . ومن الطبيعي ان يرسم الكاتب صورة صاحب الترجمة ببساطة بوصفه وغدا مخادعا . وقد اتبع كالاريل وجميع الملفقين اصحاب الموقف العدائي هذه الترجمة « التفتيشية » التي كان هدفها المسبق تصغير حجم المترجم له ونسفه .ويثور من هنا السؤال الطبيعي : اذا كان كاجليوسترو مثل هذا الوغد الوضيع الافاق ، فكيف استطاع ان يحقق كل هذا

التأثيـر وان يكتسب كل هذا النفوذ على هذا العدد الكبير من الناس ؟ يجيـب كالاريل : لانه كان واحدا من اعظم المخادعيـن في كل العصور . ولا شك ان هـذا الراي الساذج التبسيطي انمـا ينكر القوة البارزة التي شهد لها الكثيرون .

فاذا قبلنـا الراي القائل بان كاجليوسترو كان عبقريا ، اي انه كان يمتلك حيويـة بارقـة الذكاء فوق المستوى العادي بكثير ــ فان التناقضات ستشرع في الاختفاء ، وتتخذ قصة حياته شكـلا واتجاها لم يشعر بهما كازانوفا .

يكـاد يكون من المؤكـد انه ولد باعتباره جويسيبي بالاسمو ، وابنا لعائلـة فقيرة في باليرمو عام ١٧٤٣ . ويصف جوته هذه العائلة باعتبارها اسرة بسيطـة وان كانت من الفلاحيـن اصحاب المشاعـرالساخنة، ويعيشون جميعا في غرفـة واحدة . ومات ابوه وهو صغير ،ولمـا كـان على استعداد طبيعي للانفجار ، فانه اصبح دون حاكم وغير قابل للخضوع لاي انسان . وارسل الى مدرسة « سانت روكو » اللاهوتية . ولكنه هرب منهـا عدة مرات ، فعيـن صبيـا تابعـا في دير الرهبـان في كاتيرجيرون . وذات يوم، وفي انفجار معاد للاكليروس عداء عنيفا ، صدم الرهبـان صدمة مروعـة حينمـا راح يرتجل مشهدا تمثيليا اعتمد فيه على نص الكتاب المقدس للصلوات الذي كـان يفترض فيه ان يقراه بصوت مرتفع على رأس مائدة العشاء ، مستبدلا اسمـاء القديسين باسماء البغايا المشهورات . ووصل به هذا المشهـد الى الهدف الذي كان يسعى اليه ، فقد طرد من الدير نهائيا . فراح يتلقى دروسا في الرسم حيث اثبت موهبة غير عادية . وامتدت مهارته في استخدام القلـم والريشة الى مجال نسخ الرسائل ، وكتابة بطاقات المسرح ، وكل ما يمكـن ان يحقق لـه شيئـا من الربح .

ولكنه كان مشدودا بشكل طبيعي الى علوم الغيب ،والى السيمياء والتنجيم . ولا يعرف احد اين استطاع على وجه التحديد ان يحصل على معارفه الاساسية . ولكن صقليـة كانت تمتليء بتقاليدهـا الموروثة القديمة في مجالات السحر وعلوم الغيـب ، ولا شك ان تعلمها كان سهلا لمن شاء ذلك ..

وتاتي كل القصص التي تتحدث عن اعماله القذرة في هذه المرحلة ، من كاتب ترجمته التابع لقضاة التفتيش ، فهي عرضة للشك لهذا السبب . وتقول اكثـر هذه القصص شهـرة انه اكتسب ثقـة صائغ ذهب بائس ، واقنعه بانه يستطيـع ان يصنـع الذهب . واقام بالسامو طقوسه وسط حقل بعيد في منتصف الليل . وفي اللحظـة الحاسمة ، خرجت اشباح غامضة من وسط الظلمة فضربت الصائغ المسكين حتى فقـد الوعي ، وحينما افاق ، اقنعه بالسامو بـان الشياطيـن انتزعت الجانب الاكبر من الذهب الذي جاءا به لكي يستخـدماه في اعمالهمـا السحرية . يقول المصدر نفسه ان بالسامو تعرض ايضا للسرقة في كالابريا ،فلما

وصل الى روما مفلسا حاول ان يكتسب عيشه اعتمادا على مواهبه في الرسم . ويحكي جوته كيف قام بالسامو بتزييف بعض الوثائق تلبية لماركيز من صقلية ، فالقي به في السجن لهذا السبب . ولكن المركيز تمكن من تخليصه بعد ان ضرب القاضي وتوسط لدى مجلس التحقيق .

وسواء صدقت قصة التزييف ام لا ، فمن المؤكد انه استمر في دراسة علوم الغيب ، حتى اصبح مساعدا في المعمل ليوناني يدعى التوتاس ، الذي كان قد اكتشف كيف يمنح للالياف الزجاجية ملمسا ناعما وطريا كلمس الحرير ، بين اكتشافات اخرى . وسافرا معا الى مصر ، ووصلا الى مالطة حيث تعرفا بقائد فرسانها الذي كان يدعى بينتا . وكان بينتا هاويا متحمسا للسيمياء ، فرحب بـ « المعلمين » الغريبين ، واستطاع بالسامو ان يبهره حتى اعطاه الرجل خطابات توصية الى عدد من الشخصيات البارزة في روما وفي نابولي . وفي روما حين كان بالسامو مجرد فنان شاب يقتحم الحياة بسرعة ، سحرته فتاة جميلة لا تزيد على الرابعة عشرة ، وكان هو في السادسة والعشرين . وكانت الفتاة ابنة لاحد صناع النحاس ، يعيش في شارع ضيق يحمل اسم كنيسة « ترينينادي بيلليجريني » في منزل قديم قذر . كانت لورينزا فيليسياني امية ، ولكنها كانت خلابة الجمال ، ورغم بعض المعارضة من جانب والدها ، فقد تزوجت بالسامو .

وفي العام التالي التقى بهما كازانوفا في « ايكس ان بروفانس » جنوبي فرنسا . ويقول كازانوفا عنهما ان الناس اعتبروهما من ذوي اليسار والنبل ، لانهما وزعا الكثير من الصدقات بسخاء عند دخولهما المدينة . كانا قد قاما بالحج الى كنيسة سانت جيمس في كومبو ستيللا بايطاليا ، ثم الى كنيسة العامود في اسبانيا ، وكانا الان في طريق العودة الى روما . وقالت لورينزا ، التي تركت لدى كازانوفا انطباعا قويا باعتبارها صادقة مخلصة متواضعة ، قالت ان الصدقات التي وزعاها كانت هي ما تبقى معهما مما كانا قد تسولاه في اخر مدينة قاما بزيارتها . وطلب منه بالسامو ان يأخذ شيئا من الهدايا الباقية الموجودة على مائدة الفندق ، وطلبت منه لورينز ان يمنحهما خطاب توصية لمدينة افينيون . وقد اثبت بالسامو فيما بعد مهارته في التزييف بأن صنع من هذا الخطاب نسخة اقسم كازانوفا انها هي خطابه الاصلي ، ثم حذر بالسامو او اوصاه بالاحتراس ، والا كلفته هذه الموهبة حياته .

... وسواء كان حجهما الى تلك الكنائس قد حدث بدوافع دينية ام لا ، فان بالسامو كان رجلا يحمل في داخله شيئا ما اراد دائما ان يبرز ليثبت وجوده . ولم يكن بوسعه ان يذهب فيستقر في صناعة النحاس في روما ، فقد شعر بأن العالم يختزن له شيئا اكثر اهمية فظل يرتحل حتى عثر عليه .

ويبدو انهما عادا الى اسبانيا ، ثم سافرا الى انجلترا حيث عاشا حياة مضطربة عمل بالسامو اثناءها في الرسم وزخرفة المنازل ، ولكنه فشل في هذا العمل . وفي السفينة التي اقلتهما الى فرنسا ، تعرفا بشخص يدعى مسيو دوبليسيس ، كان مديرا لاعمال الماركيز دي بري .. ونجح دوبليسيس في اغواء الزوجة الجميلة الشابة مما انتهى بها وبه الى السجن لمدة سنة بطلب من بالسامو . وفي اثناء نفس العام كان بالسامو يشق طريقه ، فاكتسب شهرة وشيئا من المال حينما صنع نوعا من دهان الجلد لعلاج البشرة باستخدام البوراكس ، ثم اصبح استاذا للسيمياء وصار له تلميذان من الاغنياء . وبعد خروج الزوجة من السجن ، قرر العودة الى ايطاليا، واطلق بالسامو على نفسه اسم الماركيز بالليجريني ، متخذا اسم كنيسة بالقرب من بيت زوجته .

.. وفي عام ١٧٧٦ عاد بالسامو الى لندن واطلق على نفسه اسم كاجليوسترو ، وهو اسم احد اعمامه في صقلية . وقد واجه حدثين هامين في هذه الزيارة الثانية لانجلترا . فقد حصل على عضوية جماعة الماسونيين الاحرار ، ثم طارده جماعة من النصابين ظنوا انه يمتلك شيئا ما يجعله قادرا على التنبؤ بالارقام الفائزة في اوراق الحظ (اليانصيب) . ورغم غموض القصة ، فمن المؤكد انه مثل امام المحكمة ، ويقول كارلايل ان اكبر النصابين في قرن النصب الاكبر (الثامن عشر) قد مثل صاغرا امام محكمة القانون الانجليزي » ولكن ليس هناك ما يثبت المدى الذي تورط اليه بالسامو في هذه العملية .

ورغم هذا فقد كان الاكثر اهمية بالنسبة لمستقبله هو حصوله على العضوية الروحية لجماعة الماسونيين الاحرار ، في منزل « راس الملك » في شارع جيرارد ، بحي سوهو ، يوم ١٢ ابريل عام ١٧٧٧ . وقد اطلق على نفسه يومها اسم « جوزيف كاجليوسترو كولونيل (عقيد) الفصيلة الثالثة في براندنبرج » ، وقد اصبحت زوجته ماسونية هي الاخرى .

والماسونيون الاحرار ، « جمعية سرية » ذات طبيعة دينية ، هدفهم الاساسي تحقيق الاخوة بين الناس . كانت في الاصل جمعية لعمال البناء بالحجارة ، كانوا يطوفون اوروبا ويستقرون حيثما كانت تقام الابنية العظيمة ، وكان لهم نظام سري من الاشارات والعلامات ، يتعرف به احدهم على الاخرين ، ثم اصبحت الجمعية موئلا لدارسي علوم الغيب ، والسيميائيين والمنجمين ومن البهم ، وسوف يتذكر من قرأوا رواية « الحرب والسلام » المواجهة التي تحدث بين بيتر بزيكهوي وبين الماسونيين الاحرار حينما يشتد ببيير التشاؤم والاجهاد . ورغم ان تولستوي لم يكن هو نفسه ماسونيا فانه يقدم اهدافهم بوضوح وتعاطف : واولها هي فكرة الاخوة : « لا يستطيع احد ان يحصل على الحقيقة

بمفرده . لا يمكـن الا عن طريق وضع الحجر فوق الحجر بالتعاون بين الجميع ، بيـن ملاييـن الاجيال منذابينا آدم حتى يومنـا هذا ؛ لا يمكن الا عن هذا الطريق ان يشيد هذا المعبد حتى يمكن ان يكون مكانا جديـرا بسكنى الرب العظيـم » . وتتمتع هذه الفكرة عن وجود موروثمعين طال كتمانه والاحتفاظ بسريته ، تتمتع باهميـة جوهرية : « ان الهدف الرئيسي الاول لجماعتنا ، والاساس الذي تقـوم فوقه والذي لا تستطيع ايـة قوة بشريـة على الارض ان تدمره ؛ هو المحافظـة على سر معين هام وتسليمه مكتومـا وخفيـا الى الاجيال القادمة ، وهـو السر الذي وصلنـا سليمـا ومصانا من اقدم الازمنة والعصور ، بل منذ اول انسان ـ وهـو سر ربمـا كان مصير الانسانية يعتمد عليه . ولكـن لما كان لهذا السر مثـل تلـك الخصائص حتى لا يستطيع انسان ان يعرفه او ان يستخدمـه الا اذا تم اعداده لذلك عن طريق التطهر الذاتي الدؤوب الطويل ، فلا يستطيع انسان ان يأمل في الحصول عليه بسرعة . ومن هنـا فان لنـا هدفا ثانويا : ذلك هو اعدادا عضائنا وتهيئتهـا بكل مـا في وسعنـا من جهـد من اجل اصلاح قلوبها ، وتطهير عقولها وتنويرهـا ، بوسائل ورثناها من الاسلاف مع بقيـة تراثنا منهم . . » ويمضـي تولستوي لكي يصف هدفهم الثالث : تجديد الانسانية . (وهذا هو الهدف الذي يطيب لبيتر اكثر من غيره) . ثم يسرد بالتفصيل احـداث : « الدرجـات السبـع لمعبد سليمـان » . (هنـاك بالضرورة ارتباط وثيق بين فكرة الماسونيين وبيـن المعابد) . وهذه الدرجات هي الكتمان ، والطاعة ، وحسـن الاخلاق ، وحب البشرية ، والشجاعة ، والكرم ، وحب الموت . وينغمس بيتر في التأمل المستمر حول الموت ، فيجد ان هذا المبدأ هو اصعب ما يمكن ابتلاعه من المبادىء .

ولا بد لكل من يريد ان يفهم جاذبية الماسونية من ان يقرأ وصف تولستوي لطقوس ضم المرشحين الى الجماعة ، او تعميدهم . ولا بد ان تبدو هذه الطقوس لمن لـم يكـن ماسونيـا ضربا من السخف : فالمرشح يضع نعلا باربطة في احـد قدميه ، وحذاء ذا رقبة في قدمه الاخرى ، ثم تغطى عيناه ويقاد من يده عبر ممرات ، ودهاليز طويلة مظلمة ، مفروشة بابسطـة من نوع معين ، فلا يسمع صوت خطواته وانمـا يسمع صوت طرقات الخناجر والسيوف ، وقـد احتضن « بوصلتين » كبيرتيـن الى صدره ، وفي النهايـة يجد نفسـه في مواجهة عدد من الرجال يرتدون العباءات وقد سددوا سيوفهم المشهرة نحوه ، فيركع عند « ابواب المعبد » ، الى غير ذلك من تصرفات . وفي لحظة معينة ، يتساءل بيتر فجأة ان كانت المسألة كلها مجرد نكتة عملية . اما فرانك كينج ، فيلخص في كتابه : « كاجليوسترو ، اخـر المشعوذين » ، عمليـة « تعميد » كاجليوسترو باختصار ، فيقول :

« كان الاحتفال شديد الشبه بذلك الذي يتم في نقابات الماسونيين اليوم ،

مضافا اليه بعض المشاهد غير المؤذية ، ولكنها مهينة ، كان المقصود منها التأثير على المرشح الجديد. فعلق جوزيف الى السقف بحبل وترك يتأرجح حتى شعر بالدوار ، مما يرمز الى عجزه دون العون الالهي. ثم طعن بخنجر ينزلق نصله عند الطعن الى داخل مقبضه، رمزا للمصير الذي ينتظره اذا خان رفاقه واسلم اسرار الجماعة . ثم اجبر على الركوع عاريا لكي يبرهن على خضوعه لرئيس النقابة »

نستطيع من كل هذا ان نرى ان الماسونيين الاحرار هم السلالة المباشرة للديانات الاورفية والفيثاغورية . والهدف من عملية التعميد هو توليد احساس هائل بالمغزى والتكتم الشديد . ولن يدهشنا ان بطل تولستوي ، في نهاية العملية كلها قد : « شعر بانه عائد من رحلة طويلة امضى في اثنائها عشرات من السنين ، وانه قد تغير تغيرا كاملا، فترك وراءه كل عاداته القديمة واساليبه في الحياة . »

ويوضح هذا ايضا السبب الذي جعل الماسونيين يتعرضون لاحكام السجن والاعدام ، خاصة في ظل الكنيسة الكاثوليكية . ان الكنيسة قد تشعر بأن البروتستانتية وفروعها وفرقها المختلفة ليسوا سوى ابناء غير شرعيين جاؤوا بالصدفة لنفس الابوين ، او انهم ليسوا سوى صور مقلدة تقليدا ضعيفا تحاول عبثا ان تحل محل الاصل ،ولكنها لن تستطيع ابدا ان تمثل تحديا حقيقيا ، لانها لن تستطيع ان تقدم بديلا حقيقيا لجهاز الكاثوليكية الهائل . اما الماسونيين فكانوا بالفعل يقدمون بديلا ،او كنيسة بديلة تزعم لنفسها عراقة واصولا اقدم بكثير من عراقة واصول الكاثوليكية . كان كل من انضم اليها يشعر بانه عضو في الجمعية السرية الرئيسية ، قائم على حراسة اقدم الاسرار واكثرها عراقة . ويحقق الماسونيون الهدف الاساسي من اي دين منظم (كيفية ملء اتباعه بذلك الاحساس العميق بالهدف والمعنى ، وهو الاحساس الذي تطمسه وتقضي عليه العادات القديمة والانماط الشخصية الجامدة) عن طريق استخدام الاساليب الفنية التي استخدمتها الديانات الميثولوجية والسرية في اليونان القديمة . ولا بد ان يخرج المرشح بعد « تعميده » من كل هذه الطقوس باحساس الدخول في كون جديد مرتب محكم التنظيم ، حددت فجاة وبشكل حاسم كل اهدافه واغراضه . ان تراثا كاملا يرجع الى عهد آدم هو ما يقف وراءه ويسانده . وتمنحه فكرة الاخوة الانسانية احساسا جديدا بالانتماء الى الجنس البشري . والاكثر من هذا ان العالم مليء بالاخوة الماسونيين الاخرين ـ اخوة يملأهم الخير والنشاط ولن يتركوه يسقط وحيدا . ومن الطبيعي ان يكون هذا مصدر قوة جاذبية شديدة لاي ديانة ، ذلك ان غريزة البحث عن الامن والاحتماء بمكان محدد لاكثر عمقا من اي غريزة دينية كانت ، وهي تتطلب اشباعها اولا ، على الاقل عند اكثرية الناس . لقد كانت

القوة الحقيقية للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى تكمن في الاديرة ، حيث كان الرهبان يحصلون على ما يمكن ان يسمى : « تأمين الولاية » او تأمين استمرارها دون امد محدد .

لقد ناقشت الماسونية بهذا الاسهاب لانه من المستحيل ان نفهم او اننوضح ما تبقى من حياة كاجليوسترو دونها . فقد ظل كاجليوسترو حتى الان مجرد مغامر من نوع كازانوفا،وفنان تقوده خطاه من القمة الى القاع او العكس بالصدفة، او بقوة قدر كان يتلذذ بتعذيبه وبدفع قدمه من تحته . وتنتج مثل هذه الحياة الهائمة غير المستقرة احساسا بانعدام الهدف وبالتقطع غير المستمر ، وبالتآكل البطيء لاحترام الانسان لنفسه . كان كاجليوسترو قد بلغ الرابعة والثلاثين ، وكان قد قضى ما يقرب منعشرين عاما منها هائما على وجهه دون استقرار ، وكانت حياة المغامرة قد فقدتبالنسبة له سحرها القديم . وكان انضمامه الى الماسونيين اشبه بالعودة الى البيت بعد التوهان الطويل . وكان تأثير هذه العودة ، من الناحية الوجدانية اكثر عمقا مما شعر به بيتر بيزكهوي . وكان التحول كليا وشاملا . كان حبل النجاة قد القي اليه ، فلم يضع وقتا في محاولة الوصول الى الشاطيء .ومنذذلكالحين اصبحت الماسونية هي شغل حياته الشاغل .

والاكثرمن هذا، انه طالما كان « ساحرا » بالفطرة منذ مولده ، الم يكن هو كاهنا « طبيعيا »منكهنةهذا الدين ؟ لم يكن العمل الجدير به ان يكون مجرد تابع بسيط ، مثل ذلك الخادم والسيميائي المسن اللذين تم تعميدهما معه في نفس الوقت في نقابة الماسونيين في لندن . كان « استاذا اعظم » بالحقالطبيعي. ولو انه كان قد دخلسلك الكهنوت الكاثوليكي لشرع على الفور في وضع خطة الوصول الى كرسي البابوية ، شاعرا بان هذا هو مكانه الطبيعي . وما كان من الممكن لزملائه الكهنة ان يروا في اندفاعه هذا ما يمكن التسامح معه . اما الماسونيون فلم يهتموا به ادنى اهتمام . لم يكن ثمة مجال لاي شك في صدق ايمانه ، وكان من الواضح انه يستطيع ان يكون داعيا من اقوى الدعاة . ومثلما كانت ايطاليا هي المأوى الاصلي للكاثوليكية ، كذلك كانت انجلترا هي الموئلالاصلي الماسونية . ذلك انها رغم كونها ليست هي المنبت الاول لها ، فانها كانت مسرح الاحياء العظيم للماسونية فيالقرن السادس عشر . فاين كان منبتها الاول ؟ لقد عرف كاجليوسترو الجواب الصحيح : ويكاد هذا المنبت الاول ان يكون ، بشكل يقيني ، هو مصر . ما هو اقدم اثر معماري عظيم في العالم ؟ الاهرام . الا يحتوي هرمخوفو الاكبر على قياسات وارقام سرية تجسد الاسرار الغامضة ؟ لقد شيد الماسونيون فيما بعد معبد سليمان ، ولكن هذا لم يحدث الا بعد ذلك

بزمن طويل ، لا يقل عن الفين من السنين . فقد شيد هرم خوفو حوالي ٢٩٠٠ ق.م . اما معبد سليمان فينتمي الى القرن العاشر .

وقد زعم كاجليوسترو انهعثر في زيارته للندن على كتاب مخطوط حول السحر المصري وحول الماسونية من تاليف شخص يدعى جورج جاستون . ولايهمنا هنا ان كانت قصة العثور على هذه المخطوطة صادقة ام كاذبة . فاما ان يكون كاجليوسترو قد اكتشف ، او ابتكر ، « الطقس المصري » ، وهو طقس اكثر قدما واكثر عراقة ووقارا من طقوس الماسونيين المحدثين . وقد كرس ما تبقى من حياته لترسيخ دعائم الطقس المصري . ولكن هذا الطقس لم يكن باي شكل بديلا لطقوس الماسونيين الراسخة بالفعل، انما كان اضافة من نوع اكثر سموا ، ولم يكن بوسع احد ــ سوى الماسونيين الكبار ــ ان يصمد لها . وكانت هذه فكرة طيبة بالنسبة للماسونيين . فقد خلق « الطقس » الجديد فرصة وجود طبقة ، اكثر سموا داخل الماسونيين ،تستطيع بما تكتسبه من علم جديد ان تضاعف نفوذها .

كان النبيان ايليا (١) واينوش (٢) هما اول مؤسسي الماسونية المصرية ،

---

(١) يذكر العهد القديم نبيا واحدا باسم ايليا (ملوك اول وثاني) . وعاش في عهد «اهاب» ملك اسرائيل . ويحكي العهد القديم قصته مع اهاب ، ومع كهنة الاله الوثني الفينيقي « بعل » الذيجعله اهاب شريكا لربه اسرائيل « يهوه » في ديانة اسرائيل ، نتيجة للعلاقات التجارية الوثنية بين اسرائيل والفينيقيين ، والعلاقات الشخصية والعسكرية القوية بين اهابوحكام فينيقيا . ويرفض ايليا (الذي يبدو واحدا من كبار كهنة يهوه) عبادة بعل ،ويهرب الى سيناء(جبل حوريب) حيث يمر بتجربته الدينية الكبيرة ، ويكتشف الفارق الاساسي بين يهوه وبعل : يهوه لا يتجسد في اي مظهرطبيعي (رغم انه اصلا احد آلهة الطبيعة) بينما كان بعل قدظلعلىاصله، يتجسد في الريح والشمس والزلازل .. الخ . ويعود ايليا ويتحدى كهنة بعل ، وينتصر عليهم حينما يظهر يهوه كرامته ، (بنزول النار لتاكل قربان ايليا) ثم يرفع ايليا الى السماء في زوبعة من النار. وبذلك يكون ايليا اول من رفع الى السماء من انبياء اسرائيل ، ويحتل في اليهودية القديمة نفس مكانة موسى ، بينما اعتقد المسيحيون الشرقيون الاوائل انه كانبشيرا بمقدم المسيح ، وبالتالي فانه الصورة الاولى ليوحنا المعمدان ، وانه قد « اكمل » في شخص يوحنا ، بينما اعتقدت فرق مسيحية اخرى بانه ويوحنا ويسوع شخص واحد يتكون منهم المسيح، واعتقدت فرق اخرى انه سيظهر مع موسى في الدينونة ليشهد في صف المسيح . وهناك تراث يهودي ومسيحي شرقيكبير من القصص حول معجزات ايليا ، وتنبؤاته ورؤاه ، القليل منها له علاقة بمصر ، ولكن الكثير منها ترجمت نصوصه الى اللغات الحديثة (اليونانية اساسا) في الاسكندرية في القرن الاول . ق . م (هـ . م) .

(٢) اينوش : احدى الشخصيات الاساسية التي وردت في العهد القديم على اساس التصور=

وكان الاخير معروفا بلقب « عظيم الاقباط » . وفي الوقت المناسب ، رقي كاجيلوسترو نفسه من المتحدث باسم « عظيم الاقباط » الى « عظيم الاقباط » نفسه . ثم اضاف ايضا بعض الالغاز المحيرة الشديدة التاثير الى مزاعمه . فتلامذة الانبياء لا يموتون ابدا ، وانما ينتقلون في الوقت المناسب باجسادهم الى السماء مثل ايليا . وهم يعيشون اثنتي عشرة حياة ، ثم يبعثون من رمادهم ، بعد كل حياة ، مثل طائر الفينيق . وبدأ كاجليوسترو يلقي بعض التلميحات العابرة التي تقول انه يبلغ من العمر الفا من السنين . اما زوجته ، التي ظلت تبدو في العشرين رغم انها كانت قد تجاوزت الثلاثين ، فبدأت تلمح ان لها ابنا يعمل ضابطا في الجيش . ولا يمكن ان يكون ثمة شك في ان كاجليوسترو بدأ يتحول الى شيء شبيه بالنصاب . ولكن اهدافه لم تعد اهدافا شخصية . فقد راى في الماسونية اعظم وسيلة لتحقيق الخير للعالم ، وكانت طقوس الماسونية طقوسا

= العبراني من عصر ما قبل موسى «قبل الخروج» . وتذكر نسخة قديمة من التوراة (نسخة دووي) انه الابن الاكبر لقابيل، ولكن النسخة الكنسية المعتمدة تقول انه احد ابناء الجيل السابع من احفاد آدم من سلالة شيث ابن نوح . ولكن سفر التكوين (ص ٢١ — ٢٤) يشير اشارة عابرة الى انه والد ميتو شالح ، مما يضاعف من بعده عن آدم وشيث ونوح ، ومما يشير الى دخول اسطورة اقدم عهدا عن « اينوش » على سفر التكوين في هذه الاشارة . ومن ناحية اخرى ، كشفت الدراسات والبحوث الحديثة (منذ القرن الماضي) عن وجود ثلاث صياغات مختلفة لكتاب اينوش : ينسب الكتاب الاول الى اثيوبيا حيث وجدت اولى مخطوطاته التي ثبت انها ترجمة عن اصل يوناني عثر عليه فيما بعد في القسطنطينية (وقد عثر على نسخ اخرى بالقبطية المصرية في مدينة اخميم المصرية ، وثبت انها ترجمة عن نسخة يونانية اقدم عهدا من النسخة الاثيوبية) ، وتنسب الصياغة الثانية الى سلافونيا اليوغوسلافية ، وهي ايضا ترجمة عن اصل يوناني آخر لم يعثر عليه . وقد عثر على نسختين من كتاب اينوش السلافوني اطولهما هي الاقدم عمرا ، وتدل مادة الكتاب على ان الاصل اليوناني المفقود كان منقولا عن اصل يهودي اقدم عهدا ، وربما كان يرجع الى ما قبل تدمير الهيكل (٧٠ م) وهناك دلائل قوية على ان هذا الاصل كان مكتوبا بيونانية يهود الدياسبورا الاوائل، وخاصة في الاسكندرية ، ويحتوي هذا الاصل على مؤثرات يهودية قوية . اما الصياغة الثالثة لكتاب اينوش ، فهي مخطوطة عبرية ، كانت نتيجة لجهود حاخامات اليهود في القرن الثالث الميلادي لتجميع وتفسير ما نسبه الى اينوش (ايا كان نسبه واقترابه او ابتعاده من آدم ونوح) من حكايات واساطير . وتدور كلها حول رؤية لمستقبل البشرية عبر مراحل تاريخية محددة ومتكاملة ومنفصلة ، تنتهي بالدينونة ، بعد قدوم « ابن الانسان » الذي يشير الى الحلم بمقدم المسيح الفادي او المخلص ، ثم رؤية اخرى لماضي البشرية تبدأ بسقوط احد الملائكة الذي يدفع آدم الى السقوط ، ثم جولة كالمعراج بين السموات والاجرام السماوية تنتهي بزيارة اينوش للملأ الاعلى واطلاعه على الاسرار العلوية واكتسابه من ثم القدرة على رؤية الماضي والمستقبل . ويشير كتاب اينوش العبري الى قوة وسيطرة عقيدة « المخلص » وفكرة « الصعود الى السماء » على العقلية اليهودية . (هـ.م).

رمزية ، مثل طقوس القداس الكاثوليكي . ولم تكن مزاعم كاجليوسترو عن النبي اينوش وعن طائر الفينيق سوى امتداد لهذه الحقيقة الرمزية ، وكانت تهدف الى خلق الوضع العقلي الصحيح،من اجل رفع البشر الى ما فوق مستوى ذواتهم القديمة . ولا شك ان المعجزات السخيفة للقديسين والشهداء كانت ترمي الى احداث نفس التأثير .

ولكن الشيء الاكثر اهمية كان التغير السيكولوجي الذي طرأ على كاجليوسترو، والتناقض الجديد في نسبة انقسامه الذاتي ، مما كان له الاثر الذي لا بد ان نتوقعه على قدراته الغيبية . .

كان كاجليوسترو قد اصبحت له رسالة ، وطريقته ايضا لكسب الرزق . كان الآن ،حينما يدخل مدينة اوروبية يتجه من فوره الى النقابة الماسونية ، ويلقي خطبا واحاديث عن « الطقس المصري » ، ويعمد بنفسه من يقتنعون به . ويبدو انه ذهب الى البندقية وبرلين ونورمبرج وليبزيج . وفي ليبزيج ، في اثناء حفل اقيم لتكريمه ، تنبأ بانه اذا رفضت النقابة الاعتراف بالطقس المصري ، فان رئيسها سيشعر بثقل يد الله قبل نهاية الشهر . وحينما انتحر الرئيس — وهو رجل يدعى سيكفورت بعد ذلك بقليل — اعلن الماسونيون في ليبزيج اتباعهم لنصيحة كاجليوسترو . واصبحت جولته في اوروبا موكبا ظافرا ينتقل من نقابة الى نقابة بينما كانت سمعته تتقدمه باستمرار . ويقول تروبريدج ، اكبر المعجبين به انه « لم يكن يتردد في تجنيد اتباعه عن طريق الخداع اذا لم يكن بوسعه —عن غير هذا الطريق — ان يؤثر فيهم » ، ولكنه يضيف ، بدقة لا يمكن الشك فيها ،انه لا توجد حالة واحدة يمكن فيها الظن بانه حصل لنفسه على اي فائدة شخصية من خلال ما قام به من خداع .

ولكنه تلقى ضربتين متتاليتين في كورلانه بالمانيا ، ثم في بطرسبرج ، حيث خانته زوجته مع بوتمكين عشيق الامبراطورة كاترين العظمى ، ثم وقعت تحت سيطرة طبيبي الامبراطورة اللذين كانا يكرهان زوجها حتى تمكنا من تحويلها ضده . فرحل كاجليوسترو الى ستراسبورج ليلعق جراحه .

ولكنه لم يذهب الى ستراسبورج في صورة المهزوم ، وانما في صورة الغازي المنتصر . دخلها بعربته ذات الجياد الثمانية ، اليابانية الطراز ، عليها الرموز والصور السحرية ، وحوله سبعة من الخدم في اردية حمراء فوق جياد سوداء ، وخرج الناس الى الشوارع للفرجة على الموكب الجميل . ولم يذهب كاجليوسترو الى الفندق الفاخر في المدينة وانما ذهب ليسكن في حجرة متواضعة فوق دكان بائع طباق في شارع ضيق . وبدا على الفور في توزيع الادوية والاحجبة ومعالجة المرضى . ولم يعد ثمة شك ان كاجليوسترو ، سواء كان افاقا او لم يكن ، في

انه حاول ان يعيش باعتباره ماسونيا حقيقيا . ومثلما فعل في ايكس قبل عشر سنوات حينما وزع امواله على الفقراء ، كذلك بدأ هنا يعيش باعتباره « محسنا كبيرا » يتصدق باموله او بعلمه .

بل انه رفض ان يعالج الاثرياء والارستقراطيين . لقد كان صاحب مثل اعلى: ان يعيد تجديد البشرية . فما الذي يجعله يضيع وقته في مقابلته الارستقراطيين المعتزين بآرائهم الجاهزة وفي اشباع فضولهم الكسول ؟ وحينما اراد الفيلسوف لافاتير ، صديق جوته ، ان يقابله ، اجاب كاجليوسترو : « اذا كان علمك اكبر من علمي ، فانت لست بحاجة الي ، واذا كان علمي اكبر من علمك ، فما حاجتي اليك ؟ » . ولكن لافاتير اصر على لقائه ، واصبح فيما بعد اكثر المدافعين عنه حرارة .

وهنا يدخل الكاردينال دي روهان في قصتنا . كان الكاردينال رجلا غريبا ، اميرا من اسرة البوربون ، طويلا ، وسيما ، ثريا ، هائل الجاذبية . ورغم مركزه الرفيع في الكنيسة ، فقد كان مولعا بالصيد والنبيذ والجنس الاخر . ولكن مأساة حياته ، هو أن الملكة ، ماري انتوانيت ، كانت تكرهه . وكانت امها ، ماريا تيريزا ، ملكة النمسا ، قد ابغضته بغضا شديدا حينما كان سفيرا في فيينا ، فراحت احلامه في ان يكون الكاردينال القوي ، شبيه ريشيليو ومازران وراء لويس السادس عشر ، تتضاءل كل يوم . ولكن ، كانت له مأساة اكبر ، بل واكثر غرابة : كان يحب الملكة . كان قد قابلها للمرة الاولى قبل عشر سنوات ، حينما كانت قادمة عبر ستراسبورج (التي كان روهان اسقفا لها) ، وكانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها في الطريق الى الانتقاء بزوجها . كانت بالغة الجمال ، ذات شعر اشقر بلون القمح الناضج ، وجسد نحيل كان سيزداد امتلاء فيما بعد . وحينما كان الاسقف (الكاردينال فيما بعد) يقدم المناولة اثناء القداس الى الاميرة الجاثية امامه ، وجد نفسه يحسد الزوج الذي سيكون بعد قليل صاحب الحق في عذريتها . ولكن هذا لم يكن هو ما سيحدث بالفعل ، بكل ما في ذلك من غرابة . فقد وجد ملك فرنسا المقبل نفسه عنينا حينما دخل الفراش مع زوجته . وفي يومياته لتلك الليلة كتب كلمة واحدة : « لا شيء » . ولكن الاسوأ من هذا ، هو ان الموقف سرعان ما اصبح شائعا معروفا في كل ارجاء اوروبا . وقال اطباء لويس ان المشكلة كانت جسمانية لا نفسية ، وانها يمكن ان تعالج بواسطة مبضع الجراح ، ولكن الملك (الذي ارتقى العرش عام ١٧٧٤) كان يخشى الالم ، فرفض الجراحة . وهكذا استمر طوال السنوات الست التالية ، يرقد كل ليلة فوق زوجته ، وتستمر النتيجة : « لا شيء » . ولا بد ان الموقف بدا للكاردينال باعتباره نوعا من خطيئة اهدار العطايا الطيبة ، فراح يعمق من انشغاله المؤلم المزمن بالشقراء الجميلة .

وبعد عشر سنوات من ذلك اللقاء الاول ، سمع الأسقف الكاردينال (في ستراسبورج) عن صانع المعجزات الذي كان يعيش الآن في نفس المدينة ، فارسل خطابا قصيرا الى كاجليوسترو ، يطلب فيه مقابلته ، ولكن طلبه رفض ، مثلما رفض من قبل طلب لافاتير . واجاب كاجليوسترو انه اذا كان الاسقف مريضا، فانه قادر على معالجته ، فاذا لم يكن ، فانه ليس بحاجة الى طبيب ، ولا حاجة للطبيب به . ولم ييأس الكاردينال ، وانما اعلن انه مصاب بالربو ، وطلب من كاجليوسترو ان يرعاه . وعلى الفور ، اثر كل منهما في الاخر . وقال الكاردينال فيما بعد انه شعر حينما راى كاجليوسترو انه يعيش تجربة دينية من نوع خاص ، وبذلك اصبح رجل الكنيسة الكاثوليكية الكبير احد تلامذة رجل قد يتهم بعبادة الشيطان او بالتعاون معه ، واحد اتباعه . بل انه شعر بالزهو حينما قال له كاجليوسترو يوما : « ان روحك جديرة بروحي ، وانك لجدير بان تعرف كل اسراري » . ولكن غالبية الارستقراطيين واسعي النفوذ لم يرق لهم ان يصبح كاجليوسترو مالكا لكل هذا التأثير على الكاردينال ، ووصفه بعضهم باهتمام بالغ في مذكراتهم ، ولكنهم اجمعوا على الاعجاب به والنفور مما يبدو فيه من شر كامن ، كان اعجابهم بما في الرجل من « خطورة » ولكنهم ايضا كانوا يخافون من هذا الشر .

واكتسب كاجليوسترو شهرة كبيرة ، ونجاحا فائقا في ستراسبورج ، كطبيب ومتخصص في علوم الغيب في وقت واحد . كان يعتمد احيانا على مجرد مايشيعه في نفس المريض من ثقة ودفء ، واحيانا على ما اكتسبه من مهارات فعلية ، واحيانا على مجرد الحظ . وفي سلسلة من المصادفات التي تمكن فيها من شفاء بعض الارستقراطيين البارزين من امراض عضال ، تحسنت سمعته بين الارستقراطيين . بل ان جلساته الروحانية في ستراسبورج لم تكن تقل نجاحا وتاثيرا ، خاصة بعد ان كشف عن قدرات خاصة في مجال الحاسة السادسة والتواصل الروحي عن بعد (التليباثي) .

... من الممكن ان يقوم شيء من الشك في ان كاجليوسترو لم يكن يعتزم ان يخدع احدا . كان لديه قدر عظيم من المال .. وكان الهدف الذي يسعى اليه بعد ذلك هو ان يدعم مركزه ، وان يصبح صديق الامراء ، وان يجدد الجنس البشري . فلم يكن يحتاج في هذه المرحلة الى ان يكون نصابا او مخادعا . كان قد اثبت قدراته المتنوعة اكثر من مرة وبطريقة مذهلة ، وحتى لو حدث وقاطعه الكاردينال ، فان اتباعه من الماسونيين سيظلون الى جانبه (وكانت نقاباته المصرية الخاصة ترسل اليه اشتراكاتها المالية الصغيرة ، ولكن المستمرة) .

اما بالنسبة للورينزا ، التي كانت الآن امرأة فاتنة في منتصف العشرينات ،

لقد كانت كفاتح الشهيـة للمدينة باسرها . ويقول كاتب الترجمة التابع لقضـاة التفتيش انها راحت تمنح نـفسـها للكثيرين ، مقابل المال بالطبع . ولكن مصـدرا اكثر ثقـة يقول انهـا بينمـاكانت تستطيع ان تستمر في اثارة عواطفهـم وان تقيدهم جميعا اليهـا بابتساماتها فيشعرون بالسعادة ، فانها ظلت مخلصة لزوجها . وهذا هـو الحق دون شك ، فقد كانا يعيشان تحت انظار الجميع ، وكان من الممكن لاقل نوع من الاستهتار ان يخرب حياتها وسمعتها ، هذا الى جانب ان زوجها كان قد صفح عنهـا بالفعل مرتين ، وربمـا لـم يكـن صبره يحتمل ان يمتـد للمرة الثالثـة .

ومن المؤسف ان كاجليوسترو لم يبق في ستراسبورج ، التي كان يستطيع ان يعيش فيهـا ما بقي من حياته في راحة كاملـة . ولكن كراهية الاطباء جعلتـه يشعر بالانزعاج وحرمته من الراحة ، رغم انه استطاع ذات مرة ان يكتشف جاسوسا سربوه الى منزله . فذهب الى نابولي لكي يرعى صديقا كان يعاني من مرض عضال ، ثم ذهب الى بوردو ، ثم رحل الى ليونز . ثم خضع لاصرار الكاردينال وطلباتـه المتلاحقة ، فذهب الى باريس ، وبذلك وصل الى بداية مرحلة سقوطه ، وبمعنـى اخر ، كانت الثورة الفرنسية تلوح في الافق .

لم يكـن العقد الممتد بين عامي ١٧٧٠ ، ١٧٨٠ عقدا سعيدا بالنسبة لروهان ، لان الملكـة كانت قد اصبحت تناصبه العداء صراحة ، وراحت تضيق عليه وتدمر فرص نجاحه العملي . فحينمـا اعتلى زوجهـا العرش ، حصلت منه على امر بعـزل الكاردينال ـ او الاسقف كمـا كان حينذاك ـ من منصبه كسفير في النمسا . ثم بذلت جهودا كبيرة لكي تمنعه من الحصول على لقب الكاردينال ، وعلـى مناصب رئيس ديوان الصدقات ، المحسن الاعظم ، والمدير العام لجامعة السوربون ، ورئيس دير سانت واتس في آراس ، ورغم فشلها في كل مرة ، فانها حرصت علـى ان تعلن عن غضبها الملكي وسخطهـا من خلال مئات المسائل الصغيرة . وكانت كلمـا زادت قسوة ، كلمـا زاد افتتان المعجب القديم بها . (وقد يفتـرض ان الاحباط الجنسي كان هو السبب الكامـن وراء سخطهـا على الكاردينال المندفع في تقدمه الى الامام ، ولكنها لم تكن قد بقيت عذراء منذ العشرين من يوليـو عـام ١٧٧٧ ، حينمـا استطاع الملك في النهايـة ان ينهض فيرقى الى مستوى الموقف . وبعـد اسبوع من ذلك ، كانت قادرة على ان تؤكد لوالدتها ان : « الموضوع قد تكرر » . ثم حدث فيمـا بعد ان انجبت ولدين وبنتا واحدة) .

وكان بحث الكاردينال الدائب عن امراة جميلة هو مكمن سوء الحظ في حياته ، وكان هـو الباب الذي ادى الى سقوطه ودماره ، والى سقوط كاجليوسترو ايضا . كان قد وقع في غرام امراة فاتنة تدعى « كونتيس دي لاموت » . واستطـاع ان

يقدمها في البلاط ،واعجبت بهـا الملكـة ـ ربمـا بدافع ان تسرق من الكاردينـال الكريه صديقة جميلة ـ فضمتها الى وصيفاتها ، واصبحت « وصيفة ظهر الملكة ». ولكن دي لاموت ـ التي ارادالكاردينال انيستخدمهاجسرا يوصله الى الملكةووسيلة لاقناعهـا بصداقته ، كانت ترسم خططها الخاصة للشراء . ولما فاتحها الكاردينال في ان تكلم الملكـة ، عادت اليه برد شفهي ، فلمـا سلمها خطابا مكتوبا ، عادتاليه ايضـا بخطاب مكتوب بتوقيع الملكة . وهكذا كتبت ديلاموت عشرات الخطابـات المزيفـة باسم ماري انتوانيت وتوقيعهـا ،حتى كتبت مـرة ان الملكـة تريد ان تشتري عن طريقه عقدا يبلـغ ثمنه مليونا وثلثمائة الف فرنك ،لا كهدية ، وانمـا باعتباره وسيطا لها . واشترى الكاردينال العقد، على ان تدفع الملكة الثمن بعد عدة شهور . وفي الموعد طالب اصحاب شركـة الجواهر بنقودهم ، وكانت دي لاموت تظـن ان الكاردينال سيدفع في صمت . ولكنه في الحقيقة لم يكـن ثريا بسبب اسرافه الهائل . ولم يدفع الكاردينال ، فحمل الصائغ القصة كلها الى الملكـة . التي انفجرت وشعرت بالمهانة ،وجعلت الملك يأمر باعتقال الجميع : الكاردينال ودي لاموت وكاجليوسترو (الذي كان كل دوره انه كان كاتم سر الكاردينـال وصاحب ثقته ـ وكان ايضا يصنعله احجبة وصورا للملكة حتى ترق له) وامـرت ايضـا باعتقال زوج دي لاموت ،وعشيقهـا الذي كانت تنفق عليه من اموال الكاردينال. اما روهـان فقد انتهت حياته الدينية والدنيوية تماما ، واصبح كاجليوستـرو اضحوكـة باريس واوروبا ،ببسـاطـة لانه لم يستطع ان يتنبأ لنفسـه ، ولا لصديقه، ولا للملكـة بكل هذه الكوارث. وجلدت ديلاموت عارية في ميدان عام ، ثم اطلق سراحها لكي تهرب الى انجلترا ، وتموت هناك بعد قليل لسقوطها من نافذة مرتفعة، ولكن بعـد ان نشرت كتاباعنحياتهـا ملأته بالاكاذيب عن جميع ضحاياها . اما الكاردينال ، فقد مات في بادن ،بعد حياة منعزلة هادئة عام ١٨٠٣ . وحينما ماتت ديلاموت ، كان كاجليوسترو نزيـلا في سجون التفتيش منذ عامين .

كان كاجليوسترو ، في قصة الكاردينال والملكة ، هو المتفرج البريء . ولكنه كـان اسواهم مصيرا ، رغم ان ماري انتوانيت ماتت على المقصلة . فقبل القـاء القبض عليه ، كان ثريا، مشهورا يتمتع باحترام الكثيرين . ولكن السجن الانفرادي في الباستيل حطم اعصابه تماما ، بالاضافـة الى انه كان مجنونا بالانشغال علـى زوجته التي كانت قد اعتقلت معه. وبعد سبعة شهور ، اطلق سراحها وتعاطف معها الجميع . اما كاجليوسترو ،فقد ظل في السجن لما يقرب من عام كامل ، اثر فيـه تاثيرا بالـغ السوء . ثم ترك انطباعا مضحكـا في المحكمـة ، حينمـا جاء : « يتعثر ثم يندفع في معطف اخضر من قماش التافتا الحريري المعرش بالذهب » وقـد تدلت خصلات شعره في دوائر مضمخة بالطيب الدهني على عنقه وكتفيه . وحينما ساله القاضي عمن يكون ،اجاب في صوت ممثل متجول صعلوك : « انا رحالة نبيل،

طفل الطبيعة السيء الحظ » فانفجر الحضور ضاحكين . وكان قد أعد للمحاكمة « قصة حياة » تبدوكما لو كان الهدف منها هو اثارة السخرية والتهكم . في هذه القصة زعم انهنبيلالمولد، رغم انه يجهل والديه ، وانه نشأ في بلاد العرب باسم « اشارات » ، وانه كان يملك مسكنا خاصا في قصر « المفتي صلاح اليوم » زعيم المسلمين والديانة المحمدية ، وانه قام بعد ذلك برحلات طويلة في آسيا وافريقيا ،ثميلتقيباستاذه ، الثوناس ، الذي يموت في مالطة وهو ممسك بيديه . وتجري القصة ،علىهذا النحو . ويبدو كاجليوسترو في المحاكمة كما لو كان قد فقد حسن تقديره وحكمته تماما .

وبعد تبرئته ، ذهب الى لندن ، منفيا بأمر الملك . وحاول هناك ان يقيم دعوى ضد حاكم الباستيل لكي يستعيد مبالغ ضخمة من المال والاشياء الاخرى سرقت منه اثناء القبض عليه ، ولكنه خسر القضية .. ووجه من لندن « خطابا الى الشعب الفرنسي »،لقي على الفور رواجا هائلا في باريس وبيعت منه كميات ضخمة . وكان هذا الخطاب مسمارا اضافيا في نعش النظام القديم . وتضمن الخطاب ايضا نبوءة لامعة ، بالنظر الى الاحداث التالية . فقد اعلن في الخطاب انه لن يعود الى باريسحتى يهدم الباستيل ويتحول الى منتزه عام ، وتنبأ بان الفرنسيين سيكون لهم امير او ملك يلغي الاوامر الاستبدادية بالسجن او النفي، ويدعو البرلمان (مجلس الامة) الى الانعقاد ، ووصفه بانه : « لن يرضى بان يكون رئيس وزرائه ، وانما سيهدف الى ان يكون رئيس الفرنسيين » . ولكن القول بان كاجليوسترو قد تنبأ بالثورة وبظهور نابوليون ، سيكون نوعا من المبالغة . انه لم يقل بأن الباستيل سوف يهدم، وانما قال انه لن يعود الى باريس قبل انيهدم ويتحول الى منتزه عام . ومع ذلك فمن المقبول القول بأن خطابه قد ساهم بالكثير في تحقيق النتيجة التي لم تكن بعيدة . وقد كان الملك نفسه هو الذي وجه الدعوة الى البرلمان ،رغمانالعبارة الاخيرة من السطور التي اشرنا اليها تتناسب مع نابوليون .

ولم تكن لندن ملجأ مناسبا له . فالماسونيون الانجليز لم يهتموا بالطقوس المصرية ، بينما نشرت مجلة : «كوريير دي ليروب » تحقيقا طويلا عن كاجليوسترو لا يقل ادانة له عن قصة حياته التي سجلها كاتب محكمة التفتيش ، وكشفت المجلة عن شخصيته الحقيقية على اساس انه « جويسيبي بالسامو » . وانتقل كاجليوسترو ولورنيزا الى بازل ، ثم تورين ، ثم الى قرية روفيردو في التيرول النمساوي ، ولكن الشرطة كانت تأمرهما بالرحيل على الفور . ولكنه عثر في مدينة ترنت بالنمسا على كاردينال سيميائي اخر ابدى استعداده لحمايته ، ولكن الامبراطور امره بان يغادر الاراضي النمساوية . وكانت زوجته قد فقدت جمالها ،

رغم انها كانت في بداية ثلاثيناتها ،ثم اضطرت الى بيع ماساتها ومجوهراتها حينما بدأت ثروتهما تتضاءل . واخيرا ارتكب كاجليوسترو خطـأه الاكبر بالذهاب الـى رومـا ، محاولا ارساء قاعدة الماسونية تحت انف البابا . وقد قبض عليه في عام ١٧٨٩ ، ولم يستعد حريته بعد ذلك ابدا . وكان الفاتيكـــان يشعر بالقلق ازاء المؤامرات الواسعة التي كان الثوار الفرنسيون يدبرونها للاطاحة بالكنيسة ،فضاعف الحراسة حول قلعـة سانت انجياو . ولا شك ان الهدف من محاكمة كاجليوسترو كان هو اعلان الحرب على الماسونية . ورد الماسونيون على قصة حياة كاجليوسترو التي وضعتهـا محكمـة التفتيش بكتيب صغير كان لـه تأثير اعظم بكثير من القصة، واقنع البابا بانه كان حكيمـا للتخلص من الماسوني الخطير . ونقل كاجليوسترو الى قلعة سان ليو ، حيث كانت الزنازين مصنوعة من الالواح المعدنية المأخوذة من احواض قديمة جافة او منحوتة من الصخور الصلدة . واصبح كاجليوسترو مدفونا وهو على قيد الحياة . ومات في عام ١٧٩٥ وهو في الثانية والخمسين من العمر . وماتت زوجته في احد الاديرة في عام ١٧٩٤ وكانت ما تزال تحت الاربعين . وحينما استولى الجنود الفرنسيون على سجن سان ليو عام ١٧٩٧ بحثوا عن كاجليوسترو، معتزمين ان يعاملوه باعتباره بطـلا ثوريا ، ولكنه كـان قد مات .

ولا شك ان هـذا الرجل البارز كان اخر السحرة ، وما يزال بعد قرنين من موته موضعـا لسوء الفهم مثلمـا كان اثناء حياته . وعلى الرغم من اتساع جـانب المهرج في شخصيته ، فلا شك انه كان ساحرا حقيقيا . وقد اعتبر نفسه صاحب رسالة، وراح يدعو اليهـا ويتابعهـا معتمدا على عقله وحده . وقد احب الحيـاة الثرية ، ولكنه ايضا كان بالغ الكرم ــ وهي الصفة التي ربمـا كانت العلامـــة الاساسية على الرجل الطيب . ومثلمـا اشار هـو نفسه في محاكمته ، لا يكـاد يوجد دليل واحد يعتد به على انه انزل الضرر بانسان واحد اثناء حياته غير العادية، ولا يمكن الشك فـي انه اسدى الكثير من الخير . ومن العجيب ان حياته ، مثل حياة الكثيرين ممن تناولناهم قبله ، اجريبا وباراسيلساس وجون دي وكازانوفـا وميسمير ــ قد بلغت ذروة معينة ثم بدأت في الانحدار المستمر دون تـوقف . ويبدو هذا كما لو كان سمـة مميزة لكل السحرة ، ومن الممكـن ايضا ان نـرى نفس الظاهرة في حياة مدام بلافاتسكي واليستر كراولي وراسبوتين .

ولقد تركت عامدا، واحدة من ابرز تنبؤاته للنهاية ،لانها تتضمن « علم الارقام » المعقد . وقد اطلق كاجليوسترو هذه النبوءة اثناء اجتماع ماسوني خـلال فتـرة اقامته الاخيرة في باريس ، في بيت المستشرق الكونت دي جابلان .

واوضح كاجليوسترو للمجتمعين ان لكل حرف من حروف الابجدية قيمته العدديـة او مقابله من الارقام ــ وهو قانـون اساسي من قوانين الكابالاه . ثم شرح

المذهب او النظام القائم على هذه القاعدة بشكل كامل ، محللا اسماء كاترين دي ميديتشي ، وهنري الثالث وهنري الرابع ملكي فرنسا . واوضح لهم ، انه حينما تجمع الارقام المقابلة للحروف التي تكون اسماءهم ، فان النتيجة (حاصل الجمع) يمكن ان « يقرأ » كما تقرأ خريطة المنجم . ثم بدأ يطبق نفس المنهج على اسمي كل من لويس السادس عشر وماري انتوانيت . وقالت نبوءة الملك انه يجب ان يحذر الموت على المشنقة قبل ان يبلغ التاسعة والثلاثين ، وقال كاجليوسترو: « محكوم عليه بان يفقد راسه حينما يثبت انه يتحمل جريرة الحرب » . وقال عن ماري انتوانيت :« ستكون سيئة الحظ ، تعيسة في فرنسا ، ملكة دون عرش ولا نقود ،تتجعد بشرتها قبل الاوان بسبب الحزن والهم ، وتعيش على طعام بائس، وشجن ، وينقطع راسها » .

وقد اقام كاجليوسترو علم ارقامه على اساس المنهج الذي وضعه كورنيليوس اجريبا القائم على اساس الابجدية العبرية . وفي هذا المنهج ، تتقابل الارقام من واحد الى ثمانية مع الحروف التالية ، المرتبطة بها :

1 - A , I , Q , J , Y
2 - B , K , R
3 - C . G , L , S
4 - D , M , T
5 - E , H , N
6 - U , V , W , X
7 - O , Z
8 - F , P

وطريقة ايجاد « رقم شخص ما » .. هي ان تأخذ حروف الاسم الاول والاسم الاخير ، وتجمع الارقام المقابلة لها ، ثم تجمع حدّي الرقم الذي تحصل عليه (اذا كان حاصل جمع حروف الاسم ٤٤ مثلا ، كان الرقم الدال على شخصية صاحب الاسم هو ٨) . اما دلالة كل رقم من واحد الى تسعة فهي كالتالي :

واحد: رقم يدل على المباشرة والطموح والقوة . صاحبه شخصية رائدة مبتكرة ، لا ينتظر ان يكون له اصدقاء كثيرون او مساعدون مخلصون . قادر على الشفقة والكرم ،ولكنه قادر ايضا على القسوة والخلو من الرحمة . وقد لخص ييتس الشاعر العظيم ، شخصية صاحب الرقم « واحد » في السطور التالية :

ليس من ابله يستطيع ان يدعوني صديقا
وقد اتغذى في نهاية احدى الرحلات
بلحم لاندور ولحم دون .

ويمكننا ان نكتشف ان حاصل جمع حروف اسم وليام بتلرييتس هو « واحد » ، وفي هذه الحالة تضاف حروف الاسم الاوسط لان ييتس كان معروفا ب « و . ب . ييتس » وليس باسم وليام . ولكن الشيء الغريب تماما ، هو انه اذا اضيفت حروف اشهر اسماء تدليله ، وهو « ويلي » فان حاصل الجمع سيكون « واحد »ايضا .

اثنان : هذا هو عكس الرقم السابق،يدل على شخصية متوازنة توازنا حسنا، ورقيقة مهذبة . ويتحدث ريتشارد كافنديش في كتابه « الفن الاسود » عن هذا الرقم باعتباره رقما شريرا وانثويا. ويستطيع اصحاب الرقم « اثنان » ان يصطنعوا تابعين ومساعدين بشكل جيد ، ولكنهم قد يكونون شديدي الحساسية، يسهل وقوعهم في قبضة الكآبة والانقباض . ومثلما ان الجانب السلبي للرقم « واحد » هو الاسراف في تأكيد الذات والثقة البالغة في النفس ، ورفض الاعتراف بالخطأ (وهو ما يدعوه فان فوجت ب « رجل الصواب الدائم الرجل الذي سيتمسك بجنون بانه على صواب في وجه كل دليل يثبت عكس ذلك) كذلك فان الجانب السلبي للرقم « اثنان » هو الخداع والمراوغة او التذبذب وعدم الثبات .

ثلاثة : رقم التنوع وتعدد الجوانب والوفرة . رقم الحظ السعيد بشكل تقليدي (يقال محظوظ ثلاث مرات) .اصحاب الرقم « ثلاثة » ،مرحون ،جذابون، قابلون للتكيف ،طيعون ، موهوبون ، محظوظون ، ولكنهم قابلون الى ان يوجهوا وجهة مخالفة ، يبذلون الكثير من حياتهم من اجل ان يحصلوا على استحسان الاخرين واعجابهم .

اربعة : هذا هو الرقم « الكامل » الذي تحدث عنه الفيثاغوريون . يشير الى المداومة والاستمرار وقوة التحمل وثبات الهدف والهدوء . ويعني ، في جانبه السلبي ، الوقار والكآبة ، اي « الانغلاق » بالمعنى العامي الحديث . ولما كان ايضا هو رقم الارض، فانه قد يشير ايضا الى النيران القوية الدفينة تحت السطح والتي قد تنفجر احيانا في شكل زلازل او براكين .

خمسة : هذا هو رقم السحر ، النجمة الخماسية. اصحاب الرقم « خمسة » محبون للمغامرة . وهم محظوظون ايضا ، ولكنهم ميالون الى عدم الاستقرار أو عدم الثبات ، وغرابة الاطوار والشذوذ، ممتلئون بالطاقة العصبية ، ميالون الى التباهي والتفاخر ، محبون للنساء ، وغالبا للمشروبات الكحولية ايضا .

ستة : هذا هو رقم الانسجام والثقة والرسوخ الذي يعتمد عليه . في افضل جوانب اصحاب هذا الرقم ، فانهم يكونون عطوفين ، محبين للسلام ، ثابتين ، محبين للبيت والاسرة . وفي اسوأ جوانبهم يميلون الى التفاهة والصغار ،ينشغلون

بالتفاصيل ، ويهتمون بالتنميق الشكلي . ولما كان رقم « الستة » يقبل القسمة على الاثنين وعلى الثلاثة ، فانه يرتبط بقوة بخصائص الرقمين جميعا .

سبعة : رقم سحري آخر ، انه رقم الاسرار والغموض والتصوف . قد يكون اصحابه مضطربين نفسيا وعادة ما يكونون منطوين على انفسهم مركزين على افكارهم الداخلية ، اكثر اهتماما بالواقع الداخلي منهم بالعالم الخارجي . انهم متباعدون ، مسيطرون على ذواتهم ، وقورون . وفي جانبهم السلبي ، قد يكونون بعيدا عن الواقع لا يلامسونه، عاجزين بلا كفاءة ، غامضين .

ثمانية : هذا رقم ميمون سعيد ، يدل على العزيمة والنجاح . ولاصحابه علاقات قوية برقمي اربعة واثنين . انهم يتمتعون بالصلابة ، والاتزان الكامل ، قادرون على بذل الجهود الطويلة المدى والتركيز العظيم . وفي جانبهم السلبي ، قد تصل بهم نفس صفاتهم الى الصفاء والاصرار على المضي في الطريق الخطأ ، حيث تتحول المميزات الايجابية الى مميزات سلبية ، ويصبح النجاح فشلا .

تسعة : هذا هو الرقم الملكي ، الذي يرتبط بدرجة عالية من القدرة على الابداع والخلق (عرائس الفنون التسع) والانجاز الروحي . في افضل حالات اصحابه يكونون شعراء واصحاب رؤى ، وفي اسوأها يصبحون متقلبين سريعين الى التأثر والاستثارة ، مستسلمين لنوع كثيف وحاد من الرومانتيكية .

ولا بد لكل من يحاول تجربة هذا المنهج من ان يحقق بعض النجاحات المدهشة . ولقد اشرت من قبل الى ان ييتس كان صورة نموذجية للرقم «واحد» . وحاصل جمع حروف اسم برناردشو هو « تسعة » . ومن الممتع حقا، ان ريتشارد كافنديش ، يضيف ان اصحاب هذا الرقم كثيرا ما يقعون في الحب ويتخلصون منه ، ويقتطف قول شيرومن ان اصحاب الرقم « تسعة » كثيرا ما يتعرضون لضرورة اجراء العمليات الجراحيةبسكين الجراح . والصفتان جميعا تنطبقان انطباقا كاملا على برناردشو .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بان مرات الفشل يمكن الا تقل عن مرات النجاح . حاول مثلا ان تفكر في شخص نموذجي للرقم « ثلاثة » ــ المتنوع الجوانب ، المحظوظ ، المحب للناس . ان فيليكس مندلسون يبدو كما لو كان متطابقا مع هذه الاوصاف بدقة شديدة . ولكن حروف اسمه تتقابل مع ارقام حاصل جمع مدى الرقم الناتج عن حاصل جمعها ، هو « اربعة » ، « المتوازن ، الكئيب » . وكان وليام بليك جديرا بأن يكون رقم « تسعة » او « سبعة » على الاقل . ومع ذلك ، فان هذا الرجل ، الذي يعد من اكثر الناس انطواء وامتلاء بالرؤى هو من اصحاب رقم خمسة . : رقم المغامرة والتفاخر والمباهاة الكاذبة ، الذي يمكن

ان يناسب كازانوفا او كاجليوسترو اكثر من بليك . ولكن كازانوفا يتبع رقم « ثمانية » ويتبع كاجليوسترو رقم واحد . غير ان هذه الحقيقة لا يمكن ان تكون مصادفة عارضة ، لان حروف اسم « جويسيبيبي بالاسمو » تحمل رقم « ستة » ، وهو رقم يمكن ان يتناسب مع شخصية « مستر برونلو » التي ابدعها ديكنز ، او مع شخصية « مستر بوللي » التي ابدعها ويلز . اما اوسكار وايلد الذي كان يمكن ايضا ان يكون من اتباع رقم ثلاثة ، فيتبع رقم ثمانية الذي يشير الى قوة العزيمة وقوة الارادة . صحيح انه حقق نجاحا هائلا ، ثم تحول نجاحه الى فشل هائل ، ولكن هذا التحول يبدو اقرب الى التأرجح والاهتزاز والذبذبة ، اكثر منه هدفا لا مهرب منه .

وهناك منهج آخر ، اكثر حداثة لعلم الارقام يكتب الارقام من واحد الى تسعة ، ثم يكتب حروف الابجدية بعدها ، بهذا الشكل :

1 - A , J , S
2 - B , K , T
3 - C , L , U
4 - D , M , V
5 - E , N , W
6 - F , O , X
7 - G , P , Y
8 - H , Q , Z
9 - I , R .

ومن الممكن الحصول على معلومات اكثر من الاسم نفسه بجمع الارقام المقابلة لحركات النطق فيه ، وهي التي تشير الى الطبيعة الداخلية للشخص المقصود . اما حاصل جمع الحروف الساكنة وحدها فيدل على الشخصية الخارجية ، الواجهة الاجتماعية للشخص .

ولا ينبغي ان ننسى القول بأن علم الارقام يتضمن ما هو اكثر من هذا بكثير ، فعلى سبيل المثال يستفيد المشتغلون بعلم الارقام من التنجيم ، والعكس صحيح ايضا ــ فالعلمان مرتبطان ارتباطا شديدا . ولا شك ان نبوءة كاجليوسترو كان لا بد ان تستلزم عملا شديد التعقيد من اجل استنتاج واستخلاص تلك الاجوبة التفصيلية من « العراف » القديم . ويشعر المرء باغراء شديد لصرف النظر عن القصة كلها بوصفها قصة اخرى مختلقة ومليئة بالتزييف عن احد السحرة . ولكن هناك تنبؤات اخرى عن نفس الموضوع ، وهي تستمتع بمصادر لا يرقى اليها الشك بالفعل ، مما لا يترك مجالا للشك في امكانية مثل هذه

النبوءات في ظروف مناسبة . فقد حدث ان جاك كازوت ، الملكـــي النزعـــة وكاتب روايـة « الشيطان المحبوب» حدث ان تنبأ بالثورة وبشيء من التفصيل في عام ١٧٨٨ في مأدبة عشاء اقامتهـا الدوقـة دي جرامونت . ومن الواضـح ان كازوت ـ المشتغل بعلوم الغيب ـ قد تفجر في ذهنه ما لا يمكـن ان يوصف الا بالالهام ، حيث استطاع ان يتنبأ بمستقبل عدد كبير من الحاضرين . فقد قـال لكوندورسيه انه سيتناول السم لكي يخـدع الجلاد ، وان تشامفـورت سيقطـع شريـان يده ولكنه سيموت بعد ذلك بعدة شهور ، وان المنجم مسيو بيلـي سيموت ممزقـا بايدي الغوغاء ، وان الدوقة دي جرامونت ستموت بالمقصلة ، وان الوحيد ممن سيحكم عليه بالاعدام ، الذي سيسمح له بالاعتراف امام كاهن ، سيكون هو الملك نفسه . وكان من الحاضريـن المفكر الملحـد جان دي لاهارب ، كان شديـد الشك ، فكتب نبوءة كازوت على الفور بتفاصيلها ، وكان كازوت قد تنبأ لـه بأنه سيصبح مسيحيا ، وفي الحقيقة اصبح لاهارب راهبا ، وقد وجدت النبوءة بيـن اوراقه بعد وفاته عام ١٨٠٣ . وبعد قرن من العثور عليها ، قام الدكتور والتربورمان بفحص دقيق للنبوءة وقارن بينها وبين مصائر الاشخاص المذكوريـن فيها على ضوء ما ذكر عنهم في صحف ذلك العصر والمذكرات الشخصية والخطابـات . بل ان البارونة دوبيركيرش تذكر نفس النبوءة في مذكراتهـا التي طبعت عـام ١٨٥٢ : فهي تصف امسية في صالـون بيتها ناقشهـا الحاضرون فيهـا ، وكان الماركيـز دي بيوسيجير (مكتشف التنويم المغناطيسي) قد جاء معه بوسيط ، فسألوه عن تفاصيل النبوءة ، فراح يذكـر المزيد من تفاصيلهـا وعن مصائر اخرين ممن كانوا حاضريـن في مأدبة الدوقـة دي جرامونت ، وقـد ثبتت صحة كل هـذه التفاصيـل فيمـا بعـد .

ولكن من الضروري ان نقرر اننـا نستخدم كلمـة « العلم » هنـا استخداما مجازيا . ليس هناك « علم » للتنبؤ ، سواء كان متعلقا بالنجوم او الارقام او باطن الكف او اي شيء آخر . انما يعتمـد كل شيء على موهبة « المتحسس » للمستقبل . لقد « استخدم » كاجليوسترو الارقام ، ولم « يستشرها » . ورغم هذا فهناك دائما اختلاف بين الطرق المتبعة في استخدام كل وسيلة منها ، ومرة ثانية لا يعود هـذا الاختلاف الى اي اختلاف « منهجي » وانما يعود الى الفوارق الشخصية والمميزات الخاصـة لكل « موهبة » فردية على حدة .

... ثمة كلمة اخيرة عن كاجليوسترو وعن « مأساته » . من ناحية لم يكن العصر الذي عاش فيه هو عصر « السحرة » رغم انه كان عصر الكثيرين من الفنانين العظام ، وبين الموهبتين علاقة وثيقـة . ومن ناحية اخرى لم يكن كاجليوستـرو ـ باعتباره ساحرا ومثله في ذلك مثل اسلافه الذين تحدثنا عنهم ـ قادرا علـى

الاكتشاف الموضوعي والتحليل الهادىء للظروف الخارجية المحيطة به . كان يعتمد على قدراته الخاصة على التأثير في الناس وجاذبيته وذكائه وتمكنه الدائم من النفاذ الى قلوب الناس ومشاعرهم . وبذلك فقد القدرة على « الحكم » السليم والتقدير الصحيح للامور . لقد حطمته فترة السجن في الباستيل . وكان كل ما يحتاجه هو الاعتكاف في مكان هادىء لمدة سنتين اخريين حتى يستجمع قواه ببطء من جديد ، وحتى يحقق ما حققه وردزورث من بعده فيستعيد قوته وتفاؤله. ولكنه بدلا من ذلك اندفع الى المجادلات العقيمة والمماحكات غير المجدية. كان يحتاج الى هاتين السنتين من العزلة ، حتى يتمكن مرة اخرى من الدخول في تيار التاريخ الصاعد فيتحول الى بطل ثوري مثلما فعل الكاردينال روهان في الحقيقة . ان سقوطه لا يرجع الا الى ضعف القدرة على التقدير الصحيح وعلى الحكم السليم . وكان سقوطه « تراجيديا » لا مهرب منه ولا نجاة .

*

اذا كانت قامة كاجليوسترو تتزايد وترتفع كلما تعمقنا في بحثه ، فان العكس هو ما يصدق على « الساحر العظيم » الاخر لتلك الفترة ، كونت سانت جيرمين . يبدأ الفصل الذي كتبه عنه كيرت سيليجمان بعبارات تقول : « من كان ومن اين جاء ؟ لم يحل هذا اللغز ابدا » ان تواريخ مولده وموته مجهولة . واشياء وافعال لا تصدق تنسب اليه وينسبها هو الى نفسه . لقد وصفه فريدريك الاكبر بانه الرجل الذي لا يستطيع ان يموت، وقد اكد الكونت نفسه انه عاش الفي عام ... وكان يستطيع ان يتحدث بالفة شديدة عن ثرثرته مع ملكة سبأ وعن احداث رائعة وقعت في زواج كانا .. »

انه قادر على ان يبدو اكثر السحرة اثارة على الاطلاق . ولكن يبدو ان سيليجمان لم يكن يعرف نتائج بحوث جوستاف برتولد فولز في العشرينات . فقد كشفت هذه البحوث انه رغم ما يبدو على سانت جيرمين من انه اكثر رقيا من الناحية الذهنية واكثر ثقافة من كاجليوسترو فانه لا يزيد في الحقيقة عن الممثل الماهر . وحينما فحص فولز شهادات وكتابات المعاصرين تبين انه لم يظهر اية كفاءة خاصة تزيد عما اظهره كاجليوسترو ، ولكنه كان شخصية مسرفة في التفاخر والمباهاة ماهرة في الاعلان والدعاية لنفسها . وقد استطاع كازانوفا ، الذي كان دائما ما تبهره استعراضات الثقافة الرفيعة والسمو الذهني ، استطاع ان يكشف تهريجه على الفور ، ثم راح يتسلى باغاظته و « الضغط على دمله » في اثناء رحلتهما المشتركة في بعثة دبلوماسية الى لاهاي . ولكن لم يكن على كازانوفا ان يبذل الكثير من الجهد لكي يكشفه ، فان سذاجته وافتقاره الى المرونة واللباقة سرعان ما ادتا الى سقوطه ، فكان عليه ان يهرب الى انجلترا .

ولكن يبقى رغم كل هذا سر واحد : اصله ومن اين جاء . ولا بد من ان نضع في اعتبارنا ان مثل هذا الموضوع لم يكن من الصعب ان يظل سرا غامضا في تلك الايام . كانت وسائل الاتصال سيئة للغاية ، وكانت معظم سجلات المواليد والموتى مقصورة على ما تقوم به الابرشيات الحلية . وربما كانت الرواية القائلة بان سانت جيرمين كان ابنا لجامع ضرائب في سان جيرمانو وانه ولد عام ١٧١٠ هي الرواية الصحيحة . ولكن لا يعرف اي شيء مطلقا عن حياته قبل الاعوام التالية لعام ١٧٤٠ . حيث يبدو انه ظهر في فيينا وتعرف ببعض الارستقراطيين ، من بينهم الكونت زابور ولوبسكويتز . ثم تعرف هناك ايضا بالماريشال الفرنسي « بل ـ ايل » الذي جاء به الى فرنسا . ولم يحل عام ١٧٥٨ ـ حين كان من المفروض انه قد بلغ اواخر اربعيناته ـ حتى كان شخصية مقربة تماما عند لويس الخامس عشر وعند عشيقة الملك مدام دي بومبادور (التي يفترض ان العقد الماسي الشهير كان يشترى لها) .

ويصفه كازانوفا ـ الذي التقى به في هذه الفترة تقريبا ـ بانه من ابرز القادرين على الكلام وتبادل الاحاديث ممن التقى بهم في حياته ـ وهذه ملاحظة تقدير لها اعتبارها ، من رجل كانت له مواهبه المؤثرة . انه يصف سانت جيرمين بانه باحث ولغوي وموسيقي (ومغن ايضا ، اذ كان يتمتع بصوت بالغ العذوبة في الغناء) وكيميائي ، ووسيم ايضا (الصفة التي كان يفتقدها كازانوفا ، اذ انه كان داكن اللون ، معقوف الانف) . وكان رجلا محببا عند النساء تماما ، خبيرا بملاطفتهن ، كثيرا ما يهديهن مادة لدهان الوجه لاخفاء التجاعيد ، لا بد انها كانت تكلفه غاليا ، ولكنه كان يهديها بسخاء . ومن المحتمل ان يكون قد اقترب من الملك من خلال مدام دي بومبادور .

وكانت «الحيلة السحرية» التي يستخدمها سانت جيرمين هي زعمه انه لا يأكل ابدا ، وانما يعيش على نوع غريب من الطعام او « اكسير » يعده لنفسه بنفسه . كان يجلس في مآدب العشاء التي يدعى اليها ، ليستمر في تسلية الآكلين باحاديثه ، رافضا ان يتناول اي طعام او شراب . وكان يفسر ذلك مبتسما بانه اكبر سنا بكثير مما يبدو ، ثم ينكر ما يزعمه الناس من انه يبلغ من العمر خمسمائة عام . ويقول كازانوفا انه كان يؤكد بهدوء انه يبلغ من العمر ثلاثمائة عام فقط . وكانت معرفة سانت جيرمين بالتاريخ كبيرة الى درجة ملحوظة ، حتى انه كان قادرا على ان يردد الاحاديث التي تبادلتها شخصيات تاريخية بارزة بطريقة توحي بانه كان حاضرا مشتركا في الحوار . فاذا ما سئل ان كان قد « حضرها » بالفعل ، كانت اجابته مجرد ابتسامة غامضة . لقد استطاع ان يطور فن الايحاء بما هو وهمي وان يحوله الى احد الفنون الجميلة .

ماذا كانت منجزاته الحقيقية ؟ لقد كان لغويا ممتازا ، كما يبدو انه اكتشف سلسلة غريبة من العمليات لصباغة الحرير والجلد . وهذا هو ما يوحي بان هوى حياته الثابت كـان علم الكيمياء . فحيثما استطاع ان يقنع احد الاثرياء من رعاته بان يوفر له الطعام والماوى ، كان يقيم معملا كيميائيا على الفور . وكـان منتصف القرن الثامن عشر هو عصر ما قبل الكيمياء . وينتمي علماء الكيمياءالكبار، بريستلي وكافنديش ولافوازييه الى السنوات الاخيرة من هذا القرن . ولكن يبدو ان سانت جيرمين كان مشغـولا بالمعادن والاصباغ بدلا من البحث عن تكوين الماء والهواء . وكانت معرفته بالكيمياء حقيقية واصيلة ، كما كانت جاذبيته وثقافتـه حقيقيتين واصيلتين . ودفعته نزعة « مسرحة » ما ألى انيدهش الناس الى جانب تسليته عنهم ، ومن هنـا جاءت تلـك التلميحات الذكية الى وجوده فـي عرس كانا او اقتصاره على تناول نوع من الطعام السحري . (والاجابة البسيطة على هذا اللغز هي انه ربمـا كان نباتيا ، متنسكا طبيعيا نفـر مـن الاسراف فـي الشرب والنهم الى الطعام الذي كـان يشاهده كثيرا على موائد الاغنياء) (*)

وقد بلغ ميله المسرف الى التفاخـر ان وصفه الكونت فارنشتيت فـي عـام ١٧٠٩ بانه :« اكبر مهرج ، ابله ، ضارب طبول ، منتفخ وفـارغ كفقاعـة هواء ، ونصاب » . ورغم هذا فأناسلوبه كان اقلزخرفة وتنسيقامن اسلوب كاجليوسترو، وكان قادرا على ان يترك في الاذهان انطباعا واضحا عن هدوئه وتواضعهواتزانه. ويقول أ.م. بتلر ان علاقاته مع الاثرياء الذين قاموا برعايته دائما ما ب « تضمنت نوعا من تتلمذهم عليه » بما يعني انه كان يهدف الى اثارة اهتمام العقل الى جانب رغبته في اثارةالتعجب والدهشة لدى من يرعاه ، ومال دائما الى اتخاذ مكانةالمعلم والاستـاذ ومن الغريب تماما انه كان ماديا ، أعلن ان همه الوحيد هو خيرالبشرية.

مـن الممكـن لاي انسان ،حتى اكثر الناس ثباتا وتماسكا ، ان يبدو كما او كـان عدة اشخاص في وقتواحد في عيون مراقبيه المختلفين . ومن المؤكـد ان شخصا هدف بوعي الى ان يجتذب انظار الناس وتعمد ان يكـون زئبقيا مراوغـا مثل سانت جيرمين ان يثير قدرا كبيرا من الخلاف في الراي حوله . لقداستطاع ان يفرض نفسـه وصداقته علىراعيه الاخير ، الامير تشارلس ، امير قلعة هيس ، ضد ارادة الامير الى حدكبير،وانتهى الامر الى ان الامير تعلق به الى درجة انـه صدم صدمة قوية بموت سانت جيرمين (في عام ١٧٨٤) وكتب يقول : « ربمـا كان هذا الرجل واحدا من اعظم الحكماء الذيـن عرفهم العالم . . » (**)

(*) ث.هـ. هوايت ـ « عصر الفضيحة » ، حيث يقدم المؤلف صورة ممتعـة لعادات الطعـام المدهشـة في هـذا العصر .

(**) اسطورة الماجوس . ص ١٩٩ .

ويبدو من حياته المعروفة انه عاشها تحت حماية مثل هؤلاء الرعاة . فبعد ان فشلت مهمته الدبلوماسية التي كلفه بها لويس الخامس عشر (وكان مكلفا بأن يتحسس امكانيات البحث عن السلام بين فرنسا وانجلترا) وكان الفشل راجعا الى تدخل وزير الخارجية الفرنسية ، الدوق دي شوازيول (الذي كان يبغضه) هرب الى لندن ، ثم ابتاع فيما بعد مزرعة في هولندا ، واتخذ اسم الكونت سيرمونت . واوشك ان يجمع ثروة طائلة عن طريق تسلية الاثرياء في المحافل الراقية بعملياته الكيميائية التي كانت تتضمن اعمال الصباغة وعمليات : « زيادة قيمة المعادن » او « زيادة نبلها » . ثم ارغم على ان يختفي عن الانظار لفترة ما ، وقد اخذ معه مائة الف جولدن ، ولكن المصانع التي اقامها لم تزدهر ابدا . ويبدو انه امضى السنوات العشر التالية او نحوها في روسيا ، واستطاع ثانية ان يصادق بعض ذوي المكانة ، وكان من بينهم الكونت الكسي اورلوف ، احد المهندسين الرئيسيين وراء المؤامرة التي وضعت كاترين العظمى على عرش القياصرة ، وبطل معركة تشيزميه (١٧٧٠) حيث انتصر الاسطول الروسي على الاسطول التركي . ويعتقد أ.م بتلر ان سانت جيرمين ساهم بنشاط في المجهود الحربي الروسي ، فنصب جنرالا في الجيش الروسي وأطلق على نفسه « الجنرال ويل ـ دن » (بما يعني الجنرال البارع ، صاحب البراعة « Well - done ») وحينما عاد الى نورمبرج عام ١٧٧٤ ، ادهش دون براندبرج الكبير margrave تشارلس الكساندر ، وقد اصاب رفعة كبيرة وتحسن وضعه حينما عانقه اورلوف امام الناس . ولكنه قال للمارجريف ان اسمه الحقيقي هو « الامير راكوتزي » وانه آخر من بقي من سلالة اسرته ، وانه يخفي هويته لكي يتجنب الاغتيال . وفي عام ١٧٧٥ ، علم المارجريف ان اخر ثلاثة تبقوا من سلالة راكوتزي (*) قد ماتوا ، وان ضيفه المنكب على الدراسة . والبحث ، والمقيم في عزلته في قلعة تريرسدورف ، كان هو المغامر الذي غير قناعه اكثر من مرة ، وان احد اقنعته كان اسم « سانت جيرمين » . ولما جاء به الدوق الكبير لاستجوابه ، لم يملك سانت جيرمين الا الاعتراف ، ولكنه اكد انه لم يحدث ابدا ان ارتكب ما يخل بالشرف تحت اي قناع من اقنعته الكثيرة ، وانه لم يلجأ الى التنكر وتغيير اسمائه الا لكي يخدع من يحاولون اغتياله . غير انه اصر على انه « آخر » من تبقى من سلالة راكوتزي . ولكن الدوق الكبير رفض ان يصدق ، واضطر سانت جيرمين الذي كان قد طعن في السن الى معاودة الارتحال في عام ١٧٧٦ . وتجاهل فريدريك الاكبر رسالته التي بعث بها يطلب فيها الرعاية ، رغم ان هناك من الادلة ما يثبت ان سانت جيرمين قد

(*) Rakoczy او Rakotsky الاسرة الملكية المجرية الاخيرة ، التي بدات بالملك جورج الاول عام ١٥٩١ وانتهت بهزيمة فرانسيس الثاني الذي هزم عام ١٧٠٨ وهرب الى بولندا واصبحت المجر جزءا من الامبراطورية النمساوية . (هـ . م) .

عمل دبلوماسيا سريا (اي جاسوسا) للملـك البروسي ، خلال الفترة التي كـان على علاقة وثيقة اثناءها بالاسرة الملكية الفرنسية (وقد كان هـذا الشـك هـو الذي جعل من شوازيول عدوا لـه) .

وفي لايبزيج ، امر الامير فريدريك اوجتس ، دوق برونزويك ، بالتحقيق معه والقيام بفحص شامل ودقيق لافكاره واعماله . وكان الدوق هو « الاستاذ الاعظم » لاتحادات الماسونيين في بروسيا . وانتهى الامر الى رفض اعتباره ماسونيا (وقـد زعم سانت جيرمين في التحقيق انه ماسوني من الدرجة الرابعة ، ولكنه ادعى انه نسي كل الاشارات والعلامات السرية) . ولكنه عثر لحسن الحظ على اخر رعاته ، الامير تشارلس ، دوق « هيس كاسل » في عام ١٧٧٩ ، فامضى السنوات الاخيرة من عمره تحت رعايته. ولا بد انه كان يبدو في نحو الثمانية والثمانين حينما قابل الامير ، رغم انه لم يكـن قـد تجاوز اواخر الستينات من عمره . ولما اسكن فـي حجرة رطبة ، اصيب بالروماتيزم ، وبدات تنتابه حالات من الانقباض والكآبة فـي سنواته الاخيرة . ورفض الكثيرون ان يصدقوا موته ، بعـد ان اعلن موته رسميا وهو في الرابعة والسبعين من عمره. وقد ذكـر شهود تحترم كلمتهم انهم شاهدوه بعد ذلك بثلاثين سنة ، وتقول قصة اخرى انه اكد لبعض الناس انه سيعيش خمسة وثمانيـن عاما في جبال الهيمالايا قبل ان يعود للظهور في اوروبا . وقـد اعلنت مدام بلافاتسكي انه كـان واحدا من « الاساتذة السريين » المختفين في التبت .

وربمـا كان من الواجب ان نقدم اخر ما سنقوله عنه ، على لسان شاهد غير معاد له ، هو سفير بروسيا في درسدن ، الكونت الفيسلبيين ، في عام ١٧٧٧ :

« انه رجل رفيع الموهبة يملك عقلا بالغ اليقظة، ولكنه محروم كلية من القدرة على الحكم وحسن التقدير ، ولم يستطع ان يحرز سمعته الفريـدة الا باستخدام ادنا واحط وسائل التملق والمداهنـة التي يستطيعها الانسان ، بالاضافة الى مـا تمتع به من فصاحة مدهشة تلفت النظر ، خاصة اذا مـا ترك من يستمع اليـه نفسه يستسلم لنكهـة وتيار الحرارة والحماس اللذيـن كان يعبر بهمـا عـن افكاره .. ان غرورا غير عادي كـان هـو المنبع الاساسي لكل افعاله وكيانه ... انه من عناصر اثارة الفضول والاهتمام في المجتمع ، طالمـا انه يكتفي بسرد حكاية ما او الاعراب عن فكرة معينة. ولكنه حالمـا يشرع في تطوير افكاره الخاصة ومحاولة تنميتهـا فان كل ما فيه من انواع الضعف تنكشف على الفور .. ولكـن الويل لكل مـن يحاول ان يختلف معـه ... » (*)

هكذا تتحول اسطورة رجل الغموض والالغاز الى فقاعة تنفجر دون ان تخلف

(*) ا . م . بتلر - المصدر السابق - ص ٢٠٤ .

شيئا ، حينما تتعرض للفحص الدقيق . ولكن لم تكن ثمة حاجة في القرن العشرين لكل هذا الالغاز والايهام بغير الحقيقي واثارة الحيرة والارتباك . لقد كان من الممكن ان يصبح سانت جيرمين كيميائيا صناعيا بارزا ، او ربما استطاع ان يستثمر فصاحته في الكلام في التليفيزيون . اما في القرن الذي قتل موتسارت جوعا ، وكاد ان يقتل باخ وهاندل من الاجهاد وكثرة العمل ، فقد كان عليه ان يقاتل لكي يبقى على قيد الحياة . لقد كان قرننا سيئا ، معاديا ، رديئا بالنسبة للسحرة .

- ٦ -

القـــرن التاسع عشر

السحر والرومانتيكية ..

في السنوات الاولى من القرن التاسع عشر ، مات رجل يستحق ان يعرفــه دارســو علوم الغيب والتصوف : لويس كلود دي سانت مارتيـــن ، : « الفيلسوف المجهول » . وتكمن اهميته الهائلــة في انه يقف في منتصف الطريق بين المتصوفة التقليديـــن في الشرق او في الغرب وبين النزعة التطورية الجديـــدة . وتعرف فلسفته بلفحة غير عادية من التفاؤل . فالانسان بشكل اساسي اله ، وليس دودة، في قول سانت مارتين . ويتشابه فكره مع فكر سويدنبورج في هذا الجو مـــن الصحة والعافية والنور . ولقد سبق ان اخذت في مطلع كتابي « قامة الانسان »(*) فقرة من كتاباته يمكن ان تعبر عن جوهر النزعة المارتينية ، انــه يقول ، في معرض حديثه عن فكرة أن الارض ليست اكثر من هباءة بالنسبة للكون :

« ربما كان هذا الارتباط الخاطىء بين الافكار هو الذي دفع بالبشر الى الفكرة الاكثر خطأ والتـــي تقول بانهم ليسوا جديرين بعناية خالقهم . لقد اعتقدوا عـــن انفسهم انهم يطيعون اوامر رفعتهم وقوانين حطتهـــم حينمـــا انكـــروا أن الارض والكون كله وما يحتويه لا يوجدان الا من اجل البشر ولحسابهم ، علـــى اساس أن الاعتراف بمثل هذه الفكرة لن يكـــون سوى نوع من الغرور . ولكنهم لم يكونـــوا خائفيـــن من الكسل والجبن اللذيـــن سيكونان النتيجة الحتمية لهذا التواضـــع المتخاذل . ان الابتعاد في عصرنـــا عن الاعتقـــاد باننـــا اسمى المخلوقات في الكون لهو السبب في افتقادنا للشجاعة اللازمة من اجل العمل للحصول على هذه الرتبة ، وفي اعتبارنـــا للواجبات المترتبة عليهـــا مجهدة اجهادا شديدا ، وأن من الافضل

(*) في انجلترا صدر باسم « عصر الهزيمة » عام ١٩٥٩ .

لنـــا ان نتنازل عن وضعنـــا الســامي من ان نحاول ان نقوم بهذه الواجبات بكــل نتائجهـــا .اين هـــوالمرشد القائد الذي سيرشد سفينتنا في ابحارها وسط تلك الصخور المختبئة تحت الماء ،صخور الغرور والتواضع الزائف ؟

*

ولد لويس كلود دي سانتمارتين في نفس السنة التي ولد فيها كالجليوسترو ـ ١٧٤٣ . وعلى عكس حياة من عرفناهم من قبل ، الحياة المفعمة بالاحداث الى درجـــة مزعجة ، كانتحيـــاة سانت مارتين . درس القانون ، ولكنه كره الحيـــاة اليومية ، واحداثها العادية ، فالتحق بالجيش ، ولكن اوروبا بعد عام ١٧٦٦ كانت تعيش في سلام نسبي ،ممـــا جعل الجيوش عاطلة تقريبا عن العمل . وفي الوقت الذي كـــان الضباط من زملاء سانت مارتين يسكرون او يقامرون ، كان هو يقـــرا بنهم مسرف . وكان قد وجد كتابا عن معرفة الذات من تاليف ابادي Abudie وكان لهذا الكتاب تأثير كبير على عقله .

وفي سن الرابعةوالعشرين، حينمـــا كانت فصيلته ترابط في بوردو ، التقى سانت مارتيـــن بالرجل الذي سيكـــون له التاثير الحاسم في حياته ، وهو « دون مارتينيه دي باسكال دي لاتور » وكان مارتينيه عضوا في جمعيـــــــة « الصليب الوردي » ولكنه كان يتميز عن الجمعية في جوانب كثيرة . وكانت هذه الجمعيـــة مـــن الجمعيات السرية الكثيرة فياوروبا في هذا القرن ، والتي تحمل جوانبشبه كثيرة مع الماسونيين ،وان كانت تؤكـــد في تعاليمهما ونشاطاتها على العلوم السحرية وعلوم الغيب ، وقد قيل عنهم انهم اتباع باراسيلساس . ويبدو ان كل الاساطير حول اصولهم كانت خرافات مختلقة (ومن المكـــن العثور على كل هـــذه الاساطير في كتاب م.ا. ويتس : اخوة الصليب الوردي) . ولكن فكرة وجود هذه « الاخوة » الغامضة، فكرة قيـــام هذه الجمعية العالمية الانتشار من العارفين بالسحر ، تبـــدو كمـــا لو كانت قد اشبعت شيئا خاصا في خيال القرنين الســابـــع عشروالثامـــــن عشر . وقد كانت الجماعات الصغيرة من اعضاء منتشرة في القارة كلهـــا ، وكانت العلاقات مع الماسونيين قويـــة فيهذه الجماعات ، وكـــان دون مارتينيه عضوا ، وربما كان هـــو المؤسس ، لجماعـــة عجيبـــة في جمعيـــــة « الصليب الـــودي » ذات ميول ماسونية قوية ، وكانت هذه الجماعة تدعـــى « الكوهينات المختاريـــــن » Elect Cohens . وكان مارتينيه قد اسس بالفعل جماعة ممن يدعون « المستنيرين » Illuminés في باريس ، وكانت « الاستنارة » شكـــلا اخر من اشكـــــــال « الصلب الوردي » ، ولكنها مرتبطـــة باهداف سياسية (ومن المكـــن ان يقـــال باختصار صحيح ، ان « المستنيرين » كانوا يعنون بالنسبة للماسونيين ولجماعـــة « الصليب الوردي » ما يعنيه اليسوعيون (الجزويت Jesuits) بالنسبـــــة للكنيسة الكاثوليكيـــة) .

وكان مارتينيه شخصية شبيهة بشخصية كاجليوسترو . فقد زعم انه خبير محيط بعلوم السحر استطاع ان يصل فيهـا الى درجـة عالية بالفعل . وقـد تضمنت احتفالات جماعته تلاوة الرقى والتعاويذ بطريقة جماعة « مفتاح سليمان »، بالاضافة الى شبكـة معقدة من الطقوس المتعلقة بـ « علم الارقـام » ، تختلف في جوانب اساسية كثيرة مع ما ذكرناه في الفصل السابق . ولكن لم تكن الجماعـة تقوم بكل هذه الطقوس السحرية الابهدف الوصول الى الاستنارة الصوفية النهائية المطلقة ــ الامر الذي جعل دي مارتينيه يحب ان يطلـق علـى جماعتـه اسـم « المستنيرين » رغم انهم لـم يكونوا جماعة سياسية .

وانضم سانت مارتين الى جماعة « الكوهينات المختارين » في النصف الثاني من عام ١٧٦٨ . ولم تقل النتيجـة عمقا عن نتيجـة انضمام كاجليوسترو الـى الماسونيين ، واصبح سانت مارتين رجلا مخلصا كل الاخلاص لجماعته الجديدة ، لا هم له سواها ، وشعر كانمـا قد اصبحت لحياته رسالة معينة .

وترك الجيش بعد ثلاث سنوات (١٧٧١) وتفرغ طوال ما بقي من حياتـه للتبشير بنزعته الصوفية : ان الانسان بشكل ما هو « اله » نسي ميراثه او تنازل عنه مختارا ، فوصل الى القبول بانه مجرد متسول . وكان دي مارتينيه قد اعتزل العمل ، ورحل الى سانتـو دومينجو في جزر الهنـد الغربية ليموت هناك عـام ١٧٧٤ . ولكن سانت مارتين واصل حياته رغم فقره الشديد نتيجة للثورة الفرنسية والاستيلاء على معظم ممتلكات اسرته ، وتحول بلاده (التورين) الى ساحة للقتال اكثر من مرة .

ولم تتضمن افكار سانت مارتين انه لا يوجد « اله » ، وانمـا قامت فلسفته ــ على العكس من ذلك ــ في اتجاه « الهي » تماما . ولما كان متدينا الى درجـة عميقة، فقد قبل الدين الذي نشأ عليه، ولكنه اعاد تفسير « يسوع » والعذراء مثلما فعل سويدنبورج من قبل، بطريقته الخاصة . وقد تأثرت نزعته الصوفية الى حد كبير بافكـار جاكوب بوهم (١) الذي كـان يكـن لـه احترامـا كبيرا حتى انـه

---

(١) جاكوب بوهم (او : بيهمين) ١٥٧٥ ـ ١٦٢٤ ـ متصوف الماني وفيلسوف تاملي بدا حياته صانع احذية . تدور معتقداته حول الايمـان بالقدرة الخلاقة للصراع بين الاضداد (فيمثـل بذلـك احـد الجذور الاولى للفكـر الهيجلي) التي تؤدي الى وحدة جديدة الخلق نقيضهـا في عالم الافكار، والايمـان بمشيئة الله باعتبارهـا القوة الاساسية في الكون . ورأى بوهم ايضـا ان الكـون هـو « التجلي » الاساسي للـرب ، وان الشر هو غضب الله . وبهذه النزعة الثنائيـة يمثل ايضـا احد الجذور الاولى للفكر الكانطي ، كمـا تاثر به ايضـا كل مـن شليجل وهامان . اصدر العديد من الكتب اشهرها :« اورورا : شفق الصباح » الذي ادانته كنيسة رومـا بالتجديف وامرت باحراقه . ولكن اخطر كتبه تاثيرا على اللاهوت والشعر في اوروبا هو:« توقيع الاشياء The Signature of things =

وضعه في المكانة التالية ليسوع مباشرة .

ولكن جوهر فلسفته يكمن في اعتقاده باهمية الانسان . وقد اقترب كثيرا مما اعلنه فيما بعد سيرجوليان هكسلي (*) من ان الانسان يقوم الآن بنفسه بادارة عملية النطور في الكون ، حينما كتب يقول : « ان وظيفة الانسان تختلف عن وظائف الكائنات العضوية الاخرى ، لان وظيفته هي اصلاح ما في الكون من فوضى . » وتتمتع هذه الفكرة عن « الاصلاح » بأهمية محورية في فلسفته ، وتفسر الاهمية التي اولاها ليسوع باعتباره « المصلح » الاعظم . وكانت الفكرة التي سحرت سانت مارتين هي ما يحصل عليه الانسان دائما من ومضات ساطعة الوضوح لـ « ملكاته الشبيهة بملكات الرب » ، فيبدو كما لو كانت تستيقظ في داخله قوى هائلة لا يعرف هو شيئا عنها : « يمتلك الانسان جوانب ومظاهر لا حصر لها للملكات التي كانت مستقرة في « العنصر الوسيط » الفعال الذي انتجه . . » . ولاينبغي ان ندرك من هذه الجملة انها مجرد تعبير اخر عن فكرة وجود « ملكوت الرب » في داخلنا ، وانما هي تعبير عن « كمون » قوي معينة، عظيمة القدرة، لا بد من بذل المجهود العقلي الارادي من اجل تفجيرها ، وازاحة « السواتر » المعتمة التي تحجب عن العقل معرفته بقدراته الكامنة .

وقد وضع سانت مارتين غالبية كتبه تحت الاسم المستعار « الفيلسوف المجهول » ، فقد اراد ان يتجنب جذب الانظار كثيرا الى نفسه اذ كان يعيش في عصر من العنف والنزعة العقلية العدوانية ، الى جانب انه كان يعتقد ان كتاباته لن يستجيب لها الا عدد محدود من القراء. ولكنه كان مخطئا في هذا الاعتقاد . فحينما مات في الستين من عمره ، كانت النزعة المارتينية قد اصبحت حركة اوروبية شاملة ، مثلها في ذلك مثل نزعة سويدنبورج او الماسونية ، واستمرت في تاثيرها ونفوذها الواسعين بعد موته . (فالماسوني الذي اقنع بيير بزيكهوى في « الحرب والسلام » ـ وهو شخص حقيقي يدعى بازدييف ـ كان ايضا مارتيني النزعة) .

ولم يكن سانت مارتين على علاقة بالحياة السياسية في عصره ، مثل كاجليوسترو ، ولا يمكن القول بانه كان ممن انذروا باقتراب الثورة مهما امتد

= الذي حلل فيه الاساس المتناقض لطبيعة العالم والكون كله في لغة تقوم على الصورة الشعرية والرموز المستمدة من المسيحية وعلم التنجيم والسيمياء والكابالاه . وفي هذا الكتاب قال بوهم ان الله والطبيعة شيء واحد، وانه لا يوجد شيء خارج الطبيعة . (هـ . م)

(*) هكسلي ـ جوليان (١٨٨٧ ـ ١٩٦٤) حفيد عالم الاحياء والتطور الانجليزي المشهور توماس هكسلي ، وشقيق الكاتب الروائي والمفكر التطوري والتجريبي والمتصوف الكبير الدوس هكسلي ، وكان من الوجوه البارزة في الفكر التطوري الانجليزي على غرار جده واخيه . احترف الكتابة لنشر المفاهيم والكشوف العلمية بطريقة مبسطة . (هـ . م) .

الخيال الى ذلك . ولكنه كان صاحب تاثير هائل على ثورة اخرى اعظم بكثير ، الحركة العظيمة التي اطلق عليها اسم : « الرومانتيكية » . كانت الرومانتيكية ، وهي الروح الجديدة التي خلقها جوته وشيللر وهوفمان ووردزورث وشيللي وبرليوز ، هي التعبير الفني عن النزعة الصوفية التي اقامها كلود دي سانت مارتين ، بما يكمن تحتها جميعا من تلك « الومضات البارقة » او النظرات الخاطفة ، اللحظات التي تنفجر فيها آلة العقل لكي توحي بأنها مكمن الحياة والقوة .

تقوم النزعة الرومانتيكية على لحظات من النشوة . فما هي النشوة ؟ ربما كان اقل التعريفات اثارة للاختلاف والجدل هو : انفجار مفاجيء ثم طوفان من الانفعالات المتصاعدة ، وحينما يجرب الانسان النشوة يختفي من امامه كل ما هو عادي وشائع ، يهتز جذلا في مهد من البهجة ، وتصبح الحياة فجأة حلوة حلاوة لا يمكن احتمالها . انه لا يتبين — الا في مثل تلك اللحظات — حقيقة الشيء الفقير العريان الجائع ، الذي هو وعيه العادي .

كانت القوة الدافعة وراء الرومانتيكيين هي روح السحر ، وهي الروح التطورية للجنس البشري . وقد كان فيختة (١) هو من لاحظ التناقض

---

(١) فيختة — يوهان جوتلب (١٧٦٢ — ١٨١٤) الفيلسوف والميتافيزيقي الالماني المشهور ، الذي كان من ابرز تلامذة مدرسة كانط ، واول استاذ للفلسفة في جامعة برلين ، ثم ثاني عميد لها بعد ان طرد من جامعة « يينا » بتهمة الالحاد ، والذي جعلته « رسالة الى الامة الالمانية » بعد هزيمة بروسيا الساحقة في معركة يينا امام نابوليون عام ١٨٠٦ ، واحدا من اكبر رواد الحركة القومية الالمانية الى جانب هيردر . كان اكثر اعماله الفلسفية اهمية هو « المبادىء الاساسية للنظرية الكلية للعلم » عام ١٨١٠ ، الذي جعله رائد النزعة المثالية الكلاسيكية الالمانية . وكان فيختة نموذجا لانعكاس نمو البورجوازية على الفلسفة ، بتاكيده على النزعة « العملية » للفلسفة والقيمة « التبريرية » للاخلاق ، وباهمية الدولة والنظام القانوني . وقد طور فيختة نزعة كانط الثنائية (الى تجمع بين العقل العملي والعقل الخالص) وتخلص من ازمة كانط المتمثلة في عجز العقل الخالص من تحقيق معرفة كاملة بالكون العملي ، بان ارجع كل معرفة مهما كان نوعها الى « ذات » خالصة واحدة ، تملك طاقة نشيطة لانهائية هي مصدر الوجود العملي . وليست هذه الذات الخالصة « فردية » ولا هي « جوهر » مثلما هي عند سبينوزا ، وانما هي النشاط الاخلاقي للوعي ، ومنها تنبع الذات الفردية ، الانسانية المحدودة غير المطلقة . في المعرفة قامت نظرية فيختة على نوع من الجدل المثالي ، على اساس المواجهة بين الذت التجريبية والطبيعة التجريبية ، كنقيضين لا تداخل فعليا بينهما ، وانما تتم معرفة الذات بالطبيعة عن طريق الحدس والتامل . وفي الاخلاق اصبح محور البحث عند فيختة هو الحرية (بسبب الثورة الفرنسية) . واصبحت الحرية هي العمل السببي ، النابع من محاولة فهم الضرورة الحتمية . وبعكس سبينوزا ، لم يكن هذا الفهم عند فيختة محدودا بالحكمة الفردية وانما بالوضع التاريخي الذي يحكم الافراد . (هـ . م)

الاساسي في الرومانتيكية : « لا شيء في ان « تكون » حرا ، اما ان « تصبح » حرا فهو شيء سماوي» (Fry seyn ist nichts , Frey werden is der Himmel).
فحينما تكون حرا ، تمتلك الحرية ، فانك تتثاءب وتاخذ الحرية على علاتها ، كشيء مسلم به ، لان ارادة الانسان غالبا ما تكون في حالة محايدة ، ولكن حينما تصبح حرا فجاة بعد فترة طويلة من البؤس والرزح تحت القيود ، يكون كل شيء مبهجا ، وتبدو الحياة ثرية ثراء ليس له حدود .

... وكان الرومانتيكي الذي وقع بقوة لا تضاهي تحت تاثير السحر هو : « ا.ت. هوفمان » الذي اصبح معروفا لدى معظم القراء في العصر الحديث من خلال اوبرا « حكايات هوفمان » لاوفنباخ (*) . في هوفمان ، نستطيع ان نرى في لحظة واحدة، ضعف الرومانتيكيين وقوتهم الفريدة . كان ضعفهم الرئيسي هو انهم لم يفكروا . ولكن قوتهم كانت قدرة على ان يسبحوا طافين فوق طوفان من الانفعال اخذهم بعيدا نحو الاستبصار الداخلي الصوفي . فقد استخدم الرومانتيكيون الخيال لكي يطلقوا اثار انواع الاحباط الحبيسة ولكي يقيموا من رؤاهم العالم الذي احبوا ان يعيشوا فيه . كان اجريبا ، وباراسيلساس وكاجليوسترو جوابي آفاق متجولين تعساء ، اما الرومانتيكيون فكانوا جوابين في عالم الخيال :

طوفت مرتحلا عبر ارض الرجال ،
ارض الرجال ، وارض النساء ايضا ،
ورايت وسمعت اشياء مفزعة لا شبيه لها
لم يعرفها الجوالون في الاراضي الباردة .

هكذا كتب ويليام بليك في « المسافر العقلي » .

يخلق هوفمان في رائعته الرئيسية : « القدر الذهبي » مزيجا مختلطا متشابكا من الخرافة والسحر والسيمياء ..

في هذه الرواية ، نواجه احد الرموز الاساسية عند هوفمان . ففي لحظة معينة يجد بطلها ، انسيلموس (الذي كان عليه ان يختار بين الافعى ــ الجنية التي

(*) اوفنباخ ــ جاك (١٨١٩ ــ ١٨٨٠) مؤسس اوبرا البورلسك الفرنسية ، رغم انه الماني المولد . قدم الكثير من الاوبرات الهزلية لمسارح باريس ، حيث اقام مسرحه الخاص . لم تكتمل اشهر اوبراته « الكونت هوفمان » التي اتمها جويرو بعد وفاته .

عشقته ، وبين ابنة رئيس الجامعة : اي بين عالم الخيال والسحر الفسيح ،وبين العالم العادي حيث كان سيحصل على وظيفة كبيرة) يجد انسليموس نفسه حبيسا في قنينة زجاجية فوق احد الرفوف . وفي الزجاجات الاخرى ،يرى انسليموس طلبة اللاهوت وكتبة القانون ، وجميعهم تبدو عليهم السعادة والحبور . وحينما يسالهم كيف يمكن ان يكونوا سعداء مبتهجين الى هذا الحد رغم انهم سجناء في الزجاجات المسدودة ، يجيبونه بانه لا بد يمزح ، فهم يقفون على جسر الالب ينظرون الى الماء الجاري ، وانهم يعتزمون ان يذهبوا بعد قليل ليشربوا كأسا في الحانة القريبة . ولا يلعب هذا المشهد اي دور حقيقي في نسيج الرواية ، ولكن من الواضح ان هوفمان ادخله على هذا النسيج لما ظنه فيه من اهمية كبرى . فمعظم الناس لا يفطنون الى انهم سجناء في هذه القنينات الزجاجية ، انهم واثقون من انهم احرار . ومن سوءحظ صاحب الادراك الاكثر عمقا انه يفطن الى انه سجين في زجاجة لا يستطيع الخروج منها .

ولكن هذه الصورة تشير ايضا الى الخطأ الاساسي لدى كل الرومانتيكيين: انهم متشائمون وانهزاميون . انهم لا يرون مخرجا من القنينة الزجاجية سوى الهروب الى عالم الخيال غير الحقيقي الذي يضعف من يكرسون له انفسهم ويجعلهم غير صالحين للحياة الحقيقية . وفيما عدا جوته ، فان الرومانتيكيين لا يفطنون الى ذلك الشكل الاخر الذي تتخذه النشوة : الشهية المتفتحة العنيفة للمزيد من الحياة . ثمة حالات نفسية يبدو العالم كله فيها من الجمال بحيث يشعر الانسان انه يستطيع ان يشق الارض مندفعا كالدبابة ، مكتسحا امامه كل عقبة تعترضه . اما حالتنا العادية فهي حالة شهية فقيرة محدودة ، مثل مريض ناقه يشعر بانه لن يستطيع ابدا ان يتناول وجبة كبيرة . ولكنه يكتسب شهية هائلة في لحظات الكثافة والحدة، ويشعر بانه يستطيع ان يواصل تناول الطعام طوال اسبوع بأكمله ، ويبدو كل شيء ــ مهما كان قبحه ــ جميلا وجذابا .

وهذا بشكل مطلق هو السبب الذي يجعلنا نرى ضرورة رفض الرومانتيكيين . انهم يفشلون في التزام الطريق الصحيح بسبب ما يغلفون به انفسهم من الشعور بالاشفاق على الذات . ويبدو انه يكاد قانونا ان علينا ان نقبل طرفا من الطرفين غير المشبعين ولا الكافيين او الطرف الاخر : الساحر الذي ينغمس في الحياة اكثر من اللازم ، او الرومانتيكي الذي يخاف الانغماس فيها .

ولكن الاحياء الرومانتيكي جلب معه ــ على الاقل ــ احياء سحريا ايضاً . كان القرن التاسع عشر قرنا صناعيا شديد الضوضاء : قرنا من القذارة والدخان ، والمجاري الرديئة ، والمداخن الملوثة بالسناج ، ولكنه ايضا كان قرن السكك

الحديدية والقنوات الملاحية العظيمة والكشوف الكبرى ، وكان قرن اللحم البقري الجيد والجعة الجيدة ، والمعارض العظمى في باريس ولندن ، والقصر البللوري ، وانجلترا ديكنز وكوبيت ، وفرنسا فلوبير وموباسان . وربما كان هو اكثر القرون في تاريخ البشرية حيوية واثارة . وفي غمار كل عمليات جمع الثروات وبناء الامبراطوريات دفع ما لا يقل عن خمسة وتسعين بالمائة من البشرية الى الجدار . ومن هنا كان احياء السحر ، الذي يعتبر بشكل اساسي ، ثورة ضد الحقيقة الواقعية الخشنة الفليظة الملمس .

وكان البلد الذي حدث فيه هذا الاحياء لاول مرة هو فرنسا . ومن الغريب تماما ، ان الرجل الذي قدم الحركة الدافعة الاولى هو ذلك « المؤرخ العظيم » لجامعي الثروات والانتهازيين : هونوريه دي بلزاك . وقد كان لبلزاك ميل صوفي قوي ، يبرز في اعمال له من مثل « لوي لامبير » ، « سيرفيتا » ، «البحث عن المطلق » . ولكن بالنسبة لكل من لوي لامبير وبالثاراكليا ــ بطل الرواية الاخيرة ــ ينتهي البحث عن المطلق بالموت ، لا بالانتصار .

وفي عام ١٨١٠، حينما كان بلزاك في الحادية عشرة من عمره فقط ، ولد في باريس ، الرجل الذي كان مقدرا له ان يصبح مصدر الاحياء الحديث للسحر ، وهو الفونس لوي كونستانت ، الذي وضع كتبه تحت الاسم المستعار : « اليفازليفي » . وقد اعجب قسيس الابرشية التي يتبعها بذكائه ، فكان هو الاداة التي ساعدت على ارساله الى كلية سانت سالبيس . واصبح كونستانت قسيسا ، ولكنه طرد من سلك الكهنوت بعد بضع سنين ، لانه كان : « يبشر بتعاليم مضادة للكنيسة » ــ ولكن لم تصل الينا هذه التعاليم بالتحديد . وفي اواخر عشريناته ، اصطحبه صديق من الادباء ، يدعى الفونس اسكويروس ، لكي يستمع الى « نبي » غريب ، يدعى جانو ، وهو رجل مسن كان يرتدي عباءة امراة ويثرثر بعصبية عن خلق العالم وعن سقوط الانسان امام جماعة من اتباعه ، والى جواره امراة متقدمة في السن ، بينما يبدو الاتباع الملتحون الفارقون في النشوة ، كما لو كانوا ممن يمشون في نومهم مثلما وصفهم كونستانت فيما بعد في كتابه « تاريخ السحر » . وكان الرجل يعتقد انه التجسيد الجديد للويس السابع عشر ، بينما كان يعتقد ان زوجته هي التجسيد الجديد لماري انتوانيت(وبعد موت زوجها ظلت المراة تعتقد انها ماري انتوانيت وتشعر بالمهانة وتعلن احتجاجها اذا ارتاب في ذلك احد) . وبعد الموعظة ، ذهب كونستانت واسكويروس مع جانو وزوجته الى شقته الفقيرة لكي يتفكها بهما ، ولكنهما انهزما إمام فصاحته ، فاصبحا من اتباعه .

وقد سردت هنا قصة « جانو » بشيء من التفصيل ، لا لاهميتها التاريخية ، وانما لانها تحتوي على شيء من نكهة باريس في منتصف القرن الماضي ، بكل

ما كـان يدور فيهـا من احاديث عـن النشوة ، وعلوم الغيب ، والثورة . بل ان ليفي يحكي قصة غير عادية عن احد اتباع جانو ، ويدعى سوبريه ، الـذي بـدأ يصيح في الشارع ذات يوم من عام ١٨٤٨ داعيا الجماهير الى الذهـاب الـى البوليفاردي كابوسين والتعبير عـن سخطهم مباشرة للوزراء . واخيرا ، اختفى بعد ان سارت وراءه نصف باريس . وبـدا احـد الحـراس عند « هوتيـل دي كابوسين » باطلاق النار ، فبدات الثورة فجاة ، وهكذا لعب سوبريـه دوره فـي التاريخ وهو في حالة تقرب من حالة السبات .

وبعد ان تزوج فتاةتدعىنعومي كاديوت وتركته بعد ان وهبته طفلين ، اندفع الى المزيـد من دراسـة السحر رغم انه كـان يكسب عيشه باعمال مختلفة على هامش الحياة الادبيـة . وفي عـام ١٨٥٦ ظهـر كتابه : « قانون وطقوس السحر المتطور » ، .. ثم صدر كتابه عن « تاريخ السحر » وعدد اخـر من الكتب فيعلوم الغيب . وتجمع حوله الاتباع والتلامذة ،حتى مات في الخامسة والستين ، فـي عام ١٨٧٥ ، بعـد ان كـان قد قام بعمليـة احياء السحر بمفرده بصورة عملية. وهو يعترف بأن مصدر الهامه كـان روايـة بلزاك « لويس لامبير » التي كانت هي الدراسـة التي قدمهـا بلزاك لصوفي شاب ذكي بالغ التوتر ..

ولا بد من الاعتراف بان كتب ليفي لا توحي بالثقـة . لان مـا يزعمه ليس لسوء الحظ سوى اكذوبة .

« وراء قناع كل المجازات الغامضة والهيروغليفية للتعاليم القديمـة ، ووراء العتمة المظلمـة والامتحانات الغريبة لكل طقوس التعميد ، وتحت خاتم كلالكتابات المقدسة ، وفي خرائب نينوى وطيبة القديمتين ، وعلى الصخور الهاوية من المعابد القديمة وعلى الوجوه المغلقـة على الاسرار لابي الهول المصري او الاشوري، وفـي الرسوم الرائعة او الوحشية التي تفسر لمؤمني الهند صفحـات « الفيدا » المليئـة بالالهام ، وفي الرسوم الرمزيـة المميتة في كتبنـا القديمة عن السيمياء ، وفـي انواع الاحتفـال التي تقام في كل استقبال لاي جمعية سرية .. هنالك نجـد الدلالات التي تشيـر الى قانـون هوقانون واحـد في كل مكان ، وفي كل مكـان يتم اخفاؤه بعنايـة وحرص . »

تكشف هذه الفقرة عن خيال بالغ الرومانتيكية ، كمـا تكشف عن شيءضئيل آخر . ليس صحيحا ان هنـاك « قانونا سريـا » لا يعرفـه الا الخبـراء المحنكون . فلم يملـك «شامانات» العصر الحجري اي قانون سري ، وانماامتلكوا فقط ، توحدا عجيبا مع الطبيعـة واتصالا مباشرا مع قوى الانسان اللاواعيـة . ليس هنـاك قانـون سري بعيدا عـن العلم ، مثلمـا راينا بالفعل على مدى هـذا الكتاب . وقد فكـر كلمن باراسيلساس واجريبا وفيثاغوراس فـي انفسهـم

باعتبارهم علماء ، وقد تصادف ان امتلكوا ايضا درجة معينة من القدرات الشامانية . ونحن لا نقول هذا لكي ننكر ان « الاحتفالات السحرية » « تعمل » اي تؤدي الى نتيجة عملية . انها « تعمل » بالفعل . يذكر راينور جونسون وصفا قدمه جورج وهيلين ساندويد لاحتفال السير على النار في جزر فيجي ، وهو احتفال سنوي : « يبدو ان السمة الرئيسة التي اتصف بها اولئك الذين اشتركوا في العملية هي انهم كانوا مشحونين بنوع ما مجهول من الطاقة (يفترض انها قد تولدت وانتقلت على المستوى الروحي) وقد كرست عشرة ايام كاملة من ممارسة طقوس تمهيدية معينة لتوليد تلك الطاقة وشحن المشتركين في السير على النار بها . وتم اجراء العديد من الاختبارات قبل الحدث النهائي الرئيسي : فطعنت اجسادهم باسياخ الحديد التي اخترقتها دون اي احساس بالالم ودون ان يسيل منهم اي دماء ، ثم جلدوا بسياط ثقيلة دون ان يبدو عليهم ادنى شعور بالالم ودون ان تظهر على اجسادهم اية علامات من اثر السياط . ويبدو ان نفس الطاقة تحتوي على امكانيات علاجية كبيرة ، وتوصف في هذا الصدد حالة الفتاة الهندية التي شفيت على الفور تقريبا من شلل ولدت به في ساقيها » (*) . ومن اجل احتفال السير على النار ، اشعلت اللهب في اربعين طنا من جذوع الاشجار ، حتى اصبح على القريبين منها ـ على بعد عشرين مترا ـ ان يغطوا وجوههم خوفا من لفحها . وقال احد من سيسيرون على النار لجورج ساندويد وزوجته : « هذا شيء فعال حقا ، وليس مجرد حديث ووعود » . ان الدليل على وجود مثل تلك الخوارق لا يقبل الجدل ، ولكنه لا يثبت ان الايام العشرة من ممارسة الطقوس التمهيدية قد تضمنت تلقين « قانون سري » ما ، فمهما كان الطقس ، فان هدفه هو دفع « الشامان » الى الاتصال المباشر ب « الطاقة الروحية » التي يذكرها جونسون . (وهو يذكر ايضا ان حوادث محزنة قد وقعت نتيجة للاعداد غير الكافي) .

وهكذا قامت كتب اليفازليفي ، على فرضية زائفة . بل ان « أ.أ. وايت » الذي ترجمها (ولم يكن هو نفسه اكثر مؤرخي السحر جدارة بالثقة) قد حذر القراء من ان ليفي يستخدم خياله اكثر من اللازم . وهدفه هو التأثير على قرائه بمعرفته هو الخاصة ب « التعاليم السرية » للكابالاه وما اليها . ولكنه في الحقيقة لم يكن يعرف العبرية ، او انه لم يعرف منها الا القليل . وباختصار ، فانه ليس سوى واحد من ذلك الصف الطويل من الحواة ، او المهرجين بالسحر . ولكن هذا لا يعني القول بانه ليس اكثر من نصاب او دجال . لقد درس السحر وآمن به ، بل ان « أ.م بتلر » الذي يقول عما يدعي علمه انه : « يصبح زيفه وكذبه اكثر افتضاحا

(*) .. « خيوط مهد الخلود » ، ١٩٥٧ ، ص ١١٧ .

كلما قلب المرء صفحة من صفحاته » على استعداد لان يقبل روايته عن استحضار روح ابوللونيوس تايانا بالصورة التي وصفه به في الفصل الثالث عشر من كتابه « السحر المتسامي » .

.. وقد مارس ليفي تاثيرا قويا على الكاتب الروائي بالوير ـ ليتون ،الذي اصبح مثل تابع له ، ويعتبر الوصف الذي كتبه ليتون للساحر في روايته: « المطارَدون والمطارِدون » صورة خيالية لليفي ، كما توجد ملامح منه في روايات اخرى لليتون ، مثل « قصة غريبة »، « زانوني » ، « الجنس القادم » ، التي تعتبر اولاها عملا كلاسيكيا من اعمال الادب الغيبي وادب الاثارة النفسية وان كانت قد اهملت بشكل غريب في عصرنا .وتعتبر فكرة « النور الشبحي » واحدة من افكار ليفي الاساسية في قانونه السحري ، وكانت عبارة « النور الشبحي » هي الاسم الذي اطلقه ليفي على « الاثير السحري » الذي تحدث عنه سحرة اخرون ، وقد وصفه ليفي بانه «قوة اقوى من البخار » ..

وقد كان بالوير ليتون هو الذي اشاع مسألة الاهتمام بالظواهر الغامضة وعلوم السحر في انجلترا ،وكان هو المسؤول بشكل اساسي عن حركة احياء السحر التي ضمت كتابا وشعراء من نوع ماذرس وييتس وكراولي ووايت وديون فورشن ايتال . وكان من الممكن لحركة الاحياء هذه ان تبدأ قبل ذلك بخمسين عاما لو ان شخصا يدعى فرانسيس باريت كان كاتبا من نوع افضل . ففي عام ١٨٠١ نشر باريت دراسة ضخمة عن السحر الشعائري بعنوان : « الماجوس » ، وما زال من الممكن ان ترى رسوم هذه الدراسة عن الشياطين في اكثر الكتب التي تؤرخ للسحر والاعمال السحرية ـ وقد وضع باريت « اعلانا » في نهاية الكتاب يطلب فيه من القراء ودارسي الموضوع ان يساعدوه على تكوين حلقة سحرية . ولكن الكتاب كئيب وغير جذاب رغم امتلائه بالمعلومات ، ولا يمكن مقارنته بكتاب ليفي . ويؤكد مونتاجو سامرز (وهو قسيس) ذلك المؤرخ العظيم للسحر الاسود ومصاصي الدماء ان باريت قد نجح بالفعل في تكوين الحلقة ، وان مدينة كامبريدج اصبحت بذلك اشبه ما تكون بمركز للسحر في انجلترا .

*

ان ما ينبغي ان يكون الان واضحا كل الوضوح هو ان روح السحر قد تبدلت تبدلا كاملا في القرن التاسع عشر . كان السحر علما بالنسبة لبارسليساس. ولكنه بالنسبة لكاجليوسترو اصبح اداة لنشر دينه القائم على تجديد الانسانية . اما بالنسبة لليفي وليتون فقد اصبح ملكية ادبية رومانتيكية تحيطها سحب كثيفة من البخور . ان « فاوست » عند جوته يتحول الى السحر لانه يغشى وينفد صبره ازاء انواع القصور التي تحدد مجال انسانيته ، وهو يريد ان يكتشف ارجاء تلك

اللحظات من الكثافة والحدة والقدرة على انفاذ الشبيهة بما يتميز به الله نفسه، وهي اللحظات التي كتب عنها سانت مارتين . وقد وجد انسان القرن التاسع عشر نفسه معلقا كالمصلوب في عالم مادي ممل . ولكن في العصور الوسطى كانت الشياطين حقيقة واقعة قبلها الجميع دون تشكك ـ ومن هنا كان ذلك الخيال المهلك المزمن الذي اثارته اسطورة ثيوفيللوس . غير ان الظلال تلاشت ، وجاء ضوء النهار الشائع المنتشر العادي فجعل كل شيء عاديا وواضحا . وراح الرومانتيكيون ينظرون بحنين مرضي الى الوراء ، نحو عصر الابالسة والجنيات ، فقد كانت هذه رغم كل شيء اكثر اثارة للخيال من السكك الحديدية ومن السفن البخارية ذات القلابات . كانت الشكوى العالمية الشائعة هي الضجر . ففي رواية «اوبرمان» عام ١٨٠٤ خلق اتيين دي سينانكور بطلا بيرونيا راح يفكر مستغرقا ـ وسط جبال سويسرا ـ حول عجزالانسان وفشله هو الخاص في اقامة اي اتصال حقيقي مع روعة الطبيعة الخلابة . ولم تكن المشكلة الحقيقية في الحياة بالنسبة له هي البؤس وانما انعدام المعنى . ويقول ان الجو الملبد بالغيوم يجعله يشعر بالحزن ، ولكن حينما تبزغ الشمس من وسط السحب تبدو له شيئا « لا فائدة منه » . انه يشعر بالتعب خاليا من اي رغبة . انه ليس سعيدا ولا تعيسا ـ فحتى التعاسة كان يمكن ان تصبح متنفسا للكآبة والجمود . وقبل صامويل بيكيت بمائة وخمسين عاما ، جلس اوبرمان ينتظر جودو(*) دون جدوى . وقد كان هذا الاحساس بالعقم والضجر هو اساس حركة احياء الاهتمام بالعالم الغامض وبالوسائل السحرية لاكتشاف اصقاعه .

ولكن ماذا من امر الاحساس بأن الانسان يملك قدرات تشبه قدرات الله ، وهو الاحساس القائم على الحقيقة ، اذا كانت مزاعم « السائرين على النار » في جزر فيجي حقيقية وصادقة ؟ ماذا عن احساس رجال اذكياء مثل اوبرمسان ، ومثل ماتيو ارنولد الذي كتب عنه قصيدة ـ بالعجز والوهن الكامل والشلل ، وبانهم مجرد دمى تلعب بها قوى اعظم منهم بكثير ؟ ليست هناك سوى اجابة واحدة هي : ان السبب هو انهم « عقليون » خاضعون ل « النظرة العلمية الى العالم » . وقد

(*) انتظار جودو ـ مسرحية طليعية حديثة من اعمال صامويل بيكيت (١٩٥٣) وتعد الان واحدة من كلاسيكيات مدرسة العبث في الدراما الغربية المعاصرة ، ولقيت نجاحا هائلا عندما عرضت لاول مرة في مسرح نابيليون في باريس (من اخراج روجيربلين) وانتقلت بعد ٤٠٠ ليلة عرض الى مسرح هيبرتوت. في المسرحية ، لا نعرف ابدا لماذا ينتظر الصعلوكان « مسيو جودو » ، وهما يتشاجران ويتاملان ويتذكران ويحاولان الانتماء وياكلان الجزر ، ولا نعرف من هو مسيو جودو هذا . ولايحدث شيء في المسرحية سوى ظهور سيد مع عبده المربوط بحبل طويل في عنقه يجره السيد وهو يفرقع بالسوط . واجمع النقاد تقريبا على ان جودو ، وعدم مجيئه ، انما يمثلان عبثية الامل والوجود الانسانيين وانعدام اية قيمة لهما . (هـ .م .)

تعرف رجال مثل بالويرليتون واليفازليفي على هذه الحقيقة بشكل غريزي ، فتقدموا الى الامام لكي ينازلوهـا . ومن هنـا كان « الاحياء السحري » .

ولكن هذا الاحياء اتخذ صورة جديدة ، وبدأ عصره الجديد في امريكا ، فـي مساء يوم ٣١ مارس عام ١٨٤٨ في منزل احدى العائلات في نيويـورك ، حينمـا اعلنت فتاتان شقيقتان انهمـا تستمعان الى ضوضاء غامضة وغريبة ، وتستطيعان بالفرقعة باصابعهمـا ان تجعـلا الضوضاء تصدر من نفس المكان ثانيـة كمـا لـو كانت اجابة على فرقعة الاصابع . ثم بدأت الفتاتان تعرفان بانهمـا قادرتان علـى الشعـور بوجود « الارواح » اينمـا كانت ، وبذلك بدأ مفهوم « الوساطـة » . وقد تمكنتا من الكشف عن مصدر الضوضاء في منزلهما باكتشاف جثة رجل مقتـول كانت مدفونة في حديقة البيت . وعلى الفـور انتشرت الحكايـة في امريكا كلها ، ثم بدأ ظهور مئات من « الوسطاء Mediums » في طول البلاد وعرضها ، وقد ثبت بالطبع ان الكثيرين منهم كانوا نصابين ، ولكـن ثبت ايضـا ان الكثيرين كانوا اصحاب قدرات حقيقيـة .

وسوف نناقش هذه الظاهرة فيما بعد ، ولكننا لا نذكرها هنـا الا كتمهيـد للحديث عن واحدة من اكثر الشخصيات لمعانا وتباهيـا في تاريخ علـوم الغيب : هيلينا بتروفنا بلافاتسكي .

كانت قد ولدت باسم هيليناهاهن ، ابنة لكولونيل روسي ، في عام ١٨٣١ ، وابنـة عم سيرجي ويت ، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للوزراء وصديقا لراسبوتين . وتبـدو من بدايـة حياتهـا شخصية بالغـة الغرابـة والشـذوذ . فبعـد ان تزوجت في السادسة عشرة من عمرها رجلا يكبرهـا بعشريـن عاما وهجرتـه ، بدات ترتحل وتعيش على هواهـا وتمتهن اعمالا متنوعة وغريبة : من لاعبة سيرك ، الى مدرسـة بيانـو في باريس ولندن ، الى مساعدة لاحد الوسطاء المشهورين فـي لندن ، الى صاحبة مصنع للزهور الصناعية في تفليس بايران ، الى رحالة وسكرتيرة لعدد من كبار الرحالة حتى انهـا تذكـر في روايتهـا انها سافرت الى الهنـد والتبت والمكسيك وكندا وتكساس وتجولت كثيرا في كل منهـا ، بالاضافـة الـى جولاتهـا التي جابت فيهـا اوروبا كلها وامريكـا وشمال افريقيا وتركيا . وقـد اصيبت بحادث اثناء عملهـا بهلوانـة على ظهور الخيل في السيرك ، ممـا ادى الى تغيير وضع رحمها ، وجعلها تقول انه يبدو كالكيس المنتفخ المليء بقطع « الخيار » المتكسرة ، كمـا ادى الى نوع من الخلل الكامل في حياتهـا الجنسية ، جعلها تكـره معاشرة الرجال بشكل طبيعي ، كمـا يبدو ان هذا هو السبب الذي جعلهـا نهمة الى الطعام او جعل غددهـا تصاب باختلال معين ادى الى تضخم وزنهـا الى درجة انه بلـغ ٢٣٢ رطلا (انجليزيا ـ حوالي ١٠٠ كيلو جرام) ، كمـا انها لـم تكن تنقطع عـن تدخين الماريجوانا (التي لم تكن محرمة في تلك الايام المعقولة) . ورغم كـل

هذا فقد كانت شخصية جذابة مرحة الى درجة طاغية . وتعرفت في امريكا على محام يدعى هنري ستيل اولكوت ، كان يحمل ايضا رتبة كولونيل في الجيش، فسحرته بحيويتها وصراحتها وجراتها على الفور ، وكتب عنها عدة مرات في صحيفة كان يراسلها ، ثم ظل على اتصال بها بعد عودتها الى نيويورك . ولكن لم تقم بينهما اية علاقة عاطفية ، ثم تزوجت مهاجرا من ولاية جورجيا يدعى ميشيل بيتانيللي ، واشترطت عليه الا يحاول غزو فراشها ، ولما عجز عن الالتزام بعهده ، انفصلا على الفور . ولم تكن تبالي اصلا بزوجها الروسي ، نائب الحاكم الذي يدعى بلافاتسكي . وقد نقل عنها عدة مرات قولها ان الحب الجنسي ليس سوى : « شهوةوحشية لا بد من تجويعها حتى يتم ترويضها واخضاعها ».

وشاع عنها بين اصدقائها الامريكيين ـ الذين سحرتهم بشخصيتها ـ انها تتمتع بقدرات روحانية كبيرة ، وانهم كثيرا ما سمعوا في وجودها اصواتا غامضة كالطرقات والاحتكاكات . وبدات شهرتها تذيع حينما طلبوا اليها ان تكون حكما في قضية اتهام « وسيطين » شقيقين بالدجل . وقد اشترك في هذه القضية ، الاشتراكي الخيالي الانجليزي روبرت اوين ، واهداها عقدا من الجواهر . وقد حكمت مدام بلافاتسكي في القضية لصالح الاخوين واكدت انهما وسيطان حقيقيان (ربما لانها لم تكن تملك الوسائل لاثبات دجلهما ، وربما لانها ارادت ان تؤكد فكرة استحضار الارواح وقدرتها هي شخصيا على الاتصال بها).

واصبح من الواضح عندها وعند المعجبين بها ان مستقبلها قد ارتبط بحكاية النزعة الروحانية ، وساعدها الكولونيل اولكوت في العام التالي لتعارفهما بعد ان ازداد ايمانه بها . ولكن المشكلة كانت تتمثل في تضاؤل موجة الاهتمام بالروحانيات بعد انتشارها الهائل عام ١٨٤٨ . وفشلت المجلة التي اصدرتها لنشر قصص الارواح فشلا سريعا . فانشات مع الكولونيل « نادي المعجزات » ليكون حلقة تحضير للارواح ، ولكن النادي لم يزدهر . وتكاثرت طلباتها من الكولونيل ، وكانت تقول انها طلبات بعض « المهاتمات » الهنود السحريين الذين قابلتهم في التبت ، وانهم رسل روحانيون سيجيئون يوما لكي يجددوا شباب العالم . ثم انشات جماعة اخرى باسم « اخوة الاقصر ». ـ ففي الايام الاولى لنشاطها كانت تركز على مصر القديمة بدلا من التبت ـ وكانت الجماعة ترسل خطابات للنشر في المجلة الروحانية « راية النور » ، وكانت المجلة تنشر روايات عن اعمال مدام بلافاتسكي مقابل معونة مالية (اعلانات ؟)

واقترح احد اعضاء « اخوة الاقصر » ان يهجر الكولونيل زوجته واطفاله الثلاثة لكي يعيش مع مدام بلافاتسكي . ولم يكن زواج الكولونيل موفقا ، لذلك شعر بالسعادة وهو ينفذ الاقتراح .

وفي سبتمبر عام ١٨٧٥، استقرت مدام بلافاتسكي على العمل الذي سيجلب لها الشهرة العالميــة . فقد حدث ان قام شخص يدعى فليت بالقـــاء محاضرات على مجموعة صغيرة حول الاسرار الكهنوتية السحرية التـــي تجسدها مقاييس الاهرام المصرية . وقال ان « قوانين المناسيب » هذه يمكنهــا ايضا ان تستحضر الارواح ، وقال ان الارواح التي تم استحضارهــا لم تكـن على قدر كبير مـــن الذكاء . واقترح الكولونيل انهم ينبغي ان يكونوا جمعية لدراســة هذا الموضوع ، ووافقت « هـ . ي . ب » ـ مدام بلافاتسكي كما اصبحت تعرف بين المعجبيـــن بها ـ بحماس وقوة. وفي خلال الاسبوع التالي ، فكروا في الاسم المناســب للجمعية ، واختاروا الاسم : الجمعية الثيوصوفية .

ولم تكـن كلمة « ثيوصوفية » « Theosopshism » من ابتكار « هـ . ي. ب». وانمـا كانت مستخدمة كمرادف للنزعة الغيبية mysticism منذ قرون عديدة . فعلى سبيل المثال ، يشير الاسقف مارتينسين الى مذهب جاكوب بوهـم باعتباره « ثيوصوفية » في كتابه الكلاسيكي عن بوهم عام ١٨٨٢ . ولكـن طبقا لتفسيــر « هـ . ي .ب » كانت الثيوصوفية تعنـي اولا واساسا مذهبا عجيبا يجمع بيـن النزعــة الغيبيـــة mysticism في الشرق والغرب ، وبين « التعاليم السرية » وبين الروحانية . وحالما تم تكويـن الجمعية ، شرعت « هـ . ي . ب » في تأليف انجيلها. راحت تكتب دون توقف يومـا بعد يوم ، لا تنقطع عن التدخين ، ونادرا ما ترفع رأسهـــا لكي تنظـر نظرة سريعــة في كتاب تناوله لهـا الارواح . وكانت النتيجـة هي كتاب : « رفع النقاب عـن وجه ايزيس »، في مجلدين ، الذي صدر في سبتمبر عام ١٨٧٧، ولقى رواجـا مدهشا . وكان الكتاب ينم على معرفـــة واسعــة بشكل لا يصدق ، يمزج بيـن تعاليـــم مستمدة من الكابـــالاه ،ومن كورنيليوس اجريبا ومن فيثاغوراس ومن المخطوطات البوذية والهندوسية والطاوية. ولذلك ما يزال من الممكـن ان يستمتع القارىء بدراسته ، حتى ولو لمجرد الجسارة غير العاديــة لتصوراته . ولقد اشرنــا من قبل بالفعل الــــى فكرة « الاجناس الاصلية » عند حديثنا عـن قارة الاطلنطيس . فالجنس الاصلي الاول عاش بالقرب من القطب الشمالي ولم يكــن « مرئيا » لان ابناءه كانوا مصنوعيـــن من الضباب الناري . وعاش الجنس الثاني في شمال آسيا ، وكان مرئيـا بالكاد ـ وقد ابتكر ابناؤه الجماع الجنسي . وكان الجنس الاصلي الثالث هــم عمالقة « ليموريا » الشبيهــة بالقردة الضخمة وكانوا يتواصلون عقليـا او روحيا ولم يكونوا يفكرون بطريقتنا نحـن في التفكير ،وكان الجيل الرابع هم ابناء قارة الاطلنطيس الذيـن دمروا انفسهم بالسحر الاسود ،اما نحـن فاننا الجنس الخامس (وطبقا لما يقوله دارس علوم الغيب لويس سبنس ، فاننا نسرع الخطـــى نحـــو مضير ابنـــاء الاطلنطيس) ،وسوف ينشأ الجنس الاصلي السادس من الجنس البشري الحالي

وسوف يعيش فيليموريا (في المحيط الهادي) مرة اخرى ، وبعد نهاية الجنس الاصلي السابع ، ستهجر الحياة كوكبنا الارضي لكي تبدأ من جديد في كوكب « عطارد » . وفي قلب كل تلك الافكار المدهشة ،التي تساق باعتبارها حقائق مؤكدة لا تقبل الجدل ،تكمن فكرة بالغة الاهمية ،هي ان الانسان يتمتع بوضع متميز . من الحق ان روحه قد وقعت في اسر قيد الجسد الذي لم يسبق له مثيل ، ولكنه يمتلك الارادة والذهن اللازمين لمواجهة قيود هذا الاسر . انه « يستطيع » اذا شاء ،بالثقة والشجاعة ان يكون شبيها بالآلهة .

وازدهرت الجمعية الثيوصوفية الى حد ما في امريكا لمدة ثلاثة اعوام . ثم قررت « هـ . ي . ب » ان الاهتمام بين الجمهور اخذ يخبو ، وأنهم يجب ان ينتقلوا الى الهند . وقد دفعت مصادفة غريبة الى سرعة اتخاذ هذا القرار ،حينما التقى الكولونيل بهندي يدعى « مولجي ثاكر ساي » في احدى السفن . وبعد سبع سنوات التقى الكولونيل بصديق كان قد عاد لتوه من الهند فسأله عن مولجي، واكد الصديق انه يعرفه ،بل انه يحمل عنوانه . واجاب ثاكرساي على رسالة الكولونيل التي حدثه فيها عن الجمعية الثيوصوفية . وقال ثاكرساي انه يعمل الآن لحركة هندية دينية جديدة يقودها مدرس بارز يدعى « سوامي داياناندا ساراسفاني » باسم « آرياساماي » . وكتب اولكون الى سوامي ، وسرعان ما قبلت الجمعية الثيوصوفية ان تندمج بحركة « آرياساماي » . وصدر بعد ذلك كتاب الوسيط الروحاني « مانييل دنجلاس هوم » الذي سبق ان عملت معه « هـ.ي.ب» مساعدة له في شبابها ، واشار فيه هوم الى مدام بلافاتسكي (منافسته الآن) اشارة مهينة ، فقررت المدام ، انه قد آن الاوان لها لكي تهجر الغرب الخائن حتى تبحث عن النور في الهند .

وهناك حققت نجاحا مذهلا ، وانتهت الى السقوط المخجل . بهرت الجاليات الاوروبية بخوارقها من قبيل العثور على الاشياء الضائعة ، واسقاط اوراق النقد من السقف ، واشعال المصابيح واطفائها بمجرد الاشارة اليها واستحضار اشياء من الهواء . ثم بدات تسمح لاتباعها بمراسلة «الروح» او « السيد » الذي قالت انه من المهاتمات الهنود السريين في التبت ، واسمه « كوت هومي سال سينغ » وكانت خطاباته التي يرد بها على خطابات الاتباع تصل اليهم بطريقة غريبة دائما . ولكن المتاعب بدات ايضا بالشكوك الكثيرة التي احاطت بها واتهامها المتكرر بالدجل مما كان يدفعها الى نوبات من التهيج المروع والامعان في ابتكار الخوارق الجديدة لاثبات مقدرتها ، وتضاعفت المتاعب برحيل الكولونيل الكون الى سيلان واعتناقه البوذية مما اثار سخط سوامي ساراسفاني واتهامه الكوت بالخيانة ،ولكن الكولونيل القادم من الغرب لم يكن يجد اختلافا ظاهرا بين كل هذه الاديان

الشرقية فأصدر كتابا بعنوان « مجذوب بوذي » فلقي رواجا واسعا مما دعم مكانة الكولونيل في الجمعية الثيوصوفية ومنحه استقلالا داخلها في مواجهة « هـ . ي . ب » ولكن هذا هو الذي دفع سوامي الى اعلان انفصال «آرياساماي» عن الجمعية واتهام الكولونيل ومدام «هـ.ي.ب.» بانهما مشعوذان لا علاقة لهما بالاخلاق ولا بالطريق القويم .

ولكن لم تمض غير سنوات قليلة على وجودها في الهند الا وكانت على راس واحدة من اوسع الحركات نفوذا في البلاد ــ وخاصة بين الجاليات الاوروبية . وحينما ذهبت الى اوروبا استدعتها جمعية البحوث الفيزيقية للتثبت من صحة قدراتها ، ولكن بداية السقوط كانت في انتظارها لدى عودتها الى الهند . فقد كانت « مدام كولومب »، مدبرة بيتها ، قد اقامت اتصالا خاصا مع احد المبشرين المسيحيين ، وهو محرر مجلة « كريستيان كوليج » . وكانت ارساليات التبشير المسيحية في الهند هي اقوى خصوم « هـ.ي.ب » بسبب علاقاتها الوثيقة مع رهبان الديانات الوثنية القديمة . واستطاع محرر مجلة « كريستيان كوليج » ان يطلع ــ عن طريق كولومب ــ على خطابات من مدام بلافاتسكي تثبت ان كثيرا من « حيلها » كانت تعتمد على انواع متعددة من الخداع . وزعمت كولومب ان « هـ . ي . ب » قد صنعت نموذجا من الخشب لكوت هومي وكانت تتجول في الليالي المقمرة وهي تحمله على كتفيها ، وكانت تجعل خطابات المهاتمات الهنود « تصل » الى اصحابها عن طريق اسقاطها من فجوات مفتوحة في سقف الغرفة . وكانت الفضيحة هائلة . وانتقل مراسل جريدة « التايمز » لكي يكتب تقريرا لصحيفته من بومباي ، وجاء احد الروحانيين الامريكيين ، ويدعى هنري كيدل ، فأضاف وقودا جديدا باعلان ان « كوت هومي » قد سرق في خطاباته المنشورة عديدا من الفقرات من احدى محاضراته التي نشرتها الصحف من قبل . واجاب « كوت هومي » بعد قليل على هذا الاتهام بالزعم بانه عثر على هذه الفقرات على شكل كلمات سابحة في « الاثير النفسي » فالتقطها وسجلها دون تفكير .

وارسلت جمعية البحوث الفيزيقية مندوبا عنها الى الهند للتحقيق ، قبل ان تعلن الجمعية تقريرها . ولكن المندوب ، بعد ان سمح له اخيرا بدخول الحجرة التي يوجد بها « المقام » ــ وكان هذا المقام قمرة مصنوعة من الواح خشب البلوط كانت خطابات المهاتمات توجد بها ويتم تسلمها عن طريقها ــ وجد جدران القمرة وقد تم تجديدها ، كما وجد القمرة خالية . ولكن احد الاتباع المخلصين ، اراد ان يثبت امام المندوب ان اي خداع كان مستحيلا ، فخبط على جدران المقام قائلا : « انظر ، انها مصمتة تماما » ولكن تحت خبطاته تحرك جزء من الجدار الداخلي كاشفا عن فتحة داخلية موصلة الى فتحة اخرى في جدار

حجرة نوم « هـ . ي ب ». واقتنع الحاضرون بان كل هذا كان من صنع السيدة كولومب وزوجها الخائنين ، وكان المعروف ان زوجها كان نجارا ، هكذا نقل « المقام » الى حجرة اخرى،حيث تم اخراقه فيما بعد . وعلى هذا الاساس جاء تقرير جمعية البحوث الفيزيقيةمليئا بالشكوك .

وكانت مدام بلافاتسكي مريضة بسبب اثار وزنها وحجمها الهائلين ، ولما فكرت في رفع دعوى ضد ارسالية التبشير المشرفة على المجلة ، نصحهااصدقاؤها الا تفعل . وقالوا ان « الساحر » دائما سيكون موضع الشك امام المحكمة، خاصة اذا كان خصومه من رجال الدين، وسوف يطلب منه ان يثبت مزاعمه عمليا في « جو » غير مناسب ولم يهيأ من قبل .. ولكن الارسالية لم تسكت من جانبها ، وانما قررت اقامة الدعوى ضد جنرال اتهم السيدة كولومب بانها كاذبة ولصة . وكان من الضروري ان تؤدي المحاكمة الجديدة الى نفس النتائج ، من اضطرار « هـ.ي.ب » الى الوقوف امام المحكمة واظهار « قدراتها » .. فهربت من الهند الى اوروبا ..وبذلك كانت قد اكملت دائرة حياة اي ساحر ومصيره ، والصعود المظفر والسقوط المفاجيء .

وفي اوروبا تجولت مدام بلافاتسكي في ايطاليا وسويسرا والمانيا .وكانت تموت ببطء بسبب مرض في الكلى اصيبت به في الهند . وقررت ان تضع كتابا ثانيا تشرح فيه الجوانب الغامضة من كتاب: «رفع النقاب عن وجه ايزيس ».ومرة اخرى راحت صفحات الكتاب تتراكم بينما يجري قلمها لتسويد صفحات جديدة (وقد بلغ عدد صفحات الكتاب عندطبعه ١٥٠٠ صفحة). وفي اثناء زيارتها الثانية لانجلترا ، وكانت ما تزال « تؤلف » ، قالت لييتس : « انني اكتب ، واكتب ،واكتب، تماما مثلما لا يفعل اليهودي التائه سوى ان يسير ويسير ويسير .. » . وقد كشف ييتس في مذكراته عن جانب من مدام بلافاتسكي لا يتضح من كتاباتها ، وذلك هو احساسها بالفكاهة ومرحها الساخر ..

وكانت مخطوطة الكتاب الجديد « القانون السري » كومة هائلة من الاوراق غير المنسقة . وقد قرأ المخطوطة اصدقاء متنوعون وقالوا لها انها لا يمكن ان تفهم . ولكنها طلبت منهم ان يشرعوا في اعداده ، وهكذا تم نسخه وترتيبه .وصدر الكتاب في عام ١٨٨٨ . وقامت آني بيزانت ،التي كانت عضو الجمعية الفابية ، والعشيقة السابقة لبرناردشو ، قامت بكتابة عرض نقدي" للكتاب ، وطلبت في نهاية المقال ان تقابل المؤلفة .وفي بداية المقابلة ، كان انطباع آني بيزانت عدائيا،ولكن«هـ.ي.ب» استطاعت ان تستحوذ عليها في النهاية،بل ان آني اصبحت فيما بعد رئيسة الجمعية الثيوصوفية . ولا يعرف احد ان كان ذلك بايحاء من شو ام لا . ولكن المؤكد ان علاقتها كانت قد انتهت به نهاية محزنة قبل ذلك بقليل .. وقد وصفها شو بعد

ذلك بسنوات كثيرة ، في لقائه مع ابنها الهندي بالتبني ، انها لم تكن ابدا قادرة على التفكير السليم ..

وماتت « هـ.ي.ب » في عام ١٨٩١ ، في عامها الستين ، بعد ان عانت من عدة امراض سيئة طوال السنوات الست الاخيرة من حياتها . وقد وصفها كاتب سيرتها ، جون سيموندز بانها كانت من ابرز من عاش من النساء على الارض اطلاقا ، وانها كانت اكبر من ان تحتملها الحياة .

وقد زعم اليستر كراولي انه هو التجسيد الجديد لا ليفازليفي . فاذا كان هذا صحيحا فلا بد ان مدام بلافاتسكي كانت هي التجسيد الجديد لكاجليوسترو . فقد تمتعت بنفس ما تمتع هو به من جاذبية وسحر ، ونفس النزعة الى المغامرة ، ونفس المزيج من الدعابة والحماقة والقدرة النفسانية الاصيلة التي لا شك فيها ، والتي يحكى عنها الكثيرون (من بينهم الجنرال جوردون والشاعر ييتس) قصصا كثيرة ..

ولكن سوامي داياناندا ، كان لا شك محقا حينما انتقد الثيوصوفيين لتركيز اهتمامهم على « الظواهر » الغريبة . فالنساك الهندوس ، يصرون على ان اي ممارس متقدم لليوجا ، يستطيع ان « يولد » هذه الظواهر ، وانها ليست سوى مضيعة للوقت ، وليست سوى نوع من التشتيت على طول طريق التقدم الروحي . وتمتلىء كتابات الثيوصوفيين ـ التي تتضمن اعمالا كلاسيكية بارزة ، مثل كتاب « الحكمة القديمة » لآني بيزانت ، « البوذية الغريبة » لسينيت ـ تمتلىء بالاشارات المرجعية الى المخطوطات البوذية واليوبانيشادية ، ولكن كل من يتحول عن هذه الكتابات الى المخطوطات الاصلية ، سوف يتبين سريعا ان ثمة هوة هائلة تفصل بينهما ، فقد ضاع نقاء الدافع الديني الاصيل القديم اثناء عملية النقل . وليس السبب هو افتقار الديانات القديمة ـ مثل الهندوسية ـ الى القصص العجيبة والمخيفة عن المعجزات المختلفة . فان كتاب « ترجمة ذاتية لمحب اليوجا » الذي كتبه بارامهانا يوجاناندا ـ وهو كتاب حديث لرجل مات عام ١٩٥٢ ـ يحتوي على قصص تبلغ من الغرابة مبلغ اي شيء يمكن ان تلتقي به في حياة قديسي العصور الوسطى . ولا تتضمن هذه القصص مجرد حكايات التواصل عن بعد أو « التجسد » عن طريق الجسد الاثيري من مسافات بعيدة ، وانما عن خلق قصر سحري في الهيمالايا ، ومداواة ذراع احد محبي اليوجا وشفائه في ليلة واحدة رغم ان الذراع كان قد انتزع من الكتف تقريبا . ورغم ذلك فان كتاب يوجاناندا يشع بروح الهندوسية الحقة ، ويستطيع ان يخلق ذلك التشبع الروحي الفريد الذي يمكننا ان نعثر عليه ايضا في كتاب : « انجيل سري راماكريشنا » وفي « البهاجافادجيتا » . ان كتاب « القانون السري » اذا ما قورن بمثل هذه الكتب ، لن يزيد عن ان يكون عملا في مستوى حكايات الاطفال الخرافية ، مزيجا مهوشا

كالوحل العشوائي، يحمل على سطحه كل انواع الاشياء الغريبة . اننا نشعر مرة اخرى بان الاهتمام بعلوم الغيب ، يتضمن غالبا نوعا معينا من الفجاجة او عدم النضج .

بل ان هذا يصبح اكثر وضوحا حينما نفكر في حركة احياء السحر التي تبعت موت اليفاز ليفي في فرنسا . كان أهم تلامذة ليفي هو الماركيز الشاب ستانيسلاس دي جويتا الذي كتب مجموعة من القصائد الغنائية بطريقة بودلير وكان يتعاطى الافيون والمورفين . وقد كون دي جويتا ، بالاشتراك مع دارس شاب للكابالاه ، يدعى اوزوالد ويرث، فرعا لجمعية « الصلب الوردي » في باريس . ثم وضع كتابا عجيبا يقع في عدة مجلدات تحت عنوان : « افعى سفر التكوين » وله عنوان فرعي : « معبد الشيطان » حيث شن هجوما عنيفا ضد : « نبي مزيف كذاب » يدعى ايوجين فنتراس ووصفه فيه ب : المعبود الوضيع لسدوم الغامضة، والساحر من اسوا واردا الانواع ، والمجرم الملعون ، المدعو جوزيف انتوان بولان .

ويحتل فنتراس وبولان ـ هدفا هذا الهجوم ـ مكانا بارزا في تاريخ علوم الغيب والسحر الفرنسية في القرن التاسع عشر . وقد برز فينتراس من خلال قصة معقدة وغريبة عن انضمامه الى كارل ويليام نوندورف ، الالماني الذي ادعى انه لويس السابع عشر ، الابن الغامض المصير للويس السادس عشر وماري انطوانيت، والمطالب بالعرش الفرنسي ، وما كان من تحول فنتراس الى الساحر والمتنبيء الخاص بحركة نوندورف ، ثم اشتراكه مع جوزيف بولان في تأسيس جماعة تهتم بعبادة الشيطان وتقيم شعائرها واحتفالاتها السحرية في العراء حيث كانت تتحول الى حفلات عربدة جنسية تستمر اياما عديدة .

وتشير الادلة التاريخية الى ان ابن لويس السادس عشر وماري انتوانيت، قد مات في السجن وهو في العاشرة من عمره عام ١٧٩٥ . فقد سجن الطفل التاعس الحظ في حجرة مظلمة لمدة ستة شهور ، وكان طعامه يدفع اليه من اسفل الباب ، فمات بعد الشهور الستة بداء الاسقربوط (من امراض سوء التغذية والرطوبة) . ولكن لا يبدو ان احدا قد راى جثة الطفل بعد موته ، واشيع فيما بعد انه كان قد تمكن من الهرب . بل ان « دائرة المعارف البريطانية »، تعترف بان قصة الهرب محتملة تماما كقصة الموت بسوء التغذية . وعلى اي حال ،فان احدا لم يسمع به بعد ذلك ابدا . ولكن حدث في عام ١٨٢٢ ان ظهر رجل الماني يدعى كارل ويليام نوندورف في فرنسا ، واعلن انه هو وارث العرش المفقود. ولكنه نفي من فرنسا وطرد في عام ١٨٢٦ رغم انه كان قد جمع حوله عددا كبيرا من المؤيدين المتحمسين . واعلن اتباع نوندورف بعد موته ان فرنسا توشك ان تدخل مرحلة من الكوارث المروعة (واطلقوا على انفسهم اسم : منقذي فرنسا) وقد

ثبت فيما بعد أن نبوءتهم كان صائبة ، وانه لم يكن من الممكن تجنب هذه الكوارث ما لم يعدصاحب العرش الى عرشه ، فيبدأ على الفور عصر ذهبي ،عصر من الرخاء الذي لم يسبق لهمثيل، ماديا ومعنويا .

وحدث ان وصلت النبوءة بطريقة غامضة الى فينتراس الذي كانت تنتابه اعراض الصرع باستمرار ، وكان كثيرا ما يرى في نوباته نوافير الدم ويطلق الصيحات عن الدماء المتدفقة .وانضم فينتراس الى نوندورف وراح يبشربمقدمه ومقدم عصره . وانضم اليه عدد من رجال الكنيسة وعارضه اخرون ، ثم دخل السجن وخرج منه في عام١٨٤٥ — نفس العام الذي مات فيه نوندورف في انجلترا — ولكن جمعيته استمرت في الازدهار . ثم اعلن انه التجسيد الجديد للنبي ايليا ، مثلما اعلن كاجليوسترو ذلك من قبل .ورغم ان البابا اعلن ان جماعته محرومة من الكنيسة ووصمها بالهرطقة فان الجماعة استمرت في الازدهار . ثم عاد الى فرنسا عام ١٨٧٥ ، وضم الى جمعيته التي اطلق عليها اسم « كنيسة الكرمل » جماعة من القساوسة ، ومات في ديسمبر من نفس العام .

وكان احد هؤلاء القساوسة هو بوللان الذي كان قسيسا مطرودا من الكنيسة. ويقول كاتب ترجمته — ضمن كتاب عن حياة هيوسمانس — وهوروبرت بالديك ، زميل كلية بامبروك في جامعة اوكسفورد — يقول ان دراسة اوراقه الخاصة التي اكتشفت حديثا في قرية فرنسية نائية (واكتشفها مسيو بيير لامبرت) بالاضافة الى « اعتراف » كان بوللان قد كتبه بنفسه اثناء وجوده في سجن « الادارة المقدسة » — تقدم الادلة الكافية على وجود اسباب قوية لطرده من الكنيسة . واسس بوللان جمعية دينية بالقرب من باريس عام ١٨٥٩ تقوم على اساس فكرة ان « الجماع الجنسي » هو الوسيلة المثلى للخلاص ، وجعل اتباعه يعتقدون انهم يمارسون الجنس مع كليوباترة اومع الاسكندر الاكبر ، ومع بعض القديسين وكبار الملائكة ايضا . وفي ١٨٦٠ ، ذبح بوللان طفله غير الشرعي الذي كانت زميلته في تأسيس الجمعية قد ولدته له ، وقدمه قربانا للشيطان في حفل ديني . ولكن هذا فيما يبدو لم يعجب الرب ، فدخل بوللان السجن حتى عام ١٨٧٠ ، ثم اسس جمعية جديدة واصدر مجلة باسم « الصحة النفسية في القرن التاسع عشر » واستمر في ممارسة نشاطه في مجال السحر وعبادة الشيطان ، وظل اساس تعاليمه فيما يبدو جنسيا ، وراح يعلم اتباعه كيف يحلمون بانهم يجامعون القديسات او القديسين عن طريق الايحاء الذاتي . وعند هذه المرحلة تدخل رئيس اساقفة باريس وحصل على قرار بحرمانه نهائيا من الكنيسة ، ولكن بوللان انضم بعد ذلك الى فينتراس ، ثم بدأ النزاع بينهما حينما اعلن بوللان ان فينتراس قد عينه خليفة له في رئاسة « كنيسة الكرمل » ، وتم

الانفصال بينهما ، فيِنفس الوقت الذي كان بوللان فيه يطور افكاره : فلما كان آدم وحواء قد طردا من الجنة وسقطا بسبب الجنس ، فلا بد للانسان من ان يعيد رفع نفسه ويسمو بنفس الوسيلة، ولما كان الجماع الجنسي اتحادا بين جسدين ، فان ممارسة هذا الجماع مع شخص اكثر سموا ستؤدي الى ان ترفع نفسك وتسمو الى مستواه ، ومن هنا تأتي اهمية التصورات الخيالية عن ممارسة الجنس مع يسوع نفسه او مع العذراء المقدسة ذاتها . ولما كان بوللان نفسه يحتل مكانة اكثر سموا ـ من الناحية الروحية ـ بالمقارنة مع عضوات جماعته ،فانه كان قادرا على الدوام على ان يساعدهن في الصعود خطوة الى الامام على ذلك الطريق الصاعد نحو السمو .

وكانت هذه الافكار الجنسية هي هدف الهجوم الذي شنه ستانيسلاس دي جويتا في كتاب « معبد الشيطان » في عام ١٨٩١ ، وقال انها افكار ترقى الى مستوى ممارسة الجنس مع اناث الجن وذكوره . وكان ان تمكن هو وزميله ويرث من الانضمام الى جمعيته حتى كسبا ثقته فكشف لهما عن التعاليم الجنسية (السرية بالطبع) للجمعية . ولكنهما دبرا « انقلابا » داخل الجمعية واستصدرا قرارا بحرمانه ، واصدرا ضده حكما بالاعدام بعد ان ثبت انه مذنب .

واعلن بوللان ان دي جويتا وويرث يريدان قتله بالسحر ، وبدات الحرب بين الطرفين في شكل محاولات مستمرة ـ وفاشلة ـ تبادلا فيها كل وسائل القتل بالسحر دون فائدة . وانضم الى دي جويتا وويرث (الذي كتب بعد ذلك مؤلفا كبيرا عن اوراق التاروت) اثنان من اعضاء جماعة « الصلب الوردي » اولهما هو الشاعر ادوارد دوبو ،والثاني هو الكاتب الروائي الذي فضل ان يخفي شخصيته تحت اسم سار بيلادان الذي كان شخصا شاذا غريب الاطوار . واستمرت المعركة طوال سنوات حتى مات بوللان في ٣ يناير عام ١٨٩٣ ، بسبب التهاب في الرئة وازمة قلبية ، اما جويتا فمات بعده بخمس سنوات (ولم يكن قد بلغ الثلاثين بعد) بسبب جرعة كبيرة من المخدرات . وكان بوللان قد التقى قبل موته بالكاتب الروائي ج.ك. هيوسمانز بناء على طلب الاخير ، الذي سعى الى « الساحر » لكي يحصل منه على المادة اللازمة لكتابة رواية عن عبادة الشيطان ، واعدا بوللان بأن يجعله احدى شخصياتها الرئيسية ،بوصفه « الانسان الاسمى » . وقد وفى بوعده بعد ان اقام مع بوللان في ليونز مدة من الزمن . وصدرت الرواية في عام ١٨٩١ بعنوان « العالم السفلي » متضمنة صورة محببة لبوللان بوصفه الساحر الابيض الذي يسيء الناس فهمه . باسم « الدكتور يوهانس » وهو الاسم الذي كان بوللان يتخذه احيانا ،الذي يقوم بالمعجزات ويشفي الناس من آثار اعمال السحرة الاشرار .

ولا يمكن أن نعتبر « العالم السفلي » رواية جيدة ، بل انهـا لا تكـاد تكـون روايـة على الاطلاق . ولكنهـا تعتبر وثيقة هامة للغاية لا تلقي الضوء على التكوين النفسي للسحرة الفرنسيين فيالقرن التاسع عشر فحسب ، وانما على طبيعـة « السحر الاسود » في كلالعصور ،وخاصة من خلال الصورة التي تقدمها لـ« القداس الاسود » الذي يقيمه السحرة للشيطـا نويرفعون فيه صليبا مقلوبا يتدلى منـه راس المسيح نحو الارض ، وهي صورة يمتزج فيها القبح بالقذارة بالشر والقسوة امتزاجـا كامـلا . . .

ولكن الشيء الذي يبرز بروزا واضحا في وصفه للقداس الاسود هو رغبـة المشاركيـن في « هز انفسهم » للخروج من حالة ركودهم وكآبتهم العاديـة . ان سمـة من اكثر السمات غرابةفيكل مثل تلـك الاحتفالات ــ مثل سبت الساحرات وما الى ذلك ــ هو ذلك التأكيـد على الاوساخ والقذارة . وعند هيوسمان،يصبح واضحـا ان الامر كله ،مع بعدهالكامل عن ان يكـون مرعبا وشريرا ، لا يعدو ان يكـون تعبيرا عن انواع الاحباط البورجوازية . ان الابوين يطلبان مـن الاطفال ان يحافظـوا على نظافتهم ،ولذلك فـان الانغماس في القذارة يولد احساسا بان من يفعل ذلك شرير . اما انواع« التجديف » وصور الهرطقة ، فتبدو خالية من اي ضرر بالنسبة لكل منلميكـن كاثوليكيـا ولكل من لم يقبل الاعتقـاد بأن رفض الايمان بالوهية المسيح يتضمن لعنة ابديـة وادانة شاملـة . امـا تشنجـات المشاركيـن في القداس الاسود وتقلصاتهم القبيحة التي تضاعف من قبحاشكالهم الاصليـة ، فان المؤلف لم يسهب في وصفهـا الا بقصد التنفيس عن الطاقة المكبوتة مثلمـا يحدث في التمثيليات والافلام الداعرة . .

ان القبح هو مـا يفترضانيكون مملكة الشيطان . ولكن يستطيـع القارىء ان يلمس عنصر التناقض الذاتي داخل روايـة هيوسمـان . فكل هذا القبـح والدمامة الكئيبة لا يستطيعـان اظهار القداس الاسود في مظهر الشر ، لاننا لا بد ان نسال : من الذي يريد ان يشهد شيئا باعثا على الغثيان بهذا القدر ؟ ولذلك ، فانه يحرص على انينبهالى حضور بعض الجميلات من النساء ، بل ووجود فتـاة صغيـرة رائعة الجمال . وهـو بهذا ، يكشف عـن العبث السخيف المتناقض الكامـن في نزعـة عبادة الشيطان . ان العنصر الذي يجعل من القداس الاسـود شيئا جذابا هو الجنس الوثني، الصحي الطبيعي للغاية . والقوة الدافعة الكامنـة وراءه هي الكبت الجنسي الحتمي في كل حضارة ، حيث يتيح الفراغ لكل شخص ان يغرقفي احلام اليقظة احيانا حول الجنس . وليست الصور المقيتـة للاجساد القبيحـة الملوثة بالوسخ والقذارة سوى محاولة لتغطية هذه الحقيقة واخفائهـا . ولم تكـن قد مضت اكثر من عشرين سنة بعد صدور رواية « العالم السفلي »حتى

جاء « د.هـ.لورنس » لكي ينسف كل الاسس التي قام عليها هذا النوع من « الشيطانية » الصبيانية العقيم ، بتأكيده ان الجنس نشاط محرر ، وان « عضو الذكر الجنسي ، هو الحبل الذي يصل بين الانسان وبين النجوم » ، وان الزوجين الصحيحين ، سيشعران بعد الجماع الجنسي بشعور من « يسبح في المحيط » الذي يميز التصوف . ولا يمكن ان يكون هذا الاحساس بالسباحة في المحيط احساسا شيطانيا ، انما هو التهيؤ للتشبه بالآلهة . ولو امتلك عباد الشيطان عند هيوسمان اي قدرة على ملاحظة ذواتهم ، للاحظوا انهم كانوا يحسون بالتحرر والتخفف من كثير من مكبوتاتهم ، ولأحسوا بذلك « الوعي الكوني » بعد احتفالهم المليء بالعربدة ، وان هذه الاحاسيس هي ما تتناقض بشكل كامل مع احترافهم لمهنة عبادة الشيطان . ليست عبادة الشيطان سوى فرضية عكسية مصطنعة ، دفعها الى الوجود والتعصب والاحباط ـ وليست تعبيرا اصيلا عن تمرد الانسان ضد كل ما يشبه الرب .

ويؤكد هذا الاستنتاج ، ما يكشف عنه هيوسمان من ضعف وفجاجة في شخصية بطل الرواية (دورتال) الذي يفترض انه صورة شخصية للمؤلف نفسه. وتنشأ مشاكل « دورتال » من ضجره وقلة نشاطه . وكان ضجره هو السبب الذي دفعه الى حالة من الحمى العاطفية حينما يتسلم بعض الخطابات من سيدة مجهولة. وحينما يكتشف ان هذه « المجهولة » هي احدى سيدات المجتمع كان قد قابلها يشعر بالابتهاج والاحباط معا. يشعر بالاحباط لان السيدة كانت اقل بريقا من « مجهولته » الخيالية ، وبالابتهاج لان السيدة كانت ـ رغم كل شيء ـ ما تزال مغرية من الناحية الجنسية . وحينما تتمنع عليه يبدأ في الشعور بالرغبة الجنونية فيها . ثم يصل الى ذروة سعادته حينما تسمح له بان يقبلها بينما زوجها في الحجرة المجاورة . وحالما تستسلم له تثور اعصابه ، وفي صباح ليلتهما المقبضة ، يغرق في افكاره حول التطهر وحب الخير . ولكي يعتذر عن النوم معها مرة اخرى ، يقول لها ان له عشيقة وطفلا مريضا ، ويستفز مشاعره حتى يوشك على البكاء . وليس « دورتال » بهذا الشكل سوى اضافة ضئيلة الى الصف الطويل من الابطال الضعفاء في الادب الفرنسي : اوبرمان عند كونستانت ادولف ، وجوليان عند ستندال ، وروبيمبريه عند بلزاك . وليس هناك اعتراض عليه سوى ان هيوسمان لم يكن مدركا لهذا الضعف ، وانما يظن ان عذابات دورتال ـ وهي العذابات التي ستعيد المؤلف مرة اخرى الى الكنيسة في رواية « الكاتدرائية » ـ هي عذابات الحساسية والذكاء والشعور المرهف ، وليست ناشئة من مجرد الاسراف في الاهتمام بالذات والافتقار الى النظام والانضباط .

وكان هيوسمان قد نال شهرة كبيرة في غصره بسبب روايته الاولى الجديرة بالاهتمام : « ضد البذرة » التي تحدث فيها عن شاب ثري يدعى « دي ايسيانتس » الذي ينفر مما في الحياة اليومية من ابتذال وتفاهة ، فيحبس نفسه في منزله الريفي الفاخر ،تحيط به الكتب واللوحات والمشروبات الكحولية وأنواع الطعام الجيد الغريب لكي يعيش حياة لا تعتمد الا على الخيال وتغذية الحواس . ويعتبر « دي ايسيانتس » واحدا من اعظم رموز الثورة الرومانتيكية ضد « العالم » . (يقول « آكسيل » في مسرحية فيار/دي‌ليل آدم :« اما فيما يتعلق بالحياة ، فان خدمنا يستطيعون القيام بذلك لاجلنا ») . وقد بدأ هيوسمان باعتباره واحدا من اتباع زولا والمدرسة الطبيعية ، ولكنه كان اكثر ميلا وتعاطفا مع النزعة الالحادية عند اوسكار وايلد (وقد اصبحت روايته « ضد البذرة »هي انجيل دوريان جراي في رواية وايلد الشهيرة) . ولكنه ازداد شغفا بموضوع عبادة الشيطان ــ الذي كان احد الموضوعات التي نوقشت في الرواية الاولى ــ فقرر أن يكتب روايته الثانية حوله . وكان لا بد ان يجمع مادته ،وعليه ان يلتقي بأحد المتخصصين اوالمحترفين في عبادة الشيطان ، ومن هنا بدات علاقته ببولان الذي كان قد سمع به .. وقرر هيوسمان ان يقيم بناء روايته على اساس المواجهة بين الساحر « دكتوريوهانس » وبينه هو شخصيا تحت اسم « دورتال » .

ويسجل هيوسمان حياة دورتال ومسار مستقبله ــ وحياته هو شخصيا ومستقبله ــ في ثلاث روايات متتالية : « في الطريق » ، « الكاتدرائية » ، « خادم الدير » . ومن الصعب ان نطلق على هذه الكتب مثل « العالم السفلى » تماما صفة الرواية ، ولكنها تقدم بالتفصيل صورة لطريق دورتال الى قاع الكنيسة ــ فهو ينتهي الى ان يكون خادما في احد اديرة الرهبان البندكتيين ــ مع مناقشات مطولة حول لاهوت العصور الوسطى وحياة القديسين . ولكن القاريء لا يلمس حلا لمشاكل دورتال ، لان الكاثوليكية ليست هي الحل . ان دورتال منقسم على نفسه، تعيس ، غير راض مطلقا عن حياته ولا عن نفسه . وما يدفعه ليس سوى احتياج تطوري ملح،انها الرغبة في الوصول الى « الطرف البنفسجي » من طيف الوعي ، وهو يفشل في بلوغ ذلك الطرف .

*

« في قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني ،كنت كثيرا ما ارى رجلا في السادسة او السابعة والثلاثين ، في سترة من القطيفة البنية ، له وجه مصمم نحيل ، وجسد رياضي قوي ممشوق ، بدا لي ، قبل ان اعرف اسمه ولا ما يدرسه ، كشخصية من الشخصيات الروائية . ثم قدمني اليه احدهم .. كان يدعى ليسدل

ماترز ، ولكنه سرعان ما سيصبح ،بتأثير « الحركة الكلتية » (1) : ماك جريجور ماترز ، ثم ماك جريجور فحسب . كان هو مؤلف : « كشف النقاب عن الكابالاه » . ولم يكن يشغله في دراسته الا موضوعان : السحر ونظرية الحرب ، لانه كان يؤمن انه قائد بالفطرة ، ولم يكن هناك ما يتساوى في نظر هذا اليهودي القديم سوى الحكمة والقوة . كان قد نسخ العديد من المخطوطات حول السحر ،تعاليمه وطقوسه ، في المتحف البريطاني ، وكان يعتزم ان ينسخ مخطوطات مشابهة كثيرة اخرى من عدد آخر من المكتبات الاوروبية ، وقد بدات انا ـ من خلاله اساسا ـ في دراسات معينة وفي عدد من التجارب التي اقنعتني ان صورا بعينها تنبع صاعدة امام عين العقل قادمة من مصدر اكثر عمقا من الذاكرة اللاواعية او الواعية . واعتقد ان عقله في تلك الايام الباكرة لم يكن يناقض وجهه وجسده او يخفي حقيقتهما ، رغم انه في سنوات متأخرة بعد ذلك اصبح عقله مشوشا ـ مثلما كان عقل دون كيشوت مشوشا ـ لانه راح يدافع عن كبريائه وسط الفقر الفظيع . وقد اخبرني شخص كان يمارس معه الملاكمة كل ليلة انه كان يستطيع ان يطرحه ارضا طوال اسابيع رغم ان ماترز كان هو الاقوى ، ثم عرف بعد ذلك بمدة طويلة ان ماترز كان لا يكاد يأكل شيئا في تلك الاسابيع » .

لقد اوردت هذه الفقرة الطويلة من ييتس لان صورة ماترز تحتوي كل العناصر الاساسية في الساحر . هناك الفقر ، وقوة الارادة الدافعة والاحساس الغامض بالمصير ، والرومانتيكية التي تجعله يغير اسمه من ليدل الى ماك جريجور . وقد نجد ما يغرينا بالقول بانه رجل ولد في عصر ليس عصره ، مغامر يكتشف ان القرن التاسع عشر قد اصبح مروضا اكثر مما ينبغي ، ولكن طالما ان باراسليساس واجريبا ـ مثلما راينا من قبل ـ لم يكونا احسن حظا في عصرهما الاقل ترويضا ، فانه لا يتمسك طويلا بذلك الاكتشاف . اما « اليهودي القديم » الذي يشير اليه ييتس في تشبيهه فهو احشوريوش اليهودي التائه أو المتجول . وقد افتتن ييتس بالصورة التي رسمها شيللي في قصيدته « هيللاس »

---

(1) الحركة الكلتية (او حركة البعث الايرلندي) حركة قومية الطابع ، ذات اتجاهات ثقافية وسياسية قوية ، نشات في ايرلندا في اواخر القرن الماضي واستمرت حتى عشرينات القرن الحالي ، لتنادي بالاستقلال الوطني لايرلندا ، واحياء لغتها الكلتية الغالية القديمة ، مع اعادة الكشف عن تراثها الشعبي والاسطوري الخصب الذي يرجع الى عصر ما قبل المسيحية والغزو الروماني لبريطانيا ، وتهدف الى اعادة صياغة الشخصية القومية الايرلندية بعيدا عن المؤثرات الاوروبية . شارك في تاسيس الحركة ، ييتس ولادي جريجوري وجورج مور وجون سينج وشين اوكيزي ، كما تاثر بهم بقوة جيمس جويس ، واثروا بقوة ايضا في معظم مدارس الشعر والدراما الغربيين الحديثة . (هـ . م)

التي يصف فيهـا اليهودي القديم الذي يعيش في « كهف بحري » يقع في وسط « بحر الشيطان ».ثم اصبح ييتس ثيوصوفيا ، وانضم الى « جماعة دبلين » التي التفت حول جورج راسل(ـ لانهم اكدوا وجود اليهودي المتجول حقا) . وتعد هذه الفكرة عن رجل وحيد من نوع اكثر سموا ، يمتلك من القوة والحكمة مـا يزيد عما يمتلكه البشر ،تعد فكرة شديدة الجاذبية بالنسبة لاناس من نوع ييتس ، ابغضوا عصرهم ونفروا منـه .

وقد قدم ماثرز ييتس الى جماعة صغيرة من « القبلانيين » ، الباحثين فـي الكابالاه من المسيحيين يسمون انفسهم « طلاب علوم السحر » ، ثم قرروا بعد ذلك بقليل ان يسموا انفسهم « جماعة الفجر الذهبي » . وراح ماثرز يتحدث بغموض عن « سيد » مجهول امره بأن يؤسس جماعة « طلاب علوم السحر » ــ وربما كان هـذا السيد هوسانت جيرمين نفسه . ويبدو ان الحقيقة هي ان ماثرز كان عضوا في جماعة « الصلب الوردي » وقد سأله عضو آخر هو الدكتـور ويليام وودمان ان يترجم مخطوطـةكان وودمـان قد اشتراها من احدى المكتبات فـي « شارع فارينجدون » . واكتشفـا معـا ان المخطوطة كانت تصف طقوس فرع من فـروع السحـر الشعائري ، وذكرت اسم جماعـة من السحرة في المانيـا . وقام ماثرز وودمـان والدكتور وين ويسكوت ، وهـو احد قضاة التحقيق في جرائم القتـل في لندن ، قاموا بالكتابة للجمعية الالمانية فحصلوا منها على التصريح اللازم لاقامة جماعتهم الخاصة . وانتهى ماثرز ــ بطبيعته الديكتاتورية ــ الى ان اصبح القائد الوحيد للجماعـة ..

وكونت جماعة « الفجر الذهبي » فروعا لها في ادنبرة وباريس ولنـــدن وويستونسوبر ــ مار . وزعم ماثرز انه قد تمكن من الاتصال بالرؤساء السريين في باريس ، وزادت سلطته باكتشاف مخطوط قديم من الجلد ، طبع في باريس عـام ١٤٥٨ ، باسم «كتاب السحر المقدس لصاحبه ابرا ــ ميلين الساحر » وقـد عثر عليـه في مكتبة الارسنال .

.. وقد حصل ماثرز على منحة سنوية من سيدة ثرية كان يعمل امينا لمكتبة ومتحف والدهـا الخاصين ، وكانت زوجته ، ابنة الفيلسوف بيرجسون ، مـن « العرافين » ايضـا وتشتغل بالتنبؤ بالمستقبل . وانتقل بعد ذلك الـى باريس حيث بدأ في التبشير بالشعائر المصرية ، التي يحتمل ان تكون هي نفس « الطقس المصري » الذي كان يبشر به كاجليوسترو .. وحينما مات ماثرز عام ١٩١٨ ــ بعد معارك عديدة مع الشخصيات البارزة الاخرى من الجماعة ــ كتب ييتس فـي ترجمته الذاتية انه يعتقـد انه قد قتل بالسحر ، قتله اليستر كراولي الذي كـان ماثرز قد استخدمه من قبل في احدى معاركه مع منافسيه على قيادة الجماعة ..

ويصف فرانسيس كينج في كتابه الممتاز عن « السحر الشعائري في انجلترا » ١٩٧٠ ما كان بعد ذلك من مصير جماعة « الفجر الذهبي » .. فقد انقسمت الجماعة اثناء حياة ماثرز ، ثم استمرت انقساماتها ، وكانت اهم الجماعات المنقسمة هي جماعة « ستيللاماتيوتينا » التي نشرت قوانينها السرية تلميذة كراولي فرانسيس اسرائيل ريجاردي ، الامر الذي ادى الى مزيد من التفكك . وقامت احدى الجماعات المنشقة الاخرى بدفن راياتها وأدواتها في قمة احدى التلال المشرفة على البحر عند الشاطيء الجنوبي . ولكن حدث عام ١٩٦٦ ان انهارت القمة واكتسحتها مياه البحر فتناثرت الدفائن القديمة على الشاطيء ، وراحت جماعات سحرية مختلفة تتنازع ملكيتها . ويبدو ان هذا هو ما يختتم تاريخ جماعة « الفجر الذهبي » .

القسم الثالث

قوى الانسان الخفية

فيها « ازوث الاسد الاحمر » الذي صنعه بيديه . ولا يتضح لنا ان كان قدعالج الفتاة باستخدام نوع من« القوة العقلية » بدلا من العلاج الطبي باستخدام الدواء، ولكن يبدو ان هذا هو الاقرب احتمالا، بالنظر الى عبارته التي قال فيها ان الطبيب الجيد يعتمد على « سحر » طبيعي . وقد اطلق باراسيلساس اسم«آزوث» على سيفه كذلك ، الذي كان متعلقا به الى حد ان قيل انه كان ينام في الفراش وهو الى جانبه .

وفي عام ١٥٢٤ استقر لمدة من الزمن في بازل،حيث عين استاذا لعلم الطب. فيدأ تعليمه هنالك بان امر تلامذته بان يوقدوا نارا كبيرة لكي يقذفوا فيها باعمال جالينوس وابن سينا والرازي ، وعدد آخر من الاطباء البارزين القدماء ،صائحا بأنهم جميعا كانوا اقل موهبة من شعرات ذقنه . وادانه الاساتذة الاخرون من مدرسي الطب في المدرسة ووصفوه بالمشعوذ الاستعراضي ، وبذلوا جهودهم لكي يحصلوا على امر طرده من الجامعة ، ولكن السلطات وقفت الى جانبه . كان صخابا ، شاذ الاطوار ، جامدا في معتقداته . يقول عنه احد من كتبوا عنه انه كان « سكرانا على الدوام واضح التفكير رائق العقل على الدوام » . وكان يتمتع بموهبة بارزة في الهجاء وسب الآخرين ، وقال يوما لزملائه : « لستم شيئا اكثر من مدرسين ومعلمي صبية ،تمزجون بين قملكم والهرش . انكم لا تستاهلون حتى ان يرفع كلب ساقه الخلفية ليستند بها اليكم في تبوله . اما اميركم جالينوس فهو في الجحيم ، من حيث راح يرسل الي الرسائل، فاذا عرفتم ما قال لي فيها، لرسمتم على وجوهكم علامة الصليب بذيل ثعلب . » كانت لغته دائما مفعمة بالالوان والحركة .

وتأرجحت حظوظه بمعدل يبعث على الدوران . كان قد عالج ساقا متعفنة للناشر فوربينيوس ، كان طبيبه الخاص يريد أن يبترها . اما علاجه لارازموس(١)

---

(١) ارازموس ـ ديزديريوس (واسمه الحقيقي جيرهارد جيرهاردز اوجيرجيرز) ١٤٦٦ / ١٥٣٦ ـ واحد من ابرز اسماء النزعة الانسانية الاوروبيين في عصر النهضة ـ هولندي الاصل ، ولكنه عاش متجولا بين باريس ولندن ، كامباري وروما ، كامبريدج واورليانز ، وان كان قد استقر فترتين في حياته في لندن وبازل . يعتبر ابرز اصحاب المواقف « العاقلة » في حركة الاصلاح ، ومن المستنيرين الكبار في عصر النهضة ، والمحافظين الاساسيين على الروح المسيحية وعلى فكرة الوحدة الاوروبية في ظل كنيسة مستنيرة . وقف ضد تعصب لوثر وضد الفساد الفكري والاخلاقي في البلاط البابوي . تعتبر كتاباته اللاتينية اعظم ما كتب بهذه اللغة في عصر النهضة الامر الذي اثبت عدم صلاحيتها للاغراض « الدنيوية » . والعلمية الحديثة . كتب في النقد الفكري والاخلاقي والاجتماعي ، وبشر بالنزعة العقلانية وحب الطبيعة والتبصر بقوانينها البديهية ودافع عن الفلسفة العقلية . وعن الحس الديني النقي من اللاهوتيات المعقدة في وقت واحد . ومات كاثوليكيا رغم دفاعه عن حركة الاصلاح وتطهير الكنيسة ورغم صداقته لتوماس مور . (هـ . م .)

في امريكا وفرنسا من اقامة سلطة الارادة الذكرية « الاكثر بعدا عن الشخصية » والاكثر صحة . ولكن ، حدث كنتيجة لهذه السيطرة الانثوية ان ظهرت الى الوجود كل الجوانب الرديئة ، الاقل بهجة ، للمسيحية ـ مثل فكرة ان الجنس خطيئة ، والافكار المفثية الصبيانية عن الفضيلة وعن الثواب في عالم ابدي ، في : « منفى مجازي لم يبرز فيه الوجود ابدا » . لقد خنقت قدرة الابداع ونزعة المغامرة ، لان « هاجس الامن والاستقرار الهادىء ذلك الهاجس الانثوي ، جعلهما اشياء خطيرة لا بد من تجنبها . وقد يكون ثمة شك في ان هذا الموقف شر في حد ذاته ، ولكنه يولد الشر بالتأكيد . ان ثورة رجال من نوع « دي صاد » وغيره من الذين سيطرت مكبوتاتهم على ملكات الابداع والخلق ونزعات المغامرة فيهم ، ان هذه الثورة كانت رد الفعل « الذكري » ضد هذه الفكرة الانثوية الخانقة عن « الطيبة » ، ولكنها كانت ثورة تماثل الفكرة المرفوضة نفسها في التفاهة والعقم رغم انها كانت نقيضها ورفضها . لقد اصبحت المسيحية ، طبقا لما يقوله بليك ، دينا انثويا وسلبيا ، نوعا من التعبير عن سلوك « مدبرات المنازل » القائم على الممنوعات والتحذيرات التي تبدأ دائما بعبارة : « انك لن تفعل كذا او كيت !! »

فاذا كان كل هذا صحيحا ، اذا كان بليك وتراث علوم السحر على صواب في نظرتهما الى النساء ، فان النتيجة ستكون نظرة داخلية جديدة تماما الى تاريخ الساحرات . لماذا نفكر في « الساحرات Witches » باعتبارهن نساء ؟ على الدوام ؟ ان الكلمة (الانجليزية) تنطبق على الرجال والنساء ، ولكن التصور الذهني عن رجل يتمتع بقدرات سحرية تستدعي على الفور صورة كاهن أو عراف عجوز ، من نوع ميرلين(1) او « جاندالف » في رواية تولكيين ، او ربما تستدعي صورة الساحر الافعى الدائرية الذي تحدث عنه ليتون . ان كلمة « ساحرة Witch » تستثير رؤى عن نساء يمتطين عصي المكانس الطويلة ، ويملأن المراجل بالاعشاب وجذور النباتات ، او يقدمن للشيطان المأوى والدفء البذيء . فلماذا هذا الربط بين تلك الافكار والاشياء ؟

في هذه المرحلة من التاريخ الانساني ، يهدف التطور الى الحصول على

---

(1) ميرلين ـ الشاعر والساحر الكاهن الغامض في مجموعة حكايات واساطير الملك آرثر ، النورماندية والسكسونية . انه « امير المغنين » الذي كان ابن احدى عرائس الغاب التي اغواها جني صغير ، ولكن ميرلين يتم تعميده على يدي القديس عابر فيصبح مسيحيا وينقذ من الشيطان ، ويصبح مغنيا وعرافا وكاهنا للملك آرثر ، الى ان تاسره جنية عظيمة (سيدة البحيرة) وتسجنه في شجيرة شوك بسحرها القوي ، ومن هناك يستطيع آرثر الملك ان يسمع صوته ويحصل على نصائحه دون ان يراه . ويبدو انه كان هناك شاعر يحمل هذا الاسم نحو القرن الخامس الميلادي ، وقد اصبحت شخصيته مادة الهام خصيب في الشعر الانجليزي ، الرومانتيكي خصوصا . (هـ . م .)

« الملكة س » . والبشر حيوانات في جانب منهم ، اننا مقيدون الى اللحظة الراهنة، كالابقار . ولكننا نمتلك ايضا قدرة معينة هامة بارزة لا يتمتع بها اي حيوان آخر. فلنفكر في تلك الفقرةمن رواية ديكنز : « كريسماس كارول » : حيث يفكر سكروج في نفسه حينما كان تلميذا في المدرسة ، فيتخلف عن زملائه ويبقى داخل حجرة الدرس لكي يقرأ « الف ليلة وليلة » برؤاها عن المدن البعيدة وتصور السلاطين وعلي بابا والسندباد. وفي تلك اللحظة يتبين الى اي مدى اخطات حياته الطريق الصحيح . لقد كان هدف العقل الانساني ان يحصل على اجنحة لكي يحلق فيفلت من مجرد اللحظة الراهنة ، منطلقا بعيدا الى ازمنةوامكنة اخرى.

فاذا حرم الاذكياء الحيويون من الناس ، من هذه « العطلة » من التفاهات اليومية ، لاتخذت قدراتهم الخلاقة شكل النفور المتزايد التوهج ضد الحياةالتي تسجنهم ، وضد معاييرها الاخلاقية . ولكن ، ليس الخيال الانساني وحده هو ما يشتاق الى التحرر ويسعى الى الانطلاق ، فان الارادة الانسانية تحتاج الى الاهداف والى الرغبات التي تستفزها .

ومن الممكن ان نرى النتيجة في الحالة المشهورة التي تجسدها « ايزوبيل جوداي » ، ساحرة اوولديارن التي قررت فجاة ان « تعترف » في عام ١٦٦٢، فخلقت بذلك اسطورة حافظت على قوة تأثيرها طوال قرون . ويبدو انها كانت فتاة جذابة ، ذات شعر احمر ، تزوجت من مزارع اسكتلندي كانت مزرعته النائية تقع بالقرب من بلدة اوولديارن في مقاطعة موراشاير . وكانت الحياة كئيبة غليظة في المزرعة ، وظلت ايزوبيل دون اطفال . وكان زوجها فلاحا جلفا محروما من الخيال . وتزعم ايزوبيل انها قابلت « رجلا في ملابس رمادية » في منطقة خلاوية على سفوح التلال القريبة ، وانه قام بتعميدها كساحرة في نفس ذلك المساء في كنيسة اوولديارن . وكان هذا في عام ١٦٤٧ . واخذت ايزوبيل تصف « ايام سبت الساحرات » ــ حيث يتجمعن في مجموعات كل مجموعة من ثلاث عشرة ساحرة . وقدرتها بعد ذلك على ان تحول نفسها الى ارنب بري او الى قطة . ومن الهام هنا ان نتذكر ان اعترافاتها كانت جنسية الى درجة مرضية ، فقد ذكرت انها نامت مع الابالسة في ايام سبت الساحرات ، ومع الشيطان الاكبر نفسه ، بل ان احد الابالسة من عشاقها جامعها حينما كانت تنام في فراشها الى جانب زوجها ،وقالت ان السائل المنوي للشيطان كان باردا كالثلج . وان الشيطان الاكبر اعتاد ان يضرب الساحرات ، اللواتي كن بالطبع عرايا .

وبذلك تبدو الصورة التي تبرز من هذه الاعترافات صورة خيالية صادرة عن فتاة ذات رغبة جنسية قوية قادها الاحباط والكبت الى نصف الجنون ،حتى انشأت

من خيالهـا بناء وهميـا كامـلا عن قوى الشر . وهو بناء وهمي ماسوشي فـي اساسه، حيث يتم تعميدها بدمائها التي امتصها الشيطان من جسدها ، ثم يضربها الابالسة ويغتصبونها جنسيا . وبعد قليل تقع حياتها جميعا تحت سيطـرة هـذا الوهم الذي تزيده قوة ميولها الماسوشية القويـة . ان كبتهـا ونكوصهـا الجنسي يتطور حتى يتحول الى نوع من السم الحلو ، يضاعف من قوته التعاليـم الدينيـة التي سيطرت على المنطقة ، من النزعات البرسبيتاريانية (١) القائمة علـى تعاليـم كالفين المنذرة المهددة . ولـم يكن يخالجها شك فـي انهـا قـد بـاعت نفسهـا للشيطـان ، لان الخيالات التي كانت تسيطر عليهـا ليلا ونهـارا كانت خيالات تعشش الشياطين في كل اركانها : فالشيطان الاكبر يفرقع بسوطه في الهواء ، ثم يغتصبهـا بعضوه الهائل الحجم ، الامر الذي يجعلها تشعر بآلام فظيعـة وتتقاص نفس التقلصات التي تنتاب الام لحظة الوضع ، رغم انها آلام وتقلصات ممتعة مفعمة بلذة هائلـة . وبعد خمسة عشر عامـا من هذه الاوهام ، تملكتهـا فجـاة فكـرة مرعبة ، تكـاد تكـون بعيدة كل البعد عن العقل . انها فكرة تشبه الدوافع التـي تجعل بعض الرجال يكشفون عن اعضائهم امام الاطفال ، او مثل الدافع الذي جعل القاتل الجماعي بيتر كورتين يعود الى مسارح جرائمه لكي يتلذذ بما يراه على وجوه المتجمعين من امارات الرعب . ماذا يمنعها من ان تذيع امر اوهامها ، وان تذهل كل الناس بما ستسرده عليهم مما يجري وراء ظهور جماعتهم المتزمتة المتجمدة الفارقة في طمانينتهـا البليدة ؟ ولماذا لا تجر فـي خيالاتهـا بعض الشركـاء من اعضاء الجماعة ؟ ــ ولن يكـون هذا بالطبع مناقضا لما ستترويه ، وانما لانه سيكون عاملا مؤديـا الى مزيـد من اقتناع الاخرين . انها تعتـرف ، وتنسـاب اعترافاتهـا طـوال الاسابيع الستة من ٣ ابريل الى ٢٧ مايـو عام ١٦٦٢ ، وتبتهج هي وتزداد فرحا وهي ترقب الصدمة التي تولدها اعترافاتها . انهم ينزعون ملابسها لكي يكتشفوا آثار ضرب الشيطـان ومخالبه ، وتشعر هي بان هذه العمليـة ممتعة للغايـة مفعمـة باللـذة .

ولا يتضح من روايـة المؤرخيـن ما حدث لها ، او لساحـرات اوولديارن الاخريـات اللواتـي جرتهن ايزوبيل معها : يقول احد المصادر انهـا احرقت وذر

---

(١) الكنيسة البريسبيتاريانية ـ احدى الكنائس التي قامت على تعاليم كالفين الاصلاحيـة البروكستنانتية اصلا، حيث يقوم الشيوخ (البريسبيتارز) بتمثيل مجموع اعضاء الكنيسة في حكمها. انتشرت هذه النزعـة في اسكتلندا وبعض اجزاء الولايات المتحدة بعد عام ١٩٢٩، حينمـا عـادت الوحدة بين الكنيسة الحرة المنفصلة وبين الكنيسة الوطنية الاسكتلندية ، على اثر اقـرار مطلـب الكنيسة الحرة بعدم تدخل الدولة في الشؤون الروحية للمواطنين ولا فـي كيفية ادارتهـم لكنائسهـم . (هـ . م) .

رمادهـا في الريح ، ويعلن آخر ان السجلات والوثائق ناقصة ، وانه من المحتمل ان تكـون قد اطلق سراحهـا بعد الاعتراف . ومن المحتمل بالفعل ان تكون قـد اعدمت . ولكن القصة على اي حال تحتل مركزا رئيسيا في تاريخ السحر بسبب ما تحتويه من تفاصيل ـ اي بسبب خصوبة خيال ايزوبيل جوودواي .

ولكن هذا لا يعني التأكيـد بأن كل اعمال السحر منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر يمكـن ان تقف عند حدود الخيال والاحباط الجنسي . اننـا نعرف ان نسبة كبيرة من الناس يتمتعون بقدرات غامضة وغريبة ، وان هذا كـان هـو الحال دائمـا . وتتراوح هذه القدرات من القدرة على « قـراءة الشخصية » الى القدرة على التسبب في احداث « غير طبيعية » . وتشيع مثل هذه القدرات بشكل اكثر بين اهل الريف منها بين اهل المدن . ونحن نعرف ايضا انه حينمـا تتمكن فكرة قوية من الربط بقوة بيـن الارادة والخيال ، فان الواقع الحقيقي غالبا ما يبدو وكانه يؤكـد هذه الفكرة . وقد زعم الساحر كراولي في القرن الماضي ان مهاتما سريا من التبت هو الذي املى عليه كتابة : « كتاب القانون » بعد ان اتصل به عـن طريق زوجته. وليس علينـا ان نصدق مثل هذا الزعم . فنحن نعرف ان كراولي كان يؤمن ايمانا قويا بالسحر الى درجة وقوعه انفعاليا تحت سيطرة هذا الايمـان الذي تمكنت قنوات قدراته الابداعية من شق طريقها من خـلاله الـى السطـح . وهناك الكثير من القصص المشابهة تمامـا عن « الالهام » التي تتراوح بيـن نبوءات نوستراداموس الى نبوءات جوانا سوثكوت في نهاية القرن الثامن عشر (وقد انتهت حياتهـا كمتنبئة ملهمـة في عام ١٨١٤ حينما تنبأت انها على وشك ان تضع طفـلا وهي عذراء، وان طفلهـا هو « امير السلام » . وقد عاشت طـوال الشهور التسعـة التاليـة كل مراحل الحمل والوضع ، ولكنها لم تلـد الطفـل) وتكشف ترجمـة ستريندبرج الذاتية بعنوان « جهنـم » الطريقة التي يبدو بهـا الاعتقـاد الداخلـي المسيطر في فكرة معينة حول القدرات غير الطبيعية ، كيف يبدو مثل هذا الاعتقاد قادرا على التسبب في احداث تؤكـد حقيقة تلك القدرات . وطبقـا لمـا يقوله ويليـام بليك فان الاقتناع الراسخ بأن شيئا معينـا على نحـو بعينه ، يجعله يصبح على ذلك النحو . فحالمـا تمت اقامة النموذج الخيالـي ، فاستثار الهواجس المسيطرة الخلاقة ، فان الباقي يتتالى من تلقاء نفسه .

ومن الجدير بالملاحظـة هنـا ان نذكر أن غالبيـة من ذكرناهم فـي هـذا الكتاب من السحرة الرجال كانوا ذوي ميول طيبة تتجه الى الخير : اجريبا ، دي ، كاجليوسترو ، سانت جيرمـان . بل ان كراولي ذي الميول العادية الواضحة والذي يمكن ان يوصف بالقسوة الجسدية والعربدة الحسية البالغة ، قد أكـد ان سحره كان من النوع « الابيض » ، ولا توجد بالفعل اية قصة عن قيامه بايذاء اي شخص

باستخدام السحر . وحينمـا اكتشف بويز انه كان قادرا على ايذاء الناس بما في انفجارات غضبه من طاقات نفسانية ، اصبح : « ميـالا الى الخير بطريقة عصابية» اما النساء من جانب آخر فهن اكثر استعدادا للوقوع في قبضة الهواجس الداخلية المسيطرة ، وفي حالـة « الساحرات بطبيعتهن » فانهـن اكثر استعدادا لاسـاءة استخدام قدراتهن ـ ليس لخدمة اغراضهن وحصولهن على مميـزات شخصية ، وانمـا بهدف الاضرار بأعدائهـن .

ويوحي كل هذا بنظرية عـن السحر تختلف بشكل جوهري عن الفرضيتين اللتيـن سيطرتا على هذا المجال حتى الآن . وكانت الفرضية الاولى ، التي مثلهـا القس مونتاجي سامرز ، تقول بأن الشيطـان حقيقي هو واتباعـه من قطعـان الابالسة وان الساحرات والسحرة يمتلكون قوة حقيقيـة وانهم بالفعل في قبضة الشيطـان واتباعه . وتقول الفرضية الثانية ، انتي يمكننا ان نعثر عليهـا فـي « دائرة معارف السحر » التي وضعهـا روسيل هوب روبينز ، تقول بان الامـر كله لا يعـدو ان يكـون محض وهم خيالي وايحاء ذاتي بالوهم . اما الراي الـذي اقترحه هنـا فهـو ان للسحرة وقدراتهم وجودا حقيقيـا لا مجال للتقليل مـن شانه ، اما الشيطـان وقدراته فليس لهمـا شيء من ذلك . ولا يمكن ان يكـون مونتاجي سامرز ، ذلك القسيس الرومانتيكي الشكاك ، على خطأ تمامـا حينمـا يقول ان غالبيـة السحرة يستحقون مـا يلقون . وليس معنى هذا اننا نقول بانهم يستحقون التعذيب والحرق ، فـلا احد يقول بذلك . ولكن لا شك ان الكثيريـن منهم قـد اعتقدوا انهم خدم الشيطـان . ومن الامور ذات الدلالة الهامة هنا ان كل ما وصفته ايزوبيل جووادي من « سحر » انمـا الهمته النية السيئة والرغبـات الشريرة : فقـد ذكرت ان الساحرات استخرجن من القبر جثة طفل رضيع مـات قبل تعميده ثم دفنه وسط كومـة السنابل التي حصدها فلاح قبـل ان يقـوم بدرسها لكي يفسدن محصوله ، وصنعن دمى من الطين غرسن فيها دبابيس صغيرة بقصـد قتل اطفال العمدة ، ثم حرثن قطعة من الارض بمحراث صغير يقوده ذكر ضفدع كبير الحجم لكي يجعلن الارض تجدب ، وسواء كانت ايزوبيل قد اشتركت في هذه الاعمال السحرية ام لا فـان هذا موضع مناقشة ، ولكن لا سبيل الـى الشك في ان ساحرات وسحرة كثيرين قد قاموا بذلك . وفي حـالات كثيرة ـ ربمـا في اغلب الحالات ـ لا بد ان اعمالهم كانت مؤثرة ، والا لما اعتقـد النـاس فـي خطرهـا .

وهنـاك جانب آخر لا بد من وضعه في الاعتبار . ففي الجماعات الصغيـرة المعزولة ، تستطيع الخرافات نفسها ان تخلق « جوا سحريا » يمكن ان يزيد من تاثير الاعمال التي مـن هذا النوع . ومن الممكـن ان نرى هذا الجانب في واحـدة

من قضايا بلدنا ذاتها (انجلترا) ، وهي قضية : « جريمة القتل بالسحر » التي راح ضحيتها تشارلز والتون في شهر فبراير عام ١٩٤٥ في بلدة « لووار كوينتون » بمقاطعة ووريك شاير . فقد عثر على والتون ، وهو عامل زراعة يبلغ الرابعة والسبعين من عمره ، مطروحا على ظهره تحت شجرة صفصاف ، وقد اخترقت حلقه « مذراة » وانغرست اسنانها في الارض بعد ان نفذت من ظاهر رقبته ، ثم مزق جلده فوق ضلوعه على شكل صليب ، وترك الخطاف الحديدي الذي استخدم في « رسم الصليب » على جلده ، مغروسا في ضلوعه معلقا بها . وكان لدى المحقق فابيان — من سكوتلاند يارد الذي ارسله الى لووار كوينتون — كان لديه كل الاسباب التي دفعته الى تقرير انها قضية لن تستغرق اكثر من الزمن اللازم لفتح التحقيق ثم اختتامه لكي ينتهي منها ، لانه اذا كان لوالتون اعداء فلا بد ان كل سكان المنطقة سيعرفونهم . واخذ الفريق الذي عمل في القضية مع فابيان اقوال اربعة آلاف شخص ، وارسلوا تسعة وعشرين نموذجا من الملابس والشعر والدم لكي يتم تحليلها في معامل الشرطة ، ولكن دون نتيجة. كان الناس متوترين يرفضون المعاونة . وقد اضطر المحققون الى الانتظار يوما كاملا لكي يستجوبوا رجلا شوهد وهو يطل براسه من باب منزله ويقول : « لقد انقضى الآن شهر كامل على موته ودفنه — فما الذي يزعجكم ؟ » ثم اغلق بابه بقوة .

ويبدو الاستنتاج المنطقي من هذه الصورة واضحا بشكل معقول : فلا بد ان الكثيرين من سكان المنطقة كانوا يعرفون القاتل ، ولكنهم لا يبوحون باسمه . وتقع لووار كوينتون في وسط منطقة ريفية اشتهرت بالسحر ومن اقام فيها من السحرة . فعلى بعد ميلين من البلدة ، وفوق هضبة صخرية مرتفعة ، تنتصب « صخور روللي رايت » ، وهي نصب قديم من المحتمل ان يكون في مثل قدم آثار « ستون هينج » العتيقة ، ولا يشك في انها كانت في ازمنة غابرة تستخدم في اقامة احتفالات السحرة في ايام السبت الشهيرة . والمنطقة ريفية ذات تلال تكسوها الغابات ، وتشقها طرق متعرجة عليها اكواخ قديمة شيدت عند مفارق الطرق ، واسماء شريرة المعاني : كوع الشيطان ، المجزر (او المذبح) الاعلى والاسفل ، وكان لتل ميون نفسه ، حيث وقعت الجريمة على سفحه ، سمعة شريرة تدور حول ممارسة السحر .

ويروى دونالد ماك كورماك الذي وضع كتابا عن هذه القضية ، يروى محادثة دارت في حانة القرية ، قرر فيها احد الاهالي انه يعرف ساحرين (او ساحرتين) ما زالا يعيشان في المنطقة ، وقال آخر انه تزوج من ساحرة ثم هجرته بعد الزواج . وقد شاعت شهرة الرجل الميت نفسه بسبب « حاسته السادسة » . فقد حدث له في صباه ان رأى ثلاث مرات في ثلاث ليال كلبا اسود

يجري فوق قمة « تل ميون » وفي الليلة الرابعة اصبح الكلب امراة بلا راس ،وفي نفس الليلة ماتت شقيقته . وكان يربي ضفادع كبيرة ، وكان الكثير منها في حديقته ، حينما مات . وقد راى فابيان بنفسه كلبا اسود يجري هابطا تل ميون ، يتبعه عن قرب عامل من عمال الزراعة ، ولكن حينما سأله فابيان عن الكلب الذي كان قد جرى واختفى ، شحب وجه الرجل وقال متسائلا في استنكار : « اي كلب ؟ » . وفي مساء ذلك اليوم صدمت سيارة الشرطة كلبا اسود وقتلته . وفي اليوم الثالث ماتت بقرة صغيرة لسقوطها في حفرة عميقة ، وكانت هي البقرة الثانية التي تموت بنفس الطريقة منذ وصول فابيان .

وما يزال لغز مقتل تشارلز والتون دون حل ، ولكن من الممكن القيام بنوع مجرد من التخمين حول ما حدث بالفعل . لقد اعتقد الناس ان والتون ساحر ، وضاعفت عاداته التي يمارسها في وحدته من قوة هذا الانطباع . كان يربي ذكران الضفادع الكبيرة — وهذه هواية غريبة — وقد روى احد السكان لدونالد ماككورميك انه كان يربط هذه الضفادع احيانا بمحراث صغير كالدمية ويتركها لكي « تسرح » به في الحقول . وقد زعمت ايزوبيل جووادي انها استخدمت نفس الطريقة لكي تؤدي الى افقار المحاصيل . ومن المؤكد — حسب المعلومات الموجودة — ان الفلاحين حصدوا محصولا فقيرا للغاية في العام السابق ، وقد اشتكى الكثيرون منهم لفابيان من هذا . كان العام هو ١٩٤٥ ، آخر سنوات الحرب ، وطوال السنوات الخمس السابقة كان جنوبي وورويك شاير معزولا عزلة غير عادية — فلم يأت اي زائر غريب الى ستراتفورد او ايفشام ، ولم تكن الحانات تقدم الا بيرة من نوع رديء ، وحتى هذا النوع لم يكن متوافرا . وفي عام ١٩٤٤ كان المحصول رديئا ، ولكن بدأ العام التالي ١٩٤٥ دافئا ورطبا ، ولكن « شخصا ما » اعتقد ان تشارلز والتون وضفادعه سيؤدون الى محصول رديء آخر . ولجنوبي وورويك شاير تقاليده الخاصة في طرق التعامل مع السحرة . فهناك اعتقاد يقول انه اذا امكن اسالة الدم من جسم الساحر — او اذا امكن جعله ينزف — فان قوى الساحر او الساحرة سوف تتلاشى ويتم تحييدها . ففي عام ١٦٤٣ رأى جنود البرلمان (١) امراة عجوزا تسير فوق النهر عند نيوبيري ، فاطلقوا عليها الرصاص ، بعد ان جرحوا جبهتها لكي يجردوها من قوتها . (ويقول روبينز انها كانت تسير على عصوين طويلتين كالعكازات) . وفي عام ١٨٧٥ — قبل قتل تشارلز والتون بسبعين عاما — اقتنع احد بلهاء القرى ويدعى جون هاي وود بأن امراة عجوزا تدعى آن تيرنر

---

(١) جنود البرلمان — المقصود هنا هم جنود جيش كرومويل (١٥٩٩ — ١٦٥٨) الذين هزموا تحت قيادته، وباسم البرلمان ، جيش الملك تشارلز الثاني ، الذي اعدم فيما بعد عام ١٦٤٥ ، اثر انتهاء الحرب الاهلية الانجليزية الكبرى بين البرلمانيين والملك . (هـ . م) .

(او تينانت) قد سحرته ، فثبتها في الارض بشوكة القش ، ثم رسم على جلدها جرحا غائرا على شكل صليب فوق حلقها وصدرها مستخدما خطافا حديديا مما تحمل به حزم القش المضغوط الضخمة ، وقد حدث هذا على بعد ميلين فقط من « لووار كوينتون » — في قرية لونج كومبتون .

وربما يكون موضع شك ان والتون كان ساحرا ، ولكن من المؤكد تقريبا ان السكان المحليين قد اعتقدوا انه ساحر . ولكي نفهم هذه الجريمة ، وكيف يفترض ان اناسا طيبين استطاعوا ان يندفعوا اليها ، فعلى المرء ان يبذل مجهودا بخياله ، وان يحمل عقله على الرجوع الى الوراء ، الى شهر يناير وفبراير الدافئين من عام ١٩٤٥ ، في احدى القرى البعيدة عن الطرق الرئيسية والتي تعاني من آثار وويلات خمس سنوات من الحرب . لقد قتل والتون في الرابع عشر من شهر فبراير ، الذي لا يوافق فحسب عيد القديس فالنتين كما يوافق « اربعاء الرماد » او « الاربعاء الحزين » وانما يوافق ايضا اليوم الذي كان الدرويديون القدماء يقدمون فيه قرابينهم . (ويوافق التقويم الدرويدي يوم ١ فبراير ، ولكن هذا التقويم متأخر اسبوعين عن تقويمنا) وكانت هذه القرابين تقدم بهدف الحصول على محصولات وفيرة طيبة . فمن المحتمل ان يكون قتل والتون قد خطط له قبل وقوعه بشهور ، وربما تم ذلك في الخريف السابق حيث حدد التاريخ . ويبدو انه من المؤكد الى حد كبير ان الاهالي كان يعتقدون ان « قرينه » كان كلبا اسود ، لانه حدث ان عثر على كلب اسود مشنوق فوق تل ميون بعد جريمة القتل بعدة ايام . فاذا كان هناك من شعر بالندم لقتل عامل زراعي عجوز غير مؤذ ، فمن المحتمل ان يكون هذا الندم قد اختفى مع تقدم الشهور من ذلك العام ، وكان المحصول « رديئا » بالفعل ، رغم الطقس الجيد . ويورد ماك كورميل عبارة من حديث احد الريفين يقول : « كان المفروض ان تكون المحاصيل هي افضل ما عرفناه مع بداية الربيع . ليس هناك سبب للمحاصيل الرديئة . لا بد ان يكون هناك خطأ حينما تأتي المحاصيل مناقضة للطبيعة » .

وليست قضية قرية لووار كوينتون مثيرة للاهتمام بشكل خاص لذاتها ، ولكنها تساعدنا على ان نفهم شيئا عن السحر والاعمال السحرية في اوروبا . ذلك ان « جنون السحر الاوروبي » — مثلما يصفه البروفيسور تريفور روبير — هي ظاهرة تثير الدهشة لم تجد تفسيرا لها مقنعا حتى الآن . ان العصور الوسطى لم تؤمن بالسحرة ، وقد قرر قانون الكنيسة الرسمي ، الذي عبر عنه القانون الاسقفي « Canon Episcopi » قرر ان كل من يؤمن بالسحرة : « فلا شك انه خائن ووثني » .

وبدأ تغيير هذا الموقف في القرن الحادي عشر ، مع ظهور فرقة أو جماعة

قوية تدعى « الكاثارس » او « المتطهرون « Cathars (١) ومن ناحية العقيدة، كان المتطهرون من سلالة الغنوصيين (الادريين) والمانويين الذين درسناهم في فصل سابق . لقد اعتقدوا ان رب العهد القديم كان شيطانا ، وان العالم كان من خلق الشيطان ،هو«وحش الفوضى» . وقد قبلوا فكرة انه من الممكن الوصول الى الخلاص عن طريق يسوع ، ولكن من الواضح انهم اصروا على انكار ان يسوع قد صلب على الصليب ،وقالوا ان شكله الارضي كان شبحا ، لانه كيف يمكن لجوهر الخير ان يتجسد في اي مادة ، التي هي شر بطبيعتها ؟ ومثلما آمن المانويون ، وآمنت بعدهم الجماعة الروسية التي اطلقت على نفسها اسم « سكوبتزي » ، كذلك آمن المتطهرون بالامتناع عن الجنس ، على اساس ان كل ما يساعد على توسيع مجال الوجود الجسدي هو سحر .

والشيء المدهش هو ان النزعة الكاتارثية (او التطهرية) قد حازت ذلك القبول الهائل على نطاق واسع . فبعد ان نشأوا ــ فيما يبدو ــ في البلقان في القرن العاشر ــ انتشروا ببطء في اوروبا كلها . واصبحت جماعة من المتطهرين، في مدينة « البي » جنوبي فرنسا ، باسم « الالبلنيين » . وفي اشكال وتحت اسماء مختلفة ،انتشرت هذه النزعة الغنوصية الجديدة، شرقا من القسطنطينية (حيث عرفوا باسم البوجوموليين) الى الغرب وشمال فرنسا حيث نصب اول اسقف متطهر (كاثاري) في عام ١١٤٩ . وحينما اقتربت نهاية القرن الثاني عشر كان هناك احد عشر اسقفا من المتطهرين ،ستة منهم في ايطاليا نفسها .

ولا شك ان ما شاع في القرون الوسطى من بؤس واوبئة كان عاملا مساعدا على تدعيم هذا النجاح . فالبلاد الثرية ترضى بدين سهل المأخذ ، ولكن حيث يسود الفقر ، يتطلب الامر شيئا اكثر جمودا وعتمة . وهذا هو السبب الذي جعل النزعة البرسبيتاريانية تلقى ما نعرفه من نجاح في اسكتلندا ، والذي جعل النزعة الميثودية (٢) تزدهر في قرى كورندول الجدباء الموحلة . وهناك ايضا شيء كامن في التعاليم المانوية يجعلها تتجاوب مع النزعة الرومانتيكية

---

(١) من الكلمة الاغريقية القديمة Katharisia بمعنى يطهر او ينقي من الدنس . (هـ.م).

(٢) الكنيسة والنزعة الميثودية : مجموعة التعاليم والافكار غير المترابطة حقا ، وذات الاصل البروتستانتي ، التي قدمها الواعظان والمصلحان الدينيان الاخوان جون وتشارلز ويزلي فياوساط طلبة جامعة اوكسفورد عام ١٧٩٢ ، والتي اطلق الطلبة انفسهم عليها صفة « ميثوديست » على اساس ان « المنهجية » ــ من method ــ منهج ، كانت هي الصفة الواحدة التي تربط بين مختلف هذه التعاليم . وقد اصطبغت الحركة بعد ذلك بالصبغة الانجيلية ، ثم انفصلت عن كنيسة انجلترا ، ثم انتشرت ايضا في الولايات المتحدة . (هـ . م .)

العميقة في الطبيعة البشرية ، هذا الشيء هو الاحساس بان عالمنا هذا هو الجحيم وان سعادة الانسان تكمن في « عالم آخر » .

وحينما اصبح كونت تولوز رايموند السادس ، متطهرا ، قرر البابا ان قد آن اوان القيام بعمل ما حول هذا الاتجاه ، فاطلق الدعوة لشن حملة صليبية . وكانت مثل هذه الحملة اشبه برياضة صيد الخنازير البرية بالنسبة لغالبية فرسان وبارونات فرنسا ، وكان المفروض الا تستغرق اكثر من اربعين يوما (الزمن التقليدي المحدد لاي حملة صليبية) وكان من المؤكد انها ستتضمن الكثير من النهب واغتصاب النساء . وانطلق جيش كثيف يكتسح جنوبي فرنسا ، وابيدت من الوجود مدن باكملها ، المجدفة والمؤمنة على حد سواء . وكان سيمون دي مونتفورت (والد دي مونتفورت مؤسس البرلمان الانجليزي) هو اكثر هؤلاء الغزاة النهابين قسوة ، وانتهى به الامر الى الاستقرار حول تولوز ، مشعلا حربا دموية . وولدت محكمة التفتيش السيئة السمعة في تولوز عام ١٢٢٩ ، وكان اقوى عملائها عزيمة هم الرهبان الدومينكان ، الذين راحوا يجوبون البلاد لكي يبلغوا عن كل ما يسمعونه من تجديف اينما وجدوه . ولم يحدث ابدا ان سردت القصة الكاملة لكل ما احتوته تلك السنوات من صنوف الرعب ، وربما كان هذا صوابا الى حد كبير . كانت الكنيسة عازمة على القضاء على هذه الهرطقة بأي ثمن . ومن الممكن ان يتبنى الكاتب الشكاك الراي القائل بان كاردينالات روما الذين كانوا يتخمون بطونهم بشواء الخنازير البرية ونبيذ ايطاليا الجيد قد شعروا بما يهددهم في تعاليم الكاثاريين المتطهرين الصريحة في مطالبتها بالتنسك والزهد . وعلى اي حال ، فقد تمت تصفية الكاثاريين والالبانيين تصفية كاملة ، وانسحب القليلون الذين نجوا من المذابح الى القرى النائية ، مثلما فعل « الفالدينيون » في ظل ظروف ابادة مشابهة بعد قرنين كاملين . وجاء دومينيك (سانت دومينيك فيما بعد) مؤسس جماعة « الاخوة الوعاظ » والذي اقام مركزه الرئيسي في تولوز عام ١٢١٥ ، فنذر ان يكرس نفسه لتدمير الكاثاريين : « بواسطة الاقناع الموجه الى القلب والعقل » . ولكن شرطته السرية ـ لان هذا في الحقيقة هو ما كانه الدومينيكيون ـ سرعان ما عضوا على كلمة « التدمير » بالنواجذ ، فراوا في كل ظل عابر عابدا للشيطان . وكان هؤلاء « الوعاظ » الدومينيكيون هم الذين اكتشفوا ان الشيطان قد استبدل تكتيكاته ، فبعد ان فقد جيشه من الكاثاريين ، استطاع ان يجند جيشا جديدا سريا من النسوة العجائز الشريرات اللواتي نذرن انفسهن لخدمته وللعمل السري من اجل القضاء على سلطة الكنيسة . ومن المحتمل الا يكونوا على خطأ بشكل كامل . فمن المؤكد ان القسوة المتطرفة والاضطهاد لا بد ان تولد تحركا « تحت الارض » يكرس نفسه للقضاء على من يمارسون الاضطهاد وتدميرهم بوسائل سرية ، وهكذا

ينبغي ان نفكر في « اوائل » السحرة ، بوصفهم حركة مقاومة كاثارية ، او صورة تشبه « الجيش الجمهوري الايرلندي » ولكنها تجمع هرأطقة لا فدائيين. وليس هذا في الحقيقة قولا عابثا او سخيفا مثلما يبدو لاول وهلة . من الحقيقي انه كان هناك سحرة على الدوام - في اعداد صغيرة . ولكنهم كانوا يمارسون عملهم « بطريقة شخصية » وفي حدود خاصة للغاية . لقد اعتقد الكاثاريون ان « الرب » الذي خلق هذا العالم ، هو شيطان استطاع بشكل ما ان يغتصب قوته من « الاله » الاسمى ، الذي هو اكثر سموا من ان تشغله تفاهات لا شأن لها مثل عملية الخلق . وليس هذا بالاعتقاد المريح . فلمن يمكن ان تصلي حين تطبق عليك التعاسة؟ انك لن تصلي لـ « الكائن الاسمى » ، فلماذا ينبغي عليه ان يهتم بما قد يجري لواحد من « الايونات » الساقطة منه ؟ ولا شك ان هذا يشمل « الايون » الشرير نفسه ، وحش الفوضى ، « اللااحد » القديم . ربما رأت امرأة من الكاثاريين زوجها واطفالها يذبحون امام عينيها ، فتوجهت بصلاتها « بالفعل » الى « وحش الفوضى » طلبا للانتقام . ولكن بعد قرنين من الزمان ، لم يكن للكاثاريين وجود بعد ، وكان الرهبان الدومينيكيون يتلمظون بالرغبة في القضاء على السحرة ، الذين اطلقوا عليهم اسم « الفالدنيين » ، الذين كانوا يجتمعون معا في ايام السبت او في « الفالديزيا » - (وكان يطلق على الفالدنيين ايضا اسم « الفوديين » نسبة الى اسم قرية في مملكة بيدمونت في جبال الالب الغربية ، حيث اقاموا اول تجمع لهم) . وفي جبال البرانس (البيرينيس) كان يطلق على السحرة اسم « جازاري » ، ومن الواضح انها كلمة مستمدة من « كاثاري » .

واستمر الدومينيكيون في مطالبتهم الكنيسة بأن تسمح رسميا بشن الحملة الصليبية على السحرة ، ولكن الكنيسة احجمت عن ذلك طوال قرن آخر ، بناء على انكار « القانون الاسقفي » لوجود السحرة اصلا . ولسوء الحظ اصبح شخص مختل بالشعور ، مؤمن بالخرافات ، هو البابا جون الثاني والعشرون . وكان مقتنعا بان اعداءه يتآمرون عليه لقتله بالسحر ، وهكذا كان هو الذي وافق على طلب الدومينيكان بأن تعتبر « الشعوذة » نفسها جريمة ، بعيدا تماما عن مسألة التجديف أو الهرطقة . وكان هذا في عام ١٣٢٦، في Super illius specula

ومن المهم ان نذكر ان نفس هذا البابا ، هو الذي اعلن قانون ادانة الرهبان الفرانسيسكان بالهرطقة بسبب قولهم بفقر المسيح ، فقد كان كل ما له علاقة بالفقر موضع الشك .

ورغم ذلك ، فان وباء السحر بدأ ببطء . وقد بدا في جبال البرانس وفي جبال الالب - في المنطقتين اللتين عاشت فيهما جماعتا الالبانيين والفالدنيين . وظهر النموذج العام منذ مرحلة باكرة للغاية . وفي اول محاكمة « زمنية » بتهمة السحر في

باريس ، في عام ١٣٩٠ ، اتهمت امرأة تدعى جيهان دي بريج بتهمة الشعوذة ، وقام باتهامها رجل كانت قد عالجته وانقذته من المرض وهو على حافة الموت ! وقالت جيهان انها ليست ساحرة ، ولكنها ببساطة استخدمت الرقى والتعاويذ التي لقنتها اياها امرأة اخرى ، وكانت هذه التعاويذ تتضمن عبارة : « باسم الاب، والابن ، والروح القدس ـ » الامر الذي يستدل منه ان اسس « التعويذ » و « الرقي » لم تتغير طوال ستمائة عام . وتحت وطأة التهديد بالتعذيب ، وبعد ان سجنت في زنزانة سفلية باردة وقذرة طوال شتاء ١٣٩٠ ـ ١٣٩١ ، «اعترفت» جيهان اخيرا بان لها قرينا من الابالسة يدعى هوسيبوت . وذكر « ريولي » وهو الرجل الذي كانت قد عالجته ، امام المحكمة ان جيهان ارجعت مرضه الى ان عشيقته كانت قد سحرته ، وكان له من العشيقة طفلان . وتحت تهديد التعذيب مرة اخرى ، اعترفت جيهان انها هي التي كانت قد سحرت ريولي بطلب من زوجته « ماسيت » التي كانت تريد ان تخلو لعلاقتها العاطفية الخاصة مع الخوري (القسيس) في الكنيسة المحلية . وحينذاك القي القبض على ماسيت ايضا ، وتم تعذيبها على « المشد » ، فاعترفت . ولا نجد ما يوضح لنا السبب الذي جعل جيهان تسحر ريولي ثم تشفيه . ولكن تم اعدام المراتين ، جيهان وماسيت . ولا شك انه كانت هناك حالات كثيرة ادى فيها « السحر الابيض » ـ الذي هو التطبيق الطبيعي للقدرات الغيبية للانسان ـ الى التعذيب والاعدام . ففي عام ١٦١٨ ، قال صعلوك في مدينة ايرفينج انه يرى سفينة تغرق بالقرب من بادستو في كورنوول . ولما كان في اسكتلندا وقت ان صرح برؤياه ، وجاءت الاخبار بعد ذلك بغرق السفينة ، القي القبض عليه بتهمة « الحاسة السادسة » . والقي القبض ايضا على امراة كانت على ظهر السفينة وكانت قد اطلقت لعنة ما ضد شخص آخر في نفس السفينة ، واتهمت بأنها ساحرة . وتحت التعذيب اعترفت على امراتين اخريين وعلى ابنة احداهما وكانت في الثامنة من عمرها . واعترفت الطفلة بانها رأت شيطانا في صورة كلب كان يشع الضوء بينما كانت امها والمرأة المتهمة (مارجريت بارسلي) تذيبان تماثيل شمعية صغيرة امام النار . وحكم على مارجريت بارسلي بالخنق ثم احرقت جثتها ، رغم انها عادت امام المحكمة فسحبت الاعتراف الذي ادلت به تحت التعذيب . وماتت احدى المراتين اللتين اتهمتهما في اعترافها بعد ان سقطت من فوق سقف الكنيسة اثناء محاولتها الهرب من برج الجرس . اما الاخرى فقد اعترفت ايضا تحت التعذيب ثم عادت فسحبت اعترافها امام المحكمة ، ثم رفضت ان تمنح غفرانها للجلاد الذي اشعل فيها النار في النهاية . اما جون ستيوارت فقد استطاع ان يشنق نفسه مستخدما رباط قبعته اثناء انتظاره تنفيذ الاعدام في السجن .

وبعد نشر كتاب : « مطرقة الساحرات » ـ الذي اشرنا اليه من قبل في بداية

الفصل الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب ـ في عام ١٤٨٦ ، لعب فن الطباعة الجديد دوره الهام في اتساع مجال جنون السحر . فقد كان باستطاعة اي كاتب ذي خيال نشيط ان يركن الى تحقيق درجة كبيرة من الشهرة ببعض الوصف للابالسة الذين تستحضرهم الساحرات. ويشير البروفيسورزيفور روبير الى ان غالبية هؤلاء الباحثين في « علم الشياطين » الذين كانوا سببا في كل هذه العذابات الكثيرة ،كانوا شخصيات عاجزة عن الاضرار بأحد متفرغين للدراسة والبحث . فقد كان « ريمي » شاعرا يكتب قصائده باللاتينية ومؤرخا ، رغم انه حينما مات عام ١٦١٦ كان قد ارسل الى « عامود المحرقة » ما يقرب من ثلاثة آلاف ضحية،وكان كل من بوجسويت و « دي لانكر » باحثين متواضعين ومتخصصين في اللغة اللاتينية .

وقد كان « سعار السحر » مرعبا وواسع الانتشار الى درجة يعجز معها الخيال الانساني عن الاحاطة بها . اننا نجد من الصعب ان نتصور ابادة هتلر لستة ملايين من اليهود في مدة تقل عن عشر سنوات ، كذلك فمن المستحيل تماما ان نتخيل حملة من التعذيب والقتل تدوم طوال اربعة قرون . من الحق ان عمليات اعدام السحرة كانت تدور في مجال اضيق من مجال الجرائم النازية ، ولكن لا بد ان نتذكر ايضا ان كل ساحر كان يتم تعذيبه بمفرده . ويقول روسيل هوب روبينز بشعور من المهانة الاخلاقية : « ان سجل السحر مرعب مليء بالقسوة الوحشية ، لقد تمكن الانحطاط من خنق كل رقة او طيبة ، وتقنعت اقذر الانفعالات بقناع الدين ،واجبر عقل الانسان الذكي على ان يتسامح مع اعمال وحشية لا بد ان مخلوقات « الياهو » التي تخيلها سويفت (١) كانت ستخجل من ارتكابها . ولم تشهد الانسانية ابدا مثل هذا الخطأ يستمر طوال مثل هذه المدة . . » ولكننا بعد ان نقرأ اثنتي عشرة صحيفة او نحوها من كتابه « دائرة معارف السحر »نشعر بأن تلك الكلمات تخطيء بميلها نحو الاعتدال .

ولا يمكن ان يكون هناك دافع وحيد لبشاعات ترتكب على مثل هذا النطاق . فقد كان الدافع سياسيا في جانب من جوانبه ، فقد خضعت البلاد اولا لسيطرة بروتستانتية ثم تلتها السيطرة الكاثوليكية ، وحينما كانت الكنيسة تريد معاقبة جماعة من السكان البروتستانت فانها كانت ترسل قضاة التفتيش من الرهبان الدومينيكان . وادت عودة السيطرة الكاثوليكية الى مذابح السحرة في مناطق

---

(١) مخلوقات « ياهو » : في رحلات جاليفر لسويفت ، يذهب البحار السيء الحظ الى بلاد « ياهو » الذين يتميزون بالقسوة والغلظة والخسة والوضاعة رغم اشكالهم الانسانية ، وتحكمهم خيول ذات عقول مستنيرة وحكمة سديدة . فاصبحوا مضرب المثل ، في الادب الغربي للوضاعة والحقارة رغم الجمال ». (هـ . م)

الراين لاند والفلاندرز وبولندا والمجر . فقد كانت هذه هي الطريقة التي اتبعتها الكنيسة في الانتقام من البروتستانت . بل ان نفس الطريقة كانت قابلة لان يستخدمها امير او بارون كوسيلة للانتقام من الرعايا المتمردين ـ طريقة مأمونة ، لن تؤدي الى مزيد من التمرد .

ولكن الدوافع النفسية تتمتع بنفس القدر من الاهمية . فقد جاءت بداية « سعار السحر » في نفس الوقت الذي انتشر فيه الطاعون (الموت الاسود) وانفجرت فيه حرب المائة عام . وحينما يضغط على الناس القهر والبؤس ، يصبح العنف ضرورة سيكولوجية . والعنف دائما مرتبط بالجنس ، وخاصة في المجتمعات القائمة على التزمت الاخلاقي والكبت . لقد اجبرت الساحرات على الاعتراف بالاتصال الجنسي بالابالسة ، وفحصت اجسادهن بدقة بحثا عن علامة الساحر (نقطة من الجسم لا تشعر بالالم) . ان فرانز ويرمان ، الذي عينه رئيس اساقفة وامير كولونيا « صياد السحرة » قد استخدم منصبه في اغواء نساء لم يكن يستطيع ارغامهن على الخضوع له بغير هذه الطريقة . وكانت هناك سيدة تدعى « بيللر » رفضت مراوداته لها وكانت زوجة لاحد الموظفين الملحقين في البلاط . وتصرف بويرمان بسرعة ، فالقي القبض عليها و « حلق » كل ما على جسدهاوراسها من شعر ، وسمح لمساعد الجلاد الذي قام بتعذيبها باغتصابها وهو يحلق شعرها . اما بويرمان، الذي كان واقفا يراقب العملية، فدس في فمها خرقة قذرة لكي يكتم صرخاتها . ثم احرقت حية في كوخ ممتلىء بالقش الجاف . وتم كل هذا في خلال ساعات قليلة . كان بويرمان يحتل منصبا يمكنه معه اتيان افعال لا توصف الا بانها تمثيل واقعي لخيالات جنسية سادية . فالقصة السابقة تبدو مثل حادثة يرويها الماركيز دي ساد في احدى رواياته .

وبكل هذا الحديث عن الابالسة ، وايام سبت الساحرات ، والتعذيب ، ورائحة اللحم البشري المحترق ، اصبح السحر هاجسا مسيطرا مراوغا قاتم اللون . ولا بد ان ما يساويه ويماثله في ايامنا هذه ، هو الجريمة الجنسية ، التي تتبعها على الدوام : اولا : جرائم تقلد الجريمة الاصلية ، وثانيا : اعترافات يدلي بها بلهاء او معتوهون . فقد ارتكبت ، بعد جريمة قتل اليزابيث شورت (الداليا السوداء) في هوليوود عام ١٩٤٩ ، ست جرائم قتل اخرى مشابهة في منطقة لوس انجيلوس ،وقدمت الى الشرطة اعترافات تسعة وعشرين شخصا يقرون ارتكابهم للجريمة الاولى . ذلك ان الطريقة المرعبة التي ارتكبت بها الجريمة الاولى ـ فقد علقت الضحية من قدميها ، وعذبت ، ثم شطر جسدها بالطول الى شطرين ـ جعلتها موضوعا رئيسيا في الصفحات الاولى طوال اسابيع . ولا بد ان الرجال الذين يعيشون في عزلة كاملة ، ويتأملون الصحف ولساعات طويلة في مساكنهم المزدحمة ، قد قرروا في النهاية ان القيام بمثل هذا العمل

قد يستحق المخاطرة . وبنفس هذا الشكل ، فلا بد ان نسوة يعشن في وحدة ويمتلكهن الضجر مثل ايزوبيل جووادي ، ويعشن حياة ضيقة خالية من الراحة، قد شعرن بأن الكتيبات الرهيبة عن الاتصال الجنسي بالابالسة هي اشياء مرعبة مثيرة للخيال ، ولما كان الاعتقاد بان الهواء مزدحم بالابالسة الذين لا يدركهم البصر شائعا ، فان مثل هؤلاء النساء لم يمر عليهن وقت طويل قبل ان يقتنعن بان الشيطان قد عرف رغباتهن الخفية . ولا شك ان حلما جنسيا يمكن ان يؤكد هذا الاقتناع .

ولكن لماذا حدث كل هذا بعد حركة الاصلاح ؟ (١) ربما كانت العصور الوسطى هي عصور الايمان . ولكنها ايضا كانت هي عصور الحروب والفقر والاوبئة والاعتقاد في الابالسة . كانت كل الشروط متوافرة متحققة ، بأستثناء شرط واحد . الشرط الانساني الفريد ، الذي هو : حرية الخيال . لم يكن هذا الشرط قد تطور بعد في العصور الوسطى. كان الانسان يرزح تحت ثقل اعبائه اليومية ، ولم يكن يستطيع ان يبصر شيئا بعيدا عنها . ولم يكن ما حدث بعد عام ١٤٥٠ مجرد تغير اجتماعي وانما كان تغيرا « تطوريا » ايضا ، واحدة من تلك الموجات الدورية التي تبدو كما لو كانت تخترق صفوف البشر كما تخترق الريح صفوف اعواد القمح في الحقل . ان « جيل دي ري » وهو شخصية غامضة متعددة الجوانب ، يشير بشخصيته الى وصول هذه الموجة في النصف الاول من القرن . ان روحه تريد ان تنسف سجنها ، ان ترتكب جرائم لم يجرؤ انسان ابدا على ارتكابها ،وان تقيم اتصالا مع الشيطان نفسه ، وان يصبح اكبر امراء العالم المسيحي قوة وثراء . وكان الفلاحون الذين سرق منهم اطفالهم صبورين ، كادحين ،صامتين كالبقر الذي يغفر لمعذبه في النهاية . ولكن حدث في القرن التالي ، ان القلق الذي دفع « جيل » الى النزعة الشيطانية كان قد وصل الى الفلاحين ، وزادت شحنة القلق بسبب الضجر القاتل . ان الدكتور (ة) مارجريت موراي ، تسأل

---

(١) حركة الاصلاح : في تاريخ الكنيسة الغربية ، الحركة التي ادت الى مختلف الانشقاقات البروتستانتية عن كنيسة روما الكاثوليكية في القرن السادس عشر . كان قادتها : مارتن لوثر في المانيا ، وجون كالفين في فرنسا ، واولريخ زفينجلي في سويسرا ، وجون نوكس في اسكتلندا. كانت الحركة ، بشكل عام ، انعكاسا للتطورات الاجتماعية والسياسية والكشوف العلمية والفكرية العظمى والتاثر بافكار الفلاسفة المسلمين والهنود وبانتصارات الاتراك وتفكك الامبراطورية المقدسة مع نمو المراكز القومية الكبرى ، وفشل الكنيسة في توحيد العالم المسيحي بالشعارات الصليبية.. الخ في القرن الـ ١٦ الهائل . ورغم الطابع الديني لبداية الحركة فانها سرعان ما اصبحت حركة سياسية واجتماعية هائلة ، اغرقت اوروبا طوال قرنين في سلسلة من الحروب والتقلصات الاجتماعية والقومية العنيفة . (هـ.م) .

عن السبب الذي يجعل كل الروايات التي تصف « ايام سبت الساحرات » متشابهة الى هذه الدرجة الواضحة ، سواء جاءت هذه الروايات من فرنسا في القرن الرابع عشر ، او من النمسا في القرن التالي ، او من اسبانيا في القرن السادس عشر او من هولندا (الاراضي الواطئة) في القرن الثامن عشر ؟ لماذا يوصف الشيطان دائما باعتباره رجلا ضخما يشبه التيس (او يشبه ذكر الضفدع الضخم في روايات اقل شيوعا) يتحدث بصوت خشن « مثل شخص يتحدث من خلال ثقب في برميل » ويجعل الساحرات يقبلن مؤخرته القذرة الى درجة تبعث على الغثيان ، وتشيع من احضانه برودة كالجليد ؟ لا بد ان يكون في الامر شيء أكثر من مجرد الخيال، والا لاختلفت بعض القصص ، فتجعل الشيطان دافئا، او طيب الرائحة ، او جميل الصوت. ان « مونتاجو سامرز » يتخذ من هذا التطابق الكامل بين الروايات دليلا على حقيقة وجود الشيطان ، ولكن الدكتورة موراي لا تذهب بعيدا الى هذا الحد ، ولكنها تقول بأن « ايام سبت الساحرات » كانت بالفعل حقيقة واقعة ، وان الشيطان كان يمثل فيها برجل يرتدي قناعا وعباءة ضخمة ، وكان يستخدم شيئا كالعضو التناسلي الصناعي ينثر منه لبنا باردا . ومن المؤكد انها لا تشك في ان احتفالات ايام السبت من هذا النوع قد حدثت ، كذلك لم يشك في حدوثها اكثر المؤرخين استعدادا للشك . ويبدو ان ما حدث في ذلك الحين هو ان « سعار السحر » قد ولد نوعا من الهستيريا ادى الى عكس ما كان هذا السعار يريد تدميره بالتحديد . وهذه خاصية ينفرد بها الخيال الانساني عرفناها الان فحسب عن طريق علم النفس : وهو انه حينما يحرم هذا الخيال من التعبير الخلاق النشيط ، فانه يبحث عن اي عامل اثارة خارجي قوي مهما كان مزعجا او سلبيا . ان العقل الانساني يسعى الى الحركة ، اي حركة . يصف سارتر في واحد من كتبه الاولى ، حالة فتاة في مقتبل الشباب ، تلقت تعليمها في احد الاديرة ، ثم تزوجت من رجل مشغول بعمله . ولما كانت تترك طول اليوم في شقتها ، فقد بدات تعاني من ضغط داخلي سخيف ، يدفعها الى ان تذهب الى النافذة لكي تستدعي الرجال الى منزلها كالبغي . وقد كتب جوته قصة كلاسيكية بعنوان : « وكيل النيابة الامين » حيث تقع زوجة فاضلة ، تترك لنفسها طوال الوقت ، فريسة لهاجس مسيطر يوحي لها بشكل جنوني بضرورة ان ترتكب خيانة زوجية ـ لا لشيء بالتحديد الا لان الفكرة في حد ذاتها ترعبها . ان المبدا او العامل المؤثر هنا هو نفس العامل المؤثر في التنويم المغناطيسي . فالضجر او الفراغ يسمحان للعقل بان يمتلىء بطاقة غير مستخدمة ، فيتولد بذلك احساس مؤلم كما لو كانت المثانة قد امتلات دون قدرة على تفريغها . ويتم توليد حالة من الوعي المسرف والمفرط بالذات . ويؤدي هذا الى النتيجة المعتادة بمنع الغرائز من القيام بعملها الهادىء الذي لا يعترضه عائق ، وتتجمد الاحاسيس. وتصبح الرغبة في احاسيس قوية ـ وهي اكثر الاحتياجات السيكولوجية الانسانية

اساسية ـ تصبح احتياجا جارحا مؤلما . ان الانسان يفضل الاحساس بالاثم والبؤس على الضجر والبلادة . ان ما يحتاج اليه العقل حقا هو الاحساس بالاتساع والرحابة العريضة ، بأزمنة اخرى واماكن مختلفة ،اي ب « المعنى » . اما ما كان قضاة التفتيش يفعلونه فهو خلق كتلة من الاساطير والرموز يتم « شحنها من اعلى » بالمعنى، فتكتسب بالتالي قدرة على الجذب الفلاب المسيطر على النسوة الضجرات ذوات الخيال الخصب . اما الشيطان بمعناه الحرفي فيجد مجاله مفتوحا في الايدي المتبطلة والعقول العاطلة .

انني اميل الى النظر الى هذا باعتباره اكثر عناصر « سعار السحر » اهمية، بل انه اكثر اهمية من مسائل الكنيسة السياسية ، بل واكثر اهمية من عمليات معاقبة « الوسطاء الطبيعيين » واصحاب القدرات غير الطبيعية الذين لا ضرر منهم . فاذا كان هذا هو الامر، فلا بد ايضا من ان نعترف بان محققي التفتيش وقضاته لم يكونوا جديرين باللوم كما نعتقد الآن . كانت معلوماتهم قليلة ، او انهم لم يكونوا يعرفون شيئا على الاطلاق عن اعراض الهستيريا الجنسية . كما كانت اعراض « المس الشيطاني » ، مقنعة للغاية في الغالب بالتأكيد . . . فلنتصور مفكرا متحررا عقليا حديثا في نفس وضع قسيس ابرشية عادي من القرن السابع عشر وهو يقرأ كتيبا عن استحواذ الشيطان على فتاة تدعى اليزابيت اللاير . فحينما تنتاب الراهبة ـ التي كانت في السابعة والعشرين ـ نوبات يستطيع اي طبيب نفس حديث ان يتعرف عليها بانها صور من الهستيريا الجنسية ،وتتحدث بصوت رجالي خشن ، كان الراهب الدومينكي فرانسوا فاركونيت يتمسك بترديد الصلوات اللازمة لطرد الارواح ويستجوب الابالسة،ويقر هؤلاء باسمائهم ، ويقولون انهما اثنان : اورجيول وبونيفاس ، ويعترفان بانهما « تلبسا » الفتاة بعد ان دخلاها فوق كسرة من الخبز حين كانت في السابعة من عمرها ، وانهما يعتزمان البقاء داخلها حتى تموت . ولكن الراهب يواصل صلواته وترانيمه طوال يومي السبت والاحد ، واخيرا ، حينما يشهر في يده ادواته المقدسة وصلبانه ويصيح آمرا: « اخرجا ، اذن ، ايها المخلوقان التعيسان » تتقلص الفتاة في تشنجات فظيعة ، ويتدلى لسانها خارج فمها عدة بوصات ، ثم يعلن الشيطانان بصوت خشن متألم : « ها انا اخرج ، يايسوع » . ومنذ تلك اللحظة (او هكذا نزعم) تكون الفتاة قد شفيت . ولم ينزل بأحد اي ضرر ،ولم يحرق احد او يعذب ، فالمسألة لا تعدو أن تكون حالة،قام فيها راهب مقدس بتحرير فتاة مسكينة من روحين شريرين . فهل يمكن ان نبرر ـ حتى لاكثر قساوسة الابرشيات ميلا الى الشك ـ ان يتساءل ان كانت الابالسة توجد حقا ، او ان كان ينبغي عليه ان يحذر رواد كنيسته بجدية كاملة لكي ينبههم الى اهمية تلاوة صلاة الشكر قبل كل وجبة ، ورسم علامة الصليب فوق اي شيء نتناوله بين الوجبات ؟ والاكثر من هذا ، فعلى الرغم

من انه من الحق ان الكثير من اعترافات السحرة صدرت تحت وطأة التعذيب ، فان الكثير من هذه الاعترافات كانت تلقائية وقد ادلت بها نساء يعرفن ان فرصتهن الوحيدة لانقاذ ارواحهن من العذاب الابدي هي ان يسلمن اجسادهن لكي تأكلها نيران الكنيسة .

ومن الحق ايضا انه قد وجد بعض المتشككين - مثل يوهان فيار (تلميذ كورنيليوس اجريبا) وريجنالدسكوت وفريدريش فوسبي ، الذي كان هو نفسه قاضيا في محاكم السحرة ولكنه غير رايه فيهم اثناء شغله لهذا المنصب - ولكن كيف يمكن للمرء ان يأخذ مثل هؤء الناس على محمل الجد ؟ انهم يؤكدون انه لا وجود للسحرة ،وان الروايات المتناقلة عن التعاويذ واللعنات وعن الحاسة السادسة ليست سوى حكايات تحكيها عجائز النساء ، في نفس الوقت الذي قد يعرف فيه كل من يتبع الابرشيةان زوجة البقال قد حلمت بموت والدها في نفس يوم وفاته فجأة وان الجياد تنفر وتهتاج عند البقعة التي دفنت فيها ساحرتان في مقبرة غير تابعة للكنيسة . ويعتبر هذا النوع من الشك في الحقيقة عجزا عن تصور الاحساس الديني ، وهو نفس النوع من الشك الذي يستطيع ان يصف ولادة العذراء ذاتها باعتباره خرافة .

ومثل هذا النوع من التفكير صحيح بالطبع بشكل اساسي . ولكن الدليل على تأثير الابالسة وعلى وجود ايام سبت الساحرات كان نوعا من الادلة التي لا يستطيع العقل المنطقي وغير المتميز ان يرفضها . فلا شك انه كان باستطاعة بعض السحرة ان يدمروا المحاصيل بلعناتهم . وكان باستطاعة الآلاف من النسوة العجائز ان يتنبأن بالمستقبل وان يعالجن الجراح بالتعاويذ والرقى . وكان ما عجز قضاة التفتيش - المخلصون والمتدينون منهم - ان يروه هو ان كل ذلك لا يمثل سببا وجيها للتعذيب والحرق،وان التعذيب والحرق لا يؤديان في الحقيقة الا الى زيادة قوة قبضة « الشيطان » على الخيال الانساني .

ولا بد لنا ايضا من ان نضع في اعتبارنا تأثير التعذيب والحرق على الخيال الانساني واغرائهما له في نفس الوقت . فالانسان لم يتحضر منذ زمن طويل - لم يتحضر الا منذ بضعة آلاف من السنين . والمسيحية لم تصل الى القوة والانتشار بشكل طبيعي . لقد تلهف التجار والمزارعون المستقرون الى السلام والى الانتظام الهاديء للحياة ، ولكن المفطورين على الجندية يحلمون باحراز المجد في المعارك ، ويحلم المفطورون على الاجرام باحراق المدن واغتصاب النساء . وممن الدلالات الهامة ان المظاهر العنيفة للسعار السحري تعود الى فترة « انتهاء » حرب المائة عام (عام ١٤٥٣)،فيما يوحي بأن هذا السعار كاد ان يكون بديلا للحرب . ثم وصلت هذه المظاهر الى نهايتها في الاعوام الاخيرة من القرن الثامن عشر ، قبيل

عصر الحروب والثورات الجديدة التي دفعت اوروبا الى حمامات الدم الجماعية من جديد .

واكتسح جنون اصطياد السحرة ، وجنون السحر ، اوروبا في موجات متتالية ، قامت بعد كل موجة منها فترة من الهدوء . وكانت هناك فترات اصبحت فيها انواع العقاب دموية الى درجة قامت ضدها فيها ثورات تلقائية لايقافها . ففي بداية القرن السادس عشر ، كاد هذا الجنون المزدوج يبلغ احدى ذراه الخطيرة ، وبوجه خاص في المانيا ، حيث يبدو ان اكثر مظاهره سادية وقسوة كانت تحدث باستمرار . وكان يحدث ان يحرق قضاة التفتيش انفسهم باعتبارهم سحرة اذا هم ابدوا بعض التسامح او التساهل مع من يحاكمونهم بتهمة السحر . وقد حدث هذا للسيد « ديتريش فلاد » الذي كان نائبا لحاكم « تريف » ومديرا للجامعة ، فقد استخدم نفوذه لكبح جماح صيادي السحرة ، وكان يبذل كل ما يملك من قوة لكي يكون عقابهم النفي بدلا من الاحراق . وجعله هذا التساهل عرضة للشكوك في انه يقف الى جانب الشيطان ، فاستطاع احد صيادي السحرة (ويدعى زاندت) ان « يقيده » تماما بأن دفع رشوة لبعض المدانين بالسحر بأن يصيحوا بان فلاد نفسه ساحر (وكانت رشوتهم ان يخنقوا قبل احراقهم) . وعلى الرغم من مكانة فلاد ، فقد تم القاء القبض عليه ، وحوكم محاكمة سريعة وخنق ثم احرقت جثته.
وفي مدينة بامبرج في عام ١٦٢٨ ، اتهم جورج هان ، الذي كان يشغل منصب نائب المستشار ، بانه شديد التسامح مع السحرة ، فحوكم هو وزوجته وابنته واحرقوا جميعا رغم ان الامبراطور بنفسه امر باطلاق سراحهم . وفي حالة « هان » بالذات ، تبدو هذه النهاية البشعة نوعا من « العدالة الشعرية » لانه كان واحدا ممن وجهوا الاتهام الى العمدة « يوهان يونيوس » الذي كان خطابه الاخير الى ابنته قبل اعدامه مدانا بالسحر وثيقة من اكثر الوثائق في تاريخ السحر اثارة للعواطف :

« وبعد ذلك جاء – وليشملنا الله برحمته في سماواته العلي – الجلاد ، فوضع معاصر الاصابع في يدي ، بعد ان ربط يدي كلتيهما احداهما الى الاخرى ؛ حتى تناثرت الدماء من اظافري ومن كل مكان في يدي ، حتى انني لم استطع استخدام يدي طوال اربعة اسابيع ، كما تستطيعين ان ترى من خطي .

وبعد ذلك خلعوا ملابسي ، وربطوا يدي وراء ظهري ، ثم رفعوني على « السلم » . وحينذاك ظننت ان نهاية الارض والسماء قد اوشكت . رفعوني على هذه الآلة الجهنمية ثماني مرات ، وتركوني اسقط من فوقها ثانية ، حتى عانيت الما فظيعا لا يطاق . وقلت للدكتوربرون : « فليغفر لك الله ما تفعله من اساءة لبريء لم يقترف ذنبا . . » فأجابني : « انك محتال وغد » . .

والآن يا ابنتي العزيزة ، يا اعز اطفالي ، ها قد عرفت كل افعالي واعترافاتي التي لا بد ان اموت جزاء لها . وليست كلها سوى محض اكاذيب واختراعات لا اساس لها ، ولذلك فليكن الله في عوني .. فاذا لم يرسل الله علامات تدفع الحقيقة الى النور ، فسوف يحرقون كل اسرتنا ..»

ولقد حوكم مواطنون بارزون آخرون واعدموا ، وذهبت ممتلكاتهم - التي قدرت بنحو ٢٢٠ الف فلورين الى الاسقف الامير جوتفريد يوهان فون دورنهايم (اما ابن عمه ، اسقف فوزبرج ، فقد احرق تسعمائة شخص بتهمة السحر فيما بين عامي ١٦٢٣ ، ١٦٣١) . وتضمنت اعمال التعذيب « سحق » اجساد المتهمين بالاثقال الضخمة ، وتمزيق اوصالهم على « السلم » - وهي آلة تشبه « الشدادة » الاسبانية ، التي تشد الاعضاء حتى تنتزع عظام الذراعين من مفاصلهما - ووضع المعذبين في المياه المغلية (وهي عملية قتل اثناءها ستة اشخاص - حسب السجلات - عام ١٦٣٠) وارغامهم على تناول طعامهم من سمك « الرنجة » المطهرة بالكثير من الملح ثم حرمانهم من الماء ، وغرس المسامير والابر تحت الاظافر - بالاضافة الى الحرمان من النوم طوال ايام او اسابيع - وكانت هذه هي اكثر الوسائل فعالية في انتزاع الاعترافات المطلوبة . وتضمنت العقوبات قطع الايدي ، وانتزاع اثداء النسوة بملاقط حادة ساخنة الى درجة الاحمرار ، ولكن الامبراطور فرديناند اضطر في النهاية الى التدخل لكي تكون المحاكمات علنية ولايقاف عمليات مصادرة الممتلكات . ومات الاسقف في عام ١٦٣٢ ، وكان ابن عمه قد مات في العام السابق ، ولم تكن امثال هذه الطواعين السادية تتوقف الا بموت باعثها على فراشه آمنا مطمئنا .

وقد كان رئيسا اساقفة فورزبيرج وبامبرج ساديين وحشيين في قسوتهما . ولكن بعض صيادي السحرة الآخرين كانوا من الحمقى المتعصبين . فكانوا اسوأ هذه الشخصيات شهرة في انجلترا ، ماتيوهوبكينز : « المكتشف العام للسحرة » والذي زعم انه قد حصل على « قائمة الشيطان باسماء كل السحرة في انجلترا القرن السابع عشر » حينما لم يكن في الحقيقة قد قرأ سوى كتابين عن عبادة الشيطان . ومثلما فعل السناتور جو مكارثي بعد ذلك ، انشأ هوبكينز «لجنة» ، وسرعان ما راح يذرع انجلترا من الشمال الى الجنوب لكي يبحث عن السحرة ويحقق معهم ، منفقا مبالغ كبيرة من المال مقابل خدماته . وكان في ماضيه محاميا فاشلا اصبح فيما بعد « مدعيا عاما » بالغ النجاح طوال اربعة عشر شهرا . واعلن ان علامة الساحرة هي ان يكون لها قرين - شيطان يتخذ شكل حيوان - وقد تضمن الادعاء الذي كتبه ضد اولى ضحاياه - اليزابيث كلارك من بلدة مانيجزي في مقاطعة اسكس - يمينا مغلظة على انه راى بصحبتها اربعة عفاريت على شكل كلب وقطة وكلب حراسة رمادي اللون وقرد اسود . (وقد اقسم

مساعدوه على انهم رأوا العفاريت الاربعة ايضا) . وكانت وسائلـــــه في انتزاع الاعترافات اقل رعبا من وسائل مكتشفي السحرة الالمان ، ولكنها لم تكن تقل عنها فعاليـــة : فقد كان يلقي المتهمات في البحيرات العميقة لكي يرى ان كن سيغرقن ام لا ، وكان يرغم المتهمين على الجلوس فوق مقعد واطيء وقد تشابكت سيقانهم لمدة طويلـــة حتى يعترفوا . وكان يرغمهم ايضا على السير دون انقطاع حتـــــى تتورم اقدامهم . وكان هذا النوع من التعذيب يتطلب مرافقين من « المشاة » يستبدلون كل فترة من الزمـــن بينمـــا يواصل المتهم سيره اللانهائي . وارغم خادم عجوز في السبعيـــن من عمره، يدعى جون لاوز ، على ان يظل مستيقظا عدة ايام بلياليها ، وان يجري بأقصى سرعته جيئة وذهابا في حجرة طويلة حتى اعترف بكل ما وجه اليه من اتهامات . وقدسحب لاوز اعترافه فيما بعد ، ولكنه شنق على كل حال .

وكانت الحرب الاهلية ما تزال مستعرة ، ووجد التوتر متنفسا في محاكمات السحرة . وحينمـــا حوكم وشنق اثنا عشر شخصا دفعة واحدة ، انتاب الجميع احساس وهمي بان كل شيء سيكون افضل حالا بعد ذلك . وكانت هناك محاكمات جماعية ، وفي عام ١٦٤٥، حوكم وشنق تسعة عشر شخصا دفعة واحدة فـــــي تشيلمز فورد ، وكان اربعة من مجموعة المتهميـــن الاثنين والثلاثين قد ماتوا في السجـــن قبل المحاكمة ، واعيـــد عدد كبير من الباقين الى السجن بعدها . وكان هوبكينز مسؤولا عن اعدام ثمـــانية وستين شخصا في مقاطعة سافولك وحدها عام ١٦٤٥ . ولكن بدأ الاعتدال يؤكـــد وجوده في العام التالي . فقد تمكن قسيس من بلدة « هنتينجدون » يدعى جون جول ، ان يمنع محاكمات السحرة في بلدته وان يمنع هوبكينز من دخولها بان القى موعظة نارية ضده في الكنيسة حينما سمع انه يريـــد ان يأتـــي لكي يفتش فيهـــا عن السحرة ، وارعد هوبكينز وابرق ، وهـــــدد وتوعد ولكن سلطانه انهار بنفس السرعة التي قام بها ، فعاد الى بلدته مانينجتري، مـــن حيث بدأ وحيث اغتال اولى ضحاياه ، لكي يتقاعد فيها ، ثم يموت بعد عـــام واحد مريضا بالسل . ولكنه كان قد قضى على حياة بضع مئات من البشر في خلال اربعة عشر شهرا . وجاء قانـــون ابطال العمل بقانون السحر في عام ١٧٣٦ – حتى لا تكـــون العقوبة الوحيدة هي الموت – لكي يضع نهايـــة جنون السحر في انجلترا، رغم ان الناس استمروا في « تعويم » السحرة (اغراقهم) طوال خمسين عامـــا بعد منع العمل بالقانـــون القديم .

ان القراءة الطويلة لعدد كبير من الروايات حول محاكمات السحرة ، مثلمـــا فعلت قبل كتابة هذا الفصل، لا بد ان تؤدي الى الاحساس بشيء من الجنـــون . وتؤدي الروايات عن التعذيب بالمرء الى ان يتساءل ان كان البشر يمكن ان يفتدوا انفسهم ابدا ، ففي مقابل كل قديس ، انتج الجنس البشري – فيمـــا هو واضح –

مائة قاتل قادرين على بلوغ احط درجـات القسوة والعنف . امـا السخافـات الخالية تمامـا من اي عقل والتي ارغم المتهمون على الاعتراف بارتكابهـا فتضيف نغمـة نشازا من الكوميديا المضحكة الى المأساة المبكية . ومع هذا ، فمن الغريب تمامـا ان يكون الاحسـاس النهائي هو الاحساس بالشفقة ـ شفقة بالمتهمين ومن وجهوا اليهم الاتهام معا . لم يخلق العقل البشري ابدا لكي يعيش في حصار داخل مساحة ضيقة ، ولكنه حينمـا يقع في الفخ الضيق ، فانه يصبح تافها وفاسـدا وشريرا . ولم تكـن المأساة الحقيقية في سافولك عام ١٦٤٥ هي انه هوبكينز تمكن من شنق نحو مـائة شخص ، وانما هي ان البشر كانوا قد انحطـوا معنويا وحيويا لدرجـة انهم اصبحوا على استعداد للقبول بشنق هؤلاء الناس . فقـد كانت الجماعات الريفيـة قد اصبحت كالبرك الآسنة العفنة التي لا بد ان تنمو فيهـا طفيليات التعصب والجهل والقسوة .

ولكن من الصعب بالنسبة لنا نحن ان ندرك مثل هذا الوضع في عصر المدن الكبيرة واساليب الاتصال والاعلام الجماهيرية ، اننا لا نستطيع ان نتخيل هـذا النوع من الخمول العفن حيث لا مهرب للعقل الانساني من نفسه الا من خـلال الثرثرة سيئة الطوية والاشاعات الخبيثة عن الجيران . وكان الخط الفاصل بين ذلك العالم القديم وبيـن عالمنـا نحن حدثا معينـا وقع في عام ١٧٤٠ : نشر رواية بعنوان : « باميـلا » . وقد يبدو مـا اريـد ان اقوله خاليـا من المعنى ، ولكـن فلنتأمله عن قرب . فقبل ان يكتب ريتشاردسون روايـة « باميـلا » ، كان الشكـل الرئيسي من اشكال التسلية « الهروبية » التي كانت تصدر عن المطابع ، هي تلـك الكتيبات ، التي كانت تحمل في العادة عنوانا مثل : « حكايـة حقيقية عن الجريمـة المرعبة التي ارتكبت في يورك وارتكبهـا المجرم « فلان الفلاني .. » . اما روايات ديفو (١) والتي قد صدرت قبل ان يشرع ريتشاردسون في الكتابة بربع قـرن ، فكانت كتيبات « مكبرة » تحتوي ايضا « حكايات حقيقية » . اما رواية « باميـلا » فتقدم بالحروف والكلمات وصفـا لمقاومة فتاة فاضلة ضد الشخص الذي كان يريد اغواءها ، وهو وصف طويل للغاية . وكان باستطاعـة قارئها ان يدخل عالم حياة شخص آخر ، وان يبقى داخل هذا العالم طوال ايام قبل ان يبلغ نهايته .

فلو اننـا تخلينـا جين اوستين او الاخوات برونتي وقد نشئن في ابرشية

(١) ديفو ـ دانييل (١٦٥٩ (؟) ـ ١٧٣١) من اوائل كتاب الرواية والصحفيين الانجليز وابرزهم مؤلف « روبنسون كروزو » و « مول فلاندرز ونصيبها من السعادة والشقاء » ، ومؤلف « يوميـات سنوات الطاعون » ، اول عمل روائي تسجيلي في التاريخ ، واحد رواد النزعة العمليـة البورجوازية ورائد صحافة « الاصلاح البورجوزي » في انجلترا القرنين السابع عشر والثامن عشر . (هـ.م.) .

ريفيــة في عام ١٧٠٠ لامكنا على الفور ان ندرك اهمية مـا حدث . لا شك انجين اوستين كانت ستظل قادرةعلى ان تقرأ هومير ودانتي وشيكسبير ، فتصبح سيدة شابة مثقفــة فصيحة ، ولكن كان من الممكــن الا يكــون الامر على هذا النحو ،فلا شك ان هذه الاعمال الكلاسيكيةبعيدة الى حد ما عــن الحياة الواقعية المعاصرة .اما روايتا ريتشاردسون : « باميلا » ، « كلاريسا » ورواية روسو : « جــولي » او « هلويز الجديدة » وروايــة جوته : « فيرتر » فكانت كلهــا اعمالا مختلفــة اختلافا كاملا . كانت هذه الاعمال غذاء ثريا للعواطف والانفعـــالات مثلمــا كانت كذلــك ايضـــا للذهن . كان العقل الانساني مثل طائر في اللحظة التي فتح له فيها بــاب القفص . وتدفقت الروايات من المطابع ، وكانت روايــة « كورسير » لبايرون ، « سيدة البحيرة » لسكوت، روايتيــن رومانتيكيتين كتبتــا بالشعر . ولم يكن من الممكــن مشاهدة مسرحيات شيكسبير ودرايدن وشيريدان الا فـــي المـــدن الكبيرة ، ولكن هذه الكتب الصغيرة في حجــم « الجيب » استطاعت ان تنفــذ الى ابعــد ركــن من ابعد بلد في اوروبا . من الحقيقي بالطبع ان اكثر الناس لـم يكونوا يستطيعــون القراءة ، ولكــن ليست هذه سوى نقطة ضئيلة الشأن . فكل من يمتلك ما يكفي من الذكاء بحيث يريــد ان يقرأ استطاع ان يفعل ذلك ــ من ابنــاء عمال المزارع الى قساوســة الريف سواء بسواء .

وفي القرن التاسع عشر اصبح ابداع « عوالم اخرى » صناعة ضخمة ،وشرع كتاب روائيون مثل بلزاك وهوجووديكنز وترولوب في ابداع عالم فعلي لا يقل ثراء وتعقدا عن العالم الحقيقي ، اننــا الآن ننظــر الى هذا باعتباره مسلمة لا تحتاج الى برهان او الى من يشير لنــا اليها ، فلقد اعتدنا ان يكون امامنا الخيار لكي ننتقل بين بدائل كثيرةمن العوالم المختلفة ، من تولستوي وفلوبير الى احدث اوبرا تجارية تعرضهــا شاشات التليفزيون . ونحــن نعرف انه كانت هناك روائع ادبية كبرى قبل ريتشاردسون بوقت طويل : نعرف كتابات تشوسر ومالوري ومونتانـــــي وسيــر فانتس ورابليه وبوكاشيو . ولكننا ننسى انه لم يكن يوجدمنهم سوى عدد قليل للغايــة ، وانهم لم يكونوا معروفيــن الا لدى الباحثين المتخصصين .كانت الحياة في القرن الخامس عشر رتيبة مكرورة مقبضة بالنسبة للجميع ، من « اللورد » في قلعته الى القسيس المحلي في كنيسته الى الفلاح على محراثــه او الراعــي وسط قطيعه . من المحتمل انه كان هناك عددمن الناس المفعمين خيــالا وحساسية لا يقل عمــن يوجــد منهم اليوم ــ على الاقل بالنسبة لعدد السكان ــ ولكنهم لم يكونوا يملكــون بديــلا للنمو على نفس الصورة الكئيبة المقبضة التي تميزت بهــا بيئتهم . وكانت لمسة الغرابة او الخروج على المألوف العادي ، الوحيدة التي استطاعت ان تدخل حياتهم ، هي اللمسة التي حدثت حينمــا عرض البقال وسط بضاعته كتيبا صغيرا يتضمن اعترافات احدى الساحرات ، او حينمــا راح الخوري يحذرهم من

الاقتراب من احدى العجائز الشمطاوات التي تستطيع ان تحول نفسها الى ارنب بـري .

وطوال خمسة قرون او اكثر قليلا ، كانت الروح الانسانية محرومة من « فيتامين » اساسي ، وهو نوع من « الفيتامين » كانت الكنيسة قد ظلت قادرة على توفيره رغم انها لم توفره الا بكميات ضئيلة . ان الانسان لا يمتلك فحسب مجرد قدرة على « الشعور بالآخرين » ، وعلى الانصراف والتحول بعيدا عما تتميز به ذاته المنفردة من ضيق محصور الى العالم الاعظم رحابة الذي يحيط به ، وانما هو يمتلك شهية عارمة ورغبة ليس لها حدود في ان يفعل ذلك . وانني لأرى « جنون السحر »كنتيجة مباشرة لهذا النقص الشديد في ذلك « الفيتامين » . وحينما شرع التيار الصخاب العريض للثقافة الرومانتيكية في اشباع هذه الشهية ، اصبح السحر ــ فجأة ــ شيئا ينتمي الى الماضي البعيد .

وتؤيد هذا الاستنتاج ، واحدة من ابرز الروايات التي كتبت حول موضوع السحر وممارسته ، وهي رواية « الملاك الناري » التي كتبها فاليري بريوسوف، وحولها بروكوفييف الىواحدة من اقوى اوبراته . وكان بريوسوف احد كتاب المدرسة الرمزية الروسية في اوائل هذا القرن ، ورغم انه ظل بعد الثورة كاتبا مشهورا في بلده ومقربا منالسلطة الجديدة فيها ، فان رواية « الملاك الناري » لم تلق نفس الترحيب الذي لقيته بقية اعماله بعد الثورة . ومع هذا فان اوبرا « الملاكالناري » لبروكوفيف ما تزال معروفة في روسيا .

تحكي الرواية قصة الجندي « رابرخت » ،الذي يعود الى موطن فياوروبا، من امريكا الجنوبية في ثلاثينات القرن الخامس عشر ، حينما كان اجريبا وبارسيلساس يتمتعان بالشهرة الواسعة في المانيا كلها . وفي فندق صغير حيث كان يقضي ليلته ، يسمع صوت امرأة تئن وتبكي . وفي الحجرة المجاورة ، يعثر على فتاة صغيرة تدعىريناتا ، تناديه باسمه قبل ان تسقط على الارض وهيتتلوى في تشنجات قوية ، وتصرخ معلنة ان الشياطين قد مستها وتملكتها . وينجح رابرخت في النهاية في تهدئتها ويجعلها ترقد على الفراش . وحينئذ تصرعلى ان تحكي له قصتها : كيف حدث ، وهي في الثامنة من عمرها ، ان جاءها ملاك ذهبي الشعر،يتوهج كما لو كانت اشعة الشمس تنعكس عليه ، فلعب معها وهي في حجرتها . وكان اسمه ماديل . وظلا طوال سنوات يلعبان معا ، واخبرها انها قد قدر لها ان تصبح قديسة ،وشجعها على انتبدا تمرينات قاسية في التنسك والزهد . وكانت ريناتا راغبة تماما في ان تصبح قديسة ، ولكنها ارادت ايضا ان تكون عروس ماديل . ولكنه تركها ذات ليلة ،بعد ان بذلت مجهودا مركزا في سبيل اغوائه .ولكنه عاد بعدمدة من الزمن ، فظهر لها في حلمها واخبرها ان

تتوقعه مرة اخرى ، ولكن في شكل آدمي يأتي في خلال شهرين . وبعد شهرين تماما جاء نبيل شاب يدعى الكونت هاينريش لزيارة اسرتها . واستطاعت هي ان توقعه في حبائلها ،ثم هربا معا الى قلعة هينريش على نهر الدانوب . ولكنه تركها بعد سنتين من السعادة،وهجرها دون تفسير ،ولم يعدثانية منذ ذلك الحين . وظلت ريناتا تبحث عنه منذهجرهاالى ان التقت برابرخت ، تعذبها الابالسة

وامضى رابرخت الليلة راقدا الى جوارها في الفراش ، ولكن في طهارة كاملة ، وفي الصباح اصطحبها معه . ولكنه كان بالطبع قد وقع في حبها . غير انه حينما كان يحاول ان يأخذها الى الفراش،تنتابها الهستيريا ،وتقول له ان عليها ان تحافظ على نفسها من اجل الكونت هينريش . واصبح رابرخت مستعبدا لها حتى انه كان يوافق على مساعدتها في البحث عن حبيبها المختفي . وتتحول الرواية الى صورة طبية قوية لارتباط رابرخت الماسوشي بريناتا .

وتقنعه ريناتا بان يدلك نفسه بمرهم سحري لكي يزور تجمعا للساحرات في احد ايام السبت . ويعتبر وصف بريوسوف ليوم سبت الساحرات وصفا دقيقا قائما على المراجع المعترف بها ،ولا بد ان يقرأه كل من يريد ان يفهم ما كان يفترض ان تفعله الساحرات في مثل هذه المناسبة . ويصاب رابرخت بالدوار بتأثير المرهم ، فيرقد على الارض . ثم يجد نفسه طائرا في الهواء ممتطيا ظهر « شاة » كبيرة . وبعد نصف ساعة يهبطان في واد بين تلين ، وعلى الفور تحيط به جماعة من النسوة الغاضبات العاريات ، فيحملنه الى حيث يقف امام عرش خشبي كبير ، يجلس عليه الشيطان نفسه :

« كان الشخص الجالس هائل القامة ، يشبه الانسان حتى حصره ولكن نصفه الاسفل كان يشبه ذكران الماعز . وقد انتهى ساقاه بحافرين ، ولكن يديه كانتا مثل ايدي البشر ،كذلك كان وجهه انسانيا ، احمر اللون ، لوحته الشمس مثل هندي احمر من الاباش وكانت عيناه كبيرتين مستديرتين وله لحية متوسطة الحجم . كان مظهره يوحي بأن عمره لا يزيد على الاربعين ، وفي تعبير وجهه شيء حزين يثير الشفقة ، ولكن هذا الاحساس اختفى حالما ارتفعت نظرتي فوق جبهته العالية لكي ارى قرونا ثلاثة تبرز بوضوح من وسط شعره المجعد الاسود ، اثنان صغيران في مؤخرة رأسه والقرن الكبير وسطهما في المقدمة . وحول القرون الثلاثة وضع تاج من الواضح انه مصنوع من الفضة ، كان يشع بريقا لينا مثل ضوء القمر .

وضعتني الساحرات العاريات امام العرش وصحن صارخات : « ايها السيد ليونارد . انه جديد ! » وحينئذ سمعت صوتا ، خشنا بعيدا وخاليا من اي تعبير كما لو كان ذلك الذي تحدث لم يكن معتادا على لفظ الكلمات ، ولكن الصوت

كان قويـا مليئا بالاحساس بالسيادة وهو يوجه الي الخطاب قائـلا : « مرحبـا ، يـا ابنـي ... » .

وكان على رابرخت ان ينكر الله ويسوع والعذراء ، ثم ان يقبل يد الشيطان وردفه . ويلاحظ رابرخت ان اصابع اليد كلها كانت متساوية الطول ،بمـا فـي ذلك الابهام ، مشققة كالاظلاف .

ويتبع هذا الرقص وسط ذكران ضفادع هائلـة الحجم ، وافاع وذئاب ، ثم يأتي دور تناول الطعام الذي كان خشنا فقيرا مع نبيذ رديء ، وفي نهايةالوجبة، تأخذ ساحرة شابة رابرختالىالغابة فترغمه على مضاجعتها . ويستيقظ رابرخت لكي يجد نفسه راقدا على الارض في حجرته مع احساس قوي بالدواروالصداع. ولكنه لم يكـن قد عرف اين يوجد الكونت هنرييش .

وتبدو بعض التفاصيل في وصف بريوسوف عجيبة حقا ، كما يشير بعضها التساؤلات . فلمـاذا ينبغي ان يقدم الشيطـان لاتباعه طعامـا فقيرا مـع رديء النبيذ ، رغم انه ، على اي حال : « امير هذا العالم ؟ » .

... كذلك فان الشيطان يظل جالسا ، ويبدو في هيئـة بشرية تمامـا ، بصرف النظر عن جرمه الهائل ،فهل يمكن ان يكـون رجلا يرتدي « سروالا » يجعل نصفه السفلي يبدو مثلجلدالماعز بحوافره الواضحـة بدلا من القدميـن ؟ اناجزاء معينة من روايـة بريوسوف قد نقلت عن محاكمة فعليـة جرت بالقرب من مدينة فيرزبرج، عام ١٧٤٩ ،للراهبةماريا ريناتا فوق موساو ، التي عذبت ، وقطـع راسهـا ، ثم احرقتجثتهـا في النهايـة . وتتضمن اعترافاتها نفس التفاصيـل الجنسية الملتهبة المألوفة ــ بل انها اكثر من المعتادة في الحقيقة ــ وهكذا كـان لبريوسوف الحق في ان يركز كثيرا ــ كما فعل ــ على الجوانب الجنسيـة مـن صورتـه .

ويتضمـن الفصل الجميل السابع من الرواية وصفا لزيارة رابرخت لمدينة بون التي ذهـب اليها لكي يلتقي مع كورنيليوس اجريبا . ولا يمكـن ان يكون هناك شك فـي صحـة المادة التاريخيـة المستخدمة في هذا الفصل ، ومـن المهم ان نلاحظ ان اجريبا يدمغ السحر بأنه هراء صبياني ،ويصر على ان للفلسفة وللتأمل الصوفي اهميـة اعظم بكثير . فحينمـا اصدر اجريب كتابه « الفلسفة الغيبية » كان قـد بدا ينظـر الى السحـر باعتباره عملا من اعمال الطفولـة وانشغـالات العقـل المراهق .

وحينما يعود رابرخت الى كولونيا ، تسمح له ريناتا فـي النهايـة بـأن يمتلكهـا ، ولكنهـا كانت ليلة خالية من السرور الى حد بعيد كانت ريناتا خلالها

محمومة لا يرضيهـا شيء، وكانت تفكر ـ بشكل واضح ـ طوال الوقت في شخص آخر . ويغرق رابراخت في ماسوشيته البطوليـة .

واخيرا يظهر الكونت هينريش في كولونيا ، وتتمكن ريناتا من اقناع رابرخت بأن يتحداه للمبارزة . ويوافق رابرخت ، ضد ارادته الى حد كبير ، ويبدأ فـي تبيـن ان ريناتا ليست الفتاة البريئة التي ظنهـا من قبل . كانت قد تمكنت من اغواء الكونت هينريش الذي كان من اعضاء جماعة « الصلب الوردي » وكان قـد نذر نفسه للعفـة الكاملة ،ثم تمكنت من اقناع رابرخت بممارسة السحر الاسود ، وهو الآن يبغضها . وما ان يتمكن رابرخت من ارغام هينريش على الموافقـة علـى مبارزته ، حتى تغيـر ريناتا رأيها، وتنتزع وعدا من رابرخت الا يؤذيه ، الامر الذي يؤدي بالضرورة الى ان يصاب رابرخت بجرح خطير ، فتقوم ريناتا على تمريضه حتى يسترد صحته . وتبدو بعد هذا كمـا لو كانت قد تخلصت من ولعهـا المرضي بهنريش ، وتمنح نفسها لربرخت. ثم تقرر ان عليهـا ان تصبح قديسة ، فتهجره، وتذهب الى احـد الاديرة .

ويخصص بريوسوف عدة فصول للقاء طويل بين رابرخت وبين الدكتـــور فاوستس (في وجود مفيستوفوليس ، بالطبع) . واخيرا يعثر رابرخت على الدير الذي كانت ريناتا قـد لجأت اليه . وكانت الابالسة قد تمكنت من غـزوها مرة اخرى ، وتنتاب التشنجات جميع الراهبات . ويلقى القبض على ريناتا بأمر مـن رئيس اساقفـة ترير ، وتتعرض للتعذيب . ولكنهـا تموت في النهاية بين ذراعي رابرخت قبل لحظات من اخذهـا الى عامود المحرقة . ويجعل بروكوفييف من مشهد الراهبات الممسوسات اقوى مشاهد الاوبرا التي اخذهـا عن روايـة بـريوسوف واكثرهـا اثارة للفـزع .

ان ما يجعل هذه الرواية جديرة بان نتوقف عندهـا الى هذه الدرجة ، هو ان بريوسوف قد اعتزم من خلالهـا ان يحاول فهم ما حدث حقا في فترة « جنون السحر » . ان ريناتا شخصية هيستيرية ، يدفعهـا دافع جنسي قوي ، ولكنهـا ايضـا تعرف اسم رابرخت حالمـا تراه وقبل ان يبوح لها باسمه . انها تمتلـك اذن قدرات غيبية معينة . ولكن من المؤكد ان الكونت هينريش ليس هـو ماديل ، الملاك الناري ، فيصبح كل بحث ريناتا عنه بحثا عقيمـا وخاليـا من المعنـى . ان الكتاب يدور حول مجموعة من الناس وقعوا في اسر دوامة من صنع خيالاتهـم الوهميـة ، ثم تتخذ خيالاتهم مظهر حقيقة غريبة بسبب من تأثير القوى اللاواعية التي حركهـا دافع معيـن من الخارج . وبالنسبة لكاتب ينتمي الى مرحلـة مـا قبل فرويد (فقد صدر الكتاب عام ١٩٠٧) فان هذا التحليل الذي اعتمد عليـه بريوسوف يعتبر « ضربة عبقرية » مقنعة حول التكوينات النفسية غير الطبيعية .

أن بريوسوف ، بوصفه شاعرا ، كـان يميل ميـلا خاصا الى البحـث عن الحقائق الغريبة المتعلقـة بالساحرات ، كمـا كان يملـك فكرة غامضة حول هذهالحقائق: فكرة تقول بان قدرات العقل الانساني اقوى بكثير مما نفهم نحن ، وانه من الممكن ان نطلق هذه القدراتمنعقالها بواسطـة « الرموز » . هل كانت مصادفة انيذكر ان « السيد ليونارد » يضععلى راسه تاجا يشع « بريقا قمريا » ـ نسبة الى القمر، الربة البيضاء ، رمز القدرات والقوى الكامنـة ، التـي تختفي وراء الشخصيـة العاديـة ؟

*

هناك قصة من تاليف الكاتب الياباني اكوتاجاوا ، تقرر بوضوح الهدف الذي كنت أسعى اليه عبر هذا الكتاب . عنوان هذه القصة ، هو « التنين » . هنـــاك كاهن يريد ان ينتقم من دير معين ، فالرهبـان يسخرون دائمـا من انفه الاحمـر . ولذلك ، فانه يقيم على شاطيء بركة صغيرة بالقرب من الدير ، لوحة من الخشب كتب عليها : « فيالثالث من مارس ، سيخرج تنين من هذه البركة » . وكان للوحة وما كتب عليهـا تأثيرهمـا المنتظر . فقد انتشرت الانباء ، وفي الثالث من مارس كانت هناك حشود ضخمة تنتظرخروج التنين على شاطيء البركة . ويشعرالرهبان بحرج شديد ، فهم يعرفون انه حينمـا يمر الوقت دون ان يبدو التنين لانظار الناس فانهم هم من سيوجهاليهم اللوم . وتتوالى ساعات النهار ، وتمتد حشود المنتظرين اميـالا حول البحيرة ، ويبدأ القسيس في الندم على فكاهته العابثة . وبالتدريج، يتزايد تأثره بقوة جو الانتظار القوي الشائع حوله ، فيجـد نفسه يحـدق بتلهف حقيقي الى سطح البركة السـاكن . وفجاة تمامـا تظهـر السحب الكثيفة فيالسماء، وتنفجر عاصفـة هائلـة ،وفي وسط الرعد والبرق ، يبرز من قلب البركـة شكل التنيـن يجلله دخان كثيف ، ويصعد كالومض الى السماء . ويراه كلالحاضرين .

وحينمـا يعترف الكاهن فيمـا بعـد بانه هو الذي وضع اللوحة وكتب عليها ما كتب ، لا يصدقه احد .

ان ابرز مـا تقرره هذه القصة اهمية هو مـا يتعلق بالتوقع القـوي المتلهف والانتظار اليقيني الكثيف من جانب الحشود ، هذا التوقع الذي يؤثر حتى فـي الكاهـن الذي كـان قد رسم بنفسه اللوحـة التي اعلنت موعـد ظهور التنين،ومع هذا فـان الضغط التليباثي (المنتقل عن بعد) من جانب الآلاف المؤمنين ، يرغـم غرائزه في النهايـة على ان تستجيب مع مشاعر هذه الآلاف . ليس هناك انقسام للذات على نفسهـا . ان الضغط النفساني ليشبه خبطات الاقدام المنتظمة التـي شققت جدران اريحـا وهدمتها . ففي البداية ، تظهر السحب في السماء الصحو، ثم تهب العاصفة ،الرمز المرئي لانطلاق التوتر الحبيس ، ان شيئا ما علـى وشـك

ان يحدث . ان وصف التنين بانه « هلوسة جماعية » لا بد ان يؤدي الى اخطاء الهدف كله . انما هو «ظهور» او « رؤية » جماعية ، تجسيد تلقائي لقوى اللاوعي . مثله مثل كل السحر ، دون استثناء .

ان القدرة على التواصل الجماعي ل « احداث الاشياء » عن بعد هي قدرة معروفة لدى غالبية الشعوب البدائية. وقد اخبرني المرحوم نيجلي فارسون في مناسبات عديدة كيف رأى ساحرا من ليبريا وهو يستنزل المطر من سماء صافية ليست فيها سحابة واحدة .

وقد روى لي جاري ، مارتين ديلاني ، الذي وصفت قدراته العجيبة في مجال العرافة في ملحق خاص من كتابي عن « راسبوتين » ،روى لي حادثة لا تقل غرابة . فقد اكد طبيب ساحر في نيجيريا لجماعة من المستكشفين البيض ، ان السيل الجارف الذي كان يتدفق من السماء منذ عدة ايام ، سوف يتوقف لمدة ساعتين عندما تبدأ حفلة معينة كانت ستقام لتكريم الجماعة . وقد توقف المطر بالفعل حالما بدأت الحفلة ، ثم عاد من جديد بنفس عنفه الاول ، بعد انتهائها .

وفي نفس الملحق ، رويت بالتفصيل القصة العجيبة التي وقعت في « المنشار الكهربائي » التابع لنفس الشركة التي اقامت الحفل المذكور سابقا . فقد حدث ان طارت دجاجة فسقطت داخل آلة المنشار ، واعلن العمال الزنوج ان السبب يرجع الى ان « اله الحديد » يريد استرضاءه ببعض القرابين. ورفض مستر ديلاني اقامة الاحتفال الشعائري المطلوب ،لانه كان سيتضمن ذبح كلب صغير اسود اللون . وبعد يومين سقطت دجاجة اخرى داخل آلة المنشار ، وبعد وقت قصير كان من الضروري ان توقف الآلة وتفك اجزاؤها الخارجية لاجراء بعض الاصلاحات، ورغم ان الكهرباء كانت مفصولة عنها من الموتور ، فقد دارت فجأة وجرحت يد المدير جرحا بالغا . امضى المهندسون عدة ساعات في فحص الآلة والموتور ، ثم اعلنوا انه كان من المستحيل ان تدير الآلة نفسها بهذا الشكل . واخير ، انحرف نصل المنشار الفولاذي ذات يوم وهو يقطع كتلة خشب كبيرة ، فاطار كرة معدنية اصابت عامل التشغيل فقتلته على الفور . وفي النهاية ، وافق مستر ديلاني على اقامة الاحتفال المطلوب والتضحية بالكلب ، فكفت هذه الحوادث عن الوقوع .

فاذا صرفنا النظر عن فكرة المصادفة ، لاتضح لنا ان هناك احتمالين للتفسير . فاما ان الطبيب الساحر نفسه كان قادرا على التسبب في هذه الحوادث بواسطة نوع من الحركة النفسية الحيوية Psycho - Kinesis او ما يعرفه العامة باسم « العين الشريرة »، واما ان الخوف الذي اجتاح جماعة العمال كان هو السبب في تلك الحوادث . وقد استبعد المستر ديلاني ان يكون الطبيب الساحر هو المسؤول وقال انه كان رجلا عجوزا طيبا رقيقا . اما الفرضية

الثانيـة فمن المؤكـد انها تتناسب مع مـا كنـا نقول بدرجة اكبر . فقد خبر اكثر الناس شيئا من نفس النوع ولكـن في مجال اضيق : احساس عصبي متوتر بـأن شيئا مـا يسير بشكل خاطيء ، ويتلو هذا الاحساس كارثة صغيرة .

ومن المحتمل ان تكـون افضل طريقة للتوصل الى فهم ما لظاهرة السحـرة الاوروبيين ، هي دراسـة روايـات شهود العيان عن السحر الافريقي المعاصر لنا. ويقدم كتاب « شاهـد على السحر » من تأليف هاري . ب . رايت ، بعض الامثلة العجيبة .انه يصف « رقصة الرعد » في منطقة « ابومي » غربي افريقيا كمثال على « الارتباط الغريب الذي يبدو قائما بين الاعمال البدائية التي يقـوم بهـا هؤلاء الناس وبيـن قوى الطبيعة نفسها . . » فقد رقص احد المواطنين الطوال القامـة تصاحبه اناشيد معقدة ، وهـو يقذف في الهـواء بعصا الرقص الطويلة » . . « كـان اليوم صحوا صافيا حينمـا بدات الرقصة ولكني رفعت بصري فجاة الى اعلى ، فرايت السماء يغشاها الظلام بالسحب الكثيفة » ومع ذلك فقد قال الاميـر لرايت : « انهـا لن تمطر ، لاننـا لن نسمح بنزول المطر دون رقصة المطر » . ولم تمطر السماء بالفعل . ومرة اخرى يبدو لنـا جديرا بالملاحظة ان نقـول ان رايت شعـر بنفسه يشارك في الهوس الجماعي الذي ادت اليـه الرقصة . وحينمـا انتهت الرقصة ، صفت السماء مرة اخرى .

ويصف رايت ايضا « رقصة الفهد » التي ربمـا كان تفسيرها اقل صعوبة. فقد راحت فتاة جميلة طويلة القامة من المواطنين بالرقص علـى اضواء النيران . واكد مرافق رايت الافريقي انه استطاع ان يرى بعض الفهود . اما رايت فلـم يستطع ان يرى حولها سوى بعض الظلال . ولكـن بدا ان المواطنين كانـوا يتابعون بعيونهم الفهود غير المرئية . وحينئذ ، وفي قمة الاحتفال ، برزت ثلاثة فهود كبيرة تخطـر قادمـة من الادغال، وعبرت الباحة الواسعة ، ثم دخلت الادغال مرة اخرى من الناحيـة المقابلة ، وكان بيـن فكي احدها طائر ميت . ويقول رايت : « لو انني كنت قـد غرقت في السبات من خلال عملية تنويم مغناطيسي جماعية اذن فانهـا عمليـة تمت بطريقة جيدة ، لانني لم اشعر بخلاف هذا الا بانـني عاقل تمامـا وفي حالة طبيعية . » ولكن ليست هناك حاجة الى التفكير فيما حدث علـى اساس التنويم المغناطيسي . ان الحيوانات تليباثيـة بطبيعتهـا ، وليس هناك ما هو اكثر احتمـالا من ان تأتي اسرة من الفهـود الحقيقيـة لكي تلقي نظرة لتكتشف ان كانت « الفهود المتخيلة » قد جاءت لكي تغزو منطقتها ، ام ان الاهالي يمارسون لعبتـهم مرة اخرى (وقد اوضح رئيس القبيلة مرة لرايت ، انهم قد استحضروا الرعد لكي « يسروا عـن انفسهم ») .

ويؤدي بنا هذا الى نوع من التفسير الجزئي على الاقل لاسطورتين وجدتـا

وبقيتا باستمرار منذ اقدم الازمنة : مصاصي الدماء والانسان الذئب . وقد اكتشف مونتاجي سامرز عددا كبيرا من الصنفين ، حتى لقد كان يستطيع ان يخصص كتابين كبيرين لموضوع مصاصي الدماء وحده .

كان الاساس الجنسي لنزعة مص الدماء والاستذآب قد اعترف به في المرحلة السابقة على فرويد . ان رغبة الذكر الجنسية اقوى بكثير من رغبة المرأة الجنسية بشكل عام . والشبق الشديد او « الغلمة » ظاهرة نادرة بين النساء ، ولكن يكاد كل رجل صحيح الجسم — في خياله على الاقل — ان يكون فحلا شديد الشبق .

وتصبح هذه الشهية الجنسية العنيفة ، غير المتعلقة بواحدة بعينها ، عند الذكر ، خطيرة اذا تعرضت للاحباط ، وقد تتحول الى عنصر من عناصر القسوة . ان الصورة التي رسمها روبرت موزيل للقاتل الجنسي « موسبرجر » في روايته : « رجل بلا هوية » تؤكد الاحباط الذي حاصر النجار المتجول الذي « ينام نومة خشنة » ويتجول من قرية الى قرية ، دون ان تتاح له ابدا الفرصة لاشباع الشهية المتفتحة الى : « شيء يشتاق اليه المرء ، تماما مثلما يشتاق الى الخبز والماء ، وهو هناك امامه يمكنه ان ينظر اليه . وبعد مضي بعض الوقت ، تصبح رغبة المرء فيه رغبة غير طبيعية . هاهو يسير عابرا امامي ، ومآزر النساء تتأرجح حول كواحله . ها هو يتسلق صاعدا درجا ، يصبح ظاهرا للعيون حتى الركبتين . » ولقد اوضحت في كتاب « كراسة مذكرات الجرائم القتل » — عام ١٩٦٩ كيف يتحول متشردون من نوع موسبرجر الى قتلة جنسيين . فان قوة الرغبة وشراستها قد تتحول الى ازدراء للنساء . وقد قال مرتكب جرائم برمنجهام في « ي . و . س م » ، باتريك بايرن ، قال انه قام بالقتل لكي : « سينتقم من النساء لانهن يدفعنه الى التوتر من خلال الجنس » . اما القاتل الالماني بوميرينك ، فقد ارتكب اولى جرائمه الجنسية في حديقة بعد ان رأى فيلما بعنوان « الوصايا العشر » اقنعه بأن كل ما في النساء شر (فاذا كان هذا صحيحا ، فلماذا الاغتصاب الى جانب القتل ؟) وفي نفس العام الذي كتبت اثناءه هذا الفصل (١٩٧٠) كان جون كولينز يقف امام المحكمة في « آن آربور » متهما بقتل كارين بينمان ، ولم تكن الفتاة قد اغتصبت وخنقت فحسب ، وانما كانت ايضا قد عذبت بآلة مدببة حادة ، وبالاحماض .

يقول علماء النفس ان لكل الناس « شخصية اجتماعية ، التزاما يرغمهم على ان يسلكوا بطريقة متوازنة وودية ، وان هذه الشخصية قد تغطي بعدا عميق الغور من الاحباط القاتل المميت . وينطبق هذا بشكل خاص على من كانوا في عمر الشباب . (يرتكب غالبية الجرائم الجنسية رجال تحت الخامسة والعشرين ، وكثيرا ما يكونون تحت العشرين) . . . ولدى امراة من نوع ايزوبيل جوودای ، يؤدي هذا النوع من « الشخصية المنقسمة » الى السحر ، اما لدى الرجل ، فانها

قد تؤدي الى شكل من اشكال « استذآب » ، حيث تهيمن شخصية « الوحش » وترتكب جريمة الاغتصاب . هذا هو الراي الذي طرحه روبرت ايزلر ، عالم النفس الذي ينتمي الى مدرسة يونج في كتابه : « الانسان متحولا الى ذئب » عام ١٩٤٩ . وفي هذا الكتاب ،يطرح ايزلر رايا شائقا يقول فيه ان الانسان كان في مرحلةما، قردا نباتيا مسالما ،يعيش على الجذور والثمار البرية . ولكن الانسان ايضا مخلوق يميل الى المحاكاة ، وفي معركته ضد الحيوانات المتوحشة ، وهي صراع حياة او موت ، بدأ يكتسب عامدا ما تتميز به الحيوانات المفترسة من قسوة وشهوة الى الدماء . والمظهر الحديث لهذا الميل المكتسب القديم ، هو الاعجاب المستتر الذي يتخلله الخوف الذي يكنه الكثيرون من الناس للمجرمين ، وبوجه خاص للمجرمين الذين يتميزون بالعنف . انهم يشعرون بان القساة المتميزين بالعنف من الناس ،يحتاجون الى ان « نعرف عنهم شيئا » وان انجع وسيلة لمعرفة شيء عنهم هو أن نولد قدرا معينا من التعاطف ازاءهم .

ومن المؤكد ان هذا الراي يمكن ان يفسر رقصة الفهد التي شاهدها هنارى رايت ، وان يفسر ايضا عبادات الفهد والحيوانات المتوحشة الاخرى في افريقيا. ان ويليام سيبروك ، يروي قصة كاتب ضئيل الحجم بالغ الهدوء من الاهالي، ارتدى جلد « ببر » بعد ان زوده بمخالب حديدية ،ثم قتل فتاة بهذه المخالب . وكان الكاتب مقتنعا كل الاقتناع بانه يتحول كل فترة معينة من الزمن الى ببر، وقال لسيبروك انه كان يفضل حياة الببر تماما على حياته هو الانسانية . ومن الطبيعي ان يخشى اهالي افريقيا الببر والفهد ـ خوفا اكثر بكثير من خوفهم من الاسد او النمر اللذين نادرا ما يتحولان الى قتلة للبشر ـ ومنذ اقدم الازمنة ، كانت الاستجابة لهذا الخوف،من جانب أصحاب الارواح الاكثر جسارة ، هي محاولة التوصل الى نوع من التشابه الداخلي مع القتلة . ولا شك ان استجابة الانسان البدائي ازاء دب الكهوف تصور نفس الوضع تصويرا مشابها .

وقد كانت الذئاب في اوروبا العصور الوسطى هي اخطر حيوانات البرية ، ولا شك ان الكوابت والهواجس الجنسية التي تعذبت بها ايزوبيل جوداي ، هي التي دفعت الفلاحين المحبطين جنسيا الى التشبه بالذئاب . ولكن اكثر الاسئلة اثارة للتعجب هنا ،هو الى اي مدى يمكن لتلك الهواجس ان تؤدي الى تغيرات جسدية فعلية . يقدم ويليام سيبروك وصفاهاما وملفتا للنظر عن كيف اخذت امراة روسية مهاجرة في التامل حول المقطع رقم ٤٩ من كتاب «اي تشينج» الذي يرتبط معناه بفراء الحيوان وبطرح الحيوان لجلده او شعره القديم واكتسابه جلدا او شعرا جديدا . وتخيلت المراة نفسها ذئبا يسير على الجليد ،ثم بدات في الصراخ بطريقة تشبه العواء، واخذ الزبد يتدفق من جانبي فمها . وحينما حاول

احد الشهود ان يوقظهـا ،قفزت الى عنقه وحاولت ان تعضه . اما في حالـــة جيلزجارنيير الذي اعدم بتهمة الاستذآب في عام ١٥٧٤ ، فيبدو انه هاجم ضحاياه من الاطفال اما في شكل ذئب او في شكل رجل عادي . وزعمت وثيقة الاتهام التي كتبت ورفعت القضية على اساسهـا في مدينة « دول » زعمت انه امسك بفتـاة في الثانية عشرة من عمرهاوقتلها في حديقة كروم بيديه واسنانه ، ثم جرها علـى الارض ـ باسنانه ـ الى داخل الغابة عند بلدة « لاسير » حيث التهم اكثرجسدها. وقد بلـغ من استمتاعهبالوجبة انه اخذ جزءا من جسمها الى زوجته . (ولا يعني هذا ان الزوجة ايضا كانت ذئبة متخفية في وكرها ،فبعد ثلاثمائة عام ،وفي نفس المنطقة ، اعتاد فلاح يدعى مارتين دوموللارد ، ان يقتل الفتيات اللواتي كان يأخذهن الى امكنة منعزلة ، ثم يأخذ ملابسهن الى زوجته . وكان يقول لها في كل مرة :« لقد قتلت فتاةاخرى » ، ثم يذهب مسرعا . ويبدو انها كانت تنظر الى هـذه الاعمال باعتبارهـا نوعا بسيطا من الشذوذ) وقتل جارنيير صبيا في الثانية عشرة مـن عمره داخل غابة ،وكان على وشكان يلتهم لحمه(« رغم ان اليوم كان يوم جمعة» ـ هكذا تقول وثيقـة الاتهام !) حينمـا قطع بعض الرجال عليه متعته . وقد شهدوا بانهم رأوه في هيئة رجل ، ووافق جارنيير على ذلك . ولكنه اصر على انه كان في هيئة ذئبحينمـا خنق غلامـا في العاشرة من عمره وانتزع الساقين باظافـره وانيابه ، ولم يوضح كيف يستطيع الذئب ان يخنق احدا . وقد هاجم ايضا فتاة في العاشرة من عمرها ـ مرتديـا هيئته الذئبيـة مرة اخرى ـ ولكنه اضطر الى الفرار حينما شعر باقتراب بعض الناس . وماتت الفتاة بعـد ذلـــك متاثـرة بجراحها . وفي هذه المرة قال الفلاحـون الذيـن باغتوا جارنيير انهم رأوه فـي شكل ذئب ، ولكنهم رغم ذلك ظنوا انهم تعرفوا على وجه جارنيير . وقد حكـم عليه بالموت حرقـا .

وليس من غير المألوف باي حال بالنسبة للقتلة الجنسيين ان يلتهموا الاجزاء من اجسام ضحاياهم . فقد قام البرت فيش بطهو والتهام اجزاء من جسد الفتـاة البالغـة من العمر عشرة اعوام، جريس باد ، في جرينبرج ، بنيويورك عام ١٩٢٨ . وقام ايدجاين ،قاتل مدينة ويسكونسين ، بالتهام اجزاء من اجساد النساء اللواتي قتلهن ، وصنع من جلودهن سترات قصيرة . (ويذكـرنا هذا بشعائر اخصـاب الارض لدى شعب الازتيك (جنوب المكسيك) التي وصفتهـا اونيلا فولتا فـي كتابهـا حول نزعـة مص الدماء ، حيث يقوم الكاهـن اولا بالتضحية بعذراء ، ثم يسلخ جلدهـا ويرتديه لكي يقوم بالرقصة الشعائرية) . وبذلك فان اشتهـــاء جارنيير الغريب للحم الانساني لا ينبغي .ان يتخذ دليلا على انه قد تحول حقـا الى ذئب . ولكنهمن المستحيل ان نشك انه غرق في حالة اشبه بالسبات حيث شعـر بنفسه انه صار ذئبا ،مثل المهاجرة الروسية التي تحدث عنها سيبروك . أوليس من

المعقول ان يكــون بعض التحول الجسدي قد حدث بالفعل ، كتعبير جسدي عــن القوى الغريزيــة التي تبعث بقوة من لاوعيه ؟ في فيلم « الرجل الذئب » الذي قام بتمثيله لون تشاني ،يتحول تشاني الى وحش كامل بصورة مــا ، اشبه بالقـــرد الكبير منه بالذئب . والاوصاف التي ادلى بهــا الفلاحــون في قضية جارنييـــر تجعلنــا ندرك ان هذا هــو ما راوه ايضا .

وقد وقعت اشهر محاكمة اوروبية لشخص مستوحش كالذئاب بالقرب مــن كولونيا بعد خمسة عشر عامــا من اعدام جارنيير ،وهي فــي نفس الوقت اكثر ارتباطا بالحالات التقليدية لممارسة السحر . فقــد اعترف بيتر ستيـــوب(او ستامف) بانه ظل على علاقة جنسيــة بشيطانة (او جنية) طوال ثمانية وعشرين عامــا ، وان الجنيــة قداعطته حزامــا سحريا ، يستطيع بواسطته ان يحول نفسه الى ذئب ، فيصبح مخلوقــا ضخما قويا . وطوال السنــوات الثماني والعشرين، ارتكب ستيوب عددا كبيرا من جرائم القتل ــ وتتشابه التفاصيل الى حد كبير مع تفاصيل جرائم جارنيير ــ بل انه حاول ان يقضي على حيــاة اثنتين من زوجــات ابنائه (الامر الذي يتطابق الى حد كبير مع حالات الغيرة الجنسية) . وكان الحكم الذي صدر ضد ستيوب، قاسيا قسوة من نوع خاص : ان ينتــزع لحمـــه مــن جسمه بملاقط من الحديد المحمي بالنار، وان تحطم عظامه بضربات المطارق الخشبية، قبل ان يفصل راسه عن جسمه. وهناك حقيقة مؤكدة هي ان ستيوب قد عــذب عذابا لا يطاق قبل المحاكمة من اجل ان ينتزع منه هذا الاعتراف ، الامر الذي يثيــر احتمال ان يكــون كل مــاجاء في اعترافه محض خيال . فلم يعثر ابدا على«الحزام السحري » الذي قال انه كــان قد اخفاه مدفونــا في احد الوديان . وقد اثــارت القضية ــ رغم هذا ــ الكثير من المشاعر في اوروبا كلها .

ويروي مونتاجو سامرز عددا كبيرا من حكايات المستذئبين ، بطريقتــه التي توحي بانه يصدق كل مــا جاء فيها ، ولكن القليل جدا من بينهــا هــو ما يضيف شيئا جديدا الى مــا قلنــاه بالفعل. على العكس ، فاننا سنكتشف كلما اوغلنا فــي قراءة كتابه ، ان الكثير من هذه القصص ينبغي ان يقرا ــ اذا قراناه ــ كما يمكــن ان نستمع الى حكايات العجائز عن العفاريت الاشقياء . وهناك عنصر واحد اساسي شائع بينهــا جميعــا : ان يتمكــن الشخص الذي يهاجمه المستذئب من قطع مخلبه (او ان يقتلع عينه ، او ان يجرحه في رقبته) ثم يكتشف رجل او امراة فيما بعد وقد قطعت يده او اقتلعت عينه فيعترف بانه هو المستذئب الجريـــح . ويروي اولوس ماجنوس ، وهو احد كتاب يوميات التاريخ في القرون الوسطى ، قصـــة عبد اراد ان يقنع سيدته بحقيقة وجود المستذئبين ، فخرج لها من باب القبو في شكل ذئب ، ولكن كلابهــا هاجمته ففقــد احدى عينيه . وفي اليوم التالي اكتشفت

السيدة ان عبدها قد فقد عينا . ويحكي كل من مونتاجو سامرز وسير جيمس فريزر (في كتابه « الغصن الذهبي ») قصة صياد من مدينة اوفيرني استطاع ان يقطع مخلب ذئب كان قد هاجمه ، ولما ذهب يروي القصة لاحد اصدقائه ، واراد ان يطلعه على المخلب ، اكتشف ان المخلب قد تحول الى يد امراة ، ووجد في اصبع الكف خاتما ذهبيا،واكتشف الصديق هو خاتم زوجته . واعترفت الزوجة ، التي كانت تعالج رسغها الذي فقد كفه المقطوعة ،بانها مستذئبة ،فاعدمت . ثم يأخذ فريزر في رواية القصص الصينية عن البشر الذين يتحولون الى نمور ، والى قطط ،بل الى تماسيح ،موضحا بذلك ان لكل شعب تنويعاته الخاصة على نفس الموضوع . ومن العناصر المشتركة في كل تلك القصص في مناطق متفرقة من العالم ان التحول لايحدثالامع اكتمال القمر (الربة البيضاء مرة اخرى) فاذا ما فقد الشخص المتحول الى حيوان متوحش يده او قدمه ، فانه يفقد قوته معها مؤقتا .ويبدو في بعض الروايات نوع من الارتباك في النظر الى المخلوق الذي يقوم بهذا التحول (سواء كانذئبااو قطة او ارنبا) وما اذا كان يعتبر شيطانا حقيقيا ، ام مجرد ساحر .

ولم تستطع ظاهرة « الاستذءاب » ان تبقى بعد انتهاء عصر السحر ، وقد يكون من المهم ان نبحث عن سبب اختفائها . وقد تكون الاجابة هي انه لا يوجد مكان في الحضارة الحديثة لمثل هذا النوع من الشذوذ . وقد كان ضحايا المستذئبين بشكل عام من الاطفال ، وربما شعر رجال من نوع جارنيير وستيوب بالاحتياج الى الهرب من عذابات الضمير عن طريق اقناع انفسهم بانهم كانوا ضحايا حكم رهيب من احكام القدر . اما مغتصب الاطفال الحديث، فعادة ما يكون منهارا من الناحية الاخلاقية ومعتل العقل الى درجة بالغة ، حتى انه لا يشعر بالاحتياج الى مثل هذا المبرر . وقد يساعد هذا ايضا على تفسير استمرار حكايات « مصاصي الدماء » في التأثير على الخيال الانساني . انها التجسيد الذهني لنوع من الانفعالات اكثر انتشارا وقوة . ولا شك ان المشرفين على الامن في كل مدينة كبرى منمدن العالم اليوم ، قد اعتادوا على نوع معين من المنحرفين جنسيا يطلق عليه اسم « الوخاز » لانه يستخدم اداة مدببة صغيرة يخز بها اجساد النساء في وسط الزحام ويختفي بنفس السرعة .. وهو لا يسعى الى احداث جرح خطير ولا الى القتل ، وانما يكتفي بالوخز تعبيرا عن رغبته في «الدخول» في جسم المراة ، وايذائها ايضا . فاذا تحدثنا هنا عن « العدوان السادي » مثلما تفعل الكتب المدرسية، نكون قد تركنا الظاهرة دون تفسير . ان كل ما يحدث هنا ، هو انرجلا او شابا يحمل تعلقا « رومانتيكيا » قويا بالنساء ، يفتقر في نفس الوقتالىالشجاعة الضرورية للاقتراب منهن ، او انه لا يبالي المبالاة اللازمة لذلك ، الى ان تتحول الرغبة الكامنة الى نوع من العذاب الداخلي المتفجر.

ان احلامه بممارسة الحب معهن تفتقر الى التحقق ، كما تفتقر الى قوةالاقناع، لانه يشعر بانهن سوف يرفضنه . ولكن احلام اليقظة التي تتضمن هجماته السادية عليهن ، يمكن ان تكون اكثر اشباعا ، لانه يستطيع ان يتخيل نفسه وهو يغتصب فتاة . وحينما يغرس اداته المدببة الصغيرة في ردف فتاة جميلة وسط الزحام ، يشعر ايضا بانه قد انتقم منها لانها ترفضه .

ويوضح هذا التفسير ايضا التكوين النفسي لنزعة مص الدماء . انها رغبة جنسية جامحة محبطة تحولت الى عدوان . وبالاضافة الى هذا ، هناك الخوف من الموتى ومن الاشياء المتعلقة بما وراء الطبيعة ، فتحصل القصة بذلك على قوة قادرة على السيطرة على الخيال الانساني . ولكن هذا لا يعني القول بان نزعة مص الدماء ليس سوى نوع من الخرافة او الوهم . فالامثلة المعروفة عنها تتمتع بمصادر قوية حتى انه سيكون من العبث التمسك بالموقف المنطقي الصارم . اننا هنا ، مرة اخرى ، نقف في المنطقة الواقعة خارج حدود العقل الانساني ، حيث تستطيع قوى غريبة ان تنبع من اللاوعي لكي تتخذ شكلا ماديا واضحا . ويقتطف مونتاجو سامرز حالة معينة من « محاضر جلسات المعمل القومي للبحوث النفسية » في عام ١٩٢٧ ، حيث قامت فتاة رومانية ، تدعى اليانور زوجون ، بالكشف عن اثار وندوب ناشئة مما اسمته « عضات الشيطان » على يديها وذراعيها . ويصف المحقق كيف كانت على وشك ان ترشف من قدح الشاي الموضوع امامها حينما صرخت . وظهرت آثار اسنان على ظاهر يدها سرعان ما تحولت الى ما يشبه الندوب . وبعد دقائق قليلة، ظهرت اثار العض على مقدمة ذراعها ، تحت طرف الكم ومرة اخرى كانت آثار الاسنان غائرة وواضحة . فهل كان في الامر « شبح » خفي ، ام ان عقل اليانور الباطن كان يشكل ما قد أفلت من كل سيطرة ؟ السؤال هنا عقيم ، طالما اننا لا نملك اية فكرة عن القوى التي « يمكن » ان توجد . لم يتمكن انسان ابدا من النزول الى اعماق اللاوعي لكي يكتشف كل دهاليزه الخفية . فلماذا ينبغي ان نؤكد ان سبب تلك الندوب ، كان هو العقل الباطن لاليانور زوجون ؟ انه ، اذا كان يونج على صواب ، وكان هناك « لاوعي جماعي » فقد تكون هذه الندوب من فعل عقل شخص آخر . ان قراء رواية « ثلاثة وجوه لحواء » من تأليف ثيجبين وكليكلي ، سيتمكنون من ادراك هذه النقطة دون صعوبة . ويصف الكتاب كيف حدث ان امراة متزوجة ، حسنة السلوك ، هادئة تماما ، قد وقعت تماما تحت سيطرة « ذات اخرى » ، صاخبة ، جنسية الميول، فارغة العقل ، تحب الاستمتاع بحياتها . ان هذا الوضع ليبدو اقل اثارة للحيرة مما هو بالفعل ، اننا جميعا نعرف حالات يصبح فيها بعض الناس مختلفين اختلافا كليا حينما يسكرون . ولكننا ، اذ نقرا الكتاب ، يزداد امامنا وضوح ان « وجهي حواء » كانا في الحقيقة « شخصين » مختلفين اختلافا كاملا ، انها حالة

من حالات « المس » بصورة حرفية ، ومن المؤكد انها كانت ستعامل في القرن الخامس عشر على يدالقسيس المتخصص في طرد الارواح ، وربما على يد جلاد التعذيب التابع لمحكمة التفتيش. ومنذ تمكنت حواء في النهاية ، ان تتوصل الى شخصية متسقة ومتكاملة ، وحدت « وجهيها » ، فاننا نستطيع ان نتقبل ان« حواء البيضاء » و « حواء السوداء » لم تكونا سوى جانبين لشخصيتها الواحدة . ولكن العقل لا يستطيع ان « يدرك » هذا ، اننا لا نستطيع سوى ان نتقبل الظاهرة بشكل ذهني . ويدرك المرء فجاة بوضوح حدود الوعي ، ولكنه بالتالي يكون اقل استعدادا للتقدم بتفسيرات مدققة بشكل ظاهري لما حدث لاليانور زوجون .

وهناك قصة اقل شهرة من حالة « حواء » ، ولكنها اكثر منها اثارة للحيرة من جوانب عديدة ،وهي قصة « سالي وتشامب » التي اثارت القلق في اوساط علم النفس الامريكي في اواخر تسعينات القرن الماضي . ففي عام ١٨٩٨ ، ذهبت فتاة تدعى كريستين . ل . بوتشامب الى الدكتور مورتون برينس ، من كلية تافتس الطبية ، وكانت تعاني من الاجهاد العصبي . وحينما فشل معها العلاج العادي ، جرب الدكتور برينس التنويم المغناطيسي . وذات يوم ، ودون توقع تماما ، برزت شخصية اخرى تماما من خلال العلاج – شخصية فتاة مرحة ، صخابة ،مندفعة، قالت انها تدعى « سالي بوتشامب » .واصرت سالي على انها «ليست» كريستين، رغم اعترافهما بان لهما جسدا واحدا . ومثلما هو الوضع في حالة « حواء » كانت سالي تعرف كل شيء عن الشخصية الاولى ، بينما كانت هذه الاولى – كريستين – تجهل كل شيء من مجرد وجود كريستين . وكانت سالي صحيحة التكوين تماما من الناحية النفسية الى درجة التفتح والقوة والانطلاق ،وكانت تحتقر كريستين لضعفها البالغ . وذات يوم ، قررت كريستين ان تذهب الى اوروبا لقضاء عطلة ، ولكنها كانت بالغة الاجهاد ، حتى انها ذهبت الى احد المستشفيات لكي تستعيد صحتها . ودعي الدكتور برينس لكي يكتشف حالتها ، وقيل له انها مليئة بالحيوية ، فذهب ليراها ، واكتشف ان سالي قد ظهرت وسيطرت على الموقف . لم تكن سالي مستعدة لان تخسر عطلة تقضيها في اوروبا ، وكانت عازمة على ان تبقى في جسد كريستين حتى يستقلا السفينة . واستطاع الدكتور برينس ان يقنع سالي بلااخلاقية موقفها ،وفي الوقت المناسب استعادت كريستين قوتها وتمكنت من السفر في عطلتها .

في البداية ، كانت سالي مغمضة العينين دائما ، لان كريستين كانت تحت تاثير التنويم المغناطيسي . وفي النهاية نجحت في فتحهما ، وحينئذ اصبحت حياة كريستين اكثر تعقيدا . كانت سالي تستطيع ان تفرض سيطرتها طوال ساعات ، ثم تستيقظ كريستين ،فتتساءل متعجبة عما تكون قد فعلته خلال « فقدانها لذاكرتها » .

وعند هذه النقطة، ظهرت شخصية ثالثة ـ متميزة واضحة بقدر تميز ووضوح كل من سالي وكريستين ـ وكانت شخصية حادة اشبه بشخصيات ناظرات المدارس . (وكانت سالي تدعوها بالبلهاء) . وكانت هذه الشخصية الجديدة ، التي لم يكن لها اسم فيما يبدو ، تعرف كل شيء عن سالي ، وتبادلت الاثنتان كراهية عنيفة . وتعلمت سالي كيف تقرأ ما يدور بخلدها . ودار الصراع بين النسوة الثلاث حول السيطرة على الجسد ـ رغم انه ليس من الدقة ان نقول ان كريستين اشتركت في هذا الصراع ، انما كانت تدفع الى هذه الناحية اوتلك. ولا بد ان ارتباكها المضطرب كان هائلا . وذات يوم قررت ان تحصل على وظيفة في نيويورك . وفي القطار تمكنت سالي من فرض سيطرتها ، فنزلت من القطار في مدينة نيوهافن . وحصلت سالي على وظيفة « جرسونة » في احد المطاعم . ولكن كريستين شعرت بانها وظيفة مرهقة . وكرهت « الناظرة » هذا العمل لانه وضيع ويدوي . وذات يوم، اعلنت « الناظرة » انها ستترك العمل ، واخذت اجرها ، وانصرفت ،ثم « رهنت » ساعة يد كريستين ، ورحلت الى بوسطون . ثم تمكنت سالي من السيطرة، واستأجرت غرفة بدلا من الذهاب الى شقة كريستين. وحينما عادت كريستين ، تملكتها الحيرة اذ وجدت نفسها في حجرة غريبة في بوسطون ، بدلا من ان تكون في مطعم الفندق الذي كانت تعمل به في نيوهافن .

واكتشف الدكتور برينس ان لكل من سالي و « الناظرة » ذاكرة مستقلة في جزءين مختلفين من حياة كريستين ،وان « الناظرة » برزت الى الوجود بوضوح للمرة الاولى ، حينما تسلل رجل من نافذة حجرة كريستين ، فاصيبت بصدمة ، حين فوجئت به يحاول ان يقبلها .كان الامر مربكا للغاية . ولكنه بعد قليل ،واثناء فترة من فترات سيطرة«الناظرة» استطاع برينس ان يجعلها تندمج في كريستين. ولكن كان من الضروري اخضاع سالي واقناعها بالرحيل ، ولكنها صرخت : « لا ، لا اريد ان اموت، ان لي من الحق في الحياة قدر ما لها .. » . ولكنها اقتنعت في النهاية . وقرر عالم النفس ويليام ماك دوجالد ، ان سالي لم تكن جزءا من الذات الخفية لكريستين، وانما كانت كيانا نفسيا او روحيا مختلفا تماما . ويميل المرء الى الاتفاق مع هذا الراي .

ان اقرب ما رايته الى نوع من التفسير الفينومينولوجي العقلي لهذه المشكلة هو ما يبدو ـ بكل ما في ذلك من غرابة ـ في رواية من القصص العلمي بعنوان « الكوكب المحرم » من تاليف و . ج . ستيوارت . حيث يحكي قصة بعثة علمية الى كوكب بعيد كلفت ان تكتشف السبب الذي ادى الى تدمير وفناء كل البعثات الاخرى الى هذا الكوكب . اما الرجل الوحيد الذي استطاع ن يعيش في امان كامل على الكوكب ، فهو عالم عجوز يدعى موربيوس ، وكان في وسعه ان يقول لافراد

البعثة الجديدة ان البعثات الاخرى قد لقيت نهايتهـا على يــــد وحش لا يمكـن رؤيته ، ومن الواضح ايضـا انه لا يمكن القضاء عليه .

وكان موربيوس يقوم بدراسة بقايا حضارة قديمة بائدة كانت تعيش وتزدهـر في هذا الكوكب ــ وكان بنـاة هذه الحضارة كائنـات توصلت الى القدرة علـى شحـن افكارها ، اي شحن قوة « نواياها » حتى اصبح في وسعهـا ان تجسـد تصوراتهـا العقليـة وتحولها الى حقيقـة خارجية . وفي نهاية الرواية ، يتبيـن موربيوس الشيء الذي ادى الى فناء البعثات السابقة . فقد اصبح قادرا ، هـو نفسه ، ودون حتى ان يشك في الامر او يشعر به ، على شحن « نواياه » الكامنـة في عقله الباطن ، رغبته اللاواعية في ان يعيش وحيدا على هذا الكوكب المهجور ، وكانت هذه « النوايا » المتجسدة في قوة خارجية ، هي « الوحش الخفي » الذي قضى على البعثات السابقـة الواحدة بعد الاخرى .

ولا بد ان يقرأ هذا الكتاب كل من يحاول دراسة علم النفس الفينوميولوجي (الظاهراتي) ، وربما كان الفرض الاساسي من هذا الكتاب هو ان يكـون قصـة خياليـة ، ولكنه ربمـا يكـون قد اقترب من حقيقة النفس الانسانية باكثر ممـا اقترب فرويـد او يونج .

فاذا كانت هذه الفرضية صحيحة ، فانها لن تكون قادرة على توضيـح لغـز مصاصي الدماء ، والمستذئبين ، والارواح الشريرة وحدها ــ وانما ستكون قادرة ايضا على تفسيـر كل مـا يدعى بـ « الظواهر الغامضة » او الغيبية . ان العقـل الباطـن ليس ببساطة مجرد نوع من « المستودعات » المدفونـة على عمق كبير مـن الذاكـرات الفارقة والرغبات المقتولة الدفينة ، وانما هـو مجموعة معينة ، مختزنة ، من القوى التي تستطيع في ظروف بعينهـا ان تظهر نفسها في العالم المادي بقـوة تفوق ايـة قوة اخرى يستطيع العقل الواعي ان يسيطر عليها . اننـا نألف جميعـا لحظات معينة تبدو فيهـا شخصيتنا الواعية كأنمـا قـد اصبحت اكثر حقيقية ، اكثر صلابة وسيطرة ، فنشعر باحساس فريـد من القوة . فلنتخيل هذا النـوع من القوة والسيطرة وقد دفع الى قوى اللاوعي الاضخم بكثير ، وحينذاك سنبدأ في تبين الملامح غير الواضحـة لنظريـة عن السحر وبقيـة تلك العوالم الغامضة ، وهي نظريـة تتجنب كلا التطرفين المتقابلين : التصديق الكامل الساذج ، والشك الرافض الذي لا يقـل سذاجـة .

لقد كـان الافتقار الكامل الى مثل تلـك النظرية العامة ، هو السبب الـذي جعل غالبيـة مـا وضع من كتب حول هذه الموضوعات غير مقنع تماما . ان سامرز يمزج بيـن قصص تتميز باكبر قدر من الاستحالة مع روايات تحتوي على حلقـة تربطهـا بالحقيقـة الممكنة . اما « اونيلا فولتا » وهي من احدث مؤرخي اسطورة

« مصاصي الدماء » فتتخذ وجهة نظر طبيـة وانثروبولوجية ، ولكنها تفشل في اقامة العلاقة بيّن المجرمين الجنسيين ،مثل جاك الخناق ، وسير جانت برتراند ، وبين خرافات دراكيولا . ويبدو انهـا تحاول القول بان الانتشار الوبائي لنزعة مص الدماء ، مثل ما حدث في منطقة وسط اوروبا فيما بين ١٧٣٠ ، ١٧٣٥ ،انما هو نوع من انتشار الجرائم الجنسية ونزعة مضاجعة الموتى ، بينما يفشل هذا التفسير - في الحقيقة - في التطابق مع ٩٩ بالمائة على الحالات التي يذكرها سامرز ، حيث يحكى ان مصاصي الدماء كانوا جثثا ميتة ، بعثت الى الحياة ، اما بواسطة الشياطين ،اوبواسطةارواح اصحاب هذه الجثث السابقة .

والقصة النموذجية من قصص مصاصي الدماء ، هي تلك التي حكاها اوجستين كالميت في كتابه :« تاريخ الاشباح » الذي صدر عام ١٧٤٦ ،ثم كررها كل كتاب وضع حول هذا الموضوع منذ ذلك الحين . وهي كالتالي :

«. في عشرينات القرن الثامن عشر ، كانت الامبراطورية النمساوية تستمتع بفترة من فترات السلام ، بعد سنوات من الحروب المتقطعة ضد الاتراك ، وكانت عملية بناء الجيوش تجري على مهل وبتدبير في الجنوب الغربي . ووجه الامرالى جندي شاب (ذكر احد المصادر ان اسمه كان جواشيم هابنر) بان يسكن في قرية هايدام ، على الحدود النمساوية المجرية .

وذات مساء ، لحظة تناول العشاء ، وبينما كان الجندي جالسا يحتسي النبيذ مع مضيفه وابنه الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، فتح الباب، ودخل رجل عجوز ،فجلس على المائدة ، وملأ الذعر قلب الجميع . وانحنى العجوز الى الامام ، ولمس الفلاح الاب على كتفه ، ثم انصرف خارجا .

وفي الصباح التالي عثر على الفلاح الاب ميتا في فراشه . وقال الابن للجندي، ، ان الرجل العجوز كان هو جده الذي مات منذ عشر سنوات .

وكان من الطبيعي ان هابنر راح يروي القصة لزملائه الجنود في فصيلته ، وبالتالي وصلت القصة الى الكولونيل ، الذي قرر ان يجري تحقيقا فيها ، لانهاكانت تنشر الذعر بين الجنود . وامر الكونت دي كاريراس ،قائد احدى فصائل المشاة، بأن يحصل على بعض الشهادات الموثقة في القرية ، من كل اعضاء عائلة الفلاح الميت . وكان الدليل مقنعـالدرجـة ان كادريراس امر بأن تحفر مقبرة الرجل العجوز . واكتشف ان الجسد كان في حالة جيدة تماما ، كما لو كان قد دفن لتوه، وبأمر من كاريراس فصل الراس عن الجسد .

وابلغت البعثة بحالات اخرى مشابهة ،عن رجل عاد ثلاث مرات منذ موته قبل ثلاثين عاما ، وحاول ان يمتص الدم من بعض افراد عائلته . وتم فتح مقابر

كل هؤلاء « مصاصي الدماء » ، ووجدوا جميعا في نفس الحالة الجيدة التـــي وجد عليهـا الرجل الاول . واكد القرويون ان احدهم كان خطيرا للغاية ، حتـى انهم لن يقنعـوا الا اذا احرق الكونت جثته .

وسمع الامبراطور تشارلز السادس عن تلك الاحداث ، فارسل بعثة ثانيـة للتحقيق ، فاكدت قصة البعثة الثانية . وفي عـام ١٧٣٠ املى كادريراس القصة لاحد الموظفين في جامعة فريبورج ، ولا بد ان كاليت قد راى هذه الشهادة خـلال السنوات الخمس التاليـة ، طالمـا انه يقرر ان تلـك الاحداث قد وقعت : « منـذ خمس عشرة سنة » . ويزعم مونتاجو سامرز ان مخطوطـة الشهادة مـا زالت موجــودة .

وتبدو القصة ذات اطار من الظروف والملابسات محبوك بما فيه الكفاية ، رغم ان هذا ليس ضمانا بصدقها . انني لم اتمكـن من العثور على قرية تسمى هايدام ، لا على الخريطة ، ولا في دوائر المعارف ، ولكن هذا لا يثبت شيئا ، طالمـا ان القرى تتغيـر اسماؤها اذا ما تغيرت الحدود . وسواء كانت القصـة صادقـة ام لا ــ وسامرز يشير اليهـا باعتبارهـا واحدة من افضل حالات « مص الدماء » توثيقا ــ فانهـا تحمل كل الملامح النموذجية التقليدية في قصة عن هذا الموضوع : الميت الذي يتجول ليلا ، والذي لا يمكن القضاء عليه الا بالاحراق او بفصل راسه عن جسده (او احيانا بدق وتد او سيخ حديدي في قلبه) ، والهجمات التي يشنها على الاحياء الذيـن يقال انهم يتحولون الى مصاصين للدماء بعد موتهم .

وتشير اورنيلا فولتا الى ان جثة القديسة تيريزا من افيلا ظلت دون ان تتحلل في قبرها لمدة طويلة من الزمن ــ تقول عنهـا انهـا ١٧٨ سنة . ولكن ج . م . كوهين ، في مقدمته لترجمتها الذاتية يقنع بملاحظة تقول : « ان اعمال الطيران الغامضـة هذه (فقد كانت القديسة تطير في الهواء اثناء الصلوات) لم يحدث ان ماثلهـا شيء سوى أن جسدها لم يفسد بعد موتها » . .

ويبدو ان وباء مص الدماء الذي انتشر في الفترة من ١٧٣٠ الى ١٧٣٥ قد بدأ في قرية ماديوجنا ، بالقرب من بلجراد ، على يدي جندي شـاب يدعـى ارنولـد باول ، كان قـد عاد من الخدمة العاملة في اليونان عام ١٧٢٧ . وروى للفتاة التي كـان خطيبا لهـا ان مصاصا للدماء هاجمه ليـلا في اليونان (وهي دولة اخـرى تشتهر بأساطير مصاصي الدماء) ولكنه تمكـن من معرفة مقبرته واستطـاع ان يقضي عليه ــ الامر الذي كان ينبغي ان يؤدي الى انهاء اللعنة المسيطرة علـى الميت وعلى من هاجمه معا . ومع ذلك ، فقـد مات الجندي ، ثم شوهد يتجول حـول القرية بعـد هبوط الظلام . وبعد عشرة اسابيع ، عقب ان زعم عدد كبير من الناس

انهم رأوه ،او حلموا به ثم شعروا بضعف غريب يمتلكهم في الصباح بعد الاستيقاظ من النوم ، قام اثنان من جراحي الجيش واحد النقباء ومساعدوه ، باستخراج الجثة ، وكانت آثار الدم ما تزال عالقة بفمها . وتم تغطية الجثة بالثوم ، الذي يفترض انه يقوم بمهمة الحماية من مصاصي الدماء ، وغرس وتد طويل في قلبها ، ثم اعيد دفنها .

ويقوه سامرز ،ان قرية ماديوجنا ، اجتاحها وباء من مصاصي الدماء بعد ذلك بست سنوات ، وفي هذه المرة ، قام عدد كبير من الاطباء البارزين بالتحقيق، وتم في ٧ يناير عام ١٧٣٢ ، التوقيع على التقرير الطبي ، واشترك في التوقيع الاطباء : يوهمان فليكنجر، ايزال سيبدل ، يوهان بومجارتز ، وضابطان من بلجراد، احدهما برتبة « ليوتنانت كولونيل » ، والاخر اقل منه رتبة . وقد شهدوا جميعا بأنهم قاموا بفحص اربع عشرة جثة ، سجلوا اسماءها ووصفوها ،بما في ذلك جثة فتاة في العاشرة من عمرها. وكانت اثنتان فقط من بين الاربع عشرة ــ لام وطفلها ــ في حالة تحلل طبيعية،اما الجثث الاخرى فكانت : « في حالة مصاصي الدماء التي لا يمكن اخطاؤها » . ولم يحتو التقرير على ما تم عمله ازاء هذه الجثث ، وان كان المفترض انها قد احرقت او فصلت رؤوسها . . .

ولا بد من الاعتراف بأن سامرز لا يقدم اي دليل مقنع ، من النوع الذي يمكن أن يرضى « جمعية البحوث النفسية » عبر كتابه المكون من مجلدين كبيرين . ولا شك أن هذا يرجع الى ان فضوله بشأن مثل تلك الاشياء كان فضولا يقظا ، ولكنه ظل سطحيا دون عمق،لم يكن قادرا على النفاذ الى ما يكمن وراءها .

ولكن الوضع يختلف تماما مع ديو فورشن ، التي تعد واحدة من اعظم دارسي علوم الغيب المحدثين ، والتي يعتبر كتابها : « دفاع الذات النفسي » عام ١٩٣٠، عملا كلاسيكيا في مجاله. انها تربط ربطا مباشرا بين نزعة مص الدماء وبين القوى النفسية السلبية ، تلك التي يعرفها العامة باسم « العين الشريرة » . وقد روت في كتابها قصة مديرة مدرسة شنت ضدها « هجوما نفسيا » . ولكن هذا الهجوم ، بالصورة الذي روته هي به في الفصل الاول من الكتاب ، لا يكاد يبدو هجوما نفسيا . . وعلى اي حال ،فان هجوم المديرة على مسز فيرث (فهذا هو الاسم الاصلي لديون فورشن) قد ادى الى اجهادها روحيا واستنزاف حيويتها طوال ثلاث سنوات ،ولكنها بعد ان تمكنت من استرداد قوتها العقلية ، حولت اهتمامها الى علم النفس ، ثم الى علوم الغيب .

. . وتبدأ ديون فورشون الفصل الذي كتبته عن نزعة مص الدماء ، بوصف مجموعة من الحالات التي واجهتها في عملها كطبيبة نفسية ، حينما يتبادل زوجان استنزاف طاقة احدهما الآخر الحيوية ، او حينما يستنزف احد الابوين طاقة

طفلة (وهي تزعم ان كل حالات عقدة اوديب ترجع الى هذا السبب). وتقول .. « يبدو لي اننا لم ندرك بعد بشكل كامل ، كيف يؤدي الشريك السلبي في علاقة من هذا النوع الى « انخفاض في الطاقة » عند الشريك الايجابي . ان عملية « لعق » للطاقة تجري في مثل هذا الوضع ، ويقوم الشريك المسيطر ، بشكل واع أو اقل وعيا بلعقها ، ان لم يكن يمتصها امتصاصا » . ثم تقتطف من الكوماندر بريان جولد ، مؤلف كتاب « غرائب » ما يزعمه من ان ابناء قبيلة بيربيلانج في الفيلبين ، يمارسون بالفعل مص الدماء ، ولكنهم يمتصون الحيوية من الآخرين وليس الدم - عن طريق تحرير اجسادهم الاثيرية من اجسادهم المادية وتسليطها على من يريدون امتصاص حيويته . ثم تبدأ ديون فورشن في سرد حالة كانت قد واجهتها بنفسها ، عن جندي فرنسي كان يعاني من المثلية الجنسية ، وكان تحت العلاج النفسي ، ولكنه كان يستيقظ كل صباح مجهدا تماما ، ليروي كيف انه كان يحلم طوال الليل بأن شبحا معينا يهاجمه ، وكانت نوافذ الحجرة توجد دائما مفتوحة ولا ينفع اغلاقها باحكام في شيء . واعترف الجندي الشاب بانه كان على علاقة جنسية شاذة مع ابن عمه الذي ضبط وهو يضاجع جثث الجنود القتلى في الجبهة الفرنسية الغربية فاعيد الى الخطوط الخلفية ، لكي يعالج نفسيا ، وفي المستشفى جاء ابن العم (صاحب الحالة) لكي يرافقه فبدأت العلاقة بينهما ، وقد حدث اثناء احدى مرات معانقتهما ان عضه ابن عمه في رقبته وامتص الدماء من الجرح .

وتقول ديون فورشن ان ابن العم الذي عض جنديها الشاب الذي كانت تعالجه ، لم يكن هو « مصاص الدماء » الاصلي في هذه الحالة ، وانما كان قد اصبح مملوكا للجسد الاثيري لاحد من كان يضاجعهم من الجنود القتلى ، وهذا الجسد الاثيري هو الذي انتقل الى الجندي الشاب من خلال حادثة العض التي امتص خلالها ابن عمه دمه ..

« لا شك ان هذا التعليل يبدو خياليا الى حد بعيد ، ولكن ديون فورشن تقيم تفسيرها على اساس نظرية قدرة بعض الناس على تعلم حيلة من الحيل المعروفة في علوم الغيب - وخاصة لدى المجريين - والتي تؤدي بصاحبها الى القدرة على تجنب « الموت الثاني » اي تجنب موت الجسد الاثيري بعد موت الجسد المادي ، من خلال حصول الجسد الاثيري على الحيوية اللازمة له من اجساد الاحياء الذين يتمكن من الاستيلاء عليهم .

وتقيم ديون فورشن تفسيرها لظاهرة الاستذءاب على نفس النظرية ، على اساس ان بعض الناس من اصحاب العقول القوية ، يستطيعون ان يخلقوا اشكالا فكرية تمتلك فعليا حياة مستقلة ، فتصبح ذات كيان مادي محسوس .

*

ومن المهم هنـا ان نلاحظ ان « الوطواط مصاص الدماء » قد حصل على هذا الاسم من الاوروبيين بناء على معرفتهم بالاسطورة ، وليس العكس . ولكـن هـذا الوطواط ، لا يمتص الدماء في الحقيقة ، وانما هـو يلعقها كمـا تلعق القطة اللبن. وقد لاحظ علمـاء الحيوان في هذا الصدد ملاحظة هامة ، هي ان الوطواط مصاص الدماء ، الذي يجرح ضحيته جرحا غائرا بمخلبه، ثم يثبت فمه على الجرح ويتحرك لسانه بسرعة هائلة داخل الجرح ليلعق ما يسيل منه من دم : لا يوقظ ضحيتـه النائمة ، ولا تكـاد الضحيـة ان كانت مستيقظة تشعر بالهجوم الذي يشنه عليها. انمـا يستيقظ الرجل في وسط وغرب افريقيا ـ بعد ان يكون الوطواط قد هاجمه في نومه ـ فيجد ان دمه قد بلل فراشه دون ان يشعر ، ولاحـظ العلمـاء ان الحيوانات وهي ترعى او تسترخي، يهاجمها مصاص الدماء فلا تتحرك ولا تهتز :ولا احد يعرف السر في هذه الظاهرة .

ولكن قد يكون من الممتع ان نعرف ما سيلحق بأسطورة مصاصي الدماء البشري بعـد ان تنتشر المعلومـات الجديدة عن الوطواط مصاص الدماء .

وقد نشرت صحيفة « الديلي اكسبرس » في شهر يونيه عام ١٩٧٠ قصـة تدل على ان اسطورة « مصاص الدماء» لا تزال حية بين الناس . فقد ادانت محكمة « كليركينويل » في لندن، شابا في الرابعة والعشرين من عمره ، يدعـى آلان فارو ، لدخـوله مقبرة هايجيت ، لاسباب غير مشروعة ، وكان قد القي القبض عليه داخل المقبرة ، وهو يحمل « وتدا » خشبيا وصليبا كبيرا من الحديد ، وقال انه دخـل هناك لانه يعتقـد بوجود كائن غير طبيعي يختفي في المقابر ، ولا بد من القضاء عليه بان يغرس في قلبه وتدا من الخشب . وقد ادلى المستر سيـان مانشستر ، رئيس الجمعية البريطانية لعلوم الغيب للصحيفة بتصريح اكد فيه انه يعتقـد بوجـود « مصاص للدماء » في مقبرة هاريجيت ، وقال ان عدة تقارير من سكان المنطقة ومن العابرين ، جاءت للجمعية ، تقول انهم شاهدوا شخصا كالشبح ، هائل الحجم يتجول بالقرب من البوابة الشمالية للمقبرة .

*

كان الاعتقاد الشائع حتى عام ١٩٥٣ ان السحر قد انتهى في انجلترا بحـل جماعـة « الفجر الذهبي » في منتصف الثلاثينات . (وقـد نشر احد تلامـذة كراولي ، ويدعى فرانسيس اسرائيل ريجاردي روايـة كاملة عن طقوس وشعائـر جماعـة « الفجر الذهبي » في اربعـة مجلدات ضخمة ، ولكن القلائل الباقين من اعضاء الجمعيـة يقررون ان هذا الكتاب الضخم لا يكـاد يستحق قراءته كاملا) . ولكن حدث في عام ١٩٥٣ ، ان صدر كتاب بعنوان « السحر اليوم » ومؤلفه جيرالد جاردنر ، فأثار ردود فعل قوية على الفور . واعتمـد جاردنـر على النظريـة

المعروفة لمارجريت موري والتي تقول بان السحر بقية من بقايا الديانات الوثنية ، ثم راح يثبت بعد ذلك ان السحر في انجلترا ما زال شائعا اليوم مثلما كان شائعا في القرن الخامس عشر . وقال جاردنر ان الساحرات والسحرة المحدثين ، يعبدون الها ذا قرون والى جانبه ربة القمر . ولاحظ قراء كتاب « السحر اليوم » رغبة قوية في سرد روايات التعذيب والجلد بالسياط ، وربما كانوا قد استنتجوا ان الصفة التي يدفع جاردنر بها السحر ، تحتوي على نغمات جنسية قوية كثيرة. ويقول فرانسيس كينج في كتابه :« السحر الشعائري في انجلترا » بوضوح صريح ان : جاردنر كان ذا ميول سادية ماسوشية ، يستعذب ان يجلد بالسوط ، وان يقوم في ذات الوقت بمشاهدة الآخرين وهم يجلدون » .

ويبدو ان جاردنر ، الذي مات عام ١٩٦٤ في الثمانين من عمره ، كان شخصيه متوهجة، كثيرة الزخرف بطريقة كراولي ــ وهذا يعني بانه كان على شيء من النزعة الاستعراضية ... وقد عاش في الشرق حتى عام ١٩٣٦ ، حينما عاد الى انجلترا واصبح دارسا وممارسا للسحر . وانضم الى جمعية للسحر في عام ١٩٤٦، طبقا لروايته هو . ونتيجة لكتابه « السحر اليوم » ظهرت في انجلترا، عدة جمعيات ، اطلق عليها اسمه، وطبقا لما يرويه جارنر نفسه ، فان هدف هذه الجمعيات ، كان ممارسة السحر الابيض . معالجة المرضى ، واقامة الاحتفالات الشعائرية لضمان جودة المحاصيل .. الخ . ولكنها كانت شعائر ذات جوانب جنسية قوية . وفي كتاب بعنوان : « الانسان والخرافة والسحر » يصف صحفي ومصور يدعى سيرج كورديف كيف اشترك في جمعية للسحر تبدو ذات صفات مستمدة من تعاليم جاردنر الى حد بعيد . فحينما وصل هو وزوجته الى مقر الجمعية في منزل عتيق من الطراز الفيكتوري ، وجدا نفسيهما في حجرة لخلع المعاطف بدت مشاجبها وصناديق حفظ الملابس فيها ملأى بمجموعات كاملة من الملابس بما فيها الملابس الداخلية . اما الاحتفال الذي اقيم امام مذبح اضيئت امامه ست شموع سوداء فقد تضمن لمسات ميلودرامية قوية مع اطلاق مجموعة من النذر وتأكيدها بعلامات ترسم بالدم والتضحية بديك اسو اللون . وراح « الاستاذ » الذي كان رجلا عاريا يلتمع جسمه بالزيت الاحمر اللون ، راح يلمس الاعضاء التناسلية للحاضرين . وفي مناسبة اخرى ، قام استاذ باغتصاب فتاة على المذبح كعقاب لها على خيانة ما عرفته من اسرار . ويزعم كورديف ان حظه تحسن فجأة حينما كان عضوا في الجمعية، ثم تدهور حينما انفصل عنها .

وتضمنت طقوس جيرالد جاردنر ايضا عمليات جلد شعائرية وجماع جنسي يتم بين الكاهنة والكاهن العظيمين . وقد اصر على ان ممارسة السحر كانت عبادة من نوع صحي ، وانه لا بد من النظر اليها باعتبارها دينا من الاديان .

ويظل موضوعا للخلاف والجدل ما اذا كان جاردنر على صواب ام لا ، فقد يؤدي بنا بعض الاستقصاء الدقيق الى الاحساس بان ثمة قدرا من الاختراع في كتابيه بل ان فرانسيس كينج يقرر انه قد قام بتزوير « كتاب قواعد للسحرة » تحت عنوان : « كتاب الظلال » . وترك جاردنر في وصيته متحفا للسحر في مدينة « كاسل تاون » في « جزيرة مان » ، سيدة تدعى مونيك ويلسون ، وهي ساحرة معاصرة مشهورة اخرى ، وتعرف في دوائر السحرة باسم « لادي اولوين » . وتقوم مسزم ويلسون الآن بادارة المتحف ، بالاشتراك مع زوجها ، كما يعقدان اجتماعات سحرية اسبوعية في كوخ جاردنر القديم . وهي تؤكد ان طقسا جنسيا معينا ، اسمه « الزواج المقدس » لا يجري الا مرة واحدة كل خمس سنوات ، وتصر على ان السحر الانجليزي الحديث ، هو في اساسه عبادة الربة الام : « الارض » .

ويقول فرانسيس كينج ان السنوات الاخيرة شهدت حركة احياء لجمعية « الفجر الذهبي » وطقوسها . ولكن من الصعب الآن ، العثور على كتاب اسرائيل ريجاردي ذي المجلدات الاربعة ، فاذا ما امكن الحصول عليه ، فان ثمنه يزيد على ثمانين جنيها استرلينيا ، ولكن كتابا ثانيا عن التعاليم الداخلية السرية لجماعة « الفجر الذهبي » قد صدر اخيرا في انجلترا ، عام ١٩٦٩ ، واصدره الناشر نيفيل سيبرمان وهو كتاب : « الفجر الذهبي : تعاليمه السحرية » . ويقول كينج ، ان جمعيات السحرة الجديدة ، تضم عادة خريجي الجامعة الجدد من الشبان ، ويزعم اثنان من قادة هذه الجمعيات انهما تجسيدان جديدان لاليستر كراولي . وهناك جمعية تزدهر الآن في مدينة « وولفرهامبتون » وفي اقليم « ميدلاند » وتطلق على نفسها اسم « الصخرة المكعبة » ويبدو انها اقرب الى كراولي منها الى جماعة « الفجر الذهبي » . وقد اشار كينج الى فقرات مطولة ، اقتبسها من مجلة « مونوليت : الذي يضيئه القمر » وهي المجلة التي تصدرها الجمعية ، وكان على صواب فيما استخلصه من هذه الفقرات عن النجاح الاستعراضي الذي تحققه اجتماعات الجمعية العامة .. وفي راي كينج ان اعضاء « جماعة الصخرة المكعبة » ينبغي اعتبارهم طلبة جادين ودارسين يتحملون المشاق المختلفة لدراسة علوم الغيب ، متبعين في ذلك المنهج « الانوشي » .

وقد يكون من الاسلم حقا ان نقول ان انجلترا وامريكا ، تضمان الان اعدادا من السحرة تزيد على ما كان فيهما منذ عصر الاصلاح . وقد اكدت ساحرة منهم ، تدعى مادلين مونتالبان ، انه : « ينبغي على السحر ان يجعل الحياة اسهل .. هذا هو كل هدفه » .

ولكي نلخص كل شيء نقول : يبدو ان فن السحر الحديث اكثر تنوعا بكثير من شبيهه الاقدم عهدا . ولا شك ان كثيرا من الجماعات السحرية ليست سوى

المبرر المعلن لاقامة احتفالات العربدةالجنسية ، واستعراض بعض الافراد لمواهبهم وقواهم الخاصة . وبعض هذه الجماعات تتسم بنزعة تطهرية بارزة ، وتتعامل مع السحر بوصفه دينا مؤلما لمن يلتزم بتعاليمه ، وتمارسه بعض الجمعيات بروح البحث، وبهدف اكتشاف المدى الذي تستطيع الشعائر القديمة الوصول اليه في مجال تحقيق النتائج ، الموضوعية او الذاتية . وربما كان من الضروري أن ننظر الى هذه الجماعات الاخيرة نظرة جدية تماما. فلاسباب لا نفهمها حتى الان ، تؤدي بعض هذه الطقوس بالفعل الى نتائج معينة — على الاقل ، حينما يقوم بها الشخص الصحيح . ولا بد ان معنى هذا هو ان هناك قوانين معينة ، تتحكم في هذه الظاهرة. وفي القرون السالفة ، لم يكن ثمة فضول يتطلع الى معرفة تلك القوانين ،لان الناس كانوا يفترضون ان الشيطان وعصابته هم من يقفون وراء ما يحدث من ظواهر . ولكن حدث ان بزغ عصر العلم في وقت معين ، وحينذاك ، اختفى السحر . والآن ، وحينما تآكل الايمان بالعلم وتلاشى ، يرى السحر حركة احيائه وبعثه . ان التوقيت على الاقل ، توقيت ممتاز .

نظـرات خاطفـة

يعرف كل علمـاء الطبيعيات ، انك حينمـا تتعامل مع ظاهرة لا يمكـن ملاحظتها بشكل مباشر ، من نوع ما يجري داخل ذرة او نوية ذرية ، فان الضرورة الاولى هي صياغة نظريـة تتناسب مع الحقائق المعروفة وتلك التي يمكن الحصول عليهـا . فالحقائق دون نظرية ، ليست سوى شذرات مشوشة من لغز « اجـزاء الصورة » الممزقة ، ملقاة داخل صندوقهـا دون علاقة تربط بينها . وفـي هـذا الفصل ، سأحاول ان اقترح نظرية عامة قد تستطيع ان تفرض نوعا من النظـام على الكتلـة الضخمة التي تشكل ظاهرة النزوع الى الوسائل الغيبية ، وهي الكتلة التي فحصناها في الفصول السابقة بالفعل . ومن الممكن ان نطرح هنـا جوهـر هذه النظريـة في سطور قليلة . ان« الوعي العادي » ، عاجز عجزا ميئوسا منـه ويقف تحت المستوى الطبيعي للاشياء .. وقد حاولت مختلف الفرق والانظمـة الدينيـة والصوفية والنسكيـة ان تقدم علاجا لهذا القصور الذي تدعوه المسيحية بالخطيئة الاصلية ، ولكـن اعظم الخطوات الى الامام قد وقعت فـي السنـوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حينمـا بدا ادموند هوسرل في صياغة المذهب او النظام الفلسفي الذي اطلق عليه اسم « الظاهراتية » ، وهو شكل من اشكـال علم النفس التحليلي قائم على الاعتراف بـ « عمدية » كل تصرفاتنا العقلية . ان هـذا النظام ــ الذي لم يفهم حتى الآن الا بشكل جزئي ــ يؤدي الان ببطء الى نوع من الفهم لشكل العمليـات وميكانيكياتها المتضمنة بالتحديد في تلك التصرفات العقلية ،وعلى ذلك يؤدي الى فهم الجزء المفقود منها. والموقف الاساسي لهذا الكتاب، هو انه اذا امكن ان تدفع الآلـة الى العمل بشكل طبيعي ، فان الانسان سيستطيع التوصل الى ، او سيتمكـن من ان يتعلم استخدام قدرات وملكات ما تزال حتى الان غيبيـة (خبيئة ، خفيـة) ، وقد يكتشف الانسان ان هذه القدرات ان هـي الا قدرات طبيعيـة رغم كـل شـيء .

لقد اعترفت جميع النزعات الغيبيـة بوجود قوة حيوية لم يتعرف عليها ــ

ولم يصل اليها مطلقا ـ العلم التقليدي الجامـد . وقد اطلق عليهـا ميسمير اسم: « المغناطيسة الحيوانية » ، اما ماري بيكر ايدي ، فقد اعتقدت ان هذه القوة هي « سر الصحـة » .

وفي عام ١٨٤٥ ، ظهر في المانيا كتاب ضخم يمكن ان نختصر عنوانه الطويل الى : « بحوث فيسيو ـ سيكولوجية حول ديناميكيات المغناطيسية ، الخ ، فـي علاقتهـا بالقوة الحيوية » . وكلن هـذا الكتاب من تأليف عالم كيميائي محترم هو البارون كارل فون رايشنباخ ، قال في احدى صفحاته الاولى :

« من خلال تلطف جراح يعمل في فينا ، تعرفت في مارس عام ١٨٤٤ علـى احدى مريضاته وهي ابنة احد جامعي الضرائب في نوفوتني رقم ٤٧١ شـارع لاندستريست ، وهي امرأة شابة تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تعاني من آلام في رأسهـا طوال ثمانية اعوام ، ثم تنتابها نوبات صرع حادة ..

وقد ظهرت فيهـا كل كثافة الحواس المجيدة ، حتى انها لم تكـن تستطيع ان تتحمل الشمس ولا ضوء الشمعة .

وسمحت أنا لابيها بان يجري للفتاة اولى التجارب التمهيدية .. وطلبت منه ان يوضع في مواجهة الفتاة ، في منتصف الليل ، اكبر مغناطيس موجود الان في العالم ، وهو على شكل « حدوة حصان » ذات تسع طبقات ، قادرة علـى التقاط ورفع نحـو تسعيـن رطلا من الحديد .. وتم هذا بالفعل ، وفي الصباح التالي ابلغت ان الفتاة شعرت بوجود « ضوء مستمر متميز » طوال تشغيل المغناطيس الـى جوارهـا .. وكان الضوء الناري مساويـا في حجمه لكل من قطبي المغناطيس.. وقريبا من الفولاذ الذي كـان هـذا الضوء يتدفق منه ، بدا ان الضوء يشكل شيئا كالبخار الناري، وكان هذا الشكل محاطا بنوع من الهالة من خيوط الاشعة .. »

وعثر رايشنباخ بعد هذا على اربع فتيات اخريـات مصابات بالنيوريثانيا (التوتر العصبي) وقد رايـن جميعـا نفس الضوء . ورأته بعضهن متخذا شكل الشفق القطبي مشعاً ضوءا اصفر محمرا من القطب الجنوبـي ، وضوءا اخضر مزرقـا من الشمالي .

... وقد حاول بعض العلماء في بلدان اخرى ان يجروا نفس التجـارب التي اجراها رايشنباخ فحصلوا على نفس التجارب. هنـاك على سبيـل المثال ، الدكتور جون آشبورنر ، وهو مترجم رايشنباخ الى اللغـة الانجليزية ، وقـد ملأ هوامش الكتاب بملاحظاته المطولة عـن تجاربه هـو الخاصة ، التي تتفق احيانا، ولا تتفق في احيـان اخرى مع رايشنباخ . ولكن كان هناك ـ حتى منذ البداية ـ عدد من النقاد الذيـن وصفـوا كتاب رايشنباخ بأنه كتلة من السخافات والاكاذيب. وفي انجلترا ، ظهر جيمس برياد ، وهو الرجل الذي درس ظاهـرة التنويـم

المغناطيسي ، فوجد تفسيرا اكثر بساطة للظاهرة التي اطلق عليها رايشنباخ اسم « قوة الجذب » بعد ان اثبتت تجاربه ان نسبة كبيرة من الناس تستطيع اجسامهم ان تجتذب عددا كبيرا من العناصر المعدنية ، بصرف النظر عن الوانها ، وما اذا كانت قابلة للمغنطة (كالحديد والكريستال) ام لم تكن ، وسواء كانت تمتلك طاقة كهرومغناطيسية ام لا . وكان تفسير برياد ببساطة لتلك الظاهرة هو : الايحاء عن طريق التنويم المغناطيسي . وقال ان هذا هو ما يبرر ضرورة ان يكون كل الاشخاص الذين استخدموا في هذه التجارب مرضى وشديدي الحساسية . وبدأ الناس الذين اشادوا بكتاب رايشنباخ باعتباره اكثر ما اضيف الى العلم اهمية منذ كتاب نيوتن « المبادىء » بدأوا في كبح جماح حماسهم وفي التعبير عن اسفهم . وفي عام ١٨٥٩ اكتسحت العالم موجة المناقشات حول النظرية الداروينية ، وبذلك بدأ الناس ينظرون الى مسألة قوة الجذب المغناطيسية في الاجساد البشرية باعتبارها نكتة خرافية قديمة ، والى مكتشفها باعتباره مشعوذا اساء اختيار وجهته . ولا بد لكل عالم يقتبس الروحانيون شيئا من اعماله ان يكون مشعوذا دجالا .

ومع هذا .. فرغم ان كتاب « بحوث في المغناطيسية » لرايشنباخ قد نسي منذ وقت طويل ، وان المكتبات التي لا تزال تمتلك منه نسخة قد اعتادت ان تضعه تحت قائمة الكتب في علم « الكهرباء » فانه يظل كتابا مقنعا ولا يمكن نسيانه . فهل يمكن ان يكون بعد كل شيء على صواب ؟ ان الهندوس يؤمنون بقوة يدعونها « كونداليني » يحاول فلاسفة وممارسو اليوجا ان يسيطروا عليها ، وهي تهبط على طول النخاع الشوكي وتتحرك من « مركز » الى « مركز » في الجسم . وكثيرا ما تظهر في صور الاشخاص المنحوتة على جدران المعابد في الهند وسيلان واليابان « هالات شبحية » خارجة ممتدة من الجسد ، وتصميمات الالوان تذكرنا الى حد غريب بالتصميمات التي وضعها رايشنباخ عن الوان الطيف الخارج من اجساد الاشخاص الذين اجرى عليهم تجاربه . ويقول باراسليساس : « ان القوة الحيوية ليست حبيسة داخل الانسان ، وانما هي تشع حوله مثل مجال مضيء .. وفي تلك الاشعاعات شبه الطبيعية ، قد ينتج خيال الانسان نتائج صحية او مريضة . »

... وفي عام ١٩٣٩ ، ادهش عالم نفس فروبدي بارز ، هو فلهلم رايش ، زملاءه واثار غضبهم ، باعلانه انه قد اكتشف نوعا جديدا من الطاقة لم يكن معروفا عند علماء الطبيعة ولا عند الاطباء : الطاقة الحيوية التي تنظم صحة المخلوقات الحية . وتبلغ حالة فلهلم رايش درجة كبيرة من الغرابة حتى انها تستحق ان نتفحصها بتطويل نسبي . فهي تذكرنا برايشنباخ من نواح عدة .

ولد رايش في عام ١٨٩٧ ، وفي منتصف العشرينات من القرن شغل مركزا

قويا في حركة التحليل النفسي في فيينا . وكان عضوا في الحزب الشيوعي الى ان طرد منه عام ١٩٣٣ حينما قال انالفاشية نتيجة للقهر الجنسي لا للعوامل الاقتصادية .

وكان اكثر مفاهيمه اهمية هو مفهوم « درع الشخصية » ، القوقعة الشبيهة بصدفة السلحفاة التي يخلقها العصابيون لانفسهم لكي يخفوا ضعفهم الداخلي وقلقهم ، والتي يمكن ان تعبر عن وجودها حتى فيشكل التصلب العضلي اوالشلل ورأى رايخ ان وظيفة المعالج النفسي هي ان يحطم هذه الدرع .

ولكن من الواضح انثمةعنصرا سلبيا فيهذا المفهوم . فمن الممكن ان نفسر شخصية اي انسان باعتبارها درعا دفاعية ، سواء كان شخصا انبساطيا او انطوائيا ، مدمرا ام مبدعا . فاذا سيطرت فكرة رايخ على شخص ما ، فلا بد ان ان يرى جميع الآخرين باعتبارهم مرضى. وقد كان لدى رايخ مفهوم عن الشخصية الصحية : الشخص الذي يكون قد تعلم ان يعبر عن الدوافع الجنسية بحرية كاملة . ولكنه كان واسع الادراك بما يكفي لان يرى ان هذا ايضا سيكون موقفا سلبيا . (وهو في الحقيقة ليس سوى نوع من التكرار لموقف .د.هـ.لورنس). فان بلوغ النشوة الجنسية لا يمكن ان يكون حقا هو الهدف النهائي للجنس البشري . وانطلق عقله بحثا عن مفهوم جديد اكثر ايجابية . وفي النرويج عام ١٩٣٩ ، اعتقد انه قد عثر على هذا المفهوم : الطاقة الاورجونية (من عضوي organic) وقال ان : .. « الاورجون طاقة مؤثرة بشكل عملي ومن الممكن رؤيتها وقياسها وذات طبيعة كونية » ، قال هذا في هامش ص ٣٠٤ من كتابه « تحليل الشخصية ».

« ان الفلسفة الطبيعية الحديثة ، من اجل ان تفسر العالم ، كانت مرغمة على ان تعترف بعامل فعال وسيط وكوني لا يمكن التفكير فيه (و) قد استطاعت حتى ان تبرهن على حضوره الدائم ... وحول هذا المبدأ الكوني الاساسي ،يتفق زرادشت مع هيراكليتس ، ويتفق فيثاغوراس مع سانت بول ، ويتفق القبلانيون مع باراسيلساس . ان الربة « سيبيل ـ مايا » (١) تحكم في كل مكان ، باعتبارها

---

(١) سيبيل مايا ـ في الميثولوجيا الغربية الكلاسيكية (اليونانية) ام الآلهة وجميع الارباب ـ ترجع اصلا الى فريجيا الابيوية ، ولكن اليونانيين طابقوا بينها وبين « ريا » ربة الطبيعة والعناصر والقوى الطبيعية ، وجعلوها زوجة كرونوس (الزمن) الذي راح يبتلع ابناءها واحدا بعد الاخر ، حتى انقذت آخرهم (اورانوس) بان اعطت لابيه حجرا ملفوفا في القماط ليبتلعه بدلا منه ، ويكبر اورانوس ، ويتعاون مع امه في قتل ابيه واستخراج اخوته من بطنه ، وعاش سيبيل بعد ذلك رمزا للكون والفساد ، واصبحت كبيرة الاوليمب الروماني ، الى جانب جوبيتر وجنو (زيوس وهيرا) . (هـ . م) .

روح العالم الجبارة ، المادة المتارجحة المرنة التي تستخدمها بمحض ارادتها نفحة الروح الخلاقة ... يتحول السائل ويتشكل ، يتجمد او يسيل ، يخف او يزداد ثقلا ، طبقا للنفوس التي تغطيها او للعالم الذي تطويه داخلها » .

ليس هذا اقتباسا من رايخ ، وانما هو اقتباس من كتاب « الموهوبون العظام » الذي كتبه ادوارد شوريه ، الذي يتحدث فيه عن « الضوء الهالي » . وقد اعاد رايخ اكتشاف « الضوء الهالي » واطلق عليه اسم الطاقة الاورجونية . وهذه طاقة زرقاء تتخلل الكون كله ، وتكون مجالا حول الكائنات الحية . انها نفس « قوة الجذب » التي تحدث عنها رايشنباخ ، وهي « الهالة » التي تحدث عنها فويبي بايني . ان السبب الذي يجعل التلامس الجسدي بين الطفل وامه يؤدي الى تخفيف التوتر ـ على سبيل المثال ـ هو ان مجالي الطاقة الاورجونية عند كل منهما يتوحدان مثل قطرتين من الماء .

وفي النشوة الجنسية ، تتركز الطاقة الاورجونية في الاعضاء التناسلية، انه ذلك الاحساس بالوخز الخفيف الذي نعرفه في حالة الاستثارة الجنسية . لقد صنعت المادة الحية من « البيونات » وهي خلايا دقيقة تنبض بالطاقة الاورجونية ، داخل الخلية الحية .

فكيف تأتى لرايخ ان يصل الى هذا الاكتشاف المدهش ؟ من المهم ان نفهم انه نظر اليه باعتباره تطورا منطقيا مرتبطا بقوة بعلم النفس الفرويدي .. ان الامراض العصابية تنشأ بسبب انواع « الركود الجنسي » التي تجمد «السائل الجنسي » ،ثم تأتي النشوة الجنسية فتطلق شحنة الطاقات الجنسية الحبيسة ، وتقضي على الامراض العصابية . ووجد رايخ نفسه ميالا الى الاعتقاد بوجود طاقة بيولوجية من نوع خاص ، متميزة عن الطاقات المادية للجسد ، وقد سلم كاميرار (عالم البيولوجي البارز) بوجود طاقة مشابهة ، وهي نفسها « قوة الحياة » التي تحدث عنهابرنارشو. ولكن هذه الطاقة البيولوجية « هي » في نفس الوقت طاقة مادية ، وليست روحية بشكل ما . وفي وقت ما حول عام ١٩٣٣ اعتقد رايخ انه قداكتشف الوحدة الاساسية للمادة الحية ، وهي البيونات ، تحت المجهر . فاذا ما دفعت المادة الحية الى التورم او التضخم بالانتفاخ، بواسطة هيدروكسايد البوتاسيوم على سبيل المثال ، فان هذه البيونات ستكون مرئية بوضوح . يقول رايخ انه اذا ما اسقطت جزيئات معينة من الكربون في محلول مقطر من البوليبون وكلوريدالبوتاسيوم ، فان « البيونات » الزرقاء سرعان ما ستبدأ في الظهور ،وتغير جزئيات الكربون الثقيلة طبيعتها وتصبح مادة حية . وحينما تتحلل البيونات ، تكون النتيجة هي ما دعاه رايخ باسم « ث ـ باسيللي » التي تسبب السرطان .

وبعد سنوات من ممارسة التجارب من اجل خلق « البيونات » التي يزعم رايخ انها مرئيـة بوضوح تحت المجهر ، حدث ان عثر رايخ على الطاقة الاورجونية بالصدفة . كان يفحص مزرعـة من رمـال البحر يوميـا ، فأصيبت عينه التـي كان ينظـر بهـا في المجهر بالتهابات في الملتحمة . فاستنتج رايخ ان هذه المزرعة من رمـال البحر تنتج نوعا قويـا من الاشعاع . ولكن اختبارات النشاط الاشعاعي كانت سلبية ، ورغم هذا فقد اكتشف ان مزرعة رمال البحر يمكـن ان تجعـل اللحـم يتورم وان تصيبه بآلام واضحة . ولاحظ رايخ ان الناس في غرفة تزدحم بعدد كبيـر من مثل هذه المزارع، يصابـون بالصداع ويتعبون بسرعة . ولاحظ ان المزارع في العتمة تشع ضوءا ازرق رماديا . واكتشف ان بعض الاشياء يمكن ان تشحن بهذه الطاقة الزرقاء، فتستطيع بعد ذلك ان تؤثر في الالكتروسكوب (جهاز كشف الطاقة الكهربائيـة) . واستنتج في النهاية ان هذه الطاقة الجديدة المجهولة تأتـي من الشمس ، وان المواد العضويـة تملـك القدرة على امتصاص هذه الطاقة واعـادة اشعاعهـا .

وصمم رايخ صندوقا لمنع الطاقة من الهرب . وكان لا بد ان تكـون جـدران الصندوق معدنية، لان المواد العضوية تمتص الطاقة الاورجونية ــ وتحاط الجدران المعدنية بمركبات عضوية من الخارج ، حتى تتمكـن من امتصاص اي قدر مـن الطاقـة قد يتسرب من خلال المعدن . ولاحظ رايخ وجود ضوء قريب اللون مـن الزرقة حول الاطباق التي تحتوي المزرعة في هذا الصندوق . ولكنه دهش حينما لاحظ وجود نفس الضوء الازرق في الصندوق ، بعد رفـع المزارع من داخله .

وفي اثناء عطلة كـان يقضيهـا في معبد عام ١٩٤٠ ، لاحظ رايخ ان النجـوم في الافق الشرقي كانت تلمع بقوة اكثر من النجوم في الافق الغربي. وقدر انه لو كـان اللمعان المتقطع راجعا الى تشتت الضوء في الجو ، لكان من الضروري ان يكون بنفس القدر في الناحيتين. ثم لاحظ ان هناك رقعا زرقاء بين النجـوم ، يخفـق ضوؤها ، وتنتج بذلك ومضات من الضوء . وحينذاك طرأت لـه الاجابـة . ان الطاقـة الاورجونية تتخلل الكون كله وتتخلل كل شيء ، وانها هي السبب فـي خفقان ضوء النجوم . وكان « صندوقه » يلتقط هذه الطاقة ويحتفظ بهـا فـي مركباته العضوية الخارجية ،ويرسل الطاقة عبر جدرانه المعدنية ، حيث تنحبس ، مثل الحرارة داخل البيت الزجاجي لتربية النباتات . وكان هذا هـو اصـل « صندوق الاورجون » الذي صممه رايخ ، والذي اعتبره احد تلاميذه ووصفه بانه اعظم اكتشاف تم التوصل اليه في تاريخ علم الطب . وصندوق الاورجون ، يمكـن اعتباره نوعـا من مفاعلات الطاقة ، ويقول رايخ ، انه اذا جلس مريض في داخل مثل هذا الصندوق ،فانه سيعاد شحنه سريعـا . فاذا جلس لمدة اطول من اللازم،

فستكـون النتيجـة هي الصداع والشعور بالغثيـان ، مثل نتيجـة الاصابـة بضربة الشمس .

وقد اقتنع رايخ اقتناعا كامـلا بأهمية اكتشافه ، ولكن زملاءه مـن الاطباء والعلماء ما كانوا يدفعون في هذا الاكتشاف ابخس الاثمان . وقالـوا ان صـوره لـ « البيونات » لم تكـن الا صورا فوتوغرافية لانواع من البكتيريا المنتشرة فـي الهـواء . وكـان رايخ قـد قال انك اذا حدقت في السماء الزرقاء ، فسوف ترى موجات تعبرهـا بشكل منتظم وفي ايقاع مستمر . وقال العلماء ان هذه الموجات لم تكـن ببساطـة سوى نتيجـة لاجهاد عضلات العين ..

وكانت السنوات الاخيرة من حياة رايخ مأساوية بالفعل . لقـد اقتنـع بالاهمية الكبرى لاكتشافاته ، وبدات المؤسسة التي اقامها في مين في اذاعة هذه الاكتشافات . واستطاع ان يقنع الكثيرين ، ولكن اصحاب مهنة الطب تصرفـوا بنفس الطريقة التي تصرفوا بها ازاء كل المجددين منـذ باراسيلساس . وفـي عام ١٩٥٦ ، حكم على رايخ بالسجن لمدة عاميـن وبأن يدفع غرامة قدرها مائة الف من الجنيهات، بتهمـة وجهتهـا اليه ادارة الاغذيـة والعقاقير ، لانه يبيع ادويـة مزيفـة وضارة . ولكنه مات بأزمة قلبية بعـد ان امضى فـي السجـن ثمانيـة شهـور .

ان الفحص الدقيق وغير المتحيز لمزاعم رايخ، يقوم به علماء متخصصون ،هو وحده الذي يستطيع ان يقرر ما اذا كانت مزاعم رايخ مضللة وغير صحيحة بشكل كلي في خلال العشرين سنة الاخيرة من حياته ، او مـا اذا كان قد عثر حقا علـى اكتشاف هام. وكل ما يمكـن ان يقال الان ، هـو انه لا اشارة تدل حتى الان على استعداد اي عالم للقيام بمثل هذا الفحص .. وسوف نرى ان مزاعمه لا تتضارب بأي شكل من النظريات التيعرضتفيهذا الكتاب – لن تتضاربعلىسبيل المثـال مع فكرة الدكتور فوستر عن قدرة الاشعة الكونية على نقل اشارات تحمل معلومات معينـة . فطبقـا لما يقوله رايخ ، فان الاشعـة الكونية هي اصلاح نوع من الطاقة الاورجونية ، ولا يوجداحتمال اكبر من احتمال امتلاك هذه الاشعة لقدرات تجعلها قادرة على تنظيم المادة . ويشير رايخ الى ما نشعر به من اختـلاف واضح بيـن طبيعة الطاقات الانفعالية وطبيعة الطاقات الكهربائية ، ومـن الواضـح ، مـرة ثانية ، انه على صواب في ذلك. فاذا كان من حقنا ان نحدد هنـا اقـل الفروض عمليـة من بين تلـكالتي برزت في هذا الكتاب ، فان هذا الفرض هو : هنـاك انواع من الطاقـة تتعلق بالعمليات الحيوية لم يمكن حتى الان تحديدها ولا تعريفها في المعمل . ويقدم رايخ حجة تقول ، بأن الاورام السرطانية تنمو في الاعضاء المعينة من الجسم ، التـيلعبت دورا رئيسيا في الدرع العضلي الذي كبت الاستثـارة

الجنسية » . ولكن ما زال هناك ميل بين الباحثين الطبيين الى اعتبار الاورام السرطانية مرضا يرجع الى فيروسات عادية ، ولكن من المؤكد ايضا ان لهذه الاورام علاقة غريبة بنوع من الانحدار في الطاقة . فقد كشف بحث امريكي ان الطلبة الذين يغرقون في حالة من الانقباض النفسي العنيف نتيجة للاجهاد في العمل ، ابدوا ميلا غير عادي الى الاصابة بالسرطان . اما راي شو الذي عبر عنه في مجموعة مسرحيات « العودة الى ميتوشالح » فاقرب كثيرا الى راي رايخ . يؤمن شو ان الكون تتخلله « طاقة الحياة » وان انواعا معينة من المادة تمثل « متلقيا »جيدا لهذه الطاقة ، بينما تمثل انواع اخرى المتلقي الرديء . فاذا اصبت بكدمة قاسية استمرت مدة طويلة ، او بصدمة تدوم زمنا طويلا ، فان قدرة اللحم على « التلقي »قد تصاب بالدمار ، وبالتالي فانها تؤدي الى ارسال تيار حياة هابط ، الامر الذي قد يساعد اللحم على ان يتصرف وينمو لحسابه الخاص. اما رايخ ، فكان يمكن ان يقول ان اللحم المكدوم يبدي انهيارا في تبيان «بيوناته» داخل خلاياه الحية .

وتثير هذه النقطة سؤالا هاما . فان اكثر الكدمات لا تتحول الى اورام سرطانية . فما هو القانون المتضمن في هذه الظاهرة ؟ فالعملية فيما يبدو تحمل بعض ملامح التشابه مع العملية المتضمنة في المرض العقلي . اي ان شخص قد يغرق في حالة غامضة من الاحساس بالهزيمة والانقباض ، ولكن هذا لا يؤدي الى فرق حقيقي في نشاطاته اليومية ، بينما تتنوع وتختلف حالاته العقلية من يوم الى يوم . ثم ياتي يوم يندفع فيه الى مستوى اكثر هبوطا بسبب حادث عارض غير سار اوبسبب خوف مؤقت ، فيبقى هناك في ذلك المستوى الخفيض ، كما لو كان قد سقط من فوق حافة هوة او خطا فوق حفرة عميقة . ومن ثم فانه يحتاج الى بذل مجهود هائل طويل المدى لكي يرفعه فيعيده الى مستواه القديم . ان الامر ليبدو كما لو كان التطور الانساني ليس صعودا مستمرا على سفح تل مائل ، وانما شيئا يشبه الصعود على سلم تتباعد المسافة بين درجاته وتتسع . ومثلما يبرز برناردشو في مقدمة « العودة الى ميتوشالح » فان التطور لا يتقدم بثبات ، وانما في قفزات مفاجئة . مثلما يحدث وانت تتعلم ركوب الدراجة ، فتسقط خمسين مرة ، ولكنك فجاة تنجح في السير بها في المرة الواحدة بعد الخمسين كما لو كنت في كل مرة من مرات المحاولة والفشل ، تراكم كمية صغيرة من المهارة التي لا تثبت وجودها على الفور ، وانما تنضاف الى « مخزون احتياطي » يتزايد حتى تصبح جاهزا للنهوض في الخطوة التالية ، على الطريق الصحيح . ولا بد لنا ان نناقش المغزى الكامن لهذا فيما بعد ، ولكننا نستطيع ان نبرز نقطة واحدة على الفور. فاذا كنا نستطيع ان نسقط فنتدحرج هابطين سلم التطور بسبب الملل والاستعداد للهزيمة ، فاننا نستطيع ايضا ان نتسلقه صاعدين الى مستويات جديدة

من خلال مجهود تراكمي لطيف ، فلا تكـون ثمة حاجة الى قفزة متهوسة بالتوتر .
وتشير الادلة المتوفرة دوناحتمال للخطأ الى ان تلك المستويـات الاعلى هـي المستويات التي تكف فيهـا القوى « الخبيثة والخفية » عـن ان تكـون خفية او خبيثـة .

وتثير تعليقات رايخ عن الاستثارة الجنسية نقطة بالغة الاهمية في هـذه المناقشة . فان الاستثارة الجنسية تحدث فـي قسمين : قسم عقلي ، حيث تزداد اهميـة الخيال ، وقسم مادي ، حيث يسيطر الجسد وينفجر عند دخولـه الذروة الحسية . ونحـن نتقبل هذا دون مناقشة ، ولكنه يكـاد يكون شيئـا فريـدا ولا شبيه لـه في عالم التجربة الانسانية . ذلك انه اذا حدث ان حركتني مقطوعـة موسيقية ، او روائح صباح ربيعي ، فان استثارتي « الخيالية » تتزايد، ثم تخبو وتتراجع ، دون اي مقابل جسدي او مادي لها . وهذا الجانب الخيالـي جانب « عمدي » بمعنى ان ايـة ضجـة مفاجئة يمكن ان تحطم تركيزي فتدمـر العملية كلها . والمراهق الذي يمر بتجربة النشوة الجنسية للمرة الاولى ، يعرف الطبيعـة المدهشة للحدث الذي يمر به . انه حادث يكاد يشبه في غرابته انتنمو له اجنحـة يبسطهـا ويطير بهـا. فان ما كان من قبل مجرد استثارة عقليـة « عمديـة » قد انفجر متسعا لكي يبلغ عالم الجسدي والمادي . ويبدو هذا فـي حد ذاته مدهشا مثيراللعجب،لان الجسد ، رغم كل شيء ،يصاب بنزلات البرد ، ويشعر بالجوع ، ويحس بالتعب ، دون ان يطلب الاذن من العقل .

ويعاني البشر منهذهألفكرة الخاطئة التي تقول بان الجسد والعقل يسيران في طريقين متوازيين ،دون ان يؤثر احدهما في الاخر تأثيرا حقيقيا . ولكن اكثرية النـاس من بيـن من يعرفون النمو الجنسي المبكر ، انمـا يحققون هذا لانهـم مشغولون انشغالا كثيفا بالموضوع ،وهذا الانشغال « يتراكم » في كل مرة مثلمـا تتراكـم نتائج الجهود المبذولة لتعلم ركوب الدراجة ، حتى تحدث « الطفرة » ذات يوم ، وفي هذه الحالة، فـان الطفرة المقصودة هي القدرة عـلـى ممارسة الذروة الجسديـة .

وهذا هو ما يثير السؤال الهام التالي : ما هي القوى الاخرى التي يمكننا ان ننميهـا اذا ما بذلنـا مجهودا مصمما قويا ؟

هناك بالتأكيد قصص كثيرة ، قديمة وحديثة ومعاصرة لنا ، تدور حول مـا تمتع بـه بعض الاشخاص من قدرات تتلخص كلهـا في امكانية السيطرة الارادية على الجسد ، او على الوجود الفيزيقي للجسم وعلى قوانينه الطبيعية ، ودفـع الجسد الى القيـام باعمال « خارقة » ـ او تواضع الناس على وصفهـا بذلك ، باعتبارهـا تخرق قوانيـن الطبيعـة المعروفة ـ بل وبامكانهم ان يقوموا بمثل هذه

الاعمال بالنسبة لمواد وظواهـر طبيعيـة خارج الجسم البشري ، بحيث يلوح ان الانسان « سيطير » على هذه المواد ، او على تلك الظواهر بمحض ارادته ، وعـن طريق تركيز تيارالارادةعلى « الشيء » لكي يتم اخضاعه . . .

وقد يكون كل ذلك من الامور التي يمكن تصورها . فاننا قد نحس ، وقد لا نحس ، بالميل الى تقبلها ، ولكنها لا « تتصارع » باي شكل مـع معرفتنا بطـرائق سير العالم وكيفيةتحركه. ويمكننا ان نقول بنفس الطريقة ، انه لو كان بوسـع دانتي ان يطل على القرن العشرين،لكان جديرا بان يظـن ان الراديو والتليفزيـون شيئان غريبان للغايـة ، ولكن وجودهمـا ما كان ليتناقض مع كل ما كان يعرفـه بالفعل عـن الكـون . وليس هناك ما يؤيـد او يدحض ـ علميا ـ مسالة الجسد الاثيري (رغم أن هناك الكثير من الادلة على وجود القدرة على التكهـن بالمستقبل والانتقال في المكان والزمن ، وهي ادلة توحي بانهـا تشير الى تلك المسالة) .

ومن ناحيـة اخرى،فأن تجربة المعرفة السابقة على وقوع الاحـداث او الاشياء ، او التكهـن بالمستقبل ،تتناقض بالفعل مع مـا نعرفه ، او ما نظـن اننا نعرفه ، عن الزمـن. ونحـن نعني بكلمة « الزمن » معنى وقوع التقدم ، انشيئا ما يحدث . فلوكـان بوسعك ان تتخيل كونا خاليـا فارغا تامـا ، لا شيء فيه من اي نوع ،لكـان ايضـا كونـا دون زمن . فالزمن شيء يقاس بواسطة ما يحـدث للهويات المادية ـ بواسطة لولب مضغوط ينحل بانتظام داخل السـاعة ، بواسطـة جسدي الذي يصبح اكثر عجزا بالتدريج . وبقدر مـا نعلم نحن عن الزمن ، فانه غير قابل لان يستعاد . فلو كنت استمع الى اسطوانة موسيقية ، واردت اناستمع مرة اخرى الى اجزائها الاولى، فان بامكاني ان ارفع رأس الذراع لكي اضعه مـن جديد على الخطوط الاولـى من الاسطوانة . ولكـن ليست هناك « آلة للزمـن » تستطيع أن تعيدني مرة اخرى الى الامس ،وليست الفكرة نفسها سوى نوع مـن السخف . لانه اذا كان بوسعي ان اعود الى الامس ، او حتى الى عشر ثوان مضت، لقابلت «أنا» آخر ، اصغـر عمرا بعشر ثوان . واستطيع ـ اذن ـ من الناحيـة النظرية ، اناجمع صور نفسي التي تعد بالملايين ثم اعود بها جميعـا الى الحاضر القائم . كلا ،انمـا تكمـن المشكلـة في استخدامنا للغة والافكار . ولقـد ضربت في مكـان اخر ، المثال التالـي. لنفترض ان الناس يولدون في قطاراتمتحركة ، ويبقـون فيهـا طول حياتهم ،اذن لكـانمـن الضروري ان يبتكروا كلمـة للتعبير عن الاحسـاس بالاشياء في عبورهـا السريع الى الوراء اذ ينظرون اليها من نـوافذ

القطار ــ كلمة مثل « يحور » (*) . فاذا حدث ان توقف القطار لكان من الممكن ان يقولوا ان « الحوران » قد كف عن الوقوع . واذا سار القطار الى الخلف، لقالوا انه يتجه الى الوراء او يتراجع ... بما يعني ان « الحوران » لا يوجد في ذاته، انما هو مصنوع من اشياء عديدة : الخلاء الواسع ، القطار ، وانا نفسي ناظرا الى جريان الخلاء الى الخلف من النافذة. وينطبق نفس الشيء على الزمن . انه لا يوجد. لا يوجد سوى عملية جريان الاشياء.

وفي هذه الحالة، كيف يمكن بحق الشيطان ان احلم بالمستقبل ؟ الراي الشائع. يقول لي ان اي شيء يمكن ان يحدث . فلتتخيل جماعة من النحل ، تتطاير حول الزهور في حديقة . لا توجد آلة حاسبة في العالم ــ ولا اظنها ستوجد ــ تستطيع ان تتنبأ بوضع او بمكان نحلة معينة بعد عشرين ثانية ، لان هذا الوضع يعتمد على حركات الآلاف الاخرى من النحل ، وعلى عشرات العوامل الاخرى ، واكثرها عوامل عارضة .

فاذا كان التنبؤ بالمستقبل ممكنا ، لدلنا على ان هذا الرأي زائف من اساسه. ولكن لا شك ان إكثر المؤمنين بعلوم الغيب سخفا وجنونا لا بد سوف يتردد قبل ان يؤكد انه ليس هناك ما يسمى ب « الصدفة » . لقد اكد جورديف ان حياة معظم الناس انما هي صدفة « كلها » ..

وهناك حالات شائعة وذائعة الشهرة عن القدرة على التنبؤ بالمستقبل ، يمكننا ان نضرب لها مثالا بما ذكره ج.ب. بريستلي عن احلامه التنبؤية في كتابه « الانسان والزمن » ..وكان من نتيجة تكرار تلك الاحلام التنبؤية ان عكف بريستلي بشكل اضطراري ، على دراسة نظريات ج.و. دان حول الزمن ، وهي نظريات ادت الى حدوث قدر عظيم من الاستثارة في الثلاثينات ، والهمت بريستلي ثلاثا من مسرحياته . ففي كتاب : « تجربة مع الزمن » يصف دان كيف تحير ازاء دقة التنبؤات التي رآها في احلامه . ثم عاد في الكتاب الذي صدر بعد موته بعنوان :«تداخلات» فسرد عددا كبيرا من هذه الحالات التي وقعت له شخصيا .

(*) استخدم ويلسون هنا كلمة Zyme التي تعني حرفيا « خميرة » او « اختمار ». وبهذا فانه يستخدم كلمة ذات معنى محدد لوجودها السابق في اللغة ، رغم ان السياق كان يقتضيه ابتكار كلمة جديدة .والمعنى الذي يشير اليه في السياق له كلمة عربية تعبر عنه الى حد كبير هي « يحور » التي استخدمناها هنا ، والتي يبدو انها ارتبطت بصورة التغير المستمر في شكل ونظام السماء بالليل ، وبعملية انسلاخ النهار عن الليل . اليلتنا : « .. اذا انت انقضيت فلاتحوري.» في قول الشاعر العربي القديم . (هـ . م)

وكان « دان » رجلا ذكيا ، وكان مهندسا متخصصا في علوم الطيران ، وتركزت هوايته في الاهتمام بعلوم الطبيعة والرياضيات . وهكذا حاول ان يشيد نظرية تتناسب مع افكار اينشتين « النسبية » عن الزمن . وقد اقنعت النتائج التي توصل اليها في ذلك الوقت الكثيرين من الناس ، ولكنها فقدت الكثير من الارضية التي كانت قد اكتسبتها منذ ذلك الحين . ويمكننا ان نلخص ما يقوله بشكل عام في التالي : اذا كان الزمن شيئا ينساب الى الامام او يتقدم سائرا اذن فلا بد ان يكون ثمة نوع اخر من الزمن الذي نستخدمه في قياس سرعة الزمن الاول . ثم لا بد من ان يكون هناك نوع ثالث من الزمن الذي نستخدمه في قياس سرعة هذا الزمن الثاني . ومع ذلك فان هذا التأكيد المحير ، ليس هاما حقا بالنسبة لفرضيته الاساسية التي تقول بان للبشر ايضا مستويات عديدة . هناك « انا » الذي يحيا ويعاني حياتي . وهنا « أنا » آخر ، يعي بوجود ذلك « الانا » الاول ، ويصبح واضحا ، ويظهر ، حينما اتحدث عن « نفسي » . ويقول « دان » انه من المحتمل ان يكون هناك عدد لا نهائي ، سلسلة لا نهاية لها من «الانات» . وان هذه «الانا» الثانية ، البعيدة ، هي ما توجد في الزمن الثاني ، وهي القادرة على ان تنظر الى الامام والى الوراء في الزمن .

ولكي يفسر «دان» هذا التأكيد الغريب ، فانه يطرح افتراضا آخر . فلنفترض ان كل ما يحدث لي في خلال حياتي ، يتجسد بالخارج في سلسلة من الصور ، مثل «فيلم» ملون» يبدأ بميلادي وينتهي بموتي . فاذا مضيت في حياتي بشكل معتم وكئيب وسلبي، كالبقرة ، فستكون لتلك الحياة خاصية رتيبة مملة واحدة . وانا في الحقيقة : « انتبه » لمجموعة بعينها من الاشياء واتجاهل اشياء اخرى . وعلى ذلك ، فهناك «أنا» الاول ، الذي ينساب عبر الحياة «رائيا» الاشياء فحسب ، وهناك «أنا» آخر ، يوجه « انتباهه » الى بعض الاشياء التي «اراها» ولا يوجه انتباهه الى اشياء اخرى مما ارى . ويطلق «دان» ، على هذا المراقب الاخر ، اسم «العقل» . ومن الطبيعي ان يكون للعقل مجال ضيق للاختيار بين ما ينظر اليه ، من احداث حياتي ، ولكن حينما اكون نائما ، فلن يكون لديه ما يركز عليه . ويقول «دان» ، انه قد يقوم حينذاك بشغل ما لديه من وقت بالقاء النظرات الفاحصة على الماضي او على المستقبل .

وهو يقرر في النهاية، ان هناك « عقلا كونيا » تكون العقول الفردية جوانب صغيرة منه . وقد يحق لنا ان نكف عن متابعته هنا عند هذه النقطة ، اذ من الواضح انه عندها قد قفز داخل نوع من النزعة الصوفية الغيبية لا علاقة لها بالمناقشة الحالية .

ويأتي بريستلي ، فيتخذ من « دان » نقطة انطلاق له، على اساس انه يمتلك

عددا من الاقتراحات النفاذة . انه يرفض فكرة دان عن وجود عدد لا نهائي من « النفوس » ويشير الى ان كل ما نحن بحاجة اليه منها لا يزيد على ثلاث . فهناك « انا » الذي يرقب الاشياء في فتور و لامبالاة ، انه « الانا » الذي يوجد حينما احدق من نافذة قطار، نصف نائم ، لا افعل اكثر من تسجيل المناظر العابرة . فاذا ما جذبت اجزاء نفسي المبعثرة فتماسكت ، وشرعت في التفكير فيما اراه ــ اذا كنت مثلا ، اعبر خلال منظر يثير اهتمامي فرحت احدق باهتمام عظيم ، باحثا عن شيء معين ــ اذن، فان «انا» آخر ، سيبرز الى الوجود ،انه «الانا» الذي يحكم على الاشياء ويميز فيما بينها . ثم هناك « انا » آخر ،يقوم بمراقبة الاثنين الاولين . ذلك انني اذا كنت قادرا على ملاحظة « انا » الثاني ، فلا بد ان يكون هناك « انا » ثالث للقيام بهذه المهمة . .

اما بالنسبة للزمن نفسه ، فان بريستلي يقول بانه يبدو ان ثمة ثلاثة انواع مختلفة من الزمن . هناك الزمن العادي الذي يمضي بينما اقوم بواجباتي العادية . وهناك «الزمن» الذي ادركه وعيي بوجوده في لحظات السكينة والتأمل ــ مثلا ، الزمن الذي خبره ارنولد توينبي حينما اصبح واعيا ، فجأة ، بالتاريخ كله . ثم هناك نوع ثالث من الزمن الذي يبدو انني قادر على السيطرة عليه في لحظات التركيز والكثافة العظيمين ، انه الزمن الذي اخبره حينما اكون خلاقا ومبدعا بشكل شامل عميق .

. . . اما بالنسبة للزمن الثالث (او رقم ٣) فانه يمضي لكي يتحدث عن السرعة الهائلة التي انجز بها كتابة اربع من انجح مسرحياته واكثرها صعوبة ، ويعلق قائلا انه اذ ينظر الى هذه التجربة القديمة : « فانني شعرت بما يشعر به رجل يراقب نفسه وهو يجري بسرعة هائلة عبر حقل الغام » . وهو يميل الى الاعتقاد بان للعقل اللاواعي النوع الخاص به من الزمن ، وان هذا النوع هو النوع المتعلق بذلك النوع الخاص، البالغ السرعة ، من الابداع والقدرة على الخلق .

اما ما يقترحه بريستلي بعد ذلك فهو شيء قريب من نظريات الزمن التي عبر عنها اوزبنسكي في كتابه : « نموذج جديد للكون » وتلميذ اوزبينسكي ، ج . ج . بينيت في كتابه :« الكون الدرامي »، وهي النظريات التي تقول بأن للزمن ابعادا ثلاثة مثل المكان . . . ويشيران الى احداث توحي بان الزمن عنصر يتم تحديده سلفا (مثل الاحلام التي تتنبأ باحداث المستقبل بدقة غير عادية) . فماذا عن الاحلام التي تتنبأ باحداث المستقبل ، فتجعل صاحبها يتجنب حدوث ما تنبأ له به الحلم؟ انها توحي بوجود نوع آخر من الزمن : « مرتبط بشكل ما بالقدرة على الوصل بين ما هو محتمل وما هو قائم فعلا او الفصل بينهما » اذا استخدمنا عبارة بينيت .

تقوم نظرية بريستلي اذن على ان الزمن الاول هو الزمن الذي يمر بشكل عادي، زمن العيش اليومي : « العيش والعيش بشكل جزئي » مثلما يقول اليوت . اما الزمن الثاني ، فهو « الزمن التأملي » الذي يصبح واضحا لنا احيانا في الاحلام. اما الزمن الثالث فهو الزمن الذي يمكن ان تنجز فيه التغيرات . ويبدو ان بليك كان يصف هذا النوع من الزمن حينما كتب يقول :

يظل كل انسان في قبضته قوة شبحه ،
حتى اوان وصول تلك الساعة ،
حينما تستيقظ انسانيته
وتقذف بشبحه الى البحيرة ...

ويمكننا نحن ان نقول ، تابعين في ذلك لجوردييف ، ان الانسان يكون في العادة ، في حالة نوم. انه يستيقظ ، او تستيقظ فيه الملكة « س » ، في لحظات التأمل، من نوع تلك اللحظات التي عرفها توينبي بالقرب من ميسترا . ومع، ذلك ، فما يزال من الممكن ان تكون هناك يقظة اكبر واكثر عمقا ، حيث يعيش الانسان ويمارس العمل بحرية حقيقية، وحيث يستطيع حقا ان «يفعل» الاشياء .

ويقول بريستلي في رايه النهائي اننا نواجه مستقبلا : « قد تشكل بالفعل ولكنه ما يزال مرنا يمكن ان يتغير » ، وانه حتى بعد ان يموت الجسد ، فاننا بشكل ما نستمر في الوجود في الزمنين الثاني والثالث . اما اوزبينسكي فيميل الى قبول فكرة نيتشه عن العود الابدي ـ فكرة اننا نعود لكي نعيش حياتنا المرة بعد المرة ، ولكنه يعتقد ايضا انه من الممكن ان تقع تغيرات طفيفة ، وان لبعض الناس : « خطا داخليا علويا » يرفعهم ببطء الى مستويات اسمى واكثر ارتفاعا. (وهو يميز بين نوعين مختلفين: اولئك الذين يصبح النجاح بالنسبة لهم متزايد السهولة ، واولئك الذين يتضمن كيانهم عنصر انحلال وتدهور فطري ، يؤدي بهم الى «الغرق» من حياة الى حياة) . ويبرهن اوزبنسكي على ان هذا الراي لم يكن مجرد تأمل عارض، بروايته : « حياة ايفان اوسكين الغريبة » ، حيث يطلب البطل من الساحر ، بعد ان يخيب امله في الحب ، بأن يسمح له بان يعود بالزمن الى الوراء، حتى يستطيع ان يتجنب الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها من قبل . ولكنه ـ ملثما يحدث في مسرحية «عزيزي بروتوس» لجيمس باري ـ يكرر نفس الاخطاء جميعا مرة اخرى ، فيعود بذلك الى نفس النقطة ، وهي لقاؤه بالساحر. ولكنه في هذه المرة يتبين ما حدث، ويسأل الساحر ان كان من الممكن ان تتغير الاشياء قليلا . ويبتسم الساحر ـ الذي يبدو واضحا انه جوردييف نفسه ـ ويقول : « آه ،ذلك هو السؤال الذي كان ينبغي ان تساله من قبل . . » . وبكلمات اخرى ، فان الاشياء يمكن ان تكون على غير ما كانت عليه ، ان كان بوسع الانسان ان

يتعلم كيف يكون غير ما كان . عليه ان يغرس وان يرعى بذرة الحرية الضئيلة التي يمتلكها .

ان رؤية اوزبنسكي قد تبدو متجهمة ومعتمة بشكل غير حتمي ولا ضروري . واذا كنا ،من ناحية عملية ، نمتلك حقا بعضا من القدرات والقوى التي اشرنا اليها في هذا الفصل ، اذن فانها رؤية تكاد تكون غير صادقة بالتأكيد . انه يقول بأن الانسان مكبل مقيد الى جسده والى مصيره ، كالعبد المذعور الذليل . فاذا كان هذا صحيحا ، فكيف امكن للانسان ان يحلم بالمستقبل ، وان يبصره بعينيه وان ينتقل اليه بروحه عبر قرون الزمان والعصور ؟

وفي اجابة على سؤال وجهته الى الشاعر دونالد دنكان عما اذا كان قد عاش اية تجربة ذات طابع غيبي ، كتب الشاعر قصة بعنوان « لهب الغابة » (١) يجسد بشكل قصصي تجربته الخاصة التي تعني انه « عاش من قبل » ... ويحكي القصة شخص هندي (وقد امضى دنكان سنوات عديدة في الهند تلميذا لفاندي) يقول انه ولد في انجلترا باسم ابركرومبي مارتين ، وانه كان خاضعا لسيطرة ابيه المطلقة الذي كان يريد ان يعيش حياته مرة اخرى (بالنيابة) من خلال ولده . ولكن الابن كانت تنتابه لحظات معينة ، وخاصة حين ينحني لكي يلتقط شيئا ما من الارض ، فيتذكر مخاضة معينة عند نهر معين ، فتومض الذكرى في عقله كالبرق . وذهب كرومبي الى الهند ، وراح يتجول في ارجائها كالصعلوك ، وذات يوم وجد نفسه امام المخاضة نفسها على ضفة النهر نفسه ، من خلال نوع من احلام اليقظة . وفجأة تحدثت اليه امرأة ـ هي زوجته ـ ثم لم يعد هو الانجليزي المدعو ابركرومبي مارتين ، وانما هنديا يدعى جيتندرا نارايان ، كان قد ذهب لكي يأتي بالماء من النهر في جرة ، وغرق في حلم يقظة طويل على شاطيء النهر .

ان دنكان يحاول هنا ان يمسك بجوهر لحظات من نوع معين حينما ينحل ويتشتت احساس الانسان باليقين وبالهوية الخاصة المتميزة كاشفا ، ليس عن عالم من الفوضى او الجنون ، وانما عن جوانب ووجوه منطقية الى حد غريب . وفي المقاطع التمهيدية عن قصيدته الملحمية « الانسان » يصف دنكان كيف حدث ان امتلكته ـ وهو يجلس في شقته في لندن ـ طوال ايام عديدة ذكريات تنتمي الى ماضي الجنس البشري ، احساس بـ « الحياة من قبل » او الحياة السابقة ، ليس لنفسه فحسب، بل لاسلافه البعيدين . ويقول انه ملأ الجدران العارية بالخطوط الملونة لمجرد ان يكسر رتابة منظرها المملة ، واذ رفع بصره عما كان

(١) مجلة ارجوسي ، مارس ١٩٦٨ .

يكتبه فيما بعد ، تبين انه كان دون شعور منه قد رسم صورة لثعبان من نوع البيسون ، ولبعض الناس يتقاتلون بالعصي وبعض الحيوانات التي تنتمي الى عصور ما قبل التاريخ . وقد حدث هذا قبل ان يكون قد راى رسوما مشابهة ماخوذة عن رسوم الكهوف في لاسكو .. وقد طرأ لذهنه : « انني لم اكن في السابعة والاربعين من عمري ، وانما ربما كنت قد جاوزت العشرين الفا من سنوات الحياة ، وقد اجتاز فيما بعد رؤية التجربة التي تأتي كبرهان لما قاله يونج عن « ذاكرة الجنس البشري » .

اما روبرت جريفز ، فيحكي تجربة اكثر غرابة ، من تجارب حياته الشخصية ، في مقطوعة بعنوان : «مسترجن الثلجي » (*) يحكي فيها كيف كان يجلس في مكان خلوي ، واكتشف فجأة انه « يعرف كل شيء » . يقول : « اتذكر كيف تركت عقلي يجول بسرعة بين كل موضوعات المعرفة المألوفة لديه ، لكي اكتشف ان هذا لم يكن وهما غبيا . انني اعرف كل شيء بالفعل . ولكي اكون صريحا وواضحا ، اقول : رغم ادراكي الواعي بانني لم اقطع الا اقل من ثلث طريق التعليم الرسمي العادي ، ورغم ضعفي في الرياضيات ، وعدم تمكني من قواعد اللغة اليونانية ، وعدم ثباتي في اللغة الانجليزية ، فانني مع هذا امسكت بمفتاح الحقيقة في يدي ، وتمكنت من ان استخدمه لكي افتح مغاليق اي باب . لم تكن نظريتي نظرية دينية او فلسفية ، وانما هي منهج بسيط وطريقة في النظر الجانبي الى الحقائق غير المنظمة والمشعثة لكي اصنع منها معنى كاملا » . وفي الصباح التالي كانت هذه الرؤية ما تزال قائمة ، رغم ان محاولات تسجيلها على الورق اثارت المشاكل المتعلقة بالتعبير الذاتي التي ادت الى نسف الرؤية ذاتها ، فتلاشت الرؤية في مساء ذلك اليوم .

ويصبح ما يعنيه جريفز ب « معرفة كل شيء » اكثر وضوحا في حكاية اخرى يقدمها عن صبي اصبح قادرا فجاة على حل مسائل حسابية بالغة الصعوبة بسرعة مذهلة ، تكاد تكون فورية ، اي فور سماعه للمسألة . وكان استاذه قد طلب منه ان يحسب الجذر التكعيبي لعددين يتكون كل منهما من عدة ارقام . وقال الاستاذ حين سمع الصبي يعطيه الاجابة الصحيحة فورا ، ان ذلك مستحيل ما لم يكن قد ذهب لكي ينجز « العمل بالخارج » .

ولكن القدرة على اجراء عمليات حسابية ذات ارقام واعداد هائلة هي قدرة شائعة الى حد كبير . ومن يسمون بالمعجزات الحسابية يظهرون ويعودون للظهور في كل عمر ، وقد يكونون او لا يكونون من الشبان غير المتعلمين الذين لا

(*) مجموعة قصص قصيرة ص ٩٠ .

يظهرون ايــة قدرة اخرى في اي مجال آخر . والكثير من القصص عنهم يمكن أن توجد في كتاب : « قصص حسابية » الذي وضعه و.و. روز بـــول . وليس من المعروف حتى الان كيف يستطيع الدماغ البشري ان يأتي خوارق من هذا النوع ـ بل ان اصحاب هذه الخوارق نفسها لا يستطيعــون ان يوضحوا كيفية قيامهـــم بالعملية ـ ولكن الفرضية التي يقدمهــا بريستلي عن الزمن توحي على الفور بـأن ما نتعامل معه هنــا هــو واحدة من تلك العمليات الابداعية البارقة كالوميض التي تتم في « الزمن الثالث » . والشيء الذي يحل تلك المشكلات المطروحة هو مـــا يدعوه الفيلسوف برنارد اونرجان باسم : « البصيرة » في كتابـــــه الهام بنفس العنــوان . بمعنى انك تشعــر بانك قد رفعت فجأة فوق الارض ، كمــا لو كنت قادرا على ان تلقي نظرة من عيني طائر محلق على منظر مدهش لمتاهة مذهلة ، فترى طريق الخروج منها بدلا من التخبط في البحث عنهــا اعتمادا على وصفة قديمة. ويقتبس لونرجان صيحــة ارشميدس : « ايوركا » (وجدتها) التي عبر بها عن ادراكه الفجائي لقانــون طفــو الاجسام ، كمثال نموذجي للبصيرة ، ويمكننا ان نرى ان جوهر مثل تلك « الومضة » هي انها تمتلك بوضوح كامــل خاصية « المفتاح » المؤدي الى الفهم ، تماما كما يقول جريفز . انها تجيب على العشرات مــن الاسئلة التي تسير كلهــا على طريق واحد في اتجاه واحد ، وتؤدي الاثارة النابعة من هذا الكشف بالعقل الى ان يرى مزيدا من صور الاسئلة التي يمكــن ان يجيب عليهــا نفس المفتاح ـ وهكذا دواليك ، بأحساس يشبه الدوائر المتزايدة الاتساع عبر سطح البحيرة .

انني ، اذا طلب مني ان احل مسالة حسابية ، فانني ابدأ معالجتها من خلال عملية مطابقة مع مسائل اخرى ، ثم ابدأ في الحساب خطوة خطوة ، كمــا لو كنت اصعد طابقا من الدرجات . ولكن اذا طرأ « الاستبصار » الحقيقي ـ وهــو الامر النادر الحدوث ، طالمــا كنت محاسبا ضعيفــا ـ فان ايقاع العملية كلها يتسارع وتصبح امكانيــة الوصول الى قمة السلم في قفزتين سريعتين ، امكانيــة قائمــة وواضحــة .

من المعقول اذن ، ان يكون هذا هو ما حدث لجريفز . انه يقــرر بوضوح ان الامر لــم يكــن « فكرة » فلسفيــة او دينية من نوع مــا ، وانمــا كان « مفتاحا » (ولقد ناقشت التجربة معه ، ولم يكــن قادرا ان يزيد قوله هذا ـ الوارد هنا ـ وضوحا). ان الاستبصار يؤدي دائما الى « ربط » الافكار غير المترابطة ، مثلما يحدث في لعب الاطفال التي تربط فيها بين سلسلة من النقاط ، فتكون النتيجــة هي اكتمال فجائي لصورة شيء مــا : انها صورة لم يكــن بوسعك ابدا ان تتنبــأ بامكانيــة وجودهــا اذا اقتصرت على دراسة النقاط .

وانني لاظن انه لا مجال للشك في ان « الاستبصار » سواء كان يستخدم الزمن الثالث او لا يستخدمه، هو ملكة من الملكات « الطبيعية » للدماغ البشري لم نصل حتى الان الى مرحلة القدرة على تطويره .

وقد وضعت عملية « الاستبصار » بوضوح ساطع في مقال كتبه ويليام جيمس بعنوان : « اقتراح حول النزعة الصوفية » . ويقول اقتراحه : « اذا شئنا وضعه بشكل شديد الاختصار، هو انه من المحتمل ان تكون حالات الحدس الصوفي مجرد امتدادات عظيمة، ومفاجئة للغاية لـ « مجال الوعي العادي » . وهو يقول عن مثل هذه النظرة الوامضة السريعة : « سوف تكون من اجل التوحيد ، لان ما فيها من عمليات التئام قائمة ، سوف تمتد الى كل ما هو بعيد عنها تماما في الظروف العادية ، وسوف يتم توسيع معنى « العلاقة » توسيعا عظيما » . (اي : معنى امتلاك مفتاح يؤدي الى تجارب اخرى) . ثم يذكر ثلاث تجارب مارس في أثنائها مثل تلك النظرات البارقة كالوميض ، ويقول :

« كان ما حدث في كل مرة هو انني احسست كما لو كنت ــ في لحظة واحدة ــ قد ذُكّرت بالتجربة الماضية ، وهذا التذكير ، ان كان باستطاعتي ان اتصوره او ان احدد اسمه بوضوح وتمييز ، قد تطور متحولا الى شيء ابعد مما كان متضمنا فيه منتميا اليه، وقد تحول هذا الشيء بدوره الى شيء اكثر بعدا ، وهكذا ، حتى تلاشت العملية، تاركة اياي مسحورا في رؤية مفاجئة لانواع المدى المتزايد للحقيقة البعيدة التي لم يكن بوسعي ان اصفها وصفا دقيقا . لقد كانت حالة الوعي حالة تصورية لا حالة ادراكية ــ كان المجال يتسع بسرعة بالغة حتى لم يبد لي ان ثمة زمنا يكفي لان يقوم الادراك او التعرف بعمله . كان ثمة احساس قوي الاثارة بان معرفتي بالماضي (أم بالحاضر ؟) تتسع وتتزايد نبضة بعد نبضة، ولكن بسرعة بالغة حتى ان عملياتي الذهنية لم تستطع ان تستمر في السباق ، وبذلك ضاع « المضمون » ضياعا كليا بالنسبة لمحاولات الاستعادة والتذكر ــ لقد غرقت في المؤخرة المظلمة حيث تختفي الاحلام حينما نستيقظ بالتدريج . لقد تأتي لما حصلت عليه من احساس ــ وليس لي ان اسميه اعتقادا ــ نوع مفاجيء من التفتح كان من يشاهده من نافذة قادرا على رؤيته . وكانت الحقائق البعيدة التي ارتبطت بحياتي بشكل غير مفهوم بالغة الدقة حتى انني لا استطيع اليوم ان التقطها او ان احركها من مكانها .

وهذا تقرير واضح بشكل غير عادي . لقد استطاع جيمس ــ من حين الى حين ــ ان : « يستيقظ » ، بالمعنى الذي كان يقصده جورديف ــ فكان الوعي يتوقف حينذاك عن ان يجر نفسه مثلما تجر ذبابة مبتلة نفسها فوق سطح مائدة املس ، ثم يقذف بنفسه طائرا الى بعد « الاستبصار » الخالص . . لقد استمان

ويليام جيمس بفكرة محددة للتخلص من الفزع الذي ينتابه ازاء احساسه بانه منقسم ،او بانه يقع تحت سيطرة شخص اخر ، تتسلل احلامه اليه هو في نومه : فكرة الاحساس بان حلم شخص آخر قد تسلل الى راسه بشكل ما ،وبأن احساسنا العادي بالامان و « الحقيقة » ليس سوى خطأ . ولكن من الواضح اذن، انه حينما يستيقظ المرءمن نوم عميق ، فان الاحساس المباشر لما يسميهبريستلي: « النفس الاولى » ،هو ان النفس العادية ، اليومية ، هي ما تنساب طافية عبر الزمن الاول . اما ما يبدو ان « النفس اليومية العادية » لجيمس قد القت عليه نظرتها الخاطفة ،فهو المناظر والمشاهد المزعجة لـ « ابعاد » اخرى من الزمن . ويبدو ان هذه التجربة السلبية تؤكد فكرة بريستلي عن الزمن ، وخاصة حينما نتذكر ان جيمس قال عن هذه التجربة انها : « اعمق واكثر التجارب تميزاً وتفرداً في حياتي كلها». ومن الواضح انها تجربة كانت تحمل من المعاني والدلالات ما كان جيمس عاجزا عن التعبير عنه على الورق .

واعتقد انه من الممكن ان نرى ان تجربة وليام جيمس ودخوله في : «افاق الحقيقة المتمددة » ليست شيئا اقل من يقظة شاملة وكلية لـ « الملكة س »، التي سبق ان قلت انها احساس بالحقيقة الموضوعية لوجود ازمنة وامكنة اخرى ،بدلا من نظرة عين الدودة الذاتية المعتادة التي نظل طوال حياتنا اسرى فخاخها المنصوبة. انها نظرة تشبه الوقوف على قمة جبل وابصار ما هو ابعد بكثير مما تستطيع ان تراه وانت في قاع الوادي . والحقيقة ان الصورة التي رسمها بريستلي للضباب المنقشع من سماء « جراند كانيون » تعبر عن هذا المعنى تعبيرا يدعو الى الاعجاب. ويمكننا اذن ان ندرك السبب الذي جعل جريفز يشعر بانه « قد عرف كل شيء» في اللحظات التي استغرقتها تلك النظرة الخاطفة . ومن المهم ايضا ان نتذكر انه رغم ان جيمس يعتقد ان مثل تلك التجارب لا تستطيع الا ان تكون بارقة سريعة عابرة ، فانتجربةجريفز قد استمرت نحو اربع وعشرين ساعة . وهذه حقيقة بالغة الاهمية . . ذلك انه اذا كانت هذه التجربة قد استمرت يوما كاملا، فلماذا لا ينبغي لها ان تستمر طول الوقت .

انه لمنالضروري ان نحاول الحصول على مزيد من الاستبصار والنفاذ داخل طبيعة هذه « النظرة الخاطفة » . انها هي ـ بوضوح تام ـ ما تحدث عنه المتصوفون على الدوام. ولقد اكد المتصوفون انها نظرة اقدس من انيتحدثوا عنها ، او انها نظرة لا يمكن ان توصف ، غير قابلة لان توصف او ان تحلل . ولقد قطعنا في هذا الكتاب شوطا طويلا نحو تحليلها ، وربما كان علينا ان نقطع المزيد .

يصف وارفر اللين ، في كتابه الممتع : « اللحظة التي لا زمن لها » كيف خبر « النظرة الخاطفة » الصوفية الاساسية :

« حينما كان الكاتب على مشارف الخمسين ، طرأ له ، مثلما لا بد قد طرا للعديد من الصحفيين العاديين ، والذين لم يكونوا اقل منه عداء للفجاجة الواضحة للنزعة الصوفية التقليدية . . طرأ له انه قد عاش طوال ما يقرب من نصف قرن دون ان يفرس في الحياة اي شكل او تصميم لهدف قائم على العقل . ربما كان من الممكن ان تلخص آراؤه في هذا الشأن باعتبارها فكرة غامضة تقول بان الكون تلفه وتغطيه ظلمة لا يمكن اختراقها ، تضعها قوى الحياة والموت ، والخوف من ان تفقد الحياة تكهتها كمغامرة جسور اذا ما امكن حل لغز الموت والعذاب ، واذا قام في مكان الشك وانعدام اليقين ، الثقة من مجيء « الطوبى » والنعيم في المستقبل . لقد جاء حلم غريب الحيوية فهز ايمانه بهذا التفسير المهتز الخائر للجهل الانساني . . لقد مضى هذا البحث عن الحقيقة عبر طرق تعج بالاخطار وتكتنفها ظلمة ، غير مبصرة ، ولكن ، في خلال عام واحد . . جاءت اجابة .

جاءت الاجابة وامضة كالبرق خلال حفل موسيقي في قاعة « الملكة » عزفت فيه سيمفونية بيتهوفن السابعة . جاءت في خلال تلك الحركة الظافرة السريعة ، حينما : « صدحت كل نجوم الصباح بالغناء معا ، وصاح كل ابناء الرب من الفرح » . لم يحاول شيء ان يقاطع استمرارية انسياب الموسيقى السريع ، حتى ظننت ان ما يدعوه مستر ت . س اليوت : « تداخل اجزاء اللحظة التي لا زمن لها » (بالزمن) لا بد قد انزلق داخل الفاصل القائم بين ما يشبه ان يكون نصفي لحظتين من لحظات النغم . وبعد زمن طويل ، حينما رحت احلل ما حدث في ضوء الاسترجاع التأملي البارد ، بدا لي انه وقع في ثلاثة اجزاء : الاول ، هو الحدث الغامض نفسه ، الذي وقع في جزء من الثانية لا يمكن قياسه ، ثم الفهم ، تيار من الاحاسيس المعقدة التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ، حيث امتزجت تجربة الاتحاد بالعاطفة الايقاعية التي تثيرها الموسيقى ، . . واخيرا ، الاستنارة ، جمع كل ما تحتويه التجربة من تعقد في سكينة هادئة ، كما لو كانت تكتسب صياغتها وشعاراتها من اشكال الفكر والكلمات . . »

ويصبح من المؤكد تقريبا ان هذه هي نفس التجربة التي يتحدث عنها وليام جيمس حينما نفكر في ملاحظة جيمس الاولية عن ان تجاربه كانت قصيرة قصرا بالغا : « في لحظة وجيزة كنت مشتركا في حوار ، ولكنني اشك في ان محدثي قد لاحظ تجريدي وغياب ذهني » . اما المرحلة الثانية من التجربة التي يتحدث عنها اللين ـ مرحلة التيار الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات المكون من الاحاسيس المعقدة والذي كان يتضخم بما تمده به روافد التجارب المرتبطة

بنفس التجربة ، فانهـا توضح ان اللين كان يتحدث ايضا عن ذلك الامتداد نحـو الخارج للتداعيات الذي وصفه جيمس . وباختصار ، فان متعـة الموسيقى ومـا ولدته من اثارة قد ضاعفت من طاقات عقل وارنر اللين،حتى وصل الى«الاستبصار» الى نظرة الطائر المحلق ، بشكل سريع وفجائي مثل شرارة تنطلق الى الفضاء .

وهذه هي نفس التجربة الصوفيـة التـي وصفهـا تشسترتون باعتبارها احساسا بـ « الاخبار الطيبة السخيفة » ، وهي نفسها الفرح الذي انفجر داخـل فاوست حينمـا سمع اجراس عيد الفصح،وهي نفسها الاحساس الفلاب المسيطر بالاستيصار الداخلي النفاذ ،الذي يصاحب الوصول الى ذروة النشوة الجنسية.

وتصف شارلوت برونتي نظرة خاطفة مشابهة في روايتهـــا « شيرلي » ، باعتبارهـا : « رؤيـة نشوى مفاجئة للحياة كمـا ترغبها . كلا ــ ليس كما ترغبها، فلم يكـن لديهـا مايكفي من الوقت لكـي ترغب : ان النور الساطع المجيد ينتشر ويتمدد ، بأسطـا وناشرا روعته باسرع ممـا يستطيع الفكر ان يجمع اصولـــه واجزاءه ، وبأسرع مما يستطيع الاول ان يلفظ باشواقه » . ان اللغة هنا لتشبـه لغـة جيمس حتى ليمكن للمرء ان يعتقـد انه كان يقتبسهـا في كتابته دون وعي.

ويصف « ر . هـ.وارد » في روايته : « مذكرات مدمن مخدرات » تجربته الخاصة في تناول حمض الميتان ، ولكنـه يصل في النهايـة الـى استنتاج ان تجربته لم تكـن تجربة صوفية ، ويجري مقارنة بينها وبين تجربة صوفية حقيقية لاحد اصدقائه ، يصف فيهـا الصديق كيف اجتاحه فجاة احساس بالانبعـــاث الداخلي الى الحياة ، بنهوض شيء ما داخل الانسان جديد وحي، وبالقدرة علـى الانفصال عن الم عارض تؤدي الى الانفصال عن الجسد كله . . انه يصف احساسا بالبهجة مرتبطـا بالاشياء والاعمال العادية ، وهو احساس يشترك في صفـات كثيرة مع الوصف الذي يقدمه الدوس هكسلي للاحساس بـ « الماهية الوجودية » المستقلة للاشياء تحت تأثير عقار المسكالين . ومع ذلك فان التجربة تتضمن بالتأكيد ادراكـا معينا لتلـك « الابعاد الاخرى للزمن » . فهـو يوضح على سبيل المثـال ان الموت لم يعـد شيئا مخيفـا او مثيرا للفزع ، وانما اصبح « الموت الجميـل . . العـزيـز » .

وتستدعي هذه التجربة تعليقات كثيرة . فرغم قوله انه قد « فصل نفسه » عن الالم ونوعه ، فمن الواضح ان سبب الالم قد اختفى . لقد كان شيئا سلبيا ، بعد ان تمكنت «قفزة العقل الصاعدة الى اعلى » من صرفه والقضاء عليه . ويعتبر هذا الاسلوب شائعـا بين المتصوفيـن ،وهو اسلوب التوصل الى مستوى اعلى العقل ــ التذكيـر العمدي للذات بانهـا مختلفـة اختلافا كليـا عن الجسد . فاننا نجـد عنـد المفكر الهندي المعاصر سرى راماتا ماهاراشي قوله بانه اجتـــاز « نشوته »

الاولى ، نتيجة للتفكير في موت جسده ، ثم ادرك فجأة ، كحقيقة واقعة ، انـه « هـو »ليس الا « نفسا لا تموت » ومتميزة كل التميز عن الجسد .

*

... ربمـا كان من الممكـن اذن ، ان نقول بوجود نوعين من الوعي : وعـي احادي ، ووعي مزدوج . ففي مواجهة خطر او حصار ، يكون الهدف الاساسي هو المحافظـة على الذات . ولا شك ان اكثر الناس « شخصيون » اكثـر من اللازم . انهم يتعلقـون كثيرا ويهتمون كثيرا بامراضهم ومتاعبهم وما يعانون منه . وحينما يحدث هذا ،تضيق الرؤية وينحصر مجالها . وهذا هو ما عنيته بتعبير : الوعـي الاحادي . فانني اذا جلست في حجرة مزدحمة بالاشياء ، يسيطر علـي الضجـر وتملأني الكآبة ، اكون منحصرا في واقع واحد ضيق ومحصور ــ الواقع الـذي يحيط بي . فاذا طرقت على النافذة قطرات المطر ، فان البهجة المفاجئـة التـي تغمرني ستكـون نابعة من التذكر المفاجيء لوجود واقع آخر : « هناك بالخارج ». وهذا هو الوعي المزدوج ، وهذا هو ما يحدث لفاوست حينما يسمع اجراس عيد الفصح : الاحساس المبهج بان: اجل ، يوجد شيء آخر . اننا موجودون عادة داخل شرك الفرفة المزدحمة التي تصنعهـا الذاتية . ولكن حينمـا يبدأ الوعي المزدوج، فانني استطيع ان اتنفس بعمق . اتحقق حينذاك من الحقيقة الهائلـة الاهميـة القائلـة بان نفسي ايضا يمكـن ان تختنق بنفس السهولة التي يمكن ان يختنـق بها الجسـد . انهـا قد تموت بسبب نقص نوع آخر من الاوكسجين . اما نجاتها من الاختناق فتشبـه في تأثيرها النشوة الجنسية بالصورة التي وصفها بهـا د. هـ. لورنس على سبيل المثال ..

وتبدو التجارب المختلفةالتي وصفت فيمـا سبق كما لو كانت نـوعا مـن « الوصول » ، كما لو كانت « قفزات مفاجئة لحمامة في طيرانها » لا يستطيعالبشر ان يفعلوا شيئاللسيطرة عليهـا . ان شيللي ، يوجه حديثه الـى « روح الجمال » ثـم يسـأل :

لماذا لا تنطلقين بعيدا وتتركين حالتنا ووضعنا ،

هذا الاناء المعتم الواسع من الدموع ، خاليا ومهجورا ؟

ولا شك ان هذه هي اكثر حالات الوجود الانساني جوهرية . فلماذا هـي كذلـك ؟ لماذا تتبخـر وتتلاشى انواع يقيننا ، وما نبلغه من نشوة ، وما نحققهمن كثافة ، بمثل هذه السهولة ، فتتركنـا باحساس كالصداع الذي تخلفه الخمـر بعـد اليقظـة ؟

يقول علم النفس القائم على تعاليم هوسرل ان المعالجة الصحيحة لدراسـة

المشكلة هو فحصها بطريقة تشبه طريقة العين العملية التي يبحث بها الميكانيكي عن السبب في تعطل السيارة .

وعند هذه النقطة ، لا بد لي من ان ابذل محاولة لعرض تحليلي الخاص لكلية الانسان وشموله ،وان احاول « لمّ » موضوعات وقضايا هذا الكتاب ومنحها نوعا من الوحدة .

تقوم فرضيتي الاساسية على القول بان هناك خطأ ما كامنا في البشر .انهم يعانون بشكل دائم شيئا يشبه « نزلة البرد العقلية » ، تشبه في تأثيرها على العقل ، تأثير نزلةالبرد العادية على جهاز التنفس ، حينما يحس المصاب بالاختناق . ولكنهم ، حينما يسقطون فريسة المرض او الاجهاد ، فان الاحساس بالاختناق يصبح ضاغطا وثقيلا حتى يتحول الى نوع من الفزع المؤلم ، ويمكن ان يكون هذا الاحساس هو بداية المرض العقلي القاسي .

ثم تكون هناك اللحظات العابرة التي يصفو فيها الراس ، مثلما يشعر المصاب بنزلة البرد كأنما انفجرت فقاعة خلف الانف فاصبح قادرا على التنفس، والسمع ، والرؤية بطزاجة منعشة جديدة . يستيقظ شيء ما في داخلنا وينهض ، وتغمره البهجة بالعالم الذي يجد نفسه في داخله . ويبدو الكون لا نهائيا في تعقده ومتعته واهميته .

وفي كل تلك اللحظات من الكثافة و« الجدة » يغمرنا الادراك باحساس « الترابط » الداخلي ، كما لو كان وعي الانسان قد اصبح قبضة مضمومة بقوة .

وهذا هو المفتاح الحيوي . اننا نعرف ان اجسادنا مصنوعة من سرب هائل من الالكترونات ، كسرب من النحل يطن باستمرار ، ولكنه يتماسك ويتحول الى كتلة واحدة بفعل قوى الجذب الداخلية . ولكن نفس القاعدة هي ما تنطبق على « الجسد الشبحي » ، او اي اسم آخر تختاره لكي تصف به « انا » الشاعرة ، المفكرة ، الحية . انه ايضا سرب هائل من الجزيئات ، مثل النحل . ولكنه يختلف عن الجسد المادي في جانب واحد هام . ان لجسدك المادي دائما نفس الحجم والشكل بصورة تقريبية . اما هذا الجسد « العقلي » فيستطيع ان يتمدد ويتحول الى سحابة منتشرة لا شكل لها ، او تظل تتحرك حتى تصبح كما لو كانت « كرة » متوهجة بارقة من الكثافة . وقد كان أ . ا هوكان ، هو من اذاع القول بان الشعر الحقيقي هو ما يجعل شعر الراس يقف وجلد الراس يقشعر . وهو ايضا ما يجعل « الجسد العقلي » يترابط . يبدو الجلد كما لو كان قد اصبح اكثر احكاما على الجسد . يصف سارتر هذا الاحساس في رواية « الغثيان » بقوله : « شعرت بجسدي يتصلب والغثيان يختفي ، وفجاة اصبح مما لا يحتمل

ان اصبح بهذه الدرجة من الصلابة والذكاء » . ويقول ايضا : « اشعر بجسدي يتحرك مستريحا مثل آلة في كمال حركتها وانضباط ايقاعها » . وتثير هذه الصور الاحساس بـ « الترابط »: اي الصلابة ، التي تعني ان الجلد كاد ان يتحول الى غلاف رقيق مصبوب من الصلب المجلفن .

ويحدث الشيء نفسه عند بلوغ ذروة النشوة الجنسية : احساس بالترابط الداخلي . انه الخطوة الاولى نحو ما يسميه شو : « الدرجة السابعة من التركيز » . وهذا هو ما خبره بروست حينما تذوق الكعكة المغموسة في الشاي ، فكف فجأة عن الشعور بانه : « عادي ، عارض ، فان » .

لم يكن هذا الاحساس وهما . كان قد عثر فجاة على قوة عادية من قوى النفس الانسانية : الملكة س. لسنا : « عاديين ، عارضين ، فانين » رغم اننا نشعر باننا كذلك غالب اعمارنا .

ولقد اشرت الى ان ثمة دليلا قويا على وجود الجسد الشبحي . ولكن ـ بالنظر الى هدفنا الحالي ـ فليس هناك فارق بين ما اذا كان يوجد حقا ، او ما اذا اعتبرناه مجرد شيء لا وجود له الا في الكلام . فلكي نتحقق من واقعية « الترابط الداخلي » ، لن يكون عليك الا ان تتحمل مشقة ملاحظة نفسك في اول مرة قادمة تشعر فيها بالبهجة المفاجئة الغامرة .

فاذا ما اعترفنا بذلك، امكننا ان ندفع التحليل الى مزيد من التقدم . سيكون من الممكن ان نرى ان درجة معينة من الترابط ، تنتج الاحساس بالشعر ومعناه ، روح الجمال عند شيللي ، وهي ايضا « تجربة القمة » . والمزيد من الترابط ينتج الاحساس بـ « الكينونة » ، بـ « ان اكون قادرا على الفعل » ، تلك التي يسميها بريستلي البعد الثالث للزمن . وهذه هي حالة الاستبصار ، حينما تبدو كل الملكات وكانما اصبحت اكثر سموا وحدة في سرعة العمل . انها تفسر السبب الذي يدفع الناس الى ان يكونوا سائقي سيارات سباق ، ومتسلقي جبال، او مستكشفين للصحراء مثل ت.أ. لورنس : ذلك انهم يريدون ان يواجهوا طارئا يرغمهم على « الترابط » في هذا المستوى الجديد للسيطرة والقدرة على التحكم .

وعند نقطة معينة من التركيز ، تبدأ سلسلة من ردود الافعال في التطور . وسيعرف القراء الذين درسوا الطبيعة الذرية ، ان هذا هو المبدا الذي تقوم عليه القنبلة الذرية . فاليورانيوم ٢٣٥ ، هو نظير مشع يتحلل بصورة دائمة ومستمرة بسبب نشاطه الاشعاعي العالي . وفي حالة وجوده في كتلة صغيرة ،يتم التحلل ببطء . ولكن اذا تم التحام بين كتلتين من هذا النظير المشع ، بحيث تكونان معا كتلة واحدة من حجم معين، فان عملية التحلل تتسارع فجاة بمعدل مروع ،

لان « قذائف » الطاقة ، توجه ضربات مباشرة تصيب نويات الذرات الاخرى ، مما يؤدي الى تحللها . وتوجه الذرات المتفجرة مزيدا من القذائف ، تصيب المزيد من نويات الذرات الاخرى . والنتيجة هي انفجار ذري . وفي القنبلة الذرية، يتم لحم مفاجيء بين كتلتين « حرجتين »من اليورانيوم ٢٣٥ ، فتكونان كتلة واحدة ، تنفجر على الفور .

وفي عملية التركيز يوجد مبدا مماثل ومطابق . فعند نقطة معينة ـ يبدو الوجود (او الكيان) العقلي للانسان ـ سرب النحل . كما لو كان يبلغ وضعا يشبه وضع « الكتلةالحرجة» فتتطور عندئذ سلسلة كاملة من ردود الافعال . ان شيئا من هذا النوع هو ما يبدو انه حدث مع روبرت جريفز ، بينما كان يجلس امام زحافة الحديقة .

وتبرز ظاهرة على قدر كبير من الاهمية عند هذه النقطة . ان حالات السعادة المفاجئة الغامرة ، غالبا ما تتحلل كما لو كانت تحت ضغطها هي الداخلي . وبنفس الطريقة ،فاذا ما تم التقريب بين كتلتي يورانيوم ٢٣٥ صغيرتين لكي تكونا معا « كتلة حرجة » فلن تكون النتيجة انفجارا هائلا ، لان رد الفعل الناشيءمن عملية « مجرد » التقريب،سيفصلهما ثانية ويبعدهما الواحدة عن الاخرى ، فيتبعثر اليورانيوم قبل ان ينفجر . ولكن في بناء القنبلة الذرية ، لا بد من الامساك بهما ، والتقريب بينهما بالقوة . وهذا هو ما يفسر السبب في القصر الشديد المعتاد للتجربة الصوفية ـ مثل تجربة وارنر اللين في قاعة الملكة : « بين نغمتين من سيفمونية » . انها تجربة تؤدي الى تحللها هي نفسها . ولكن ، ما السبب في هذا ، اذا كان الصوفي « يريد » بمثل هذه الشدة ان يطيل امدها ؟

ان للاجابةاهمية اساسية ، لان « العضلات » التي تستطيع ان تمسك بهذه التجربة فتثبتها ، عضلات رخوة وغير متطورة . اننا لا نستخدم تلك العضلات الا بشكل تلقائي ، غير عمدي ، حينما تستثار فجأة من خلال (او بسبب) الجمال او الاحساس بقيام ازمة معينة . وهذا الوضع ـ في حد ذاته مناف للطبيعة وللعقل . كما لو ان احدا لا يستخدم عضلات ساقه الا حينما ينقر احدهم على ركبته فتتحرك في شكل رد فعل سلبي مؤقت .

اننا نمتلك العضلات اللازمة للضغط على الوعي وتوليد حالات الكثافة العميقة ، ولكننا لا نستخدمها الا بشكل نادر للغاية ، لدرجة اننا لا نكاد نشعر بوجودها .

ومن الممكن هنا ان نطور المثال الذي ضربته بالقنبلة الذرية . ان هذه القنبلة، يمكن ان تستخدم كجهاز تفجير للقنبلة الهيدروجينية ، فان تفجير الهيدروجين ـ التفجير الذي يولد حرارة الشمس ـ يتطلب درجات من الحرارة والضغط تماثل

تلك الدرجات الموجودة في قلب الشمس . ومن الممكن ان تولد درجات الحرارة والضغط المطلوبة بشكل سريع ومؤقت ، اذا امكننا أن نفجر قنبلة ذرية في وسط كتلة من الهيدروجين الثقيل المضغوط ، الذي سيتحول في تلك اللحظة ـ او تتحول ذراته ـ الى ذرات غاز الهليوم الاكثر تعقدا ، منتجة انفجارا تبلغ قوته الف ضعف قوة انفجار القنبلة الذرية . ان الوعي الانساني ، قادر ـ من الناحية النظرية ـ على توليد هذا النوع من الطاقة . ان الانسان ـ حرفيا ـ اله : انه اله يعاني من الكسل ، وفقدان الذاكرة ، والكوابيس .

ويطلق الكاثوليك على هذا « الخطأ » الكامن في الوعي الانساني ، اسم « الخطيئة الاصلية » . ويسميه هايدجر : « نسيان الوجود » . ولكن من المهم ان نفهم انه ليس خطأ اساسيا ، او فطريا . انما نحن نعاني من « نزلة البرد الروحية » تلك ، وليبد ذلك غريبا بقدر ما تشاؤون ، لاننا نريد ان نعاني منها . ان الانسان الذي يريد ان يفكر ، يحبس نفسه في حجرة هادئة ، وربما يغلق كل النوافذ . ولهذا السلوك مميزاته ، وله اضراره ايضا . فهو يسمح له بالتركيز ولكنه يمنع عنه الهواء النقي ويحرمه من اصوات الطيور . فاذا شاء ان يخرج للهواء الطلق ، فلن يكون باستطاعته ـ ببساطة ـ ان يفتح كل تلك النوافذ مرة اخرى . فالانفتاح ، او الاسترخاء ، يستغرق وقتا طويلا .

وهذا هو السبب في ان معظم البشر ينفقون اكثر حياتهم في حالة متعبة ، خالية من الراحة ، من « التوتر الفائق العام » ، دون ان يعرفوا ما ينبغي ان يعملوه .

ربما يفكرون في سبيلين عاديين : الاستسلام ، او البحث عن مهرب . ولكن هناك سبيل ثالث ، هو بذل المجهود اللازم للتركيز ، للوصول الى حالة التقلص الداخلي ، حيث « يترابط » الكيان الداخلي ، وستكون النتيجة احساسا جديدا بالقوة ، والتحكم ، والحرية . ان القسيس السكير ، عاشق الويسكي ، عند جراهام جرين ، عند لحظة اعدامه رميا بالرصاص ، يتبين انه : « لقد كان من السهل جدا ان اكون قديسا . » لماذا ؟ لان التهديد بالموت ـ الابادة ـ المباشر الفوري يؤدي الى التقلص الداخلي ، وهو مجهود تبذله الارادة اعظم بكثير من كل مابذلته هذه الارادة طوال سنوات ، وربما ، طوال حياة صاحبها . وهو يتبين ، مصدوما ، انه لو كان قد بذل نفس هذا المجهود للارادة من قبل ، لما كان قد احتاج الى ان يضيع حياته هدرا .

يمتلك الانسان القدرة على تحقيق التماسك لجسده الشبحي ، عن طريق الارادة . ولكنه لا يعي امتلاكه لهذه القدرة . والبرهان على جهله هو استعداده الضجر . والضجر هو تمدد « الجسد الشبحي » ، حيث يتحول سرب النحل الى

سحابة مشتتة مبعثرة لا شكل لها . في هذه الحالة ، نعاني من نوع من « فقـدان الذاكرة »،ويختفي الاحساس بالمعنى. « تفشل » الحياة ، وتسقط الطاقات الداخلية في وهدة منخفضة . ستكـون المرحلة التاليـة للتطور الانساني ، هي التطويـر العمدي لهذه « العضلة » الخاصة بالارداة، والتطوير المماثل للاحساس بالمعنى .

ومن الممكـن اذن ان نرى، انه طبقـا لهذه الخطـة التي سيتبعها التطور ،ان المراتب الثلاثة للزمن ،التي وضعهـا بريستلي ، تصبح غير ضرورية . فالزمن الاول هو الطريقة التي اعيش بهـا الزمن حينمـا اكون سلبيا وغير مركز . والزمن الثاني هو الطريقـة التي اعيشه بهـا حينمـا يصبح عقلي متحكمـا في ذاته ، وهو مـا يحدث حينمـا يتركز العقل على«معنى» بعينه . والزمن الثالث هـو الطريقة التي أعيش بها الزمن حينما تبدأ سلسلة ردود الافعـال الخلاقـة ، حينمـا امارس احساسا بالتحكم الكلي في عملياتي العقلية وبالادراك غير المتردد ولا المهتز للمعنى.

هنـاك بعض النقاط الهامة التي تجب ملاحظتها بشأن هذه المعايشات الثلاثة للزمـن . ان اكثر الثلاثة اجهادا هو الزمن الاول ، وهو « الحياة السلبية فـي الحاضر » . انني اذا شعرت بالاجهاد ، فان افضل السبل للتخلص منه هو العثور على شيء يهمني بشكل عميق ،والتركيز عليه . فاذا شعرت بالاجهاد « و » الضجر، فستكون النتيجـة العجيبة ،هي ان استمر في الهبوط الى مستوى اقل انخفاضا، مثل سيارة تركت انوارهـا مضاءة لكي تستهلك « غسيل المخ » للجواسيس. فيترك وهذا المبدأ هـو ما استخدم في عمليات « غسيل المخ » للجواسيس . فيتـرك الجاسوس في حجرة يشملها الظلام الحالك والسكون ، وحالمـا يتملـكه الضجر ، تسترخي ارادته ، ويتلاشـى احساسه بالمعنـى ، ويتصاعـد احساس بالبؤس والفزع ، وتبدأ قواه الحيوية في التحلل . ويتصاعد احساسه بانه : « عادي ، وعارض ، وفـان » . وفي هذه الحالة يكون فريسة سهلة للمحقق .

وفي الجانب المقابل ، اذا كنت ضجرا ومجهدا ، ثم يحدث شيء ما يثيـر اعمق اهتماماتي ، فانني اتجاهل الاجهاد . اركز ، وتبدأ « بطارياتي » الحيويـة تشحن نفسها من جديد الى اقصى حد ممكن .

ان تجربة الزمن الثالث هي اكثر هذه التجارب اهميـة لانها تتضمن اكثـر درجات السيطرة والتحكم شمولا . انني اذا كنت غارقـا بعمق في تأمل شـيء آخـر ـ مثل توينبي عند ميسترا او بريستلي خارج محل السمك ـ فانني اكون ما ازال سلبيـا بشكل اساسي، وقد تحول عقلي الى الخارج : هذا هو الزمـن الثاني . ولكن في لحظات التأمل والنشاط العقلي الكثيف ، فانني اكون مدركـا لارتباطي بسلسلة متتالية من ردود الافعال . وبما يعني أنني كلمـا ازددت تركيزا،

كلما ازداد تحديدي للمعنى ، وكلما ازداد تحديدي للمعنى ، كلما زادت كثافة تركيزي .

ان التركيز الجسدي ، من اجل النجاح في تحقيق قدر معين هائل من السيطرة على الجسد في وضع وحركة معينين ، والتركيز العقلي من اجل تحقيق اعمق فهم ممكن لعمل فني عظيم مثلا ، هما ما يؤديان الى تحقيق هذا الاحساس بالحرية ، بالوجود خارج اطار الزمن ، دون اي اعتبار لمحاولة تجزئة « معنى » الزمن ذاته .

وهذا هو ما ينبغي ان يوضح السبب في ميلي الى رفض فكرة الزمن ذي الابعاد الثلاثة . الا يقع بريستلي في نفس الخطأ الذي يقع فيه « دان » في التعامل مع الزمن كما لو كان « كينونة » او وجودا ثابتا حقيقيا ، مثل البحر ، بينما هو في الحقيقة « عملية » تتحرك ، مثل موجة في البحر ؟ وباعتبار الزمن عملية تتحرك، فانه وظيفة لما وافقت على تسميته باسم « الجسد الشبحي » مؤقتا ، لكي اميز « انا » الحي،الواعي، من القوقعة المادية التي سوف تموت في الوقت المناسب .

ان ما يحدث في الحالتين (حالة التركيز الجسدي ، ثم حالة التركيز العقلي) لا بد من ان يكون واضحا كل الوضوح . فبدلا من ان تترك التجربة الجمالية لكي تؤثر في حواس سلبية ، يبذل الانسان مجهودا من اجل زيادة سرعة العملية عن طريق التركيز . وقد يبدو هذا هو الاتجاه الخطأ : لانه ، أليس من المؤكد ان الموسيقى ، مثل الشعر، تتطلب موقفا اكثر انفتاحا ، مثل « القدرة السلبية » التي تحدث عنها كيتس ؟ ولكن أصحاب المنهج الظاهراتي (الفينومينولوجيين) يعرفون ان هذا محض خطأ . فان كل عمليات الادراك هي اعمال « عمدية » حتى ولو لم نكن شاعرين بوعي بحدوثها . انك اذا استرخيت استرخاء شديدا ، فانك ستبدأ في الاحساس بالضجر والكآبة . ولكنك تضغط على عضلة التركيز لكي تبذل مجهودا شاملا ونهائيا ، وتكون النتيجة ومضة خاطفة من ذلك النوع من السيطرة والتحكم في الجسد الذي « سوف » يكون ممكنا في المرحلة القادمة من تطور الانسان . ولا شك انه من الممكن ان يتحقق هذا التحكم ، ويتم التوصل الى نتيجته دون اعداد سابق . انك قد تنظر دون وعي ، ودون ارادة واضحة الى منظر ما ، فلا يستثير المنظر لديك استجابة من اي نوع ، ويظل عقلك خاليا من اي معنى متعلق بالمنظر نفسه. ولكنك تستطيع ان « تستولد » المعنى ، بعد ان تبذل مجهودا خاصا كبيرا ، يولد صدمة ستجابة مفاجئة ، احساسا بالمعنى الذي تم توليده ، كما لو كان المنظر قد باح بشيء معين وتكلم فجأة بعد ان كان

صامتا لا يبين. وقد يظل هذا الاحساس قائما بعد ان تنتهي اللحظة، ويحل الاسترخاء.

ويساعدني هذا على ان اقرر هنا بوضوح كامل، ما اعتقده بشأن التطور البشري. أن عددا معينا من وظائفنا يعمل بشكل اوتوماتيكي، كالتنفس والهضم والاستجابة للازمات، وهذا يعني انني قد اغوص في حالة من الفقدان الكامل للارادة، ولكن هذه الوظائف تستمر في اداء عملها، دون ان تتأثر بحالتي. و« قد كان ينبغي » للوظائف الاخرى ان تكون اوتوماتيكية، ولكنها ليست كذلك حتى الان. فالفتاة على سبيل المثال، غالبا ما تدهش بشدة ازاء قوة وحدة حبها لطفلها الاول، فان شخصيتها العادية اليومية قد لا تستطيع ان تمدها باي سبب يدفعها الى توقع ان استجابتها الامومة ستكون بكل هذه القوة. وهذا مثال لما نعنيه بأن يتحول المعنى فيصبح اوتوماتيكيا، حينما تنتبه اليه غرائزنا فتتولى رعايته. ونحن لسوء الحظ لا نملك نفس الاستجابة الفطرية ازاء صباح ايام الربيع وازاء آلاف الظواهر الطبيعية الاخرى التي نستجيب اليها « احيانا » بابتهاج واحساس بالمتعة. ان الرجل الذي يخرج لتوه من سجن طويل قد يعيش « تجربة قمة » مثل تجربة توينبي، اذا نظر الى مشهد غروب الشمس، اما اكثرية سكان المدن فلا ينظرون الى هذا المشهد الا باعتباره شيئا عاديا، وقد ينظرون اليه بشكل اسود، فيقولون: « اجل، انه جميل »، دون ان « يشعروا » ازاءه بشيء محدد.

اننا نحمل عادة نظرية في داخلنا تجعلنا ميالين الى السلبية التي هي اكثر خطرا من تدخين السجائر او تعاطي المخدرات. لماذا: « اكثر خطرا »؟ لانها تنتج حالة الضجر والاختناق الداخلية التي تجعلنا نشتاق الى حدوث ازمة، الى التوتر والقلق، وهي التي تفسر على سبيل المثال التزايد الثابت في معدل الجريمة، والجرائم المتزايدة العنف والتي تحدث دون دافع معين، انه اذا حدث ان تراكمت السموم في دمائي، فان لجسدي وسيلة اوتومانيكية للتخلص منها: تنمو بعض « الدمامل »، ثم تنفجر بعد أن تتراكم فيها السموم التي تسيل خارج الجسم. ولكنني اذا سمحت لنفسي بان اغرق في حالة من الاختناق الداخلي، فانني لا املك اي نظام دفاعي اوتوماتيكي ضد هذه الحالة، ولا بد لي من البحث للتوصل الى نوع من التحدي او الاستثارة لاستعادة التوازن الحيوي. ان المجرم الجنسي الذي يخرج للبحث عن فتاة يغتصبها، انما يبحث عن علاج لمرضه، مثل كلب مريض يمضغ الحشائش التي يعرف انها تحتوي على العلاج. ان الانسان، عند هذه النقطة من تطوره، بعد ان ازدحمت الارض، يحتاج الى أن ينمي نظاما اوتوماتيكيا للتعامل مع تلك السموم التي تظهر نتيجة للاختناق، ومن التفاهة اللانهائية التي تتميز بها الحياة المتحضرة. عليه ان ينمي « العضلة

العقلية » التي تحدثت عنهـا :« الملكة س » . وهذه عمليـة اقل صعوبة مما تبدو، ومن الممكـن ان يتحول اي شيء الى عادة اذا : « اردنا نحـن حقـا ان نحوله ». علينـا اولا ان نعترف بضرورة ذلـك .

فما هي العلاقة بين « الملكة س » وبين ملكات الانسان الاخرى ـ مثل القدرة على «الوساطة»، او التواصل مع مظاهر الوجود وقواه غيـر الماديـة ، على سبيل المثـال ؟ ..

.. ولكن لا بد ان اكرر هنـا انه من الخطأ ان نستخدم المصطلح :« القدرات الغيبية » كما لو كانت هذه القدرات مختلفة « نوعيا » عن ملكاتنا الاخرى العادية. انهـا ببساطة ، ليست سوى جزء آخر من الطيف الضوئي الواحد ، انهـا قـوى « غيبية » فقط بمعنى ان الكائنات البشرية قد كادت ان تنساها في غمار عمليـة تطور القدرات العقلية . ولكن المرحلة التاليـة من عمليـة الارتقاء ، مرحلة التطـور الى مدى اكثر بعد لهذه القدرات العقليـة ، ستتضمن عملية « اعـادة تنميـة » وتطويـر تلـك الملكـات .

ولقد تأكدت هذه النقطة تاكيدا يثير الاهتمام من خلال الابحاث حول « الغدة الصنوبرية » ،وهي الغدة الغامضة ، او العضو غير المفهوم في الدماغ ، الذي يقول عنه الهندوس انه مكمن « القدرات الغيبية » (بل ان ديكارت ، العقلانـي الكامل ، يقول عن هذه الغدة ،انهـا المكـان الذي يتم فيه الامتـزاج بيـن نفس الانسان وجسده) . ولقـد زعم ان الغدة الصنوبرية هي عين مهملة ، « عين ثالثة » رغـم ان احدا لا يستطيع ان يحدد تمامـا وظيفة او نفع عين مدفونة في وسط الدماغ . وفي القرن العشرين ،بدأ العلمـاء يكتشفـون علاقة غريبة وغير منتظمـة بين«الغدة الصنوبرية » وبيـن الطاقـة والنزوع الجنسيين . فقـد اكتشـف الطبيب الالماني، اوتوهيوبنر ، ان صبيـا صغيرا ، كانت له اعضاء تناسلية كبيرة الحجم الى درجة غير عادية ، كانت «الغدةالصنوبرية » لديه متورمة . واكتشفت الطبيبة الامريكية، فيرجينيا فيسكه ، ان الفئران اذا تعرضت للضوء باستمرار ، فان غددهـــا الصنوبرية تتضاعف في احجامها ،بينمـا تتضاءل اعضاؤها التناسلية . وقد تـم الاتفاق اخيرا ، على ان هذا العضـو هو « غدة » ،وليس عينا مهملة ، وانها تنتج نوعا من الهورمونات، اطلق عليه اسم « مليوتونين » ثم توصلت الابحاث الاكثـر تطورا الى ان هورمون الميلوتونين ، يتم انتاجه من خلال تفاعل بعض الانزيمـات مع مركب كيمائي اسمه « سيروتونين »

وهنـا يبدأ الغموض الحقيقي ـ وهو غموض السر الذي لم يتم توضيحـه جزئيا الا في وقت كتابة هذه السطور . فان هذا المركب الكيمائي (السيروتونين) يبدو عاملا قوي التأثير في عمليـة ارتقاء الانواع . فالحيوانـات الثديية الرئيسية

(الرئيسيات) ،وهي البشر والقردة العليا ، تملك نسبة من السيروتونين اكثر بكثير مما يملكه اي نوع اخر . ويبدو ان هذا المركب يتم تصنيعه في الغدة الصنوبرية ، وان احدى وظائفه هو كبح النمو الجنسي وزيادة الذكاء . وهذا هو ما يبدو انه يفسر السبب الذي يجعل اكثر الاذكياء من البشر اقل نموا من الناحية الجنسية واقل سرعة في نموهم الجنسي ، بينما يفسر السبب في ان اكثر من يسرعون في نموهم الجنسي ،لا يظهرون قدرا كبيرا من الذكاء ، اذا اظهروا اي ذكاء اصلا .

ومن الاضواء الجانبية التي تخلب اللب حول هذا الاكتشاف ، ان شجرة « البوا » ، الشجرة التي يقال ان بوذا قد وصل وهو جالس تحتها الى الاستنارة الكاملة ، تثمر نوعا من التين (يسمى Ficus religiosus ـ اي التين الديني ـ تكريما لجوتاما ـ البوذا) يحتوي على كمية كبيرة بشكل غير عادي من مركب السيروتونين ، الامر الذي يؤدي الى فكرة هامة ، تقول بأن غذاء بوذا كان هو الغذاء الامثل الذي يمكن عن طريقه التوصل الى الاستنارة العقلية بشأن الوضع الانساني .

وفي عام ١٩٤٨ ، اكتشفت خصائص عقار « ل.س.د ـ ٢٥ » التي تؤدي الى « تغيير العقل » وتم الاكتشاف بالصدفة ، حينما بدات اعراض الهلوسة تظهر على كيميائي سويسري يدعى هوفمان ، وكان يقوم ببعض التجارب على فطر « الارجوت » ، وهو فطر ينمو في النباتات الجافة ، كالقمح والذرة ، ويصيب حبوبها ، وقد اكتشف ان هذه الاعراض كانت ناشئة بتاثير مادة يحتويها فطر الارجوت ، اطلق عليها فيما بعد اسم « ل.س. د ـ ٢٥ » ، وعرف فيما بعد ان خصائصها تشبه الى حد كبير خصائص المسكالين ، وهو مركب كيمائي يستخلص من نبات البتولا المكسيكي . ويستطيع كل من المسكالين و« ل.س.د »ان يولدا نوعا واسعا ومكثفا من الوعي ، واحساسا بالتطابق والتوحد الكامل مع الكون ، واشكالا جميلة من الالوان والاضواء ، وحيوية جديدة في الادراك . ومن الواضح انهما يؤديان الى ذلك ، عن طريق « سد الطريق » على ملكة الانسان العقلية . ولقد قلت من قبل ، اننا نغلق ابوابنا ونوافذنا العقلية من اجل ان نفكر بوضوح تفكيرا صافيا . ولكن هذه المركبات الكيمائية تفتح تلك النوافذ ، ثم تتركها مفتوحة على مصاريعها مدة طويلة . ولم يعرف حتى الان بالتحديد الطريقة التي تحقق بها هذه المركبات تلك النتيجة . ولكن ، يبدو انه من المؤكد الآن الى حد بعيد ، ان جزيء عقار « ل.س.د » يحققها عن طريق تدمير جزيئات مركب السيروتونين .

وقد توصل فريق من العلماء في مستشفى فيرفيلد هيلز في مدينة نيوتاون

بولايــة كونيكتكت الامريكية ، الى اكتشاف هام ، هو ان المصابين بالشيزوفرانيــا (انفصام الشخصية) لا تحمل ادمغتهم الا كميــات ضئيلة بشكل غير عادي مـــن السيروتونين ، ولبرهة وجيزة ، كان المأمول ان يكون الطب قد اكتشف في النهاية علاجا مؤكدا للشيزوفرانيا ــ وهو السيروتونين . ولكن احدا لم يكتشف حتى الان الطريقــة التي يمكن بها نقله الى المكان المطلوب : الغدة الصنوبرية . بل انني اريد ايضــا ان اقول ان فكرة ان الشيزوفرانيا راجعــة الى نقص كمية السيروتونين قد تكــون من قبيل وضع العربة امام الحصان . فالشيزوفرانيا حالة من هبوط الحيوية ، حيث تسيطر « الآلة » او «الروبوط» اللاواعي في داخلنا على الوظائف الحيوية ، بمــا يعني ان «انــا» الذي يتحرك في حالة تشبه الحلم ، يكون مفتربــا تمامــا عن الوجود . وقد يكــون من الصحيح ان يقال ان نقص السيروتونين هــو نتيجــة لهذا الهبوط في الحيويــة وتجمد الارادة واختناقها .

ولقد وصفت في مكان آخر (*) تجربتي الخاصة مع عقار المسكالين . انه يزيد من صعوبة التفكير العقلي ، وبدا لي انه يغمرني بموجات من الوجد العاطفـــــي والاستبصار الحدسي . (فعلى سبيل المثال ، تملكني حدس قوي بأن المنطقة التي اعيش فيهــا ــ وهي كورنووا ــ كانت لها علاقة وثيقة بالسحر الاسود ولكنني لــم اتمكــن من التثبت من هذا الحدس حتى الآن) . ومن المؤكــد انه كان ثمة احساس قوي بالخير الكوني الذي هو جوهر العالم ، ولكن هذا ــ في حدود ما كنت اهتم به ــ لم يعوض الاحساس بخسارة القدرة على تركيز عقلــي ، والاحساس بــــان « عضلات » التركيز قد اصيبت بالشلل . فقد كــان واضحــا لي ان المسكالين قد انتج آثاره عن طريق ايقاف عمليــات « التصفية » الطبيعية التي يقوم بها الدماغ ، تاركــا الحواس لكي تغرق تحت طوفــان ثراء العالم المحسوس وبذلك ، فانه يجمد حركة وفعاليــة « الملكة س » . أن « الاستنارات » التــي يحققهــا المسكاليـــن كانت هي النقيض المقابل للكثافــة العقليــة التي تتطور وتنمو في داخلــي احيانــا حينمــا اكــون منكبا على العمل . ولقد كانت تجربة المسكالين في الحقيقــة هــي النقيض المقابل للكثافــة . كانت عمليــة تخفيض للضغط العقلي ، او عملية تشتيت لحزمة اشعــة التركيز . واعتقــد انني حينمــا اكــون في حالة استبصار عميق وكثيف فان هذه « الحزمة من اشعــة التركيز » تزداد كثافــة وتماسكا حتـــى تصل الى كثافــة السيال من اشعة الليزر ، وهناك علاقــة فعل ورد فعل متبادل بين التركيز وبيــن ادراك المعنى ــ ولكــن المسكالين يدمر كل امكانيــــة لقيــام او لاستمرار هذه العلاقة ، فهو يقوم ــ ببساطة ــ بفتح الحــواس ، ويسمح لكـــل شيء بالدخــول .

(*) ما بعــد اللامنتمي ، الملحق الاول .

يوحي كل ذلك ـ اذن ـ بان السيروتونين ، هو مركب كيمائـــي ، مرتبط بالتركيز وبالملكة « س » . وهو مـا يفسر بدقة السبب الذي يجعـــل « القدرات الغيبية » من نوع الوساطة والتواصل عن بعد والقـدرة علـى التنبؤ بالمستقبل ، هي بشكل مـا النقيض المباشر للملكـة س . انها ـ بالتأكيـد ـ مرتبطة بحالـة « الاستعداد للتلقي السلبي » التي يخلقهـا عقار المسكالين او عقار « ل . س. د »، اما الملكة « س » فهي مرتبطـة بحالـة التركيز التي تعتمد على السيروتونين .

... فاذا كـان انتاج السيروتونين يعتمـد على كميـة التركيـز التـي نحققهـا في العادة ، فانه من الممكـن ان تزداد هذه الكميـة بزيادة التعود علـى التركيز . (وعلى النقيض من ذلك ، ان الخطر الرئيسي الكامن في العقاقيرالمؤثرة على الجهاز العصبي وعلى الحالة النفسيـة ، والكامـن ايضا ـ ربمـا ـ في الماريجوانا ـ هو ان التعود علىاستخدامها قد يؤدي الى هبوط حاد في انتـاج السيروتونين في الدماغ) . ويبدو لي ان الخطوة التاليـة في عمليـة التطـور الانساني ، انمـا تعتمـد ببساطـة على اكتساب عادات التركيز والكثافـة العقلية لكي يتم احلالها محل اعتيادنا المألوف للسلبية والكسل . يستطيع الظبى ان يجري بسرعة الريح ، وتشم سمكـة السالمون رائحة النهـر الذي فيـه موطنهـا علـى بعـد آلاف الاميال ، وتنتج سمكـة الرعاش (الكهربائية) شحنـة كهربائية بقوة ستمائـة فولت ، ويسبح الدلفين بسرعـة تفوق سرعـة القطار السريع ، ويطيـر « ابو الحناء » مهتديا بالذبذبات التي يلتقطها من سديم المجرة (الطريق اللبني).. في كل حالة من هذه الحالات ،تم تطوير « ملكة معينة » ـ نملكها جميعا ـ لكي تصل الى مستوى اكثر سموا بواسطة الجهد المبذول . ان الملكـة التي تميـز كـل « الرئيسات » بين الحيوانات الثديية ، وتميز الانسان بشكل عام ، من جميـع المخلوقات الاخرى ، هي القدرةعلى « تركيز المعنى » اي على التعلم . وان اكثر مـا يميـز الانسان قوة، لهي تلـك القدرة على ان يسيطر على تلـك المجموعة المتنوعـة من المهارات ، ثم السيطرة عليهـا الى هذه الدرجة العاليـة بشكل لا يصدق ان لاعب « الاكروبات »يستطيع ان يلعب بعدة كرات صغيرة في لحظـة واحدة وهو منتصب متوازن على سلـك مشدود فوق هوة مرتفعة ، وكـان باستطاعة هوديني ان يخرج مـن خزانة حديدية اغلقت عليه باحكـام وهو مقيد بقيد حديدي ثـم القيت به في النهـر فخرج منهـا سالمـا كأنه كان يسبح في بحيرة منزليـة ، واستطاع ويليـام روان هاميلتون ان يتقـن اللغات اللاتينية والاغريقيـة القديمـة والعبرية في الخامسة من عمره ، ويستطيع زيراه كولبورن ان يقوم بعمليات ضرب ارقام هائلة ،في عقله ،وفي غضـون ثوان قليلة ، وما زال باستطاعة الرياضيين ان يسجلوا ارقامـا قياسيـة في السرعـة والقدرة على الارتفاع ورفع الاثقال : ضد الزمـن والمسافة والثقل ،ومنذ قرن واحد مضى كانت قمة جبل « ماترهورن »

تعتبر مستحيلة على التسلق ، ولكن متسلقي الجبال يعتبرونها الان شيئا يمكن التجول فوقه على سبيل التنزه في ايام الاحد، لا يبدو ان ثمة شيئا يستحيل على الانسان القيام به : اذا ركز ذهنه عليه . فطالما كانت لديه فكرة عما يريد ان يفعله ، فانه يبدو غير قابل لان ينهزم . ولم تكن مشكلته ابدا هي قوة الارادة ، وانما الخيال : ان يعرف ما ينبغي ان يحول ارادته « نحوه » وهذا هو ما يشكل اعظم سبب للتفاؤل عند هذه النقطة من التاريخ ـ دون استثناء نوسترادادموس وادجار كايس . ان التطور يتقدم في قفزات كالطفرات ، وقد بلغ الانسان الان النقطة الهامة حيث اصبح مهيأ لان يفهمه « بشكل واع » وان يتحرك الى الامام بفهم كامل لما يفعله او يقوم به وكانت مشكلتنا في الماضي هي الاتصال المحدود بين الذكاء والغريزة ، الامر الذي كان يعني ان الاذكياء من الناس كانوا يفتقرون الى القوة والى الحيوية ، بينما افتقر الغريزيون من الناس الى الرؤية والى الهدف البعيد المدى . ولكن من الممكن ان يتم التوحيد بين الذكاء وبين الغريزة عن طريق تنمية وتطوير الملكة « س » ولن يستطيع شيء ان يمنع الانسان من التقدم ، حالما يدرك هذا .

انني اصل الآن الى اكثر نقاط هذا الكتاب اهمية : محاولة وضع نظرية عامة . فلنتناس الان الدليل على التواصل الروحي عن بعد ، والتنبؤ ، والتناسخ ، والحياة بعد الموت ، ولنتمسك بالمنطق والحقائق التي كشفها العلم .

وتؤكد النظرية الحيوية في التطور ، التي ناقشتها في هذا الكتاب ، ان الروح والمادة متعاديتان . هناك حرب قائمة ، ونحن منها في خط الجبهة .

من الواضح ان كوننا يتمدد. وقد احصى الفلكيون ، انه اذا كان يتمدده باستمرار بنفس المعدل الحالي، اذن فلا بد انه بدأ منذ نحو عشرة بلايين سنة ـ عشرة آلاف مليون من السنين . وتبلغ شمسنا من العمر ، نحو ستة بلايين سنة (ومن المتوقع ان تعيش لمدة ستة بلايين اخرى) . اما هذه الارض التي تسكنها فمن المحتمل ان تكون قد بلغت من العمر نحو ثلاثة بلايين من السنين . وطوال البليون الاول من وجودها ، ظلت « فرنا » مستعرا باللهب ، تطوف في الفضاء سابحة حول الشمس لتبرد بالتدريج . وعند لحظة ما تمكنت قوة الحياة من ان تصطنع لنفسها موطىء قدم في مملكة الذرات . وقد وصف « ت . أ هيولم » احد تلامذة برجسون، الحياة باعتبارها : « الغرس التدريجي للمزيد والمزيد من الحرية في قلب المادة ، » ثم يستمر قائلا : « يمكنك اذن القول بان النبض في الاميبا قد صنع شقا او خرقا صغيرا ، اصبح من الممكن ان يدفع النشاط الحر من خلاله لكي يغرس في العالم، وكانت عملية التطور هي التوسيع التدريجي لهذا الشق . »

وقد بدأت الحياة بامتزاج الذرات في الجزيئات المعروفة باسم الاحماض الامينية ، ثم استخدمت تلك الجزيئات لخلق الخلايا الحية . وستحاول المدرسة الداروينية الحديثة في علم الحياة (البيولوجي) ان تدفعنا الى الاعتقاد بأن هذا : « التركيب المتصاعد »كان صدفة عارضة ــ الامر الذي يشبه مطالبتنا بالاعتقاد بأن كومة من اجزاء السيارات الصدئة في « مزبلة » المخلفات قد تندفع متجمعة لكي تتخلق منها سيارة « رولز رويس » جديدة .

وطوال بليون عام اخرى او نحوها ، راحت تلك الخلايا الحية تسبح طافية في البحار الدافئة ، لا تتوالد ولا تموت . لم يحدث اي تغير . ولم يبدأ التطور الحقيقي الا منذ نصف بليون من الاعوام فقط ، فبشكل ما ، تمكنت الحياة من ان تنتصر على مشكلتها الاساسية الاولى : النسيان . فالتطور لا يمكن ان يتقدم دون تراكم المعرفة ، والاميبا المنفردة الوحيدة لا تستطيع ان تجمع الكثير من المعرفة . ولم تصبح جوانب وانواع التقدم الجديدة ممكنة حتى ابتكرت الحياة حيلة تخزين رموز المعارف المكتسبة وتحويلها الى الاجيال الجديدة في ثنايا عملية الانتاج الجديد . فقد كانت مخلوقات الحقبة المعروفة باسم : « ما قبل العصر الكامبري « Pre - Cambrian » تسقط الخلايا القديمة وتنمي خلايا جديدة بنفس الطريقة التي يغير جسدي بها كل خلاياه القديمة كل ثماني سنوات . وبابتكار الموت واعادة انتاج الحياة ، استطاعت هذه المخلوقات ان تسقط اجسادا قديمة وان تنمي اجسادا جديدة . وهكذا حل التنوع محل التكرار لكي يصبح القانون الاساسي للوجود .

لقد ابتكرت الحياة الموت . وليس من مهرب من هذه الحقيقة المتناقضة ،رغم ان نظرة اكثر محافظة قد تقول ببساطة ان الحياة قد تعلمت كيف تستفيد من الموت للوصول الى اهدافها الخاصة . ولكن دلالات كلا القولين واحدة . ان الحياة ليست تحت رحمة الموت . انما هي في وضع السيطرة على الموت . فمنذ خمسمائة الف عام ، تعلمت الحياة سر التناسخ .

وكان الهدف من كل هذه المناورات هو اقامة راس جسر قوي وثابت في كون المادة . فالمخلوقات الفردية (المنفردة) تميل الى التجمد والاختناق حينما تكتشف لنفسها « عادة » مريحة تمارسها في ثقة كما تمارس الشعائر ،على نفس الصورة مرارا وتكرارا . والمخلوق الحديث السن يقاتل ويناضل ويتعلم ، اما المخلوق المتقدم في السن فيحيا في خمول وبلادة . وقد ابتكر الموت بهدف احلال مقاتلين وقادرين على التعلم محل البلداء الخاملين ، بهدف سحب الجنود العاجزين القدامى من خطوط القتال واستبدالهم بفصائل صدام جديدة قوية .

وكانت الخطوة التالية العظمى في هذه الحرب ــ او في عملية الاستعمار

هذه ــ هي ابتكار الوعي : وهذا يعني ابتكار مجموعة من الملكات منفصلة عن الدوافع الفريزية . وما هدفها؟ ان تلاحظ وان تسجل وان تحتفظ بالسجلات . فمن الممكن ان يوصف الوعي بانه قوة منظمة الشرطة السرية الخاصة بالحياة . ومثل اي شرطة سرية فيدولة شمولية ، فان هذه القوة هي خادم الحكومة ــ خادم عات وقوي ــ ولكنه خادم رغم كل شيء . وقد كان انوعي خطوة تطورية متأخرة لان الامر استلزم وقتا طويلا قبل ان تكون الحياة قادرة على توفير الطاقة اللازمة لمثل هذه التجربة .ان وظيفة الوعي هي الانتباه لكل شيء ، واستمرار المراقبة للحركات السطحية في عالم المادة . ولكن غالبية المعلومات التي يجمعها بهذا الشكل متكررة ولا نفع منها ، ولكن من حين الى حين ، تثمر يقظته التي لا تتوقف وتؤتي العائد المقابل لما يبذل فيها من طاقة ، فتتكامل وتترابط بعض الملاحظات العابرة العارضة لكي تتشكل منها اضافة جديدة من المعرفة .

ولكن للوعي ضرر واحد هائل : انه يقسم الحياة ضد نفسها . فحينما كانت الحياة قاصرة على المستويات الفريزية ، فان دوافعها كانت بسيطة : كان هدفها هو ان تزيد او توسع موطىء قدمها في عالم المادة . والوعي يهتم بالمشاكلالسطحية، فالبوليس السري لا يعرف شيئا عن الاهداف العليا للحكومة ، ولا عن سياساتها الاقتصادية والخارجية . ولا يشكل هذا خطرا كبيرا طالما ان الحكومة تتمتع بسيطرة كاملة . ولكن نجاح الوعي كان نجاحا استعراضيا ،لافتا للانظار وباهرا ، حتى ان الوعي نفسه تحول الى نوع من « الادارات الحكومية » المستقلة . وهذا هو الخطر . وقدتزايدالخطرتزايدا لا حد له في القرون الثلاثة الاخيرة . فقد حقق ابتكار الكتابة قوة دافعة كبيرة للتطور الانساني ، وغير من رؤية الانسان الى نفسه . وليس هناك دليل على ان ايزاكنيوتن كان اكثر ذكاء من موسى او كونفوشيوس ، ولكنه كان يمتلك وسائل اكثر قوة ورسوخا لتخزين معارفه واستخدامها . ونتيجة لقرون ثلاثة من العلم « النيوتوني » اصبح الانسان ملكا لقلعته الارضية . لم يعد ياخذ الحياة ولا الموت على علاتهما مثلما فعلاسلافه. وانما راح ينظر الى الكون مثلما ينظر السيد الى ممتلكاته الخاصة . ولكن « ليس » الوعي هو السيد ،انماهو الخادم . انه يفتقر الى القوة والىالدافع اللذين تتميز بهما قوى الحياةالفريزية . انه اذا ما ترك لنفسه فانه يميل الى ان يصبح سلبيا تتناهبه المخاوف والهموم ، غريبا عن عالم الفريزة وعن عالم المادة. انه سيد ضاع منه كل احساس بالسيادة .

ولقد تقدم التطور الانساني بسرعة بالغة ، واصبحت عملياته اكثر تعقيدا بكثير مما يحتاجه صالحه الخاص . ولكن هذه العمليات يمكن ان تبسط . ويستطيع الوعي ان يتحول الى الداخل ، الى فهم العمليات الحيوية والدوافع الكامنة وراء التطور .

أن عدو الحياة الرئيسي ليس هو الموت ، وانما النسيان ، الغباء . اننا نفقد اتجاهنا بسهولة كاملة . وهذه هي العقوبة العظمى ، الجزء الاكبر الذي كان على الحياة ان تدفعه مقابل نزولها الى عالم المادة : نوع من فقدان الذاكرة .

الا ان الخطوة التالية من مناقشتنا هذه ، هي الخطوة الحاسمة . فالكون مليء بكل انواع الطاقات . فالمادة طاقة ـ اكثر انواع الطاقة قدرة على المقاومة واشدها صلابة وقوة ، واذا كانت الحياة قد حققت رجة من النجاح في غزو المادة ، اليس من السخف والعبث ان نفترض انها لم تنجح باشكال من الطاقة اكثر طواعية ومرونة ؟

ها نحن نعود الى فكرة دافيد فوستر عن « الكون الذكي » ، ولكن ليس من الضروري الان ان نسأل : من الذي يقوم بصنع الرموز وتسجيلها ؟ اننا نعرف الاجابة . انها قوة الحياة نفسها ، التي كانت تقود حملتها من اجل استعمار المادة منذ بليون من السنين .

ويبرز كل هذا بشكل منطقي من الاعتراف بان الحياة ليست « تجليا » من تجليات المادة ، وانما هي قوة مناقضة للمادة . يقول « ليليث » (١) الذي ابدعه برناردشو : « لقد جئت بالحياة الى دوامة القوة ، وارغمت خصمي اللدود ، المادة، على ان تطيع روحا حية . ولكنني باسترقاق عدو الحياه ، جعلت من الروح الحية

---

(١) ليليث : في الاسطورة السامية القديمة ، وربما كانت بابلية الاصل ، يفترض انها جنية هائلة ، تطوف الليل والبراري الموحشة في موكب من العاصفة ، تلتهم الاطفال وتبقر بطون النساء الحوامل . اشارت اليها التوراة (شعيا ـ صح ٣٤) باسم : « البومة الصياحة » في ترجمة الملك جيمس ، وباسم « وحش الليل » في طبعة اوكسفورد الحديثة المصححة، ويشير اليها المحرر في الهامش بانها « ليليث » ، وتسميها الترجمة العربية: « النكازة » ، ويشرحها القاموس بانها نوع من اخبث الحيات ، لا يعرف راسه من ذنبه ولا يرى فمه حين يلدغ (ويلاحظ هنا الربط في الترجمة العربية بين ليليث وبين الحية ، ولاحظ علاقة الحية من قبل في « التكوين » باغواء حواء وسقوط آدم) ـ ذلك ان التلموديين يقولون بان ليليث نصف الملاك ونصف الشيطان والمراة الساحرة ، كانت في الاصل زوجة اولى لآدم ، قبل حواء ، وانها رفضت ان تعيش معه في الفردوس وهربت لتعيش في الفضاء وسط نيران الصاعقة والبرق، وما تزال تظهر في الليل . استخدمها جوته في فاوست ، واستخدمها روزيتي في « حامل القوس في جنة عدن » وقال ان ليليث استخدمت الحية وسيلة لانتقامها من آدم وزوجته الجديدة، لانها تزوجت الشيطان بعد فرارها من الفردوس (وهذه هي الحكاية العربية عنها ، وتقول الاسطورة العربية انها ام الجن الكافرين الذين انجبتهم من ابليس) . اما برناردشو فجعلها رمزا للعقم والوحدة في مسرحية : « في البداية » اولى المسرحيات الخمس في مجموعة « العودة الى ميتوشالح » ، وفي النهاية ، جعلها قادرة على الانجاب لكي تقهر الموت .) (هـ.م).

سيـــدا للحياة .. » . وقبل هذه السطور من مجموعة مسرحيات « العودة الـى ميتوشالح » يعبر « ليليث » عن الحدس القائل بأن الحياة قد توجد في مستويات من الطاقــة اكثر سمواً:« في قلب الارض المضغوط بقوة هائلـة ، حيث ما تـزال تتوهج حرارة الشمس التـي لا يمكـن تصورهـا ، تعيش الصخـــرة في تقلصات ذريـة قوية ، مثلمـا نعيش نحـن بطريقتنا الاكثر بطئا . وحينمـا تقذف الـــى السطح تموت ، مثلمـا تموت سمكـة من اسماك اعماق البحار اذا اخرجت الـى سطحه » . وقــد عبر الفريــد نورث هوايتهيد ــ وهو فيلسوف حيوي اخر عـن هذه الفكرة في قولـه ان الحيـاة تتخلل الكـون الذي ينشر بهـا ، مثلمـا يتخلل الماء قطعــة من الاسفنــج .

اما اعظم الاسرار التي لم تحل حتى الان ، فهو سر « الفردية » . فاذا كانت الحياة هي« وحدة» واحدة بشكل مـا ، فكيف تشعر كل من وحداتها المستقلة بانها منفصلة وفريدة متميزة الى هذا الحد ؟ وقد عبر تشسترتون عن هذا اللغز في الفصل الرائع الاخير من « الرجل الذي كـان يوم الخميس » بقوله : « لماذا يشن كل شيء على الارض حربا ضــد شيء اخر ؟ لماذا يكـون على كل شـيء صغير في العالـم ان يقاتل العالم كله ذاته ؟ لـماذا تقاتل ذبابة الكون كله ؟ » ولكـــن السؤال ليس « لـماذا ؟ » فقط ، انه « كيف ؟ » ايضا . ربمـا كانت هناك في العالـم ، مثلمـا يقـول سير اليستر هاردي ، مخلوقات تمتلـك « وعيا جماعيــا » . ربمـا كانت هناك انواع من البعوض الصغير ، تهوم في الهواء في كتل كالسحب وتشعر كل منها بوجود الاخريـات مثلمـا تشعـر بوجودها . ولكننـا لا نستطيع حتى أن نتصور هذا . ان جماعــة من مدخني « النرجيلة الجماعية » ممن يمارسون « التجمـــع والمشاركـة » انمـا يخادعـون انفسهم ، مثلمـا توهم الطفلة نفسهـا بان دميتها حية ترزق . ان الفردية الانسانية فردية مطلقة لا حد لها ، حتـى اننا لا نستطيع ان نتخيــل انفسنـا دونهـا باكثر ممـا يمكـن ان نتخيل ان حاصل جمع واحد وواحــد هو ثلاثـــة .

ان السؤال : « كيف ؟ » سؤال لا يمكـن الاجابة عليه ، ولا نستطيـع الا ان نزعم ان قوة الحيـاة قد بدات غزوهـا للمادة بان قسمت نفسها بشكل ما الــــى وحدات متعددة ، شعرت كل منها بانهـا « منفصلة » عن باقـي الكـون . ويجيب تشسترتون على السؤال :« لماذا ؟ » قائـلا : « حتى يحصل كل شيء يطبع القانـون على مجد الفوضوي وعزلته . وحتى يمكن لكل رجل يقاتل من اجل النظام ان يكون في مثل شجاعته وفضل من يدس اللغم في اساس النظام » . وهذا يعني ببساطة انه بدون الفردية ، لماتمكنت الحياة من ان تستجمع نفس القوة اليائسة العظيمة . ان انسان الحشد ، الذي هـو مجرد جزء من حشد كبير ، انسان ضعيف متخاذل ،

والناس الذين يحتاجون الى الناس‌هم اكثر الناس غباء في العالم . وهكذا يبدو التناقض الاساسي الكامن في‌الطبيعة الانسانية تناقضا موروثا ونظريا في‌قوة الحياة نفسها : فدون التحدي او الازمة ، تستسهل هذه القوة الامور ، وتنحط الى مستوى التوسط والعادية .وقد كان على كل ما في الارض من حياة ، حتى الان ، ان تنساق‌او ان تدفع الى الامام ، مثلما كان على العبيد قديما ان يضربوا بالسياط لكي يندفعوا الى القتال . انها لم تمتلك ابدا هدفا وضعيا ايجابيا ــ لم يكن لها سوى الهدف السلبي للبقاء على قيد الحياة وتجنب الالم . لقد قال ليوناردو : « الشر الم مادي يشعر به الجسد » واصلا بذلك الى لب المسألة . اماالسؤال اللاهوتي القديم : « لماذا الشر ؟ » فيجد الاجابة عليه في‌معرفة انه بدون الشر،ستقوم التفاهة والعادية والتوسط على مستوى الكون كله ، منتهية الى الموت . ولكن لم يحدث في اللحظة القائمة من التاريخ ان كف ذلك عن ان يكون صحيحا بشكل‌كامل. فعن طريق تطوير الفن والعلم والفلسفة ، حقق الانسان امكانية قيام : « هدف ايجابي ، هدف يستطيع ان يندفع نحوه الى الامام ، بدلا من ان يدفع من الخلف » . حقا ان الدين كان على الدوام تعبيرا عن هذا الهدف (ولكن الدين كان راضيا عن التناقض التالي : تأكيد وجوب انكار « العالم » بشكل ما من جانب « الروح » ،دون محاولة لفهم السبب في ضرورة هذا) . فاذاامكن اقامة الهدف الايجابي بوصفه القوة الانسانية الدافعة ، لكانت هذه نقطة تحول في تاريخ التطور ، لانه سيكون اكثر قوة ، اضعافا مضاعفة من الهدف السلبي لتجنب الالم. فان الانسان يستطيع ان يقوم باشياء بدافع الحب او الحماس يستحيل ان يقوم بها بدافع الخوف . ان مشكلته الاساسية في اللحظة الراهنة هي ان يفلت من ضيق الحياة اليومية وتفاهتها وان يدرك طبيعة هدفه النهائي ،وسيتطلب هذا بدوره تطوير ما دعاه بليك ب « الخيال » .

ويبدو ان كوننا قائم في الاساس على مبدأ الفردية ، حيث تصبح كل وحدة من وحدات الحياة مثل الواحة المنعزلة . وليس علينا الا ان ندرك ان الفردية‌المتميزة تتجاوز الجسد المادي وتسمو عليه ، وهذا يعني ان هذا الجسد ، مثله مثل الموت، هو « اداة » للحياة ، وليس نتيجة عارضة لها ، وهذا من اجل ان ندرك أن المنطق يقف‌في صف وجود نوع ما من « الحياة بعد الموت » بالاضافة الى التناسخ او التجسد من جديد ان كل هدف حملة الحياة ضد المادة هو ان تقيم الاستمرارية وتدعمها،ان تقهر « النسيان » وتتغلب عليه ، وهذا هو الهدف القائم امام الغريزة وذاكرة الجنس ومجموعة رموز « د.ن.م » . وهذه هي كل اشكال النجاة من الموت الجسدي، فاذا لم توجد اشكال اخرى ، فلا شك ان هذا، اذا اكتفينا باقل ما يمكن ان يقال ، هو اهدار غير عادي للفرص المتاحة .

لقد شعر ناثانايل هاوثورن بأن الخوارق التي قام بها هوم في مجال الوساطة والقدرة على التغلب على الجاذبية بالطفو الارادي ، هي اشياء تثير الاهتمام ، ولكنها لا مكان لها في الواقع . لماذا ؟ لانه كان فنانا ، والفنان يحب العالم الحسي . مثله في ذلك مثل البير كامو حينما كان يرقب الطيور الضخمة تحوم في سماء « جميلة » فيريد ان يشعر بثقل حياته يحط بقوة على كتفيه ، بينما يبدو الحديث عن وجود حياة بعد الموت وعدا زائفا . ان الفنان يرى بوضوح ان « الحل » لما تتميز به الحياة الانسانية من افتقار عجيب لاي هدف، ليس هو وجود حياة « اخرى » ، وانما يرى الحل في اللحظات العارضة من الكثافة والمدة والسيطرة المفعمة بالنشوة حينما يبدو هذا الكون مثيرا للاهتمام دون حدود ، وتبدو فكرة الحياة الابدية في مثل هذا الكون فكرة مترعةبالبهجة والفرح . ومن الممكن ان نجد هذه الفكرة في الفكر التصوفي الروسي — عند فيدوروف ودستويفسكي وروزانوف — من ان الحياة الابدية انما تعني الحياة « على هذه الارض » وليس في عالم اخر . ويؤمن « شهود يهوه » بقانون مشابه، رغم كل ما فيهذا من غرابة : يقول انه بعد يوم الدينونة ، ستتحول الارض نفسها الى فردوس ، وهذا هو ما يوضح السبب الذي ينزع من قلب الشاعر كل ثقة بالحياة الاخرى ، فهو اقل ميلا من غالبية البشر الى التقليل من قيمة هذه الحياة الاولى .

ان النظرية التي طرحتها هنا تحل التناقض . فالشاعر على حق في ان يكون غير واثق بشأن كل ما يتعلق بـ « عوالم اخرى » تاتي باعتبارها حلا لمشاكل هذا العالم . فاذا كان تفكيري صحيحا ، فليس المقصود من « العالم الاخر » ان يكون حلا . اننا نقف في خط القتال الامامي ، اما القائد فهو في مركز القيادة عند المؤخرة ، وليست « العوالم الاخرى » التي توجد بيننا وبين مركز القيادة سوى وحدات معاونة ومراكز تموين ،وليست مستوى من الوجود اكثر سموا . ربما كانت هناك حرية اكثر في تلك المستويات، وامكانية لرؤية اكثر اتساعا ، ووعي اكثر شمولا — ولكن ليس هناك سوى فرصة اقل للانجاز الفعلي . اما امكانية الانجاز الفعلي فتكمن هنا ، حيث نحن نعيش . اننا نرى « الاجابة » على لغز الوجود المادي في كل لحظات الحدة والكثافة العظيمة . لقد قال نيجنسكي :« ان الله نار تلتهب في الراس» ، فحينما يتاجج العقل كالنار المستعرة ، لا نعود بحاجة الى التساؤل عن السبب في حياتنا . والهدف هو السيطرة الكلية الشاملة . وستصبح الحياة وحدة حينما تقوم تلك السيطرة وتتحقق ، فلا يكون ثمة فرق ولا تمايز بين « عوالم اخرى » وبين هذا العالم . الا يوحي ما حدث فجاة في القرن التاسع عشر بكل هذا ؟ لقد كان القرن التاسع عشر هو عصر الرومانتيكية ، ولاول مرة في التاريخ كف الانسان عن التفكير في نفسه بوصفه حيوانا او عبدا ،

ورأى نفسه بوصفه «الها» محتملا ، او كما لو كان قارا على ان يكون الها ، وقد كانت كل صيحات التمرد ضد « الله » .من، دي ساد ، الى « مانفريد » بايرون،الى « قطاع الطرق » عند شيللر ، الى « فاوست » جوته ، الى عباقرة هوفمان المجانين ـ هي التعبيرات المختلفة عن هذه الروح الجديدة .. كانت هذه هي اللحظة المناسبة الصحيحة ، وكان الانسان يشرع في فهم نفسه .

انني لا اعتبر نفسي كاشفا لعالم الغموض والسحر ، لانني اكثر اهتماما بطرق وقواعد عمل الوعي اليومي العادي . وفي الماضي ، كانت ميزة الانسان الرئيسية هي« استعداده وميله للهزيمة » . وحتى عمالقة القرن التاسع عشر كانوا ميالين الى الاعتقاد بأن الجنون ملجأ صالح من تفاهة الواقع اليومي .ولكن الجواب انما يكمن في فهمطرق وقواعد عمل الوعي . فاذا ما تحقق فهمها لامكن توجيهها نحو تقبل المزيد من الحقيقة . وتتطلب هذه العملية التركيز والدقة ، وهما الفضيلتان المميزتان لصانع الساعات الماهر .

هكذا نعود الى ما اكدناه في الفصل الاول : يكمن مستقبل الانسان في غرس « الملكة س » ورعايتها .

فهرست

كتب للمؤلف

●

★ ضياع في سوهو	ترجمة شرورو ويمق
★ المعقول واللامعقول في الادب الحديث	« انيس زكي حسن
★ أصول الدافع الجنسي	« شرورو وكتاب
★ اللامنتمي	« انيس زكي حسن
★ ما بعد اللامنتمي	« شرورو وكتاب
★ القفص الزجاجي	« سامي خشبة
★ طقوس في الظلام	« فاروق محمد يوسف
★ سقوط الحضارة	« انيس زكي حسن
★ رحلة نحو البداية	« سامي خشبة
★ الشعر والصوفية	« عمر الديراوي
★ الحـــالم	« سامي خشبة
★ إلـه المتاهة	« سامي خشبه

الثمن : ١٨ ل . ل . او ما يعادلها